

خروثوف یتذکر

facebook.com/musabaqat.wamaarifa

مقدمه و تعلیق و ملاحظات
ادوار کرانشکو



أبو عبیدہ البغل

دار النہار للنشر

خروشوف يثذكّر

مقدمة وتعليق وملاحظات
ارواركرانسكو

حاد النصارى للنشر
بيروت، لبنان

نقله عن الاصل الروسي وجمعه وحرره بالانكليزية

ستروب تالبوت

نقل عن الانكليزية

COPYRIGHT BY LITTLE, BROWN AND COMPANY (INC.)

جميع الحقوق محفوظة

دار النهار للنشر ش.م.ل.

بيروت ١٩٧١

المحتويات

١٣	المقدمة
٢٧	ملاحظات المحرر
٣١	تمهيد
	القسم الاول : من مناجم الفحم الى الكرملين
٣٩	١ - السنوات الأولى
٣٩	سنوات الصعوبات
٤٥	صعود الدرجات الأولى في سلم الحزب
٥٩	٢ - العمل الحزبي في موسكو
٥٩	من الاكاديمية الصناعية إلى المكتب السياسي
٧٤	اب المدينة
٨٦	٣ - الارهاب
٨٦	تشريك الارض
٩٠	سنوات التطهير
١٠٥	بيريا يرتفع إلى سدة السلطان
١١٧	٤ - العودة إلى اوكرانيا
١١٧	الجسم الحزبي يعود إلى الالتئام
١٢٧	الاكاديمي باتون
١٣١	البحث عن المتاعب في صناعة دواليب المطاط

١٣٦	٥ - مقدمة إلى الحرب
١٣٦	العلاقات السوفياتية - الألمانية
١٤٦	التقدم إلى داخل بولونيا
١٥٤	ضم أوكرانيا الغربية
١٦١	حرب الشتاء مع فنلندا
١٦٨	الجيش الأحمر عشية برباروسا
١٧٧	٦ - الحرب الوطنية الكبرى
١٧٧	أشد الساعات حلكاً
١٩٢	كارثة خاركوف
١٩٩	ستالينغراد
٢١٠	الجنرال مالينوفسكي
٢١٤	زيارة من الرفيق أولبرخت
٢١٧	كورسك
٢٢٠	النصر
٢٢٦	ستالين والحلفاء
٢٣٥	٧ - مجاعة في أوكرانيا
٢٥٢	٨ - سنوات ستالين الأخيرة
٢٥٢	قضية ليتفegrad
٢٦٣	عداوة ستالين للسامية
٢٧٣	مؤلفات ستالين النظرية
٢٧٩	المؤتمر الحزبي التاسع عشر
٢٨٥	مؤامرة الاطباء
٢٩١	سفتلانا
٢٩٨	المآدب والترهات مع ستالين
٣٠٨	الخوف والمكائد في دائرة ستالين الداخلية
٣١٦	موت ستالين
٣٢١	٩ - الخلافة
٣٢١	التآمر على اسقاط بيريا
٣٣٩	مؤتمر الحزب العشرون

القسم الثاني : العالم الخارجي

- ٣٥٣ ١٠ - البلدان الشقيقة
- ٣٦٢ ١١ - الحرب الكورية
- ٣٦٨ ١٢ - حسم النزاع مع تبتو
- ٣٨٥ ١٣ - مؤتمر القمة في جنيف
- ٣٩٣ ١٤ - زيارة لندن
- ٤٠٨ ١٥ - اعادة النظام في المجر
- ٤٢٢ ١٦ - عبد الناصر والسويس وسد اسوان
- ٤٤٣ ١٧ - ازمة برلين
- ٤٥٢ ١٨ - ماوتسي تونغ والانشقاق
- ٤٦٨ ١٩ - هوشي منه وحرب فيتنام
- ٤٧٦ ٢٠ - فيدل كاسترو وازمة الكاربيبي
- ٤٩٠ ٢١ - دفاعاً عن الفردوس الاشتراكي

الملاحق

- ٥٠٧ ١ - التتابع التاريخي لسيرة خروشوف
- ٥١٣ ٢ - المؤسسات والمصطلحات السوفياتية
- ٥١٧ ٣ - زملاء خروشوف في الكرملين
- ٥٢٧ ٤ - خطبة خروشوف السرية في المؤتمر العشرين

هذا الكتاب يتألف من مواد تنبع من مصادر مختلفة ، وفي أوقات وظروف مختلفة . ان الناشر مقتنع اقتناعاً لا يرقى اليه شك بصحتها، وقد بذل جهداً للتثبت من ذلك. ان هذا سجل حقيقي لكلمات نيكيتا خروشوف . أمّا اذا كان المؤلف قد شاء او توقع أن تدفع كلماته إلى النشر أم لا ، سواء في بلاده أم في الغرب ، فأمر يخضع للتكهن والتقدير . ان الناشر يتحمل المسؤولية كاملة عن الطريقة التي قدم فيها نيكيتا خروشوف في هذه الذكريات . وبالإضافة ، فإنه يفعل ذلك انطلاقاً من ان اصالة هذه الذكريات وأهميتها تشهدان على قيمتها .

المقدمة

كانت المخاطرة الأولى التي راودتني عندما أخبرت بوجود ذكريات نيكيتا خروشوف انه سيثبت ، لا محالة ، كونها مزيفة . ذلك ان وثائق كثيرة سبق تلفيقها في الغرب لاهداف سياسية او تجارية .

ولكنني لم امض في قراءتها طويلاً حتى أحسست بما لا يقبل الريب بانني ازاء ذكريات خروشوف الحقيقية ، وما ان أتيت على آخرها حتى تحول احساسي ذلك الى يقين راسخ . هوذا صوت خروشوف ذاته ، لا لبس فيه . وهو اذ يتحدث من عالم النسيان البعيد ، يبدو نابضاً بالحياة ، قوياً . ولم يكن ليخامر الذين استمعوا اليه ، وهو في اوجه ، او قرأوا خطبه بالروسية ، ادنى شك في صدق النبوة . انني قرأت كل كلمة نشرت لخروشوف منذ اواخر العشرينات ، وفي عدد من المناسبات التقية وجهاً لوجه ، واستمعت اليه في احاديثه الخاصة والعامة داخل الاتحاد السوفياتي وخارجه . ذلك انني ندبت نفسي بصورة مستديمة لمهمة درس شخصيته ، وتقصي دوافعه ، والتعمق في طباعه وخصاله على مدى خمسة عشر عاماً ، اي منذ استدعاه ستالين من كييف في شتاء ١٩٤٩ ، حتى افول نجمه في ١٩٦٤ .

وانني واثق ، على قدر امكان المرء في الثقة بشيء لا يمكنه اثباته علمياً ، ان الرجل الذي يتحدث عبر هذا الصفحات هو عينه الذي عرفته في جميع نواحي حياته العامة ، وفي المساعي الخفية التي بذلها (والتي مع الاسف ، ستظل خفية بالنسبة الى هذه الذكريات) في صراع الاستيلاء على السلطة والمحافظة عليها .

وهو الان ، اذ تتقدم به السنون ، ويرهقه المرض وينال منه التعب ، ويفتقد حيويته التي لم تعد كما سبق عهدها ، يبدو ، ربما بسبب ذلك كله ، أكثر بوحاً بمكنوناته .

وهكذا ، فان بين ايدينا الان سفرأ تاريخياً لسيرة شخصية فريدة وغير عادية . وهذه السيرة برغم محدوديتها ، وبالرغم مما يشوبها من تهرّب وتستر على خطايا وخداع وحذف (منه ما حصل عمداً ، ومنه كما هو واضح ، قد سقط سهواً بسبب ضعف الذاكرة وتقدم السن) الا انها تبقى الأثر الأول من نوعه يصدر عن زعيم

سياسي سوفياتي من الحقبة الستالينية وما بعدها . انه ينقلنا مباشرة الى ما كان ، من قبل ، ارضاً حراماً على العقل .

ان ما يستأثر باهتمامي في هذه الذكريات ويعطيها ، في نظري ، قيمتها الكبرى هو هذا البوح غير الواعي بالموقف الضمني : الافتراضات والجهل والاراء المشوهة والتي لا بد انها متقاسمة ، بنسب متفاوتة بين جميع اولئك القادة السوفيات الذين بلغوا النضج في ظل ستالين ، واهلتهم لنيل خطوة لديه قدرتهم المذهلة على الجمع بين القسوة المطلقة والطاعة التي تكاد تكون كاملة .

ولكن كيف اتفق وجمعت هذه الوثيقة الممتازة ، ولماذا ؟ هنا عليّ ان ابادر فوراً الى القول أنني لا ادري . لقد استند قراري الشخصي بتبني صحتها على دليل وحيد هو النسخة الروسية المطبوعة على الالة الكاتبة دون اي شيء اخر . وهذه حالة ، تبدو ، لأول وهلة ، غير كافية على الاطلاق الاّ انها ليست مستهجنة عندي (رغم غرابتها الوافية) كما قد تكون بالنسبة للذين يعملون في مجتمعات منفتحة او يتعاطون معها اذ تعوز هؤلاء خبرة العمل في جو من المنوعات والاجراءات التأمرية التي تحيط بمعظم النشاطات البشرية البديهة في الاتحاد السوفياتي .

وغالباّ ما كنت في الماضي اجد نفسي مضطراً الى قصر اعتمادي على تقديري وتجربتي الشخصيتين في تقرير صدق او بطلان هذه الوثيقة المكتوبة بالروسية او تلك . كما ان العكس قد حدث لي ، اذ دفعت في مناسبات عديدة ، وثائق معينة الى النشر كنت اعرف مصادرها الاّ انني تعهدت بعدم كشفها لاي شخص آخر . من هنا انني لم افاجأ او اصدم عندما اكتشفت ان اياً من الاسئلة التي خطرت لي حول هذه الذكريات ستبقى دون جواب .

الا ان سؤالاّ واحداً بقي متصباً امامي : انرى هؤلاء المسؤولين عن نقل هذه المادة الى الغرب ، يستغلونها في حرب سياسية ؟ وبصورة خاصة ، هل هي سلاحهم لتدمير مؤلفها نهائياً ؟ وهنا ايضاً ، تبادر اليّ للوهلة الاولى ، ان ثمة جناحاً في الكرملين او حوله ، يهيمه تعريض خروشوف نفسه للشبهة او التعريض بافراد او جماعة في القيادة السوفياتية الحالية . الا ان قراءة مدققة لهذه الذكريات بمجموعها كانت كافية لدحض مثل هذه الفكرة .

ان هذه الصفحات لا تبرز خروشوف على احسن حال . لكنه ايضاً ، وبالمقاييس الحكومية السوفياتية ، لا يخرج منها بشكل مبيء اطلاقاً : فيها الكثير من التبرير الذاتي . اما الاعترافات المضرّة فعلاً ، فهي التي صدرت منه عن غير وعي ، فضلاً عما تم اغفاله او تحوشي قوله .

الا ان الاهم من هذا كله ، ان ليس في هذه الذكريات هجوم مباشر على أحد

من العاملين الآن او الذين يحتلون مناصب في الاتحاد السوفياتي . ان الهدف الرئيسي للانتقاد هو ستالين نفسه ، ومن ثم يبريا ويلييه في المرتبة الثالثة ، كاغانوفيتش ومالكوف . وجميع هؤلاء اما طواهم الموت او تقاعدوا .

بامكان المرء الافتراض ان الغرض الرئيسي الذي دفع الشخص او الاشخاص المسؤولين الى كشف هذه الذكريات في الغرب - ويبدو بالتأكيد ان هذا من الاغراض الرئيسية - كان مواجهة المحاولات الراهنة لرد الاعتبار الى ستالين .

اما الكتاب نفسه فسجل منقطع سيحتل على افكار وذكريات أحسن انتقاءها رجل عجوز يحاول تبرير ذاته . وقد حول السيد تالوت هذا السجل الحافل احيانا بالتناقض وعدم الدقة والتكرار والفجوات ، الى سرد متسلسل منظم .

ولا بد في هذا المجال من كلمة حول المواضيع التي يتناولها الكتاب وتلك التي لا يتناولها - ثمة فئتان بالطبع من القراء : القارئ العادي الذي سمع الكثير وقرأ القليل عن روسيا في ظل ستالين وعن خروشوف ، لكن الفرصة لم تسنح له كي يتعمق في ذلك . والقارئ الاختصاصي الذي يعرف القصة كلها ، والذي سيبحث في هذه الصفحات عن تأكيد ، او تصحيح ، وقبل كل شيء ، عن اسباب حول ما يعرفه سلفاً .

ان الكثير من الاحداث في هذا السرد ، وربما الثبرة العامة فيه ، تتسم ، بالنسبة للقارئ العادي ، على ما أعتقد ، بطابع المفاجأة . ولهذا القارئ بالذات كتبت مقدمة صغيرة لكل فصل من فصول الكتاب واضفت ملاحظات ، مشيراً الى ما أغفل ، ومصححاً الاقادات او التلميحات الخاطئة ، معترفاً باصحاب الاسماء الواردة ، ومحاولاً بصورة عامة وضع الأمور في نصابها .

اما القارئ المختص ، فلا تواجهه في هذا السرد مفاجآت كبرى . انه يعرف القصة كلها ، وهو ليس بحاجة الي ولا لاي كان : لتوضيح الامور الواردة في الذكريات والتعليق عليها نقطة فنقطة . غير انه سيجد تأكيداً قيماً لعدد من الحقائق سبق الاشتباه بها او التوصل اليها بالاستقراء ، فضلاً عن تفاصيل جديدة لا تخصي وصوراً حية من حياة خروشوف ستضيء صورته الراهنة . وقبل هذا كله ، فسيلقي محاولة لاعادة رسم الجو والمزاج اللذين سيطرا على بلاط ستالين . اما صورة ستالين نفسه في هذا السرد ، فتؤكد وتوسع اطار الصورة التي اعطانا اياها اول الأمر ميلوفان دجيلاس في كتابه الرائع «محادثاتي مع ستالين» ثم في كتاب سفيتلانا اللبليف «عشرون رسالة الى صديق» . وهي صورة مختلفة كثيراً عن الصورة التقليدية التي سيطرت على المسرح السياسي قرابة ٣٠ عاماً ، اي منذ قبض ستالين على زمام السلطة الى مرور سنوات قليلة من وفاته ، والتي كان يصعب ان تفيدنا في

التعرف الى حقيقة الرجل .

ويضيء خروشوف في هذا الكتاب ذاته ايضاً . وهو يمكّتنا من تعقّب تطوره كإنسان وكزعيم للحزب ، منذ اوائل ايامه حتى وفاة ستالين . وهو يكشف امامنا الكثير من بواطن تفكيره ونشاطه كرجل دولة عالمي ، منذ ١٩٥٥ ، عندما بدأ يمارس السلطة العليا الى حين سقوطه في ١٩٦٤ . على ان ما يبقى غائباً عن الصورة هو ايّ ذكر لقصة الصراع على السلطة داخل الكرملين الذي انتهى بانتصاره ثم هزيمته .

في الكتاب رواية توقف شعر الرأس عن اعتقال بيريا بعد ثلاثة اشهر من وفاة ستالين . لكن بعد ذلك وباستثناء رواية شخصية جداً عن المؤتمر العشرين للحزب وباستثناء بذور من الخطبة السرية التي هاجم فيها ستالين في اوائل ١٩٥٦ ، فانه لا يطلعنا على شيء من عناصر المشهد الداخلي خلال الحقبة الخروشوفية : لا النزاعات الكبرى حول المناهج والسياسات الخاصة بالزراعة والصناعة وهيكل الحكومة ، ولا لعبة السلطة التي كان خروشوف ضالماً فيها بعمق ، كما كان ماهراً بها .

ومن الضروري توضيح هذا الأمر ، منذ البداية . ان القارئ العادي الذي لا يشده اي اهتمام خاص لتفاصيل المناورات التي جرت على المستويات العليا في الحزب الشيوعي السوفياتي ، نادراً ما يهزه هذا الفراغ . اما القارئ الاختصاصي ، فليس له الاّ ان يأمل ان هذا الفراغ سيملأ في يوم من الايام ، ولو جزئياً .

وفي الوقت نفسه علينا الافادة مما لدينا ، وهو ليس بالقليل . وهذا السرد يقوم على امرين رئيسيين اولاً : التقديم الذاتي لرجل عادي ارتفع من وسط قروي متواضع حتى أصبح سيداً على احدى أكبر دولتين في العالم ، وثانياً تعرية ستالين بصورة تدعم ما ورد عنه في الخطبة السرية والتوسع فيها . ويبدو خروشوف قلقاً جداً من المحاولات التي جرت في السنوات القليلة الماضية لرد الاعتبار الى ستالين . وهو يبذل جهده لكي يجعل رد الاعتبار في منتهى الصعوبة . وليس لدى خروشوف الاّ القليل يضيفه الى ما باح به في خطبته السرية عن جرائم ستالين الفعلية . وهو في تلك الخطبة قد ذهب في نواح معينة الى أقصى حدّ من التفصيل . لكن لا يغيب عن بالنا ان الخطبة السرية لم تنشر داخل الاتحاد السوفياتي وانما وزعت على سكرتيري الحزب في كل انحاء البلاد فقط ، وقرئت بصوت عالٍ ، مجترأة او بكاملها ، في ندوات عقدت للقواعد الحزبية .

فلم يكن لهؤلاء الذين استمعوا اليها الا ان يحفظوا منها ما وسعت ذاكرتهم . لكن أبناء الشعب السوفياتي لم يتح لهم ان يقرأوها لانفسهم . ثم ان رواية خروشوف عن كيف قرّر القاء خطبته الشهيرة فانها ، رغم ما يكتنفها من شكوك ، تمثل في

الواقع اول إقرار علي بان الخطبة القيت فعلاً .

وفي ضوء هذه المعطيات كلّها ، من الطبيعي ان توفر هذه الذكريات ، كما خطر للاذهان منذ الوهلة الاولى ، حقائق يعرفها العالم الخارجي منذ مدة طويلة . وان الغرب ، كما هو الأمر بالنسبة الى عدد من القضايا وعلى مدى سنوات عدّة ، لم يزل أكثر اطلاعاً على تفاصيل جرائم ستالين من الروس انفسهم . لكن التوكيد هنا على جرائم ستالين ، رغم توفره بصدد بعضها ، اقل من التوكيد على مواقفه العامة وسلوكه حلقته الخاصة ، وعلى علاقته بمعاونيه المباشرين وعلاقة هؤلاء به .

وفي هذه الناحية بالذات يجد خروشوف نفسه إزاء مآزق . اذ انه في ادانته لستالين انما يدين نفسه . وفي الخطبة السريّة اصاب بعض النجاح في تفادي الاصطدام بهذه المشكلة ، لأنه لم يكن يعرض فيها سيرة حياته ، وانما ينتهي ما يفضح افراط ستالين في عدد من الحقول . ولكنه في هذا السرد الشخصي يرى نفسه مضطراً بالفعل الى السير على الجليد . فهو رغم تدبّره أمر طمس دوره الخاص في الارهاب الذي ساد ذلك الزمان (على سبيل المثال تأييده العلني لستالين في ذروة اعمال التطهير وفي المحاكمات بتهمة الحياة في ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ، واعمال التطهير التي قام بها هو نفسه في اوكرانيا في ١٩٣٨) ، فان ما يقوله كاف في الواقع لأن يشكل أكثر الاعترافات ادانة لنفسه اذ يؤكد تواطؤه مع ستالين على مدى حقبة طويلة من اشد الايام سوءاً .

وهو يعرف ذلك بوضوح ، رغم انه ، وهو يستعيد في هدوء مضطرب وحشية الماضي وآثامه ، يبدو غير واع حتى الان ، والى حد بعيد ، عمق الفساد الذي تردى فيه هو وجميع رفاقه ، بمجرد استمرارهم في مناصب السلطة في ظل ستالين . ان خروشوف بادانته ستالين في الخطبة السريّة ، وبالتالي ادانته نفسه ضمناً ، كان يدين ايضاً نظام الحكم كلّهُ الذي جعل من الممكن قيام ستالين . وقد خلت الخطبة السرية ، بالطبع ، من ادنى تلميح الى أن ستالين هو الذي انحرف بالنظام مند اواسط الثلاثينات .

وانّ اي شيوعي أجنبي ، والامين العام للحزب الايطالي الشيوعي تولياني هو ابرز هؤلاء ، لم يجد اذنأ صاغية عند اقتراحه وجوب اعادة النظر الجذريّة في النظام الذي اتاح لستالين التصرف كما فعل . وهو أمر يبدو مفهوماً ، اذ ان خروشوف قد ورث النظام من ستالين وحوّله الى نظامه ، دون ان يستطيع تخيّل نظام آخر . غير انه يذكر الان وهو في شيخوخته لمعات هنا وهناك توحى بانه تردّد كثيراً في عدد من الأمور .

التعرف الى حقيقة الرجل .

ويضيء خروشوف في هذا الكتاب ذاته ايضاً . وهو يمكّتنا من تعقب تطوره كإنسان وكزعيم للحزب ، منذ اوائل ايامه حتى وفاة ستالين . وهو يكشف امامنا الكثير من بواطن تفكيره ونشاطه كرجل دولة عالمي ، منذ ١٩٥٥ ، عندما بدأ يمارس السلطة العليا الى حين سقوطه في ١٩٦٤ . على ان ما يبقى غائباً عن الصورة هو ايّ ذكر لقصة الصراع على السلطة داخل الكرملين الذي انتهى بانتصاره ثم هزيمته .

في الكتاب رواية توقف شعر الرأس عن اعتقال بيريا بعد ثلاثة اشهر من وفاة ستالين . لكن بعد ذلك وباستثناء رواية شخصية جداً عن المؤتمر العشرين للحزب وباستثناء بنور من الخطبة السرية التي هاجم فيها ستالين في اوائل ١٩٥٦ ، فانه لا يطلعنا على شيء من عناصر المشهد الداخلي خلال الحقبة الخروشوفية : لا النزاعات الكبرى حول المناهج والسياسات الخاصة بالزراعة والصناعة وهيكل الحكومة ، ولا لعبة السلطة التي كان خروشوف ضالماً فيها بعمق ، كما كان ماهراً بها .

ومن الضروري توضيح هذا الأمر ، منذ البداية . ان القارئ العادي الذي لا يشده اي اهتمام خاص لتفاصيل المناورات التي جرت على المستويات العليا في الحزب الشيوعي السوفياتي ، نادراً ما يهزه هذا الفراغ . اما القارئ الاختصاصي ، فليس له الا ان يأمل ان هذا الفراغ سيملأ في يوم من الايام ، ولو جزئياً .

وفي الوقت نفسه علينا الافادة مما لدينا ، وهو ليس بالقليل . وهذا السرد يقوم على امرين رئيسيين اولاً : التقديم الذاتي لرجل عادي ارتفع من وسط قروي متواضع حتى أصبح سيداً على احدى أكبر دولتين في العالم ، وثانياً تعرية ستالين بصورة تدعم ما ورد عنه في الخطبة السرية والتوسع فيها . ويبدو خروشوف قلقاً جداً من المحاولات التي جرت في السنوات القليلة الماضية لرد الاعتبار الى ستالين . وهو يبذل جهده لكي يجعل رد الاعتبار في منتهى الصعوبة . وليس لدى خروشوف الا القليل يضيفه الى ما باح به في خطبته السرية عن جرائم ستالين الفعلية . وهو في تلك الخطبة قد ذهب في نواح معتبة الى أقصى حد من التفصيل . لكن لا يغيب عن بالنا ان الخطبة السرية لم تنشر داخل الاتحاد السوفياتي وانما وزعت على سكرتيري الحزب في كل انحاء البلاد فقط ، وقرئت بصوت عالٍ ، بحماسة او بكاملها ، في ندوات عقدت للقواعد الحزبية .

فلم يكن لهؤلاء الذين استمعوا اليها الا ان يحفظوا منها ما وسعت ذاكرتهم . لكن ابناء الشعب السوفياتي لم يتح لهم ان يقرأوها لانفسهم . ثم ان رواية خروشوف عن كيف قرر القاء خطبته الشهيرة فانها ، رغم ما يكتنفها من شكوك ، تمثل في

الواقع اول إقرار علي بان الخطبة القيت فعلاً .

وفي ضوء هذه المعطيات كلها ، من الطبيعي ان توفر هذه الذكريات ، كما خطر للاذهان منذ الوهلة الاولى ، حقائق يعرفها العالم الخارجي منذ مدة طويلة . وان الغرب ، كما هو الأمر بالنسبة الى عدد من القضايا وعلى مدى سنوات عدّة ، لم يزل أكثر اطلاعاً على تفاصيل جرائم ستالين من الروس انفسهم . لكن التوكيد هنا على جرائم ستالين ، رغم توفره بصدد بعضها ، اقل من التوكيد على مواقفه العامة وسلوكه حلقته الخاصة ، وعلى علاقته بمعاونيه المباشرين وعلاقة هؤلاء به .

وفي هذه الناحية بالذات يجد خروشوف نفسه إزاء مآزق . اذ انه في ادانته لستالين انما يدين نفسه . وفي الخطبة السريّة اصاب بعض النجاح في تفادي الاصطدام بهذه المشكلة ، لأنه لم يكن يعرض فيها سيرة حياته ، وانما ينتقي ما يفضح افراط ستالين في عدد من الحقول . ولكنه في هذا السرد الشخصي يرى نفسه مضطراً بالفعل الى السير على الجليد . فهو رغم تدبره أمر طمس دوره الخاص في الارهاب الذي ساد ذاك الزمان (على سبيل المثال تأييده العلني لستالين في ذروة اعمال التطهير وفي المحاكمات بتهمة الحياة في ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ، واعمال التطهير التي قام بها هو نفسه في اوكرانيا في ١٩٣٨) ، فان ما يقوله كاف في الواقع لأن يشكل أكثر الاعترافات ادانة لنفسه اذ يؤكد تواطؤه مع ستالين على مدى حقبة طويلة من اشد الايام سوءاً .

وهو يعرف ذلك بوضوح ، رغم انه ، وهو يستعيد في هدوء مضطرب وحمية الماضي وآثامه ، يبدو غير واع حتى الان ، والى حد بعيد ، عمق الفساد الذي تردى فيه هو وجميع رفاقه ، بمجرد استمرارهم في مناصب السلطة في ظل ستالين . ان خروشوف بادانته ستالين في الخطبة السريّة ، وبالتالي ادانته نفسه ضمناً ، كان يدين ايضاً نظام الحكم كله الذي جعل من الممكن قيام ستالين . وقد خلت الخطبة السرية ، بالطبع ، من ادنى تلميح الى أن ستالين هو الذي انحرف بالنظام مند اواسط الثلاثينات .

وانّ اي شيوعي أجنبي ، والامين العام للحزب الايطالي الشيوعي تولياني هو ابرز هؤلاء ، لم يجد اذنأ صاغية عند اقتراحه وجوب اعادة النظر الجذريّة في النظام الذي اتاح لستالين التصرف كما فعل . وهو أمر يبدو مفهوماً ، اذ ان خروشوف قد ورث النظام من ستالين وحوّله الى نظامه ، دون ان يستطيع تخيل نظام آخر . غير انه يذكر الان وهو في شيخوخته لمعات هنا وهناك توحى بانه تردّد كثيراً في عدد من الأمور .

ولعل أكثر المعالم إثارة للاهتمام ، في هذا المجال ، الفصل القصير عن انشاء التعاونيات الزراعية وما ورد فيه من ان «نمط تعاونيات ستالين لم تعد علينا الا بالبؤس» . وهو يتحدث بذلك عن الكارثة التي ادت الى موت الملايين ، وخفضت الانتاج الزراعي في الاتحاد السوفياتي الى النصف ، واسهمت أكثر مما اسهم اي عامل منفرد آخر في اخضاع الشعب السوفياتي الى ضرب من ضروب العبودية ، وفي التسبب باختلال في التوازن الاقتصادي لا يزال يهدد القيادة حتى الان .

ولو كان خروشوف قادراً على الادلاء بهذا الاعتراف وهو بعد في السلطة ، لكانت السماء وحدها تعرف الى ما يمكن ان يؤدي ذلك . وفي هذا السرد ايضاً ملاحظات أخرى ، هنا وهناك ، لا يقل ما تضمنه تفجراً عن غيره .

واود أن اقول هنا انني لم أر من المرغوب فيه دحض كل الادعاءات والافادات والذرائع التي اعارضها . ان وجهات نظري الخاصة في خروشوف وانجازاته واخفاقاته مسجلة كلها . اما هنا ، فانه يتحدث باسمه . واني لم افعل ، في التعليق الخاص (ضمن الكتاب) سوى الاشارة الى ما اغفل في سرده ، والى التناقضات بين الحقائق كما يقدمها هو ، وبين هذه الحقائق كما هي مقبولة بصورة عامة في الغرب . ثم انه ليس هنا المكان الصالح لاعادة كتابة حياة خروشوف السياسية بالتفصيل . وفي امكان القارئ ان يجد سجلاً للأحداث الرئيسية ، ومعظمها لا يتطرق اليه هو على الاطلاق ، في الفهرس رقم ١ (من الكتاب) . وقد وضعنا في مقدمة كل فصل ايضاحاً او توضيحاً لما يتبع ، واشارة الى ما تجاوزه خروشوف بصمت . وتستأنف عملية التوضيح هذه بمزيد من التفصيل في الحواشي التي اشتملت كذلك على تسمية الاشخاص الرئيسيين المشار اليهم ، باستثناء قلة من المعروفين دولياً . وفي الفهرس رقم ٣ قدم السيد تالبوت سير حياة أشمل لابرز زملاء خروشوف ممن لا يزالون على قيد الحياة . ونستطيع القول بصورة عامة ان خروشوف لا يعدل تجاه نفسه في هذا السرد . الا انه من ناحية أخرى ، اذ يغفل جزءاً كبيراً من ماضيه ليقدم صعوده السريع في ظل ستالين باضواء وردية ، يضيف على نفسه ما يتخطى حدود الانصاف . على ان ما لا يفعله ، او ربما ما لا يستطيع فعله ، هو تقديم السبب الرئيسي لتحوّله المذهل من أحد أكثر المقربين الى ستالين الى تلك الشخصية الدولية التي أخذت ، رغم مزاجها واحكامها المسبقة ، تظهر في اواخر عملها السياسي دلائل حكمة من نوع متفوق .

لقد بقي ، بالطبع ، اسير ماضيه حتى النهاية . وفي بعض المجالات تجاوز النظام الذي صنعه والذي ساعد هو في صنعه . لكنه لم يستطع الفرار كلياً من هذا النظام الذي عاد قدمته في النهاية .

ومع هذا فان الانجازات التي حققها كانت استثنائية ، والمزايا التي بدأ باظهارها قبيل نهاية عمله السياسي لم تُصَف اليه فجأة : لا بد أنها كانت كامنة ، طول الوقت في نفسه ، وذلك عندما كان ، كبحترف حزبي طموح ، يبدو حسب كل المظاهر متعلقاً تجاه سيده مستأسداً على من هم دونه ، مناوئاً حول منافسيه بمكر قروي متأصل . لقد كان آنذاك ببساطة ، سفاهاً بين السفاحين ، متميزاً عن سواء فقط بنوع من حيوية المخيلة ودفع الشعور ، واعتماد ثابت على النفس ، وفي بعض الاحيان ، بتهور المقامرين . ومن المفارقات ان يكون لدى شخص مشدود الى الستالينية الى هذا الحد ، نوع من التفرد عنها منذ ايامه الاولى . وقد اختلط بالآخرين من كل الانواع أكثر مما فعل اي زعيم سوفياتي قبله او بعده . وخلافاً لاي موظف حزبي اعرفه (او حتى مدير مصنع سوفياتي او مزرعة جماعية) لم يكن يخشى ان يتلطح حذاؤه بالوحل . وكان منذ ايامه الاولى أكثر ما يكون سعيداً بتنفيذ القوانين وابلاغ الناس ما عليهم فعله او الامتناع عن فعله واين هم على خطأ . وحتى في ذروة مجده كان يقف وسط حقل موحل ، شارحاً لمجموعة من الفلاحين المشككين ، الطريقة المثلى لزرع البطاطا .

لكنه كان ايضاً من كبار المستمعين الذين يتمتعون بفضيلة الاصغاء المستوعب بدقة للامور . وظل حتى نهاية عمله السياسي يتعلم مما يسمع بسرعة فائقة . رأيت ذات مرة بصفي الى مجموعة من مديري المصانع وقد استحوذ عليه صمت وجمود كليان ، حتى خيل اليّ انه يحاول ان يسحب الطاقة منهم ليخزنها في نفسه ويحولها الى طاقة خاصة به . ورأيت ، وبصورة خاصة في رحلاته الاولى خارج الاتحاد السوفياتي ، يرتكب الخطأ تلو الخطأ في تتابع سريع - لكنه لم يرتكب الخطأ نفسه مرتين . وفي كل الحالات عندما لم يكن هو نفسه يبدي رأياً ، كان احياناً بفضافة واحياناً بطيبة ابوية ، يستشهد باقوال الكتاب المقدس التي يبدو ان شعلتها كانت لم تزل متوهجة في اعماقه منذ طفولته ، فلتسمع في عينيه الصغيرتين الغاضبتين تلك النظرة التي توحي ان ثمة رؤى تجول في عينيه . وكان ، بالتأكيد ، يشاهد رؤى . ومن أكثر الجوانب اثاراً للارتباك في هذه السيرة - سيرة رجل سعى الى السلطة لأن اغراءها لا يقاوم ، لكنه حلم ايضاً بعالم افضل للشعب السوفياتي - هو قبوله غير المتردد ، ظاهرياً على الاقل ، ببعض أحقر الفاسدين .

ان اسماء هؤلاء تتردد باستمرار في هذه الصفحات . ويبدو انه كان له ردّ لرئيس الشرطة ياغودا ويزهوف الكريه الذي تعافه النفس : لقد كانا «شخصين صادقين» قبل ان يسلكا طريق الزلل . وهكذا كان ايضاً ، موقفه من كبير رجال شرطته ايفان سروف الذي كان لطيفاً مع الاطفال وفاتناً ساحراً بالنسبة لاصدقائه ، وذلك

في فترات الاستراحة ، عندما لا يكون يقوم بعملية تطوير مجموعات بشرية ضخمة وشعوب بكاملها ليرسلها الى سيبيريا او الى الموت .

وتفسير هذا السلوك ، على ما اعتقد هو ان خروشوف نفسه كان عنيفاً بطبعه (وقد كان عنفه هذا ينفجر احياناً حتى عندما اصبح رجل دولة عالمياً) ، والعنف كان المزاج المسيطر تلك الايام . كان هو ورفاقه منهمكين في المهمة البائسة ، مهمة حمل الشعب السوفييتي على بناء روسيا الجديدة ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه من دون دموع . ان اي انسان (وفي الواقع ، الاكثريّة الساحقة من الشعب) قاوم هذا التحول كان معرضاً للاكراه . واساليب الاكراه كانت وحشية وحاسمة . على ان الأمر الذي عارضه ، كان اعتقال شخص ما من دون، ما يبدو بالنسبة اليه، سبباً كافياً . ولقد اعترض قبل كل شيء على تدمير ستالين «للسيوعيين الشرفاء» . وهو هنا يشدد ، كما شدد في الخطبة السرية عام ١٩٥٦ ، على جرائم ستالين ضد الحزب ، بحيث يبدو صمته تجاه جرائم ستالين ضد الناس العاديين منطقياً تماماً. ذلك انه كان يعتقد فعلاً ان الحزب يؤلف شكلاً اسماً من اشكال الحياة .

ثمة اعتبار آخر . من الواضح ان خروشوف كان كامل الثقة بقدراته بحيث لم يكن يقيم حساباً للآخرين . وهؤلاء كانوا ينقسمون عنده الى فئتين : الاولى تضم الرفاق والمعاونين الذين يخوضون معه المهمة الكبرى ، والثانية تضم اطفالاً يصير إطراؤهم والابتسام لهم والاستئناس عليهم ... ومعاقبتهم .

هذا لا يعني ان خروشوف شخص بانبساطه ، منذ ايامه الاولى ، الى اعلى الذروات . كان طموحاً ، دون ريب ، الا انه كان يملك كذلك حاسة حادة من الشعور بمحدوديته (كان يعي بشدة مثلاً افتقاره الى الدراسة الرسمية) . ومن المحتمل انه حتى في ارائل الثلاثينات ، عندما وجد نفسه يبطاً حذر دائرة ستالين لم يخطر له انه قد يصبح بعد فترة قريبة ضمن تلك الدائرة نفسها . كان من ذلك الصنف من الرجال الذي يبدأ بالصعود في منظمة كبرى ، ويستمر في الصعود مدفوعاً بحب السيطرة على جميع اقرانه ، ثم يأخذ بالتطلع الى فوق .

وفي كل مرحلة من رحلة الصعود الى فوق ، كان يفاجأ بان امكاناته في النجاح تفوق الرجال الذين كانوا يشغلون مناصب أعلى منه . وبهذه الطريقة نفسها ارتقى خروشوف من منصبه الثانوي جداً كمسؤول اقليمي في الحزب في يوزوفكا عام ١٩٢٦ ليصبح بعد ذلك بعشر سنين فقط رئيس فرع الحزب في موسكو كلها . وفي هذه المرحلة ثبت لديه ان بإمكانه ممارسة اي عمل افضل من غيره ، وان بإمكانه التفوق في اية مناورة على منافسيه . وهي حقيقة كان صعباً عليه اخفاؤها .

وبرغم ذلك فان الطريق الى المزيد من الترقى كان يسدها جمع من الشخصيات

الكبيرة . وهؤلاء لم يكونوا من المعارضين القدماء الذين انتهوا عملياً ولو لم يقتلوا بل كانوا رجال ستالين انفسهم الذين ايدوه ضد تروتسكي وزينوفيف وكامينيف ، وضد ريكوف وبوخارين . هؤلاء كانوا يشغلون ارفع مناصب الحزب في موسكو وكل انحاء الاتحاد السوفياتي . وكان ستالين ، المدين لهم بالكثير ، قد بدأ ينظر الى البعض منهم بعين الغيرة .

وفي ١٩٣٥ لا بد ان يكون بدا لخروشوف ان تقدمه السريع صعوداً ستوقفه ، ربما الى أجل غير مسمى ، كتلة من الترقيات الأخرى المترامية . لكن مفاجأة حدثت في السنوات الثلاث التالية رمهت الطريق بتدمير الرجال (من بين ٧ ملايين آخرين على الأقل) الذين وقفوا بينه وبين الدائرة الداخلية للسلطة . ففي ١٩٣٨ وجد نفسه عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ، وبعد ذلك بسنة عضواً كاملاً . والمكتب السياسي (الذي اعيدت تسميته بالبريزيديوم «مجلس الرئاسة» في ١٩٥٢) قدّم نفسه للعالم الخارجي على انه لجنة مطلقة السلطان مؤلفة من رجال قساة الوجوه استطاعوا الخروج صامدين من التطهيرات وتوصلوا الى القرارات السياسية الكبرى بعد مداولات مطوّلة . لكنه اتضح منذ بعض الوقت - وبصورة خاصة عبر مذكرات ميلوفان دجيلاس وسفيتلانا الليلويفا - ان الأمر لم يكن كذلك . كان ستالين وحده يتخذ القرارات وكان يأمر الذين حولته بتنفيذها . وكان خروشوف دُرِن ريب يتعمق أكثر في عقل واعصاب الرجل الشرير الذي جعل من كلمته قانوناً ، ووقف في وجه نشرشل وأربك روزفلت ، ثم جعل واحدهما يقف ضد الآخر (رغم ان اياً منهما لم يكن يخشى في اية حال ان يسجن او يعدم) ، ناهيك بصدق الصورة التي تبعث الرعدة في النفوس عن كيف كان يقضي اعماله في سنواته الاخيرة .

كان في امكان ستالين دائماً ان يظهر صفات كاسحة من التبصر وبرود الاعصاب كما حصل مثلاً بالنسبة الى قراره بابقاء روسيا خارج الحرب في كوريا الشمالية . فلم تكن هناك اجتماعات رسمية بل كان ستالين في معظم الاوقات يترك عالمه منفلاً ويجلس في منتصف الليل يشاهد فيلماً غيباً . وكان يسكر مرعوباً ، من ان يبقى وحده ، ولكنه في الوقت نفسه جاعلاً الحياة صعبة بالنسبة للرجال الذين يقيهم ، ملقياً التعليمات والتهديدات بلهجته الجيورجية العفوية (كل تعليماته كانت تهديدات) لجماعة مسترلة، هي اسوأ ما يحيط برجل يصرف في معاقرة الحصرة ويفتقر الى النوم .

وكانوا بمجرد ان يتفوه بكلمة واحدة ، ينهضون ليحركوا الالة نفسها من أجل اعتقال فرد لم يسمع به واحد منهم من قبل ، او تطويق وترحيل شعب كامل (الشيبيون وتر القرم) او اعدام واحد من أقرب رفاقهم ، او اعادة كتابة تاريخ

الحزب الشيوعي السوفياني كاملاً ، او تقديم نمط جديد من الزراعة مكفول ان ينتج محصولاً مصيره التلف في منطقة بحجم اوروبا الغربية .
كان تعيين خروشوف نائباً لستالين في اوكرانيا عام ١٩٣٨ انقاذاً له . اذ انه بذلك ، ظلّ ١٢ عاماً بعيداً عن موسكو ، عن المناورات اليومية للوصول الى المناصب ، عن الدسائس ، عن التلّف والاغتياب ، وكل ما كان يجري في ظل ستالين وبوهن حتى الرجال القديرين امثال مالينكوف . ولثلاث سنوات قبل الحرب ، ولخمس سنوات بعد ١٩٤٤ كان خروشوف سيداً على اربعين مليون نفس بشرية من الروس البسطاء (الصغار) النشيطين ، والأكثر واقعية وعملاً من روس موسكو المسيطرين (الكبار) ، وهم يسكنون ارض الحدود التي كانت آنذاك اهرام الاتحاد السوفياني وقاعدته الصناعية .

هنا ، بقدر ما أمكن ذلك في ظلّ ستالين ، كان خروشوف سيد نفسه ، قادراً على تنمية مواهبه وطباعه ، التي كان يمكن في غير هذه الحال ان تفسد بحيث يتعذر انقاذها . وقد مارس الحكم في البداية بعجرفة هي اسوأ ما يمكن ان يمارسه حاكم استعماري . ثم جاءت الحرب . والآن ، وهو في البزة العسكرية ، وكستشار سياسي لبعض اقدر الجنرالات ، انفتح امامه للمرة الاولى مدخل الى عالم بعيد عن دائرة الكرملين المغلقة . وقد وجد نفسه يقف الى جانب الجنود ضد رفاقه في الحزب كما انه عرف عن كذب الكراهية المريرة للنظام — النظام الذي ينتمي هو اليه — تلك الكراهية التي أظهرها أهل اوكرانيا في الايام الاولى من الحرب . واخيراً عاين ايضاً عن كذب ، العذاب المرعب الذي كان على الاوكرانيين مواجهته ، وكيف انهم تحولوا ضد الالمان بعد ان كانوا قبلهم في البداية كمحررين ، فحاربوهم حتى الموت — وقد جعلوا بذلك من ستالين الذي كان غير جدير بثقتهم ، نصف إله .
ان احداً من قادة الحزب ، باستثناء أ. أ. كوزنتسوف الذي شهد حصار ليننغراد ثم اعدمه لينين بعد ذلك بفترة قصيرة ، لم يختبر لمدة طويلة وبحيوية مفعمة ، رقائع الحياة في روسيا السوفيانية المتالينية ، كما فعل خروشوف . اعتقد ان ذلك قد بدّله تبديلاً . واعتقد ان الاعتماد على النفس الذي نمّاه وهو سيد اوكرانيا ، والمكر الصبور الذي عمل على صقله بمواجهة ستالين ، قد افاده كثيراً عندما استدعي الى موسكو في نهاية ١٩٤٩ ، ثم لدى وفاة ستالين في ١٩٥٣ ، اذ سنحت له فرصة نسلق الذروة .

وقد تصرف في البداية بحذر شديد . وبعدها تأمر مع سائر الورثة على قتل بيريا (روايته عن مقتل بيريا — لا عن الاجراءات التي آلت الى ذلك — ستظلّ على الارجح هي المعتمدة) دخل لبعض الوقت مسرحية الحكومة الجماعية . لكنه كان دائماً يعمل

من أجل تفويض مالنكوف ، منافسه الاقوى والأكثر مقدرة ، والذي كان يحاول تركيز قوته ليس على جهاز الحزب الرجعي بل على الجيل الجديد من التكنوقراطيين الإداريين .

وكان خروشوف ، بادئ ذي بدء ، يراقب مالنكوف بصمت وهو يضع المشاريع على أنواعها من أجل الإصلاح الداخلي والتعاون الدولي . ثم ضرب ضربته . مثيراً قوى الرجعية ، باسم لينين ، من أجل إسقاط منافسه . ومن ثم ، ومن دون ان يرف له جفن ، انتقل الى تبني افكار التعايش والإصلاح على انها افكاره . وهكذا فإنه ، حتى في صراعه من أجل الاستيلاء على السلطة التي ستمكنه من الانشقاق على السالينية ، استخدم الاساليب التي تعلمها من ستالين .

كانت تلك مسرحية رائعة جداً وصلت الى ذروتها في المؤتمر العشرين للحزب في الحملة السالينية في ١٩٥٦ . وبرغم أن خروشوف وجد نفسه في وضع خطير دقيق عندما أدت حملة نزع السالينية مباشرة الى حركتي التمرد في بولونيا والمجر (والى تثبيط معنويات الشعب السوفياني الذي لم يشف من اثارها حتى الان) الا انه استطاع ان يبقى . وقد رفض الخضوع لتصويت الأكثرية في البريزيديوم التي طالبت باستقالته ، وطلب ان تستمع اليه اللجنة المركزية بأكملها وفقاً لنظام حزبي لم يكن أحد قد التفت اليه طول سنوات ، واستحضر مؤيديه في اللجنة المركزية من كل انحاء الاتحاد السوفياني الذين سهّل طيرانهم الى موسكو المارشال جوكونف باقامة جسر جوي ضخّم . ثم عرض خروشوف قضيته و طرحها على التصويت ففاز وتم تجريد مالنكوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وآخرين من مراكزهم وارسلوا لأكل الفطائر في الاقاليم البعيدة . لكنهم لم يسجنوا ولم يعدموا . كان خروشوف عند ذلك ، في ١٩٥٧ ، في الثالثة والستين من العمر ، وعلى الطريق لأن يصبح رجل دولة . لكنه كان لا يزال ذا شخصية مزدوجة تعاني انفصاماً ذاتياً .

فقد كان يحلم باشياء عظيمة او يسعى بصدق الى سلام عالمي والى رخاء الشعب السوفياني كجزء من عالم مسلم . لكنه في الوقت نفسه ، كان يلجأ عندما يستفز الى العنف العشوائي والحدّاع . فقد رأى من الضروري قيام انقراج دائم بين الاتحاد السوفياني والولايات المتحدة على الأقل من اجل تجنب العالم الدمار الذري ، الا انه كان يعتقد في الوقت نفسه انه من المنطقي ان يعمل من أجل انهيار العالم الرأسمالي بينما يقف هذا العالم موقف الحياد تجاه الامبراطورية السوفياتية . وكما انه لم يستطع الخلاص من ماضيه الساليني ، فهو لم يستطع كذلك تجاوز انصاف الحقائق الخائفة في روضة اطفاله الماركسيّة .

ثم ان قوته المتزايدة وتجربته مع العالم لم توسّعاً فحسب افاق عقله المتسائل وتبصره

العميق، ولو على غير انتظام في الحقائق، بل انهما ايضاً ، ومع الاسف ، وستعاقلة صبره على ضبط النفس وميله الجامح نحو الخطط الشاملة والسينة الاعداد في الوقت نفسه ، لاصلاح هذا او ذلك من مظاهر المرض في النظام .

وربما كان خروشوف ، في ذلك كله غير مختلف جداً عن عدد من السياسيين الغربيين الذين يعملون في هذا الجانب من العالم ، سوى بعنقه ولحوته الى اساليب غير قانونية ، وقد كانا متأصلين في طبعه . وما كان محزناً بالفعل هو انه كانت لديه الكثير من ميزات رجال الدولة العظام ، غير ان المدهش انه لم يكن في روسيا بعد الستالينية مجال لتحسس مثل هذه الميزات على الاطلاق . وبرغم ان ليس لدى خروشوف الا القليل مما يقوله عن سياساته الداخلية، عن كفاحه من اجل التفوق وعن سقوطه ، فان القسم الاخير من الكتاب الذي يعالج احياناً بطريقة ميكانيكية واحياناً أخرى بتفصيل حماسي ، اتصالاته مع العالم خارج الاتحاد السوفياتي ، بدلنا الى حد بعيد على نظراته الناضجة وحالة عقله العامة . اننا نرى هنا النزاع الدائم ، الذي لا يعرف حلاً ، بين تفكيره وبين اعماله خلال اربعين عاماً ، كما نرى الامثلة التي تعلمها من حقيقة ادركها حديثاً . والواقع ان التناقضات عنده كبيرة بحيث لا يكفي القول ان شخصيته كانت مصابة بالازدواجية: لقد كانت شخصيته مجزأة . وهذه التناقضات تبدو بوضوح ، أكثر ما تبدو ، في الفصل الذي يتحدث فيه عن الصراع مع الصين وفقرتها نحو الشوفينية المتعالية ، وفي الفصل الخاص بعبد الناصر ومصر ، حيث يظهر كل دفء عطفه ، لكن هذا العطف يجد نفسه على تباين مع عين خروشوف الحاسية ، الساعية الى الاولويات الشخصية والوطنية .

وبعد، فعلى كل قارئ، اذ تأخذ القصة هذه بمجملها، ان يقرر لنفسه عبر الكتاب اين يقوم التوازن بين المغالطات المتعمدة والمخادعات الذاتية . وهذه المشكلة تبدو حادة بصورة خاصة في الفصول التي تعالج استيلاء السوفيات على بولونيا الشرقية ودول البلطيق . فالى اي مدى كان خروشوف يعي حقيقة افعاله عندما تزعم اعتقال وسجن وترحيل كل الطبقة المتوسطة في ما يعرف الان باوكرانيا الغربية الى سيبيريا ؟ والى اي مدى كان يعتقد فعلاً ، في جهله للحياة خارج الاتحاد السوفياتي ، انه كان يسبح امتيازات وفوائد لا تحد على الجماهير الكادحة في مجتمع غريب ؟ ولا ييسر من أمر الحكم على هذه الافعال انه تارة يتحدث عن هذه الجريمة على انها فعل تحرير، وطوراً على انها عملية ضم والحاق .

ثم انه في ايامه الاولى آمن مع ملايين آخرين أنه بوقوفه الى جانب ستالين انما يساعد على مهمة التحويل المجيدة ، برغم صعوبتها وقساوتها ، للمجتمع الروسي القديم الى مجتمع أكثر عدلاً ومساواة من اي مجتمع آخر على الأرض . على انه بعد

ذلك بوقت قصير اصبح مهتماً بالوصول الى السلطة من أجل السلطة، ثم بالتعلق بها. لكن كم بقي ، بعد هذا كله ، من الحلم القديم ؟ والى اي مدى لوّن هذا الحلم وجهات نظره حول المهمة السوفياتية في اوروبا الغربية وغيرها ؟ ليس من الممكن بالطبع ايجاد اجوبة ثابتة على هذه الاسئلة ، الاّ انها اسئلة مهمة في اية حال . واذ يأخذ المرء هذه الاسئلة بعين الاعتبار ، يجب ان يتذكر ايضاً الى اي مدى قد تلوّن وجهات نظرنا الخاصة بالحيات الذاتية والتحمل والجهل .

كان من اعظم انجازات خروشوف انه برغم صليل السيوف التي حركها ، وبرغم التهديدات والحيات ومظاهر العنف ، استطاع خرق الجدار الستاليني وجعل من الممكن للعالم الغربي ان يأمل في ان مقياساً من التعايش ، ربما أكثر اكتمالاً مما توقع هو نفسه ، قد يتحقق ذات يوم .

ادوارد كرانسكو

ملاحظات المحرر

حاولت هنا أن اسكب ذكريات نيكيثا خروشوف في سرد متناسق ولو غير رسمي. وكانت المواد الاصلية قد وصلتني مفتقرة الى اي قدر من الانسجام . وكان ان سمحت لنفسي ، وانا اسعي لتحويلها الى كتاب مقروء بالانكليزية ، ان ادخل بعض التغييرات على تركيبها ، ولكتني بذلت أقصى الجهود ، من جهة ثانية ، حتى لا اسيء إلى أسلوب خروشوف الحقيقي ، حتى عندما كنت اضطر إلى جمع أجزاء مختلفة في فصول متناسقة . ان خروشوف هو الذي قال كل ما نسب اليه في هذا الكتاب ، عدا بعض تفسيرات اضطررت إلى اضافتها أو جعل معترضة نضيء بعض المعاني . وقد جهدت في الحفاظ على أقواله نصاً وروحاً ، فضلاً عن اقتراحي ، عبر حواجز اللغة ، لكيفية التعبير عما ادلى به .

ان احاديث خروشوف تتميز بتفاوت غريب ، وغالباً ما يكون متعمداً ، بين التلميح الحذر والبوح الجريء ، بين تخل عن الرصانة باد ، ونحاش لبق ، بين ابتذال مسف وتكلف باختيار ألطف التعابير . وهو تارة يبدو سياسياً متقاعداً يكرر على ونيرة واحدة أخبار لحظاته العظيمة حتى يدخل الملل على المستمع اليه ، وطوراً يبدو واعياً سريع الانفعال ، يتدفق في سرد الخطأ الحزبي ، وتارة أخرى هو مثل ريفي شديد الارتباك يتحدث بصخب واستمتاع ، اذ يصف بتنميق شجاراً دار في خمارة . ومراراً يبدو كأشد المطلعين على خفايا ومحاري التاريخ الحديث . ان اللغة التي كتبت بها مواد هذا الكتاب تعج بالعامية اللعوب ، وجمل التدليل ، والصباغات المنطقية الماركسية ، والاستشهاد التاريخي ، ومقتبسات من التوراة مستهجن ورودها هنا وكلها تطيع اسلوب خروشوف الخطابية المميز خلال السنوات التي تبوأ فيها مركز الزعامة في الحزب .

انها ذكريات رجل عجوز عنده الكثير مما يتذكر ، وموارد لا تفنى ينهل منها ، مليء بالكلام الطنان والذكاء المتوقد وقساوة قطاع الطرق والعاطفة الانسانية الاصيلية .

وتشكل هذه الذكريات وثيقة انسانية خطيرة ، لاسيما ما يقدمه خروشوف للتاريخ من اتهام لستالين . فذكريات خروشوف تقدم أشد القضايا اسناداً إلى مرجع ثقة في اتهامها المدمر للستالينية ، وهي تكتسب قدرتها على الاقتناع من كونها صادرة عن مواطن سوفياتي موال وماركسي لينيني مخلص . كما ان الكتاب وثيقة شخصية هامة أيضاً تحمل صورة ذاتية نابضة بالحياة لرجل برز في ظل ستالين ليتحدى شبح ستالين . وبالإمكان ، على ما اعتقد ، اعتباره تمرساً متعمداً في صدد إعادة الاعتبار للنفس . انها الوصية الأخيرة لفلاح ماهر نهض من حضيفض مناجم الفحم في حوض دونتس إلى أن يصير أحد أقوى الرجال في العالم .

سروب طالبوت

خروشوف ینذکر

وتشكل هذه الذكريات وثيقة انسانية خطيرة ، لاسيما ما يقدمه خروشوف للتاريخ من اتهام لتالين . فذكريات خروشوف تقدم أشد القضايا اسناداً إلى مرجع ثقة في اتهامها المدمر للتالينية ، وهي تكتسب قدرتها على الاقتناع من كونها صادرة عن مواطن سوفياتي موال وماركسي لبنيني مخلص . كما ان الكتاب وثيقة شخصية هامة أيضاً تحمل صورة ذاتية نابضة بالحياة لرجل برز في ظل ستالين ليتحدى شبح ستالين . وبالإمكان ، على ما اعتقد ، اعتباره تمهيداً متعمداً في صدد إعادة الاعتبار للنفس . انها الوصية الأخيرة لفلاح ماهر نهض من حضيبض مناجم الفحم في حوض دونتس إلى أن يصير أحد أقوى الرجال في العالم .

ستروب تالين

خروشوف ینذکر

تمهيد

اعيش الآن مثل ناسك ، في ضواحي موسكو ، لا صلة لي الا باولئك الذين يتولون حراستي من الآخرين ، وحراسة الآخرين مني . اعتقد انهم يقضون معظم اوقاتهم وهم يحرسون الآخرين مني (١) .

واذ استعيد احداث السنين الماضية اشدد على ابرز ما حفل به حكم ستالين من ضرر لحق بتكوين مجتمعنا السوفياتي . اذ ليس هناك فائدة ترجى من التركيز على الناحية الايجابية من زعامة ستالين التي اسهبت اجتماعات الحكومة والصحافة وكل ادبنا باطرائها . بل بالامكان القول ان صورة ستالين قد صقلت وزينت حتى اننا لو خفضنا ثمانين بالمئة من كل شيء ايجابي قيل عنه لبقينا ما يكفي للمديح الف رجل عظيم . وفضلا عن هذا ، فان تاريخ دولتنا السوفياتية وانتصار حزبنا الشيوعي لشهادة كافية على فضائلنا وانجازاتنا . اننا لو رجعنا بالذاكرة خمسين سنة الى الوراء نستطيع ان نتيين اين بدأنا وكم قطعنا من اشواط . لقد اذهلنا حتى اعداءنا .

ولا يزال حتى الآن ثمة من يعتقد ان علينا شكر ستالين على كل التقدم الذي حققناه ، وحتى بعد فضح جرائمه الجماعية واقامة الدليل الذي لا يرقى اليه شك ، في المؤتمر العشرين للحزب (٢) ، على ذنوبه . فلم يزل البعض يرتعد امام ثياب

(١) يبدو ان خروشوف يببالغ في عزله الحالية . فمائلته في الواقع تعني به عن كتب ويزوره غالباً الأصدقاء ، بما فيهم الأجانب من مختلف الجنسيات حتى الأميركيون منهم . كما انه بين الحين والآخر يزور موسكو ، ولو «مرافقاً» (من قبل حارسه) حيث له مسكنه الخاص .

(٢) القيت خطبة خروشوف عن عهد ستالين امام المؤتمر العشرين ليلة ٢٤ - ٢٥ شباط ١٩٥٦ . وان النص الذي اذاعته وزارة الخارجية الاميركية لم يلق اعراضاً جدياً . وقد نشر في السنة التالية بعنوان «خروشوف وشيخ ستالين» مع تعليق وتحليل مطولين بقلم برترام د . ولف .

ستالين الداخلية القذرة ويقفون متأهين ليؤدوا لها التحية ، ولا يسمحون لانفسهم بالتساؤل ما اذا كانت المذابح التي تسبب بها ستالين امراً لا مناص منه . فكأنما ذلك كله يبدو امراً طفيفاً ازاء عظمة زعيمنا : « أب الشعب السوفياني الحنون » و « العبقري والمعلم » . وحتى الآن لم يزل يطلق تعبير « الستالينية » على من يعمل باقوال ستالين — ويعتبر ذلك صفة جيدة . اما انا فاعتبر الستالينية صفة رديئة .

إلى أي مدى كان ستالين عبقرياً ؟ اي نوع من « الأب الحنون » كان بالنسبة لنا ؟ كم من الدماء التي بذلها وطننا كان ستالين مسؤولاً عنها ؟ الا ان الافنعة التي تغلف الأجوبة عن هذه الاسئلة وغيرها ، يجب ان تمزق وترمى بعيداً . فقد آن الأوان لظهار ستالين عارياً ، على حقيقته ، امام الشعب السوفياني ، حتى يحتل موقعه الصحيح في التاريخ .

يعود لستالين ، دون ريب فضل عميم . الا ان نجاحنا الأشمل يعود الفضل الاوفى فيه للشعب . ان القوة التي نركز اليها انما نبعت من تعاليم لينين . لقد كان لينين مؤسس حزبنا ومنشئ نظامنا . وهو الذي طور النظرية التي ارسيت عليها دولتنا . ان افكاره هي حجر الاساس الذي ارتفع عليه كل ما انجزنا . وفضلاً عن هذا ، فقد حذرنا لينين بوضوح من ستالين . فباكراً منذ بدأ ستالين يصعد إلى مراكز السلطان أعلمنا لينين باخطائه . وقد جاءت الاحداث ، فيما بعد ، مصداقاً لرأي لينين . فطالما كنا نطبق افكار لينين تطبيقاً حسناً ، كنا نحصد النتائج الطيبة . وان الماركسية — اللينينية ، رغم تحريفات ستالين لمواقف لينين وتوجيهاته ، تبقى العقيدة الأكثر تقدماً في العالم . لقد اغتت شعبنا وكانت حصنه الحصين وسلاحه القوي ، واعطتنا القوة لتحقيق ما انجزنا .

بات شائعاً ومعروفاً كل شيء عن روح ستالين الثورية وفضائله الأخرى التي كرر الحزب تعدادها .

ان ادعاءات ستالين حول قيامه بدور خاص جداً في تاريخنا تقوم على اساس متين . ذلك انه في الواقع كان رجلاً ذكياً وذا مقدرة خارقة . وقد تفوق فعلاً على كل من حوله . وبرغم ادائي لوسائله ولاستغلاله السلطة ، فاني اعترف دائماً بقواه . الا ان قوى ستالين يجب تقييمها من زوايا متعددة ومختلفة . فقد كانت شيئاً جميلاً عندما كرس لتعزيز مكاسب الثورة ، وكانت شيئاً آخر عندما تذرعت بشعارات الدفاع عن الحزب ضد اعدائه لتبشث بالثورة . لقد كلفنا انتقام ستالين من اعدائه الذين زعم انهم اعداء الثورة خسائر لا تقدر . وان ضيق صدره ، الذي حذرنا منه لينين العظيم بنفسه ، ادى إلى افناء الوف الناس ممن وقفوا النفس حتى اعماق اعماقهم ، على القضية الماركسية — اللينينية .

انني اسجل لستالين حسنة واحدة هي انه لم يأت بالسيف ليفتح عقولنا واجسادنا . كلا ، بل انه اظهر مهارته المتفوقة باخضاع الناس والتلاعب بهم بشئ المؤثرات - وهي ميزة ضرورية من مزايا الزعيم العظيم . وفي كل ناحية من شخصية ستالين كان هناك شيء يثير الاعجاب وشيء قوي ولكن في الوقت نفسه كان هناك ايضاً شيء من الوحشية ، يصعب جداً درسه من خارج اطاره . فكل شيء يجب ان يعاين في ضوء شخصيته البالغة التعقيد .

ومع ذلك فلو كان حياً اليوم لصوتت بوجوب تقديمه إلى المحاكمة ومعاقبته على ما ارتكب من جرائم .

ولقد سئلت مراراً « ماذا عن ستالين؟ كيف ان رجلاً ذكياً مثله استطاع ارتكاب كل هذه الافعال الرهيبة ؟ » ولطالما طرحت على نفسي السؤال نفسه . انني اعتقد ان لينين كان يملك الجواب . فقد رأى لينين ، في ١٩٢٣ ، في ذلك الوقت المبكر ، وهو يكتب وصيته ، إلى ابن عساه ان يقود الحزب اذا بقي في منصب الأمين العام . لقد فهم لينين الاسباب الاساسية لطغيان ستالين قبل ارتكابه التصفيات والجرائم الاخرى ، بزمان طويل . فكتب ان ستالين يمتلك الميزات الضرورية للقيادة ، لكن لديه ميلاً أساسياً للتوحش ولا يترفع عن استغلال سلطته . واقترح نقل ستالين وترفع سواه إلى منصبه ، ممن يمكن ان يكونوا أكثر اعتدالاً ووجدانية منه ، وأرحب صدرأ في العلاقات مع الرفاق ، واسمى من ان يستغل هذا المنصب الخطير (١) . غير ان اللجنة المركزية لم تأبه لكلام لينين ، وكانت النتيجة ان الحزب باجمعه تعرض للعقاب .

ولا شك انه كانت ثمة ناحية مرضية في ستالين . واعتقد ان حالة مرضية

(١) الوثيقة التي سيشار اليها بوصية لينين كانت واحدة من رسائل عديدة كتبها لينين في ١٩٢٣ عندما كان يحاول تجنب الحزب حالة انشقاق كان يتوقعها بعد موته : « بعدما أصبح الرفيق ستالين سكرتيراً عاماً ، حصر سلطات هائلة بين يديه . ولست مطمئناً إلى حسن تصرفه بهذا السلطان مقروناً بالحدز الكافي . ان ستالين مفرط في الصلف ، ومثل هذه النقيصة اذ يمكن احتمالها ومداراتها في وسطنا او في العلاقات مع شيوعيين آخرين ، فانها تصبح أمراً لا يطاق عندما يكون صاحبها في مركز السكرتير العام . لذلك اقترح على الرفاق تدارس طريقة ازالة ستالين من هذه المسؤولية وتعيين شخص آخر لها يتفوق على ستالين ولو بأفضلية واحدة ، هي ان يكون أرحب صدرأ ، وأكثر ولاء ، وأكثر تهدياً ، وأكثر تفهماً للرفاق ، وأقل نزوعاً إلى الاجراءات الكيفية » . (ان النص الكامل لهذه ولغيرها من الوثائق متوفر في كتاب برترام ولف « خروشوف وشبح ستالين ») .

مشابهة هي التي نعاصرها ويجب ذكرها . فالذين من جيلي يذكرون كيف كان تمجيد ستالين ينمو وينمو : والجميع يعرفون إلى أين أدى ذلك .

انني اشاهد غالباً افلاماً عن الصين على التلفزيون ، فيبدو لي ان ما رتي تونغ ينسخ عبادة الشخصية التي مارسها ستالين . واذا اغمضت عينك ، واستمعت إلى ما يقوله الصينيون عن ماو ، وابدلت « الرفيق ستالين » « بالرفيق ماو » ، تكونت لديك فكرة عما كان عليه الأمر في زمنا . كانت تظاهرات ضخمة تنظم في موسكو بالطريقة نفسها التي تنظم الآن في بكين . والظاهر ان الرجال امثال ستالين وماو يتشابهون في امر واحد : فمن اجل الاستمرار في السلطة يعتبرون ان لا مفر من اظهار سلطتهم بشدة ، ليس فقط للاستئثار بطاعة الشعب ، بل لتخويله ايضاً .

انني ، اذ اشدد على الجانب السلبي من سنوات ستالين ، فلنكي أظهر انه لو لم يرتكب ستالين اخطائه الرهيبة ، لكننا انجزنا أكثر مما تم انجازه . وانني اذ اقدم وصفاً لجرأته فقصدي هو الحيلولة دون تكرار الضرر الذي انزله بالطبقة العاملة . وبالفلاحين ، وبالانتليجنسيا — اي بجميع الشعب العامل في الاتحاد السوفياتي وغيره من البلدان الاشتراكية على حد سواء .

وانه لمن سوء الحظ ان يبقى الكثير في طي الكتمان . فكثيرة هي الاسرار التي لم تزل مجهولة او غير مكشوفة وبعضها مضغوط تحت ثقل قمع رهيب . غير انها جميعا ستكشف في الاخير . حتى الاسرار المتشددة في حفظها ستخرج يوماً الى العراء . ولعل بعض رفاقي الذين عملوا معي في ظل قيادة ستالين سيتركون هم ايضاً مذكراتهم . واذا فعلوا فيكونون موضوعين لا يخشون ان يسجلوا في التاريخ ما يعرفونه من اخطاء ستالين . لقد شاهدوا الاشياء نفسها التي شاهدت . فنادراً ما كنت وحدي مع ستالين . اذ غالباً ما كان هناك خمسة او ستة واحياناً عشرة اشخاص آخرين معنا .

على كل من ينبغي فعلاً اعادة الاعتبار لمعايير لينين في الحزب ان يفعل كل ما في وسعه لفضح ستالين وادانة الاساليب الستالينية . ليس لدينا خيار ، اذا شئنا ان نحول دون انتفاض اشباح تلك السنوات من قبورها لتطاردنا ، الا ان نعيد الاعتبار الى جميع ضحايا ستالين (الموتى والاحياء) . لقد اعاد المؤتمر العشرون للحزب (١٩٥٦) الكثيرين منهم الى مكانهم الصحيح في التاريخ ، لكن الكثيرين ايضاً ما زالوا ينتظرون رد الاعتبار اليهم . والاسباب التي ادت الى وفاتهم لا تزال مخبأة . ان هذا معيب ، ومعيب حقاً .

والان يبدأون من جديد بالسعي لتغطية الرجل المذنب المسؤول عن كل تلك

الجرائم . واني اعجب بصورة خاصة من بعض قادتنا العسكريين النافذين الذين يحاولون في خطبهم ومذكراتهم ، تبيض صفحة ستالين واعادته الى مكانه فوق قاعدة النصب : كأب للشعب . فهم يحاولون ان يثبتوا انه لولا ستالين لما انتصرنا في الحرب ضد المانيا الهتلرية . والمنطق الذي يدعم هذا الادعاء منطقي ابله فعلاً . اذ هل يعني ان مجرد عدم وجود ستالين بيتنا كان سيؤدي بنا الى الخضوع للنفوذ الالمانى او الانكليزي او الاميركي ؟ قطعاً ، لا . ان الشعب السوفياتي سيكون قادراً في كل الاحوال على انجاب الزعماء والدفاع عن وطننا ضد الغزاة ، تماماً كما كنا ندافع دوماً عن انفسنا في الماضي .

آمل ان لا احتاج الى تبيان سخف هؤلاء القادة العسكريين الذين يحاولون اعادة الاعتبار لستالين ولضحاياه في الوقت نفسه . فذات مرة ، عندما كنت ازور بلغاريا ، القيت خطاباً استشهدت فيه من مسرحية بوشكين الشعرية «موزار وساليري» بمقطع يقول فيه موزار ، وهو خالي الذهن من ان ساليري على وشك دس السم له : «العقوبة والجريمة لا ينجمان» (١) وهذا ينطبق على ستالين . ذلك ان المرء لا يستطيع ان يكون عبقرياً ومجرماً في الوقت نفسه . فايأ كانت حوافر ستالين الا ان ذلك لا يعفيه من وزر جرائم مريعة اقترفها بارساله الالوف الى الاعداء . ثمة من يجادل بان حافر ستالين كان خير الشعب لا أي دافع اناني . ان هذا الزعم على قسط وافر من العته . اذ كيف نوفق بين اهتمام ستالين بخير الشعب ، واستئصاله أفضل بنيه ا ان المنطق في هذا يبدو مرتبكاً . وانه لأمر معقد الدفاع عن براءة مجرم يرتكب جرائمه بالجملة .

حتى الآن يقول لي الناس : «ايها الرفيق خروشوف ، ربما كان من الافضل الا تروي كل هذه القصص عن ستالين» . ان الناس الذين يقولون هذا النوع من الكلام ليسوا بالضرورة شركاء سابقين في جرائم ستالين ونذالته . انهم مجرد رفاق بسطاء متقدمين في السن ، تعودوا عبادة ستالين وليس في امكانهم التخلي عن مفاهيم الحقبة الستالينية القديمة . انهم نتاج الوسائل الخاطئة التي تدرب عليها اعضاء الحزب وتكيفوا بها عندما كان ستالين لا يزال حياً . لقد اعتمد ستالين مختلف الوان التلقين واساليه تحقيقاً لاغراضه . كان يطلب الطاعة دون تفكير ، والابمان دون سؤال .

ان يذهب المرء الى حتفه دون اية خاطرة من الشك تراوده حول الغرض من

(١) تركز مسرحية بوشكين الشعرية على اسطورة تقول ان ساليري دس السم لموزار بدافع الحسد .

موته ، لأمر مستحسن في زمن الحرب . الا ان لقطعة النقد وجهها الآخر كما يقولون . فالولاء المطلق يتحول الى كره مرير عندما يكتشف الانسان ان من وضع ثقته بهم كانوا يطعنون هذه الثقة ويخونونه . وهذا قد يغدو حلقة مفرغة .

اذا افترض زعماء البلاد ان الشعب قد اغمض عينيه ولم يعد يدرك ما يحل به يكونون قد قوضوا - وهم في مراكز المسؤولية - ثقة الشعب بالحزب والحكم . من هنا انني وقفت دوماً مع قول الحقيقة كاملة امام الحزب ، وامام عصبة شباب لينين الشيوعي (الكومسومول) وامام الشعب ، وانني اقف الان بضراوة أكثر مع قول الحقيقة . فبالصدق وحده نستطيع ربح ثقة الشعب . لقد كان الحق دوماً ينبوعاً من القوة لا ينضب للحزب ، ويجب ان يستمر كذلك .

قد يتساءل البعض عما يجعلني اذكر احداثاً ، نتجت عنها اذيتة كبرى للحزب ولماذا اغوص في تحليل الحوافز التي دفعت بستالين الى ارتكاب ما تسبب بمصرع عشرات الالوف من خيرة ابنائنا ، خيرة ابناء الحزب وابناء البلاد . ان جوابي هو التالي : انا اروي هذه القصص لأنها ، مهما تكن غير سارة ، فانها تساهم في التنقية الذاتية . ليس عاراً ان يطرح الحزب الاسئلة على نفسه ويتفحص تاريخه . فضلاً عن ان مزيداً من الناس يقبلون على الحزب عندما يتحققون من ان مساوئ حكم ستالين لم يرتكبها الحزب بل ارتكبت ضد الحزب .

ان الحزب قد شرع في تصويب اخطائه وضمان ان ما حصل في ظل ستالين لن يتكرر ثانية . من هنا انني لا اخشى من اعلام الجميع . وما ا قوله ليس تشهيراً ولا اثرثرة حاقدة . ان القصد منه خدمة المهمة الرئيسية البناءة ، وهي تنقية الحزب الذاتية .

اني اتكلم كرجل امضى حياته كلها على اتصال وثيق بالشعب السوفياتي وبالذين وقفوا ايضاً الى جانب ستالين لسنوات عدة خلال وجوده في القيادة . انني كشاهد على تلك السنوات اتوجه الان الى اجيال المستقبل ، آملاً في انها ستتجنب اخطاء الماضي .

القسم الاول
من مناجم الفحيم الى الكرميين

السنوات الاولى

سنوات الصعوبات

كان خروشوف في الرابعة والعشرين عندما انتسب إلى الحزب البلشفي في ١٩١٨ ، وذلك بعد مضي اشهر قليلة على ثورة اكتوبر . وكان حتى ذلك الحين ، يعمل في الريف حيث كان من اسرة قروية ، كيكانيكي في المناجم ببلدة يوزوفكا (التي اعيد تسميتها بتالينو ، والآن بدونتسك) في اقليم دونباس من اوكرانيا . وباعتباره كان يعمل في حرفة لها طابع الاحياط ، فقد اعفي من الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . الا انه في مطلع ١٩١٩ انضم إلى الجيش الأحمر وادى دوره في الحرب الاهلية . ولم يعد إلى يوزوفكا الا في ١٩٢٢ ، وقد اصبح حزبياً نشيطاً متحمساً ، فأخذ يساعد في إعادة المناجم إلى العمل وسط الحراب والمجاعة المحييين على البلاد . هنا يتجلى عنده نفاذ البصيرة في تحليل اجواء تلك الأيام العسيرة عندما وضع فلاحون وعمال غير مثقفين في مراكز المسؤولية ، حصراً ، لأنهم اظهروا ولائهم للقضية البلشفية .

وفي هذا الوقت بالذات ، اي منذ ١٩٢١ ، اضطر لينين إلى التراجع عن الاشتراكية وتطوير سياسته الاقتصادية الجديدة ، التي شجعت المشاريع الخاصة واسبغت الامتيازات على البورجوازيين من تجار وحرفيين واختصاصيين في كل الحقول ، كطريقة وحيدة لاعادة بناء اقتصاد مهتم . وقد اثارت السياسة الاقتصادية الجديدة ، دون ريب ، مرارة كبرى بين الحزبيين المخلصين . واستمر العمل بها حتى وضع لها ستالين حداً في ١٩٢٦ ، اي بعد مرور سنتين على موت لينين .

من زمن ليس بالبعيد دعاني العديد من رفاقي القدامى لتبادل التهاني في ذكرى انشاء الجيش السوفياتي . لقد كانت مناسبة عظيمة ، ويوماً احتفالياً ، مخصصاً

لتكريم قواتنا المسلحة . ان جيشنا الذي انشأه لينين سجل في السنوات الأولى من الثورة عدة انتصارات ضد اعدائنا الطبقين من رجال الحرس الابيض ، وبعد ذلك في الحرب الوطنية الكبرى صددنا الغزو الذي شنه الفاشيون ضد طريقة حياتنا الماركسية - اللينينية . وجيشنا يعود الفضل في مجابهة التهديد الهتلري لبلاد السوفيات والشعب الروسي . لقد سحقنا اعداءنا . ان قواتنا المسلحة اعلت دوماً راية الكفاح ، راية الطبقة العاملة الحمراء مخضبة بدماء الشعب السوفياتي في معركته ضد اعدائنا الطبقين .

ان قواتنا المسلحة قد اجتازت مسيرة طويلة . واني اعتر بالقول انه اتحت لي الخدمة في قواتنا المسلحة المجيدة (مع الجيش الاحمر ضد البيض) من كانون الثاني ١٩١٩ حتى نهاية الحرب الاهلية . وكان ذلك في السنوات الخطرة ، فقيض لي معاناة خبرات قاسية في صفوف الجيش الاحمر . وصدف ان خدمتي كانت في فرقة الرماية التاسعة . وكنا قد اضطررنا إلى التراجع من اوريل إلى متسينك في بدء المعارك ثم كررنا بهجوم مضاد وسط زخات من رصاص العدو حتى وصلنا إلى تغانروك في عيد ميلاد ١٩١٩ . في ذلك الحين التحقت فرقتنا للرماية بالجيش الأول من الفرسان بقيادة سيمون ميخاليوفتش بوديوني (١) . فلحقنا بالبيض المنهزمين . وفي نيسان ١٩٢٠ انجزنا مسيرة طويلة حتى البحر الاسود ، واستولينا على انايا وطرردنا عصابات الحرس الابيض إلى البحر . واستولت فرقتنا على انايا واستراحت خمسة او ستة ايام ، ثم زحفت على شبه جزيرة تامان . واذكر اننا احتفلنا بالعيد البروليتاري العظيم ، اول ايار ، في تامان .

وعندما عدت من الجبهة إلى دونباس في اوائل ١٩٢٢ ، كانت الاوقات العصيبة قد سبقتني . كان لينين يكافح ليستخدم فترة الانقراج ، في نهاية الحرب الاهلية لبناء صناعتنا ، واقتصادنا ، ومستوى المعيشة لشعبنا . وانطلقنا ، مسلحين بولائنا الذي لا يتزعزع لافكار لينين ، لنحقق خلال سنوات قليلة ما اخذت البلدان الرأسمالية عقوداً كاملة لتحقيقه .

(١) كان خروشوف مستشاراً سياسياً صغيراً الحق بالقوات المحاربة . س. م. بديوني ، هو رقيب سابق في الجيش القيصري ، وأصبح فيما بعد من اتباع ستالين المقربين ، وكان في الحرب الاهلية يحارب ضد جيش الجنرال دنيكين الذي شكل في مرحلة ما خطراً على النظام البلشفي . وقد كان بديوني هذا ، الذي أصبح اليوم مارشالاً متخلفاً عن صناعة الحرب الحديثة ، هو الذي قاد جيشه ابان الغزو الهتلري لاوكرانيا في ١٩٤١ إلى كارثة .

وكان علينا ان نشد الحزام ونعاني من البرد والجوع والحرمان . ولم ندخر تضحية لبنى صناعتنا الثقيلة وجيشنا حتى لا يتسنى لاي عدو المجال لتهديد حدودنا ثانية .

كانت المجاعة منتشرة في المناجم في دونباس في ١٩٢٢ . وحصلت بعض الحوادث الافرادية أكل فيها البعض لحوم البشر . وكانت القرى تعاني من الخراب أكثر من المناجم . وماتت زوجتي الأولى ، غالينا ، خلال المجاعة في ١٩٢١ وتركتني مع طفلين ، ابني ليونيد وابنتي جوليا . وفي ١٩٢٤ تزوجت ثانية من نينا بتروفنا . كانت تلك السنوات الأولى من السلطة السوفياتية سنوات كفاح وصعوبات وتضحيات ذاتية . لكن الناس كانوا ما زالوا على ايمانهم بالحزب . حتى أكثر المواطنين امية فهموا شعارات الحزب التي ألبت الجماهير من حوله . وكان الناس يعلمون ان هذه الصعوبات قد فرضها علينا البورجوازيون - سواء الداخليون منهم او بورجوازيو العالم كله . وكنا نقول لانفسنا ان الاحوال مهما ساءت فانها تبقى أقل سوءاً مما كانت عليه قبل الثورة .

الا ان ذلك ، في الواقع ، لم يكن حال كل الناس . فقد كان امهر عمال المناجم ، حيث كنت اعمل في دونباس ، أحسن حالا قبل الثورة مما اضحوا مباشرة بعدها . واستطيع القول ، بصدد احوالي المادية ، اني عشت في حالة اسوأ بعد الثورة وانا نائب مدير عمليات التعدين مما كنت عليه يوم لم أكن الا عاملاً بسيطاً في منجم .

لقد خضع معظمنا للحرمان ، لانه وفق اجتهادنا ، كان علينا عصر آخر طاقة من انتاجنا ومن مواردنا حتى نصنع البلاد بأسرع ما يمكن . ذلك انه اذا كان علينا البقاء ، كان علينا اللحاق بالرأسماليين . ويتطلب احياناً تحقيق هذا الهدف التضحية بالمبادئ الاخلاقية فضلاً عن الرفاه المادي .

الا ان الشعب بصورة عامة ، قبل هذه التضحيات بسرور من أجل الحزب . وهكذا ، ففي مدى سنوات قليلة انشأنا مجتمعاً صناعياً حديثاً .

في تلك السنوات ، لم يكن المتسبب للشيوعية يأمل بثواب عاجل على تضحياته . ولم يعد الأمر كذلك اليوم . بالتأكيد لم يزل بين الشيوعيين قوم من أصحاب المبادئ ، ولكن بينهم ايضاً رجالا موظفين متملقين ، ومخترفين صغاراً لا مبادئ لهم .

اليوم باتت بطاقة الحزب في اغلب الاحيان تمثل لحاملها الأمل في الحصول على مكان مريح وملائم لكفاءاته في مجتمعنا الاشتراكي . والناس الدهاة في هذه الأيام يدبرون أمرهم بحيث يأخذون من المجتمع أكثر بكثير مما يعطونه . ان

موقفهم هو خرق للمبدأ القائل بالتعويض على المواطن حسب كمية العمل ونوعيته الذي يقدمه لبناء الشيوعية . هذا محزن ولكنه حقيقي . ان هذه الحالة هي بلاء زماننا .

انا لا اقصد القول انه لم يكن ثمة قدر من الانتهازية بين المرشحين للدخول في الحزب الشيوعي في السنوات الأولى من الثورة . لقد وجد ذلك ولكن في نطاق اضيق كثيراً مما هو قائم الآن . لم أزل أذكر انه ابان الحرب الاهلية عندما شتتا هجومنا على مدينة مالوارخانجيسك ، سألتني معلم مدرسة بليد الذهن ، عن المنصب الذي سيقبض له شغله اذا ما انضم إلى الحزب الشيوعي . لقد اثار هذا السؤال غضبي المباشر الا انني مارست ضبط النفس وقلت : « سيعطى لك المنصب الأكثر مسؤولية والأكثر هبة » .

فسأل : « أي منصب ؟ »

فأجبت : « ستعطى بندقية وترسل إلى الحرب ضد الحرس الابيض ، فيتاح لك حظ الاسهام في تقرير ما اذا كانت السلطة السوفياتية ستبقى وتنتصر في بلادنا . وهل من مسؤولية اعظم من هذه ؟ »

فقال : « ولكن ماذا إذا لم انضم إلى الحزب ؟ »

فقلت : « هذا هو الاحسن . لأن الحزب يكون أفضل بدونك » .

في هذه الفترة من الحرب الاهلية وسنوات المصاعب اللاحقة ، استحق ستالين لقبه « ملتهم الاخصائيين » . وكان « ملتهم الاخصائيين » يعني من يرفض الثقة بالاختصاصيين البورجوازيين الذين كان لينين قد اعتمد على مساعدتهم لاسيما في انشاء الجيش الاحمر (١). وفي تلك الايام كان تروتسكي على رأس مفوضية الشعب للدفاع . ومن الطبيعي ان تروتسكي اتبع التوجيهات التي تلقاها من لينين بالسعي الى ان ينطوع في الجيش الاحمر ضباط بورجوازيون ممن تدربوا في الاكاديميات العسكرية القيصرية .

ولكن ستالين في السنوات التالية ، كان يتغنى بانه رفض التعاطي مع الضباط البورجوازيين الذين ارسلهم تروتسكي إلى تسارتسين ، وان هؤلاء ظهرت خيانتهم فيما بعد .

(١) كان تروتسكي بوصفه وزير الدفاع عند لينين هو مثيـء الجيش الأحمر ، وانه من المثير ان خروشوف بعد اربعين سنة ينصفه . لقد نشأ الخلاف الأول بين تروتسكي وستالين في ستالينغراد (بطرسبورغ قبل ذلك) ابان الحرب الاهلية حول استخدام الضباط البورجوازيين .

لا بد من الاعتراف بأنه كان في هذه المرحلة ، ما يبرر بعض الحذر من الانتليجنسيا البورجوازية . ذلك ان معظم المثقفين فشلوا ، في ايام الثورة الأولى ، من ان يحددوا مواقعهم . وبعضهم هجر البلاد فور اندلاع الثورة ، وبعضهم الآخر حاول التخريب ضدها . وما تبقى منهم انضم بنشاط إلى الكفاح ضد السلطة السوفياتية ، فنظم المقاومة المسلحة المضادة . من هنا كان الموقف المضاد القوي ضد الاخصائيين بين الشعب . وكانت منظمات الحزب العاملة بتوجيهات لينين تجهد لضبط هذا الاتجاه وكبحه .

وبالاضافة إلى انعدام الثقة ، كانت الامتيازات الخاصة التي تمنح للاخصائيين تثير النفور منهم . ان ثمة تطورات محرجة ، لا مناص منها ، حدثت في مجتمعا وضاعفت في عدااء الشعب للمثقفين البورجوازيين الذين عبأهم لينين . كانت البلاد في حالة خراب وتلف ، واصبحت احوال العديد من العمال اسوأ مما كانت عليه في ظل الرأسمالية . كانوا يموتون جوعاً . ورغم ان العمال كانوا يقدمون تضحيات كبرى بارادة طيبة تحقيقاً للتصنيع وتحسين البلاد : الا ان انطباعهم العام كان ان احوالهم سيطرأ عليها تحسن مادي . لذلك ساءهم ان لا يشاركهم الاخصائيون البورجوازيون حالة الشدة والضيق التي كانوا يعانونها . وفي المجال الاخير ، هل بالامكان ان يكون الناس متساوين امام القانون دون ان يكونوا متساوين في الضمانات المادية ايضاً ؟ لقد تعلمنا في الحزب انه عندما نشرع في بناء الشيوعية فستوزع وسائل الاستهلاك بالتساوي على جميع الذين يكدحون . لكن هنا نحن ازاء اخصائيين بورجوازيين اسبغت عليهم امتيازات خاصة واجور عالية بينما كان يدفع للعمال اقل مما كانوا يتقاضون قبل الثورة .

اما السبب الداعي لذلك فيلخص بما يلي : كان للاخصائيين في ظل الرأسمالية مساكن خاصة مزودة بكل وسائل الراحة الضرورية ، بينما لم يكن للعمال شيء من هذا . وكانت « الخدمات الجماعية » للعمال تعني آباراً وبراميل ماء على مسافات بعيدة من مساكنهم ومعاملهم . وكان على العمال ان يجتازوا مجيدين المحافة إلى السوق ذهاباً واياباً وسط الأوحال بينما يمتطي الاخصائيون الاحصنة . فاضمر الشعب كرهاً رهيباً للاخصائيين وزوجاتهم وخدمهم بصورة خاصة .

ولكن رغم هذه المظالم الجلية فقد أدرك لينين والحزب الأهمية القصوى من وراء تعبئة الاخصائيين البورجوازيين للقضية نظراً لأنه دون اختصاصهم العلمي كان يتعذر بناء مجتمعنا على دعائم تكنولوجية . ان بناء المجتمع الشيوعي يتطلب معرفة علمية واسعة وعميقة . وادرك لينين والحزب ان الطريقة الوحيدة لتعبئة الاخصائيين للقضية كان في التوجه إلى مصالحهم المادية ، وكان هذا يعني منحهم

امتيازات معينة تكون على الأقل موازية جزئياً للامتيازات التي تمتعوا بها في ظل الرأسماليين . من هذه منحهم مساكن مقبولة ووسائل نقل كافية . فكان يعطى للمهندس الماهر زوج احصنة وسائق ، ويعطى للمهندس العادي حصان واحد فقط وسائق . ولم يكن ذلك ترفاً على الاطلاق ، الا انه كان يترأى لاذهان العمال انه كذلك .

وادرك لينين ان تطويع الضباط البورجوازيين في الجيش الاحمر يستدعي منحهم حرية اتخاذ القرارات على مسؤوليتهم . وكان على المفوضين مراقبة الضباط البورجوازيين دون التدخل في شؤونهم . تصوروا ان تعطى فجأة قيادة الجيش الأحمر لكونوبل سابق من الجيش القيصري القديم ! في خلال الحرب الاهلية شهدت العديد من سوء التفاهم ينشأ بين الضباط وبين المفوضين الأعلى منهم . وكما كان يذكرنا ستالين فيما بعد ، حدثت خيانات عديدة في اوساط الضباط البورجوازيين . ولكن قدراً من الحياة كان متوقفاً حصوله ، ذلك ان هؤلاء قد نشأوا في ظل النظام الرأسمالي القديم . وبعضهم كان قد جاء اليها مدفوعاً بالخوف ، وبعضهم جذبهم التغير الجديد ، وآخرون لانه لم يكن امامهم اي بديل آخر . كانوا يريدون الارتزاق . وغيرهم جاء مدفوعاً بعامل الحياة .

ولكن لم يكن لدى الحزب مجال الخيار . كنا بحاجة إلى ربح أكبر عدد ممكن من الاخصائيين لقضيتنا . لقد كان جزءاً من عبقرية لينين انه استطاع في لحظة حرجة كهذه تعلم بعض الدروس من الرأسماليين والافادة من خبرتهم واختصاصهم . اما ستالين فقد بقي « ملتهم اخصائيين » طيلة حياته . كانت السياسة الاقتصادية الجديدة هي التدبير الآخر الذي اتخذته لينين وكان موضع مشادة كبرى . وكانت هذه الخطوة التي اتخذها تتسم بالجرأة والحسم والخطورة ، غير ان ضرورات ملحة فرضتها . كانت مثلاً آخر على حكمة لينين واستشرافه البعيد . وهي تلك التي عنت جوهرياً إعادة الملكية الخاصة وبعث الطبقة الوسطى بما فيها الكولاك . فأعيدت الطبقة التجارية في مجتمعنا إلى الحياة . وكان ذلك ، إلى حد ما ، تراجعاً على الجبهة الايديولوجية الا انه ساعدنا على الابلال من آثار الحرب الأهلية . فما أن بوشر بالسياسة الاقتصادية الجديدة حتى أخذت الفوضى والمجاعة بالتقلص والانكفاء وعادت الحياة إلى المدن . كما عادت المحاصيل إلى الظهور مجدداً في الاسواق وتدنّت الاسعار .

وكان شعار الحزب في ذلك الزمن « تعلموا التجارة » ! كان مفروضاً ان نهزم التجار الخصوصيين ورجال السياسة الاقتصادية الجديدة لا باتخاذ التدابير الادارية ضدهم بل بالانتصار عليهم في لعبتهم بالذات . لقد حاولنا ان نأخذ القدر

الذي نستطيعه من التجارة لنضعها في ايدي الدولة . وحاولنا جاهدين ان نقدم في تعاونيات الدولة اسعاراً ادنى من تلك التي كان يقدمها رجال السياسة الاقتصادية الجديدة ، ونوعية أعلى ، وخدمات أفضل . غير اننا لم نصب نجاحاً كافياً . ذلك انه كان بإمكان التجار الذين يعملون لحسابهم الخاص ، عرض محاصيلهم بصورة أفضل ، واحاطة زبائنهم بعناية شخصية أكثر ، فالمخازن الخاصة كانت مدعاة تلبية لربات المنازل اللواتي يرغبن في استعراض السلع قبل شرائها وتفحص كل شيء بدقة .

اذكر انني عندما كنت اعمل في يوزوفكا كنت اذهب إلى السوق كل يوم تقريباً . وكنت اذهب رأساً إلى تعاونية العمال . وما ان تطأ قدمي مدخل المخزن حتى يبادرنى صديقي القديم فانيا (ايفان) كوزفنسكي الذي كان رئيس التعاونية قائلاً : « حسناً ، أعتقد أنك جئت لتعطيني ثانية ، اليس كذلك ؟ اننا نبذل اقصى ما نستطيع لمنافسة رجال السياسة الاقتصادية الجديدة ، الا ان الزبائن ما زالوا ، كما يبدو ، يجذون التجار الخصوصيين » .

وفي الزاوية الجنوبية من قطاع يوزوفكا الصناعي ، في نهاية طرف حقول التعدين ، كان المستوطنون اليونانيون يربون الدواجن . وكانوا يبيعون اللحوم وفي نطاق التعامل الخاص ، بأسعار بخسة . وما ان جاء خريف ١٩٢٥ حتى كانت في الاسواق وفرة من الخضار ، والبطيخ ، والدجاج ، وازدهى سعر اللحم بخساً . لقد عدنا إلى مستويات ما قبل الحرب . ومن حسن الحظ ان الحالة السياسية في ذلك الزمن كانت ملائمة . فقد كان العمال يفهمون خطوط الحزب المرشدة ويتبعونها . غير اننا بقينا نلاقي صعوبات بل نعاني آلاماً من عملية تكييف انفسنا على السياسة الاقتصادية الجديدة .

صعود الدرجات الاولى في سلم الحزب

ان صعود خروشوف في الجهاز الحزبي كان سريعاً . ورغم اصراره في امكنة متعددة من هذه الذكريات على انه كان يقبل الترفيع على مضض ، فالواقع انه بعد عودته إلى يوزوفكا بمدة قصيرة ، قرر ان مستقبله هو في الاحتراف الحزبي الكامل لا في الادارة الصناعية . ورغم انه في البدء لم يفهم المعاني الحقيقية لحملة ستالين الشديدة والناجحة ضد تروتسكي ، الا انه كان مديناً في مراحل عمله الاولى لكاغانوفيتش (انظر الملحق رقم ٣) ، الذي كان مقرباً جداً من ستالين . وبصورة مباشرة أكثر ، كان مديناً لسكرتير الحزب في يوزوفكا ، ك. ف . موزينكو الذي كان ستالينياً ملتزماً . هنا ،

كما فيما بعد ، يظهر جلياً انه لم يكن لدى خروشوف ادنى فكرة واضحة عن الخلافات السياسية بين مختلف فئات المعارضة الشيوعية . وكانت ماركسيته عقيدة ذات منشأ بدائي جداً - يمكن تسميتها عن حق - بماركسية الشعار او المتناف . وكان هرطوقي وعدو كل من يشكك بستاين . فمزاجياً كان خروشوف إلى جانب سفاحي ستالين واتباعه من قساة القلوب الذين بيدهم آلة التنفيذ ولا يسألون لقاء عملهم عن الثمن . وكان ضد المثقفين الذين أكثرهم تحذروا من خلفية بورجوازية ، والذين لم يلبث ستالين أن دمرهم . بعد موت لينين في ١٩٢٤ تأمر ستالين مع ج.أ. زينوفيف (رئيس الكومنترن ورئيس فرع ليننград) و ل. ب. كاميف (رئيس الجهاز الحزبي في موسكو) على تروتسكي فهزموه ، واحتفلوا بانتصارهم في المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول ١٩٢٥ والذي حضره خروشوف كمنسوب محلي . وفي هذا المؤتمر اعلن شعار « الاشتراكية في بلد واحد » . وقد شهد هذا المؤتمر ، كذلك القمع النهائي للحوار الحر ضمن الحزب . ثم تأمر ستالين مع ريكوف وبوخارين لاسقاط زينوفيف وكاميف . وفي ١٩٢٧ عندما كان خروشوف يسيطر على يوزوفكا لمصلحة ستالين ، طرد تروتسكي من الحزب . وعندما وصل خروشوف إلى موسكو في ١٩٢٩ ، كان قد بوشر بالخطة الخمسية الأولى ووقفت البلاد على شفير احداث رهبة نتجت عن التشريك الزراعي الاكراهي (المزارع الجماعية).

بامكاني القول انني بدأت ثقافتي السياسية عندما كنت لا ازال فتى في قرية كالينوفكا الصغيرة في دوبناس حيث ولدت . وكانت معلمتي آنذاك امرأة تدعى ليديا تشفشنكو . كانت ثورية وملحدة ايضاً . وهي التي غرست في نفسي بذور الوعي السياسي الأولى ، وأخذت تزيل مني آثار تربيتي الدينية المتزمتة . كانت والدتي متدينة جداً ، وكذلك كان والدها - جدي - الذي كان من الفلاحين الارقاء ، ولهذا الاعتبار جندوه في الجيش القيصري لمدة خمس وعشرين سنة .

وعندما اعود بالذاكرة إلى طفولتي استطيع ان اتذكر تماماً القديسين على الايقونات المعلقة في جدار كوخنا الخشبي ، وقد اسودت وجوههم من دخان المصابيح الزيتية . واذكر انني تعلمت الركوع والصلاة امام الايقونات . وعندما علمونا ان نقرأ ، كان ذلك كمي نقرأ الانجيل . الا ان ليديا وضعتني في طريق بعيد عن ذلك كله .

وقبل الثورة بسنوات كنت اصبحت قارئاً نهماً . وكنت في الغالب اقرأ الصحف البروليتارية والديمقراطية الاشتراكية . وبدأت اقرأ « البرافدا » فور

صدورها بانتظام في ١٩١٥ ، وكنت يومها في قسم المولدات في منجم باستوخوف قرب يوزوفكا . وكان عملي في باستوخوف واحداً من مجموعة اعمال التحقت بها بعد طردي لاشتراكي في اضراب جرى في ١٩١٥ . وكان يعمل معنا العديد من اسرى الحرب من الجيش النمساوي المجري ، أكثرهم من النمساويين ولكن بعضهم كان من التشيكيين ايضاً . وكنت على صلة طيبة مع التشيكوسلوفاكيين . كانوا يقولون لنا اننا معشر الروس اخوتهم في الرابطة السلافية ، وانهم لا يريدون الاشتباك في الحرب معنابل يريدون العيش بسلام وصداقة . واني اذكر اثنين منهم بصورة خاصة . كنت ادعوها الى مسكني فتناول الشاي والمربيات ، وبادلاني بتدريسي الرسم الميكانيكي الذي كان مفيداً لي جداً في مهنتي . كان التشيكيون يخبروني عن الحركة السلافية وعن روابط القرى والدم التي تشدنا اليهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذه الحركة وقد تركت في نفسي انطباعاً حسناً ، وإن واقع انهاري بما اخبرني التشيكيون عن الاخوة السلافية يظهر كم كنت بعيداً عن ادراك المفهوم الماركسي - اللينيني للتضامن الطبقي .

وعندما قرأت « جيرمينال » لامليل زولا ، شعرت انه لم يكن يكتب عن فرنسا ، بل عن المنجم الذي نعمل فيه ، والذي وانا . كان وضع العمال واحداً في فرنسا وفي روسيا . وعندما استمعت ، فيما بعد ، إلى محاضرات عن الاقتصاد السياسي تعرض فيها المحاضر إلى نظام الاجور في ظل الرأسمالية ، وإلى استغلال العمال ، بدا لي وكأن كارل ماركس كان في المنجم حيث كنت اكدح . وتراءى لي كأنما استنبط قوانينه من مراقبة حياتنا ، نحن معشر العمال . فدلل علمياً كيف ولماذا على العمال ان يحرروا انفسهم من العبودية الرأسمالية ويبنوا المجتمع الاشتراكي .

واصبحت بلشفيًا وعضوًا في الحزب الشيوعي بعد الثورة . وبعد مدة قصيرة التحقت بالجيش الأحمر كعامل سياسي وكسؤول دعائي . وما ان عدت من الجبهة بعد الحرب الاهلية حتى عينتني منظمة الحزب في يوزوفكا نائب مدير مناجم روشينكوف . وكنت قد عملت عشر سنوات هنا من قبل ، عندما كانت المناجم لم تزال ملكاً لشركة فرنسية . وكان مديرها في ١٩٢٢ صديقي الحميم يغور (جورجي) ترر فيموفيتش اباكوموف . واصبح اباكوموف هذا وزيراً لصناعة الفحم فيما بعد وهو غير الذي اصبح وزيراً للشؤون الداخلية في ظل ستالين . وعرضت علي ادارة مناجم باستوخوف الا انني طلبت اعفائي من الواجبات الحزبية حتى ينسني لي الدرس في كلية العمال في يوزوفكا . وبعد اصرار في الطلب نجحت في الاخير بحمل ابرام بافلوفيتش زافنياجين ، سكرتير اللجنة المحلية للحزب

كما فيما بعد ، يظهر جلياً انه لم يكن لدى خروشوف ادنى فكرة واضحة عن الخلافات السياسية بين مختلف فئات المعارضة الشيوعية . وكانت ماركسيته عقيدة ذات منشأ بدائي جداً - يمكن تسميتها عن حق - بماركسية الشعار او الهتاف . وكان هرطوقي وعدو كل من يشكك بتالين . فمزاجياً كان خروشوف إلى جانب سفاحي ستالين واتباعه من قساة القلوب الذين يدهم آلة التنفيذ ولا يسألون لقاء عملهم عن الثمن . وكان ضد المثقفين الذين أكثرهم تحدروا من خلفية يورجوازية ، والذين لم يلبث ستالين أن دمرهم . بعد موت لينين في ١٩٢٤ تأمر ستالين مع ج.أ. زينوفيف (رئيس الكومنترن ورئيس فرع ليننغراد) و ل. ب. كاميف (رئيس الجهاز الحزبي في موسكو) على تروتسكي فهزموه ، واحتفلوا بانتصارهم في المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول ١٩٢٥ والذي حضره خروشوف كندوب محلي . وفي هذا المؤتمر اعلن شعار « الاشتراكية في بلد واحد » . وقد شهد هذا المؤتمر ، كذلك القمع النهائي للحوار الحر ضمن الحزب . ثم تأمر ستالين مع ريكوف وبوخارين لاسقاط زينوفيف وكاميف . وفي ١٩٢٧ عندما كان خروشوف يسيطر على يوزوفكا لمصلحة ستالين ، طرد تروتسكي من الحزب . وعندما وصل خروشوف إلى موسكو في ١٩٢٩ ، كان قد بوشر بالخطة الخمسية الأولى ووقفت البلاد على شفير احداث رهبة نتجت عن التشريك الزراعي الاكراهي (المزارع الجماعية).

بامكاني القول انني بدأت ثقافتي السياسية عندما كنت لا ازال فتي في قرية كاليونوكا الصغيرة في دوبناس حيث ولدت . وكانت معلمتي آنذاك امرأة تدعى ليديا تشفشنكو . كانت ثورية وملحدة ايضاً . وهي التي غرست في نفسي بذور الوعي السياسي الأولى ، وأخذت تربيل مني آثار تربيتي الدينية المترتبة . كانت والدتي متدينة جداً ، وكذلك كان والدها - جدي - الذي كان من الفلاحين الارقاء ، ولهذا الاعتبار جندوه في الجيش القيصري لمدة خمس وعشرين سنة .

وعندما اعود بالذاكرة إلى طفولتي استطع ان اتذكر تماماً القديسين على الايقونات المعلقة في جدار كوخنا الخشبي ، وقد اسودت وجوههم من دخان المصابيح الزيتية . واذكر انني تعلمت الركوع والصلاة امام الايقونات . وعندما علمونا ان نقرأ ، كان ذلك كمي نقرأ الانجيل . الا ان ليديا وضعتني في طريق بعيد عن ذلك كله .

وقبل الثورة بسنوات كنت اصبحت قارئاً نهماً . وكنت في الغالب اقرأ الصحف البروليتارية والديمقراطية الاشتراكية . وبدأت اقرأ « البرافدا » فور

صدورها بانتظام في ١٩١٥ ، وكنت يومها في قسم المولدات في منجم باستوخوف قرب يوزوفكا . وكان عملي في باستوخوف واحداً من مجموعة اعمال التحقت بها بعد طردي لاشتراكي في اضراب جرى في ١٩١٥ . وكان يعمل معنا العديد من اسرى الحرب من الجيش النمساوي المجري ، أكثرهم من النمساويين ولكن بعضهم كان من التشيكيين ايضاً . وكنت على صلة طيبة مع التشيكوسلوفاكيين . كانوا يقولون لنا اننا معشر الروس اخوتهم في الرابطة السلافية ، وانهم لا يريدون الاشتباك في الحرب معنا بل يريدون العيش بسلام وصداقة . واني اذكر اثنين منهم بصورة خاصة . كنت ادعوها إلى مسكني فتناول الشاي والمربيات ، وبادلاني بتدريسي الرسم الميكانيكي الذي كان مفيداً لي جداً في مهنتي . كان التشيكيون يخبروني عن الحركة السلافية وعن روابط القرى والدم التي تشدنا اليهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذه الحركة وقد تركت في نفسي انطباعاً حسناً ، وإن واقع انهاري بما اخبرني التشيكيون عن الاخوة السلافية يظهر كم كنت بعيداً عن ادراك المفهوم الماركسي - اللينيني للتضامن الطبقي .

وعندما قرأت « جيرمينال » لامليل زولا ، شعرت انه لم يكن يكتب عن فرنسا ، بل عن المنجم الذي نعمل فيه ، والذي وانا . كان وضع العمال واحداً في فرنسا وفي روسيا . وعندما استمعت ، فيما بعد ، إلى محاضرات عن الاقتصاد السياسي تعرض فيها المحاضر إلى نظام الاجور في ظل الرأسمالية ، وإلى استغلال العمال ، بدا لي وكأن كارل ماركس كان في المنجم حيث كنت اكدح . وترأى لي كأنما استنبط قوانينه من مراقبة حياتنا ، نحن معشر العمال . فدلل علمياً كيف ولماذا على العمال ان يحرروا انفسهم من العبودية الرأسمالية ويبنوا المجتمع الاشتراكي .

واصبحت بلشفيًا وعضواً في الحزب الشيوعي بعد الثورة . وبعد مدة قصيرة التحقت بالجيش الأحمر كعامل سياسي وكمسؤول دعائي . وما ان عدت من الجبهة بعد الحرب الاهلية حتى عينتني منظمة الحزب في يوزوفكا نائب مدير مناجم روشينكوف . وكنت قد عملت عشر سنوات هنا من قبل ، عندما كانت المناجم لم تزال ملكاً لشركة فرنسية . وكان مديرها في ١٩٢٢ صديقي الحميم بغور (جورجي) تررفيموفيتش اباكوموف . واصبح اباكوموف هذا وزيراً لصناعة الفحم فيما بعد وهو غير الذي اصبح وزيراً للشؤون الداخلية في ظل ستالين . وعرضت علي ادارة مناجم باستوخوف الا انني طلبت اعفائي من الواجبات الحزبية حتى يتسنى لي الدرس في كلية العمال في يوزوفكا . وبعد اصرار في الطلب نجحت في الاخير بحمل ابرام بافلوفيتش زافنياجين ، سكرتير اللجنة المحلية للحزب

كما فيما بعد ، يظهر جلياً انه لم يكن لدى خروشوف ادنى فكرة واضحة عن الخلافات السياسية بين مختلف فئات المعارضة الشيوعية . وكانت ماركسيته عقيدة ذات منشأ بدائي جداً - يمكن تسميتها عن حق - بماركسية الشعار او الحتاف . وكان هرطوتي وعدو كل من يشكك بستاين . فمزاجياً كان خروشوف إلى جانب سفاحي ستاين واتباعه من قساة القلوب الذين بيدهم آلة التنفيذ ولا يسألون لقاء عملهم عن الثمن . وكان ضد المثقفين الذين أكثرهم تحدروا من خلفية بورجوازية ، والذين لم يلبث ستاين أن دمرهم . بعد موت لينين في ١٩٢٤ تأمر ستاين مع ج.أ. زينوفيف (رئيس الكومنترن ورئيس فرع ليننград) و ل. ب. كامنيف (رئيس الجهاز الحزبي في موسكو) على تروتسكي فهزموه ، واحتفلوا بانتصارهم في المؤتمر الرابع عشر في كانون الأول ١٩٢٥ والذي حضره خروشوف كندوب محلي . وفي هذا المؤتمر اعلن شعار « الاشتراكية في بلد واحد » . وقد شهد هذا المؤتمر ، كذلك القمع النهائي للحوار الحر ضمن الحزب . ثم تأمر ستاين مع ريكوف وبوخارين لاسقاط زينوفيف وكامنيف . وفي ١٩٢٧ عندما كان خروشوف يسيطر على يوزوفكا لمصلحة ستاين ، طرد تروتسكي من الحزب . وعندما وصل خروشوف إلى موسكو في ١٩٢٩ ، كان قد بوشر بالخطبة الحمسية الأولى ووقفت البلاد على شفير احداث رهيبه نتجت عن التشريك الزراعي الاكراهي (المزارع الجماعية).

بامكاني القول انني بدأت ثقافتي السياسية عندما كنت لا ازال فتى في قرية كاليونوكا الصغيرة في دوبناس حيث ولدت . وكانت معلمتي آنذاك امرأة تدعى ليديا تشفشنكو . كانت ثورية وملحدة ايضاً . وهي التي غرست في نفسي بذور الوعي السياسي الأولى ، وأخذت تزيل مني آثار تربيتي الدينية المترتبة . كانت والدتي متدينة جداً ، وكذلك كان والدها - جدي - الذي كان من الفلاحين الارقاء ، ولهذا الاعتبار جندوه في الجيش القيصري لمدة خمس وعشرين سنة .

وعندما اعود بالذاكرة إلى طفولتي استطيع ان اتذكر تماماً القديسين على الايقونات المعلقة في جدار كوخنا الخشبي ، وقد اسودت وجوههم من دخان المصابيح الزيتية . واذكر انني تعلمت الركوع والصلاة امام الايقونات . وعندما علمونا ان نقرأ ، كان ذلك كهي نقرأ الانجيل . الا ان ليديا وضعتني في طريق بعيد عن ذلك كله .

وقبل الثورة بسنوات كنت اصبحت قارئاً نهماً . وكنت في الغالب اقرأ الصحف البروليتارية والديمقراطية الاشتراكية . وبدأت اقرأ « البرافدا » فور

صدورها بانتظام في ١٩١٥ ، وكنت يومها في قسم المولدات في منجم باستوخوف قرب يوزوفكا . وكان عملي في باستوخوف واحداً من مجموعة اعمال التحقت بها بعد طردي لاشتراكي في اضراب نجرى في ١٩١٥ . وكان يعمل معنا العديد من اسرى الحرب من الجيش النمساوي المجري ، أكثرهم من النمساويين ولكن بعضهم كان من التشيكيين ايضاً . وكنت على صلة طيبة مع التشيكوسلوفاكيين . كانوا يقولون لنا اننا معشر الروس اخوتهم في الرابطة السلافية ، وانهم لا يريدون الاشتباك في الحرب معنا بل يريدون العيش بسلام وصداقة . واني اذكر اثنين منهم بصورة خاصة . كنت ادعوها إلى مسكني فتناول الشاي والمربيات ، وبادلاني بتدريسي الرسم الميكانيكي الذي كان مفيداً لي جداً في مهنتي . كان التشيكيون يخبروني عن الحركة السلافية وعن روابط القرى والدم التي تشدنا اليهم . وكانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذه الحركة وقد تركت في نفسي انطباعاً حسناً ، وإن واقع انهاري بما اخبرني التشيكيون عن الاخوة السلافية يظهر كم كنت بعيداً عن ادراك المفهوم الماركسي - اللينيني للتضامن الطبقي .

وعندما قرأت « جيرمينال » لامليل زولا ، شعرت انه لم يكن يكتب عن فرنسا ، بل عن المنجم الذي نعمل فيه ، والذي وانا . كان وضع العمال واحداً في فرنسا وفي روسيا . وعندما استمعت ، فيما بعد ، إلى محاضرات عن الاقتصاد السياسي تعرض فيها المحاضر إلى نظام الاجور في ظل الرأسمالية ، وإلى استغلال العمال ، بدا لي وكأن كارل ماركس كان في المنجم حيث كنت اكدح . وتراءى لي كأنما استنبط قوانينه من مراقبة حياتنا ، نحن معشر العمال . فدلل علمياً كيف ولماذا على العمال ان يحرروا انفسهم من العبودية الرأسمالية ويبنوا المجتمع الاشتراكي .

واصبحت بلشفياً وعضواً في الحزب الشيوعي بعد الثورة . وبعد مدة قصيرة التحقت بالجيش الأحمر كعامل سياسي وكمسؤول دعائي . وما ان عدت من الجبهة بعد الحرب الاهلية حتى عينتني منظمة الحزب في يوزوفكا نائب مدير مناجم روشينكوف . وكنت قد عملت عشر سنوات هنا من قبل ، عندما كانت المناجم لم تزال ملكاً لشركة فرنسية . وكان مديرها في ١٩٢٢ صديقي الحميم بغور (جورجي) ترزيموفيتش اباكوموف . واصبح اباكوموف هذا وزيراً لصناعة الفحم فيما بعد وهو غير الذي اصبح وزيراً للشؤون الداخلية في ظل ستالين . وعرضت علي ادارة مناجم باستوخوف الا انني طلبت اعفائي من الواجبات الحزبية حتى يتسنى لي الدرس في كلية العمال في يوزوفكا . وبعد اصرار في الطلب نجحت في الاخير بحمل ابرام بافلوفيتش زافنياجين ، سكرتير اللجنة المحلية للحزب

على ارسالي إلى كلية العمال .

بعد ذلك احتلت مناصب مختلفة في منظمة الحزب في يوزوفكا . وفي كانون الأول ١٩٢٥ انتخبت مندوباً للمؤتمر الرابع عشر للحزب في موسكو . وكان رئيس منظمة يوزوفكا في ذلك الوقت طالب طب يدعى كوستيان موزينكو . كان يحمل اثراً بورجوازيّاً في نفسه ، ويقيم علاقات مع اشخاص افضل قليلاً من رجال السياسة الاقتصادية الجديدة . وعندما نقلناه فيما بعد من سكرتيرية منظمنا ، تسببنا بضجة وصلت إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاوكراني التي ارسلت بعثة إلى يوزوفكا للتحقيق في نقله . وفي النهاية ايدتنا البعثة ضده . كان موزينكو خطيئاً رائعاً ومنظماً ممتازاً . ولم يكن بالامكان تجريده من ذلك . وعند انعقاد المؤتمر الرابع عشر كان لم يزل اثره قوياً في عقول الشيوعيين في قطاعنا . كان لا يدانيه أحد في الفرع المحلي . (١)

ومن بين الاربعة مندوبين والاربعة مندوبين استشاريين الذين اختيروا للذهاب إلى المؤتمر عن منطقتنا ، كنت مندوباً استشارياً . لقد جرى اختيارنا ديمقراطياً على اساس حجم دوائرنا الحزبية . ولما كنت أُرأس منطقة بتروفسكو - مارينسك التي جاء ترتيبها السادسة او السابعة في الحجم الحزبي بين مناطق قطاعنا ، كان مناسباً اختياري عضواً استشارياً بدل اختياري عضواً مقررّاً .

كان سروري بالغا في ان تتاح لي فرصة مشاهدة موسكو وحضور مؤتمر الاتحاد كله . فترلنا في بيت السوفيات الرقم ٣ في كاريتني . وكان مقرنا بسيطاً ومزدحماً . نمنا على اسرة مصنوعة من الواح خشبية واحدنا إلى جوار الآخر كالحطب . اذكر ان بوشتييف ، سكرتير منظمة خاركوف كان ينام وزوجته في الصف مع آخرين منا (٢) ولقد اثار هذا الترتيب بعض الفكاهات على حساب بوشتييف ولكنها كانت كلها مريحة وبروح رياضية . كنا جميعنا شباناً وكان بوشتييف رجلاً محترماً في الحزب .

وصباح اول يوم وصولنا إلى موسكو حاولت ان اركب الحافلة الكهربائية إلى الكرملين ، لكنني لم أعرف اي خط انتقي فكان ان ضللت الطريق . ومنذ ذلك الوقت بدأت استفيق باكراً واتوجه إلى الكرملين مشياً على القدمين ، حتى انني كنت أعدّل عن طعام الفطور لكي أوّمن لنفسي مقعداً في مكان جيد .

-
- (١) في المؤتمر الرابع عشر ميز موزينكون نفسه بالهتاف ضد المعارضة والانتصار لتالين . ولكنه طهر فيما بعد مع آخرين بتهمة الفساد .
(٢) بافيل بوشتييف ستاليني مخلص صعد إلى القمة في اوكرانيا ثم جرفته التطهيرات فأعدم .

وكان لكل وفد مجموعة من المقاعد . الا انه ضمن المجموعة هذه كان يحظى بأفضل المقاعد من يأتي مبكراً . وحاولت دوماً ان اجد مقعداً لي في المقدمة المواجهة للمنصة . وكان المؤتمر يعقد في القاعة التي ينعقد فيها الآن مجلس السوفيات الاعلى . وفي ذلك الزمن لم يكن بعد قد تم اعادة بنائه وكان المكان يعرف بقاعة فلاديمير . كانت الوفود الاوكرانية تجلس في وسط القاعة ووفد يوزوفكا كان يحتل الصفوف الامامية من الوسط . واعطي للمنظمة البروليتارية في دونباس افضل المقاعد نظراً لموقعها الاستراتيجي في منظمة الحزب في اوكرانيا .

وكان يرئس المنظمة الاوكرانية لازار موسيفتش كاغانوفيتش ، وكان مكتبه السياسي مولفأ من بتروفسكي ، وشوبار ، وشيخير ، وسكربنك ، وكان كاغانوفيتش السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الاوكراني وشوبار رئيساً لمجلس وزراء اوكرانيا (١) .

لقد ترك المؤتمر الرابع عشر انطباعاً باقياً في نفسي . فهنا ، كنت على قيد اقدام قليلة من قادة الدولة والحزب ! وسنحت لي آنذاك اول فرصة لان ارى ستالين شخصياً ، واعجبت به كثيراً . اعتقد ان بإمكانني تعليل ذلك بذكر حادثة وقعت خلال انعقاد المؤتمر . فذات مرة طلب رئيس منظمة حزبنا الاقليمية الرفيق موزينكو ان يسمح الرفيق ستالين بالتقاط صور له مع وفدنا . فاعلمنا انه يرغب في الانضمام إلى تجمعنا عند التقاط الصور وسيلفنا عن وقت فراغه المناسب . وانتظرنا طويلاً . واخيراً اخبرنا بان نجتمع في قاعة كاترين خلال استراحة المؤتمر . ووصل ستالين وجلس ، وتحلقنا حوله .

وذهب المصور ، واسمه بيتروف ، إلى آلة التصوير وأخذ بترتيب الجماعة وتبثتها للصورة . وكان بيتروف اخصائياً مرموقاً في حرفته . وقد عمل لمدة سنوات قرب الكرملين ، وهو معروف جيداً من العاملين في الحزب . وبدأ بيتروف باعطائنا التعليمات حول كيف يجب ان نقف وإلى اية جهة يجب ان ندير وجوهنا . وفجأة صاح ستالين بصوت استطاع الجميع سماعه : « ان الرفيق بيتروف يجب ان يعطي الأوامر للناس الذين حوله . لكن هذا أصبح ممنوعاً هنا الآن . ليس مسموحاً لاحد بأن يأمر أحداً بعد الآن » . ورغم ان ستالين قال ذلك بلهجة مازحة ،

(١) الاسماء المهمة هنا عدا كاغانوفيتش هي شوبار وسكربنك . شوبار كان رئيس وزراء اوكرانيا وسكربنك وزير التربية . وقد قاوم سكربنك بشجاعة حملة التطهير الأولى في اوكرانيا التي شنها بوشتيف ضد الوطنيين الاوكرانيين ثم انتحر في ١٩٣٣ . ان مصير هؤلاء جميعاً وسواهم موصوف في الفصل الثالث .

الا اننا جميعاً حملنا قوله على محمل الجد ، وتأثرنا بالروح الديمقراطية التي أظهرها .
ورقع حادث مشابه بعد سنوات قليلة عندما أخذ صديقي ليف ابراموفتش
ريمبكي جماعة من الطلبة إلى موسكو لمشاهدة معالمها . وقرر ريمبكي ان يسأل
ستالين اذا كان يسمح باستقبال وفد الطلبة هؤلاء . واخبرني ليف ابراموفتش
فقال : « اتصلت بالكرملين فوصلوني رأساً بستالين . يا لسهولة الوصول اليه ! »
فوافق ستالين على استقبالنا . وعندما وصلنا إلى مكتبه ، قلت : « ايها الرفيق
ستالين ، لقد جئنا من المدينة المعروفة سابقاً بيوزوفكا التي تحمل اليوم اسمكم .
انها تدعى « ستالينو » . لذلك نرغب في الطلب اليكم ان تزودونا برسالة تحية
نحملها معنا منكم إلى عمال ستالينو » . راليك كيف اجاب ستالين طلبي :
« من تعتقد انني أكون ؟ ، أقطاعي كبير انا ؟ ان العمال في المصانع ليسوا أرقاء
مقطوعين عندي . من المهانة ان أكذب اليهم رسالة تحية .. انا لن افعل ذلك
ولا أحب هذا الأمر عندما يفعله غيري » . وكان ان فوجيء ليف
ابراموفتش مفاجأة سارة بهذا الجواب . فما ان عاد إلى بلده حتى نشر هذه القصة
ليبين روح ستالين الديمقراطية ، وسهولة الوصول اليه ، وفهمه السليم لمكانته .

كان معظم ما شاهدت او سمعت عن ستالين خلال هذه السنوات المبكرة
يسرني كثيراً . في العشرينات وزعت على منظمات الحزب في كل البلاد نسخ
عن محاضر جلسات المكتب السياسي . وكانت تقرأ وتدرس من قبل اعضاء الحزب
الناشطين . اذكر انني قرأت في احدى هذه النسخ جدلاً بين ستالين وواحد من
اثنين ، اما تروتسكي او زينوفيف . وقد انطبعت في ذاكرتي جملة من اقوال
ستالين تلك « سأبذل كل ما في طاقتي للحفاظ على وحدة الحزب وتوطيد وحدة
اتجاه حركتنا . الا ترى ماذا تفعل ؟ يا الله . (١) ايها الرجل الا ترى ما تقول ؟
ولكن ليكن الله معك : ليكن الله في عونك ! » والان ، رغم ان ستالين قد درس
في مدرسة اكليريكية الا انه لم يكن رجلاً متديناً ، وان مثل هذه العبارة لا تعبر عن
طابعه . ولكنني فهمت قوله « ليكن الله في عونك » ، على انه يعني « ليس عندي
من مزيد ابذله لمساعدتك . انني لا اتمنى لك شراً . فليكن الله معك وليبصرك
باخطاء اتجاهاتك . » ولما كنت انا ايضاً غير متدين ولم أكن كذلك على الاطلاق ،
الا انني سررت بهذا الدليل على رحابة صدر ستالين وسماحته ازاء خصومه .

في ١٩٢٥ لم يكن الناس يعرفون شيئاً بعد عن حقيقة الصراع الشرس الدائر
داخل الحزب . فقد برز ستالين كسكرتير عام للحزب بينما كان لينين لم يزل

(١) الاتحاد صفة ملازمة للماركسية وخروشوف يكتب الله بحروف صغيرة .

على قيد الحياة ، وتروتسكي لما يزل ناشطاً . وهكذا كرت سنوات عديدة قبل ان يعرف دور ستالين على حقيقته في اوساط الحزب فضلاً عن الجماهير .

في ١٩٢٧ حضرت - كمندوب للمرة الثانية على التوالي عن منظمة الحزب في يوزوفكا - المؤتمر الخامس عشر الذي اتخذ فيه ستالين ومؤيدوه موقف المقاتل ضد الزينوفيين او ما عرف «بالمعارضة اللينينغرافية» . واذكر اننا كنا نقول حتى طهر الدوري كان يزقزق الاخبار إلى رجل الشارع ، وأن انشقاقاً قد وقع في حزبنا . واستقر وفدنا ثانية في بيت السوفيات في الرقم ٣ من شارع كارتني . وما ان وصلنا إلى موسكو حتى قيل لنا ان ياكوف اركاديفتش ياكوفليف سيأتي ليحدثنا حول بعض التطورات في الحزب وليحدثنا من الحالة المحتمل نشوبها في المؤتمر . (١) واعتقد ان ياكوفليف كان واحداً من نواب سيرجو أردزونيكيدز (٢) . وعرفنا ان ياكوفليف آت ليحدثنا على اساس تكتلي ، اذ طلب اليانا ان لا نسمح لاحد من خارج بحضور اجتماع الوفود الاوكرانية (٣) . وادركنا كذلك ان ياكوفليف سيبلغنا معلومات وتوجيهات سرية صادرة مباشرة من ستالين بالذات . ولقد اوضح لنا ياكوفليف اين نفترق عن الزينوفيين واخبرنا ما هو مطلوب منا القيام به . وبكلام آخر ، هبنا للقيام بعمل تكتلي ضد المعارضة الزينوفية - الكامينفية التي كانت تزداد قوة . وكان زينوفيف رئيس الكومنترن ، المنظمة الشيوعية الدولية التي تدبر دفة الثورة الاممية . من هنا ، كان زينوفيف ، باعتباره الشخص الرئيسي في الحركة الشيوعية الدولية ، ذا سلطة ومكانة مرموقين . ووضح ياكوفليف لنا ان زينوفيف سيكون الخطيب المشارك مع ستالين في المؤتمر . (وكان زينوفيف قد القى هو التقرير العام بعد وفاة لينين كما كان خطيباً مشاركاً مع ستالين في المؤتمر الرابع عشر المنعقد في ١٩٢٥) .

-
- (١) ب. أ. ياكوفليف الذي شغل مسؤولية مفوض الشعب للزراعة تورط كثيراً في التفريط الذي صاحب التجمع الزراعي ورغم ولائه لستالين وثقة ستالين السابقة به فهذا لم ينجه من الاعدام في ١٩٣٨ كانهازي يمخي . والذي يبعث على السخرية ان الانتهازيين «اليمينيين» كانوا يعارضون التجمع الزراعي !
- (٢) كان سيرجوار دزونيكيدز مثل ستالين ، جورجياً . وكان لسنوات مقرباً من ستالين .
- (٣) هذا الغزل بين الوفود الشيوعية من مختلف جمهوريات الاتحاد اسلوب ستاليني مارسه ستالين منذ ١٩٢٧ مانماً الوفود من الحوار فيما بينها . وقد شككت الوفود الشيوعية من احزاب مختلف البلدان في مؤتمر ١٩٦٠ في موسكو من ان الرفاق السوفيات (هذه المرة بقيادة خروشوف نفسه) قد رفضوا السماح لهم بالاجتماع والحوار .

واخبرنا يا كوفليف ايضاً ان وفد ليننغراد إلى المؤتمر الخامس عشر قد وجه رسالة إلى رئاسة المؤتمر يطلب فيها ، اعتماداً على قوانين الحزب ، ان يعطى زينوفيف وقتاً مساوياً للوقت المخصص لستالين .

وعندما بدأ المؤتمر وجدنا انفسنا ثانية نحتل المكان الاوسط من القاعة . وإلى يسارنا كان وفد ليننغراد ، وإلى يميننا كان وفد موسكو . وكنا على اتصال مع الوفد الموسكوفي ننسق نشاطاتنا معه ضد معارضة ليننغراد . وكانت الابحاث وكان الجدل يجريان على قدم وساق في كل مكان ، بصورة رسمية وبصورة غير رسمية ، في حلقات كبرى وفي حلقات صغرى ، خلال جلسات المؤتمر وابان فترات الاستراحة ، داخل قاعة القديس جرجس وخارجها في الممرات .

وكم كان حزني بالغاً عندما وجدت رفيقي القديم ابرامسون في معسكر العذر . فقد كان محرراً لجريدة «ديكتاتورية العمل» في يوزوفكا عند رجوعي من الجبهة في ١٩٢٢ ، والآن كان يعمل في ليننغراد كمسكرتير في احدى لجان المنطقة . كان شيوعياً طيباً ، ولكنه كسائر أفراد فرع ليننغراد ، كان من الزينوفيفيين . وكان الزينوفيفيون قد اضافوا باداييف ونيقولاييفا (١) إلى وفدهم بحيث يكون للمعارضة ثقل أكثر في المؤتمر . وكان هؤلاء اعضاء حزبيين ناشطين ، وقد ماتوا جميعاً الآن .

وتكلم ستالين ، وريكوف ، وبوخارين ممثلين خط اللجنة المركزية – اي خط ستالين . وكان هناك خط اللجنة المركزية من جهة وخط المعارضة من جهة أخرى . ولم يكن بينهما مجال للوقوف في الوسط .

اود ان اقول كلمة في بوخارين ، كان وافر الاحتدام وكثير الشعبية . لقد شاهدته وسمعته يخطب في ١٩١٩ عندما كنت أوذي خدمتي في الجيش الأحمر . فقد دعيت بوصفي سكرتيراً لخليفتنا الحزبية إلى اجتماع لاعضاء الحزب الناشطين في مقاطعة كورسك خطب فيه بوخارين . وقد حاز على اعجاب الجميع ووجدت نفسي مجذوباً اليه باندعاش . كان يملك شخصية جذابة وروحاً ديمقراطية قوية . وقابلت فيما بعد رفاقاً عملوا معه ، وكانوا شيوعيين بسطاء وتقدميين من موسكو قريبين إلى مستويي الحزبي والسياسي . فأخبروني كيف كان بوخارين يعايشهم في مهاجعهم ويخالسهم في ردهة الطعام إلى موائدهم ، وقد ترك ذلك في

(١) كانت نيقولاييفا ، عدا نادزا كروبيسكايا زوجة لينين المرأة الوحيدة العضو في اللجنة المركزية عشية التطهير الكبير . ورغم تأييدها لزينوفيف الا انها نجت من موجة التطهير واحتفظت بمركزها .

نفسي انطباعاً شديداً . وكان بوخارين كذلك رئيس تحرير البرافدا ، ومفكر الحزب الرئيسي . وقد تكلم لينين دوماً عنه بعطف ولفظ اسمه بتعجب . ووضع بوخارين كتابه « الف باء الشيوعية » بناء على توجيهات لينين . وكان كل من ينضوي إلى الحزب يتتقف بالماركسية-اللينينية عن طريق درس كتاب بوخارين هذا . وبكلمة مختصرة ، نستطيع القول ان بوخارين كان محبوباً كثيراً في الحزب . خلال المؤتمر الخامس عشر للحزب قدم وفد من الوفود إلى بريزيبوم المؤتمر مكنسة فولاذية . وقد القى ريكوف ، الذي كان يرئس البريزيبوم ، خطبة قال فيها : « انني اقدم هنا هذه المكنسة الفولاذية للرفيق ستالين ليمكن من نكنيس اعدائنا » . وقوبلت كلمته هذه بموجة من التصفيق التقديري مصحوبة بالضحك . وارنست على شفتي ريكوف نفسه ابتسامة ثم انفجر ضاحكاً هو الآخر ايضاً . كان راضحاً انه كان يثق بان ستالين سيستخدم المكنسة بحكمة ولمصلحة الحزب ضد اعداء الحزب ومعارضى الخط العام . وكان من الصعب على ريكوف ان يتكهن بانه هو ايضاً سيكون في ١٩٢٧ بين الذين ستمر عليهم المكنسة ذاتها التي قدمت إلى ستالين (١) .

في زمن انعقاد المؤتمر الخامس عشر لم يكن مجال للشك في ان يتسرب إلى اذهاننا ان ستالين ومعارضيه كانوا على حق وان المعارضة كانت على باطل . ولم ازل اعتقد ان موقف ستالين الايديولوجي كان في الاساس صحيحاً . وادركنا ان كفاحاً لا هوادة فيه ضد المعارضة هو أمر محتوم . لقد بررنا الاحداث بمنطق حمالة الخشب : عندما تحطب غابة تتطاير شظايا الخشب .

على اي حال ، لم يكن في باب الصدف ان ستالين تربع في المركز القيادي في الحزب ، ولا ان الحزب ايده ضد خصوم اقوياء من امثال اثروتسكين والزينوفيفين وفيما بعد كتلة اليمين - اليسار ، اي كتلة سيرتسوف ولومينادز (٢) . فقد كان

(١) أ. ريكوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي بعد لينين ، و ن. بوخارين المفكر الحزبي الكبير وصديق لينين المحبوب ساعدا ستالين على هزيمة زينوفيف وكامنيف . ولكن سرعان ما حكما بتهمة الانتهازية اليسنية . وقد حوكما في أكبر محاكمات التطهير ، المحاكمة الثالثة ، بتهمة الخيانة واعدا في ١٩٣٨ .

(٢) س. سرتسوف الذي اصبح عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ورئيس جمهورية روسيا الفدرالية ، و ف. ف. لومينادز أحد أقرب أصدقاء ستالين ، ساعدا ستالين ، ضد اثروتسكي اولاً ثم بوخارين . ولكنها انقلبا عليه في مطلع الثلاثينات وطالبا علناً بوجوب اقالته من سكرتيرية الحزب العامة . فسجنا واعتبرا متآمرين مع بوخارين فيما بعد . ولم يعرف مصيرهما . وان اشارة =

ستالين ذا شخصية قوية واسهم اسهاماً كبيراً في تعبئة قوى الحزب لاعادة بناء صناعتنا وزراعتنا وتقوية جيشنا . ولا يجوز لنا اغفال حقيقة ان اسم ستالين لم يكن معروفاً وشائعاً بين الجماهير في السنوات الأولى بعد الثورة. لكنه في برهة قصيرة اجتاز مسيرة طويلة وقاد حزينا وشعبنا معه .

في ١٩٢٨ استدعاني كاغانوفيتش إلى خاركوف (وكانت حينئذ عاصمة اوكرانيا) وعرض علي منصب نائب رئيس الفرع التنظيمي للجنة المركزية في الحزب الاوكراني . وكما اوضح لي كاغانوفيتش ان عدد العمال في اللجنة المركزية الاوكرانية ، ومركزها يومها في خاركوف ، كان قليلا وانه اراد استحضاري من ستالينو (يوزوفكا) لاقامة امساواة في تمثيل العمال في جهاز الحزب . كنت غير راغب في قبول العرض . فقد علمتني تجاربي السابقة مع منظمة خاركوف انها ترخر بالاشخاص الذين لا يركن اليهم . وكنت واثقاً من وقوعي في متاعب اذا قبلت المسؤولية المعروضة . فالتاس في خاركوف كانوا يميلون إلى الحسد من منظمة يوزوفكا ، ولم يكن ذلك دون سبب : فقد كنا عمال مناجم وصناع ادوات معدنية . كنا نحن البروليتاريا الحقيقية ، ملح الأرض وصخرة الاساس للحزب . لذلك قلت لكاغانوفيتش : « اعتقد انكم مصيبون كلياً في جلب عمال أكثر إلى جهاز اللجنة المركزية ولكنني لا ارغب في ترك ستالينو . انني مطلع اطلاقاً وثيقاً على الاحوال هناك : اعرف الاجراءات والملاك كله في منظمة ستالينو . بينما انا غريب هنا في خاركوف واشك في قدرتي على تكيف نفسي بحيث اصلح للعمل في الفرع التنظيمي في اللجنة المركزية » .

فقال كاغانوفيتش : « حسناً اذا كنت ترى الأمر هكذا ، فاني اعتقد ان اللجنة المركزية تستطيع الاستغناء عنك . فلا داعي لنقلك من ستالينو ، اذا كان لديك هذا الاحساس القوي ضده » .

ولكن لدى عودتي اخذت اعيد النظر في عرض كاغانوفيتش . فاسترجعت في ذهني علاقتي الماضية معه وامكانيات العمل معه في المستقبل . كان كاغانوفيتش يحبني كثيراً ، وقد التقينا للمرة الأولى في ايام ثورة شباط في اجتماع في يوزوفكا مثلت فيه العمال في مناجم روشينكوف . ثم التقينا ثانية بعد اسبوع او اسبوعين . وفي تلك الايام لم أكن اعرفه باسم كاغانوفيتش بل باسم زيروفيتش . وكنت اثق به وأحبه مئة بالمئة . وعرفت ان كاغانوفيتش يحتاج إلى كل المساعدة التي يستطيع

= خروشوف المستهجنة إلى « الكتلة اليسارية - اليمينية » مصدرها ان محادثات بوخارين رسمياً عرفت « بقضية الكتلة المعادية للسوفييات من اليمينيين والروتسكين » .

الحصول عليها في خاركوف . فهو لم يكن يعتبر ادارياً حقيقياً . حتى لا نذكر انتقاره لصفات الزعامة الحقيقية ايضاً . وكان مركزه في القيادة الجماعية في اوكرانيا مهزوزاً ، وكانت علاقاته مع سائر اعضاء اللجنة المركزية ، في افضل الحالات ، يشوبها التعقيد . كان النفر القديم في القيادة الجماعية يعملون باستمرار لتقويض سلطته . ولم يكن يدعمه بتروفسكي ولا شوبار ، وبصورة عامة كانت الجماعة من دينبرو بتروفسك ضده . من هنا ان كاغانوفيتش كان يعتمد كثيراً على دونباس ولاسيما على تأييد منظمة يوزوفكا .

وكان هناك شيء آخر دفعني إلى التفكير بالذهاب إلى خاركوف . ذلك ان الناس كانوا اخذوا يفقدون الثقة بستروغانوف ، سكرتير لجنة يوزوفكا ، وبدأوا يتجهون نحو . ويعود ذلك جزئياً إلى كوني قد عشت في يوزوفكا منذ طفولتي . لقد عملت وابي في الحفر في يوسنسك على بعد ميلين ونصف الميل جنوبي يوزوفكا . وفي مصنع بوس تعلمت حرفتي وكانت لي دائرة متسعة من الاصدقاء الذين عرفتهم منذ صباي .

واذ أخذ الناس يتجارزون ستروغانوف ويتجهون نحو . أخذت علاقاتي به تسوء لاسيما واني كنت اسماً نائيه . وبالمناخ ، لقد اعدم هو فيما بعد (مسكين لم يكن يستحق ان يرمى بالرصاص) . على اية حال ، فتجنباً للعراك مع ستروغانوف ، ظننت ان من الانسب لي الانسحاب من يوزوفكا قبل ان تزداد علاقاتي معه سوءاً .

بعد درس كل هذه الاعتبارات بدقة ، قررت ، في مطلق الاحوال ، قبول عرض كاغانوفيتش . فأخبرته بانني بدلت رأبي ووافقت على نقلي إلى خاركوف انما بشرط واحد : ان ارسل إلى مكان آخر حالاً تسخ الفرصة . ولم يكن يهمني إلى أين طالما انني انتقل إلى منطقة صناعية . ذلك ان خبرتي في الشؤون الزراعية كانت قليلة بحيث أصبح خارج اطار عملي لو نقلت إلى منطقة زراعية .

ذهبت إلى خاركوف كنايب رئيس الفرع التنظيمي الذي كان يرثه نيقولا نيتروفيتش ديمشكو (١) . وكان رجلاً طيباً وشيوعياً نشيطاً ، ركان ولاؤه للخط الحزبي العام ، وللجنة المركزية ، ولستالين . ولكنه هو الآخر ، قتل فيما بعد ، بأمر من ستالين .

وكما توقعت وجدت عملي في خاركوف غير ملائم على الإطلاق . فلم يكن

(١) ديمشكو هو أحد ثلاثة (ستروغانوف وبتروفسكي) من رجال الحزب السوفياتي الذين اعدمهم ستالين ويجهلهم الغرب .

يخرج عن الامور المكتبية . وانا رجل الأرض ، رجل عمل ، عامل في المناجم .
لقد اعتدت العمل في المعادن والمواد الكيميائية . ان في تكويني ما يرفض العمل
المكتبي : انه عمل غريب عن طبعي كلياً . انني امقت مشاهدة العالم الحي
من خلال كومة من الاوراق والملفات . كان عملي في خاركوف نهاية مميتة .
احسست كأنني سقطت في فخ او انني اختنق . وذهبت إلى كاغانوفيتش مرتين
او ثلاث مرات وذكرته انه قد وعدني بارسالي خارج خاركوف حالما تسنح
الفرصة بذلك .

وفي ذات يوم استدعاني ليقول لي : « لقد وجدت لك عملاً في كييف .
فدعشكوكو عين هناك سكرتيراً للجنة المنطقة وقد طلب ارسالك كرئيس للفرع
التنظيمي في كييف . اذا وافقت على النقل تستطيع ان تحصل لنفسك على بطاقة
سفر وترحل اليوم » .

وافقت دون تردد . كان ذلك يوم الاحد . وفي المساء كنت في القطار
المنطلق فبلغت كييف في صباح اليوم التالي . ولم أكن قد زرت كييف من قبل .
فما ان وصلت حتى ذهبت إلى ضفاف الدنيبر وشخصت ببصري إلى ذلك النهر
العظيم ، بينما لم تزال حقيبي في يدي .

لم تكن منظمة كييف تعتبر مركزاً حزبياً أميناً . فقد ذاع صيت المنطقة
كحصن للعناصر القومية الاوكرانية ، وقد كانت تستحق هذا الصيت عن جدارة ،
وكانت البروليتاريا المحلية هزيلة وغير مستقرة ، اما الانتيليجنسيا التي كانت
تمركز في الاكاديمية الاوكرانية للعلوم فيقودها غردشيتسكي ، وهو قومي ومن
اتباع بيتلورا (١) . وكان هناك عدد كبير من انصار تروتسكي في المنطقة .

كنت اعرف ان القوميين الاوكرانيين في كييف كانوا يعتبروني « روساك »
ميوئساً منه . وهذا التعبير اوكراني يطلق على الروس .

الا انني رغم توقعي السوء ، لا بد لي من الاعتراف ان السنة التي قضيتها في
كييف اسفرت عن نتائج مرضية جداً . وانني احتفظ بذكريات مفرحة عديدة
عن تلك المرحلة . فقد وجدت عملي سهلاً هناك . ويبدو ان الناس كانوا يحبونني
ويثقون بي ، بل اقول انهم كانوا يحترموني .

انا لا انفي وجود الصعوبات . هذا أبعد ما يكون عن قصدي . فقد حاول
المنشفيك والاشتراكيون الثوريون ، والقوميون الاوكرانيون ، والتروتسكيون جميعاً

(١) س. ف. بيتلورا كان أشهر الزعماء القوميين الاوكرانيين وقد وقف نفسه على
النضال في سبيل اوكرانيا المستقلة ضد اندماجها في الاتحاد السوفياتي .

الافادة من المنافع التي كانت تواجهها في كيف . وكان العديد من الناس عاطلين عن العمل ، فأخذوا يتظاهرون في الشوارع حاملين الاعلام الحمر . وعقدنا اجتماعاً كبيراً في البناية القديمة لمجلس السوفييات في مدينة كيف لبحث الموضوع . وقلت للجمهور الذي جاء إلى هذا الاجتماع : « انني اعرف اين يوجد طلب كبير على العمال واستطيع بسهولة تدبير أعمال لكم . »
وبدا عليهم الانشراح فسألوا : « أين ؟ »
قلت : « في دونباس » .

ولكنهم قالوا : « تفضل ان نبقي عاطلين عن العمل هنا ، على الذهاب إلى دونباس » .

لقد اثارني هذا الجواب لأن جذوري كانت في دونباس وكنت افتقد كثيراً عمال المناجم الذين كبرت معهم . اما بالنسبة لسكان كيف هؤلاء فقد كانت دونباس تعني الريف المتخلف . فضلاً عن ان حرقة التعدين والعمل في المناجم كانت سائدة فيها ، ولم يكن اهل كيف مدربين على هذا النمط من العمل (١).

في ١٩٢٩ بلغت الخامسة والثلاثين . وادركت ان هذه كانت فرصتي الاخيرة في التفكير الجدي حول الذهاب إلى مؤسسة من مؤسسات التعليم العالي . ذلك انني لم أكن قد ذهبت إلى أبعد من كلية عمال يوزوفكا ، وكان الوقت يلقي بثقله علي . فقررت السعي لآخذ اجازة غياب لأكمل دراستي . في البداية واجهت صعوبات من رؤسائي . فكاغانوفيتش كان قد نقل آنذاك إلى اللجنة المركزية في موسكو والرفيق كوسبور كان قد ارسل ليحل محله (٢) . وكانت النظرة العامة إلي انني من المقربين إلى كاغانوفيتش ، وكان هذا صحيحاً . ولكن الناس افترضوا ان السبب الحقيقي لطلب المأذونية في الذهاب إلى المدرسة هو عدم رغبتني في العمل مع كوسبور ، وهذا لم يكن صحيحاً . لم أكن اعرف كوسبور جيداً ولكنني كنت احترمه . كان معتدل الاطباع ، محبباً ، وذكياً . كنت اضعه في مرتبة اعلى من كاغانوفيتش لقدرته على التعامل مع الناس ، ولكنه لم يكن يستطيع منافسة كاغانوفيتش كمنظم . كانت عند كاغانوفيتش القدرة

(١) هنا وفي فصول لاحقة لا يجزم خروشوف ما اذا كانت القومية الاوكرانية عاملاً مهماً او انه يتظاهر بالتقليل من شأنها .

(٢) س. ف. كوسبور عضو في المكتب السياسي التالي بقي السكرتير الأول للحزب الشيوعي الاوكراني حتى اعتقل في ١٩٣٨ فحل محله خروشوف في اوكرانيا .

على تنفيذ الاعمال . فلو وضعت اللجنة المركزية في يديه فأساً لشق العاصفة .
ولكن لسوء الحظ كان غالباً ما يقطع بفأسه الاشجار الصحيحة كما يقطع
الاشجار الفاسدة . غير ان رقاقت الخشب تطايرت حقاً - ولم يكن بالامكان
ابعادها عنه .

على اي حال ، ذهبت إلى خاركوف فأوضحت موقفي لكوسبور في جلسة
حميمة : « انظر ، انا قد بلغت الخامسة والثلاثين . اريد انهاء دراستي . هل تكتب
لي توصية ؟ اود أن اتقدم بطلب لقبولي في الاكاديمية الصناعية في موسكو واود ان
اطلب دعم اللجنة المركزية . اريد ان اصبح مختصاً بالتعدين . »
وكان كوسبور متفهماً جداً ، فاصفى إلي ثم اعطاني موافقة الشخصية . على
ان ديمشكو استاء جداً وحاول اقناعي بالبقاء رغم انه ، هو ايضاً ، استطاع ان
يفهم كيف يرغب المرء في متابعة دروسه . واجتمع المكتب ليقرر اذا كان
يمنحني فرصة للغياب . فظن بعضهم انني احاول الهرب من ديمشكو ، واثاروا
الي بأنهم على استعداد لدعمي اذا كان ذلك سبب طلب اعفائي من عملي في خاركوف .
فكان علي اقناعهم بان طلب اعفائي لا صلة له بمسألة علاقتي مع ديمشكو
وان كل ما في الامر هو رغبتني في إكمال علمي . واخيراً ، بعد عدد من
الجلسات ، قرر المكتب اعفائي من مسؤولياتي الحزبية في اوكرانيا حتى يتسنى لي
دخول الاكاديمية الصناعية . فاسرعت في الذهاب إلى موسكو .

العمل الحزبي في موسكو

من الاكاديمية الصناعية الى المكتب السياسي

في ضوء التطورات اللاحقة بالامكان ترجيح ان ذلك الموظف الحزبي البالغ من العمر الخامسة والثلاثين والذي استحضر من اوكرانيا إلى الاكاديمية الصناعية في موسكو لم يكن دافعه الأول التحصيل العلمي بل اختبار نفسه في العمل السياسي ، وفي الوقت نفسه ، قلب الاكاديمية إلى حصن ستاليني . ذلك ان هذا المركز المخصص اصلاً لتنشئة النخبة الشيوعية تحول في ١٩٢٩ و ١٩٣٠ إلى بؤرة معادية للتالينية . وسرعان ما استطاع خروشوف السيطرة على خلية الحزب وهزم المعارضة مستخدماً اساليب جمعت القوة إلى المراوغة . وبلغ من النجاح ما أهله إلى ان يترك الاكاديمية ورائه ، ويبدأ في ظل كاغانوفيتش صعوده العاجل نحو احتلال منصب رئيس فرع موسكو كله . ان الخلفية الكبرى لهذا الفصل كانت الحملة المسعورة التي استخدمت العنف لتصنيع الاتحاد السوفياتي تصنيعاً سريعاً والتي تمثلت بمشروع الخمس سنوات الأولى والنظام الزراعي الجماعي والتي لخروشوف رأي يقوله فيها لاحقاً .

واجهتني بعض الصعوبات في سنتي الأولى في الاكاديمية الصناعية . فقد قيل لي انني افتقر إلى الخبرة الكافية في الادارة التنفيذية التي تؤهلني لأن اكون طالباً هناك . « هذه مدرسة للمديرين الاداريين » ، قال الرفاق ، « وانت لست مهياً للدروس المقررة هنا . لعل الأفضل لك ان تنتقل إلى دورة الدروس عن الماركسية - اللينينية المخصصة للجنة المركزية » . وكان علي في الاخير ان استجد بكاغانوفيتش . وكان لازار موسيفتش (الاسماء الأولى لكاغانوفيتش) سكرتيراً للجنة المركزية ، واليه يعود الفضل في بقائي في الاكاديمية . وكانت الاكاديمية تعج بمختلف فئات البشر . وقد جاء الطلاب من بيئات سياسية وثقافية متباينة .

على تنفيذ الاعمال . فلو وضعت اللجنة المركزية في يديه فأساً لشق العاصفة . ولكن لسوء الحظ كان غالباً ما يقطع بفأسه الاشجار الصحيحة كما يقطع الاشجار الفاسدة . غير ان رقاقت الخشب تطايرت حقاً - ولم يكن بالامكان ابعادها عنه .

على اي حال ، ذهبت إلى خاركوف فأوضحت موقفى لكوسبور في جلسة حميمة : « انظر ، انا قد بلغت الخامسة والثلاثين . اريد انهاء دراستى . هل تكتب لي توصية ؟ اود أن اتقدم بطلب لقبولي في الاكاديمية الصناعية في موسكو واود ان اطلب دعم اللجنة المركزية . اريد ان اصبح مختصاً بالتعدين . »

وكان كوسبور متفهماً جداً ، فاصغى إلى ثم اعطاني موافقته الشخصية . على ان ديمشكو استاء جداً وحاول اقناعي بالبقاء رغم انه ، هو ايضاً ، استطاع ان يفهم كيف يرغب المرء في متابعة دروسه . واجتمع المكتب ليقرر اذا كان يمنحني فرصة للغياب . فظن بعضهم انني احاول الهرب من ديمشكو ، واثاروا الي بأنهم على استعداد لدعمي اذا كان ذلك سبب طلب اعفائي من عملي في خاركوف . فكان علي اقناعهم بان طلب اعفائي لا صلة له بمسألة علاقتي مع ديمشكو وان كل ما في الامر هو رغبتى في إكمال علمي . واخيراً ، بعد عدد من الجلسات ، قرر المكتب اعفائي من مسؤولياتي الحزبية في اوكرانيا حتى يتسنى لي دخول الاكاديمية الصناعية . فاسرعت في الذهاب إلى موسكو .

العمل الحزبي في موسكو

من الاكاديمية الصناعية الى المكتب السياسي

في ضوء التطورات اللاحقة بالامكان ترجيح ان ذلك الموظف الحزبي البالغ من العمر الخامسة والثلاثين والذي استحضر من اوكرانيا إلى الاكاديمية الصناعية في موسكو لم يكن دافعه الأول التحصيل العلمي بل اختبار نفسه في العمل السياسي ، وفي الوقت نفسه ، قلب الاكاديمية إلى حصن ستاليني . ذلك ان هذا المركز المخصص أصلاً لتنشئة النخبة الشيوعية تحول في ١٩٢٩ و ١٩٣٠ إلى بقرة معادية للستالينية . وسرعان ما استطاع خروشوف السيطرة على خلية الحزب وهزم المعارضة مستخدماً اساليب جمعت القوة إلى المراوغة . وبلغ من النجاح ما أهله إلى ان يترك الاكاديمية وراءه ، ويبدأ في ظل كاغانوفيتش صعوده الماثل نحو احتلال منصب رئيس فرع موسكو كله . ان الخلفية الكبرى لهذا الفصل كانت الحملة المسمورة التي استخدمت العنف لتصنيع الاتحاد السوفياتي تصنيعاً سريعاً والتي تمثلت بمشروع الخمس سنوات الأولى والنظام الزراعي الجماعي والتي لخروشوف رأي يقوله فيها لاحقاً .

واجهتني بعض الصعوبات في سني الأولى في الاكاديمية الصناعية . فقد قيل لي انني افتقر إلى الخبرة الكافية في الادارة التنفيذية التي تؤهلني لأن اكون طالباً هناك . « هذه مدرسة للمديرين الاداريين » ، قال الرفاق ، « وانت لست مهياً للدروس المقررة هنا . لعل الأفضل لك ان تنتقل إلى دورة الدروس عن الماركسية - اللينينية المخصصة للجنة المركزية » . وكان علي في الاخير ان استنجد بكاغانوفيتش . وكان لازار موسيفتش (الاسماء الأولى لكاغانوفيتش) سكرتيراً للجنة المركزية ، واليه يعود الفضل في بقائي في الاكاديمية . وكانت الاكاديمية تعج بمختلف فئات البشر . وقد جاء الطلاب من بيئات سياسية وثقافية متباينة .

فبعضهم لم يكن قد تخطى بعد حدود القرية ولم يعرف شيئاً ما عدا عمليات الحساب الاربع الاساسية . ثم كان هناك الذين ذهبوا إلى المدرسة الثانوية . وباعتباري أنهيت دورة دروس كلية العمال في يوزوفكا فقد صُنفت في هذه الفئة .

كانت بناء الصفوف في الاكاديمية تقع في نوفوباسمانايا ، ولا تبعد كثيراً عن المهجع الذي كنت اسكنه في بوكروفكا رقم ٤٠ . وكان لي غرفة خاصة بي في بناء مثالي . وكنت اقطع المسافة يوماً مشياً على الأقدام إلى الاكاديمية . ولم أكن اركب الحافلة الكهربائية على الإطلاق .

وكان الناظر العام الرفيق كويشيف ، رئيس لجنة تخطيط الدولة (١) . ومن يمكن ان يكون افضل منه ؟ كان شخصية محترمة وذات نفوذ ، فدعم الاكاديمية بكل قواه . وكان مديرنا ج . م . كامينسكي ، وهو بلشفي قديم ورفيق صالح (٢) . اذكر اننا طلبنا اليه مقابلة الرفيق ستالين ليقف منه على ما اذا كان راغباً في استقبال ممثلين عن الصف المتخرج الأول . وكنا نهيء لاحتمال اختتام السنة في قاعة العواميد (٣) ، ورغبنا في ان يلقي الرفيق ستالين خطبة الوداع في تلك المناسبة العظيمة . وأعلمنا ان ستالين سيستقبل وفداً مؤلفاً من ستة او سبعة اشخاص منا . ورغم عدم انتسابي للصف المتخرج الا انني ضمنت إلى الوفد نظراً لكوني سكرتير منظمة الحزب في الاكاديمية . وفي اثناء لقائنا مع ستالين اسدى اليانا بالنصيحة التالية : ارادنا ان نتقن دروسنا ، وان نصبح خبراء في حقول اختصاصنا ، قال بانه من الطبيعي ان نغني بالحصول على معرفة شاملة في نطاق الادارة العام الا ان المفروض ان نكون كذلك ذوي اختصاص . كانت نصيحته في موضعها رغم اننا سمعناها من قبل ، في كلية العمال في يوزوفكا . ولكن بينما كان ستالين يتكلم اخذت افكر لنفسني ، « هنا رجل يعرف كيف يوجه عقولنا وطاقاتنا نحو اولويات اهداف تصنيع بلادنا وتأمين مناعة حدود وطننا فلا يخرقها

(١) ف . ف . كويشيف بلشفي متقدم ورئيس لجنة تخطيط الدولة ، انحاز باكراً إلى ستالين ولكنه كان معتدلاً نسبياً . مات فجأة في كانون الثاني ١٩٣٥ ولعله قتل بناء على أوامر ستالين . وفي محاكمة يوخارين الكبرى في ١٩٣٨ ، اتهم الطيبان لفين وبلا نيف ، فضلا عن اتهامهما الاساسي بقتل الكاتب مكسيم غوركي وسواه ، بقتل كويشيف .

(٢) ج . م . كامينسكي كان مفوضاً للصحة لفترة ووقع شهادة وفاة كويشيف وكذلك شهادة وفاة اردزورنيكيدز اما مصيره فموصوف في الفصل الثالث .

(٣) كانت تلك هي قاعة نادي التبلاء في العهد القيصري في موسكو .

العالم الرأسمالي . ان خير شعبنا ، كما هو واضح ، لفي ايد سليمة ! » .
ثم قال ستالين : « أخشى ان لا أستطيع حضور احتفالكم هذا المساء بنفسي ،
الا ان الرفيق كالينين سيكون هنا » . استقرت مقابلتنا لستالين أكثر مما توقعنا .
فكان علينا الاسراع إلى قاعة العواميد . وعند وصولنا إلى هناك كان كامينسكي
قد أنهى كلمته ، ولكن لم تفتنا خطبة غائيل ايفانوفيش كالينين . وكنا جميعاً
نحترمه كثيراً ونصغي اليه بانتباه .

وعلى الآن ابضح كيفية اختياري سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية .
انها لقصة طويلة نسبياً ، ولكنها تستحق السرد :

عند مجيئي إلى موسكو في ١٩٢٩ كان الجسم الطلابي في الاكاديمية مليئاً
بالعناصر غير المرغوب فيها وغير المستقرة . وكان هناك العديد من الاشخاص الذين
لسبب او لآخر ، كانوا تركوا الحزب ، او النقابة ، او واجباتهم الادارية
واستقروا في مكان ملائم مريح يناسبهم شخصياً . وكانوا لا يفعلون شيئاً سوى التسكع .
وكان لنا في الاسبوع يوماً عطلة : يوم الاحد ويوم آخر كان من المفروض تخصيصهما
« لهضم » ما درسناه خلال الاسبوع . الا انني كنت لاحظ كيف كان يغادر
هؤلاء العديمو الفائدة مهاجمهم باكراً في الصباح ولا يعودون الا متأخرين في الليل ،
ولم اكن اعرف ماذا كانوا يفعلون طيلة اليوم . الا ان الثابت انهم لم يكونوا
يقومون بعملية « هضم » دروسهم ، فمعظمهم لم يأت إلى الاكاديمية ليدرس على
الاطلاق ، بل جاؤوا لأنها كانت مكاناً صالحاً للجوء وانتظار العاصفة السياسية حتى
تنفخ رياحها . فأقاموا اعشاشهم الدافئة في الاكاديمية وتجنبوا التورط السياسي
كلياً . وادى هذا السلوك إلى حالة تبعث على السخرية ، وهي ان اعداء اللجنة
المركزية السياسيين كانوا الاشخاص الوحيديين في البلاد الذين تيسرت لهم الافادة
من مؤسساتنا للتعليم العالي . اذكر ان مولوتوف سأني مرة : « رفيق خروشوف ،
هل لديك متسع من الوقت للقراءة ؟ » فأجبت : « قليل جداً » فقال : « الأمر
كذلك بالنسبة لي . فعلمي لا يرحم . رغبتني عظيمة في الاستمتاع بقراءة كتاب ،
غير انني لا أجد متسعاً من الوقت لذلك » .

وكان باستطاعتي فهم ما يقول . فانا منذ عودتي من الجيش في ١٩٢٢
كانت اشغالي لا تتيح لي وقتاً للقراءة . كنت عضواً حزبياً نشيطاً ، فأخذت
الكفاح لانتصار خط اللجنة المركزية العام كل اوقاتي . ولم تكن حياتي ملكي .
فاذا قبض لواحدنا ان يكون شغوفاً بالأدب ، كان يؤنب على اهمال واجباته
المدنية والحزبية . اذكر ان ستالين عبر مرة عن هذه الحالة تعبيراً موقفاً : « هكذا
اذن جرت الأمور ! لقد كوفيء التروتسكيون واليمينيون على نشاطاتهم بمنحهم

امتياز التعليم العالمي! ولما كانت اللجنة المركزية لا تتق بهم، فقد أبعدهم عن المسؤوليات الحزبية، فهرعوا رأساً إلى معاهدنا العلمية والتكنولوجية، بينما لم يتسن للأشخاص الذين وقفوا بثبات يكافحون على الخط العام ويحملون اعباء الاعمال اليومية الحزبية، اتمام دراستهم وتدريبهم المهني» .

لهذه الاسباب، كانت الاكاديمية الصناعية تعج باليمينيين الذين سيطروا على الخلية الحزبية فيها. وعند وصولي إلى الاكاديمية في ١٩٢٩ كان سكرتير منظمة الحزب خاخارينف. وكان ذا نفوذ مرموق وذا خبرة تعود إلى ما قبل زمن الثورة، ربما إلى سنة ١٩٠٦، وكان محاطاً بما يعرف « بالحرس القديم » اي بانصار يؤيدون اليمينيين ريكوف وبوخارين ويوغلانوفا (١) ضد ستالين والخط العام للحزب. كان « الحرس القديم » (وهو تعبير يطلق على قدامى الحزبيين) مؤلفاً في الاكاديمية من البلاشفة القدماء، ومديري المصانع السابقين، وقادة النقابات. وبكلمة اخرى، كانوا رجالاً محترمين يحضرون الاكاديمية تحت ستار تعزيز مهارتهم التقنية.

وكانت فئة منا في الاكاديمية تقف إلى جانب الخط الحزبي العام وتعارض اليمينيين: ريكوف، بوخارين، ويوغلانوفا، والزينوفيفيين، والتروتسكيين وكتلة اليمين - اليسار من امثال سيرتسوف ولومينادز. انني في الحقيقة، لا اذكر على وجه التحديد وجهات الخلاف بين بوخارين وريكوف من جهة، وسيرتسوف ولومينادز من جهة اخرى. فاليمينيون والانتهازيون، وكتلة اليمين - اليسار، والانحرافيون كانوا جميعاً يتحركون جوهرياً في الاتجاه نفسه وكانت فتنتا ضدهم. وكانت فتنتا بجميع افرادها من الجنوب، من دونباس، من دينيروبتروفسك ومن خاركوف، يضاف إلى ذلك اننا جميعاً انضمنا إلى الحزب بعد الثورة. فعندما كان يقترح ترشيح أحدنا لمركز في منظمة الاكاديمية كان يطرح ذلك في اجتماع، وكان على المرشح الذهاب إلى المنصة، والتصريح بمسقط رأسه وبمكان انتسابه للحزب.

وقد يسر هذا للحرس القديم (قدامى الحزبيين) في الخلية الحزبية معرفة منبت

(١) ن. أ. يوغلانوفا كان سكرتيراً أول للجنة الحزب في موسكو وعلى هذا الأساس مسؤولاً عن الاكاديمية الصناعية. وعندما طاله التطهير في ١٩٢٨ خلفه ك. ي. بومان الذي لم يبق طويلاً في منصبه، فخلفه مولوتوف ثم كاغانوفيتش واخيراً خروشوف نفسه.

الشخص والاقتراع ضد كل من يحتمل ان يعارضهم (١) .
لقد حيل بيني وبين انتخابي إلى بريزيديوم الاكاديمية مرتين او ثلاث مرات حتى انني لم اسم مرشحاً للمؤتمر الحزبي السادس عشر . على اي حال ، رغم انني كنت حديث الإقامة في موسكو ، الا ان اسمي كان قد أخذ بالبروز كعضو حزبي نشيط ملتزم بالخط العام ، وعلى هذا الاساس اعطيتي اللجنة المركزية بطاقة دعوة دائمة إلى المؤتمر . وهكذا اتيج لي الاستماع إلى تقرير ستالين العام . لكنني لم أحضر كل جلسات المؤتمر ، اذ على الرغم من انه لم يكن مسموحاً بانتقال بطاقتي للآخرين ، فقد جعلت بعض رفاقي يستخدمها متيحاً لهم بذلك الوصول هم ايضاً إلى المؤتمر . وما اشد سروري الآن من ان لعبتي لم تكتشف وانا اقوم باشارك غيري في بطاقتي لان ذلك كان سيعرضني للعقوبة .

في زمن انعقاد المؤتمر السادس عشر أخذ المد يتجه لصالحنا في كفاحنا ضد اليمينيين في الاكاديمية ، واتخذت مركز القيادة في الحملة من أجل جعل الاكاديمية حصناً حصيناً للجنة المركزية . ولم يكن دوري في الكفاح من أجل الخط الحزبي سيراً . فلولاً للتواضع في السرد ، لكان علي القول بان دوري كان هو الدور القيادي الطبيعي .

لقد عرف مكتب الخلية الحزبية في الاكاديمية ذلك فحاول ارسالي إلى خارج البلدة حتى لا أتدخل ضد خطته في انتخاب وقد يميني إلى مؤتمر مقاطعة بومان المنعقد في ١٩٣٠ .

عندما عدت إلى موسكو كان مؤتمر بومان في اوج انعقاده . وكانت الاكاديمية ممثلة بصورة رئيسية باليمينيين . وجاءني الرفيق تاباكوف وأخبرني بكل ما حصل في غيابي . كان تاباكوف يهودي الجنسية ومن أشد مؤيدي في الاكاديمية ، وشبوعياً ممتازاً ورفيقاً واسع الاطلاع السياسي وقد أعدم فيما بعد .

أخبرني تاباكوف ان الخلية الحزبية قدمت لائحة تضم بين العشرة والثلاثة عشر مندوباً إلى المؤتمر ، بما فيهم ستالين وريكوف وبوخارين ، ويوغلانوف ايضاً على ما اظن . وهذا التكتيك كان قد رضع تصميمه اليمينيون ليجعلوا من المحال تأييد ستالين دون تأييد ريكوف وبوخارين ايضاً .

استدعيت في ذلك المساء الى الهاتف . ولم يكن لديّ معارف كثيرون في موسكو ،

(١) يبرز هنا خروشوف نقطة مثيرة للاهتمام : كيف أن مثقفي الحزب والمعتدلين فيه وأغلبهم من البلاشفة القدماء واجههم ستالين بمجموعات من الاجلاف العتاة ، لاسيما زملاء خروشوف من المراكز الصناعية في اوكرانيا من حديدي الانتباه للحزب .

فلم يخطر لي من عماه يكون على الطرف الآخر من الخط . وما ان رفعت الساعة حتى قال صوت : «هنا مخليس ، رئيس تحرير البرافدا ، يتكلم (١) . هل بإمكانك المجيء فوراً الى مكنتي — سأرسل سيارتي في طلبك . ان لدي امرأ ملحقاً اود بحثه معك » .

ولم تمض الا دقائق معدودة حتى كانت سيارته خارج المهجع الذي انام فيه . صعدت اليها واتجهنا نحو مكاتب تحرير البرافدا . ولم أكن قد قابلت مخليس من قبل . فقرأ علي رسالة من الاكاديمية تشكو من استخدام المكائد السياسية والاجراءات غير القانونية في اختيار الرغد اليميني الى مؤتمر مقاطعة بومان . وسألني :

— هل توافق على مضمون هذه الرسالة ؟

— نعم ، كلياً اوافق . انها تعكس بدقة الحالة التي واجهتنا في الاكاديمية .

— هل انت مستعد لمهرها بتوقيعك ؟

— كيف يمكنني القيام بذلك ؟ لم تكن لي علاقة بوضع هذه الرسالة اصلاً .

بل انني لا اعرف كاتبها ، فمن عماه يكون ؟

— هذا ليس مهماً . لا شأن لأسم واضع الرسالة ولا لأسمك في هذه القضية على الاطلاق . انني اطلب انيك توقيعها لأنني اتق بك . لقد سمعت الكثير عنك وعن الدور الذي تؤديه ، وان توقيعك يطمئني الى ان الرسالة تقدم صورة عادلة وحقيقية عما يحدث هناك .

— حسناً ، سأوقع .

وفعلت ذلك ثم ارجعتني سيارة مخليس الى مهجعي .

في اليوم التالي نشرت البرافدا الرسالة في بابها المخصص للمراسلات . (٢) وكان لنشر الرسالة وقع كفصف الرعد . وهبت العاصفة على الاكاديمية . فتوقفت الصفوف ودعا منظمو الجماعات الحزبية الى اجتماع تقرر فيه استدعاء جميع مندوبي الاكاديمية الى مؤتمر مقاطعة بومان عدا ستالين . ولعلنا تلقينا اوامر من فوق

(١) ل. ز. مخليس كن أحد رجال ناتور من المباحث وقد سلم مسؤولية تحرير البرافدا ليؤمن ستالين اشرافه عليها . وقد برهن انه من جنرالات المباحث الممقوتين جداً وحصل على ترقيةاته العسكرية اثر تطهير الجيش الاحمر كما كلف بلاده غالباً في المعارك . خرج سالماً من كل التطهيرات واصبح وزيراً ، ومات ميتة طبيعية ، حسب كل التقارير ، في ١٩٥٣ .

(٢) ظهرت هذه الرسالة في ٣٠ ايار ١٩٣٠ . وكان معروفاً ان خروشوف ورامزا . وانه هنا يعترف بذلك . ولعل قصته هنا عن الرسالة فيها الكثير من التبسيط .

ان نستدعي بوخارين ، ولكنني لا اذكر . على اي حال ، فقد استدعي ايكوف ويوغلانوف رسواهما من ممثلي اليمين عن الاكاديمية واختير بدلاً منهم مندوبون جدد ، وجعلت رئيساً للاجتماع ، فمندوباً في الوفد (١) .

وقد حصلت هذه التبديلات بسرعة مذهلة حتى انها لم تدع مجالاً من الوقت لطبع اوراق اعتماد جديدة للمندوبين ، فاعطوا اوراق المندوبين السابقين . واثار هذا قدرأ من الفضول والاستهجان في المؤتمر حتى انني مرة تعرضت للتحدي نظراً لوجود اسم مندوب غيري على اوراقني . فاوضحت الامر قائلاً : « انا اعرف ان هذه الاوراق صدرت اصلاً للشخص الذي تحمل اسمه ، ولكنها اصبحت الان لي » . هذا كل ما قلته ، ويبدو ان معظم المندوبين في المؤتمر قد فهموا .

وقرر وفدنا ان اتولّى انا تقديم تقرير الى المؤتمر عن موقفنا . وما ان بدأت بالقاء كلمتي حتى ارتفعت اصوات الاستنكار : « نعرف كل شيء عنكم وعن اكاديميتكم الصناعية ! » ، ذلك ان الاكاديمية كانت شهيرة باحتضانها اليميني . من هنا كانت مهمتي اثبات اننا نتخذ موقفاً مختلفاً عن موقف الوفد السابق . ولكن عندما اوضحت باننا نقف بثبات مع الخطّ الحزبي بدأ المندوبون الآخرون في المؤتمر يحضوننا نقتهم .

بعد أن أصبحت سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية ، بدأنا نطارد المتسكعين والعديمي الفائدة الذين كانوا يتخذون من الاكاديمية ملجأهم من الكفاح السياسي المندلع داخل الحزب . فذكرنا الطلاب انهم لم يأتوا الى هنا ليتفرّجوا على معالم موسكو ومناظرها ، بل جاؤوا ليدرسوا ويزودوا انفسهم بالمعرفة النظرية والعملية حتى يكون انتاجهم اوفى ، في عملية بناء الاشتراكية . وسرعان ما أخذت الاكاديمية تؤدي دوراً قيادياً في الكفاح ضد المعارضة . فالقرارات التي كنا نتخذها في اجتماعاتنا غالباً ما كانت تنشر في اليوم التالي في البرافدا ، على سبيل ارشاد منظمات الحزب الأخرى .

هكذا انطلق نشاطي الحزبي في موسكو . فقد أصبح اسمي ، نتيجة قيادتي لمنظمة الحزب في الاكاديمية ، معروفاً أكثر في منظمة الحزب في موسكو ولدى اللجنة المركزية . وفي تلك السنوات كان يعقد مؤتمر حزبي للمقاطعة كل ستة اشهر او كل سنة . وكان ان عقد مؤتمر آخر لمقاطعة بومان في كانون الثاني ١٩٣١ وانتخب سكرتيراً للجنة الحزب فحللت محلّ شيرين - الذي كان بدوره قد عارض

(١) واقع الحال أكثر تعقيداً مما هو مذكور هنا . فقد حارب البوخاريون بضاوة ولكن قضيتهم كانت خاسرة سلفاً .

قبل سنة فقط ترشيحي الى المؤتمر السادس عشر للحزب . لقد كان شيرين غير ناضج سياسياً . اعتقد انه كانت له اسبابه في الاقتراع ضدي في ١٩٣٠ ، ولكن ذلك كله كان قد انتهى وطويت صفحته . وبدا ان مستقبلي كعامل في الحزب سيكون لامعاً جداً (١) .

في البدء اعتقدت ان عليّ شكر كاغانوفيتش على الرقية التي اصبتها في جهاز موسكو الحزبي ، لكنني سرعان ما ايقنت انني لست مديناً في ذلك لكاغانوفيتش بقدر ما كنت مديناً لستالين نفسه . اذ يبدو ان ستالين كان يعطف عليّ بسبب زوجته نادزدا سيرجيفنا اللبوييفا . فقد كانت تمتدحني امام ستالين ، وبناء على اطرائها طلب ستالين من كاغانوفيتش ان يساعدني .

لقد كنت ونادزدا سيرجيفنا طالبين معاً في الاكاديمية الصناعية . كانت هي تدرس الكيمياء وتخصص في النسيج الصناعي ، وكنت انا في الجهاز التنظيمي للجماعات الحزبية . كنت اجتمع اليها بانتظام ، وبوصفي سكرتيراً لمنظمة الحزب (٢) في الاكاديمية كنت اعطيها التعليمات ، وعرفت انها كانت تذهب الى المتزل وتحدث الى ستالين عن صنيعي . واحسث كأني « بينا » ، بطل قصة فنشيكو . (٣) .

وكانت نادزدا سيرجيفنا حريصة على ان لا تستغل صلتها بستالين . حتى ان فئة محدودة من الناس عرفت بانها زوجة ستالين . كانت اللبوييفا ، وهذا كل ما في الامر . وكان في الاكاديمية معنا اللبوييفا آخر ، مهندس تعددين من الشرق الاقصى . وكان في مكتب الحلية الحزبية . وكانت نادزدا سيرجيفنا نحارل ان يفترض الناس انها زوجة او شقيقته . ولم تسمح لنفسها ان تستفيد من الامتيازات المتوفرة لها كزوجة ستالين . فلم تكن تقطع المسافة بين الاكاديمية والكرملين بالسيارة ، بل كانت درماً تذهب وتوؤب بالحافلة الكهربائية . ولم تسمح لنفسها ان تغرد عن مجموع الطلبة حولها باي شيء . كان عدم اظهار صلتها الحميمة بستالين دليلاً على فطنتها وذكائها .

(١) كانت تلك اللحظة التي أخذ نجم خروشوف فيها يصعد وأخذت صفحة البوخارين في الاكاديمية تطوى . وقد خلف ستيرين الذي هوى ، وبدأ خروشوف بالصعود .

(٢) ان نادزدا سيرجيفنا ، زوجة ستالين الثانية البائدة وأم سفيلا نا ، عرفت دون ريب ، خروشوف جيداً في الاكاديمية الصناعية ولكن المستغرب ان انساناً رقيق المشاعر مثلها قد اعجب بفلاح نصف امي بهذه الفظاظة كما كان خروشوف في تلك الأيام .

(٣) شبه خروشوف نفسه أكثر من مرة ببطل قصة فنشيكو .

في تلك الايام كنت اناديه ناديا. ثم أخذت فيما بعد اناديه نادزدا سيرجيفنا . وعندما اصبحت اميناً للجنة الحزب في مدينة موسكو وبدأت اذهب بانتظام الى المآدب العائلية عند ستالين ، اصبحت اعرف مدى ما روت ناديا لستالين عن نشاطاتي وكفاحي في الاكاديمية الصناعية من أجل الخط العام . وكان ستالين ، احياناً ، يذكرني بمحادث أكون أنا قد نسيتها .

في السنوات التي اعقبت ذلك بقيت على قيد الحياة ، فيما كان جميع معاصري ، وزملاء صفتي في الاكاديمية ، واصدقائي من رفاق المنظمة الحزبية ، يفقدون رؤوسهم كأعداء للشعب . وغالباً ما سألت نفسي : « كيف أبقوا علي؟ » فلو أن الاخلاص للحزب كان المقياس ، فان رفاقي الذين قضوا كانوا هم ايضاً مخلصين للحزب ، واسهموا هم كذلك في الكفاح من أجل خطة ستالين العام . لماذا اذن انقذت من المصير الذي انتهوا اليه ؟ اني اعتقد ان جزءاً من الجواب هو أن تقارير ناديا ساعدت على تحديد موقف ستالين مني . انني اسمي ذلك « ورقة يانصبي » . لقد سحبت ورقة رابحة عندما حدث وراقب ستالين نشاطاتي عبر نادزدا سيرجيفنا . اذ بسببها وثق ستالين بي . وحتى في السنوات الاخيرة ، عندما كان يهاجمني ويوجه اليّ الاهانات ، ظلّ يحبني حتى آخر يوم في حياته . وقد يكون من الغباء ان نقول ان هذا الرجل أحب أحداً ، لكن ليس هنالك ادنى شك في انه كان يكنّ لي احتراماً كبيراً .

كان ستالين قليل الاحترام لنادزدا كونستنتينوفنا كروبسكايا أرملة لينين . ولشقيقته ماريا البينشنا يوليانوفنا . وكان يقول ان اية من هاتين السيدتين لا تقوم باسهام ايجابي في كفاح الحزب . وبعد وفاة ستالين عثرنا على ظرف في شقة سرية ، وداخله رسالة مكتوبة بخط لينين ، يتهم فيها ستالين بانه اهان نادزدا كونستنتينوفنا ويطلب منه ان يعتذر والاّ فانه لن يعتبره رفيقه . وادهشني ان تكون هذه الرسالة قد حفظت . والارجح ان ستالين قد نسيتها تماماً (١) .

(١) ان محتوى هذه الرسالة كشفها خروشوف لأول مرة في خطبه السرية . كان لينين قد أصيب بأكثر من نوبة قاتلة وكان يبدي محاولات يائسة لتحذير زملائه ضد مطامح ستالين التي لا تحد . ويعتقد البعثة الممتاز بوريس نيقولا يفسكي أن ستالين تعتمد الحاق الاهانة بكروبسكايا وهو على يقين ان ذلك سيصل اسماع لينين فيعجل بوفاة . وينص كتاب لينين (الذي ارسل نسخاً منه إلى زينوفيف وكامنيف) على ما يلي : « ايها الرفيق العزيز ستالين ، لقد سمحت لنفسك بمخاطبة زوجتي على الهاتف بوقاحة وصلافة ... لا انوي ان اتناسى بسهولة ما قد الحقته بي من اذى=

كان مدعاة للألم الدائم ان يعاين المرء الازدراء الذي يظهره ستالين نحو نادزدا كونستنتينوفنا عندما كانت لا تزال على قيد الحياة. لقد عارضت ستالين اتيان الكفاح ضد اليمينيين رالقت خطبة في الدفاع عن بوخارين وريكوف في مؤتمر مقاطعة بومان الحزبي المنعقد في ١٩٣٠. وكان ان جلبت عليها غضب معظم المندوبين المؤتمرين واستثارت هجومهم. ومن يومها صدرت الاوامر الخفية الى خلايا الحزب بالتنديد بها. اما بالنسبة لماريا النيشنا يوليانوفا فكان المعروف لدى الجميع انها وثيقة الصداقة ببوخارين فقد كانت تعمل سكرتيرة في البرافدا عندما كان رئيس تحريرها.

اما بالنسبة لي، كشيوعي شاب يعود سجل خبرته الى ما بعد ثورة اكتوبر، فقد كنت احترم دوماً لينين، زعيمنا العظيم، ولذلك كنت أكن احتراماً فائقاً لنادزدا كونستنتينوفنا. ألم تكن رفيقة فلاديمير الينش التي لم تفرق عنه يوماً؟ وكم كان مريباً ومؤلماً ان اراقبها في جلسات مؤتمر مقاطعة بومان عندما كان الجميع ينهالون عليها بهجومهم. اذكرها امرأة متقدمة في السن كبيرة. وقد أخذ الناس يتجنبونها كتجنبهم الطاعون. وبناء على تعليمات ستالين فقد وضعت تحت الرقابة باعتبارها شردت عن خط الحزب.

وعندما أعود اليوم الى تحليل ما حدث في تلك الفترة، اعتقد ان نادزدا كونستنتينوفنا كانت على حق في وقفها. ولكنني اقول هذا بادراك متأخر للاحداث. ففي ذلك الزمن كانت الامور مشوشة، وكان الجميع يرشقون نادزدا رماريا بالوحوال.

كانت نادزدا كونستنتينوفنا مسؤولة عن معالجة شكاوى المواطنين، عندما عملت في لجنة الحزب لمدينة موسكو. وكان كل من وقع عليه من سوفيات المدينة ظلم يذهب اليها شاكياً. ومما لا ريب فيه ان أخطاء عديدة صاحبت الافعال التي كان يقوم بها سوفيات المدينة. وكانت الاحوال صعبة بصورة خاصة بالنسبة للعمال ومستخدمي المكاتب والمتقنين. فكلما اصطدم المواطن بجدار البيروقراطية توجه الى نادزدا كونستنتينوفنا كمرجع أخير. وكان قدر مساعدتها محدوداً. اذ لم يكن لها النفوذ الكافي حتى لرفع الظلم الصارخ، فكانت غالباً ما ترفع القضايا إلي لجنة في مدينة موسكو. ولسوء الحظ، لم اكن رغم احتلالي منصباً مرموقاً املك كذلك القدرة على بذل الكثير لمساعدتها. عانت موسكو نقصاً واسعاً

= اعتبره موجهاً إلي شخصياً. لذلك اطلب منك ان توازن بعناية بين موافقتك على سحب كلامك الذي تفوهت به ضد زوجتي والاعتذار اليها وبين تفضيلك قطع العلاقات بيننا. المخلص لينين» (٥ آذار ١٩٢٣) - انظر الملحق رقم ٤.

في دور السكن في تلك الفترة . وكانت حالة السكن كلها اشبه بالكابوس . كنا نصنع البلاد ونبنى المصانع الجديدة في كل مكان ، دونما اعتبار لتوسيع القاعدة العمالية في موسكو . فلم يكن يبني سوى الحد الأدنى من التسهيلات السكنية . ولم تكن هذه الابنية للسكن لتعوض عن المنازل العديدة التي هدمت لتقام على انقاضها مصانع جديدة .

كنت ابذل اقصى جهدي عندما كانت نادزدا كونستينوفنا ترسل لي احدى لارفع الظلم عنه . وكنت ابلغها ما حققت او ما فشلت في تحقيقه . واحياناً كنت التقيها بالصدفة . كان تقديرها لموقعي صحيحاً كلياً . كانت تعرف انني اقف في الخط الحزبي العام وانني حصيلة جيل ستالين . فتعاملت معي على هذا الاساس . وكانت نادزدا كونستينوفنا على حق . لقد كنت موالياً لستالين كزعيم ومرشد ولاء مطلقاً . كنت اعتقد ان كل ما يفعله ستالين باسم الحزب هو من وحي عبقريته وان ليس عليّ الا تطبيقه على حياتي .

ولكن رغم ذلك كله ، شعرت باضطراب داخلي عندما لم تعد نادزدا كونستينوفنا تحظى بعطف الحزب ، واحسست بعاطفة انسانية عميقة نحوها . كان ستالين يقول للمقربين اليه ان ثمة شكاً حتى في ما اذا كانت نادزدا كونستينوفنا ارملة لينين في الأصل ، وانه اذا استمرت الحالة طويلاً فاننا نشرع في ابداء شكوكنا علناً . وقال انه اذا اقتضى الامر فان بإمكاننا ان نعلن ان امرأة أخرى كانت ارملة لينين . رسمي عند ذلك احدى العضوات المحترمات في الحزب وهذه المرأة لا تزال على قيد الحياة . لا ارغب في التعليق على هذه المسائل (١) . اعتقد ان موقف ستالين هذا كان دليلاً آخر على عدم احترامه للينين نفسه . لم يكن شيء مقدساً بالنسبة لستالين ، حتى ولا ذكر لينين العاطر . ولم يكن ستالين يسمح لنفسه بالتعرض لكروبسكايا بكلمة امام الجمهور الا انه في حلقة الخاصة كان يطلق للسانه العنان فينال منها ويصمها بابشع الافتراءات . لكأنه اراد ان يؤثر فينا ببيكولوجياً وان يقوّض حبنا المتناهي للينين ليقيم على انقراض ذلك كله مكانته الشخصية كزعيم لا ينازع (مفكر كبير لعصرنا . وبلوغاً لهذا الهدف أخذ يزرع

(١) يقول الكسندر ارلوف ، وهو ضابط مباحث سوفياتية عالي الرتبة هرب إلى الغرب بان « الارملة البديل » التي كان يقترحها ستالين هي الينا ستاسوفا التي قضت فيما بعد سنوات في معسكرات العمل ثم اعيد اعتبارها بعد موت ستالين . الا ان شائعة سرت في موسكو حول «الارملة الرسمية» المقترحة تقول بانها كانت ستكون ر. س. زملا ياشكا وهي بلشفية قديمة وزميلة بيلاكوف في القرم .

بحذر ، انما بتعمد ، في اذهان المحيطين به ان رأيه الخاص في لينين هو غير ما يعلن امام الجمهور .

عليّ ان اذكر كاغانوفيتش في هذا المجال . ان سلوكه اثار اشترازي . لم يكن أكثر من متذلل خنوع . ولم يكن يحتاج ستالين الى أكثر من حك كاغانوفيتش خلف اذنيه حتى ينطلق هذا مزجراً في وجه الحزب .

كان يرجع كرسيه الى خلف ويرتفع يجسده الى أعلى قامته ثم يبدأ بالحوار : « يا رفاق ، لقد حان الوقت حتى نعلن على الناس الحقيقة . جميع من في الحزب يستمر في الكلام عن لينين واللينينية . علينا ان نكون صادقين مع انفسنا . لينين مات في ١٩٢٤ . كم سنة عمل في الحزب ؟ ماذا تحقق بقيادته ؟ لنقارن ذلك بما انجز في ظل ستالين ! لقد حان الوقت لكي نبدل شعار «عاشت اللينينية» بشعار «عاشت الستالينية» .

وبينما هو ماضٍ في صخبه ولغوه على هذا النمط ، كنا جميعاً نمرّ في لحظات صمت مطبق ونخفض ابصارنا . وكان ستالين دوماً هو الأول بيننا والواحد الذي يجادل كاغانوفيتش .

«عمّ تتكلّم ؟» كان يقول له . «كيف نجسر ان تفوه بهذا ؟» الاّ انه كان واضحاً من نبرة صوت ستالين ، كم كان يتمنّى لو يهرع احدنا لمناقضته . وهذه حيلة معروفة في القرى : أن تعمد الأمّ عندما تريد الذهاب مع أحد الاصدقاء الى زيارة في قرية أخرى وهي راغبة في اصطحاب طفلها الى توبيخه قائلة «الان ، انت ابقى هنا . اياك ان تجسر على اللحاق بي ، ايها الشيطان الصغير !» وتلوح باصبعها مهددة الطفل ، ثم انها ، اذا ما اشاح الصديق ببصره ، تشير الامّ الى ولدها هامة «تعال اتبعني !» وهكذا يأخذ الطفل بالعدو خلفها . ولكم شاهدت هذا المنظر بنفسي ، وهو تماماً ما كان يفعله ستالين عندما بشرع بتوبيخ كاغانوفيتش .

كان ستالين يهوى ان يوبّخ كاغانوفيتش بالمقارنة الاتية «من هو لينين ؟ ان لينين برج عملاق ! ومن هو ستالين ؟ ان ستالين اصعب صغيرة !» وحياناً يتفوه بعبارات لا تليق بالتسجيل هنا . وكان كاغانوفيتش يزدد اصراراً فيكرّر مزاعمه عن ستالين . اذ كان كاغانوفيتش لا يبارى في معرفة متى يكون حق ستالين زائفاً . وهذا «الشجار» بين كاغانوفيتش وستالين أصبح مألوفاً الى ان مات ستالين . ولم يكن أحد منا يتدخل . وكان ستالين دوماً يحسم المسألة اذ يكون له القول الفصل والكلمة الاخيرة .

وهذا الجدل الرتيب أصبح نموذجاً خاصاً بستالين وكاغانوفيتش . وليس في وسع احد ان يتفوق على كاغانوفيتش في رداءته . كان ستالين يعتبره مثال الرجل

الذي «لا يترأخى في وعيه الطبقي» والذي «لا يهاود اعداء طبقته». ولكننا اكتشفنا فيما بعد كم كان كاغانوفيتش رجلاً «لا يعرف التراخي» ولا «يعرف المهادنة». كان من الناس الذين لا يقولون كلمة خير واحدة حتى في اقرب الناس اليهم ، وهو الرجل الذي اتهم بانه جاسوس الماڤي كان يعد العدة لتشكيل حكومة روسية صورية بعدما يستولي الالمان على موسكو .

اي شيء يمكن ان يكون أكثر سخفاً من ان يعين هتلر مخائيل كاغانوفيتش اليهودي في حكومة روسية فاشية! من وجهة نظر النازيين كان مثل هذا التدبير يعتبر جريمة ! ولكن رغم ذلك كله ، فقد كانت هذه هي التهمة التي الصقت بمخائيل كاغانوفيتش ، ولما لم يجد له مهرباً منها انتحر ! ولم أعد اسمع أحداً يذكر هذه الحادثة بعد وقوعها. وتجاهل لازار موزيفيتش مأساة شقيقه ولاذ بالصمت المطبق . فبالنسبة اليه ، كان الأمر في منتهى البساطة : كان هناك رجل اسمه مخائيل كاغانوفيتش ، مفوض الشعب لصناعة الطيران ، ثم زال من الوجود . وكان بالامكان ان لا يوجد اصلاً ! وخلال ذلك كله ما انفك لازار موزيفيتش عن الزحف في حفرة ستالين (١) .

بعد ان عملت مدة ستة اشهر كسكرتير للحزب في مقاطعة بومان أصبحت سكرتيراً للحزب لمقاطعة برسنيا الحمراء في ١٩٣١ . كان ذلك درن ريب خطوة صاعدة في سلم التسلسل الحزبي . وكانت هذه المنطقة ، نظراً لأهميتها التاريخية في انتفاضة ١٩٠٥ اهم سياسياً من منطقة بومان . في الواقع كانت المنطقة الأهم حزبياً في موسكو . وبعد مضي ستة اشهر انتخبت سكرتيراً ثانياً في لجنة الحزب في مدينة موسكو . وتم ذلك في مؤتمر حزبي . وبقدر ما كان امتثاني للشرف والمسؤولية التي اوليتها بموجب هذه الترقية ، كان أسفي لاضطراري الى مغادرة الاكاديمية الصناعية دون ان انهي دراستي . كان تسلمي المسؤولية في لجنة مدينة موسكو يعني التخلي عن كل آمالي في انهاء تعليمي العالي . رفضاً عن هذا كنت كما اسررت لكاغانوفيتش ، متهيأ الصعوبات التي لا بد ان تواجهني في جهاز المدينة . الا انني أثبتُ جدارتي في مواجهة التحدي ، وبعد انقضاء سنة أصبحت سكرتيراً ثانياً للجنة موسكو الاقليمية .

(١) من الواضح ان لازار كاغانوفيتش قابل المار الذي لحق بشقيقه ثم انتحاره بلا مبالاة بادية . وان خروشوف يعاني في هذا الكتاب من عقدة ترتيب انكاره عن حاميهِ ومشجعه القديم والذي انقلب عليه فحطمه في ١٩٥٧ (انظر الملحق ٣) .

وانتخبت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لعموم الاتحاد في المؤتمر السابع عشر للحزب عام ١٩٣٤ . وتركت اجراءات الانتخاب في نفسي انطباعاً ، هو أنها كانت في منتهى الديمقراطية . وقد تمت على النحو التالي : كانت تجري تسمية المرشحين وتوضع اسمائهم للاقتراع ثم تدار على جميع المندوبين . ولا بد من الاعتراف ان مجال الجبار كان ضيقاً نظراً لأن عدد الاسماء المعروضة للاقتراع كانت تكاد لا تكفي لملء هيئة اللجنة المركزية ، بما في ذلك الاعضاء والاعضاء المرشحون ، فضلاً عن ملء جهاز هيئة التفتيش . الا أنه كان يتاح لكل مندوب مجال التعبير عن رأيه حول كل مرشح ، إما بترك اسمه على لائحة الاقتراع او شطبه . ثم يقوم بجمع نتائج الاقتراع وهو يشخص الى عيني كل مندوب حتى لا يرى ورقة اقتراعه . ولم أكتشف الا بعد وقت غير قصير انه لم يطرح اي اسم على الاقتراع من دون موافقة ستالين المسبقة . ثم تحصى اوراق الاقتراع ويعلن كم نال كل مرشح من اصوات اقترعت له او ضده .

اذكر ان ستالين في مؤتمر الحزب السابع عشر لم ينتخب بالاجماع . فقد اقترح ستة مندوبين ضده . لماذا اذكر ذلك جيداً؟ ذلك لأنه عندما اعلن اسمي ، كنت قد نلت انا ايضاً اقل من الأجماع بستة اصوات . هذا يعني انني كنت في وضع مشابه لستالين . وكان مندوبون آخرون يتالون عشرين او ثلاثين او حتى مئة صوت اقل من ذلك ، وكان على المرشح ان يحصل على أكثرية اصوات المقترعين حتى يعلن فوزه .

في ١٩٣٥ عين كaganوفيتش مفوض الشعب للمواصلات واعني من مسؤولياته في منظمة موسكو . ورقعت لاجل محله ، كسكرتير اول للجنة موسكو في الاقليم والمدينة (١) .

وفي الاجتماع الموسع التالي للجنة المركزية انتخبت عضواً مرشحاً للمكتب السياسي . وهنا ايضاً كان سروري واعترازي كبيرين الا ان تهيبي المسؤولية كان كبيراً . وعلى الرغم من انني اصبحت عاملاً حزبياً محترفاً ، الا انني احتفظت بادوات حرفتي : بالمسالك وبالواصم وبالمعداد وبالمسطرة التي يستخدمها عامل التعدين . لم أكن ارغب في قطع صلاتي بحرفتي القديمة . فقد كنت اقدر ان العمل الحزبي هو شأن يخضع للانتخاب فاذا لم يعد انتخابي فقد اضطر في اي يوم ان اعود الى مهنتي الاصلية .

(١) هذا يعني ان خروشوف كان اليد المطلق في ظل ستالين على مدينة موسكو والمناطق المحيطة بها .

وبدأت أحضر جلسات المكتب السياسي بانتظام . وفي تلك الايام كان ستالين لم يزل يحافظ ، في حدود معينة ، على تقاليد لينينية . فكان يسمح لاعضاء اللجنة المركزية الذين يصدف وجودهم في موسكو بحضور جلسات المكتب السياسي شرط ان يجلسوا بهدوء ولا يشوشوا . وقد افادني كثيراً حضور هذه الجلسات لأنه اتاح لي الاطلاع على كيف تتخذ قيادة الحزب قراراتها .

كان التمكن من الجلوس مع اعضاء المكتب السياسي ، وان أكون قريباً من ستالين ، بمثابة فرصة اتوج بها احترافي الحزبي . فلسنوات مضت كنت اقف نفسي كلياً للجنة المركزية ولستالين . ومنذ ان جئت موسكو لأول مرة واصفيت اليه يتكلم في اجتماعات جماهيرية ، اعجبت بوضوح تفكيره وإيجاز عباراته . كما انني اعجبت كذلك بأسلوبه الموجز البليغ وما كان يديه من جلاء في مخاطبة جماعة أصغر ، كالاجتماع المغلق للمديرين الصناعيين في ١٩٣٢ ، عندما كان يعدّ شروطه العظيمة السنة .

والان ، فقد اتيج لي بوصفي عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ، ان اراقب ستالين عن كثب في اثناء العمل واستمر ترايد اعجابي به . وكان يدهشي منه هذا الصبر والشعور مع الآخرين الذي كان يديه في جلسات المكتب السياسي في اواسط الثلاثينات . وتبدو امامي الآن امثلة مختلفة عما اعنيه ، الا انني أستطيع اختيار واحد منها هي لقضية غير اعتيادية عن ديبلوماسي سوفياتي شاب ذهب الى بلد من بلدان اميركا اللاتينية برفقة احدي بعثاتنا التجارية وتورط هناك مع الصحافة المحلية ففرض نفسه نفسه للشبهات . واستدعي للشهادة امام جلسة للمكتب السياسي وبدأ مضطرباً ، مرتبكاً . وافتتح ستالين المناقشة ، فقال : « اخبرني ، ارجوك ، ما حدث ، ولا تخف شيئاً » .

فأخذ الديبلوماسي الشاب ، يشرح كيف انه بعد وصوله الى ذلك البلد في اميركا اللاتينية ، ذهب الى مطعم ليتناول بعض الطعام ، فاوصلوه الى مائدة وطلب الطعام . ثم جاءه رجل وجلس الى مائدته وسأله اذا كان من روسيا . فاجابه بالايجاب . فأخذ يسأله كل انواع الاسئلة : ماذا جئت تشتري ، هل خدمت في الجيش ، هل تجيد الرماية . فأعلمه انه كان في سلاح الحبيالة ، وانه لم يكن يسيء الرماية ، واموراً اخرى . ولكنه في صباح اليوم التالي ، فوجئ بشيء مرعب ، بظهور مقال في الصحف مليء بكل انواع السخافات ، كالقول بأنه من رعاة البقر القوقاسيين . وكان المقال كذلك مليئاً بالاكاذيب عن غرض رحلته وما سيشره ، والاسعار التي نسب اليه عرضها وهكذا دواليك . وبعد ذلك بقليل طلبت منه السفارة الرجوع الى الوطن ورفع الأمر الى المسؤولين . واضاف الديبلوماسي الشاب قائلاً : « ارجوكم

ان تأخذرا بعين الاعتبار أنني ما ارتكبت هذا الخطأ الا لانعدام خبرتي ودون اي قصد مبيت شرير»

وشعرت انا شخصياً بالعطف على هذا الشاب . من الواضح انه كان ضحية سذاجته . وأخذ كل واحد من الحضور يتلوّى في مقعده ويهمس الى جاره - كنا جميعاً نتظر ما سيحدث .

وفجأة قال ستالين : «حسناً ان ما استطعت ان افهمه هو ان شخصاً واثقاً من نفسه استغلّ نعر من الملاعين . هل هناك ما يضاف ؟»

الجواب : «كلا» .

«اذن ، القضية طويت» وحدث ستالين في عيني الديبلوماسي الشاب وقال : «انتبه كن اشد حذراً في المستقبل» . وكان ان الدهشة عقلت لسان الرجل المسكين فقفر فاه ، بينما كانت الجلسة تختتم . ثم جمع حقيقته وخرج لا يلوي على شيء . وقد ترك في نفسي اسلوب ستالين البسيط والرحيم في معالجة القضية انطباعاً كبيراً . وهكذا أحسّ الجميع ايضاً .

أب المدينة

انصبت عناية خروشوف بصورة رئيسية على ادارة موسكو وذلك منذ تعيينه في ١٩٣٢ سكرتيراً ثانياً (في ظل كاغانوفيتش) للجنة الحزب في مدينة موسكو إلى ١٩٣٨ عند تعيينه سكرتيراً أول لاوكرانيا . أصبح في ١٩٣٥ يسيطر سيطرة مطلقة على منظمات الحزب في المدينة واقليمها . وفي هذه السنوات استحق صيته كقائد صلب عديم الشفقة . وانه خلافاً للعديد من الروس في المناصب العليا لم يكن يخشى من ان تطل الاحوال حذاه . وكانت العملية الأكثر جذباً للانظار التي قام بها هي بناؤه خطوط المترو في موسكو ، تحفة النظام السوفياتي المجيدة ، بقاعاتها الرخامية المزخرفة تحت الأرض ، والتي أصبحت من اعاجيب العالم . وسمي المترو باسم كاغانوفيتش الذي دشنه بمساعدة خروشوف . ولكن سرعان ما استلم خروشوف القيادة في موسكو ووصل بالمشروع إلى نهايته الناجحة . ويقدم خروشوف وصفاً لتلك الايام المحمومة : كان يعمل دون توقف ، في أمرته فضلاً عن الشباب الشيوعي المتحمس الذي تطوع للعمل في المشروع ، جيش لجب بمن فرض عليهم العمل الاجباري بتصرف رئيس المباحث ج.ج . ياغودا . وبدأ من ١٩٣٦ كان على خروشوف كذلك جعل موسكو ، طول سنوات التطهير الرهيبة ، موالية لستالين . وفي هذه الفترة سطع نجمه رغم انه لا يذكر ذلك ، بالخطابة في

الاجتماعات الجماهيرية مادحاً ستالين بعبارات من التفضيم فاقت كل اقاربه وطالباً انزال عقوبة الموت بضحايا محاكمات الحياة .

منذ شرعت في نشاطي الحزبي في منظمة موسكو وجدت ان علي انجاز الكثير في وقت قصير . ولعبت دوراً رئيسياً في ادارة واعادة بناء عاصمتنا السوفياتية في اوائل الثلاثينات واواسطها . وكنت ورفاقي نعمل بحماسة رتضحية ذاتية ، واستنزف عملنا كل اوقاتنا . فلم نكن نركن إلى الراحة . وغالباً ما كنا نعقد الاجتماعات الجماهيرية ، او نتشاور فيما بيننا في ايام العطلة ، ونعمل ساعات طويلة تمتد في أكثر الاحيان إلى اوقات متأخرة من الليل . وكنا ننظر إلى مهامنا التي تنتجز وقد امترجت بها مسحة رومانسية من الحلم بان يأتي اليوم الذي تتحقق فيه كلمات لينين : بعد عشر سنوات من قيام السلطة السوفياتية ستكون قوة لا تقهر ! اما اليوم ، فيا للأسف، قد اضمحل الكثير من روح المثالية والتضحية الذاتية من الحزب ، وحلت محلها روح ذات نفحة بورجوازية صغيرة باتت هي المسيطرة . والآن اذ اعود إلى تلك الايام لاذكر كيف كنت اساعد في ادارة مدينة موسكو ، اذكر ان واحدنا منا لم يكن يخطر له ببال كيف يتم الحصول على بيت ريفي . ألم نكن شيوعيين ؟ كنا نجوب المدينة بثياب عمل بسيطة . لم يكن اي منا يلبس بزة رسمية . كان لباسنا الرسمي قميص العمل ذا القبة المفتوحة او السمق الذي يلبسه الفلاحون . وكان ستالين قدوتنا في ذلك .

كان كاغانوفيتش يشغل إلى جانب مسؤوليته كسكرتير اول للجان مدينة موسكو واقليمها ، وظيفة السكرتير الثاني للجنة المركزية . هذا جعله نائب ستالين . لذلك كان عليه ان يخصص معظم اوقاته للجنة المركزية ، فوقعت علي أكثر اعباء مسؤولية العمل في موسكو ، نظراً لكوني السكرتير الثاني للمدينة واقليمها . وقد تطلب مني هذا العمل الجهد والاجتهاد والعناية الفائقة . ذلك انه كان علي التعمييض بالمثابرة والاجتهاد عما فاتني بالتجربة والاختبار . كانت علاقتي طيبة مع رفاقي في منظمة الحزب بموسكو . وفي الظاهر برر انجازي العملي الثقة والمسؤولية التي وضعت في عندما رفعت من مستوى مسؤول اقليمي .

مررت ، دون ريب ، في لحظات حرجة ، وانني اذكر الحادثة التالية التي وقعت في ١٩٣٢ : كان الناس يتضورون جوعاً في موسكو ، وباعتباري السكرتير الثاني كان علي وقف الكثير من طاقتي على تأمين وسائل التغذية

للمواطنين - او « الطبقة العامة » كما كنا نقول (١) .
كان ستالين قد اقترح تربية الارانب للتغذية . وكنت متحمساً للفكرة وعملت
جهدي لتنفيذ تعليماته بهذا الصدد . فقامت المصانع والمحترقات كلها بتربية ارانبها
لتلبي حاجات مطابخها . ثم أخذنا بخطط زرع الفطر حول موسكو . وبعض المؤسسات
اسهمت بنصيبها الا انه كان في كل حركة جماهيرية عناصر شر ، وبعض مدراء
المصانع لم يدعموا القضية . وواجهنا صعوبات أكثر عندما بدأنا بتوزيع بطاقات
الاعاشة ، فلم تكن تتوفر كميات كافية من البطاقات ، ولم يكن مناص من وقوع
بعض عمليات الابتزاز في اثناء التطبيق . ذلك ان النقص في البطاقات دفع ببعض
الافراد الى المداورة في تطبيق القانون وبعضهم الاخر الى السرقة . فبطاقات الاعاشة
كانت مختلفة الانواع ، بعضها للذين يعملون وبعضها للعاطلين عن العمل ، واختلفت
كذلك البطاقات في القيمة بين العمال انفسهم . وادّت هذه الحالة الى قيام مختلف
انواع الشذوذ والاستغلال ، بل حتى اللصوصية .
واستدعاني كاغانوفيتش ذات يوم قائلاً : « من الافضل لك ان ترفع تقريراً
الى المكتب السياسي عن التدابير التي تتخذها لمنع الناس من الحصول على بطاقات
الاعاشة بصورة غير مشروعة » .

فتهيت هذه المهمة ، بل اقول ان حالة من الجزع تملكني ، اذ سأمثل امام
أكثر هيئاتنا هية ووقاراً لالقي خطبي ، وسيكون ستالين هناك وهو الذي سيحكم
على تقريرتي ويقيمه . و الواقع ان ستالين في تلك الايام لم يرأس المكتب السياسي
بنفسه . فقد ترك هذه المهمة دائماً لمولوتوف الذي كان أقدم اصدقائه . اذ عرف
أحدهما الآخر منذ ايام النشاط السري قبل الثورة . وكان مولوتوف دوماً يعرف
بانه اخلص رفاق ستالين في السلاح الذين لم يتزعزعوا في كل الحالات . ويقال انه
هو الذي أعلن ذلك عندما سمّي رئيساً لمجلس مفوضي الشعب (الوزراء) في اجتماع
اللجنة المركزية الكامل في اواخر ١٩٣٠ . وبعد أن بدأت عملي كسكرتير لجنّي
مدينة موسكو واقليمها كنت اتردد كثيراً على مكتب ستالين وكان مولوتوف دوماً
هناك . وغالباً ما كانا يذهبان الى العطلّة معاً . وكان مولوتوف ساعد ستالين الأيمن في
المعركة ضد المعارضة . لذلك وصفه المعارضون بهراوة ستالين . اذ كان يستخدمه

(١) كانت موسكو تحس الآثار المراجعة الناتجة عن التجميع الاشتراكي . ورغم ان
الادارة السياسية الرئيسية والجيش قد ارغوا الفلاحين على تسليم محاصيلهم لمصلحة
عمال المدن الا ان المتوفر من ذلك لم يكن يكفي . وان حالة الفلاحين في تلك
المرحلة يجري وصفها في الفصل التالي .

يضرب اي عضو في المكتب السياسي يعارضه . لكن مولوتوف ، في تلك الايام ، ترك في نفسي انطباعاً انه رجل قوي الارادة ومستقل الرأي والتفكير (١) . قدمت نفسي في اجتماع للمكتب السياسي والقيت خطاباً عدت فيه كل التدابير التي اتخذناها لتصفية سوء استخدام نظام بطاقات الاعاشة ، وزعمت اننا اصبنا نجاحاً كبيراً . فقال ستالين : « كفى تباهياً ، ايها الرفيق خررشفوف . ان لصوصاً عديدين ما زالوا طلقاء - نعم انهم عديدون - ولا تظن انك القيت القبض عليهم جميعاً » .

ابدى ستالين ملاحظته هذه بنبرة ابوية لم ترعجني على الاطلاق . كنت قد اقنعت نفسي باننا قد قبضنا على جميع المتلاعين ببطاقات الاعاشة ، ولكنني دهشت من ان ستالين - الذي لم يكن يترك الا نادراً حدود قصر الكرملين - كان مطلعاً الى هذا الحد ، حتى لتحسب انه يعرف عدد اللصوص الذين لم يقبض عليهم بعد ! ان هذا التصرف من ستالين رفعه كثيراً في عيني .

بعد حين علمت ان وفداً من لينتغراد سيقدّم تقريراً الى المكتب السياسي عن الموضوع نفسه . فرغبت في الاطلاع على كيف يعالج فرع لينتغراد المشكلة ، لا سيما واننا كنا على تنافس معه في كل حقل وبصورة خاصة في القضايا السرية . وكان سيرجي ميرونوفيش كيروف هو السكرتير الأول لمنظمة لينتغراد . وقد اوكل أمر التقريرين التقنيين والاعاشة لاحد السكرتيرين الآخرين . واستطعت ان أفهم من التقرير ان منظمة لينتغراد افادت بأنها قطعت شوطاً كبيراً في بناء اقتصاد المدينة بحيث استطاعت تخفيض التقنين .

وعندما انتهى فرع لينتغراد تقديم تقريره رفعت الجلسة لفترة استراحة وتوزع الناس في القاعة ليذهبوا الى قاعة الجلوس حيث كانت تقدّم المرطبات . كانت البلاد في مجاعة وكان حتى ذوو المناصب العليا من امثالي يعيشون عيشة متضعة ، بل أكثر . فقد كنا احياناً نفتقر الى الطعام الكافي . لذلك كنا نفتحم البوفيه (المقصف) في الكرملين ونلتهم الساندويشات واللحوم الباردة والشاي خلال فترات الاستراحة بين جلسات العمل . مرة بينما كان الجميع يقومون باقتحام البوفيه في الغرفة المحاذية ، تخلّفت عنهم برهة متظراً أن يغادر غرفة الاجتماع آخر من بقي فيها . وهكذا ، وبدون قصد ، شهدت تبادل كلام قارس بين ستالين وسيرجي ميرونوفيتش كيروف . كان سيرجي ميرونوفيتش يتحدث باطراء عن تقرير وفدكم عن التقنين

(١) انظر سيرة حياة مولوتوف في الملحق رقم ٣ .

والاعاشة ، فرد ستالين متفوهاً بعبارات مهينة بحق السكرتير الذي القى التقرير (١) .
لقد هزني ذلك وصدمني . ففي تلك الايام كنت مثالياً جداً حول المناقب الحزبية .
لم اصدق ان ستالين زعيم الحزب ، يمكن ان يتصرف بقلة احترام ازاء اي عضو
آخر في الحزب . كنت انظر الى الأمر من هذه الزاوية : ان كل من حمل بطاقة
الحزب وكان شيوعياً صادقاً فهو أخي - بل هو أكثر من أخي . كانت تجمعنا ،
كاعضاء ، خبوطاً غير منظورة من معتقدنا المشترك في الكفاح المجيد . ان بناء
الشيوعية كاد يكون عملاً مقدساً بالنسبة لي ولو جاز لي استعارة تعابير المؤمنين
المتدينين لكنت اقول بان كل مشترك في الحركة الشيوعية هو بالنسبة لي رسول
مستعد ان يضحي بنفسه باسم قضيتنا المشتركة (٢) .

لقد صدمني يومها ، ما سمعت من حديث ستالين الى كيروف واعتبرته انحرافاً
لا استطع تفسيره ، عن سلوك ستالين المعادي . وبعدها أصبحت السكرتير الاول
للجنة مدينة موسكو أخذت اجتمع الى ستالين أكثر فأكثر في مناسبات غير رسمية .
وكنت ادعى بانظام ، مع بولغانين الذي كان رئيساً لسوفيات موسكو
(واقعياً يعني محافظ المدينة) ، الى مآدب العشاء العائلية في شقة ستالين . ودائماً كان
ستالين ونادزدا سيرجيفنا هما المضيف والمضيضة . وكان ابوا سيرجيفنا يحضران غالباً .
وكذلك شقيقها وزوجته وشقيقتها انا سيرجيفنا وزوجها ريدنز . وكان ريدنز
رئيس مكتب موسكو الاقليمي في المباحث . وكان ستالين يجلسنا ، انا وبولغانين
الى جانبه ويعبرنا الانتباه الشديد خلال تناول الطعام . وكان يهوى ان يقول : «حسناً
كيف تجري الامور يا ابوي المدينة ؟»

كان مستغرباً بالنسبة لي ان استمع الى ستالين وهو يتحدث بخفة على المائدة .
ولما كنت اعبدته آنذاك ، فلم استطع اعتياد البقاء معه في أمكنة يكون فيها على
سجيته : فهنا رجل ليس من هذا العالم ، ومع ذلك فهو يضحك ويمزح كباقي الناس !
واحياناً ، عندما كان ستالين يريد ان يتحدث معنا حول شؤون تختص بإدارة
المدينة ، كان يستدعينا للانضمام اليه في المسرح . وكنا نركز انتباهنا جيداً على
ما يقول ، ثم نحاول تنفيذ ارشاداته .

(١) في اواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات كان س. م. كيروف مقرباً جداً إلى
ستالين . رغم اننا نجد هنا العلامات الأولى لهذا الاستقلال الفكري عنده الذي ادى إلى
اغتياله واليه بالتطهير الكبير (انظر الفصل الثالث) .

(٢) ان اشخاصاً مثل خروشوف في تلك الايام كانوا رغم قساوتهم ، يعتقدون انهم
ينون عالماً جديداً .

ذات مرة - اعتقد ان ذلك كان قبل المؤتمر السابع عشر للحزب - تلقيت رسالة تأمرني بان اطلب رقماً هاتفياً ، فعرفت على الفور انه رقم شقة ستالين . ورد ستالين بنفسه عندما طلبت الرقم ، وقال « ايها الرفيق خروشوف ، وصلني شائعات تقول بانك تركت وضعاً غير مرض ينشأ بخصوص بيوت الخلاء في موسكو . والظاهر ان الناس لا تجد مكاناً تقضي فيه حاجتها . هذا أمر لا يجوز . ناقش هذه المسألة مع بولغانين وافعل شيئاً لتحسين هذه الاوضاع . »

لعل هذا الامر كان تافهاً ليهتم به ستالين ويلفت انتباهنا اليه . ولكنني أعجبت بحسن التفاته على أية حال ، وبدأنا ، انا وبولغانين ، العمل بحوية . ففقدنا بانفسنا المباني والفناءات . ورفسنا رجال المليشيا على اقفيتهم وحملناهم على المساعدة . وبعد ذلك كلفنا ستالين مهمة انشاء بيوت خلاء نظيفة ، حديثة ، يصير دفع رسم في مقابل دخولها .

واذكر انني مرة كنت مجتمعاً في مؤتمر مع رفاق من المقاطعات ، فسألني ايخ ، سكرتير الحزب في نوفو سيبيرسك ، بلهجته البسيطة : « ايها الرفيق خروشوف ، هل حقاً ما يقوله الناس من انكم تشغلون انفسكم ببيوت الخلاء في موسكو ، وهل صحيح ان ذلك تم بناء على تعليمات ستالين نفسه ؟ » (١) .

اجبت : نعم هذا صحيح تماماً ، وهذا يبرهن على اهتمامنا بالمواطنين . ففي مدينة كبرى مثل موسكو لا تستقيم الامور بدون بيوت خلاء كافية ونظيفة . ان هذه الحادثة ، مهما بدت مبتذلة ، تظهر كيف ان ستالين ، قائد الطبقة العاملة في العالم ، لم تكن مشاغله الكثيرة لتصرفه عن الاهتمام بتفصيل في مستوى بيوت الخلاء العامة في المدينة .

في ١٩٣٤ عملنا ، انا وكاغانوفيتش وبولغانين ، على اعادة بناء موسكو واشرفنا على اشادة العديد من الابنية الجديدة . واذكر انه ذات مرة ، بينما كنا نقف وسط جماعة ونشرف على تفتيش مجموعة جديدة من الابنية حول مبنى سوفيات موسكو ، اشار كاغانوفيتش إلى معهد ماركس - انجلز وقال « تباً لذلك الذي صمم هذه الحولة ! » .

وأخذ المهندسون الذين كانوا معنا يتطلعون بعصية . راسقوا في يد مهندس

(١) ر.أ. ايخ . شدد خروشوف كثيراً في خطبه السرية على انصير الذي لاقاه ايخ في التصفيات . كان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي ، اعتقل في نيسان ١٩٣٨ وارغم تحت التعذيب على توقيع اعترافات ثم عاد فانكرها وطلب إلى ستالين تكليف اللجنة المركزية بفتح تحقيق في قضيته . اعدم ربيعاً بالرصاص في شباط ١٩٤٠ .

المدينة الرئيسي شرنشيف، ولكنه قال : « يا لازار موزيفيتش ، انا الذي وضعت تصميم البناء . » فابتسم كاغانوفيتش واعتذر ولطف ملاحظته . . وقد كان مبنى معهد ماركس انجلز ، حقاً ، ذا شكل تنقبض النفس لدى مشاهدته . كانت الفترة تلك تشهد نشاطاً عمومياً . وقد تمت انجازات كثيرة في وقت قصير . وبدا ان ثمة مشاريع مهمة كانت قيد التنفيذ في الوقت نفسه : بناء مصنع لحمل الكريات ، وتوسيع مصنع دوكس رقم واحد للطيران ، واشادة مصانع للزيت والغاز والكهرباء ، وشق قناة موسكو - الفولغا ، واعادة بناء جسور على نهر موسكو . وهذا غيض من فيض . وقد القيت المهمة الضخمة للإشراف على كل ذلك على كاهلي نظراً لان كاغانوفيتش كان غارقاً حتى اذنيه في العمل خارج منظمة موسكو الحزبية .

وبالاضافة إلى تشيد الابنية الجديدة كان هناك الكثير في مجالات تحديث أكثر خدمات المدينة الكبرى العالمية . كان انتظام مياه البوالبغ ودورة المجاري في موسكو في حالة سيئة ، لان زمناً طويلاً مر عليها . وكان معظم الشوارع مكسوة بالحصى ، وبعضها لم يكن مرصوفاً . وكان الاعتماد لا يزال شديداً على الخيول لجر العربات او لاغراض أخرى . حتى انه من الصعب تصديق ان تلك كانت الحال يومها وبمثل هذه البداية .

وابان عملية اعادة بناء موسكو كان لي شرف مد خطوط اول اتوبيس كهربائي في الاتحاد السوفياتي . وقد اقتضاني جهداً وافراً لاقتناع الناس بمجدي اعتماد الاتوبيس الكهربائي ، وكان معارضو وسائل النقل هذه عديدين . مثال على هؤلاء ، صديقي الكسي ايفانوفيتش ليخاشيف الذي كان يفضل المحرك ذا الاحتراق الداخلي ، فكافح بكل ضراوة ضد مد تجهيزات الاتوبيس الكهربائي . بل انني واجهت بعض المعارضة من ستالين نفسه . فبعد مد الاسلاك والاستعداد لامتحان الجهاز تلقيت مكالمة من كاغانوفيتش يطلب مني التوقف ، اذ قد نصرف النظر عن المشروع كلياً ، ثم بدا لي ان ستالين كاد يقتنع بأن الاتوبيس سينقلب على المنحدر امام مبنى البرق والبريد المركزي . ولكن الوقت كان متأخراً جداً لالغاء التجربة . ولحسن الحظ جرت على ما يرام . ورفعنا إلى ستالين تقريراً بالامر ، لافتينه إلى ان الاتوبيس الكهربائي لا يثير قرقرة ، ولا يلوث الهواء، وهو احدث وسائل المواصلات وسيهم حتماً في تقدم المدينة .

وايد ستالين توصيتي . ولكن عندما جلبنا ، فيما بعد ، الاتوبيس ذا الطبقتين ، رفض رفضاً مطلقاً السماح لنا باستخدامه . كان يخشى ان ينقلب ، ولم تنفع اية حجة في نزع هذه الفكرة من ذهنه . الا ان ستالين ، بصورة عامة :

كان يؤيد التحسينات الحديثة والتطورات التقدمية من كل الانواع .
وعندما شرعنا بنى مترو موسكو ، كان عندنا فكرة غامضة جداً عما سيرتب
على هذا العمل . لم تكن ذا دراية ولا اطلاع على احدث ما في العالم . كنا نتخيل
القطار الكهربائي النفقي كشيء فوق الطبيعة ، واني اعتقد اليوم انه من الاسهل
ان نوئل بالسفر في الفضاء من ان نوئل (ونحن في الثلاثينات) بناء قطار المترو
في موسكو .

جرت التوصية باسناد مسؤولية الاشراف على المشروع لبافل بافلوفيش روتر .
وكانت شهرته قد ذاعت كأفضل مهندس في موسكو ، وهو روسي من أصل
الماني ، وقد اشرف على احد اعظم مشاريع البناء الحكومية : مبنى الحكومة في
ساحة دزرزنسكي في خاركوف .

في البداية لم تكن لي ادنى علاقة بموضوع المترو . ولكن بعد انقضاء بعض
الوقت ، قال لي كاغانوفيتش : « ان الأمور لا تسير على ما يرام وانه من الخير
نظراً لخبرتي في التعدين ، ان اتولى مسؤولية الاشراف على بناء شبكة المترو . »
واقترح ان اترك جانباً كل مسؤولياتي في لجنة المدينة . و اشار علي بالذهاب إلى
رأس النفق حتى ارى ما هو جار هناك . وقال ان على بولغانين ان يفعل الأمر ذاته .
كان اقتراح كاغانوفيتش في موضعه . وفي ذلك الوقت كان لازار موزيفتش لم يزل
يحتل مكانة مرموقة في نفسي . ولم يكن عندي ادنى شك في ولائه للحزب والقضية .
كان يمكن وصف حاله بالمثل السائد ، وهو انه عندما يحطب تنطابر رقايات
كثيرة من الخشب في الجو . ولكنه لم يكن يغير ابدأ ، لا في القوة ولا في الطاقة .
كان عنيداً على قدر ما كان مخلصاً .

وبعد ان قضيت بعض الوقت ، تكونت عندي فكرة أفضل عما ينبغي ان يكونه
بالفعل . وادركت ان الامور تجري هنا بصورة مشابهة جداً لما كان يجري في
المعادن ، حيث كنت اعمل في شبابي . اما بولغانين فقد سبب له المشرع ألماً
في العصب الوركي (عرق النسا) ألزمه الفراش وقتاً طويلاً . وهكذا وقعت
مسؤولية الاشراف التام على مشروع المترو على كاهلي .

وأخذت ارفع تقارير منتظمة عن تقدم العمل إلى كاغانوفيتش ، أشدد فيها
على انه ليس لدينا الاشخاص القادرون على اتمام العمل بسرعة واتقان .
وبناء على الحاجي أخذنا بالبحث عن مهندسي معادن من ذوي الخبرة للاشراف
على العمل في المكان المخصص للنفق .

وفي هذه الاثناء كان العمل يتعثر في صناعة الفحم في دونباس . ولم يكن الانتاج
في مستوى الطلب المتزايد في البلاد . فارسل مولوتوف إلى هناك لتفحص الحال .

ولكنه لم يصب نجاحاً لأنه لم يكن مطلعاً حتى على بدهيات صناعة التعدين .
وكان اغور تروفيموفيتش اباكوموف يرئس اشغال الفحم في دونباس . وكنا
صديقين منذ عملنا معاً في حفر المناجم في ١٩١٢ . وبعد الحرب الاهلية عملت
نائباً له . فكان ادارياً جيداً ومن ذوي الخبرة في صناعة التعدين . ورفع مولوتوف
في تقريره إلى المكتب السياسي اقتراحاً باعفاء اباكوموف من منصبه في دونباس .
واستدعاني كاغانوفيتش وأخبرني بالأمر ، قائلاً :

— هل تعرف اباكوموف هذا ؟

— نعم ، اعرفه جيداً .

— ما رأيك اذا عينا اباكوموف نائب مدير عمليات بناء المترو تحت ادارة
روتر ؟

— لن نجد نائب مدير أفضل منه ، بل انه يصلح لان يكون مديراً ممتازاً .

— انا لم اسألك عن هذا . عندنا مدير هو روتر ! .

وهكذا عين اباكوموف عندنا ، فهان عملي بعد وصوله . وكانت تجمعنا
معرفة وثقة متبادلان .

وبدأنا فوراً بتعبئة المهندسين من ذوي الخبرة في شؤون التعدين . وفي أحد
الايام سألني كاغانوفيتش : « ماذا لو عيناك رئيس عمليات بناء المترو ؟ » فأجبت :
« أنا لا اريد ذلك » . فقال : « لماذا ترفض ؟ لقد أظهرت انك تملك القدرة
والخبرة الضروريتين . وبصراحة فقد شرعنا نعتبرك مدير العمليات اليومية الحارية
فما هو الفارق بالنسبة اليك اذا جعلنا الأمر رسمياً ؟ » .

فقلت : « اذا كان هذا ما قررتهم ، فأنا مستعد ان ابذل جهدي حتى اؤكد
لكم ان تثقتم بي في محلها . ولست اطلب الا اعفائي من واجباتي كمكتربر
بلجنة المدينة . لأنه يتعذر علي ، القيام بالمسؤوليتين في وقت واحد . » غير ان
كاغانوفيتش رفض طلبي .

وعرفت فيما بعد ان ستالين هو صاحب فكرة اسناد ادارة بناء خطوط المترو
إلي . ولكن كاغانوفيتش لم يخبرني بذلك قط ، ولكن الذي وضح لي ان ستالين
هو الذي وجهه كي يسألني اذا كان بإمكانني أخذ مسؤولية الاشراف على موضوع
المترو بالإضافة إلى واجبات بلجنة مدينة موسكو . غير ان الاقتراح صرف النظر عنه
عندما اعتذرت عن تحمل المسؤوليتين في الوقت نفسه .

ولكن الأمر حدث عملياً على هذا النحو : رغم احتفاظي رسمياً بمسؤولياتي
في بلجنة المدينة الا انني أخذت اعطي ثمانين بالمئة من وقتي للمترو . وأخذت اتقل
ذهاباً واياباً من بلجنة موسكو عبر الممر الرئيسي . ففي الصباح كنت ابدأ بالمر

الرأسي قرب مكان سكني ثم أصدد منه قرب مبنى مكتب الحزب . وكان يصعب علي وصف العياء الذي كان يحل بي في آخر اليوم .

كنا ننام اقل ما يمكن من الوقت حتى نستطيع اعطاء كامل وقتنا للقضية . وجاءني في احد الايام مهندس شاب يعمل في قسم التخطيط حاملا فكرة حول كيف نستطيع تحسين المترو . كان اسمه ماكوفسكي . لقد احبته بصورة عفوية عند لقائه . كان ذكياً ووسيماً : واحداً من جيل الاخصائيين الشباب في عصرنا الاشتراكي . وهاكم ما قال :

« ايها الرفيق خروشوف ، إننا نبني المترو وفق ما يسمى بالاسلوب الالماني ، او اسلوب الخندق المفتوح . ان مثل هذا الاسلوب لا يلائم المدينة اطلاقاً . اقترح ان تنتقل إلى اعتماد الاسلوب الانكليزي ، او اسلوب النفق المغلق . وهذا يوجب علينا بناء المترو بعمق أكثر ، وبنفقات أكثر قليلاً . ولكن اذا لم تسقط من حسابك امكانية نشوب الحرب ، تجد ان الاتفاق المعززة التحصين وجدرانها المدعمة ، تشكل ملاجئ ممتازة من القنابل .

« ثم هناك افضلية أخرى للأسلوب الانكليزي ، اذ لنا مضطرين ان نبني على محاذاة خطوط المواصلات الرئيسية ، بل بإمكاننا ان نقيم النفق تحت الابنية . ثم هناك مسألة كيفية ازالة الركاب إلى المترو واصعادهم او اخراجهم منه . كان بافل بافلوفيش روتر قد اعطانا تعليمات لبناء مصاعد . هذا ايضاً من الاسلوب الالماني . اما انا فأقترح الاستعاضة عن ذلك بالسلم الميكانيكي الدوار » . والحقيقة انها المرة الأولى التي سمعت فيها بهذا النوع من السلام . فسألته عما يعني ، فأوضح لي . وتابعت شرحه بافضل ما استطيع من الاستيعاب . وبدأ لي الأمر بالغ التعقيد . وانهى ماكوفسكي كلامه بالقول : « ارجوك ان تعيد النظر باقتراحاتي ، اذا شئت . وبإمكانني رفع تقرير اشرح فيه بدقة ما يحول في خاطري . على اي حال ارجوك ان لا تخبر بافل بافلوفيش انني جئت لمقابلتك . انه حسود جداً وصارم جداً . لقد جئتك بهذه الفكرة دون اذن منه . ذلك انني لو حدثته بالأمر من قبل ، وهو المفرط في التعصب لآرائه ، لرفض اقتراحي دون الاستماع إلى ما اقول . » فقلت له : « حسناً ، سأبحث الأمر مع الرفيق كاغانوفيتش ونعلمك بما يتم عليه قرارنا » .

ورفعت الأمر إلى كاغانوفيتش فأجاب باقتضاب : « لماذا لا تطلب من ماكوفسكي ان يخبرك بتفصيل اوفى عن هذا السلم الدوار ، وعندها ترى لماذا علينا بناء المصاعد بدلا منه . ذلك ان السلم الدوار سيستورد من انكلترا او المانيا . وليس بإمكاننا اتفاق احتياطنا من الذهب على مشتريات من الخارج حتى ولا

من أجل المترو » .

فقررت ان ادعو إلى اجتماع يحضره ماكوفسكي وبافل بافلوفيش روتر ودعوت كذلك بعض الاشخاص الآخرين ، اذ أردت ان اصل إلى قرار حاسم ونهائي في الموضوع . ولتصور المشهد كيف ارتسم : ماكوفسكي ، فتي وسيم وذو ملامح دقيقة ، بينما روتر مسن وسمين وهو يعبس في وجه ماكوفسكي من تحت حواجبه المتحدرة ، وكأنه تسمحح يرمق ارباً . وكان ماكوفسكي بادي العصبية الا انه سيطر على نفسه وعرض وجهة نظره عرضاً جيداً . وناقش بأسلوب مقنع مبيناً اننا كنا نستخدم جهازاً عفا عليه الزمن ، وانه يقترح بديلاً احدث منه . واستمر يذكر انكلتراً كمثل : محطة بيكاديللي هي افضل محطة في لندن ، في قلب أكثر اقسام المدينة ارسقراطية ، وقد بنيت تحت الارض وهي موصولة بسلاالم دوارة بدل المصاعد . واستمر روتر يتطلع بازدراء نحو ماكوفسكي ، ودعاه بالفقئ المدعي غير المسؤول . الا ان ماكوفسكي كان قد نجح في عرض رأيه . وقد دافعت عن وجهة نظره عندما قدمت تقريري إلى اللجنة المركزية .

واستمر روتر بمكابرتة وعناده ، مصمماً على المضي بذلك حتى النهاية . وارتبك كاغانوفيتش الذي أصبح معي نصيراً لماكوفسكي ، لأنه بات يتحتم علينا عرض الخلاف على المكتب السياسي . فروتر سيعرض قضيته ضدنا وثمة امكان ان يؤيده ستالين . ولكن لم يكن امامنا خيار .

وقدم روتر تقريره في اجتماع للمكتب السياسي ثم جاء دورنا للكلام . ونشأ جدل . وعند نقطة من البحث قال روتر « ان ما تقترحونه يكبد اكلافاً باهظة ... » . غير ان ستالين قاطعه بحددة « ايها الرفيق روتر ، ان مسألة الاكلاف تترك للحكومة فهي التي تبت فيها . ان مهمتك ان تعلمنا ما هو المشروع المعقول تقنياً . لا ما هو معقول مالياً . الان اخبرنا ، هل اقترح هذا المهندس الشاب ماكوفسكي معقول تقنياً ؟ » فأجابه : « نعم ولكنه بالغ الأكلاف » . فقال ستالين : « قلت لك للتو ، ايها الرفيق روتر ، ان الحكومة هي التي تقرر ذلك . اننا سندضي في قبول خطة الرفيق ماكوفسكي لحفر الاتفاق العميقة » .

كم سرفني ذلك . لقد أظهر ستالين حكمة فائقة وجراءة نادرة ، آخذاً بعين الاعتبار عاملاً بعيد المدى هو عامل الدفاع المدني ، وقرر على ذلك الاساس ان الاتفاق تستحق الاكلاف الاضافية . وبان من المؤكد ان تتركز في الفترة الاولى من الحرب قيادة المدينة في محطة بوابات ميازنتسكي للمترو ، وان تستخدم الاتفاق بمثابة ملاجىء من القنابل .

وفي ١٩٣٥ احتفل مواطنو موسكو بانهااء المرحلة الأولى من مد شبكات

المترو . وقال عدد وافر من الناس ارسة حكومية . ومنحت انا وسام لينين ، فكان ذلك اول شرف احظى به . ومنح بولغانين وسام النجم الأحمر . وسمي مشروع المترو باسم كاغانوفيتش . وكان تنافس قد بدأ بين اعضاء المكتب السياسي على من يطلق اسمه على اكبر عدد من المصانع والمزارع الجماعية . ومما يؤسف له ان هذا الاتجاه برز إلى حيز الوجود في ظل ستالين . وكان كاغانوفيتش قد بات خبيراً مجرباً في هذا المضمار .

الارهاب

تشريك الارض

لم يشرع بما عرف بالارهاب الكبير الا في ١٩٣٥ ، غير ان استخدام الارهاب ، من ناحية مبدئية ، لتحطيم المعارضة كان في اساس الحكم البلشفي منذ تكريسه رسمياً على يد لينين في ١٩١٨ . كان التشريك (١٩٢٨-١٩٣٣) هو عملية تطبيق الارهاب بالجملة على الريف . ولم يعرف ، ولا يستطيع أحد ان يعرف ، عدد الملايين التي فئت في تلك العملية المجنونة التي وصفها ستالين بعد سنوات في حديث له مع ونستون تشرشل على انها كانت أزمة أكثر حرجاً للاتحاد السوفياتي من سائر ازمات الحرب العالمية الثانية. وفي ١٩٣٣ عند انتهاء عملية التشريك (المزارع الجماعية) كان الانتاج الزراعي ومجموع البهائم قد نقص إلى ما يزيد على النصف قليلاً . وعشية الغزو الألماني في ١٩٤١ لم يكن الانتاج الزراعي ولا عدد البهائم قد استعاد مستوياته السابقة لقيام التشريك . ان ما يضيف على هذا القسم أهمية خاصة هو أن خروشوف لأول مرة يقر بان «نمط خروشوف في التشريك لم يجلب لنا سوى البؤس» . وكانت القيادة السوفياتية ، بما فيها خروشوف ، طوال أربعين سنة قد زعمت أن التشريك الذي عارضه بمرارة بوخارين آنذاك ، كان عملية ضرورية واصابت نجاحاً باهراً . في الحقيقة كانت مذبحاً على نفاق ضخم وتركت آثارها المدمرة على الاقتصاد السوفياتي .

بدأ التجمع الزراعي قبل نقلي من اوكرانيا بسنة واحدة . ولكنني لم أبداً بتلمس آثاره على سكان الريف الا بعد ان شرعت بالعمل في موسكو . ومضت سنوات قبل ان اتيقن من مدى المجاعة والاضطهاد اللذين رافقا نظام التجمع الزراعي كما طبق في ظل ستالين .

ان اول تلمسي للحقيقة كان في ١٩٣٠ عندما حاول مكتب الحلية الحزبية في الاكاديمية الصناعية التخلص مني بارسالي إلى الريف في رحلة عمل . وكانت الاكاديمية ترعى مزرعة ستالين الجماعية في اقليم سامارا (الذي دعي فيما بعد بكوبيشيف) . وكان مفروضاً ان اسلم المزرعة المشار اليها مبلغاً من المال جمعناه لشراء ادوات زراعية . وقد رافقني في تلك الرحلة تلميذ آخر من الاكاديمية ، هو ساشا سدوبنوف الذي كان رفيقاً طيباً من الاورال والذي ذهب ضحية مذبحه ١٩٣٧ . وقضينا بضعة ايام فقط في المزرعة الجماعية روعتنا خلالها ظروف المعيشة فيها . كان المزارعون يموتون جوعاً . ودعونا إلى عقد اجتماع لنسلمهم المال الذي استحضرنه معنا . وكان معظم العمال في المزرعة الجماعية من الشعب الشوفاشي (الشوفاش) مما اضطرنا إلى مخاطبتهم بواسطة ترجمان . وعندما أخبرناهم بان المال خصص لشراء أدوات زراعية قالوا لنا ان الادوات لا تعني لهم شيئاً ، وانهم لا يريدون الا الخبز . واخذوا يتوسلون الينا ان نعطيهم طعاماً . وكنت انا وسدوبنوف قد اقمنا عند ارملة معدمة لا تملك شيئاً ، فتقاسمنا معها طعامنا الذي كان بحوزتنا للرحلة .

لم أكن اتصور ان الامور يمثل هذا التردّي . فقد كنا نعيش في الاكاديمية الصناعية على وهم مبالغات « البرافدا » حول ان حركة التجمع الزراعي تتقدم يسر وان كل شيء على ما يرام في الريف .

ولكن فجأة ، ودون سابق انذار ، القى ستالين خطبته الشهيرة « دوار النجاح » ملقياً تبعة الافراط الحاصلة من حركة التشريك (١) على عاتق الاعضاء المحليين . وفجأة وجد الاشخاص الذين كانوا يقودون عملية التشريك بحماسة متوحشة انفسهم هدفاً لحملة عنيفة تشنها عليهم « البرافدا » . وفي ذلك الزمن كنا نعتبر خطبة ستالين طرفة رائعة وضربة قاضية وجهتها زعامة الحزب ضد الرجال المسؤولين عن الافراط (٢) . الا انني اذكر ان فكرة اقلقتني : لو كان كل شيء يجري على ما يرام في المزارع الجماعية كما كان ستالين يجبرنا طول الوقت حتى الآن ، فما هو السبب الداعي لهذه الخطبة المفاجئة ؟

(١) القيت الخطبة في ٢ آذار ١٩٣٠ وأصر ستالين على ان تعليماته المستقيمة قد اسيء فهمها . هنا كان المعلم يدين ادواته بالقات لتنفيذها او امره .

(٢) « في ذلك الزمن اعتبرنا خطبة ستالين طرفة رائعة » . ولكن « من نحن » ؟ وقد القى خطبته دون ان يخبر المكتب السياسي واللجنة المركزية بالأمر . الا ان اللجنة المركزية وجدت الشجاعة الكافية لتحجج على تحميلها اللوم على جريمة ستالين .

وقد ادت المشادة حول التجمع الزراعي إلى الحث على إعادة تنظيم سريع في قيادة الحزب بموسكو. فاستبدل يوغلانونوف الذي كان معارضاً للتجمع ببومان (١). ثم جرفت بومان الحملة على الافراط ، فاستبدل بمولوتوف الذي استبدل بدوره بكاغانوفيتش . وعندما كان كاغانوفيتش رئيساً لمنظمة موسكو راجت اخبار مفادها ان متاعب وقعت في المزارع الجماعية رغم انه لم يكن لدي ادنى فكرة عن ان المتاعب المذكورة يمكن ان تعني التمرد من جانب الفلاحين ، وان قوات ترسل من موسكو لاختمادها .

اذكر انني عندما كنت اعمل في لجنة مدينة موسكو في ١٩٣٢ أعلن كاغانوفيتش فجأة ان عليه الذهاب في رحلة عمل إلى كراسنودار . وغاب اسبوعاً او اثنين . ولم نخبرنا يومها بغرض رحلته ولكننا عرفنا فيما بعد انه ذهب لاجباط اضراب - او « عمل تخريبي » كما كان يدعي - قام به القوقاسيون الذين رفضوا حرث اراضيهم . وكانت حصيلة رحلة كاغانوفيتش ان مستوطنات قوقاسية برمتها اقتلعت من ارضها وارغمت على الانتقال إلى سيبيريا .

واخبرني فكلتشيف أحد اصدقائي ، ورئيس الادارة السياسية (« أمن » القوات المسلحة) في مقاطعة موسكو العسكرية ، ان اوكرانيا حافلة بالاضرابات والتخريب ، وان جنود الجيش الأحمر قد عبثوا لقطف محصول الشندر .

وقد افزعني هذا الخبر ، اذ كنت اعرف من خبرتي الشخصية ان جذور الشندر مرهفة دقيقة بحيث ان اقتلاعها يجب ان يحصل بعناية فائقة وفي الوقت المناسب ، ولم يكن متوقعاً من جنود الجيش الأحمر الذين لم ير معظمهم في حياته الشندر ان يعرفوا كيف ينجزون هذا العمل جيداً . فكان من الطبيعي ان نخسر محصول الشندر في ذلك الموسم .

وانتشر الخبر على الاثر ان المجاعة قد بدأت في اوكرانيا ، فلم أصدق ذلك . اذ كنت قد تركت اوكرانيا في ١٩٢٩ ، قبل ثلاث سنوات فقط ، حين كانت قد استعادت مستوى المعيشة الذي كان سائداً فيها قبل الحرب . وكانت المواد الغذائية متوفرة بكثرة وبأثمان بخسة . ولكن ها نحن نعلم الآن بان الناس يموتون جوعاً .

(١) وقف « اليمينيون » ، وبوخارين في مقدمتهم ، وقفهم الاخيرة ضد هذه الاندفاع في التشريك الجماعي . ومن سخرية القدر ان تروتسكي « واليساريين » هم اول من دعا إلى هذا التشريك الذي عارضه ستالين آنذاك . وكان مولوتوف رئيس فرع موسكو بين ١٩٢٨ و ١٩٣٠ عندما أصبح رئيساً للوزارة .

ومرت سنوات عديدة قبل ان اعرف الحقيقة المرة التي سادت اوكرانيا في الثلاثينات . وقد عرفت ذلك كله عندما أخبرني انتاس ايفانوفيتش ميكويان القصة التالية : جاءه مرة إلى موسكو ديمشكو الذي كان سكرتيراً للحزب في اقليم كييف وقال له : « يا انتاس ايفانوفيتش ، هل تعلم الرفيق ستالين - وبالمناسبة هل تعلم اي عضو في المكتب السياسي - حقيقة ما يجري في اوكرانيا ؟ حسناً ، اذا لم تكونوا على بينة من الامر فدعني اعطك فكرة عن ذلك . لقد وصل إلى كييف مؤخراً قطار يحمل يبحث الذين ماتوا جوعاً . كان القطار يجمع الجثث على طول الطريق الممتد من بولتافا إلى كييف . اعتقد انه من الانسب ان يعلم أحد منكم ستالين بهذه الحال » .

وهذه القصة تظهر كيف ان حالة غير طبيعية قد نشأت في الحزب عندما يخشى شخص مثل ديمشكو ، وهو عضو في المكتب السياسي الاوكراني ، مقابلة ستالين بنفسه . ها قد دخلنا مرحلة يصبح فيها رجل واحد يضع القيادة الجماعية كلها تحت اهبامه ، بينما يرتعد جميع الآخرين جزعاً امامه . وقرر ديمشكو اعلام ميكويان عما يحدث في اوكرانيا لأنه عرف ان ميكويان مقرب إلى ستالين وبإمكانه حمله على القيام بشيء ما . وكان الاعضاء الحزبيون العاملون في تلك الايام غالباً ما يشيرون إلى الثلاثي القوقازي : ستالين واوردزونيكيدز وميكويان . كنت دوماً أكن لانتاس ميكويان احتراماً فائقاً . ان لكل منا اخطائه ، ولانتاس ايفانوفيتش بالتأكيد اخطائه كباقي البشر ، الا انه رفيق صادق ، وذكي ومقتدر ، وقد قدم خدمات جلي للحزب والدولة .

لقد وصف شولوكوف الاحوال التي سادت ايام التجميع الاشتراكي في كتابه « الارض العذراء مقلوبة » . الا ان شولوكوف وضع كتابه في حياة ستالين ، لذلك لم يكن لديه خيار الا ان يصف التجميع من زاوية نظر ستالينية . وعندما بات فشل التجميع حقيقة شائعة ، علمونا ان ننحي باللائمة لما حدث على مؤامرات الكولاك واليمينيين والتروتسكيين والزينوفيين .

كان التذرع بـ « الثورة المضادة » هو التفسير السهل الذي نملكه لكل فشل . اما الآن ، بعد ان انفضح امر استغلال ستالين للسلطان فان المطلوب اعتماد تحليل أكثر موضوعية وتدقيقاً لعملية التجميع ، اذا اردنا ان نفهم حقيقة ما حدث . لعلنا لن نعرف على الاطلاق عدد الذين قضوا مباشرة نتيجة التجميع او بصورة غير مباشرة نتيجة توق ستالين إلى وضع وزر الفشل على الآخرين . الا ان ثمة حقيقتين أكيدتين : اولاً ، ان نمط التجميع الستاليني لم يعد علينا الا بالبؤس والوحشية وثانياً ان ستالين كان الأمر الناهي في قيادة بلادنا في ذلك الزمن . فريكوف

وبوخارين وزينوفيف وكامينف كانوا قد اقبلوا من مناصبهم وتروتسكي كان في المنفى . لذلك ، اذا كنا نبحث عن المسؤول فبإمكاننا وضع المسؤولية كاملة على عاتق ستالين بالذات . غير ان ذلك كله هو ادراك متأخر للحقائق . ففي ذلك الزمن لم نكن نعرف الحقائق ، اذ كنا لم نزل نؤمن بـ ستالين ونثق به .

سنوات التطهير

في هذا الفصل نجد وصفاً مشوهاً ومختاراً لارهاب فترات تاريخ الاتحاد السوفياتي . ولم يكن خروشوف ، خلافاً لمولوتوف ومالينكوف ، متورطاً تورطاً فعلياً في الافراط الذي شهدته سنوات التطهير الى ان ارسل إلى اوكرانيا في ١٩٣٨ لينهي الطور الاخير من التطهير الكبير هناك ، قبل اعادة بناء جهاز الحزب المتصدع . الا انه كان يعرف الكثير مما كان حاصلًا ؛ وقد استفاد بصورة مباشرة من مقتل زملائه المتقدمين عليه . وهو يقول ما فيه الكفاية (كما في حادث ياروسلافسكي) ليقين أنه ، كأني مسؤول حزبي كبير في ذلك الزمن ، قام بدوره بارتكاب بعض الأفعال الشريرة حتى قبل وصوله إلى كييف . وانه من المفيد مقارنة هذا الفصل بمقاطع من الخطبة السرية التي تعالج مواضيع الاعتقال والتعذيب واعداد اشخاص أبرياء كلياً من الاتهامات الموجهة اليهم - رغم أنهم ابعد ما يكونون عن البراءة الكلية في مجالات اخرى . ان القصة المرعبة كلها كانت معروفة بتفاصيلها الوافية في الغرب ، الا ان الخطبة السرية كانت تأكيداً من مصدر سوفياتي رسمي على حدوث الافعال المروعة . وحتى في هذه ، يحسن التذكر ان خروشوف لا يعطي اية فكرة عن مدى المذبحة . فهو يحرص الشهير بالجرائم التي ارتكبتها ستالين ضد الحزب والجيش ، ولا يقول كلمة واحدة عن نتائج الارهاب على ملايين الاعضاء العاديين في الحزب والمواطنين غير المتسيبين . وبكلمة مختصرة ، انه يتكلم هنا عن جرائم ستالين ضد الحزب ، وليس عن جرائمه ضد الشعب السوفياتي بأكليته . ان التقدير العادي المعتمد لعدد أعضاء الحزب الذين اعتقلوا يقرب من المليون ، بينما يقدر عدد المواطنين غير الحزبيين من المعتقلين بسبعة اضعاف هذا الرقم ، على الأقل .

ومن الحدير ذكره ان تعذيب الجناء المعتمد (عدا الركل والضرب المفيدين) كان محظوراً بموجب الانظمة حتى ١٩٣٧ . الا انه في مطلع ١٩٣٧ او في اواخر ١٩٣٦ صدرت تعليمات سرية تسمح بالتعذيب . واصبحت هذه التعليمات «قانونية» في ١٩٣٩ . وفي كتاب « الارهاب الكبير » لروبرت كونكوس ، وهو دراسة عن التطهيرات ككل ، وصف لا يضاهي في الشمول والجودة لحركة التطهير هذه . ولعل اوضح وصف للحالة التي

كان يجد عضو الحزب نفسه فيها ابان التطهيرات هي التي يحتويها كتاب
يفجينيا جتزربرغ وعنوانه «في الزوبعة».

انني ، حين اقدم عرضاً موضوعياً مكثفاً عن جوانب ستالين السلبية ، علي
ان اقول شيئاً عن عادة جرى عليها ستالين ، هي اتهام اعضاء الحزب ، دون رحمة ،
بانهم اعداء الشعب ثم تقديمهم إلى المحاكمات وتصفيتهم . ان حزبنا لم يزل مرعوباً
من الأذى الذي لحق به في التطهيرات . وان المواقف التي غرسها ستالين في اذهان
العديد من اعضاء الحزب تركت نوعاً من الغشاوة على وعي الكثير من الناس
لاسيما المحدودين والبسطاء منهم . وحتى اليوم لم نزل نجد من يعتقد ان طريقة
ستالين كانت وحدها الطريقة السليمة في بناء الاشتراكية وانجاز الاعمال في بلادنا .
اما بالنسبة لي فاجد ان هذا التفكير يعكس عقلية بدائية تعود إلى زمن الرق تزعم
ان الناس لا يعملون الا وهم تحت وطأة التهديد بالسوط . فاذا كنت ممن يؤمنون
ببيكولوجية مجتمع الرق – اي ان الناس يقعون في الصف جبراً والا تاروا – عندها
لعلك تكون أحد الذين يعتقدون ان القمع الذي مارسه ستالين على الشعب السوفياتي
كان بمثابة الحتمية التاريخية . غير انني اعتقد ان مثل هذا الزعم سخيف ، فضلاً
عن مناقضته لأحد التعاليم الأساسية في العقيدة الماركسية – اللينينية التي تقول
بان الشعب هو الذي يصنع التاريخ ، لا اية شخصية قوية مفردة . ان ثورة
اكتوبر تحققت بفضل الاستجابة لزعماء لينين التي فرضت نفسها عقلياً ، ولم تنجز
تحت وطأة السوط . والناس تبعوا لينين لأنهم آمنوا به ، وليس لأنهم رهبوه . ان
لينين قد رفع اماني الشعب ووحدها . اما ستالين فقد حاول بالاستئساد على من هم
أضعف منه ان يحمل الشعب والحزب على الطاعة .

وقد بدأ ذلك كله ذات مساء في ١٩٣٤ عندما رن جرس الهاتف ، فالتقطته
واذا كاغانوفيتش على الطرف الآخر من الخط : « انا اتكلم من المكتب السياسي .
نعال إلى هنا فوراً . ان الامر ملح » .

فذهبت رأساً إلى الكرملين . وقابلني كاغانوفيتش وكان الجزع بادياً على وجهه ،
فتحفظت مستعداً لكل طارئ . « ما الذي جرى ؟ » سألت نفسي .

وقال كاغانوفيتش : « وقعت مأساة رهيبه . اغتيل كيروف في لينينغراد . سأخبرك
كل شيء بالتفصيل فيما بعد . المكتب السياسي يبحث في الأمر الآن . نحن نهيء
وفداً للذهاب إلى لينينغراد يقوده ستالين وفورشيلوف ومولوتوف ، بالإضافة إلى
سنتين شخصاً من منظمة الحزب والطبقة العاملة في موسكو . وعليك ان تكون على
رأس هؤلاء . وتكون هناك في حرس الشرف ثم ترافق جثة كيروف إلى موسكو » .

فقلت : « حسناً . »

وذهبت فوراً إلى لجنة موسكو فألفت وقدماً وغادرت العاصمة إلى ليننغراد في تلك الليلة نفسها . لم اشاهد ستالين وفورشيلوف ومولوتوف . كانوا يسافرون على انفراد في قطار خاص ، وبدأ لي ان مدينة ليننغراد كلها في مناحة ، وربما لأنني كنت انقل مشاعري لتلبس مشاعر الآخرين .

كنا في ظلام دامس عن حقيقة ما جرى . كل ما عرفناه ان قاتل كيروف كان شخصاً يدعى نيقولايف وهو مطرود من الحزب لاشتراكه في المعارضة التروتسكية - مما يدل على ان التروتسكيين كانوا وراء الأمر كله . شعرنا جميعاً بغضب واستنكار صادقين ضد ما حدث (١) .

لا اذكر كم مكثنا في ليننغراد - يومين او ثلاثة كما اذكر . وتناوبنا حراسة الشرف على الجثمان بينما كان أهل ليننغراد يودعون جثة سرجي ميرونوفيتش الوداع الاخير . وكنت لاحظ ان كاغانوفيتش كان مضطرباً جداً ، بل كان مذعوراً . ولا استطيع ان اقول كيف كان باقي الزعماء يشعرون ازاء موت كيروف . الا انني راقبت ستالين عن كثب عندما وقفنا في حرس الشرف . كان بادي السيطرة على نفسه ، وكانت تعابير وجهه لا تنم عن شيء . ولم يخطر

(١) كان س. م. كيروف ، الذي سبق ذكره في الفصل الثاني ، ستالنياً مخلصاً إلى وقت طويل . وقد بنى لنفسه مركزاً قوياً كرئيس فرع الحزب في ليننغراد ، وهي المسؤولية التي خلف فيها زينويف . وبعد ان اعاون ستالين على هزم المعارضة تحدى الفكرة القائلة بضرورة اتباع سياسة انتقامية ضدها ، لاسيما اذا نتج عن ذلك تصفيات جسيمة . وكان مقرباً جداً إلى ستالين إلى حد انه كان في موسكو مركز قوة يؤمله لأن يعبر عما يعتقد . وكان ينظر اليه كزعيم بديل عن ستالين . وقد قتل في مكتبه في ليننغراد في اول كانون الأول ١٩٣٤ على يدي بلشفي سابق ساخط يدعى نيقولايف طرد من الحزب ، لا كما يقول خروشوف ، لتروتسكيته بل لخلافه مع بيروقراطية الحزب . اقيم لكيروف مأتم رسمي جليل وظهر ستالين عميق التأثر على وفاته . الا ان العديدين اعتقدوا ان ستالين نفسه كان وراء الاغتيال : فالثابت ان نيقولايف لم يتصرف بتحريض من اي فريق معارض . وفيما بعد ، في ١٩٣٨ ، حوكم رئيس الشرطة ياغودا بتهمة تسهيل اغتيال كيروف ، وفي الخطبة السرية ، ولاحقاً ، لمح خروشوف نفسه إلى ان ستالين هو الذي اوحى بالاغتيال ، وتهدد بفتح تحقيق قضائي كامل . واذا كان ذلك قد حصل ، فلم يملن عنه . وقد كان مقتل كيروف الشرارة التي اندلع بها التطهير الكبير الذي بدأ في ليننغراد ثم انتشر في ظل عدد من رؤساء المباحث الذين توالوا على هذا المنصب حتى شمل البلاد كلها فسادها الرعب والذعر .

لي ان في ذهنه شيئاً آخر غير موت كيروف .
ان جزءاً من مهمتي كسكرتير لجنة موسكو كان الاشراف على نشاط مكتب
المباحث في موسكو . وكان رئيس هذا المكتب الرفيق ريدنر (١) الذي هو
شقيق زوجة ستالين ، وبولوفي الجنسية . وكان عضواً صالحاً في الحزب منذ ١٩١٤ ،
وقد اعدمه ستالين فيما بعد . وعلمت من الرفيق ريدنر ان طريقة عمل المباحث
تبدلت جذرياً بعد مصرع كيروف .

قبل جريمة الاغتيال ، كانت « ألتشيك » نادراً ما تلجأ إلى الاساليب الادارية
في التعامل مع الناس ، واعني بالاساليب الادارية ، الاعتقال والمحاكمة . فهذه
الاساليب كانت مقتصرة على القضايا الخاصة بنشاطات ذات طابع معاد عدا
مفوضاً للسوفيات (٢) . فكنا نبذل مثلاً اقصى الجهود في مواجهة اضرابات
العمل في موسكو لا بالقهر والقسر بل بالذهاب إلى المصانع او مهاجم العمال فنشرح
لهم اضطرارنا لزيادة كوتا الانتاج حتى نستطيع اللحاق باعدائنا . وكان العمال
الذين جرت تعبتهم من القرى يعيشون في احوال لا تطاق من القذارة يسرح البق
في فراشهم ، وتمرح الصراصير في غرفهم ، ويعيشون على اسوأ الطعام ويفتقرون
إلى كساء مناسب . وبدا ان تدميرهم تضاعف عندما اعيد النظر ، لمصلحة الدولة ،
في اتفاقاتهم الجماعية . فكنا نذهب اليهم ونتحلق معهم شارحين كيف انه احيانا
تتقدم مصالح الدولة على مصالح الافراد . وغالباً ما كان العمال يتفهمون الوضع ،
ويظهرون استعدادهم لمتابعة العمل حتى ولو زادت معايير الانتاج عشرة او
خمس عشرة بالمئة دون اي زيادة في اجورهم .

اما اذا رفض بعض الافراد تكليف انفسهم مع ضرورات الظروف
فعندئذ يلجأ الحزب إلى التنديد العلني بهم . الا اننا كنا في معظم الاحيان لا نضطر
إلى اتخاذ اجراءات ادارية ضدهم .

(١) ريدنر كان خال سفيلانا بالزواج . وبذل نشاطاً وفيراً في سنوات

التطهير ثم اختفى عندما تلم بيريا بمقدورات المباحث في ١٩٣٩ .

(٢) كانت تجري اعتقالات عديدة بمحاكمة او بدون محاكمة ، قبل مصرع كيروف .

وكان النشاط «المعادي للسوفيات » هو التعبير المريض المستعمل . الا ان وحدة

الحزب كان مفهوماً مقدساً . وبقيت الحال على هذا المنوال حتى مصرع كيروف عندما

بات الانحراف في الماضي والحاضر عن السالينية المستقيمة يتبر جرمًا ضد الحزب .

ان مشاركة الشعب للشؤون الداخلية انشئت في تموز ١٩٣٤ لتحل محل مؤسسة

G P U التي انشأها لينين في ١٩٢١ لتحل بدورها محل التشيكا التي انشأها

كذلك لينين (انظر الملحق رقم ٢) .

كل هذا تغير فجأة بعد مصرع كيروف . واعلمني ريدنر انه تلقى تعليمات تقضي « بتطهير » موسكو . وكانت موسكو ، دون ريب ، تحتاج إلى مطهر للامعاء لأنها كانت تعاني من حالة عسر هضم سببتها عناصر غير مرغوب فيها وغير ناشطة وطفيلية تعمل على تصيد الارباح . ووضعنا لائحة بالاشخاص الواجب نفيهم من المدينة . ولا اعرف إلى اين ارسل هؤلاء الناس . لم أسأل اطلاقاً عنهم . كنا نتبع دائماً القاعدة التي تقول بان عدم اعلامك بأمر ما يعني انه لا يعنيك : فهو من اختصاص الدولة ، وهكذا يصبح المطلوب ان تعرف اقل ما يمكن . على اي حال كان ترحيل العناصر المجرمة من موسكو المرحلة الاولى من عمليات القمع التي بدأت بعد مصرع كيروف (١) . وسرعان ما بدأ الارهاب السياسي . وكنت اقع احياناً بالصدفة على لمحات من طريقة سيره الداخلي .

وابان محاكمات المعارضة في ليننغراد كان كاغانوفيتش وسيرجو اوردزونيكيدز يحلان في المسؤوليات محل ستالين ومولوتوف اذ تغيبا عن موسكو . وذات مرة ذهبت إلى مكتب اللجنة المركزية لاقابل كاغانوفيتش حول بعض الشؤون الخاصة بإدارة المدينة . وعندما علم كاغانوفيتش انني في الخارج طلب مني الدخول إلى مكتبه ، وكان معه سيرجو اوردزونيكيدز وديمان بدني . وكانوا مجتمعين لبحث محاكمة المعارضة وكيفية عرضها على الصحافة . وكانت سلسلة من المقالات تنشر لنهيء الرأي العام للاحكام القاسية المقررة مسبقاً .

وانني لم ازل اذكر المشهد جيداً . فقد سأل سيرجو وكاغانوفيتش ديمان بدني : « حسناً ايها الرفيق ديمان ، هل كتبت القصيدة التي بإمكاننا استخدامها ؟ » « نعم » قال ديمان وأخذ يتلو قصيدته .

وبعد ان انتهى من التلاوة خيم سكون مرتبك . وتكلم كاغانوفيتش اولاً : « هذا ليس تماماً ما كان يحول في افكارنا ، ايها الرفيق ديمان » . اما سيرجو ذو الطبع الناري فلم يكن يدور حول الموضوع ، بل اخذ يعنف ديمان كي ينظم قصيدة أفضل . وكان ديمان رجلاً سيئاً ذا صلعة كاملة . وكان رأسه يبدو مثل خلقين نحاسي كبير . ونظر اليهما بعينه اللتين تنمان عن طبيعة صالحة وقال : « اخشى انني لا استطيع ان اكتب قصيدة أفضل . حاولت كثيراً . انني لا استطيع ان ارفع يدي ضد المعارضة . لا استطيع ! اشعر بالعقم ازامها ! »

(١) المرحلة الأولى من القمع الذي بدأ بعد مصرع كيروف تتمثل في الواقع بموجة من الاعتقالات السياسية جرت في ليننغراد بالذات ، ولم تكن « للعناصر المجرمة » في موسكو ، حسب تعبير خروشوف ، ادنى علاقة بالقضية .

لا اعرف اذا كان ما كتبه دميان قد نشر على الاطلاق . الا ان الواضح انه لم يكن مقتنعاً بان المعارضين كانوا مجرمين . ولذلك خانه الالهام وعجز عن استحياء روح الحزب ليطلقها في قصيدته .

أما انا فكان موقفي طبعاً إلى جانب كاغانوفيتش - اي إلى جانب ستالين . لذلك حدثت آنذاك في دميان متعضاً . ولكنني الان افهم لماذا كانت لدى دميان شكوكه (١) .

وكان ان سحقت زهرة شباب الحزب في العنف الوحشي الذي انفجرت براكيته بعد ذلك المشهد الذي حضرته في مكتب كاغانوفيتش بقليل . فقضي على العديد من زعماء حزبنا وبلادنا الاصليين . فأين كان امثال مولوتوف او كاغانوفيتش او فورشيلوف او ماكوربان عندما كان زينوفيف وكامنيف وتروتسكي وبوخارين وريكوف يقودون البلاد .

ان التطهير قد شمل تقريباً جميع اعضاء المكتب السياسي ايام لينين . ولناخذ مثلاً زينوفيف وكامنيف اللذين استنصلا كزعيمين للمعارضة : لقد ارتكبا اخطاءاً إبان الثورة . هذا أمر معروف لدى الجميع . ولكننا جميعاً نعلم ايضاً انهما بعد ان ادركا خطأ اساليهما ، دعاهما لينين نفسه للعمل في القيادة . وعندما انتقلت الحكومة من ليننغراد إلى موسكو بقي زينوفيف في ليننغراد للاشراف على عاصمتنا الاصلية ، عاصمتنا الثورية التي رفعت راية الانتفاضة في ثورة اكتوبر . اما موسكو فعهد بأمرها لكامنيف . اما الآن ، فهما في قفص الاتهام كمجرمين ، وعما قريب سنسمع بانهما أعدما كعدوين للشعب !

لقد جرفت تطهيرات ستالين وتصفياته المعارضين في ١٩٣٦ ثم اليمينيين في ١٩٣٨ عندما جيء بريكوف وبوخارين وغيرهما من زعماء الشعب والحزب إلى المحاكمة . ولو أخذنا ريكوف مثلاً على هؤلاء القادة ، لوجدناه رجلاً يتحلى بالكفاءة في نظر الحزب . فقد رأس مجلس مفوضي الشعب (الوزراء) بعد موت لينين . ومع ذلك اعدم بالرصاص . أما بوخارين ، محبوب لينين المدلل : فقد وضع « ألف باء الشيوعية » كمدخل إلى الحكمة الماركسية - اللينينية

(١) د. بدني شاعر مأجور ، ربما كانت عنده شكوكه في تلك البرهة الا انه عاد فديج مجموعة من القصائد تقدح بالتهمين (بما فيهم ضحايا التطهير في الجيش) وتطالب بالعقاب الوحشي .

افاد منه افراد الجيل الاقدم. ومع ذلك، فقد جيء به إلى المحاكمة وجرت تصفيته (١). وفي تلك المرحلة أخذ الحزب يفقد سلطته ويخضع للمباحث. انني اذكر هذه الحالة في مؤتمر الحزب بموسكو في ١٩٣٧ : فقد كان على جميع المرشحين الذين سموا لعضوية بلخان مدينة موسكو واقليمها ان يخضعوا لموافقة المباحث. ولم يعد للجنة المركزية ولا حتى للحزب ككل ان يرفع اعضاءه إلى مناصب اعلى، بل اصبح للمباحث وحدها الكلمة الحاسمة في تقييم نشاطات اي عضو حزبي وان تقرر هي ما اذا كان بالامكان انتخابه للمراكز العليا، مما جعلنا نعتقد ان مثل هذا الاجراء يساعد منظمات الحزب المحلية على فضح الاعداء الذين تغفلوا في منظمات الحزب الحاكم. وانني اذكر بصورة خاصة حادثة حصلت في ١٩٣٧

(١) كان ستالين يعد لأول محاكمة استعراضية كبرى وهي التي يشير اليها خروشوف هنا على انها محاكمة معارضي ليننغراد، وكانت اداته ج. ج. ياغودا، رئيس المباحث الذي كان اول من دشّن نظام العمل الأكرهي السوفياتي. وعرفت رسمياً هذه المحاكمة التي عقدت في آب ١٩٣٦ بمحاكمة مركز الارهاب التروتسكي - الزينوفيني، وانتهت باعدام أقرب زملاء لينين، اي ج. أ. زينوفيف و ل. ب. كامنيف، مع اربعة عشر آخرين.

وبعد هذه المحاكمة مباشرة اقبل ياغودا على اساس افتقاره للحصانة المطلوبة واستبدل بيزهوف الذي كان في الحقيقة يشكو من مرض نفسي، والذي سبق لخروشوف ان عمل معه في لجنة الحزب بموسكو. وفي عهد يزهوف انتقّى التطهير من كل قيد وغدا الارهاب شاملاً. وقد قامت المحاكمة الاستعراضية الثانية التي هيأ لها يزهوف في كانون الثاني ١٩٣٧ وعرفت بمحاكمة المركز التروتسكي المضاد للسوفيات. ويكاد خروشوف لا يذكر هذه المحاكمة. وقد كان بين الضحايا الرئيسية ج. ل. بيتانكوف (من الذين كان يرعاهم لينين) الذي طالب، تحت الضغط، بعقوبة الموت لزينوفيف؛ وج. سوكونيكوف، عضو مكتب لينين السياسي الأول، و ك. راديك الصحافي الالماني، واربعة عشر آخرين.

أما محاكمة الخيانة الثالثة وأكثرها استعراضية، فقد حدثت في آذار ١٩٣٨ وهيأ لها ايضاً يزهوف. وكانت هذه محاكمة الكتلة المضادة للسوفيات من اليمينيين والتروتسكيين. وكان هنالك واحد وعشرون متهماً يرثسهم هذه المرة بوخارين نفسه، وريكونوف خليفة لينين في رئاسة الاتحاد السوفياتي، وياغودا، سلف يزهوف كرئيس المباحث. وفي كل هذه المحاكمات وجهت إلى المتهمين تهمة التآمر لاغتيال ستالين، والعمالة للاستخبارات الأجنبية، وأشياء أخرى غيرها.

وفي صيف ١٩٣٧، بين محاكمات ١٩٣٧ و ١٩٣٨ الاستعراضية، حدثت المحاكمة السرية واعدم زهرة قيادة الجيش الأحمر العليا وعلى رأسها الماريشال توخايشكي. وكان قد سبقه الى الاعدام نصف ضباط الجيش. واستمر التطهير في تصاعده =

خلال انعقاد مؤتمر الحزب بموسكو وهي ان مستشاراً من اكااديمية فرونر العسكرية كان في نظر لجنة الحزب في موسكو شيوعياً صالحاً ورفيقاً طيباً . فعندما طرح اسمه على الاقتراع ، كان من الواضح ان اعضاء المؤتمر متحمسون لتأييده ، حتى انهم صفقوا عند ذكر اسمه . ولكن فجأة تلقيت من المباحث رسالة تقول : « ابدلوا كل ما في وسعكم لاسقاط هذا الرجل . انه غير موثوق به وله صلات مع اعداء الشعب وسيعتقل . » وقد اطعنا الأمر وابطلنا ترشيحه ، ولكنها كانت تجربة محزنة لجميع المندوبين . وفي الليلة التالية كان ذلك الرفيق قد اعتقل .

وكانت قضية اميليان ياروسلافسكي شبيهة بها (١) . كان بلشفياً قديماً ووافر الاحترام في الحزب . وكان سكرتير الحزب في لجنة الرقابة المركزية ، مما يعني انه كان يعتبر فوق الشبهات من زاوية حزبية . وسمي مرشحاً في انتخابات لجنة موسكو الاقليمية . وفجأة تلقيت هاتفاً يقول ان ياروسلافسكي يجب اسقاطه . وكان هذا الأمر شديد الوطأة علي شخصياً ، ولكن كان علي ان اطيع . واصدرت الأمر إلى سائر سكرتيري لجنة الاقليم بشن حملة تحريض بين المندوبين ضد ياروسلافسكي دون ان يسمحوا بوصولها إلى ياروسلافسكي نفسه . ولكن الأمر كان متأخراً . فرغم النشاط الذي بذلناه انتخب باكثرية صوت واحد ، على ما أظن . وبعد المؤتمر كتبت الرفيقة زميليا شكاً التي احترمتها كثيراً ، رسالة إلى اللجنة المركزية تنحي علي باللائمة ، بوصفي سكرتيراً للجنة مدينة موسكو ، على ما ظهر من قلة احترام اثناء المؤتمر للرفيق ياروسلافسكي .

ومن الطبيعي انني لم اكن استطيع يومها ايضاح حقيقة الأمر لها وانني كنت أنفذ أوامر صدرت لي . ومن الطبيعي ايضاً ان رسالتها لم تترك اي مفعول .

= الجنوني حتى آخر ١٩٣٨ عندما حان وقت تصفية يزهوف نفسه . وقد خلفه لافريني بافلوفيش بيريا رئيس المباحث الجورجية الذي كانت مهمته الأولى تصفية القيمين على التطهير . وكان أكبر مجموعة من الضحايا تشمل على أكثر السالينيين حساسة في المراكز العليا الذين سبق لهم ان ادلوا بدلوهم في التطهيرات السابقة وكان مصيرهم في التطهير الأخير الاعتقال والتعذيب والرمي بالرصاص دون محاكمة ولا اعلان . وهكذا اختفوا عن المسرح بكل بساطة . وكان خروشوف رئيس منظمة الحزب في موسكو طوال التصفيات الدموية حتى كانون الثاني ١٩٣٨ عندما ذهب إلى اوكرانيا . وقد اختير عضواً في المكتب السياسي والموجة اليزهوفية المحمومة في أوجها .

(١) أ. ياروسلافسكي ذاع صيته السيئ كرئيس عصبة متحمسة لانكار وجود الله ، وهم رأس حربة الهجوم البلشفي على الدين .

والنقطة المحورية في هذه الامثلة هي انه طالما لم يعد يحصل ترفيع او نقل في ملاك الحزب الاداري الا وفق توجيهات المباحث ، فان الحزب فقد دوره المرشد . وهذا كان بجذ ذاته مشيناً (١) .

كنت اعرف عدداً من ضحايا الارهاب السياسي . وبعضهم أعرفه من ايامي في دونباس . اذكر منهم على سبيل المثال ايفان تراسوفيتش كيرلكن الذي كان مديراً لمناجم روشينكوف في ١٩٢٥ - ١٩٢٦ ، ثم أصبح فيما بعد مديراً لاعمال كيف المعدنية التي كان يتولى ادارتها بجدارة . ثم كان هناك فاسيلي بازولين الذي قام خير قيام بمسؤولية الاشراف على مصنع قرب يوزوفكا . وقد اختفى اثرهما في ١٩٣٧ . وليس بامكان أحد ان يخبرني ماذا حل بأي منهما . ولست اعرف عدد مدراء المصانع والمهندسين الذين قضوا بالطريقة نفسها . ففي تلك الايام كان من السهل التخلص من كل من لا تحب ، والأمر لا يكلف أكثر من تقديم تقرير تشي به انه عدو الشعب ، ويمر تقريرك على منظمة الحزب المحلية التي تلقي نظرة عليه ثم تدق صدرها بغضب اصحاب الفضيلة والتقوى وتأمر بتدبير أمر الرجل .

وعرفت ايضاً تريفاس (٢) وكان اسمه شائعاً جداً في العشرينات كشخصية بارزة في عصبة لينين من الشباب الشيوعي (كومسومول) . كان شخصاً ذكياً ، مقتدراً ، لائقاً . وقد عرفته عبر منظمة الحزب عندما عملنا ، تريفاس وانا معاً ، لمدة ستة اشهر في مقاطعة بومان . وذات مرة انتحى بي كاغانوفيتش جانباً وحذرني من ان على سجل تريفاس السياسي لطخة سوداء . والظاهر انه كان بين ما عرف بعصبة الشباب الثلاثة والتسعين الذين وقعوا مرة بياناً بتأييد تروتسكي . وقد لاقى مصيراً فاجعاً . وعندما اقترح ستالين ان يقوم سكرتيرو اللجان الاقليمية بحولة تفتيشية على سجون التشيكا (البوليس السري) في مناطقهم وجدت خلال جولتي تريفاس في السجن . ولم ينج من مذبحة ١٩٣٧ .

وأحياناً كنتم تسمعون اسم لوموف يذكر على الراديو، ويقولون لكم كيف ان لينين وجه لوموف أن يعمل كذا وكيت . لكن اين لوموف اليوم ؟ لقد عرفته

(١) ان الحزب البلشفي الاصلي كان في ١٩٣٧ قد تحطم نهائياً ، والذي بقي كان ستالين ورئيس بوليه في تلك اللحظة ، واقرب المقربين من زملائه ، وكان خروشوف أحدهم .

(٢) كيرلكن ، وبازولين ، وتريفاس كانوا من الضحايا العاديين الذين شاركوا مصير عشرات الألوف من امثالهم .

جيداً . كنت اقبله في اغلب الاحيان عندما كنت أعمل في دونباس بعد الحرب الاهلية . كان مسؤولاً عن انتاج الفحم في (اوكرانيا) وكنت اقبله مراراً في مكتبه في خاركوف . وكان احترامه الوافر في الحزب يعود إلى أن له سجلاً حزبياً مستمراً منذ ايام العمل السري قبل الثورة . ولكن لا ريب انكم تريدون معرفة مكان لوموف اليوم ؟ الجواب هو انه : اعدم بالرصاصة ! ولم يعد لوموف في الوجود (١) . حتى أقرب المقربين إلى ستالين جرفتهم المجزرة . وهاكم مصير اردزونيكيدز (٢) .

كان الرفيق سيرجو ، كما كنا ندعوه ، شخصية شعبية محبة تتمتع باحترام جليل استحقه عن جدارة من كل الحزب . ان الثلاثي القوقاسي - ستالين وميكويان وسيرجو - كان لا يفرق واحدهم عن الآخر على مدى سنوات . غير انه رغم كون ستالين وسيرجو جورجيين ومن البلاشفة القدماء الا انهما كانا مختلفين تماماً . فسيرجو ، بالرغم من مزاجه البركاني ، كان ذا طبائع فروسية ، وافر الاحترام لقربه من الناس ، ولانسانيته ، ولحسه المرهف بالعدالة . ولم يكن سيرجو موافقاً ، على الاطلاق ، على المذبحة التي بوشربها في الحزب . اذكر ، على سبيل المثال ، انه كان يكن لومينادز (٣) الاحترام الوفير والمحبة ، حتى انه استدعاني ذات مرة وطلب مني بنبوته الجورجية الجلية اذا كان بإمكانني التدخل لمصلحة لومينادز . فقلت له ان ليس بوسي ان افعل اي شيء لان هذا الاخير كان ناشطاً في معارضته بحيث أعطى للحزب السبب الكافي للتدبير به . الا ان سيرجو ألح علي ببذل كل ما بوسي لانتقاد لومينادز . ولكن جهود سيرجو كلها لم تحل دون استمرار اعتقال الناس واتهامهم بعداوة الشعب . ولم يستطع سيرجو احتمال هذا الأمر فاقدم في مطلع ١٩٣٧ على الانتحار . ولم اعرف الحقيقة عن كيفية موته الا بعد انقضاء سنين عديدة . لقد أخفى ستالين

(١) ج . أ . لوموف (اسمه الحقيقي ، ابوكوف) كان عضواً في لجنة الرقابة المنبثقة عن مجلس مفوضي الشعب في الاتحاد السوفياتي . اعتقل واعدم رصياً بالرصاصة بناء على اوامر مولوتوف .

(٢) «سيرجو» اردزونيكيدز كان مقرباً إلى ستالين وتشاجر شخصياً مع سيده . وبعد ذلك مباشرة مات في ظروف لم تزل غامضة . فلم يجر اعدامه بصورة رسمية ، وقد كرم بعد الوفاة . وقال خروشوف في خطبته السرية انه ارغم على الانتحار الا ان احداً لا يدرى حتى اليوم تماماً حقيقة ما حدث .

(٣) ف . ف . لومينادز ، كان من مؤيدي ستالين الأوائل ، ولكنه نظراً لاستقلالية تفكيره اعتبر متأمرأ في المحاکتين الاستعراضيتين الأولى والثانية .

بمهارة كل معالم القضية . والمرة الأولى التي سمعت فيها بموت سيرجو كان عندما استدعاني ايل سوفرينوفيتش ينوكيدز في يوم عطليتي إلى مكتبه قائلاً « ايها الرفيق خروشوف ، احضر حالا إلى مكنتبي فالأمر خطير » (١) .
وذهبت رأساً إلى الكرملين وقلت : « ما الحكاية يا ايل سوفرينوفيتش ؟
فقال : « مات سيرجو » .

— ماذا ؟ لقد رأته قبل حين !

— مات بصورة مفاجئة جداً . يبدو انك لم تكن تعرف انه كان مريضاً للغاية .
ان الحكومة اقامت لجنة لترتيب مأتمه وانت احد اعضائها .
واتخذت كل الاجراءات لاقامة مأتم رسمي مهيب . والتمت باسم لجنة موسكو خطبة الرثاء في المأتم على ضريح لينين . وقد رثيت سيرجو مخلصاً . فقد كان لطيفاً جداً معي وافدت كثيراً من رعايته الابوية لي . لكن لم اعرف انه انتحر الا في الحرب العالمية الثانية . وحصل ذلك وانا على العشاء مع ستالين وبعض الرفاق الآخرين ، وصدف ان اتيت على موضوع سيرجو :
« سيرجو ! كان رجلاً بكل معنى الكلمة . بالخسارة ، كيف مات قبل اوانه » .

وخيم صمت يشوبه ارتباك وأحسنت انني قد نطقت بما هو غير مرغوب فيه .
فسألت مالنكوف ونحن نغادر العشاء : « ماذا قلت مما لم يجب ان اقله ؟ »
فقال : « ألا تعرف ؟ » فأجبت : « كلا ؟ » . فقال : « هل تعني انك كنت تظن ان سيرجو مات مئة طبيعية ؟ ألم تعرف انه قتل نفسه ؟ ان ستالين لن يغفر لك ذلك . ألم تر الارتباك الذي حصل عند ذكرك اسم سيرجو . كانت هفوة فاضحة من قبلك » .

انني واثق بان مالنكوف نفسه لم يكن يعرف ، عند موت سيرجو ، انه مات متحرراً ، اذ لم يكن مقرباً من ستالين بقدر ما كنت انا . الا انه عرف بالأمر بطريقة غير مباشرة .

بعد موت ستالين اخبرني انستاس ايفانوفيتش ماكويان الذي كان مقرباً جداً من سيرجو أن حديثاً جرى بينهما في عشية انتحاره بالذات . وكانا قد خرجا للترهة معاً حول الكرملين . وهناك اعلم سيرجو رفيقه ماكويان انه لم يعد يطبق

(١) أ.س. ينوكيدز ، جورجي آخر وستاليني ، شأنه شأن كيروف واردزونيكيدز ، اعترض على تقايم وحشية ستالين . ونظراً لانه جرد من وظائفه واعتبر خارجاً على القانون في ١٩٣٥ ، فانه يصعب التثبت من ان هذه المحادثة قد حصلت على الإطلاق .

الحياة ، وقال انه لا يستطيع احتمال ما يفعله ستالين للحزب وليس في يده من القدرة ما يمكنه من محاربته. وفي اليوم التالي، يوم الاحد ، قتل نفسه . كان الرفيق سيرجو رجلا من انبل الرجال .

رلم يمض وقت طويل على موت سيرجو حتى انزل ستالين ضربه بـ « الحرس القديم » في الجيش الاحمر . لا اذكر كل الخبرات الذين قتلوا ، الا انني ارغب في ذكر القلائل منهم .

لقد كان لاعتقال توخاشفسكي وقع الصاعقة في سماء زرقاء صافية . كان نائب مفوض الشعب للدفاع وكان شخصية باهرة . ففي سن السادسة والعشرين قاد الجبهة الغربية في الحرب الاهلية ، وقد عهد لينين اليه بعملية الكرنستادت ، فضلا عن العمليات ضد انتونوف وكولشاك . وعندما اعدم توخاشفسكي تعالى نقيق الكثيرين ممن كانوا معه في الحرب الاهلية - من رجال لم يكونوا يرتفعون إلى أعلى من ركبته . ثم أخذوا يركلون جثته ، بان ينحوا عليه باللائمة لقصورهم هم في الحرب الاهلية بينما ان الواقع في نظر الخبراء هو ان ما حدث لم يكن ليحدث لو عين توخاشفسكي في أعلى مراكز القيادة . وتبقى الحقيقة وهي ان لينين عهد إلى توخاشفسكي بمهام كان مصير البلاد متوقفاً على انجازها .

لقد عرفت توخاشفسكي معرفة قليلة وكنت اجتمع به عندما كنت أعمل سكرتيراً اول في لجان مدينة موسكو واقليمها ، وكان أحياناً يأخذني إلى العراء ليريني سلاحاً جديداً او قطعة جديدة من الادوات الهندسية . كان ذا فهم عميق وتقدير راف للاختراعات العسكرية وانني مقتنع انه لو لم يعدم ، لكان جيشنا أفضل تدريباً وتجهيزاً منه يوم شن هتلر هجومه .

والآن انتقل إلى غامارنيك ، رئيس المديرية السياسية للجيش الأحمر . كان شخصية سياسية خطيرة وجندياً ممتازاً . وكان ان ادى دوراً مهماً في انشاء الجيش الأحمر . يقولون لكم ان غامارنيك لم يعدم . هذا صحيح . لكنه انتحر . لقد توقع اعتقاله . وعندما جاءوا يقرعون بابه وضع المسدس على صدغه واطلق النار . جاء الجلادون ليقنادهوه إلى السجن ولكنه قرر تفويت الفرصة عليهم بان انتزع بيديه حياته . كان غامارنيك رجلاً نبيلًا جداً .

ومن الضحايا يغوروف (١) أحد أعظم قادتنا العسكريين ، قائد الجبهة

(١) المارشال أ. يغوروف اعتقل واعدم رمياً بالرصاص في اواخر فترة تطهير الجيش ، وبعد ان مضت عليه فترة قليلة في خلافة توخاشفسكي في نيابة مفوضية الشعب للدفاع .

الجنوبية في الحرب الاهلية ، وياكير (١) الذي كان صغير السن نسبياً . ولم يكن قد اشترك لا في الحرب العالمية الاولى ولا في الثورة . لقد دخل الجندية في الحرب الاهلية عندما انضم إلى كتيبة مؤلفة حديثاً . وفي تلك الايام كنا مسلحين بكل ما كان يقع تحت ايدينا ، الا ان سلاحنا الاساسي كان كرهنا للنظام الرأسمالي البورجوازي القديم وولاءنا لطريقة الحياة الاشتراكية الجديدة التي كانت الحرب الاهلية تخاض في سبيلها . والكتيبة نمت حتى أصبحت فرقة ، ووضع هو على رأسها . وقد عزل ياكير وقواته عن الجيش الأحمر في الجنوب الا انه تمكن من كسر الطوق وقيادة فرقته عبر خطوط الحرس الابيض حتى التحق بقواتنا الرئيسية . وبعد الحرب الاهلية قاد ياكير القوات في اوكرانيا والقرم ثم فجأة اعتقل واعدم . وكذلك اعدم ايدمن - الشاعر والجندي وأحد ابرز قادتنا العسكريين (٢) والآن اروي لكم عن بلوخر (٣) . ان الصحف غالباً تذكره : منح وسام الراية الحمراء وكان برولينتارياً ، عاملاً ، عسكرياً عصامياً . اكتسب خبرته الاولى في الحرب العالمية الأولى ثم قاد تشكيلات باكلها في الحرب الاهلية . وارسل بعد ذلك إلى الصين كقنصلنا لدى تشان كاي شاك . كما انه قاد قواتنا في المنطقة العسكرية في الشرق الأقصى . وكان موضع ثقتنا كقائد عسكري وكشخصية سياسية ، سواء بسواء . ولكن ابن كان بلوخر عندما كنا بمسرح الحاجة اليه في الحرب ضد هتلر ؟ كان قد أصبح في عداد الموتى . هل مات ميتة طبيعية ؟ كلا ، بل اعدم رمياً بالرصاص كعدو للشعب .

اما الآن فهم يرفعون نصباً لبلوخر ، كما هو جدير بهم ان يفعلوا . ولكن النصب سيروي الحقيقة كاملة عنه ، وان اولئك الناس الذين لا يرغبون في الحقيقة كلها فيسخرولون . ان اي نصب يرتفع لبلوخر لدليل للشعب على ان الذي حرمتنا من مواهبه في الحرب ضد الالمان لم يمت الموت الطبيعي : بل قتل باليد التي طالما حذر لينين من الثقة بها .

-
- (١) كان الجنرال ياكير القائد العسكري المسؤول عن مقاطعة كيف العسكرية . وهو والد المؤرخ بيتر ياكير احد قادة الانتليجنا السوفياتية الراضة اليوم .
 - (٢) الجنرال ر.ب. ايدمان كان قائداً عسكرياً في الحرب الاهلية . وكان رئيس منظمة الدفاع المدني عندما اعتقل واعدم .
 - (٣) الماريشال بلوخر كان قائداً لجهة الشرق الأقصى وربما أكثر قادة الجيش الأحمر اقتداراً . اعتقل في آب ١٩٣٨ واستجوبه ييريا شخصياً وكان قد خلف يزهوف .

في السنوات الاخيرة شاهدت فيلم « السيل الحديدي » مراراً . وكان كل مرة يترك في نفسي اثراً عميقاً . ان « السيل الحديدي » وضع ككتاب ايضاً . انه الكتاب الاول الذي قرأته عن الحرب الاهلية . وقد وضعه المؤلف الموهوب سيرافيموفيتش ثم اخرج على الشاشة اخيراً . وكلما شاهدت هذا الفيلم تطاردني فكرة : « اين شاهدت هذا الجنرال الشجاع المقتدر الذي يقود جيش تامان ؟ » في الفيلم وفي الكتاب يدعي كوزيوخ ولكن اسمه الحقيقي هو كوفتيوخ (١) . انه الرجل الذي اظهر تألقاً ومهارة وشجاعة عندما فك حصار البيض وقاد جيش تامان عبر خطوط الاعداء . وكل من شاهد هذا الجنرال اثناء العمل لم يتمالك من امتداحه . لعلكم ستسألون اين هو الآن ؟ ماذا دهاه ؟ ماذا فعل ابان الحرب ضد هتار ؟ كوفتيوخ كان قد مات عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية . لقد اعتقل مع اعداء الشعب وأعدم .

كنت على صلة حميمة مع ايفان نوموفيتش ديبوفوى (٢) الذي تحدر من عائلة بروليتارية . وكان والده عاملاً في منجم في الدون . وقد أنهى ديبوفوى دورة مدرسة الضباط خلال الحرب العالمية الأولى . وعندما اندلعت الحرب الاهلية عين نائب قائد فرقة كان يقودها شكورز . وكنت التقى فيما بعد بديبوفوى في مؤتمرات الحزب الشيوعي الاوكراني . وبت على معرفة وثيقة به في ١٩٢٨ - ١٩٢٩ عندما كنت ادير الفرع التنظيمي من لجنة كيف الاقليمية .

وكان ديبوفوى يقود مقاطعة كيف العسكرية . وكنا نذهب معاً لتفتيش القوات . وكم كان سروري كبيراً ان يكون عندنا قادة من امثاله في الجيش الأحمر : رجال وقفوا انفسهم روحاً وجسداً على الثورة . وعلى السلطة السوفياتية ، وعلى الاشتراكية .

وعندما تم التشهير باعداء الشعب ، وزع ستالين شهادات توخاشفسكي وبياكير والباقيين على اعضاء المكتب السياسي . وبين هذه الشهادات كان اعتراف مكتوب بخط يد ايفان نوموفيتش ديبوفوى ، جاء فيه أنه هو الذي قتل القائد شكورز ابان الحرب الاهلية . وهاكم ما قاله في اعترافه المزعوم : « شكورز وانا كنا نلتحف الأثرى ونحن نرقب المعركة . وفجأة فتح رشاش العدو ناره باتجاهنا . وانتشر الرصاص حولنا . وكان شكورز امامي . فادار رأسه وقال لي : « فانيا ، فانيا ، ن لدى البيض رشاشاً صالحاً . انظر كم تصويبه دقيق . » وبعد دقائق قلائل استدار

(١) الجنرال كوفتيوخ ، اعدم رمياً بالرصاص في تموز ١٩٣٨ .

(٢) ا.ن. ديبوفوى ، قائد عسكري آخر اعدم رمياً بالرصاص في تموز ١٩٣٨ .

ثانية وأخذ يقول شيئاً آخر . عندها قتله . اطلقت النار على رأسه . قتله لاجل محله كقائد للفرقة » .

انكم تستطيعون تقدير مدى اشمئزازي عندما قرأت هذا الاعتراف لأول مرة . كنت دوماً أكن الاحترام لدييوفوى وفجأة اكتشفت انه قد ارتكب جرمًا بهذه البشاعة . وأخذت اعنف نفسي على اغضائي طوال هذه المدة عن طبائع هذا الشخص وكيف انني لم اعرف انه قاتل شكورز .

ولكن عند انعقاد المؤتمر العشرين في ١٩٥٦ — حين فتحنا المحفوظات وبحثا في ملفات جميع من اتهموا بانهم اعداء الشعب وقتلوا رمياً بالرصاص او شنقاً ، وجدت ان شهادة ديوفوى كانت عبارة عن اكذوبة ملفقة . وهكذا خدعت للمرة الثانية . كانت الأولى عندما بدد اعترافه المزعوم احترامي له كرجل شريف والثانية عندما خدعني قاتله الحقيقي : ستالين نفسه .

في الثلاثينات كان هتلر يهيء هجومه ويبدل جهوده لتقويض قيادتنا العسكرية . وقمنا نحن بتقديم اجزل عون له اذ حططنا زهرة جهازنا التنفيذي وقيادة حزبنا والانتليجنسيا العلمية . ووصل حمام الدم إلى نوبة مسعورة حمراء في ١٩٣٦ . ولم تكن محض صدفة ان ١٩٣٧ كانت السنة الأولى التي لم ننجز فيها خططنا الصناعية . وكان لا بد من أخذ هذا كله بعين الاعتبار عند قيامنا بتحليل موضوعي لبداية الحرب . ولكن سنوات مضت قبل ان يرفع احد الحجب عن هذه الحقائق . وقد اعتبر لأمد طويل ان استئصال المحاربين القداماء في الجيش مكرمة تسجل للمسؤولين عنها ، بدل ان تكون جريمة من المفروض معاقبتهم عليها . ومن دفع ثمن هذه الجريمة ؟ الجيش ، الشعب ، البلاد باجمعها دفعت ثمن ذلك .

بالامكان وضع كتاب كامل يشتمل على اسماء القادة الرئيسيين في الجيش والحزب والادارة والديبلوماسية ، وجميعهم رجال المدرسة اللينينية الذين كانوا ضحايا ستالين الاوائل . لينينيون مخلصون ، شرفاء وقفوا انفسهم على قضية الثورة . كانوا الاوائل الذين ذهبوا عندما فرض ستالين حكمه التعسفي على الحزب .

ان معظم الجبرالات الذين قضوا على يدي ستالين قد استعادوا اعتبارهم في المؤتمر العشرين للحزب . غير ان ذكرهم اخذ ينحدر في الآونة الاخيرة . ان جميع الذين قضوا لا يجوز الاقتصار على اعاداة اعتبارهم ، بل يجب تقديمهم للشعب كشهداء الارهاب الذي شنه ستالين تحت شعار الكفاح ضد اعداء الشعب .

لماذا ارتكب ستالين هذه الجرائم ؟ هل خدع ؟ واذا كان قد خدع فبواسطة من ؟ وكم دفعنا من الارواح ثمن خديعته تلك ؟

بيريا يرتفع الى سدة السلطان

في هذا القسم ينتقل خروشوف من الايام الأولى لتعيينه في اوكرانيا في مطلع ١٩٣٨ ، إلى موسكو في ظل التطهير الكبير ، ويعود ثانية إلى كييف . عند تعيين خروشوف سكرتيراً اول في اوكرانيا كان التفكير السائد ان التطهير في اوكرانيا ربما قد انجز . وليس هذا بعيداً عن الطريقة التي يرغب خروشوف ان يرى الأمور بمنظارها وهو يستعيد الماضي . اما الحقيقة فهي ان من اول اعماله في كييف كان قيادة حملة تطهير من صنع يديه . ولم يأت صيف ١٩٣٨ الا وكان الباقون من اللجنة المركزية ثلاثة فقط من اصل ٦ كانوا في العام الذي سبق . وكان خروشوف يني جهازاً حزبياً جديداً ، وحكومة جديدة ، على صورته ومثاله . « انني اتعهد بان لا اوفر جهداً لاعتقال وافتاء جميع عملاء الفاشية والتروتسكيين والبوخارينين وجميع الاخصاء من القوميين البورجوازيين على الأرض الا وكرانية » . هذا ما اعله في ايار ١٩٣٨ .

وفي وقت لاحق من ذلك الصيف حملت صحيفة الحزب الاوكراني الاطراء التالي : « ان عملية الاستئصال التي لا ترحم ضد اعداء الشعب - ضد التروتسكيين والبوخارينين والبورجوازيين القوميين وجميع القاذورات والجنوايس - لم تبدأ الا بعد ان ارسلت قيادة الحزب الشيوعي للاتحاد كله ، الرجل البلشفي والتاليني الحازم نيكيتا سرجيفيتش خروشوف إلى اوكرانيا لقيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاوكراني » . كان هذا مبالغة مفضوحة . ولكن هكذا كان خروشوف يرغب في ان يعتبر في ذلك الزمن . وعلمنا ان تذكر ذلك عندما نتأمل في نقده القاسي لتالين بصورة عامة ، وبصورة خاصة الآن عندما يعمد إلى سرد صعود نجم لا فرنيتي بافلوفيتش بيريا ، رئيس الأمن العام ، الجورجي السيء الصيت الذي كانت له سيطرة شديدة في كنف ستالين .

عرض علي ستالين ، في وقت مبكر من سنة ١٩٣٨ وظيفة السكرتير الأول للجنة المركزية الاوكرانية . وقال بان كوسيور لا يقوم بالعمل على ما يرام . ذهبت إلى كييف واستلمت من كوسيور (١) الذي استدعي إلى موسكو وعين نائب

(١) س. ف. كوسيور كان سكرتيراً اول للحزب في اوكرانيا منذ ١٩٢٨ . ورغم انه في الأصل ستاليني الا انه لم يكن بعيداً ، كالعديد سواء من قادة الحزب الاوكراني ، عن المشاعر القومية الاوكرانية الرافضة سيطرة موسكو المطلقة والمجاهدة لمقاومتها . واشتمل ذلك على محاولة يائسة لتخفيف آثار التطهير الكبير . وفي ١٩٣٧ اعتقل =

رئيس مجلس مفوضي الشعب (الوزراء) الذي كان يرثه مولوتوف . وكان مولوتوف بنفسه قد عرض اول الامر هذا المركز علي ، ثم ابان احدي زياراتي إلى موسكو للمشاورات ، انتحي ستالين بي جانبا وقال : « يلح مولوتوف علي ان تكون نائبه واعتقد انه يجب تلبية طلبه ، ما رأيك ؟ » فاعتزضت بشدة نظراً لانني لم اكن قد استقرت في كييف من زمن بعيد . وكان الناس قد ارتضوا بي وشرعت ببناء تنظيم حزبي قوي في اوكراينا . وأهم من هذا كله ، كان جلباً باننا متجهون نحو الحرب ، فلو جيء بمسؤول جديد إلى اوكرانيا في ذلك الوقت المتأخر فقد يتورط بمتابع عندما يتدلع القتل . واقنعت ستالين انه لن يكون في مصلحة القضية نقلي من كييف بعد ان توطن مركزه هناك ، بينما بالامكان وبسر ايجاد نائب آخر لمولوتوف في موسكو . ووافق ستالين قائلاً : « هذا ينهي البحث ، خروشوف يبقى في اوكرانيا . » (١) .

احياناً كان ستالين اذا اقنعت بوجهة نظر مخالفة لرايه يتراجع عن موقفه . وان يتحلى الزعيم بالمرونة والتعقل لميزة ، دون ريب ، ايجابية . غير ان ذلك كان ، لسوء الحظ فضيلة نادرة عند ستالين .

فعندما كان ستالين يقرر ان عليك القيام بعمل ما ، سواء اكان ذلك العمل طابعه الذكاء او البلاهة ار غايته الاعانة او الايذاء ، كان يرغمك على القيام به . وعلى اي حال ، هكذا تم بقائي في اوكرانيا .

الا انني قبل ان اسرد قصة السنوات التي قضيتها كسكرتير اول للحزب الشيوعي الاركراني ، لا بد لي من التحدث عن بعض التطورات المهمة في موسكو والتي بدأت قبل نقلي إلى كييف واستمرت بعد مغادرتي للعاصمة . اني ارغب في ايضاح قصة نمو دور لافرتي بيريا في الحزب .

ورغبة مني في تحليل كيفية استلام بيريا مركز نفوذ كهذا لا بد لي من العودة إلى تلك الفترة التي كانت فيها حملة التصفيات في أوجها . فقبل الشهير بجماعة توخاشفسكي بستة اشهر اعلن ستالين ان مفوض الشعب للشؤون الداخلية ، باغودا ، لم يكن يقوم بمهام عمله خير قيام ولا بد من استبداله . وكنا في تلك الايام

= سكرتيره الثاني بوستيشيف الذي كان يتأثر بتفكيره . وفي مطلع ١٩٣٨ نقل كوسبور من السكرتيرية الأولى واستدعي إلى موسكو حيث عين نائباً أول لمولوتوف رئيس الوزراء . الا انه سرعان ما اعتقل (حسب خطبة خروشوف السرية) ، وفي شباط ١٩٣٩ حكم عليه بالاعدام .

(١) ان قصة عرض نيابة رئاسة مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي على خروشوف الجديدة .

لم نزل نحفظ بثقة مطلقة بستانين . فأخذنا نلوم انفسنا لعمادة غشيت ابصارنا ، فما تبينا وجود الاعداء من حولنا . وظلنا اننا نفتقر إلى فهم ستالين العميق للصراع السياسي . وكنا على هذا الاساس غير قادرين على كشف الاعداء في وسطنا بالطريقة التي اظهر ستالين قدرته فيها .

وسمي ستالين يزهوف ليخلف ياغودا(١). وكان يزهوف مسؤولاً عن الجهاز الشخصي في اللجنة المركزية . وكان مالنكوف نائبه الأول ، وحل محله عندما نقل يزهوف إلى المباحث . الا ان يزهوف احتفظ باقدميته على مالنكوف بحيث يفسر لنا ذلك كيف وقعت مسؤولية الاشراف على الجهاز الشخصي للجنة المركزية تحت سيطرة المباحث . لقد احببت درماً ياغودا ولم اكن اجد فيه شخصياً ، اي تصرف مضاد للحزب . ولم استطع فهم تعليل ستالين الظاهري لاستبدال ياغودا ولا دوافعه الخفية . ومن ناحية ثانية لم تكن لدي اية اعتراضات على يزهوف (٢). فقد كان مجتهداً واهلاً لتحمل المسؤولية ، وقد عرفت انه كان عاملاً في بطرسبرج وعضواً حزبياً منذ ١٩١٨ ، وكان هذا لمصلحته دون ريب . ثم كان مشرفاً علي بعد انتخابي سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية الصناعية نظراً لوقوع الاكاديمية تحت سلطة قسم الجهاز الشخصي للجنة المركزية . فكان هذا الجهاز يعينني على تعبئة الطلاب للعمل في مشروع او حملة سياسية . وكنت غالباً ارفع تقاريري إلى يزهوف .

واضحت عمليات القمع اسوأ من قبل بعد ان استلم يزهوف في ١٩٣٦ المسؤولية الأولى في المباحث . بدأ ما يمكن وصفه حرفياً بالمجزرة ، وسقطت جماعات كبيرة من الشعب تحت سكين المسلخ . وبعد حين قال ستالين ان يزهوف بحاجة إلى مساعدة ولا بد من تعيين نائب له . وسأل يزهوف من عساه يكون نائبه ؟ فاقترح يزهوف مالنكوف نظراً لان هذا

(١) هذه كانت المناسبة التي ارسل فيها ستالين وجدانوف برقيتهما المشهورة في ٢٥ ايلول ١٩٣٦ وهما في عطلة في سوشي على البحر الاسود موجهة إلى كاغانوفيتش ومولوتوف و « الاعضاء الآخرين في المكتب السياسي » وفيها يقترحون استبدال ياغودا بيزهوف لأنه تخلف اربع سنوات عن « فضح الكتلة التروتسكية الزينوفيفية » وكانت تلك هي الاشارة بمضاعفة الارهاب .

(٢) من المفيد ان نلاحظ كيف ان خروشوف قد وجد في رؤساء المباحث رجالاً ودودين وشرفاء . وان شهرة ياغودا الرئيسية بدأت ، فضلاً عن تدبيره محاكمات الخيانة الأولى الكبرى (زينوفيف وكامينيف وصحبهم) بادخاله نظام العمل الاكراهي المنظم في بناء قناة البحر الابيض .

الاخير سبق له ان كان نائبا في الجهاز الشخصي في اللجنة المركزية . واعتقد ان مشاورات عديدة دارت حول هذا الموضوع ، الا انه لم يقرر بصورة نهائية الا عندما قال ستالين ذات يوم : « كلا ، يبدو انه من الافضل عدم تعيين مالنكوف ثانية نائبا لك . من الافضل تركه وشأنه حيث هو في سكرتيرية اللجنة المركزية » (١) واقترح ستالين بالنتيجة ان يعين يزهوف بيريا نائبا له . وكان عدم رضى ستالين على يزهوف في ذلك الحين قد اصبح ظاهراً للعيان . فقد انطوت تلك الايام التي كانت ترفع فيها الالاف في المظاهرات وقد رسم عليها القفاز الواقي ؛ ولم يعد ستالين يسمي يزهوف « قبضتنا الحديدية » و « شك عليكنا » . وعندما عين ستالين بيريا نائبا ليزهوف كان واضحاً ان نقل يزهوف بات وشيكاً . وقد فهم يزهوف نفسه الأمر على حقيقته . ولعله احس ان ، لا عمله فحسب ، بل حياته كانت على وشك التصفية . وقال لستالين : « ان الرفيق بيريا لشخص جدير ، دون ريب ، بكل ثقة . وفي الواقع بإمكانه ان يحتل لا منصب نائب مفوض بل منصب مفوض الشعب بكل اهلية » .

« اشك في هذا » ، قال ستالين « ولكنه يستطيع ان يكون نائبا صالحاً لمفوض » .

وهكذا اصبح بيريا نائبا ليزهوف (٢) . ونظراً لأنني كنت يومها على علاقات طيبة مع بيريا فقد ذهبت اليه بعد الاجتماع وبادرته بين مازح وجاد بالتهنئة على منصبه الجديد .

« انني لا أقبل تهانيك » قال لي .

« لماذا لا ؟ »

« انت لم تقبل بتعيينك نائبا لمولوتوف ، فلماذا علي ان اكون فرحاً بتعييني انا نائبا ليزهوف ؟ كان الأفضل لي البقاء في جورجيا » .

واعتقد ان بيريا كان على الارجح ، صادقاً في قوله هذا . ولكن على اي حال ، فقد تم نقله من جورجيا إلى مكاتب المباحث المركزية في موسكو .

في البدء ظهرت نشاطاته وكأنها تبشر بالامل . فلطالما قال لي بيريا خلال زيارتي إلى موسكو : « ماذا يجري هنا ؟ اننا نعتقل الناس شمالا ويمينا ، حتى

(١) ان قرن اسمي مالنكوف ويزهوف متعمد لتلطيح اسم مالنكوف . لقد كان الرجلان على صلة حميمة في الواقع . فمالنكوف كان في الجهاز الشخصي في اللجنة المركزية ، وكان يسلم رفاقه في الحزب إلى يزهوف للتصفية .

(٢) عين بيريا نائبا ليزهوف في تموز ١٩٣٨ .

سكرتيري اللجنة الإقليمية . ان هذه القضية برمتها قد تجاوزت الحد . وعلينا إيقافها قبل فوات الأوان » .

وخلال ذلك كان مركز يزهوف يزداد حرجاً . وحصلت حادثة تتعلق بيوسنسكي (١) مفوض الداخلية في اوكرانيا كانت بمثابة الانذار بسقوط يزهوف .

فقد اتصل بي ستالين هاتفياً إلى كييف وقال : « تجمعت دلائل ضد يوسنسكي لا تدع مجالاً للشك في جرمه . فهل تتولون اعتقاله ؟ » .
« بكل تأكيد اذا كانت هذه هي اوامركم » .
« اذن اعتقلوه » .

وبدا للوهلة الأولى وكأنما ستالين يتحدث على الهاتف عن يوسنكو وليس عن يوسنسكي . اذ كان في كييف فعلاً رجل اسمه يوسنكو من عصبة الشباب ، صدف ان دلائل قد تجمعت ضده هو الآخر . ولكن عندما بدأ ستالين يسرد تفاصيل القضية ، ادركت انه يتكلم عن يوسنسكي المفوض الاوكراني للشؤون الداخلية . وبعد لحظات على انتهاء المخاطبة عاد ستالين فطلبني ثانية وقال : « انس كل ما قلته لك عن يوسنسكي . نحن سندبر الامر . سنستدعيه إلى موسكو ونعتقله في الطريق » .

وكان قد سبق لي ان عزمتم على القيام برحلة إلى دنيبروبتروفسك ، فرحلت قبل ان يستدعي يوسنسكي إلى موسكو . ولكن حتماً داخلياً ساورني ان يوسنسكي لن يذهب إلى موسكو . فقد يكون فطن إلى ان استدعائه ينذر بخاطر يتهدهده ، لذلك ، وبينما انا على وشك مغادرة كييف قلت لكوروتشنكو (٢) ،

(١) كان أ. ل. يوسنسكي رئيس المباحث الاوكرانية ، رجل يزهوف الذي قام بالتصفيات في اوكرانيا برعاية خروشوف . وقال في حزيران ١٩٣٨ « انا اعتبر نفسي تلميذ نيقولا ييفانوفيتش يزهوف » . وقال ايضاً « ان تمزيق اعداء الشعب في اوكرانيا لم يبدأ الا بعد وصول التالي المخلص نيكيتا سرجيفيتش خروشوف » . وبعد هذا الاعلان باسابيع اختفى كل اثر ليوسنسكي . وان ما يرويه خروشوف هنا عن نهايته هو بمثابة الخبر الذي يروى لأول مرة .

(٢) د. س. كوروتشنكو لم يكن اوكرانياً على الاطلاق . كان من مواليد كروتشينكوف وعمل في لجنة الحزب بموسكو بقيادة خروشوف وارسل إلى سمولنسك في روسيا البيضاء في اوج التطهير حيث تميز بالافراط في قسوته . وقد اصطحبه خروشوف معه إلى اوكرانيا في ١٩٣٨ وأخذ يصعد إلى قمم عالية في ظل سيده الجديد حتى وصل إلى عضوية سكرتيرية اللجنة المركزية .

الذي كان رئيس مجلس مفوضي الشعب في اوكرانيا : « راقب يوسبنسكي جيداً في فترة غيابه » .

وفي الصباح التالي ، عند وصولي إلى دنيبروبتروفسك ، تلقيت مخابرة من بيريا — لاحظ انها كان من بيريا لا من يزهوف — يقول : « بينما كنت انت مسافراً في الريف ، هرب يوسبنسكي . »
« ماذا ؟ »

« هذا ما حصل ، لقد هرب » .

فعدت إلى كييف ، فوجدت ان يوسبنسكي قد رحل مخلفاً رسالة يقول فيها انه سيتحرر بالقاء نفسه في الدنيبر . ولكننا بحثنا عنه بشبكات صيد الاسماك وبواسطة الغواصين ، ولكن عبثاً ، اذ لم يكن من اثر له في النهر . فكأنه اختفى في الفضاء . ولكن فيما بعد اعتقل في فورونيز على ما اعتقد ، وقتل رمياً بالرصاص . وعندما ذهبت إلى موسكو بعد ذلك بقليل أخبرني ستالين بان الظاهر ان يزهوف قد حذر يوسبنسكي مما ينتظره : « لقد استرق يزهوف السمع بينما كنا نتحدث » . وبدل ان يأمر يوسبنسكي بالتوجه إلى موسكو كما كان مطلوباً منه ، حذره من انه سيعتقل في الطريق » .

وهكذا كان ستالين قد توصل إلى تكوين اقتناعه عن ان يزهوف هو عدو الشعب ولا يمكن الركون اليه . وسرعان ما اعتقل يزهوف وحل بيريا محله ، وبدأ بيريا فوراً بثبيت قدميه . وكان ان ارسل كابولوف إلى اوكرانيا مفوضاً للشؤون الداخلية ليخلف يوسبنسكي الذي سقط . وكان المفوض الجديد في اوكرانيا شقيق كابولوف نائب بيريا في المباحث والذي سبق له ان عمل معه في جورجيا (١) وجرت حملة اعتقالات واسعة شملت جميع الذين كانوا على صلة بيزهوف . وانعقدت غيمة دكناء حول رأس مالنكوف باعتبار ان يزهوف كان قد اقترحه ليكون نائبه ، فضلاً عن ان الشائع ان مالنكوف كان صديق يزهوف . وكنت انا بدوري صديق مالنكوف وعملت معه سنوات عديدة في لجنة موسكو . وقد وصلت إلى استنتاجاتي الخاصة بهذا الصدد بعد حصول الحادثة التالية : ذات يوم وصلت إلى موسكو من كييف فدعاني بيريا إلى مسكنه الريفي الخاص . فذهبنا إلى هناك ثم تمشينا في الغابات . وبدأ بيريا الحديث :
« اسمع ، ما رأيك بمالنكوف ؟ »

(١) ليس من معلومات وافية عن كابولوف هذا الذي لم يستمر طويلاً في عمله . وسرعان ما خلفه أ.أ. سيروف صاحب الصيت السيء (انظر الفصل الرابع) .

« ما عسى ان يكون رأيي ؟ »

« اعني بعد اعتقال يزهوف » .

« ما علاقة هذا بالامر . فاذا كان مالنكوف ويزهوف صديقين فانت كذلك كنت صديق مالنكوف وانا بدوري صديقه . اعتقد ان مالنكوف شخص صادق وفوق الشبهات » .

« هذا خارج الموضوع . انت لم تزل صديقاً لمالنكوف . اسمع ، فكر بالموضوع أكثر . ادعوك فقط للتفكير به » .

وبعد التفكير بالأمر ثانية وجدت ان لا غضاضة في استمرار صداقتي مع مالنكوف . فكنت حين اعود إلى موسكو ، غالباً ما اقضي في مسكنه الريفي ايام عطلي . اعتقد ان ستالين هو الذي اراد تحذيري عبر بيريا من مالنكوف . غير ان الكأس عبرت عن مالنكوف وأصبح فيما بعد هو وبيريا صديقين حميمين .

في مطلع ١٩٣٩ ، في شباط ، دعت اللجنة المركزية إلى اجتماع موسع لبحث قرار يدين الافراط واستغلال السلطة الذي مارسه المباحث . وكان ان عزى تباطؤ الارهاب وانفراجه بعد ان سيطر ثلاث سنوات إلى نفوذ بيريا بصورة رئيسية . واخذ الناس يستتجون بان بيريا قام بتحقيقات حول تصرفات المباحث بعد ان استلم المفوضية ثم اقنع ستالين بالموافقة على مجموعة من التوصيات . على اي حال ، فقد حصلت حوادث في اجتماع اللجنة المركزية في شباط ١٩٣٩ اشارت إلى ان الارهاب لم تنطو صفحته باية صورة من الصور - كل ما في الامر انه اصبح اكثر فطنة وتميزاً .

وتميز اجتماع شباط بالنقد الذاتي . فقد كان لدى كل عضو ما يقوله عن العضو الآخر . وكان الشخص الوحيد من بين افراد قيادة الحزب الذي بدا انه نجا من النقد هو شخصي انا : خروشوف . ولكن فجأة وجه ياكوفليف (الذي كان اسمه الحقيقي ياكوف اركاديفيتش أبستين) اتهاماً غير اعتيادي رمبكرأ ضدي . فقد انتقدني لان كل فرد من افراد منظمة موسكو الحزبية يدعوني بنكبتا سيرجيفتش . هذا كل ما قاله . فطلبت الكلام واجته بان ما يقوله صحيح فرفاقي يدعوني باسمي الاول واسم ابي ، ثم لمحت إلى ان اسمه هو ليس ياكوفليف بل ابستين . وبعد الجلسة انتحى بي جانباً مخلص الذي كان لم يزل يدبر « البرافدا » وابتدى استيائه من خطبة ياكوفليف . ورغم ان مخلص كان يهودياً فقد قال لي ان ياكوفليف يهودي ولا يفهم ان بين الروس من لا يجد

غرابة في ان يدعى الناس باسمائهم واسماء اباائهم » (١) .
وبعد جلسة استغرقت سحابة النهار انصرف الجميع إلى تناول العشاء ،
وتخلفت لحظة عن المنصرفين . وما ان نهضت لانصرف حتى ناداني ستالين قائلاً :
« خروشوف إلى اين تذهب ؟ »
« انني ذاهب للعشاء » .
« تعال ، فسأكل معاً » .

وتساءلت لنفسي : « لماذا يدعوني إلى تناول العشاء معه ؟ » وبينما كنا نغادر
المكان ، تبع ياكوف اركاديفيتش ياكوفليف ستالين إلى شقته دون دعوة .
فجلسنا ثلاثتنا نتناول الطعام معاً . وكان ستالين يتولى معظم الحديث . اما ابستين -
ياكوفليف فكان بادي الاضطراب كأنه يعاني تمزقاً داخلياً . كان يعيش في قلق
الاعتقاد . ولم يكن مخطئاً في حدسه ، فبعد حديث ستالين الودي معه على العشاء
بوقت قليل اعتقل وجرت تصفيته . انني اروي هذه القصة لابين كيف ان أحد
المقربين من ستالين كياكوفليف الذي كان مدير القسم الزراعي للجنة المركزية
واحد اوثق مؤيديه ابان الصراع ضد المعارضة - وجد نفسه فجأة يسير على خيط
متأرجح في الهواء . ان الحادثة نموذج صارخ على طبيعة الحياة والغدر عند ستالين .

ودلت حادثة ثانية وقعت في اجتماع شباط ان بيريا رغم مبادرته إلى التحقيق
في اساءة استعمال المباحث للسلطة وافراطاتها الا انه كان ذا قدرة فائقة هو شخصياً
على ارتكاب الحياة . فابان انعقاد الاجتماع الموسع للجنة المركزية القى غريشة
(غريغوري) كامنسكي خطبة . وكان كامنسكي مفوضاً للصحة في روسيا الاتحادية
ورقيقاً وافر الاحترام وذا خبرة حزبية تعود إلى ما قبل الثورة . وكنت قد تعرفت
اليه في بداية عملي في منظمة موسكو . وكان رجلاً مستقيماً ، بالغ الاخلاص
والاستقامة . واثني استطيع القول ان مسلكيته الحزبية كانت دوماً فوق الشبهات
والمطاعن . وهاكم ما قاله في خطبته امام اللجنة المركزية :

« ايها الرفاق ، ان كلا منكم يلقي كلمة يقول فيها ما يعرفه عن الآخرين .
وانا ايضاً عندي ما اقلوه لمعلومات الحزب . عندما كنت اعمل في باكو ،
انتشرت شائعات مفادها انه ابان احتلال القوات الانكليزية لباكو عمل بيريا
لمصلحة الاستخبارات المضادة في خدمة حكومة موسافات . وبما ان هذه الاستخبارات
كانت تحت سيطرة الانكليز ، فقد قيل بان بيريا لا بد ان يكون عميلاً للاستخبارات

(١) ي. ا. ياكوفليف شغل مسؤولية مستشارية الشعب للزراعة (انظر الفصل الثاني) .

الانكليزية بواسطة الموسفاطين « (١) .

وانني كامنسكي خطبته وجلس . ولم ينهض احد للرد عليه او للايضاح ، حتى بيريا نفسه لم يدل بأي تعليق ، ولكن بعد الجلسة مباشرة اعتقل كامنسكي واختفى دون اثر . وقد كانت هذه القضية مصدر عذاب دائم لي ، لانني كنت اتق بكامنسكي وكنت اعرف انه لا يلقى خيراً كهذا ، اذ انه معروف بقول الحق دوماً (٢) . وانني اذكر ايضاً خطبة مالنكوف . فقد انتقد كلا من سكرتير مكتب آسيا الوسطى وبيريا بسبب الاعتداد بالنفس والتمجيد الذاتي . وقال مالنكوف ان بعض متلقي الجبال غزوا إحدى أعلى قمم آسيا الوسطى ثم اطلقوا عليها اسم سكرتير الحزب . وقد اعتقل الرجل فيما بعد . وبيريا كذلك اتهم بالتمجيد الذاتي . وكانت ثمة اسباب عديدة لانتقاده في هذا الصدد .

في ختام الاجتماع الموسع اصدرت اللجنة المركزية قراراً ادان افراطات المباحث . وقد اعطانا هذا بعض الرجاء بانه سيوضع حد للحكم التعسفي الذي سيطر على الحزب . فلمدة تزيد على الثلاث سنوات لم يكن المرء ليطمئن ، بين اللحظة والاخرى ، الى ما اذا كان سيستمر على قيد الحياة ام سيتلاشى كالغبار المتثور في الهواء . وقد قوض هذا الخوف المصحوب بالقلق معنويات الحزب . فبعد اجتماع شباط الموسع اخضع التطهير لضوابط ولكن القمع لم يتوقف كلياً ، اذ استمر اختفاء الناس وضياح آثارهم إلى الابد ، كأنما انشق الجليد من تحتهم وابتلعهم .

وكنا انا وبيريا ، غالباً ما نلتقي عند ستالين (٣) . في البداية اعجبني . وكانت تجري بيتنا احاديث ودية بل كنا نتمازح مراراً . غير انني بدأت تدريجياً تبين ملامحه السياسية . وهزني فيه رياء شرير متعمد يلبس لكل حالة لبوسها . وسرعان ما اتخذ الجو في القيادة الجماعية وفي حلقة ستالين الداخلية ، بعد انتقال بيريا إلى

(١) الموسفاطيون كانوا قوميين قوقاسيين (مسلمين) حاربوا البلاشفة في باكو في زمن التدخل البريطاني .

(٢) ج . م . كامنسكي مفوض الشعب للصحة . مهر بتوقيعه شهادة موت سيرجو اوردزونيكيدز لأسباب صحية .

(٣) سبق الإشارة إلى ان بيريا لم يتسلم مهام وظيفته الجديدة ككاتب يزهوف في موسكو حتى تموز ١٩٣٨ عندما كان خروشوف قد غادرها إلى اوكرانيا ، الا ان الرجلين التقيا ، ربما قبل ذلك في زيارات بيريا المتكررة إلى موسكو واستمرا في اللقاء عندما كان يأتي خروشوف إلى موسكو من كييف .

موسكو ، طابعاً مختلفاً كلياً عن الذي كان يسود من قبل . فقد تغير الجو إلى أسوأ . كان ان اسر لي ستالين مرة عن عدم رضاه عن نفوذ بيريا : « قبل مجيء بيريا كانت لقاءات العشاء تتم بالانفراج والانتاج . اما الان فهو دائماً يتحدث الناس بالشراب ، وبات المكان مليئاً بالسكرارى » (١) .

ورغم موافقتي على ما قاله ستالين كلياً ، الا انني ادركت ضرورة الحذر في جوابي اذ ان من الاعيب ستالين المفضلة استفزاز الآخرين للدلاء به أي — او الموافقة على رأيي — ينم عن مشاعره الحقيقية ازاء احد الناس . وكان جلياً بالنسبة لي ان ستالين وبيريا كانا صديقين حميمين . غير انني لم أكن اعرف مدى الاخلاص في هذه الصداقة . ولكن لم تكن محض صدفة ان يختار ستالين بيريا للحلول محل يزهوف . فبالإضافة إلى احتلاله منصب مفوضية خطيرة ، كان لبيريا وزن كبير في القيادة الجماعية . وكان على كل من يرغب في التأكد من انه يحظى برضى ستالين التزلف لبيريا . وكان كاغانوفيتش خبيراً في تلمس الرضا بالتملق والزلقى . ولا بد لي من القول انني لم احظ مثل هذا التصرف المنحط من قبل مولوتوف ، كما انني لم ازحف متعلقاً ببيريا ، ولذلك كنت اقدر ان بيريا يعمل ضدي نتيجة هذا الموقف . كنت اعمل للحزب والدولة في عدد من المراكز الهامة ، وكان المجال متسعاً امامي لرفع توصيات باستحداث تحسينات متقدمة . وكنت عادة ، احصل على دعم ستالين ، وعندما كنت افشل في ذلك كان السبب يعود إلى تأثير بيريا ومالكوف على ستالين . وكنت مقتنعاً بأن معارضتهما لي انما ارتكزت على الحسد .

وكان لبيريا بصورة خاصة ، عنيفاً في غيرته على مكانته في القيادة الجماعية ونفوذه عند ستالين . والقصة التالية تبين ما كان قادراً على فعله :
كان صهر ستالين ، ريدنر ، في فترة ما ، نائب بيريا في مفوضية أمن الدولة

(١) هنا وفيما بعد ، يتكلم خروشوف باستياء ، عن عادات الادمان على الشرب عند بعض زملائه ، لاسيما جدانوف وشيرباكوف . ان السكر كان عادة مألوفة ليس في حلقة ستالين فحسب ولكن في قيادة الجيش كذلك . وكان خروشوف بالذات يتمتع بالسكر حتى امام الجمهور على الاقل ، وكانت هذه عادته حتى ١٩٥٦ . وان موقف السوفيات من السكر هو بالتأكيد شبه بموقف البريطانيين قبل مئة وخمسين سنة . وانصافاً لخروشوف استطع ان اذكر ان بيريا كان أكثرهم سكرأ . وفي المناسبات القليلة التي رأيت فيها كان في حالة من السكر المستمرة .

في جورجيا (١) ، وقبل انتقال بيريا إلى موسكو قرر ترحيل ريدنر من جورجيا . لماذا ؟ حتى لا يكون ستالين أي مخبر في جورجيا عدا بيريا نفسه . وكان بيريا دوماً معادياً ليرجو اوردزونيكيدز للسبب نفسه ، فماذا فعل بيريا للتخلص من ريدنر ؟ وجه بعض رجاله لاغراء ريدنر بالذهاب إلى مقهى حيث استغلوا ضعفه في معاقرة الحشرة فاسكروه ورموا به في القاذورة . وجاءت الشرطة فوجدته في حالة يرثى لها . ورتب بيريا الأمر بحيث يطلع ستالين عليه فيعرف ان ريدنر قد حط من قدر نفسه . وهذا كان سبب طرد ريدنر من مركزه في جورجيا ، بحيث انتهى في مكتب اقليمي في موسكو تابع للمباحث . وهنا نرى أي نوع من المحرض المستفز هو بيريا ؟ وبعد انقضاء العديد من السنين ، وبعد سقوط بيريا ، تلقت اللجنة المركزية رسالة مطولة من محكوم سابق من جورجيا يعدد جميع الاشخاص في جورجيا الذين كانوا ضحايا استفزازات مماثلة دبرها بيريا .

كان بيريا يعتز برواية القصص عن جميل اسداه إلى من كانوا في ضيق . ولكن حتى هذه القصص ، واغلبها أكاذيب ، كانت تصحبها غالباً غاية شريرة . اذكر مرة أخبرني كيف أنهار المارشال ميريتسكوف وأرغم على توقيع اعتراف يقر فيه بأنه كان عميلاً بريطانيا ، وعدواً للشعب ، وما إلى ذلك (٢) . ولم يصدق ان قرأت شهادته بنفسه . فستالين لم يوزعها . وقد حدث ذلك ابان الحرب ، حين كان ستالين القاضي الاوحد في المحكمة الوحيدة في البلاد . وكان يقرر من سيزيل من الوجود دون حاجة إلى رأي أحد .

وتابع بيريا روايته قائلاً : « ذهبت إلى الرفيق ستالين وقلت : ما هذا عن وجود ميريتسكوف في السجن كعميل انكليزي ؟ كيف يمكن ان يكون جاسوساً انكليزياً ؟ انه رجل شريف . ان الحرب مستعرة ونحن بحاجة اليه في الجبهة . بالامكان اعطاؤه قيادة في الجبهة . فقال ستالين : من المرجح ان تكون على صواب . اذهب وكلمه . وهكذا استدعيت ميريتسكوف وقلت : ان هذا الذي كتبه

(١) كان ريدنر خال سفتلانا اليليويفا وقد روت عنه الكثير في كتابها « عشرون رسالة إلى صديق » .

(٢) الجنرال ميريتسكوف كان واحداً من قادة الجيش الأحمر الرفيعي الرتب الذين نجوا بأعجوبة وبقوا على قيد الحياة حتى أخرجوا من السجن وأرسلوا لمحاربة هتلر . وكان أشهر هؤلاء المارشال روكوسوفسكي . والآخر كان الجنرال غورباتوف الذي أصبح بالنتيجة القائد السوفياتي لبرلين ونشر كتاباً عن تجاربه في السجن بعنوان « سنوات من حياتي » .

في اعترافك كلام سخيف . انت لست جاسوساً . انت رجل شريف ، وروسي صالح . كيف يمكن ان تكون جاسوساً انكليزياً ؟ فشخص إلي ميريسكوف بيأس واستغراب وقال : ليس عندي ما اضيفه . لديك اعتراف مكتوب بخطي . لا اعرف لماذا تحقق معي . فقلت له : انا لا احقق معك ابها الرفيق ميريسكوف . كل ما في الأمر اود ان تعلم بانك لست جاسوساً . اذهب إلى زفرانتك وفكر في الأمر هذه الليلة وسأكلملك ثانية في الصباح . وفي اليوم التالي استدعيته ثانية وسألته قائلاً : حسناً ، حل فكرت في الأمر ؟

« فأخذ يبكي ويشكرني قائلاً : كيف بامكاني ان اكون جاسوساً ؟ أنا روسي صالح . احب شعبي ، واومن به . وهكذا اخرجوه من السجن والبسوه بزة الجنرال ، وارسل لتولي قيادة في الجهة » .

انني اعرف ان القصة لم تكن بهذه البساطة . ذلك ان ميريسكوف كان قبل اعتقاله جنرالاً شاباً ، وافر القوة ، قوي البنية ، مهيأ . اما بعد الافراج عنه فكان كالشبح ، اذ فقد الكثير من وزنه إلى حد الهزال الكلي . ورواية بيريا احدثت لدي ارتباكاً من جوانب أخرى . فانا لم استطع ان اعرف من اعتقل ميريسكوف . فبيريا يضع اللوم على ف . س . اباكوموف ، ولكن من كان اباكوموف ؟ الم يكن احد رجال بيريا ؟ الم يكن يرفع له مباشرة تقاريره حتى قبل رفعها إلى ستالين ؟ ويستدل من هذا ان اباكوموف لم يكن يستطيع اعتقال ميريسكوف الا بناء على اوامر بيريا (١) .

وبينما كان بيريا يخبرني قصة اخراجه ميريسكوف من السجن ، أخذت ملاحظة ثانية عن جميل اسداه ، تدور في رأسي . كان اعتاد ترداد جملة ، كلما وقعت الشبهة على احد : « اسمع ، دعه يبيت عندي ليلة وانا اتعهد بجعله يعترف بأنه ملك انكلترا » .

(١) ف . س . اباكوموف أحد رجال الشيكا التي . السمعة الذي أصبح مفوضاً لأمن الدولة في ١٩٤٦ . صرف من منصبه في ١٩٥١ . وفي ١٩٥٤ اعدم رسمياً بالرماس على اساس انه لفق قضية ليننغراد في ١٩٤٩ .

العودة الى اوكرانيا

الجسم الحزبي يعود الى الالتئام

كانت مهمة خروشوف الأولى كسكرتير أول الحزب الشيوعي الاوكراني في ١٩٣٨ ان يبني من العدم جهازاً حزبياً ذا طابع جديد ليخلف الجهاز الذي كان يرثه كوسيور منذ ١٩٢٩ حتى وقوعه ضحية التصفيات . وفي اثناء انصراف خروشوف إلى عمله ظل التطهير مستمراً . والقسم التالي يقدم لمحة مضيئة عن طبيعة هذه العملية . اما ما لا يذكره خروشوف هنا ، هو ان مهمته الثانية كانت « ترويس » (جعلها روسية) اوكرانيا باستئصال جميع الاوكرانيين الذين يظن بانهم من دعاة الوطنية المحلية (ما يدعى « بالقومية البورجوازية ») من مواقع السلطة والثقة ، وبإلغاء اللغة الاوكرانية من المدارس وفي كل مكان . وكانت هذه عملية ذات خطورة بالغة في نظر ستالين . فالقومية الاوكرانية كانت قوية جداً في هذه الارض الغنية التي لم تكن مخبز الاتحاد السوفياتي واهراءه فحسب بل أقوى قواعده الصناعية . وكان العذر الرسمي المقدم لهذه السياسة التي نفذت دون رحمة - على حد قول خروشوف نفسه في صيف ١٩٣٨ - استئصال جميع « الذين يرغبون في تشريع الأبواب امام الفاشيت الألمان ، ومالكي الأرض ، والبورجوازيين ، وجمل العمال والفلاحين الاوكرانيين عبيد الفاشيت ، وتحويل اوكرانيا إلى مستعمرة للفاشيت البولونيين - الألمان » .

« نريد أن نرسالك إلى اوكرانيا لترؤس المنظمة الحزبية هناك . يبدو ان كوسيور ليس مقتدرأ على تدبير الأمور ؛ وسنقله إلى موسكو ككاتب أول لمجلس مفوضي الشعب ورئيساً للجنة الرقابة في اللجنة المركزية » . هذا ما قاله لي ستالين عندما عرض علي الذهاب إلى اوكرانيا في ١٩٣٨ . وكنت متردداً في قبوله استناداً إلى اسباب

ثلاثة : أولاً ، لأنني احببت كوسبور ولم اكن ارتاح للحلول محله . لقد عرفته عندما خلف كاغانوفيتش كسكرتير اول للجنة المركزية الاوكرانية في ١٩٢٩ . وتلك كانت السنة التي قدمت فيها طلباً لدخول الاكاديمية الصناعية وكان كوسبور هو الذي وافق على طلبي . وثانياً ، لأنني كنت اشك في ان تكون قدرتي ومؤهلاتي في مستوى بخولي خلافة كوسير في مركز السكرتير الاول للحزب الاوكراني . اما السبب الثالث فيختص بالمسألة القومية الاوكرانية ، ذلك انه رغم خدمتي في اوكرانيا لأمد كانت فيه علاقتي على احسن ما يرام مع الشيوعيين الاوكرانيين فضلاً عن غيرهم من المواطنين غير الحزبيين ، الا انني كنت كروسي اشعر ببعض الارتباك بين الاوكرانيين . وقد استطعت ان افهم الاوكرانية كلغة ، ولكنني لم أكن اجيد الخطابة فيها . وقد اوضحت هذه الاسباب جميعها لستالين واعربت له عن خشيتي من ان اقابل من الاوكرانيين عامة ومن الانتليجنسيا بينهم بصورة خاصة ، بموقف يتسم بالبرود ، وقلت له : « انني لا ارى حكمة في ارسالي انا الروسي إلى اوكرانيا » .

واجاب ستالين : « ولكن كوسبور ليس روسيا ، هو بولوني . فلماذا تفترض ان على الروسي مواجهة صعوبات مع الاوكرانيين اكثر من البولوني » . قلت لستالين : « قد يكون كوسبور بولونياً ولكنه اجاد الاوكرانية الى حد الخطابة فيها ، فضلاً عن انه اوسع خبرة مني » .

فقال ستالين : « كفى جدلاً انك ذاهب إلى اوكرانيا » . فاجبت : « حسناً ، فسأبذل قصارى جهدي حتى أكون عند ثقتكم بي ، وسأعيد الحزب الاوكراني إلى حيويته السابقة » . وهكذا ، فرغم تهبيي الأمر ، كنت اشعر بالزهو لان اللجنة المركزية انتدبتني لمثل هذا المركز السامي .

كنت على بينة من ان المنظمة الاوكرانية الحزبية تمر في عملية غريبة شاملة من رأسها حتى قاعدتها . ولم يكن نقل كوسبور الا دليلاً على المدى الذي وصلت اليه هذه العملية . وكان لدي كذلك لمحة عن مصير شوبار الرئيس السابق لمجلس مفوضي الشعب الاوكراني ، والذي كنت غالباً التقيه في العشرينات في المؤتمرات الحزبية في اوكرانيا وفي مؤتمرات عمال المناجم (١) . وكان لمدة هو المسؤول عن

(١) ف . شوبار كان زميلاً لخروشوف في ايامه الأولى في اوكرانيا . وعين رئيساً لوزراء اوكرانيا في ١٩٢٣ وانضم إلى المكتب السياسي هو وميكويان في الوقت نفسه في ١٩٣٥ بدلا عن كيروف الذي اغتيل . وكان ان غاب عن الانتظار في صيف ١٩٣٨ واعدم في شباط ١٩٣٩ .

عمل المناجم في دونباس . وكان سلوكه الحزبي دوماً ممتازاً . الا انني ذات ، يوم بينما كنت في مكتب ستالين في الكرملين ، تلقى ستالين هاتفاً ، وسمعته يتكلم إلى أحد الاشخاص ليضع دقائق ثم ينهي المكالمة ، والتفت ستالين قائلاً ان شوبار هو الذي كان يخاطبه ، وانه كان يتكلم بصوته يتهدج بالبكاء ، محارلاً التأكيد على نظافة كفه وصدق دلائله . وكانت نبرة ستالين ، وهو يتحدث عن شوبار ، تنصف بشيء من العطف . كان يظهر ، على الأقل ، تفهماً لاسباب اضطراب شوبار . غير ان هذا الاخير اعتقل في اليوم التالي وازيل من الوجود .

وقد اصيب الحزب الشيوعي في اوكرانيا بالتصدع الحزبي نتيجة التصفيات البولونية والاوكرانية . فقد سهل على ستالين تصفية قادة الحزب البولوني نظراً لان معظمهم كان يسكن في موسكو ويعمل في الكومنترن (١) . وكان السبب الوحيد لنجاة بيروت وغومولكا من هذا المصير هو انهما في ذلك الوقت كانا غير معروفين نسبياً في الاوساط الحزبية . وكان الحزب الشيوعي في اوكرانيا الغربية يعج بالعناصر غير المستقرة ، بل المخربة . وكان كل من تقع ايدينا عليهم من الملاك الشخصي الاداري يصرف بتهمة التحريض والعمالة للبوسدسكي . ونظراً لأن اللجنة المركزية الاوكرانية كانت مسؤولة ، من ناحية تقنية ، عن الحزب الاوكراني الغربي ، فقد جرف التطهير عدداً من قادة الحزب الاوكراني ضمن من عرفتهم منذ العشرينات ، وكان بينهم الرفيق ديمشنكو الذي كان سكرتيراً اول للجنة كييف الاقليمية عندما كنت رئيساً لفرعها التنظيمي هناك في ١٩٢٨ - ١٩٢٩ (٢) .

وعندما ارسلت إلى كييف ، أعلمني ستالين ان علي بالإضافة إلى السكرتيرية الأولى للجنة المركزية الاوكرانية ان اتولى ايضاً مسؤولية سكرتير اول للجان مدينة كييف واقليمها . واحطته علماً بتعذر قيامي بهذه المسؤوليات كلها دفعة واحدة الا انه اصر على ذلك .

وقال لي : « عليك بتدبير الأمر ، واختر من يعاونك عندما تصل إلى هناك » .

(١) هذه إشارة عارضة إلى تحطيم ستالين المتعمد للحزب الشيوعي البولوني في ١٩٣٦ - ١٩٣٩ . وكما يقول خروشوف كان التطهير سهلاً لأن معظم ابرز رجال الحزب البولوني كانوا قد لجأوا إلى موسكو هرباً من الديكتاتور البولوني بيلسودسكي . وقد اعدام في هذه الفترة العديد من الشيوعيين الالماني والاسباني وغيرهم من الاجانب الذين لجأوا إلى موسكو .

(٢) كانت اوكرانيا الغربية التي يشير اليها خروشوف هنا جزءاً من بولونيا . وقد استولى عليها الاتحاد السوفياتي عندما غزت المانيا بولونيا في ١٩٣٩ (انظر الفصل الخامس) .

فطلبت من مالنكوف ان يعين بعض الاوكرانيين لمعاونتي . فعين مالنكوف احد نوابه ، بورمستنكو سكرتيراً ثانياً معي . وقد اعجبني بورمستنكو منذ لحظة لقائنا الأولى . كنا من جيلة واحدة (١) . وطلبت منه ان يختار عشرة اشخاص آخرين من منظمة موسكو وجهاز اللجنة المركزية .

عند وصولنا إلى اوكرانيا تلخص لنا الرفيق كوسبور المتاعب التي كانوا يواجهونها ، وقدم لنا القادة الحزبيين القلائل الذين نجوا من التطهير . وكان قد قدم لنا بصورة رسمية الحزب الاوكراني في جلسة خاصة موسعة لجميع اعضاء اللجنة المركزية . كان التطهير في الحزب الاوكراني شاملاً . وبدا كأنما لم ينبج من التطهير سكرتير لجنة اقليمية او تنفيذية ، او سكرتير مجلس مفوضي الشعب ، ولا حتى نائب واحد . وكانت قيادة الحزب كلها تقريباً قد اصابها التهشم . وكان علينا اعادة البناء من الاساس (٢)

واستأذنت ستالين باستحضار لوكاشوف من موسكو . ولوكاشوف لا يزال اليوم على قيد الحياة ، ولكنه تقاعد من زمان طويل . كان مسؤولاً عن الحصول على الحضر والفواكه لتعاونيات العمال في موسكو . وكنت معجباً به لفعاليته وقدرته على العمل الشاق . واعلمت ستالين برغبتي في تعيين لوكاشوف مفوضاً للشعب لشؤون التجارة الداخلية في اوكرانيا فاعطاني ستالين موافقته .

ولكن لوكاشوف اعتقل فجأة (٣) . وكان هذا امراً في منتهى السوء بالنسبة لي ، اولاً لانني كنت احب لوكاشوف شخصياً ، وثانياً لانني كنت طلبت تعيينه لمركز مسؤول . وكنت اعرف ان الأمر سينترك انعكاساً سيئاً علي باعتبار وكاشوف قد اعتقل كعدو للشعب . وبعد مرور وقت طويل افرج عنه

(١) م. و. بورمستنكو امتاز بانضمامه إلى التشيكا في ١٩١٩ عندما كان في السابعة عشرة . وكان سيء السمعة لوحشته في تحطيم المقاومة ضد التجمع الزراعي . وقد لعب دوراً فعالاً وشريراً في التصفيات . وان مجرد تعيينه نائباً لخروشوف في اوكرانيا كان دليلاً كافياً على ان الروثوس تبدأ بالتدحرج قريباً .

(٢) في ضوء ما حدث في اوكرانيا قبل وصول خروشوف فضلاً عما حدث تحت قيادته ، يبدو واضحاً انه ، على الأقل في ١٩٣٨ ، كان قد كون فكرة عن الدمار الذي تسبب به ستالين . ان ما يقوله هنا وفي القسم السابق لكاف لدحض اصراره في اماكن مختلفة من هذا السرد ، على انه لم يعرف معنى افعال ستالين الاجرامية إلا بعد وفاته .

(٣) ان الافراد المشار اليهم هنا هم رجال من المرتبة الثانوية ، وان مصائرهم مثال لمصير عشرات الألوف غيرهم .

فعاد إلى اوكرانيا محطماً ، يشكو من الشلل في جسده وروحه على حد سواء ، واخبرني بأنه عذب وأمر باتهامي كمضو في مؤامرة . والقصة تعود إلى يوم كنت اعمل في موسكو عندما طلبت ارسال لوكاشوف إلى بولونيا وليتوانيا لشراء بذار البصل والخضار . وارادوا بعد اعتقاله ان يشهد بان مهمته التجارية تلك إلى بولونيا كانت في الواقع مهمة سياسية سرية بقصد انشاء اتصالات مع منظمات مضادة للسوفييات في الخارج . ولكنه رفض الاعتراف ، فافرج عنه ، وهذا امر نادر الحدوث . وأخبرت ستالين بالحادثة . فقال : « أعرف ماذا تقصد ... ان انحرافات كثيرة تحصل . انهم يجمعون الادلة ضدي ايضاً » .

ازداد عدم ارتياحي من نشاط المباحث بعد الحادثة التالية : كان مفوض الشعب للشؤون الداخلية في اوكرانيا ، عند وصولي ، هو أوسبنسكي الذي لم اعرفه الا لماماً وقد اعجبني . وكان روسياً رغم انه يحمل اسماً بولونياً . وكان يعمل اولاً ، في جهاز ياغودا المركزي للمباحث ، ثم عمل كممثل للمباحث في اقليم موسكو ، ثم كضابط مباحث في الكرملين . ومن هناك ارسل إلى اوكرانيا . ويبدو ان اللجنة المركزية كانت قد محضته ثقته ، وكنت اعتقد ، مما بدا لي عند وصولي ، ان تلك الثقة كانت في موضعها . الا انه سرعان ما ساورني الشكوك . كان السكرتير الثاني للجنة مدينة كييف رجلاً يدعى كوستنكو . لم أكن اعرفه جيداً ولكنه بدا نشيطاً وجديراً بالثقة . وكان صادقاً وبسيطاً . ولا اذكر ، اذا كان يتحدث من اصل فلاحى او عمالي . ولكن فجأة أصبح موضع شك ثم اعتقل . وارسلت الي شهادة طويلة عن علاقته باعداء الشعب ، الا ان الامر حبرني .

وقلت لاوسبنسكي « اريد ان اتحدث إلى هذا الرجل ، كوستنكو ، الذي اعتقلته » . فقال : « هذا أمر بالامكان ترتيبه ، ايها الرفيق خروشوف ! » فذهبت إلى مفوضية الشؤون الداخلية فجاؤوني بكوستنكو فأكد كل ما ورد في اعترافه . وقال لي : « نعم ، قمت بكل ما هو منسوب إلي . كنت ضالعا في مؤامرة ، وقد بحث بكل شيء وعن كل شخص عرفت ، ولم اكنم شيئاً » . ولكنني لم اشعر بارتياح كلي . فاعترافات كوستنكو اثارت من الاسئلة اكثر مما اجابت . وبينما انا اغادر مكاتب المباحث حذرت اوسبنسكي قائلاً : « ايها الرفيق اوسبنسكي ، اذا ما حكمت على كوستنكو كعدو للشعب فقد يتهم اشخاصاً آخرين وهو يلفظ انفاسه الاخيرة . فاذا صح ذلك فانا اشدد على ارجاء تنفيذ الاعدام حتى يتسنى لنا التثبت من اتهاماته ، وهكذا نأمن انه لا يرسل الاتهامات جزافاً دون براهين » .

وبعد مضي بعض الوقت جاءني اوسبنسكي بوثيقة ورد فيها ان كوستنكو ،

قبل اعدامه ، زعم بان بديله في لجنة كيف الاقليمية ، شربين مذب مثله بالجرائم نفسها ، وكنت معجباً بشربين واحبه . كان فلاحاً بسيطاً من بولتافا ورجلاً مقتدرأ ، وكنت واثقاً من نزاهته . وعندما علمت بأن كوستنكو حاول توريطه انفجرت غضباً وصحت : « كيف تسمح بحصول ذلك ايها الرفيق اوسبنسكي ؟ لقد طلبت منك بوضوح وجوب التثبت من اية اتهامات يطلقها كوستنكو ضد اي كان قبل ان يرمى بالرصاص ! »

وبادرت فوراً إلى الاتصال هاتفياً بمالكوف في اللجنة المركزية ، نظراً لأنه كان مسؤولاً عن الجهاز الشخصي هناك وبإمكانه المساعدة . واخبرته بما حصل . وسألني مالكوف : « هل تتق بشربين ؟ » فأجبته : « نعم » فقال : « اذن دعه يحفظ بمركره » .

ولكن لم يمضي كثيراً على تلك المكالمات الهاتفية حتى اتصل بي مالكوف ثانية وقال : « يبدو الآن انه من الافضل الاستغناء عن شربين من جهاز السكرتيرية . اعرّف انك تتق به ، الا ان ادلة خطيرة تجمعت ضده » . فقلت : « اية ادلة ؟ هل تعني اتهامات كوستنكو ؟ انها ليست ادلة بل تشهير » .

ولكن مالكوف لم يستلم . فحاولت جاهداً ترتيب عودة شربين إلى وضع حسن في الحزب . وكان قد سبق ان عيناه نائب مفوض الشعب للزراعة . وظلت اطرح الموضوع على اللجنة المركزية مطالباً بالافادة منه في العمل الحزبي . كنت اعاني وجدانياً من اجله .

راستمر اصراري على انه فوق الشبهات وان اتهامه لم يكن محققاً . واخيراً استلم مالكوف ورفع شربين إلى مسؤولية سكرتير اول للجنة سومسكي الاقليمية . وعندما اندلعت الحرب سميت له عضوية المجلس العسكري لجيش الساحل . وقد قتل اiban الغزو الالماني . وهكذا اعطى حياته بكل نبل وشرف في سبيل بلاده وشعبه ، في سبيل الاتحاد السوفياتي .

كان ستالين عندما ارسلني إلى اوكرانيا قد قال لي : « اعرّف انك ذو ميل إلى المدن والصناعة ، لذلك فمن الافضل ان يكون تركيزك على الادارة الصناعية والبلدية في المدن على حساب مسؤولياتك الزراعية . وكن حذراً بصورة خاصة من اتفاق كل وقتك في دونباس . انك لن تجد في الصناعة ما ستجده في الزراعة من مشاكل متعددة . ثم تذكر ان الزراعة في اوكرانيا لبالغة الأهمية بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، فحاول جهدك ان تفعل شيئاً لتنظيم زراعتنا لتصبح اكثر فعالية » .

وكان ان التزمت بتحذيره رغم انه لم يكن من السهل الصمود في وجه اغراءات حبي الأول للتعدين والصناعة . كنت اشعر بميل مستمر يشدني إلى التعدين والمصانع

والمناجم . الا انني بذلت قصارى جهدي لتكون لي احاطة بموضوع الزراعة ،
وصرفت وقتاً طويلاً في التطواف في اوكرانيا ازور المزارع والقرى واحادث
المهندسين الزراعيين والاداريين .

ووصلت انا وبورميسستكو إلى اوكرانيا في كانون الثاني او شباط من ١٩٤٩ ،
وكان ذلك بالضبط هو وقت الاستعداد لبذار الربيع . وكان ان واجهتنا على الفور
مشكلة خطيرة . كانت الخيول تتساقط في كل المزارع في غربي اوكرانيا على الحدود
البولونية . ولم يستطع احد ان يعرف سبب مرضها . فخلال زيارة قمت بها إلى
مزرعة جماعية في اقليم فينيتسا ، سألت سائساً اذا كان لديه ادنى فكرة عن سبب
موت الخيول وكأنها ذباب يتساقط ، فقال لي ان السم يدس للاحصنة . وقال :
« شاهدت ذلك الرجل يدس السم للاحصنة » ، ثم اردف : « فالتقينا القبض عليه .
هل تعرف ماذا تكشف لنا ؟ انه يبطري » .

كان ذلك معقولا ، فمن صالح الالمان الذين كانوا يعدون للحرب ضدنا ان
يحارلوا تخريب اقتصادنا وقدراتنا العسكرية . ذلك ان الخيول لم تكن في تلك الأيام
مجرد دواب من الماشية ، بل كانت كذلك تنوب مناب الدبابات والطائرات
وسيارات الجيب اليوم (١) .

وقررت ان اتعمق في هذه المسألة . فطلبت من أوسنسكي ان يسرد لي
اسماء الذين قبض عليهم يدسون السم للخيول . فسمى لي بروفسوراً من معهد
البيطرة في خاركوف ، وهو يهودي ، ومدير معهد خاركوف للعناية بالدواجن ،
وهو اوكراني . فقلت له : « اود ان اتحدث اليهما ولكنني افضل ان لا اذهب إلى
السجن لهذا الغرض . فاستدعهما إلى مكتبك » . فقال : « ولكن ما الفائدة ؟
فقد اعترفوا للمباحث بانهم مخربون وعملاء عند الالمان . وسيرددون امامك
الاعتراف ذاته » .

فقلت : « ربما ولكن هنالك ما يقلقني . ذلك انهم في اعترافاتهم اعطوا المعادلة
الكيميائية للسم الذي افترض انهم استخدموه . وقد سألت علماءنا ان يركبوا نموذجاً
منه ويجربوه ، وعلفنا بعض الاحصنة به فلم يحدث لها شيء ، وانني لمتحير
كيف ان السم الذي زعموا استخدامه لم يكن له مفعول ! لذلك اريد محادثة
السجناء بنفسني » .

(١) لعل هذا يبدو مستغرباً ولكنه حقيقي . فعن وصول الشاحنات الاميركية التي أخذت
طريقها بالألوف عبر طريق الخليج العربي في فترة اندلاع معركة ستالينغراد ،
كانت نقلات الجيش الأحمر تكاد باكملها تعتمد الخيول .

وذهبت إلى الباحث فاستحضروا البروفسور اليهودي ، وكان رجلاً خط الشيب شعره ، وهو في الخمسين من عمره .

— « حسناً ما لديك تقوله دفاعاً عن نفسك ؟ »

— « سبق ان اعطيت افادتي . نعم ، نحن عملاء المان وقد كلّفنا بمهمة تسميم الخيول » .

— « ولكن كيف تفسران السم الذي تقول بانكم استخدمتموه لا مفعول له ؟ »

— « هذا ممكن ، ذلك اننا تلقينا جرعات مهياة في المانيا ، فاضفناها إلى مركبنا . ولم نكن نعرف ماهية المواد التي تلقيناها من المانيا » .

ولم يقنعني هذا الجواب . فبقيت القضية بالنسبة لي مفتوحة والافادة مفتقرة إلى دليل . ثم اعطيته فرصة كاملة ليعلم براءته ، الا انه تمسك بقصته الاصلية .

وكان ثمة شيء آخر يقلقني . كيف ان يهودياً يصبح عميلاً لاعدى اعدائه الفاشيست الالمان المعادين للسامية ؟ بدا الأمر غير معقول . الا ان بالامكان تفسيره من زاوية الصراع الطبقي وإلى ما هنالك ، غير انني بقيت مشككاً في حقيقة الأمر .

ثم استدعيت الطبيب الثاني ، مدير معهد خاركوف للعناية بالدواجن ، فكرر ايضاً افادته . وزعم ان التهمة ، تهمة التخريب ، لم تكن مزاحاً حتى يتقبلها منهم بهذه السهولة . فلعل المتهمين كانوا يأملون بتخفيف الجرم اذا هم اظهروا ندمهم وتوبتهم واعترفوا بجرمهم .

وقررت ان اشكل لجنة للتحقيق . فاصطدمت بمشكلة وهي ان عدة لجان

اشكلت في الماضي ، ولكن ما ان يستمر موت الخيول حتى تحل اللجان ويعتقل افرادها وتجري تصفياتهم . لذلك كان الاعتقاد السائد ، وله بعض المبررات ،

ان التعيين في احدى هذه اللجان يعود بالموت . واستدعيت الرفيق بوغومولينس ،

رئيس اكااديمية العلوم ، ولم يكن متسبباً للحزب . الا ان عدم الانتساب للحزب

كان في نظري مسألة شكلية لم أكن اعيها ادنى اهتمام او استخدمها ضد اي

مواطن سوفياتي صالح وتقديمي .

وقلت له : « من رأيي تشكيل لجنة تحقيق . ولكنني اعرف ان زملاءكم

يخشون من تعيينهم في هذه اللجان نظراً لأن اعضاء اللجان السابقة كانوا يمتقلون .

ولكنك لو ترأست هذه اللجنة الجديدة ، فان الآخرين يقدمون على التطوع بالدخول

في عضويتها . ومن جهتي ، اعدكم بحضور اجتماعات لبحثكم العامة الموسعة

واستمع إلى تقارير علمائكم . ثم ان الرفيق أوسبنسكي مفوض الشؤون الداخلية ،

سيحضر كذلك حتى نتجنب تعرض لبحثكم لاي اتهام . واقترح اتخاذ تدبير

احتياطي آخر كذلك ، فنقيم لبحثين تعمالان جنباً إلى جنب . وهكذا نضاعف

حظ الوصول إلى جواب . »

وفي الحقيقة عندي سبب آخر لاقتراح بلختين متوازيتين ، ذلك انني لم اكن انقي امكان وجود مخربين ، وكنت آمل انه في حال وصول احدهم إلى لجنة من اللجنتين ، تكون اللجنة الاخرى مؤلفة من اشخاص شرفاء .

وكان ان وافق بوغوموليتس ولكن بفقر . وافرت مفوضية الشعب للزراعة في الاتحاد السوفياتي تعيين الهيئتين . وزيادة في الاحتياط والسلامة ، اضافة لجنة ثالثة مؤلفة من علماء روس من موسكو برئاسة البروفسور فرنسكي . وتوجهت اللجان الثلاث إلى المزارع المنكوبة وأخذت تعمل . بعد حين توصل البروفسور دوبروتكو العضو في إحدى اللجنتين الأوكرانيتين إلى نتيجة هي ان الخيول مصابة بمرض الفطر الذي ينمو في التبن المبلول .

ولكن البروفسور فرنسكي لم يكن مستعداً لقبول استنتاجات دوبروتكو ، فقد كان الاول موسكوبياً والآخر اوكرانياً ، وكانت الفوارق بين الاقليمين يومها لم تزل على اشدها . وتجنباً للتصادم بينهما اقترحت ان يستمر التحقيق لفترة أخرى حتى نتأكد بصورة مطلقة من الجواب الصحيح .

ومضى وقت طويل قبل ان يعلمني البروفسور فرنسكي بموافقه على اكتشاف دوبروتكو . ووصل البحث العيني إلى آخره ، ورفع تقرير إلى اللجنة المركزية المنعقدة في اجتماعها الشامل في كييف . وكانت التوصية لوقف امتداد الوباء في غاية البساطة ! حافظوا على التبن في حالة جفاف .

وكان ستالين يتتبع القضية بأكملها وبدقة . وكان مكتئباً عندما سمع بان الخيول يفسد لها السم في اوكرانيا . فعندما عدت إلى موسكو ورفعت له تقريري حول نتائج عمل لجائنا اقترحت ان بمنح رؤساء اللجان الاوسمة . فمنح البروفسور دوبروتكو وسام الراية الحمراء للعمال . وفي رأيي كان يستحق وسام لينين . واقترحت منح البروفسور فرنسكي وسام الشرف مع ان دوره لم يزد عن ان ما ربحناه تحظى بمجرد انتصار في حقل الزراعة . فقد كان انتصاراً مناعياً وسياسياً كذلك ، ولكن كم فقدنا من رؤساء المزارع الجماعية ومربي المواشي ، واخصائيي العناية بالدواجن ، والعلماء ممن جرفتهم التصفية باعتبارهم مخربين قبل ان يتمكن من التدخل والامساك بزمام الموضوع ؟

استغرق تبديد مناخ التشكيك والحياة وقتاً طويلاً . وكان علي ان اصطدم باستمرار بآثار المواقف التي سادت ابان التطهير . ومن هذه قصة طبيب اوكراني يدعى مدفيد (وهو اسم عامي يعني كذلك الدب) وقد أصبح بعد سنوات عضواً في الوفد الأوكراني إلى الدورة التأسيسية للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو . وكان

سبب ازعاج بالغ لاعدائنا الذين كانوا يقولون « ان الدب الاوكراني عاد إلى الدمدمة ثانية ١ » وكان هو بالفعل ذا صوت شبيه بصوت الدببة وذا طبع غصوب يصعب التعامل معه . وفي عهد تسلمي المسؤولية في اوكرانيا كان لهذا الطبيب قصة نموذجية للتطرف المجنون الذي بلغته الحالة في اوج التطهير :

ذلك انه عندما كان مدفيد نائب رئيس دائرة الصحة الاقليمية في كييف او في خاركوف ، نهضت امرأة في اجتماع حزبي وأشارت باصبعها نحوه قائلة : « انني لا اعرف هذا الرجل الواقف هناك الا انني استطيع ان اتبين من نظرة عينيه أنه عدو الشعب » (١) ، تصوروا هذا التصرف !

ولكن لحسن الحظ ان مدفيد لم يفقد السيطرة على نفسه فرد فوراً : « انا لا اعرف هذه المرأة التي شهرت بي ، ولكنني استطيع ان اتبين من نظرتها انها عاهرة » . واستعمل كلمة اقذع . واهل رد مدفيد الفوري هو الذي انقذه . ولوانه وقف موقف المدافع وأخذ يحتج معترضاً على انه ليس عدو الشعب لكان وضع نفسه موضع الشك : وكانت المرأة التي شهرت به تشجعت لتدفع بأنهامها ضده إلى آخر الشوط ، وهي تدرك انها لن تتحمل اية مسؤولية عما يحدث . ان مثل هذه التصرفات أخذت تتضاءل بعد استقراره في اوكرانيا وبعد نقل أوسبنسكي من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية .

ولا بد من ان اذكر شيئاً عن خليفة أوسبنسكي ، اعني سيروف . لقد عوقب سيروف في عهدي ، لأنه كان مهملًا كما اعتقد . الا انه كان مستقيماً ، وصادقاً ، ورفيقاً يعتمد عليه رغم اخطائه . وقد احترمه ووثقت به .

وكان سيروف (٢) رجلاً طيباً إلى حد السذاجة . وعندما قابلته لأول مرة كان لم يزل فتياً وعديم الخبرة . وكان قد تخرج لثوه من اكااديمية المدفعية ، فكان من بين الذين عبثوا عندما اخذنا نجد العسكريين للخدمة في المباحث . وكان من الطبيعي ان

(١) ان هذا مثل نموذجي على التشهير الهستيرى الذي اودى بالملايين إلى الموت او معسكرات الاعتقال .

(٢) أ. س. سيروف كان ضابطاً في الجيش الأحمر نقل من اكااديمية فرونز العسكرية إلى المباحث في ١٩٣٨ . وقد كان صغوده سريعاً وارسل ليخلف أوسبنسكي كرئيس للمباحث الاوكرانية ول يعمل مع خروشوف في ١٩٣٩ . ول فهم طبيعة نشاطاته في اوكرانيا انظر الفصل التالي . وهو لم يكن قاتلاً متحسباً ، بل كان في الاساس ، رجل تنظيم ، وادارياً موهوباً ، منطوياً على نفسه ، عياباً ، عديم الشفقة ، يقتل دون ان يرف له جفن عندما يطلب اليه ذلك . وكان ينظم التهجير الجماعي بصورة رتيبة ، ثم يذهب من مكتبه إلى بيته ويبرز في المناسبات الاجتماعية =

لا يكون ذا خبرة في عمليات الأمن . وهذا النقص في الاختبار كانت له ميزاته كما كانت له محاذيره . وكان الناس قبل تعيين سيروف للأمن ، يعانون من اختبار مؤذ لهم وللبلاذ والحزب . وقد ألف الناس حملات التحريض والتشهير واعتقال الابرياء وانتراخ الاعترافات بالتعذيب المتقن . ولم يكن سلف سيروف من رجال المباحث بالضرورة ، ولكنهم استسلموا للتلقائية اللاإرادية في اعمالهم . وكان يقود اعمالهم فكر واحد : « اذا لم افعل هذا للآخرين ، فالآخرون سيفعلونه لي . » وانه لأمر رهيب مخيف انه في زمننا ، في عصر الاشتراكية ، نجد شيوعيين وقفوا انفسهم على الحزب بالامكان تسييرهم بحافز آخر ، ليس هو حافز الوجدان او العقل بل خوف غريزي حيواني للهرب من المصير بهدر حياة اشخاص ابرياء . ولم يكن سيروف من نتاج تلك الحقبة ولا تلك العقليّة . وبمؤنثه ، استطعت ان اعيد اوكرانيا إلى وضعها الطبيعي . وأخذت الصناعة تنتج الكوتا لها كما اخذت الحالة الزراعية تميل إلى الاستقرار ، وتضاءلت اعمال القمع ، وأخذت كوادر الحزب والعمال الاداريين تعوض عما اصابها من نقص حتى عادت إلى حجمها الطبيعي .

الاكاديمي باتون

هنا نتأمل خروشوف رجل التنفيذ العملي . ونجد كم هي سليمة ملاحظاته من الوقت المهدور نتيجة اجتماعات التلقين العقائدي المتواصلة التي يرغم رجال الاعمال على الاشتراك بها . ولكن هذه الاجتماعات لم تزل معتدة حتى اليوم . وحين يرفض خروشوف بفضب ان يحمل الجسر الجديد في كيف اسمه ، لعله نسي انه في ايام حكمه لاوكرانيا عزي اليه تشجيع « عبادة الشخصية » لذاته ، الأمر الذي اثار بمض اقارائه ممن كانوا يمشون في ظل ستالين المباشر في موسكو .

= عشيراً محبوباً ، قريباً للقلب ، لطيفاً ، مسلياً . وعندما نقلت وزارة أمن الدولة إلى لجنة أمن الدولة بعد موت ستالين عين خروشوف سيروف رئيساً اول لها . وكان الآن يتصرف باعتدال نسبي حيث كان في السابق يتصرف بسلطة مطلقة . ولكنه في ١٩٥٦ عاد يتصرف بعنف وقسوة لا ترحم . وفي ١٩٥٨ صرف من الخدمة لاسباب غير معروفة .

بعد فترة قصيرة على استلامي مسؤولياتي في اوكرانيا ، زار مكنتي مهندس ميكانيكي معروف يدعى يفتنجي اوسكاروفيتش باتون وطلب تحديد موعد لمقابلتي . وعندما جاء لزيارتي وجدته رجلاً غليظ البنية ، له شعر اشيب ، وقد تقدمت به السنون . وكان له وجه اسد وعيون براقه حادة . فحياني ثم سحب من جيبه فوراً كتلة من المعدن وطرحها امامي على مكنتي قائلاً : « انظر إلى هذه ايها الرفيق خروشوف ، انظر إلى ما يستطيع صنعه معهدنا ! هذه قطعة من سبيكة حديد كثافتها عشرة ميليمترات ، وانظر باية جودة استطعنا لحماها ».

وتفحصت المفصل عن كثب . وكان قد اتاح لي عملي السابق في التعدين المجال لتفحص المفاصل الملتحمة مراراً . هنا كانت لحمة ملساء كأنما السبيكة قد صبّت في قطعة واحدة .

وقال الاكاديمي باتون : « هذا مثل على التحام النوى » ولم أكن قد سمعت بعد بهذا التعبير من قبل فسألته عما يعني . واوضح لي باتون ، وهو الذي سبق له تسجيل عدة اختراعات ، انه وضع تصميماً لتقنية جديدة للحام ، ورسم لي نموذجاً لكيفية صنع ذلك في السفن والجسور . وشعرت بانني اخذت فعلاً بالاكاديمي باتون . وقد كنت طول عمري ميالاً إلى التعدين . وكان ابي قد ارادني ان اصبح اسكافياً الا انني اخترت التدريب على الميكانيك بدلا من ذلك . ومرة وانا صبي صنعت من قطع خردة محركاً لدراجة . ومنذ التقينا احسنت ان للاكاديمي باتون منزلة كريمة في نفسي وصممت ان ابذل اقصى جهودي حتى يحظى اختراعه بالاهتمام الذي يستحق .

وعندما ذهبت إلى موسكو اخبرت ستالين عن باتون وقد ترك الأمر في نفس ستالين انطباعاً بالغا وسألني اذا كنت اعتقد ان باتون في مستوى تسلم مفوضية في مجلس مفوضي الشعب وقال : « هل بإمكانه ان يتدبر كل هؤلاء البيروقراطيين ويجعلهم يفعلون ما يقول ، اذا ما اعطيناه سلطاناً لا يحّد لادخال اسلوبه الجديد في اللحام إلى مصانعنا ومراكز البناء عندنا ؟ » فاجبت : « ان ما رأيته من باتون يجعلني اقول ان البيروقراطيين لا حظ لهم في مقاومته » .

وهكذا اعطيت لباتون السلطة لادخال اختراعه في صناعتنا . وذات يوم تدارست معه فكرة استخدام التحام النوى في بناء اجسام الدبابات على اساس نظام التجميع .

فأرسلت باتون إلى مصنع خاركوف للدبابات وسألت منظم الحزب هناك ، الرفيق بيشف (وهو الان رئيس المديرية السياسية للجيش السوفياتي) أن يعرفه إلى المصممين والمشرفين هناك . وكانت تلك بداية مرحلة هامة في عمل الاكاديمي

باتون . فقد لعب دوراً خطيراً في الحرب . وانه بفضل تحسيناته التي ادخلها على انتاج دباباتنا ، أخذت الدبابات تخرج من المصانع وكأنها فطائر عملاقة تخرج من الصاج . وقد انتقل مع مصانع دروعنا إلى الاورال عندما اضطررنا إلى اجلاء صناعتنا من خاركوف في مطلع الحرب .

وفي ١٩٤٣ صدف وجود باتون في موسكو عندما كان ستالين قد استدعاني من الجبهة للمشاركات . وطلب باتون مقابلتي واتاني برسالة كتبها إلى اللجنة المركزية . واليكم ما ورد في رسالته تلك : « في ١٩١٧ لم تنح لي ظروفي اخذ الثورة على محمل الجد . فقد كان ابي قنصلاً قيصرياً في ايطاليا وكنت وليد النظام القديم ، وكانت نشأتي قيصرية متخلقة . لم أكن اعطف على ثورة اكتوبر الا انني في الوقت نفسه لم اشترك في نشاطات معادية للسوفييات من اي نوع كان . ولكنني كلما مرت الاعوام اشعر بتزايد انحيازي إلى جانب السلطة السوفياتية . حتى الساعة لم أكن اعتقد انني استحق اية ثقة خاصة او اعتراف من الحزب . انني لم انس قط قصر نظري في ايام الثورة الأولى . غير انني الآن ومنذ زمن بعيد وانا إلى جانب السلطة السوفياتية واعتقد انني مؤخراً قد قدمت انجازاً مرموقاً للدفاع عن بلادنا في زمن الحرب ، وذلك باسهامي في انتاج الدبابات . لذلك اشعر بانني استحق معنوياً ان اتقدم إلى الحزب بطلب قبولي في صفوفه . وتجدون مرفقاً بهذه الرسالة طلب انتسابي لعضوية الحزب ، سائلاً اللجنة المركزية ان تزكيه » . ولست بحاجة إلى القول بان كتابه هذا لم يفرحني فحسب بل هزني بعمق . وقلت له انني متأكد من انه سيقبل . وأخذت رسالته توأ إلى ستالين الذي بدا بالغ التأثير بعد قراءتها رغم انه نادراً ما كان يظهر عواطفه . وقال ببساطة « اذن ، قرر باتون الانتساب للحزب . انني لا ادري سبباً يحول دون ذلك . اقترح ان تصدر مرسوماً خاصاً بقبوله فوراً ونعفيه من فترة التجربة العادية » . ففي ذلك الوقت كانت مدة التجربة الاجبارية « للترشيح » سنتين ، وهي تفرض على جميع طائفي الانتساب للحزب من الارسط البورجوازية والانتليجنسيا .

وبعد الحرب عاد باتون إلى عمله كعالم في الاكاديمية الاوكرانية للعلوم . وبعدها اصبح نائب رئيس الاكاديمية . ولم يمض الا وقت قصير على ذلك حتى حلت باوكرانيا وبالجسم العلمي الاوكراني بصورة خاصة ، مصيبة كبرى : فقد توفي الرفيق بوغوموليتس رئيس الاكاديمية . وأخذ العديد من الناس الذين يعرفون مقدار تقديري انا ، خروشوف ، للاكاديمي باتون ، يؤكدون بانني سأسميه ليكون خلف بوغوموليتس .

ولكن علي ان اوضح بان باتون كان موضع جدل في الاكاديمية . فقد تباينت

الآراء حوله . واذكر مرة ان رئيس دائرة الدعاوة في اللجنة المركزية الاوكرانية شكاه إلي قائلاً بان باتون يظهر قلة احترام للجنة المركزية عندما ينسحب من اجتماعات الحزب التي يدعى اليها .

وسألته : « اي نوع من المواضيع كانت مطروحة للبحث في اجتماعكم هذا ؟ »
فاجاب : « اه ، مواضيع مختلفة ذات صلة بالعمل الايديولوجي » . فعقبت قائلاً :
« لا عجب اذا ما انسحب . فالرفيق باتون لا يمكنه اضاءة وقته في اجتماعات كهذه .
من المرجح انه ارتأى رجوب الرجوع إلى عمله العلمي » . وكانت الحادثة نموذجية عن سلوك باتون . فقد كان يضيق ذرعاً بتلك الابحاث المجردة العقيمة التي يتبارى فيها العديد من مدعي العلم الثقلاء .

كان بإمكاننا ترتيب امر انتخابه رئيساً للأكاديمية لو اننا اردنا ممارسة الضغط ،
ولكننا قررنا ان لا نلجأ لهذا الاسلوب . وفضلاً عن ذلك فلم تكن لدى باتون
مطامح في ان يصير رئيساً . كان مستغرقاً في عمله العلمي وفي ادارة معهده .

وعندما توفي باتون ، كان قد انجز بناء جسر عبر الدنيبر في كييف ،
وكان اكبر جسر المدينة . وكان برمته على طريقته في لحم النوى وصهرها في البناء .
وكان الاوكرانيون يفكرون باطلاق اسمي عليه . فانار ذلك غضبي ، نظراً لأنه
كان قد سبق لنا اصدار مرسوم يحظر اطلاق اسماء اعضاء في قيادة الحكم از
الحزب ما زالوا يتمتعون بصحة جيدة على المصانع رائتسيكلات الصحية والمزارع
الجماعية وسواها من المشاريع . بل اننا ذهبنا إلى تغيير بعض اسماء وجدناها غير
مناسبة . باختصار كنا نعمل على تصفية تلك المنافة غير السليمة التي بدأت في ظل
ستالين ، والتي اتخذت طابع التباري في اي اسم يطلق على اكبر عدد من المصانع
والمدن والمزارع الجماعية .

قلت للاوكرانيين : « اذا ما اطلقت اسمي على هذا الجسر يكون ذلك خرقاً
مباشراً لمرسوم اللجنة المركزية . وعلاوة على ذلك فاني ضد هذه الفكرة ، لانني
كنت أحد الذين اقترحوا المرسوم الذي أبطلها . اعتقد انكم تدركون في اي موقف
تكونون قد وضعتوني اذا ما اصررت على اقتراحكم . لماذا لا تطلقون اسم
الاكاديمي باتون على هذا الجسر ؟ » .

وهذا ما فعلوه . واليوم ، فان الجسر ، على حد التعبير المعروف ، هو حي .
والناس اذ يجتازونه يذكرون باجلال وعرفان جميل ذلك الرجل الذي بفضلته قام
مثل هذا الجسر . ان الاكاديمي يفنجي ارسكاروفيتش باتون هو اب صناعة الصهر
في الاتحاد السوفياتي .

البحث عن المتاعب في صناعة دواليب المطاط

ان القصة المطولة التالية تظهر خروشوف سعيداً وهو في حلبة العمل، صناعياً متمرساً يقود الناس من حوله ويصدر الأوامر، بل يعلم مدير مصنع كيفية العمل في اختصاصه . وان هذه القصة تضيء امامنا معرفة المدير الذي لازم عملية الكفاح « لتجاوز الخطأ » ، دونما اعتبار للنوعية ثم الحالة الترقية المفرطة التي كانت تنسم بها الصناعة السوفياتية في ١٩٣٩ ، وذلك بعد انتهاء المشروعات الخمسين الاولين اللذين شهدا انصباب كل موارد البلاد الرئيسية على اقامة الصناعة الثقيلة . كما انها تتبني طريقة ستالين التي كان يستخدم فيها اقوى اعضائه في مهمات صغيرة لسد الثغرات كلما تباه لوجودها . وكان خروشوف وقتها عضواً كاملاً في المكتب السياسي ، فضلاً عن توليه نيابة ستالين في حكم اربعين مليوناً من البشر في اوكرانيا ، ولكن رغم ذلك استحضره من مملكته وارسله إلى ياروسلاف لرفع تقرير عن نقائص صناعة دواليب المطاط . فكم كان ستالين من جهة قليل الثقة بالناس ، وكم كان مقدار القحط ، في تلك الأيام بالاداريين الاكفاء .

خلال فترة سبقت الحرب ، منع اعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية من ركوب الطائرات . واتخذت هذه الخطوة بعد ان اتاح ميكويان لأحد الطيارين أخذه في نزهة متهوره بالطائرة فوق روسيا البيضاء . وقد ظهرت الحادثة في الصحف . فعندما قرأ ستالين ان احد رجاله كان في رحلة طيران تحملتها كل انواع البهلوانيات الجوية أنب ميكويان بعنف وسن قاعدة منع بموجبها اعضاء اللجنة المركزية والسكرتيريين الاول في الجمهوريات من السفر بالطائرات . وكان هذا التدبير مخيفاً لي ، اذ انني كنت احب الطيران . ولفترة كان علي اما ركوب القطار بين كييف وموسكو او السيارة . وكان الكسندر جورجيفيتش زورافليف سائق سيارتي لمدة تقرب الثلاثة والثلاثين عاماً . وكان اولادي ينادونه بالعم ساشا . وكان مشكوراً في عمله ويحب هذا العمل ، وكنت احترمه واثق به . وخلال رحلة من كييف إلى موسكو اخبرني الكسندر جورجيفيتش بان دواليب المطاط التي تصنع لسياراتنا تتمزق بسرعة فائقة . وفي الواقع ، كانت تفجر من جوانبها بينما لم تزال جديدة الصنع . فعند وصولنا إلى موسكو اخبرت ستالين بان هذه العلة الصناعية تكبدنا الكثير من الوقت والمال .

ولم يكن ستالين يحب الاستماع إلى احد ينتقد الانتاج السوفياتي . وكان يصغي إلى اقوالي بتبرم ظاهر . ثم طلب مني بغضب ان اعمل على تصفية هذه الحالة وان جد المذنبين الذين تسببوا بها . وقال : « انت اذن تنتقد صناعة عجلات المطاط

عندنا ايضاً ؟ ، الجميع ينتقدونها . سنوجه اليك تعليماتنا بمعالجة هذا الأمر شخصياً .
ستذهب وتفتش هذه الصناعة وترفع توصياتك بالتدابير الضرورية لاستئصال هذه
القفاص ولتأمين اصدار مصانعنا عجلات من نوعية جيدة » . واجبته « ايها الرفيق
ستالين ، انني كنت أقبل هذا التعيين بسرور لو انني مطلع على صناعة المطاط
والعجلات ، ولكنني لا املك ادنى معرفة بها . لقد كانت لي بعض العلاقة
بصناعة الفحم والتعدين (البناء بينما أجد نفسي غريباً كلياً عن صناعة عجلات
المطاط » . فقال : « حسناً تعرف إلى هذه الصناعة ، تحمل المسؤولية المعهود بها
اليك فوراً . ولن تعود إلى اوكرانيا قبل ان تعالج هذه المسألة » .

وصدر قرار بانشاء لجنة برئاسة . وانتابني بعض القلق ، اذ لم اعرف كم من
الوقت سيستغرق انجاز المهمة وما اذا كنت استطيع انجازها بنجاح . وكان ان دعوت
اللجنة إلى الانعقاد واستدعيت اخصائين من مصنع ياروسلاف لصناعة العجلات
ومن مصانع ليننغراد وموسكو ، ومن مختلف الوزارات . واستعنت بيجهاز اللجنة
المركزية حتى اجمع كل من كان ملماً بشيء عن صناعة عجلات المطاط . وكانت
مشارراتنا تعقد في مبنى اللجنة المركزية . واتيح للجميع ابداء آرائهم . واذكر ان
مدير مصنع ياروسلاف ترك انطباعاً حسناً في نفسي منذ البداية .

وبعد انتهاء دورة المشاورات الاولى رفعت إلى ستالين تقريري المشتمل على
اقوال الجميع والمشفوع بمطالعتي . فقال ستالين : « ارى ان تذهب إلى ياروسلاف
وتعالج الموضوع مباشرة هناك . ان مصنع عجلات المطاط في ياروسلاف هو
أفضل مصانعنا » .

وهكذا ذهبت إلى ياروسلاف مصطحباً معي بعض الاخصائين من موسكو .
وكان سكرتير لجنة الحزب الاقليمية هو الرفيق باتوليشف الذي أصبح بعد عدة
سنوات وزير التجارة الخارجية . اما رئيس اللجنة التنفيذية الاقليمية فقد كان
ارمنياً شاباً ، وكان مثل باتوليشف مهندساً معدنياً . وقد ترك كلاهما انطباعاً حسناً
في نفسي .

وفور وصولي اعلمتهما بسبب عييتي إلى ياروسلاف وطلبت منهما مساعدتي .
وكان اهتمامي الاول هو ان اعاين كيفية صنع الغلاف المطاطي الخارجي
للدولاب ، وقلت لمدير المصنع : « لا تصف لي التفاصيل الكاملة لعمليتك الآن .
ان ذلك مضية للوقت . كل ما اطلبه هو ان تأخذني لعاين نظام التجميع الذي
تعتمده . اريد ان ابدأ من البداية » . وأخذت اراقب نظام التجميع متقللاً من مرحلة
إلى مرحلة ، معايناً العمال كلما بدا لي شيء يهمني . لم يكن لدي متسع من الوقت
لمشاهدة عملية تقسية المطاط بمعالجته بالكبريت . فاعتمدت على الاخصائين الذين

كانوا يزودوني بالمعلومات التي تتيح لي الاطلاع الوافي .
كان اكثر اهتمامي ينصب على التقنية التي يستخدمها العمال في ربط العجلات بالاسلاك المعدنية . راقبت هذه العملية وقتاً طويلاً . وكان العمال ينجزون هذا الأمر برشاقة وسرعة ، فلا ينظرون حتى إلى ايديهم وهم يعملون . وكانت ايديهم تتحرك مثل ايدي موسيقي عازف . لقد اعجبت بهم ، وسألت فيما بعد عن خطط الانتاج التي يعملون بموجبها . فاعلمت بعدد طبقات الاسلاك التي تنشر على العجلة ، وبالفرض الذي تؤديه هذه الاسلاك . وعلى اساس ما اعلمت اعتبرت انني قد وجدت نقطة الضعف . فقد شاهدت بأية سرعة ينشرون الاسلاك ، وعلمت بان نشرها ومدها مفروض ان يجري بتوازن ، بحيث ان كل الاسلاك المجدولة في كل طبقة تعمل معاً وكأنها جديلة واحدة . فاذا ما نشرت الاسلاك بتوازن تستطيع مضاعفة متانة الجديلة الواحدة على مجموع عدد الجداول ، وهذا يؤدي إلى مقاومة الطبقة كلها للفتق . ولكن اذا نشرت طبقة من الاسلاك بصورة غير متوازنة ، عندها تعمل كل جديلة على حدة ، فيبدأ تمزق الاسلاك الواحدة تلو الاخرى . هذا هو سبب انفجار الدواليب . كانت ثمة مسائل اخرى ولكن هذه هي المسألة الرئيسية .

واستدعيت مدير المصنع وقلت له : « ايها الرفيق ميتروخين ، دعني ارى كتيب التعليمات الذي تعتمدونه لانتاج العجلات . اريد ان اطلع على نوع عملية الانتاج الموصى بها . وبما اننا اشترينا ادوات هذا المصنع من اميركا ، لا بد ان الاميركيين قد اوصوا بتعليمات لاستخدامها في عملية الانتاج ،

— نعم : لدينا جميع التعليمات .

— اذن ، قارن هذه التعليمات بالعملية المستخدمة الآن وارفع لي تقريراً عن التبدلات التي طرأت على العملية الموصى بها .

وحسب تقدير ميتروخين ، كان ثمة تعديلات افرقت عن التوجيهات الموصى بها من قبل المصنع الاميركي . فقد استغنى عن طبقة او طبقتين من الاسلاك على اعتبار ان العدد الباقي يكون كافياً لضمان المتانة . كما اعلمت بان كمية الاسلاك المدعمة قد انقصت على الاطراف . وسحبت حلقة او حلقتان . وكل هذه التعديلات بوشر بها على اساس التوفير في الانتاج . وعرفت فوراً اننا وجدنا المخبول الذي فعل ذلك .

فسألت : « متى حدثت هذه التعديلات ؟ » فقال : « جاءنا الرفيق كاغانوفيتش في جولة تفتيشية إلى هنا ودرس اساليبنا الانتاجية . واوصى بهذه التعديلات » . حدث ذلك عندما كان كاغانوفيتش رئيساً لمفوضية النقل . ويبدو انه اصطحب

معه سيرجو اوردزونيكيز إلى ياروسلاف .
فقلت : « حسناً اعطني محضر اجتماعكم الرسمي مع كاغانوفيتش حتى
يمكنني رفع الامر إلى الرفيق ستالين واللجنة المركزية . والان عليكم اتباع الطريقة
المستخدمة في اميركا بكل دقة » . وخلال جولتي في المصنع لاحظت ان هناك ،
كما في كل المصانع ، لوحة شرف عليها رسوم أفضل المنتجين ، او كما كانوا
يدعونهم « عمال العاصفة » . فسألت مدير المصنع :

« كيف تقارن انتاجية عمالك بانتاجية العمال في اميركا الذين ينشرون
الاسلاك على العجلات ؟ » فقال لي اننا قطعنا خطوة جبارة إلى الامام وتجاوزنا
العمال الاميركيين .

وكان ان هيات مسودة قرار مبني على نتائج تفتيشنا وعدت إلى موسكو .
وعندما رفعت الأمر إلى ستالين شددت على اننا ننتج عجلات من نوعية متدنية ،
اذ اننا في استهدافنا التوفير خرقتا اجراءات الانتاج التي اوصت بها شركة الانتاج
التي اشترينا منها الادوات . لقد « صححنا » اساليب الصناعيين الاميركيين ،
و « حسناً » اساليب الانتاج ، ولكن النتيجة كانت ان عجلائهم هي امن
عشرة اضعاف من عجلائنا .

ثم اعلمت ستالين برأيي انه من الخطأ القادح محاولة رفع كمية الانتاج
والمحصول إلى حدود تفوق التصور . علينا ان نتجنب محاولات التوفير في
الانتاج ورفع الانتاجية على حساب النوعية . فعمال العجلات ربما تجاوزوا الكوتا
المخصصة لهم ولكنهم افرطوا فيها وارهقوها . وكان الافضل توجيه عمالنا إلى
وجوب اعطاء اهتمام أكثر للنوعية عند نشرهم الاسلاك على العجلات . وهكذا
تعلمنا انه اذا استهدفنا مستوى من الانتاجية يحرم العامل من صنع نوعية حسنة ، فان
المنتج يفسد . فعمال العاصفة الذين تربعت صورهم على لائحة الشرف في المصنع
كانوا في الحقيقة يدمرون ما ينتجون ، ويخفضون انتاجية سائقي السيارات عندنا ،
ويحولون دون افادتنا بفعالية من طاقتنا السيارة .

واصغى ستالين إلي بانتباه . ولاحظت انه كان جد منفعلي . وكنت اعلم السبب .
ذلك ان اي رجل نهمة مصلحة الدولة وخيرها - لاسيما الرجل الذي يتبوأ المنصب
الأول في الدولة - لا بد ان يترعج من مثل هذه الاخبار . وقال ستالين :
« اراقبك ؟ اعطنا توصياتك وسوافق عليها » .

وفي تقريري ادخلت توصيات مفادها : خفض كمية الانتاج ورفع نسب
اجور العمال ، واتخاذ مجموعة من التدابير وفق مقترحات الاختصاصيين في المصنع
ومعاهد البحوث العلمية ، فضلا عن مفوضي الشعب .

ثم قال ستالين : « علينا اصدار قرار بعدم تشجيع الافراط في التنافس على الكمية دون النوعية بين العمال وذلك بمنع وضع الاسماء والصور على لوحات الشرف في مصنع العجلات » .

انني : بصورة مبدئية عامة ، ضد هذا التدبير لان اللبينية كانت تعتبر التنافس مظهر عافية في الانتاجية ، والانتاجية هي قاعدة النمو الصناعي . الا انني وافقت على موقف ستالين في هذه الحالة الخاصة .

رغم كان سروري كبيراً انني بمعونة الاخصائيين ، استطعت اكتشاف نقطة الضعف في صنع الدواليب ومعالجتها . كنا نشعر ، يومها ، اننا متجهون نحو الحرب . وفي زمن الحرب يعتمد الجيش على التحرك ، ومن هنا اهمية نوعية صناعة النقل .

وبعد فترة قصيرة أصبح ميتروخين مدير مصنع ياروسلافل مفوضاً للصناعة الكيميائية . وسررت ان ستالين لم ينس تقديرني البالغ لهذا الرجل فعينه في مركز على هذا القدر من المسؤولية .

هذه الحادثة في ميزان مجموع صناعاتنا المنتجة ، تشكل مسألة صغرى ، الا انها كانت ذات دلالة مهمة بالنسبة لي . ولقد رويت هذه القصة لابن كيف ان ستالين كان قادراً احياناً على مواجهة المشاكل بوجدانية وبسوية رجل دولة . كان سيداً للدولة ، جسوراً ، حارب البيروقراطية والفساد والنقائص على اختلاف انواعها ، كان رجلاً عظيماً ، ومنظماً عظيماً ، وزعيماً ، ولكنه كان ايضاً طاغية . حارب احياناً بصرارة وباساليب وحشية ضد بدائية كانت لم تزل تفتك بصناعاتنا . وفي حرصه على خير الدولة ، كان عديم الرحمة في مواجهة اي نقص يواجهه . ولكن لا يجوز ان ننسى انه ، كطاغية ، الحق اذى بالغاً لاسيما في قيادة الحزب والجيش . وكان ذلك كله حصيلة شكه المريض بالآخرين .

اننا لم نزل نعاني من مشاكل الانتاجية والمحصول . لعلمكم شاهدت في أكرم من مناسبة كيف ينهمك النساء والرجال في تقطيع الجليد على الارصفة بمخل . ان هذا العمل غير منتج . فكم تحقق في هذه البلاد من انجازات في حقل الانتاج الآلي الذي شمل عمليات كبرى من الانتاج المركب ، وكم انشئت آلات جديدة لجعل العمل ايسر . والاقمار الاصطناعية الاولى قامت من ارضنا . ولكننا لم نتمكن بعد احلال الآلة محل المخل والرفش . وما ذلك الا لاننا لا نغير هذا الامر اهمية كافية ، ونعتبره تافهاً . ولكن هل هو تافه حقاً ؟ كلا ان « الشورن التافهة » من هذا النوع هي مصدر العمل للعديد من البشر .

مقدمة الى الحرب

العلاقات السوفياتية — الالمانية

كان المعروف بصورة واضحة ان خروشوف لا يعبر الشؤون الخارجية اهتماماً يذكر . في سني الخطر السابقة للحرب ، كان منصرفاً بكلية الى الاشراف على الحالة في موسكو اولا ثم في اوكرانيا . لذلك لم يكن لديه ما يقوله عن صعود نجم هتلر وعن حملة « الأمن الجماعي » التي كان يتولى قيادتها لتفنوف . وهذه الامن هوميثاق مولوتوف — روبنثروب المفقود في ١٩٣٩ الذي اوقع الارتباك والفوضى في اوروبا واعطى هتلر الضوء الأخضر لغزو بولونيا . وقد وقع هذا الغزو فعلا في اول ايلول ١٩٣٩ واعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على المانيا في ١٧ ايلول . ويعكس خروشوف في تعليقاته على دوافع وتصرفات الاتحاد السوفياتي و المانيا وبريطانيا وفرنسا وجهة النظر المقبولة في الاتحاد السوفياتي .

كانت حتمية وقوع الحرب معروفة بداهة قبل شروع هتلر واعدائنا بالاستعداد الفعلي لمهاجمة بزمان طويل ، فمنذ تولي الفاشيست مقاليد الحكم لاول مرة في المانيا كنا ندرك بانهم سوف يثيرون الحرب ضدنا عاجلا او آجلا . وفي كتابه « كفاحي » الذي اقرني الى درجة لم استطع معها ابداً انعام قراءته ، اوضح هتلر بشكل لا لبس فيه خططه العدوانية على العالم وفلسفة كرهه للبشر . وقد اقسم ان واجبه هو القضاء على الشيوعية ، واقتحام حصنها المنيع للاتحاد السوفياتي . وعند توليه الحكم بدأ حالا في اعداد جيشه ووضع في حالة تأهب للحرب . ولم يكن ذلك سراً ، فان المانيا من اقصاها الى اقصاها كانت تضج بالاستعراضات العسكرية ، وبالخطب النارية المتوعدة للاتحاد السوفياتي . ولم يقل كتاب « كفاحي » شيئاً عن التعايش السلمي معنا بل تحدث عن سحقنا . من هنا ان

الذي حمل هتلر على ارسال روبنروب إلى موسكو في ٢٣ آب ١٩٣٩ لم يكن تبديلاً في النوايا القلبية . فقد كان هتلر هو هو وتخللاته ذاتها تصور له نفسه محارباً وفاتحاً مصمماً تصميماً كاملاً على تحرير الشعب الروسي من البلشفية .

وقد سمعت لأول مرة بزيارة روبنروب في اليوم السابق لوصوله . كنت في زيارة ستالين في مقره الريفي يوم السبت فاخبرني ان روبنروب سيصل في اليوم التالي . وقد ابتسم ستالين وراقبني بدقة ليرى اي اثر سيتركه ذلك الزبأ عندي . اما انا فقد صعبت في البداية وحدثت بدوري به ظاناً انه يمزح ثم قلت : « لماذا يريد روبنروب ان يرانا ؟ هل سيدل عقيدته ويتحول إلى جانبنا او ماذا ؟ » . فقال ستالين : « كلا . ان هتلر قد ارسله الينا حاملاً رسالة يقول لي فيها ان استقبل وزيره روبنروب الذي يحمل معه بعض الاقتراحات الواقعية . وعلى ذلك فقد رافقنا على ان نجتمع به غداً » . فقلت لستالين انني خططت للذهاب إلى الصيد مع بولغانين ومالكوف في محمية فوروشيلوف في اليوم التالي . فقال ستالين : « نفذ خططك واذهب فلن يكون هنا غداً شيء يقتضي وجودك . فانا ومولوتوف سوف نجتمع مع روبنروب ونستمع اليه . ومتى رجعت من رحلة الصيد فسوف اخبرك ماذا يحول بفكر هتلر ، وماذا اسفر عنه حديثنا مع روبنروب » .

وفي ذلك الليل توجه كل من بولغانين ومالكوف وانا إلى محمية الصيد في زافيدوفا . وعند وصولنا وجدنا ان فوروشيلوف قد سبقنا إليها . وعلى ذلك فلا يمكن ان يكون قد اشترك مع ستالين ومولوتوف في الاجتماع مع روبنروب (١) . وكان هنالك في المحمية مارشالات وجنرالات آخرون . وخرجنا جميعاً إلى الصيد والقنص . وكان اليوم مدهشاً والطقس دافئاً ، وكان الصيد ناجحاً نجاحاً عظيماً ، وخصوصاً في ما يختص بي . وارجو ان لا يساء فهمي فاني لست من الناس الذين يفاخرون بمهارتهم في الصيد ، غير انني في ذلك اليوم استطعت ان احمل في جعتي بطة واحدة اكثر مما حمل فوروشيلوف . واني اذكر ذلك فقط لان

(١) عندما طار روبنروب إلى موسكو خيل إلى المنسوبين من بريطانيا وفرنسا انهم ما زالوا يتفاوضون مع الروس في محاولة اخيرة فائرة تقوم بها الحكومتان البريطانية والفرنسية لتحقيق تحالف مع الروس . وكان المارشال فوروشيلوف مفوض الشعب للدفاع هو كبير الروس المشتركين في المحادثات مع البريطانيين والفرنسيين . ومن المهم ان نعلم انه خرج لصيد البط في ذلك اليوم التاريخي المصيب عندما تم التوقيع على ميثاق مولوتوف - روبنروب بينما البريطانيون والفرنسيون تركوا في جهل تام لما يجري حولهم .

الصحف كانت بدأت فعلا بالاشادة بفوروشيلوف بانه امهر رماتنا .

وعندما انتهينا من رحلة الصيد رجعنا رأساً إلى « داشا » مقر ستالين الريفي . وكنت اعلم ان ستالين سوف يدعونا كلنا لتناول طعام العشاء ، لذلك حملت البط الذي اصطلدته معي لاقتسمه مع سائر اعضاء المكتب السياسي على العشاء . واخبرت ستالين عن يوم الصيد وفاخرت مازحاً بما لقيناه من التوفيق . وكان ستالين في حالة نفسية حسنة جداً ، وكان هو ذاته يمزح كثيراً . وكان وضع ستالين ازاء الصيد يتوقف عادة على نوع الحالة النفسية التي يكون عليها . فاذا كانت حالته النفسية حسنة فانه قد يفكر حتى هو ايضاً في الخروج للصيد . وفي اوقات اخرى كان يلزم فيها المنزل ويتذمر بمرارة من الصيد والصيداين . ولم تكن معارضته احياناً للصيد قائمة على اساس عقيدته بان الحياة كلها كانت مقدسة . كلا ، فما أبعده ذلك عن الصيد . ولكن الذي ابعده مجرد شعوره ان الصيد مضیعة للوقت . ومن المذاققات بصدد اضاءة الوقت ان ليس من زعيم في وضع مثل وضعه من المسؤولية يضع من الوقت أكثر مما يضعه ستالين يجلسه الطويل حول مائدة الطعام يكتر من الأكل ويفرط في الشراب .

وعلى كل ، فقد اجتمعنا لتناول طعام العشاء في ضيافة ستالين ذلك اليوم ، الاحد من شهر آب ١٩٣٩ . وبينما كان يجري اعداد غنائم صيدنا لتقديمها على المائدة ، اخبرنا ستالين ان روبروب جلب معه صيغة معاهدة صداقة وعدم اعتداء قبلناها ووافقنا عليها . وبدا ستالين مسروراً . وقال انه عندما يعلم اعضاء البعثين الانكليزية والفرنسية بامر المعاهدة في اليوم التالي ، فانهم سوف يعودون إلى بلادهم حالا . واضاف ان المندوبين الانكليز والفرنسيين الذين جاءوا موسكو لاجراء محادثات مع فوروشيلوف لا يرغبون حقيقة في الانضمام اليها ضد المانيا على الاطلاق . ومباحثاتنا معهم كانت بلا جدوى . فنحن كنا نعلم انهم ليسوا مجدين في صدد التحالف معنا وان هدفهم الحقيقي كان تحريض هتلر ضدنا . ولذلك فقد كنا بدورنا مسرورين ان نراهم يغادرون البلاد . تلك هي قصة ولادة ميثاق روبروب - مولوتوف كما كان يسمى في الغرب . لقد كنا نعلم حق العلم ان هتلر كان يحاول ان يخذلنا بتلك المعاهدة . وقد سمعت باذني ماذا قال ستالين : « طبعاً ، ان كل ذلك مجرد لعبة لرى من يستطيع خداع الآخر . انا اعلم ما يرمي اليه هتلر . هو يظن انه تفوق علينا بدهائه ، ولكن الواقع اني انا الذي خدعته . » وقال ستالين لفوروشيلوف وبيريا ولي والاخرين من اعضاء المكتب السياسي ان

الحرب بفضل هذه المعاهدة سوف تتخطانا لفترة اطول من الزمن (١) فتمكن ببقائنا على الحياد من توفير قوتنا لمواجهة ما سيحدث .

كان بالطبع ثمة من ظن في ان رغبة هتلر في التفاوض معنا دليل على شديد توجهه من ان نهاجمه . ان هذا التفسير للمعاهدة بالغ في اطرائنا . وقد انتشر هذا التفسير فسارع كثيرون في دول الاتحاد السوفياتي إلى تصديقه وهنأوا انفسهم به . ولكن نحن كبار رجال الحكومة كان عندنا الخبر اليقين ، فلم نخدع انفسنا بل كنا نعلم اننا في آخر الأمر سوف نجر إلى الحرب . هذا مع العلم ان ستالين كان يظن ان الانكليز والفرنسيين سوف يستنفدون قوى هتلر ويفسدون عليه خطته لسحق الغرب اولا ومن ثم التحول نحو الشرق . ان هذا الامل الذي كان يدغدغ ستالين كان حتماً جزءاً من الاستراتيجية التي كنت وراء موافقتنا على توقيع تلك المعاهدة .

اني اعتقد ان ميثاق روبنتروب - مولوتوف عام ١٩٣٩ كان من الناحية التاريخية ، لا مندوحة عنه في تلك الظروف . وانه في تحليلاته النهائية كان لمصلحة الاتحاد السوفياتي . فقد كان مثل بيرق في الشطرنج . فلو اننا لم نحرك ذلك البيرق لكانت الحرب بدأت ابكر من الزمن الذي نشبت فيه . اما الان فقد اتحت لنا مهلة حسنة . واني اعتقد ان اكثريه ساحقة في الحزب قد اعتبرت توقيع المعاهدة تصرفاً حكيماً من جانبنا حتى ولو ان ما من احد كان يستطيع ان يقول هذا علناً . ونحن لم نستطع حتى ان نناقش المعاهدة في اجتماعات الحزب . فاننا لو كنا لنوضح الاسباب التي حملتنا على توقيع المعاهدة بلغة صحافية صريحة ، لكان ذلك نهجاً مكروهاً . وعدا ذلك فما من احد كان ليصدقنا . لقد كان ذلك صعباً جداً علينا - بوصفنا شيوعيين وبوصفنا ضد الفاشيين وبوصفنا جماعة معارضة - دون هوادة لمواقف الفاشيست الفلسفية والسياسية - ان نقبل فكرة ضم قواتنا إلى قوة المانيا . لقد كان صعباً علينا إلى حد بعيد ان تقبل نحن انفسنا بهذه المفارقة . وكان مستحيلاً ان نوضح ذلك لرجل الشارع . لذلك لم نستطع ان نعرّف صراحة باننا توصلنا إلى اتفاق على التعايش السلمي مع هتلر . ان التعايش السلمي كان ممكناً مع الالمان عامة ولكن ليس مع الفاشيست المتطرين .

اما الالمان فقد كانوا هم ايضاً يستعملون المعاهدة كمنافذة لكسب الوقت . وكانت فكرتهم ترمي إلى ان يفرقوا بين البلدان التي اتحدت ضد المانيا

(١) ان الحرب التي يشير اليها خروشوف هي « الحرب الوطنية الكبرى » بين روسيا و المانيا التي لم تنشب فارها حتى حزيران ١٩٤١ .

في الحرب العالمية الأولى والتي قد تتحد ضد المانيا مرة اخرى ، ويهزموها منفردة . وقد اراد هتلر ان يسدد الضربة إلى كل من خصومه على حدة . وكان موقفاً ان المانيا قد هزمت في الحرب العالمية الأولى لأنها حاولت ان تقاتل على جبهتين في وقت واحد . والمعاهدة التي وقعها معنا كانت طريقة لحصر الحرب على جبهة واحدة .

وفي اثناء ذلك كله كانت الصحف الانكليزية والفرنسية وسائر الصحف البورجوازية تحاول ان تحرض هتلر على مهاجمة الاتحاد السوفياتي هاتفة بصوت مرتفع ان روسيا ليست سوى تمثال ضخيم قدماه من الطحين . وكانت انكلترا وفرنسا ترغبان كثيراً في الوقوف جانباً ومراقبة المانيا والاتحاد السوفياتي يتقاتلان حتى ينهي احدهما الآخر . وكان الانكليز والفرنسيون يفكرون ايديهم فرحاً عندما تخطر لهم فكرة الانتظار بينما جحافل هتلر تكتسح اراضيها وتمتص دماءنا وثروتنا . واذا نظرنا إلى الحرب كأنها لعبة فاننا نصفها على هذه الصورة « انا كنا نراهن على امكانية الاحتماء وراء المعاهدة والنجاة من القذائف التي قد تطاير قريباً حولنا ، وبذلك نتفادى المصير الذي تأمل الدول الغربية ان نواجهه . فاذا كان الأمر كذلك، يكون لمعاهدة روبنروب - مولوتوف كل مبرراتها. » لقد فاتحنا هتلر اولاً باقتراحه لعقد معاهدة بواسطة شولنبرغ سفيره في موسكو . وقد برهن التاريخ ان شولنبرغ كان حقيقة راعياً في تقوية العلاقات السلمية بين المانيا والاتحاد السوفياتي (١) . ومما لا شك فيه انه عارض خطة هتلر لخوض الحرب ضدنا . وعندما دعاه مولوتوف لبحث بعض المسائل المتعلقة بالمعاهدة قال شولنبرغ « ان الله قد جاء بذاته لمساعدتنا » . وفي ذلك الوقت ظننا انه يمثل فقط ، ولكن بعد ذلك علمنا ان اغتيابه بالمعاهدة كان مخلصاً . فقد ادرك ضرورة بناء علاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي على اساس السلم والصداقة ومبادئ عدم الاعتداء المتبادلة التي تربط الجانبين . وينبغي ان يكون قد ابلغ وجهات نظره إلى هتلر في وقت ما ، غير ان هتلر لم يعرها الاهتمام . وقد اشترك شولنبرغ في مؤامرة ضد هتلر في ١٩٤٤ قفّلت ، وكان هو بين الذين اعدموا .

وفي اثناء المدة التي جاءت فوراً بعد توقيع المعاهدة حقق ستالين وهتلر - او على الاقل تظاهرا بأنهما حققا - التزاماتهما الواحد نحو الآخر ، كما نصت عليها المعاهدة . وجرى تبادل معلومات مفصلة نوعاً : فعلى ما اذكر ان مولوتوف كثيراً

(١) الكونت فرنر فون درشولنبرغ عمل حقيقة كل ما استطاعه للحفاظ على السلم بين المانيا وروسيا .

ما كان يبلغ ستالين : « شولنبرغ قال ... شولنبرغ ارسل ... » وما إلى ذلك . وبالطبع كان شولنبرغ أكثر اهتماماً في النقاط المعلومات منا ، مما كان في ابلاغنا اي شيء . واني اذكر مرة عندما كنت عند ستالين ان مولوتوف ابلفه الرواية الآتية : انه استدعى شولنبرغ إلى مكتبه ، فلاحظ شولنبرغ المختزلين يدونون اذاعات الراديو فقال « لماذا تلجأون في تدوينكم إلى الاختزال ؟ » ثم توقف عن الكلام فجأة . غير ان مولوتوف احتفظ بهذا الحادث في ذاكرته . ثم ادرك مما زلق به لسان شولنبرغ ان هنالك على ما يظهر لدى الالمان نوعاً من الوسائل الآلية لتدوين اذاعات الراديو تغنيهم عن المختزلين . ولم نكتشف الا بعد الحرب وجود آلات للتسجيل مما اوضح لنا الافضلية التي كانت تتمتع بها المخابرات الالمانية في نقل اذاعات الراديو بسرعة تستحيل على المختزل . وفوق ذلك فانها ترسل بالشفيرة ، وجهاز التسجيل يستطيع تسجيلها كما وردت ثم بعد ذلك يعيدها على مهل ويحل رموزها . وعلى هذا فان كلمة شولنبرغ المعارضة إلى مولوتوف اعطتنا اول اشارة بان الالمان قد اخترعوا اجهزة التسجيل .

كان المفروض ، وفقاً للمعاهدة ، ان نعطي الالمان كمية معينة من الحنطة والزيت والمنتجات الاخرى . وقد اجرينا جميع تسليماتنا بمواعيدها بدون تأخير . وكان المفروض ان يعوضنا هتلر عن ذلك بطراد حربي . وقد ارسل حتى الاختصاصيين التابعين له لمساعدتنا في تسليح الطراد . ووصل ضابط الماني بحري صاحب رتبة عالية إلى ليننغراد للاشراف على عملية تجهيز تلك السفينة . وبعد ان اعدت له تسهيلات السكن ، ظهرت الفضيحة ، وهي ان استخباراتنا ، على ما يبدو ، كانت قد زرعت في شفته جميع انواع اجهزة السمع والتصوير الفوتوغرافي . ويظهر ان الاميرال المذكور كان من المعجبين بالجنس اللطيف فاكرمه استخباراتنا بفتاة حسنة ، ثم حاولت ان تلتقط صورته في وضع غير محتشم معها . وتكرر ذلك على عدد من الليالي إلى ان سمع الاميرال صوت طنين ، فشرع يبحث في الغرفة ، فزال صورة كبيرة كانت معلقة على الجدار ، فوجد ان نافذة صغيرة قد فتحت في الصورة وعثر وراءها على آلة تصوير (كاميرا) فاسرع حالاً إلى تسجيل شكوى . وظن جماعتنا ان باستطاعتهم ان يتصلحوا معه ويحذروه في خدمتهم . ولكن رؤساء الاميرال الالمانى ما كانوا ليأبهوا لعلاقاته مع امرأة . واثار هتلر شخصياً ضجة حول ما حدث . واني اذكر ان ستالين غضب غضباً شديداً على بيريا بسبب الطريقة التي عالج بها رجاله المسألة كلها . وعبر هذه الحادثة علمت بامر الطراد . وفي ما بعد ، عندما انتهت الحرب كان الطراد لا يزال راسياً في ليننغراد غير كامل . وظن بعض الناس ان هتلر كان قد اعطانا الطراد لأنه كان على استعداد لان

بشاركنا في قوته الحربية . والواقع ان هتلر اعتقد انه قبل الانتهاء من اعداد الطرد يكون قد سحق الاتحاد السوفياتي فيستعيده (١) .

واني لاذكر مثالا آخر يدل على كيف كان هتلر يحاول ان يظهر بمظهر من يريد ان ينفذ بشرف شروط معاهدة عدم الاعتداء . فقد كان لنا عقد مع مؤسسة صنع ذخائر تشيكوسلوفاكية اسمها « سكودا » التي كان المظنون انها تصنع لنا بعض المدافع المضادة للطائرات . وقد كانت تلك المدافع مدافع جيدة قطرها ٨٨ ملمتراً وتصنع وفقاً لنماذج كان قد سبق ان ابتعناها من سكودا . وكان المفروض ايضاً ان نحصل على بعض المدافع من قطر ٢٠٥ ملمتر . وعندما غزا هتلر تشيكوسلوفاكيا اوقفت سكودا العمل بالعقد . على ان هتلر شخصياً تدخل وامر سكودا بان تستمر في العمل وتتم ما اوصينا عليه ، فاطاعت سكودا الامر وسلمتنا عدداً معيناً - دون ان يكون كافياً - من المدافع الثقيلة قطرها ٢٠٥ ملمترت . اما المدافع المضادة للطائرات وقطرها ٨٨ ملمتراً فقد جرى اخذها لكي تنتجها مصانعنا . وقد لعبت دوراً خطيراً في الحرب بوصفها مضادة للطائرات والدبابات .

وفي غضون هذه المدة كان الالمان يقدرون مبلغ سذاجتنا التقنية ، وبشكل خاص نوع معداتنا الآلية . وقد شعروا بضعفنا فشجعهم ذلك على العدوان . وهم بالطبع كما اتضح فيما بعد قد اخطأوا كثيراً في تقديرهم مقدرتنا .

وبدءاً من ١٩٤٠ نشأ الكثير من القضايا التي كانت موضع جدل وخلاف في علاقاتنا مع هتلر . وبعد مشاورات كثيرة في ما بيننا قررنا وجوب ذهاب مولوتوف إلى برلين . وفي تشرين الأول او تشرين الثاني من عام ١٩٤٠ جئت إلى موسكو بعد ان كان مولوتوف قد عاد من رحلته . وقال ان تدابير أمن مشددة كانت قد اتخذت على طريق سفره بالقطار من الحدود السوفياتية إلى برلين . في اثناء المفاوضات قام الانكليز بغارة جوية فارغموا هتلر وحاشيته على الالتجاء إلى المخابىء . وذكر مولوتوف ان مظاهر المخبأ دلت على كثرة استعماله .

وقال مولوتوف وهو قليل الكلام بطبيعته ان مها يتميز به هتلر انه رجل غير ثرثار . وهو لم يتناول قطرة من المشروب . و اضاف ان هتلر في المأدبة الرسمية لم يلمس حتى كأس النبيذ الذي وضع امامه وكان يقدم له الشاي في اثناء تناول

(١) هذا الحادث هو من مميزات تصرفات الشرطة السرية السوفياتية في الحاضر كما في الماضي . ويبدو ان انتقاد خروشوف الوحيد هو كيفية انكشاف الأمر .

الطعام (١) .

وقد استتجت من اجوبة مولوتوف على اسئلة ستالين ان رحلته عززت الاعتقاد السائد بيننا إلى حد اليقين وهو ان الحرب راقعة حتماً ، والارجح قريباً . على ان وجه ستالين وتصرفاته لم تنم عن علامات القلق . وهو قلما اشركنا في قلقه او حتى سألنا عما يساورنا من القلق .

واني اذكر انه عندما طار هيس إلى انكلترا واطلق الالمان تلك الاكذوبة لتضليل الناس وهي انه هرب ، قلت لستالين « ان الالمان يخنون شيئاً . فانا لا اعتقد ان طيران هيس إلى انكلترا هو بالحقيقة فرار من المانيا على الاطلاق ، بل اظن انه في الواقع ذهب في مهمة سرية من قبل هتلر للتفاوض مع الانكليز حول اختصار الحرب في الغرب لاطلاق يد هتلر إلى الاندفاع شرقاً (٢) » . وقد اصغى ستالين لما قلته ثم قال : « نعم . تلك هي الحقيقة وتقديرك صحيح . » ولم يتوسع في رأيه حول هذا الموضوع إلى ابعد من ذلك ، مكتفياً بالمواقفة على ما قلته . وقد كنا قبل ذلك بكثير قد تعودنا منه على الاكتفاء بما يقوله لنا دون ان نسأل . وقد يكون هذا اسلوباً صحيحاً في التعامل مع الموظفين ولكنه ليس صحيحاً في التعامل مع اعضاء الحكومة . والتصرف على هذا النحو مع اعضاء الهيئة الحاكمة في الحزب وفي البلاد هو انتهاك لجميع الاصول التي ينبغي مراعاتها والتقيدها اذا اريد ان يكون الحزب ديمقراطياً . غير ان ذلك هو الذي حدث لحزبنا ، ، حزب لينين في الثلاثينات والاربعينات . فالمعلومات كان يجري اختيارها وتحديددها ووزنها من قبل ستالين قبل نقلها إلى المكتب السياسي . انه لم يكن محققاً في عمله هذا بمقتضى دستور الحزب ومجرد اتباعه هذا الاسلوب كان على اي حال مظهراً آخر للحكم التعسفي الذي

(١) في ليل يوم ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٠ عندما كان روبنروب ومولوتوف في موقف حرج في مفاوضات حول مناطق النفوذ والألماني التوسعية ، قام سلاح الطيران البريطاني بغارة على برلين . وفي اثناء الغارة ، كما قال ستالين بعد ذلك لشوشل في طهران ، كان الالمان يصرون على القول بان بريطانيا قد انتهت ، فرد مولوتوف قائلاً : « اذا كان ذلك هو الواقع فلماذا نحن الآن في هذا المخبأ ، ولمن هي هذه القنابل التي تتساقط علينا . » وقد كانت زيارة مولوتوف لبرلين بالنسبة لهتلر القشة الأخيرة ، فلم يمض شهر على ذلك حتى اصدر أمره رقم ٢١ الذي عرف «بعملية برباروسا » والموجه إلى القادة العسكريين لاعداد لحق روسيا قبل انتهاء الحرب مع بريطانيا .

(٢) ان كثيرين من الروس لا يزالون يعتقدون حتى اليوم ان بريطانيا دخلت في نوع من المؤامرة مع هيس .

اكتسب صفة القانون في عهد ستالين .

وقد عدت إلى موسكو مرة أخرى في الشتاء ، وذلك اما في نهاية ١٩٤٠ او في مطلع ١٩٤١ . وحال وصولي تلقيت رسالة بان ستالين يريد ان يراني حالا في « الداشا القريبة » (وهو الاسم الذي اطلق على مقر ستالين الريفي) . وعند وصولي وجدت ستالين مستلقياً على المقعد وهو يقرأ . فاخبرني بانه لا يشعر بصحة جيدة ، ثم شرع في التحدث عن الشؤون العسكرية . وتلك كانت على الأرجح اول مرة يتحدث فيها عن الشؤون الحربية عندما كنا مجتمعين على حدة . ويظهر انه كان يشعر فقط بالحاجة إلى من يتحدث معه ولم يكن يهتم من يكون ذلك الشخص . فقد كان دائماً يشعر بالكآبة عندما يكون وحده ، كما لو ان الجدران كانت تطبق عليه . واني اظن ان حديثنا عن الحرب الآتية كان مجرد ذريعة ليجتمع بي لاسليه بوجودي معه . ذلك كل ما استطع ان افسره الأمر ، لان ستالين لم يكن عادة يشعر شعوراً ملحاً بتبادل الرأي مع الآخرين . فقد كان يغالي في تقدير مؤهلاته ووجهات نظره وبراها أكبر قيمة من اراء الآخرين ومؤهلاتهم .

وفي تلك المناسبة ، في شتاء ١٩٤٠ - ١٩٤١ ، بدأ ستالين يتذمر من عدم استطاعته المشاركة في المشاورات العسكرية التي كانت دائرة حينئذ . وفي اثناء وجودي معه تلفن إلى تيموشنكو (١) وبدأ يجادله غاضباً مشدداً على اهمية سلاح المدفعية ومنتقداً بعض القرارات التي اتخذت فعلا في تفضيل بعض الانواع الاخرى من الاسلحة عليه . وقد بدا بصورة ظاهرة شديد القلق على حالة اوضاعنا الدفاعية . وتجاوبت انسانياً مع هذه الظواهر الخارجية لمخاوف ستالين العميقة ، فقد كانت تخيم في الحقيقة على بلادنا غمامة سوداء .

واني اذكر اننا كنا جميعاً معاً في الكرملين عندما سمعنا بالراديو ان الجيش الفرنسي استسلم ، وان الالمان دخلوا باريس . وتحطمت اعصاب ستالين ، فصب اللعنات على حكومتي انكلترا وفرنسا .

كان هتلر موفقاً إلى حد مدهش في غزوه اوروبا . وكان قد حرك قواته بسرعة في اتجاه حدود الاتحاد السوفياتي ، وبعد سقوط بولونيا لم تبق هناك سوى حدود صورية بين قوات هتلر والاتحاد السوفياتي . فالمانيا وايطاليا واليابان بلدان قوية وهي متحدة ضدنا . وكان الاتحاد السوفياتي يواجه اعظم الاخطار المميتة في

(١) المارشال سميون تيموشنكو كان قد حل محل فوروشيلوف بوصفه مفوض الشعب للدفاع بعد حرب فنلندا في ١٩٤٠ وكان قبل تلك الحرب في اوكرانيا قائداً لمنطقة كيف العسكرية .

في التاريخ كله . وشعرنا نحن كما لو اننا نواجه ذلك الخطر وحدنا ولا معين لنا . فاميركا ابعد كثيراً من ان يكون بوسعها مساعدتنا ، وعدا ذلك فلم يكن من المعروف حينذاك كيف سيكون رد الفعل لدى اميركا في ما اذا هوجم الاتحاد السوفياتي . أما انكلترا فقد كانت معلقة بخيط ضعيف ، ولم يكن أحد يعلم ما اذا كان الانكليز سوف يستطيعون الصمود اذا حاول الهتلريون غزو بلادهم عبر المانش . اما هتلر فكان يعلم مبلغ الخطر المحيط بنا . وقد بذل اقصى ما يستطيعه لاذلالنا . اذكر ان ستالين قال لي مرة ان هتلر ارسل طالباً ، بطريقة سرية ، خدمة منا . وهي ان يعمد ستالين بوصفه الرجل الذي يتمتع باعظم سلطة رهبة في العالم الشيوعي ، إلى اقناع الحزب الشيوعي الفرنسي بان لا يتزعج المقاومة ضد الاحتلال الالمانى لفرنسا . وبهذا الطلب انحدر هتلر إلى ادنى درك من الخبث والنذالة . فكيف توقع من ستالين ان يدخل في مثل هذه المساومة الحقيرة المحطة من الكرامة ؟ كيف توقع منه ان يتعاون مع الفاشيست ضد الحزب الشيوعي في فرنسا ؟ (١) واني اذكر مثالا آخر لصفافة هتلر . فقد عرض الالمان قصة استيلائهم على داننرغ كما لو كان ذلك مشهداً سينمائياً . فقاموا آلات التصوير السينمائي سلفاً والتقطوا فلماً للمعركة من البحر والبر ، وحاولوا ان يوزعوا هذا الفلم على جميع بلدان العالم . فقد اراد هتلر ان يعلن عن قوته وان يوقع الشلل في خصومه المقبلين عن طريق ترويعهم . وقد اراد ان يرى العالم كله اية ضربات قاضية لا يمكن مقاومتها تستطيع القوات الفاشية توجيهها ، فتزلزل الارض عن طريق الارهاب . وقد اقترح هتلر على ستالين ان يأخذ هذا الفلم ويعرضه في دور السينما عندنا . ووافق ستالين على ذلك على شرط واحد ، قائلاً : « اننا نوزع فلمك اذا كنت انت توزع افلامنا » . فقد كان لدينا بعض الأفلام التي تترك انطباعاً عظيماً جداً في نفوس المشاهدين باظهارها قواتنا في المناورات وفي حالات العرض . وقد كان من الطبيعي ، كما توقع ستالين ، ان يرفض هتلر هذا التبادل . تلك كانت طريقة ستالين في الرد على محاولة هتلر اذلال ارادتنا . اما « فلم » هتلر فقد ارسل اليها على كل حال وشاهدنا عرضه في الكرملين مع ستالين ، وكان وقعه مزعجاً جداً في نفوسنا ، اذ علمنا حق العلم اننا البلاد التالية التي يخطط هتلر لتحويل جيشه ضدها . وكانت لدينا في ذلك الزمن تمثيلية عنوانها « المفاتيح إلى برلين » معروضة على عدد من المسارح . وهي جزء من حملة لتقوية الشعب نفسانياً واعداده للحرب

(١) ان خروشوف في اشتهارته لا يذكر خيانة ستالين قبل ذلك للشيوعيين الالمان في مواجهة هتلر . ربما لم يكن على علم بذلك .

الآتية . كان الالمان يتبجحون بانهم لا يقهرون ، وبأن كل بلاد على وجه الارض سوف تقع قريباً تحت سلطانهم . وكانت تمثيلتنا هذه للتذكير بانه سبق ان كان هنالك مناسبات في التاريخ سحقت فيها القوات الروسية المانيا واستولت على برلين ، وبذلك تسلمت مفاتيح العاصمة الالمانية . على اننا لسوء الحظ لم نوفق إلى الاستيلاء على مفاتيح برلين في نهاية الحرب العالمية الثانية ، اذ كان يجب بالحق ، ان نستولي عليها .

التقدم الى داخل بولونيا

هنا ، وفي الفصل التالي يتحدث خروشوف عن حادث من اكثر الأحداث غموضاً وفضافة في تاريخ الاتحاد السوفياتي ، وهو استيلاء السوفيات على بولونيا الشرقية ، او اوكرانيا البولونية ، بمقتضى النصوص السرية في ميثاق مولوتوف - روبنروب . فبينما كان الجيش البولوني المتجه غرباً يمزق ويشتت في الهجوم الالمانى الصاعق الأول ، تحرك الجيش الأحمر بهدوء وفاجأ الجيش البولوني من الخلف دون ان يلقي مقاومة تذكر ، وتقدم نحو الحدود الجديدة التي كان قد اتفق مع النازيين عليها . فلم يكن ذلك اقل من التآمر على هلاك بولونيا .

وكان خروشوف بوصفه نائب الحاكم في اوكرانيا السوفياتية هو المسؤول عن اقامة ادارة مدنية عاصمتها «لغوف» ، وعن تنظيم ضم الأراضي البولونية إلى الاتحاد السوفياتي . وكان ذلك عملاً تم اجراؤه بأقصى ما يمكن من النشاط وقوة العزيمة . كانت مهمة الجيش الأحمر بقيادة تيموشكو ان يطوق تشكيلات الجيش البولوني كلها ثم يتولى تدبير أمر نقلها إلى السجون ومعسكرات العمل في داخل الاتحاد السوفياتي . فزال نهائياً عن وجه الخريطة ١٥ ألفاً من الضباط البولونيين . واكتشفت في ما بعد جثث أكثر من اربعة آلاف منهم في قبور جماعية في غابة « كاتين » قرب سولسك ، وقد قتلوا برصاص المباحث NKVD . ونقل اكثر من مئتي ألف من الاسرى البولونيين نساء ورجالا إلى المعسكرات ومات الكثيرون منهم هناك . واطلق سراح آخرين بمقتضى اتفاقية ستالين - سيكورسكي بعد الغزو الالمانى لروسيا ، فاتجهوا جنوباً ومات كثيرون منهم على الطريق . ووجد الاحياء منهم ملجأً أحياناً تحت اشراف البريطانيين في ايران والشرق الأوسط ، حيث ألف الجنود منهم جيشاً جديداً قاتل بمنتهى البسالة مع الحلفاء في « كاسينو » وفي سواها .

وفي اثناء ذلك ، بعد ان تمت تصفية الجيش والبورجوازيين ، اقام خروشوف حكومة دمية اجرت انتخابات على الطريقة السوفياتية وطلبت دمج الأراضي

المحتلة بالاتحاد السوفياتي . ويستحيل القول إذا ما كان خروشوف على علم تام بمدى نطاق هذه الفظائع . فهو يتحدث بمرح عن الاعتقالات ويصر على القول أنها كانت ضرورية ، ونظراً لأنه كان سيداً على أربعين مليوناً من البشر فمن المستبعد أن يتوفر لديه أي تفهم مفصل عما كان يجري باسمه . فقد كان محاطاً بالمتلقين والمداهنين والمارقين وبعض المتحمسين الحقيقيين لروسيا (وقد كان ستالين قد سحق الحزب الشيوعي البولوني من قبل) . وكان يطل على جماهير هائفة له تتظاهر « بعفوية » بعد أن جرى ترتيبها في اجتماعات عامة عقدت بعناية وتكتم . ولما كان لا يملك فكرة صحيحة عن أحوال المعيشة في أماكن أخرى خارج الاتحاد السوفياتي ، وهو المؤمن بالمقيدة اللينينية ، فقد سهل عليه الاعتقاد أنه ، حقيقة ، يوفر النور وأسباب الراحة للمظلومين . أما الأعمال القذرة فكان يتولى القيام بها رئيس مباحث أوكرانيا إيفان سيروف .

وفي أوكرانيا البولونية ، كان هنالك بالحقيقة عدد كبير من المظلومين المضطهدين . فقد كان الجناح الأيمن لحكومة الكولونيل بيلك دكتاتوري النزعة إلى حد بعيد . زد على ذلك أن تاريخ أوكرانيا كان مشوشاً كثيراً (أوكرانيا معناها « أراضي الحدود ») . وكانت الدولة الروسية الأولى قائمة في « كيف » . وبعد غزو التتر في القرن الثالث عشر اكتسبت موسكو الأولوية ، وفي نهاية القرن الخامس عشر عندما طرد التتر على أعقابهم أصبح « الروس الكبار » ، أي المسكوبيون ، يختلفون من نواح عديدة عن الروس الصغار المتسكنين إلى أوكرانيا . فأوكرانيا منطقة متنازع عليها تارة مع البولونيين وتارة أخرى مع الليثوانيين . وحتى القرن السابع عشر لم تكن كيف ولا أوكرانيا الشرقية قد أعيدتا إلى تحت سيطرة القيصرية المسكوبيين ، وبقيت أوكرانيا الغربية جزءاً من بولونيا إلى أن اتجه قسم منها إلى روسيا ، وقسم إلى النمسا وفقاً للتقسيم الأول الذي جرى في ١٧٧٢ . وكانت لفوف حيثئذ تعرف باسم « لبرغ » . وللاوكرانيين شخصيتهم الخاصة بهم ولفتهم الخاصة القريبة من الروسية .

وبالرغم من أن أراضيهم كانت قد قسمت بين الدول ، فقد حافظوا على شعور قوي بالروح الوطنية وأقاموا دولة مستقلة لهم في ١٩١٨ . على أن هذه الدولة لم تدم زمناً طويلاً . فجرت بعد الحرب الأولى قسمة أوكرانيا مرة أخرى بين الاتحاد السوفياتي وجمهورية بولونيا الجديدة . ثم جاء عام ١٩٣٩ فقام الجيش الأحمر بقيادة تيموشنكو والحكومة السوفياتية ، يملها خروشوف بإسترداد القسم الغربي من بولونيا بالقوة ، فزال مرة أخرى وجود بولونيا كدولة مستقلة . وقد احتفظ الروس بمكاسبهم بعد الحرب العالمية الثانية وعرضوا على الشيوعيين البولونيين بدفع حدود الدولة الجديدة مسافة بعيدة إلى داخل ألمانيا : خط أودر-نيس ، طاردين السكان الألمان إلى الخارج . وهذا الفصل مفيد

وله قيمة حقيقية ، من حيث انه يكشف وجهة نظر الكرملين وموقفه من شرقي اوروبا .

كيف بدت لي العلاقات الالمانية السوفياتية من موقعي في اوكرانيا ؟
ظن الالمان ، كما يظن جميع المؤمنين بالعقيدة البورجوازية ، انه نظراً لتعدد القوميات في الاتحاد السوفياتي فسوف ينهار عند اول طعنة توجه اليه . كانوا يتوقعون ان الخلافات القومية ستثب ومركز تماسك الشعب سينفطر . وكان ذلك الوهم مصدر عزاء لجميع طالبي السوء للاتحاد السوفياتي في جميع انحاء العالم . وهذا مما شجع الالمان على تركيز ضغطهم على اوكرانيا (١) .

وبعد سقوط بولونيا نقل هتلر قواته إلى حدودنا ووجهها إلى الشرق . ولما كنا قد وقعنا معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع الالمان ، فان الجهود التي بذلها هتلر لتحسين الحدود بدت مثيرة للشبهات والشكوك . فابلغنا ستالين بما حدث . ويجب ان يكون ستالين قد ادرك حقيقة الخطر ، غير انه لكي يبدد مخاوفنا ، تجاهل كما كانت عادته ، تقاريرنا وعارض تأكيداتنا عما يعترم الالمان القيام به .

وهناك حادث لا يزال بنوع خاص لاصفاً بذاكرتي . كنا على اتصال وثيق مع الالمان عندما بدأنا في تحويل الخط الحديدي في غربي المانيا من القياس الضيق الذي كان عليه إلى قياسنا العريض . وقد ظهر الالمان في عدد من المناسبات واسدوا نصيحة لنا بعدم تبديل قياس الخط الحديدي . وعرفت ماذا جال في خاطرهم ، فبادرت حالاً إلى ابلأغ ستالين بان الالمان ينبغي ان يكونوا مصممين على استعمال خطوطنا لنقل معداتهم في المستقبل القريب . فلعن غاضباً وقال : « استمر في العمل واعط الامر بتحويل باقي الخطوط الحديدية باقصى ما يمكن من السرعة » . ففعلنا ذلك دون جدوى ، لان الالمان بعد القيام بالغزو اعدوا تحويل الخطوط إلى القياس الضيق . فقد كان عمال تركيب الخطوط يسيرون وراء القوات الفاشية ، منتزعين الاوتاد والقضبان ومثبتين مكانها اوتاداً وقضباناً جديدة .

وعلى الرغم من غطرسة الالمان وتبجحاتهم الساخرة بعد سقوط بولونيا ، فانهم حرصوا كثيراً على عدم مواجهتنا عسكرياً ، إلى ان يكونوا قد استعدوا للقيام بغزو هائل ساحق . وقد اتاحت لي الفرصة لان اراقبهم عن كثب . وبصفتي

(١) لقد كان الالمان مصييين . فمتدما قاموا بالغزو عام ١٩٤١ استقبلهم عدد كبير من الاوكرانيين استقبال المحررين ، وذلك قبل انقشاع تلك الاوهام .

عضواً في المجلس الحربي لمنطقة كييف ، فقد كنت في كثير من الاحيان ارافق القائد تيموشنكو لعرض قواتنا التي كانت محتشدة على الحدود . وقد هالنا ما شهدناه من التخطيط الكامل لآلة الحرب البولونية وانهيار الحكومة البولونية ذاتها بعد الهجوم الذي قام به الالمان في اول ايلول ١٩٣٩ . وكان البولونيون مزهوين ، يتيهون خيلاء عندما رفضوا بغطسة اقتراحتنا بان نوحّد قواتنا معهم . والآن صار جيشهم شراذم محقرة تخضب دماؤها الارض (١) .

كانت معاهدة روبنروب - مولوتوف قررت حدوداً جديدة بين بولونيا واوكرانيا السوفياتية . وقد عبرنا الحدود القديمة وتحركنا غرباً دون ان نلقى اية مقاومة تذكر . فقد حركنا قواتنا اولا إلى الامام حتى ترنوبل وانطلقنا وسط القرى البولونية التي كان اكثر سكانها من الاوكرانيين . وفي اليوم الثاني او الثالث من الحرب اقترنا من لقوف ووصلنا اليها قبل الالمان بفترة قصيرة جداً . وقد كان جل اهتمامنا ان نتجنب الاصطدام بالالمان وبالتالي التسابق على دخول لقوف . ولذلك قررنا ايفاد ياكوفليف (٢) الذي كان انذاك مارشالا للدفعية إلى الخطوط الالمانية للمفاوضة وكانت له معرفة قليلة باللغة الالمانية . ولو تسنى للالمان ما ارادوا لكانوا دخلوا «لقوف» قبلنا ونهبوها . ولكن لما كانت قواتنا بقيادة غوليكونوف (٣) قد وصلت قبلهم فقد ارادوا ان لا يظهرنا اي عداة نحونا فحافظوا على حفية المعاهدة وابلغوا ياكوفليف قائلين : «الرجاء ، كونوا ضيوفنا ، تفضلوا اولا » . لقد كان هتار يلعب لعبة كبيرة فلم يشأ ان يكون البادي في قتالنا لاسباب تافهة ، بل ارادنا ان نعتقد انه رجل يحافظ على كلمته . وعلى ذلك فقد انسحبت القوات الالمانية عائدة إلى الحدود التي كانت قد اقرتها المعاهدة . وكانت هنالك مظاهر ابتهاج عظيم ، سواء بين جنودنا او بين السكان المحليين لضم اوكرانيا الغربية إلى الاتحاد السوفياتي لتعرف باسم اوكرانيا السوفياتية .

-
- (١) سمى البولونيون بكل تأكيد إلى حتفهم برفضهم البحث في عقد اي اتفاق مع الاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا يسح بموجبه للقوات السوفياتية بالمرور في اراضيهم في حالة الحرب مع المانيا . لقد كان البولونيون فخورين متعجرفين على انهم لم يلبثوا ان تحطموا وتشتوا تحت وطأة الهجوم الالمانى الصاعق . غير ان خروشوف ينسى ما حل بالجيش السوفياتي نفسه في فنلندا ثم في روسيا بعد هجوم هتلر .
 - (٢) اللقنتانت جنرال ف. ك. ياكوفليف الذي صار بعد ذلك قائداً للجيش السوفياتي الرابع امام لينتغراد .
 - (٣) ب. ل. غوليكونوف الذي رقي في ما بعد إلى رتبة مارشال وصار قائداً عاماً لمنطقة لقوف الحربية .

وهذه الاراضي كان يسكنها في التاريخ اوكرانيون باستثناء المدن الكبرى .
فلغوف مثلاً كان بين سكانها بولونيون اكثر من الاوكرانيين غير ان تلك كانت
اكثرية مصطنعة . وقد كان الاوكرانيون ممنوعين من العمل في المدن ولم يكن
ليسمح لهم حتى بالعمل على الطرق . وكان هذا التفريق ممارسة كخطة سياسية
للتأكيد بان البولونيين يسيطرون على المدن .

واذا نظرنا إلى استيلاء الاتحاد السوفياتي على اوكرانيا الغربية من مجرد وجهة
النظر الاقليمية البحتة ، يتضح اننا قد ربحنا تقريباً كل شيء ما عدا ما كان يحق ان
يكون لنا قانونياً ، وهي الاراضي البيلوروسية والاوكرانية التي كان قد استولى
عليها بيلسدسكي في عام ١٩٢٠ (١) . وكان من الطبيعي ان يكون هنالك بعض
الاوكرانيين الذين ، لاسباب قومية ، لم يكونوا راضين بمعاهدة روبنروب - مولوتوف .
فقد كان هؤلاء يعتقدون ان الحكم السوفياتي في اوكرانيا كان مؤقتاً وكانوا
يفضلون خط كورزون الذي كان ابعد إلى الغرب ، على الحدود الجديدة التي
تقررت بمقتضى معاهدة روبنروب - مولوتوف .

وقد سبب لنا الاوكرانيون الوطنيون من المتاعب اكثر مما سببه اي كان
سواهم في المدة الواقعة بين توقيع المعاهدة ونشوب الحرب في ١٩٤١ . وقد وقعت
في ايدينا براهين مؤيدة بالوثائق لا نزاع فيها ، بانهم كانوا يتلقون الأوامر
والأموال من الالمان . وهذه المعلومات تكون بدورها برهاناً قاطعاً على ان هتلر
كان يستعد لغزو بلادنا . فقد كان يستغل الوطنيين الاوكرانيين عملاء له في
اوكرانيا الغربية . وعندما قام بالغزو ساعد الوطنيون الموجودون في المنطقة
الاستخبارات الالمانية اكثر من مرة (٢) .

وقبل الغزو كان الوطنيون الاوكرانيون يتطلعون بشوق إلى الحرب المتوقعة لان

- (١) لقد كانت تلك الأراضي جزءاً من روسيا الامبراطورية حتى الثورة ، ولم تكن
بولونيا موجودة كدولة ذات سيادة منذ التقسيم الثلاثي الذي جرى بين روسيا
والمانيا والنمسا في ١٨٦٣ واعلنت بولونيا دولة مستقلة في تشرين الثاني ١٩١٨
وصار الجنرال بيلسدسكي رئيساً لها وبادروسكي عازف البيانو رئيساً للوزراء
في اول ١٩١٩ . وقد حاول البلاشفة ، ان يشتوا الهيئة الروسية فزحفوا على
وارسو بقيادة توكاشفكي فردهم بيلسدسكي على اعقابهم . وبمقتضى معاهدة
رينا في آذار ١٩٢١ قررت كلية بولونيا كجزء من بيلوروسيا واوكرانيا .
- (٢) هنا ايضاً نرى ان خروشوف يجد صعوبة في الوصول إلى قرار في ما اذا كان يقلل
او يؤكد قوة الوطنيين الاوكرانيين . وتاريخه هذا مرتبط بالمناسبة التي تلائم
للتقليل او تأكيد قوتهم . والواقع انهم كانوا اقوياء جداً .

غوبلز كان قد حملهم على الاعتقاد بان هتلر سوف يطرد « المسكوبيين » من اوكرانيا ويمنح الاوكرانيين استقلالهم على طبق من الفضة . وكان الاوكرانيون عاجزين عن ان يروا ما الذي يستطيع ان يعطيهم الحكم السوفياتي القائم على الأسس الماركسية - اللينينية التي هي اكثر النظم تقدماً ورقياً في العالم كله .

وعندما دخلنا لقوف اخطأنا في اطلاق زعيم الوطنيين الاوكرانيين ستيفان بانديرا من سجنه . ومن هو ستيفان بانديرا ؟ ان الكثيرين من الناس لا يعرفون عنه شيئاً . والبعض حتي يخلطون بينه وبين اوستاب بندر ، شخصية ألف وبتروف . والواقع ان ستيفان بانديرا كان مثل والده قبله كاهناً في اقليم ستانلاف . وقد كان طالباً في رقت ما في معهد لقوف للعلوم التقنية .

وقد اودع السجن في لقوف لانه ادين بان له علاقة باغتيال وزير الشؤون الداخلية البولوني . ونحن لم نكن نشعر بالحزن الكثير على ذهاب وزير من وزراء الدولة البولونية الرجعية . على اننا مع ذلك اظهرنا بعض النقص في حسن التقدير باطلاقنا من السجن اشخاصاً من امثال بانديرا بدون مراجعة تاريخهم والتحقق من اوضاعهم . ونحن لم نكن لتأثر بماضي بانديرا لكونه معارضاً للحكومة البولونية ، غير انه كان يتوجب علينا ان ندخل في حسابنا ان الاشخاص الذين مثله هم ايضاً من اعداء الاتحاد السوفياتي . انهم وطنيون اوكرانيون ولذلك فانهم مصابون بمرض الكره المزمّن للحكم السوفياتي . ثم ان بانديرا شخصياً كان عميلاً ظاهراً للفاشيست الالمان ، وقد سبب لنا بعد ذلك متاعب كثيرة . صحيح ان بانديرا عندما ادرك ان المحتلرين لا يعترمون البر بوعدهم في رعاية استقلال اوكرانيا تحول مع اتباعه ضدهم . ولكنه حتي عندما فعل ذلك لم يتخل عن كرهه للاتحاد السوفياتي . وفي اثناء النصف الثاني من الحرب قاتل ضدنا وضد الالمان معاً . وبعد الحرب خسرنا الالوف من رجالنا في فضال عنيف بين الوطنيين الاوكرانيين وقوات الدولة السوفياتية (١) .

واني اود هنا ان اقول شيئاً عن مأساة حدثت في اوكرانيا اثناء الفترة التي

(١) ظل ستيفان بانديرا طيلة سنين عديدة بعد الحرب ، وحتى مصرعه ، يمثل مشكلة خطيرة للسلطات السوفياتية . ولاسباب بديهية لم يعلن شيء ابدأ عن حركاته غير انه اقتضى استخدام القوات العسكرية على نطاق واسع لكسر شوكة القوات الثائرة ، المؤلفة من الاوكرانيين الوطنيين والفارين من القوات السوفياتية المسلحة واسرى الحرب السابقين والاشخاص الناقمين على شتى انواعهم وانكثيرين من الوطنيين الذين وحد بينهم الخوف من موسكو والكره لها .

تلت توقيع ميثاق روبنروب - مولوتوف ولم يسمح لي الوقت ان اعالج انا شخصياً تلك التطورات . وعدا ذلك فاني في مركزي الخطير جداً بوصفي عضواً في المكتب السياسي وسكرتيراً للجنة المركزية الاوكرانية لم يكن من اللائق ان تكون لي يد مباشرة فيها . وهذه الاحداث قد اخبرني بها الرفيق سيروف ، مفوض الشعب للشؤون الداخلية في اوكرانيا .

وكانت واجبات سيروف تتطلب منه ان تكون له اتصالات مع الغستابو . وكان احد ممثلي الغستابو قد دأب على المجيء إلى لفوف في مهام رسمية . ولم اكن اعلم اي نوع من الشبكة كان للغستابو في اوكرانيا ، غير انها كانت واسعة النطاق . وكان تغطية هذه الشبكة اتفاق متبادل يقضي بان الموجودين في الاراضي التي يحتلها الالمان والراغبين في العودة إلى اوطانهم في الاراضي البولونية السابقة التي تحتلها القوات السوفياتية يسمح لهم بذلك وعلى النحو ذاته يسمح لاي من الاوكرانيين الموجودين في الاراضي السوفياتية بالعودة إلى بولونيا التي يحتلها الالمان اذا ارادوا ذلك .

وقد وصف لي سيروف المشهد الآتي :

« هنالك خطوط طويلة من الواقفين خارج المكان الذي يسجل فيه الناس طلب الاذن بالعودة إلى الاراضي البولونية . وعندما حدثت النظر اليهم عن كثب صغقت اذ رأيت ان اكثر الواقفين في الصف هم من اليهود ، وهم يقدمون الرشوة إلى عملاء الغستابو ليمسحوا لهم بالسفر باسرع ما يمكن ليعودوا إلى اوطانهم الاصلية » .

وكان عملاء الغستابو يبدون رغبة شديدة في قبول الرشوة ليحصلوا على الثروة وليشحنوا اولئك الناس حالا إلى غرف الغاز . ولم يكن هنالك شيء نستطيع ان نفعله لوقفهم . انهم يريدون الذهاب إلى وطنهم . ربما كان لهم اقرباء في بولونيا وربما يريدون مجرد العودة إلى حيث ولدوا . ولا بد انهم قد علموا كيف كان الالمان يعاملون اليهود، ومن الطبيعي انه لم تكن هنالك نهاية افضل تنتظر هؤلاء اليهود البولونيين الذين بحكم القدر قد وجدوا انفسهم على ارض سوفياتية ولكنهم ارادوا ان يعودوا إلى ارض واقعة الآن تحت حكم الفاشيست .

وقد قابل النخبة من البولونيين الموجودين في اوكرانيا الغربية وصول الجيش الاحمر بمشاعر مختلفة. كان الكثيرون منهم ما زالوا في حالة ذعر . فقد تعرضوا لمواجهة دولة هتلرية تفرض في بولونيا وشهدوا تصفية الحكومة البولونية . وكانت وارسو في حالة خراب وشهدت مدن اخرى دماراً هائلاً . وشعر البولونيون الذين نشأوا على ثقافة بורجوازية وآراء بورجوازية انهم قد فقدوا هويتهم القومية .

ولما كانوا لم يفهموا ولا قبلوا التعاليم الماركسية - اللينينية ، فانهم لم يستطيعوا ان يتصوروا ان ثقافتهم ستتغير واقعياً بضم اراضيهم إلى الاتحاد السوفياتي . وبعبارة اخرى ، بينما كان السكان الاوكرانيون الذين في اوكرانيا الغربية يشعرون بان الجيش الاحمر قد حررهم ، كان السكان البولونيون يشعرون بانهم قهروا وفقدوا حريتهم .

كانت اكرية البولونيين في الاراضي الواقعة تحت الاحتلال السوفياتي ضد النظام السوفياتي . غير أنهم عندما ووجهوا بالوضع الاخر الذي جلبه هتلر للقسم الباقي من بولونيا اختاروا ما ظنوا انه اخف الشرين . وانه لمن المؤسف ان بعض النخبة من اهل الفكر البولونيين فروا من البلاد ، فهلك اكثرهم في غرف الغاز والاfran المنقلة التابعة للغتاتبو (١) .

واني لاذكر حادثة حيرتني واحزنتني كثيراً . فعندما دخلنا لفوف كانت هنالك مغنية اوبرا بولونية شهيرة اسمها « واندنا باندروفسكا » وقد طلبت من رجالنا الذين كانوا يعالجون الشؤون الثقافية ، ان يتفاوضوا معها ويعرضوا عليها ان تغني في كييف او خاركوف او في اوبرا اوديسا . وقد خيل لي ان مثل هذه القرصة المغرية قد تقنعها بالبقاء ، فاني لم اشأ ان تعود مغنية شهيرة مثلها إلى ارض بولونية يحتلها الان الفاشيون واذا ما هي غنت في بولونيا يكون في ذلك نوع من التحدي للشعب البولونيا وللشعب السوفياتي على السواء . غير ان باندروفسكا تفوقت علينا بدهائها فظاهرت بانها مهمة جداً بما عرضناه عليها بينما كانت في الوقت ذاته تقوم بمفاوضات مع الفاشيست من ورائنا فجعلتهم يحتفظونها بطريقة خفية إلى المنطقة الواقعة تحت الاحتلال الالماني . وفي احد الايام جاء سيروف وقال لي : « باندروفسكا ذهبت وهي في كاركوا . وقد ظهرت فعلا على المسرح هناك وغنت لضباط الجيش الالماني » .

وعلى الرغم من النكسات المماثلة لهذه ، فاننا كنا على ثقة بان المفكرين البولونيين وكذلك العمال والفلاحين البولونيين في اوكرانيا الغربية سيفهمون بصورة صحيحة ضرورة وجود معاهدة روبنروب - مولوتوف ، ويقبلون الحكم السوفياتي . فلم يكن خطأنا اننا اضطررنا لتوقيع تلك المعاهدة ، بل كان ذلك خطأ

(١) في ١٩٣٩ بالطبع لم يكن هنالك غرف غاز . ان القرار باقناء يهود اوروبا الذي ادى إلى انشاء « اوشوتز » و « تربلنكا » وامثالها بغرفها الغازية لم يضعه هتلر الا في ١٩٤١ . في ١٩٣٩ كان اليهود وخصوصاً الذين من اصل بورجوازي قد شعروا ان لهم حظاً اوفى في شراء طريقهم للخروج من المانيا إلى غربي اوروبا .

حكومة بولونية تنقصها الحكمة ، حكومة البلدسكيين الذين اعماهم كرههم للاتحاد السوفياتي وعداوتهم للعمال والفلاحين الموجودين في دولتهم بالذات . لقد خافوا من ان اي اتصال بنا قد يشجع العناصر المحبة للحرية في مجتمعهم وخافوا اكثر من اي شيء آخر من الحزب الشيوعي في بولونيا وابوا ان يفعلوا شيئاً قد يزيد في قوة ذلك الحزب . لقد كان البلدسكيين يعلمون انهم اذا انضموا اليها فان مصيرهم قد يتوقف على ارادة الشعب البولوني . لذلك رفضوا قبول مساعدتنا لهم ونتج عن ذلك ان القسم الاكبر من بولونيا كان من نصيب هتلر بينما اوكرانيا الغربية اتحدت مع اوكرانيا الشرقية ، فاتيحت الفرصة لافراد الشعب هناك ان يصيروا مواطنين في الاتحاد السوفياتي .

ضم اوكرانيا الغربية

هنا يستمر خروشوف في روايته عن ضم اوكرانيا البولونية للاتحاد السوفياتي ، مشيراً ايضاً إلى احتلال الدول البلطيقية في ١٩٤٠ . اما ضم لتوانيا ولاتفيا واستونيا فقد جرى - اعتقالات وترحيلات بالقوة وكل ذلك - بالطريقة التي سبق اتقانها في اوكرانيا ولكن مع الفرق ان تلك الشعوب الصغيرة لم تكن روسية ، وكانت على مستوى معيشي ارقى كثيراً من الاتحاد السوفياتي .

واصلنا العمل بقيادتي ، في مهمة اقامة دولة سوفياتية في اوكرانيا الغربية وفي تسوية الحالة في الاراضي التي تم ضمها من بولونيا . وقد ركزت جهودي لمساعدة الرفيق سيروف على خلق منظمات حزبية محلية في اوكرانيا الغربية . فجرى تشكيل لجان اقليمية اكثر اعضائها من اشخاص جاؤوا من اوكرانيا السوفياتية (الشرقية) ، في حين ان لجان المناطق شكلت بالاكثير من اشخاص محليين معروفين بنشاطهم الحزبي . وبالرغم من نفوذ الوطنيين الاوكرانيين القوي ، ومن المقاومة في اوساط المفكرين البولونيين ، فقد كان لا يزال هناك عدد كبير من الاشخاص الراغبين في الاعتراف بحقيقة الوجود السوفياتي . حتى وان يكن الحزب الشيوعي في اوكرانيا الغربية قد جرى حنه في اثناء حملة التطهير في ١٩٣٦ - ١٩٣٧ ، الا انه كان هناك كثيرون من الشيوعيين في المنطقة ممن ما زالوا يشعرون معنا ويعطفون علينا.

وكانت قلوب بعض العاملين الحزبيين المحليين في اوكرانيا الغربية في المكان الصحيح ، غير انهم كانوا على درجة متوسطة من السذاجة . واني لاذكر حادثة مسلية بنوع خاص . فقد زرت مرة لجنة الثورة في لفوف لارى كيف يسير

رئيسها في عمله ، فوجدت مكتبه مزدحماً بالذين جاؤوا لمقابلته في صدد شؤون مختلفة متعلقة بإدارة المدينة : مثل حالة خطوط القطر الكهربائية والطرق المفتقرة للإصلاح ، واهم من كل ذلك التيار الكهربائي في المدينة والمياه اللازمة لها . وكان الذين تولوا إدارة هذه الخدمات في الماضي جميعهم بولونيين وجاؤوا إلى لجنة الثورة لتوافق عليهم الإدارة الجديدة ، ولتلقوا تعليماتها . وهناك وسط جميع هؤلاء الناس جلس رئيس اللجنة . كان رجلاً كبير الهامة محتدياً جزمة عالية من الباد ومعطفاً هائلاً فوق سترته المصنوعة من جلد الغنم . وكان ذلك في اواخر الحريف وقد بدأ البرد . وكان يحمل مسدسين بارزين بشكل ظاهر من وراء معطفه . ولعل السبب الوحيد الذي لم يتدل من فوق كتفيه مدفع هو انه اقل مما يستطيع حمله . اما الذين كانوا جالسين حوله مستظرين مقابلته ، فكانوا في ذعر وخوف منه .

وعندما انتهت ساعات العمل في مكتبه قلت له انني ارتعدت لرؤيتي رئيس لجنة الثورة في مثل ذلك المظهر . وقلت : « اسمع ، ان هذا لا يجوز ابداً ، فانك ترك اثراً مرعباً في نفوس هؤلاء الناس وتعطي اسماً سيئاً لشخصك وللحزب . فماذا كنت تفعل لو ان ارباباً اقتحم هذا المكان وحاول ان يقتلك ؟ انه يستطيع ان يطلق الرصاص عليك من احد مسدسيك . فمن الآن وصاعداً ، اذا اردت ان تحمل مسدساً تأكد ان لا يكون ظاهراً للخارج من وراء معطفك على هذا الشكل » . وكان هنالك شيء آخر ادهشني في لفوف وغيرها من مدن اوكرانيا الغربية ، هو موقف السكان اليهود المحليين . كان هنالك كثيرون من اليهود في اوساط الطبقة العاملة والمفكرين وبعضهم كان يعمل ضد السوفييات . وكان البعض منهم ايضاً ينتمون مع الاوكرانيين إلى منظمات وطنية ضد بولونيا اطلق عليها اسم الحزب الشيوعي للدفاع عن اوكرانيا (١) .

واذكر اننا مرة وجهنا دعوة إلى اوكرانيين ويهود وبولونيين - وكان اكثرهم من العمال والبعض الآخر من المفكرين ايضاً - إلى اجتماع في دار الاوبرا . وخطر لي انه لشيء غريب جداً ان اسمع متكلمين من اليهود في ذلك الاجتماع يشيرون إلى انفسهم بانهم « يديش » . وقالوا شيئاً مثل « نحن اليديش » نعلن اننا من مجيدي كذا وكذا .

وفي خارج الرواق بعد الاجتماع استوقفت بعض اولئك الاشخاص وسألتهم

(١) الحروف الأولى باللغة الروسية كانت مثل تلك التي للحزب الشيوعي في اوكرانيا الغربية .

« كيف تتجروُن على استعمال كلمة « يديش » ؟ الا تعلمون انه تعبير عدواني واهانة للشعب اليهودي ؟

فاجابوا قائلين : « الأمر هنا في اكرانيا الغربية بخلاف ذلك تماماً ، فاننا نسمي انفسنا « يديش » ونعتبر كلمة يهود اهانة » .

ويبدو ان ما قالوه كان الحقيقة . فاذا عدنا إلى الادب الاوكراني ، واخذنا كلمة « غوغول » على سبيل المثال نرى ان « يديش » لا تستعمل على سبيل المسخرية او الالهانة . ولكن حتى بعد ان وضحت لنا هذه العادة ، فقد ظلت مزعجة لاحساساتنا حتى صرنا متعودين عليها . (١)

وبينما كنا نحاول ان نكتسب تأييد نخبة المفكرين في اوكرانيا سعت عن كاتبة اسمها وانداليفوفنا واسيلوسكا كان لصوتها وقع عظيم جداً بين المفكرين البولونيين . فاصبحنا ، انا وهي ، صديقين . كانت شخصية طيبة ذكية جداً وصداقة للغاية . وصارت شيوعية لا تشوب سمعتها شائبة ، وذات ولاء لا حد له . وصارت في ما بعد واحدة من القلائل الذين باستطاعتهم ان يتحدثوا إلى ستالين ويردوا على حديثه ويظلوا محتفظين بحسن نظرته اليهم . وكانت هي قد فرت مشياً على قدميها من وارسو إلى المنطقة التي تحتلها قواتنا ، مرتدية معطفاً من جلد الغنم ومحتذية حذاء اسود عادياً . وهي من اسرة بولونية عريقة ، اذ انها ابنة وزير في حكومة بلسدسكي . واشيع ان بلسدسكي كان عرابها مع انني لم اسألها ابداً اذا كان ذلك صحيحاً . والمهم فيها كان تأييدها بصورة واضحة وحزم اقامة دولة سوفياتية في الاراضي البولونية سابقاً . وقد ساعدتنا للتوصل إلى اولئك البولونيين في اوكرانيا الغربية الذين كانوا متمسكين عن غير تعقل بالرأي القائل اننا فاضنا لعقد ميثاق روبنروب - مولوتوف على حساب حريتهم (٢) . وقد تعرفت فيما بعد إلى « ايفا » ابنة وانداليفوفنا التي كانت تسكن الاتحاد السوفياتي وتعمل في إحدى مكاتب موسكو الكبيرة .

ان عملي الرئيسي كان ان انشيء منظمات تمثل الشعب في اوكرانيا الغربية

(١) ان كلمة « يد » المهينة في نظرنا هي اقرب شيء إلى كلمة « زهيد » الروسية . فيهود اوكرانيا الغربية يشيرون في الواقع إلى انفسهم بانهم « زهيدون » وهذا شيء شائع حتى ان اي اوكراني او روسي كان يعرف ذلك ويعتبره أمراً عادياً .

(٢) كانت واسيلوسكا مفتبة بولونيتها السوفياتية الجديدة وتزوجت فيما بعد كورنيشوك الكاتب الذي ليس اقل منها في اتجاهاته السياسية . على ان اكثرية البولونيين اعتبروها خائنة . ومكافأة لها على المساعدة التي قدمتها في تصفية زملاتها البولونيين ، عينت نائبة رئيس وزراء اوكرانيا .

واعطيها فرصة لان تعلن عن ذاتها : ما اذا كانت تريد ان تنضم إلى الدولة السوفياتية ام لا ؟ وجرى انتخاب مندوبين لاجتماع يعقد في لقوف لاجل اتخاذ قرار حول هذه المسألة . وعندما عقد الاجتماع جلست انا في مقصورة خاصة وراقبت مبلغ نجاح الجلسة الأولى . وكان ذلك حدثاً مشجعاً للغاية ، اذ كانت هيئة الرئاسة المحلية مؤلفة من اشخاص من اوكرانيا الغربية وكنا على معرفة باتجاهاتهم ومواقفهم السياسية لانهم كانوا قد اعلنوا عن ذلك في اجتماعات عامة وفي الصحف . ولكن مع ان هؤلاء كانوا معروفين جيداً منا ، فانهم لم يكونوا على الاطلاق ادوات في ايدينا او عملاء سياسيين لنا بل كانوا شيوعيين بعقيدتهم . وقد استمر انعقاد الاجتماع عدداً من الايام وسط ابتهاجات عظيمة وحماسة سياسية قوية . ولم اسمع خطاباً واحداً يعبر حتى عن اقل شك بوجود اقامة دولة سوفياتية في اوكرانيا الغربية . وكان الخطباء ، الواحد تلو الآخر ، يعلنون بحبور وباسلوب موثر ان من اغلى احلامهم قيام جمهورية اوكرانية سوفياتية . وكان من دواعي الغبطة والارتياح لي ان ارى الطبقة العاملة والفلاحين والمفكرين العاملين قد بدأوا جميعاً يفهمون التعاليم الماركسية - اللينينية ، وان يرغبوا جميعاً في بناء مستقبلهم على هذه الاسس . تلك كانت قوة افكار لينين ! وبالرغم من كل الجهود التي بذلها الحكام البولونيون لتشويه عقيدتنا اللينينية ولارهاب الشعب ، فان افكار لينين كانت حية وناشطة في اوكرانيا الغربية . وفي الوقت ذاته كنا لا نزال نقوم بالاعتقالات وكان من رأينا انها ضرورية لتقوية الدولة السوفياتية وتطهير الطريق لبناء صرح الاشتراكية على المبادئ الماركسية - اللينينية (١) .

(١) كانت الاعتقالات في الحقيقة (من ينكر ذلك) مقصودة لتقوية الدولة السوفياتية التي اعتبرت ذاتها حينئذ (كما هي اليوم) ليست ذات قوة كافية لتسامح بوجود افراد خارج السجون او معسكرات العمل يفترض انهم يشككون بالحكم القائم . ففي بولونيا التي يحتلها السوفيات وفي دول البلطيق الواقعة تحت الاحتلال السوفياتي ، ارتفعت اعتقالات امثال هؤلاء الأفراد إلى مئات الألوف وان أشد وصف تأثيراً في النفوس عما حدث في اعتقالات المدنيين ظهر في الرواية «الجانب الأسود من القمر» التي طبعت بدون ذكر اسم واضعها وبمقدمة بقلم ت . س . اليوت عن بحث دون جدوى عن ١٥ ألفاً من الضباط البولونيين الذين اسرهم الروس . اقرأ « الأرض غير الانسانية » تأليف جوزف كزابسكي مع مقدمة بقلم موريس هالي وادوارد كرانسكو . ولوصف اكتشاف جثث حوالي ٤٠٠٠ من أولئك الضباط الذين وجدوا قتل في غابة كاتيا قرب سولنسك انظر « قتل حرش كاتيا » لمؤلفه جوزيف ماكيووكز .

غير ان اعداءنا البورجوازيين كانت لهم تفسيراتهم الخاصة للاعتقالات التي حاولوا ان يستعملوها لتشويه سمعتنا في جميع انحاء بولونيا . ولكن على الرغم من هذه الحملة الافتراضية رحب شعب اوكرانيا الغربية بالجيش الاحمر بالاسلوب الذي ينبغي على الشعب العامل اتباعه للترحيب بمحرريه .

وواصل الاجتماع المعقود في لفوف سيره المظفر . وكان المثلون يلقون خطبهم ودموع الفرح تنهمر من عيونهم . وقالوا انهم اخيراً قيض لهم ان يعيشوا ليروا اليوم الذي صارت فيه اوكرانيا موحدة مع اخوانهم الاوكرانيين الشرقيين . ان الاماني الغالية التي كان يصبو اليها الشعب الاوكراني قد تحققت ، وفي الوقت ذاته اصبحت حدود الدولة السوفياتية حصينة . فحدودنا دفعت غرباً ، والمظالم التي نزلت بالشعب الاوكراني وضع لها حد . ولم يسبق ابدأ من قبل ان تحققت وحدة الشعب الاوكراني في ظل دولة اوكرانية واحدة ، الا الآن في العهد السوفياتي ، فصار هذا الحلم حقيقة واقعة . (١)

على ان الاجتماع الذي عقد في لفوف لم يعكس سوى شعور الذين تحرروا من نير الاضطهاد البولوني . لذلك فان توحيد اوكرانيا والموافقة رسمياً على قبول الاراضي البولونية السابقة في الاتحاد السوفياتي لم يكونا قد تحققا بعد بصورة قانونية . اذ ربما بقي هنالك اجراء شكلي واحد . فلم يكن احد يتوقع من الاوكرانيين المنتمين إلى المناطق الشرقية ان يعترضوا على اندماج اوكرانيا الغربية في دولة اوكرانية سوفياتية . وبعد الاجتماع التمثيلي او التأسيسي الذي عقد في لفوف ، نقلنا البحث في جميع هذه القضايا إلى كييف حيث طلب المندوبون إلى الاوكرانيين ، ثم إلى الحكومة السوفياتية الموافقة على قبول اوكرانيا الغربية كجزء من اوكرانيا السوفياتية . وفيما بعد طلبوا ايضاً الانضمام إلى الاتحاد السوفياتي في جلسة خاصة لمجلس السوفيات الاعلى لدول اتحاد روسيا السوفياتية الذي دعي للانعقاد في كييف . وكانت الحالة النفسية التي سادت هذه الجلسة انتصاراً رائعاً . وكان من دواعي غبطتي العظيمة وافتخاري أنني حضرت هذه الاجتماعات ، لاني منذ البداية توليت التنظيم والاشراف على عملية دمج اوكرانيا الغربية واوكرانيا الشرقية . صحيح انه لا يزال هنالك بعض الاوكرانيين يسكنون في الجانب الآخر من جبال كرباتيا . وبعد تصفية تشيكوسلوفاكيا ، جرى ضم اوكرانيا الكرباتية إلى المجر . وكان الاوكرانيون يقولون في ما بينهم ان الوقت سوف يحين لانضمام

(١) لا شك في ان لأغلبية السكان وجهة نظر اخرى في هذا الموضوع .

الاوكرانيين الكريباتيين النيا . وهذا تماماً ما حدث بعد الحرب . فعندما انهزم هتلر انضم الاوكرانيون الكريباتيون إلى اوكرانيا السوفياتية وصار جميع الأوكرانيين أخيراً موحدين في دولة واحدة .

وفي الوقت ذاته كان العمل مستمراً على توطيد وجود «بيلوروسيا» (روسيا البيضاء) في الاتحاد السوفياتي . وقد احتفل البيلوروسيون كالأوكرانيين فرحاً بانتصار الدولة السوفياتية وبالتوحيد التاريخي لجميع السكان البيلوروسيين في دولة بيلوروسية سوفياتية واحدة .

أما ضم لتوانيا ولاتفيا واستونيا فقد تم بعد ذلك . وعندما بدأ موسوليني بالهجوم على اليونان ، وقام هتلر بغزو يوغوسلافيا واحتلال نروج التي تكاد تكون على مرمى رصاصة من حدودنا الشمالية قرب مورمانسك ، افتتحنا مفاوضات مع لتوانيا ولاتفيا واستونيا (١) طالبين تأكيدات على ان هذه الجمهوريات البلطيقية لن تهاجمنا . ولا حاجة للقول ، انه جرى حالاً تبديل في حكومات كل من تلك البلدان .

وقد علمت انا بما يجري هناك من حديث ، جرى لي مع ستالين ، عندما عدت إلى موسكو من كييف . وكنا جميعاً في غاية السرور من ان اللتوانيين واللاتفيانيين والاستونيين عادوا مرة أخرى ليكونوا جزءاً من الدولة السوفياتية . ان معنى ذلك توسيع اراضيها وزيادة عدد سكانها وتحصين حدودنا والاستيلاء على حدود ساحلية واسعة على بحر البلطيق (٢) .

ان ضم دول البلطيق عزز ايضاً اهدافنا التقدمية في ما يتعلق بشعوب تلك المنطقة . فان شعوب البلطيق على خلاف البيلوروسيين والاوكرانيين الذين توحدهم روابط قومية مع الروسين ، هم من طينة قومية مختلفة ومع ذلك اعطيت لهم الفرصة لان يعيشوا في احوال معادلة للاحوال التي يعيش فيها طبقة العمال والفلاحين

(١) احتل هتلر نروج في آذار ١٩٤٠ ، وهاجم موسوليني اليونان في تشرين الأول ١٩٤٠ . وغزا هتلر يوغوسلافيا في نيسان ١٩٤١ . ولكن روسيا استولت على دول البلطيق في حزيران ١٩٤٠ .

(٢) اعتراف بارد غير عادي بايمان السوفيات في ان القوة هي الحق . ان جميع هذه البلدان عادت بعد تقلبات كثيرة في تواريخ مختلفة من القرن الثامن عشر لتصبح جزءاً من الامبراطورية الروسية . ففي ١٩١٨ اعلنت كل منها على حدة استقلالها . وسكان هذه الدول على خلاف الأوكرانيين ليسوا سلافين ، وكانوا جميعاً متفوقين على الروس في تطوراتهم الزراعية والاقتصادية وكذلك في مستوى ثقافتهم العامة . فالفلاحون والعمال يخشون كل شيء ولا يرغبون شيئاً من صيورتهم سوفياتيين .

والمفكرين البارزين في روسيا . وكنا متأكدين تأكيداً قاطعاً ان الضم كان انتصاراً عظيماً لشعوب البلطيق وكذلك للاتحاد السوفياتي . ان الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين في دول البلطيق كانوا على بينة من ان عملية تصفية الطبقات الاستغلالية التي انجزناها في روسيا سوف تنتقل اليهم كما سوف تنتقل إلى جميع الشعوب التي تنضم إلى الاتحاد السوفياتي .

ولفترة قصيرة واجه اللتوانيون واللاتفيانيون والاستونيون مشكلة فرار زعمائهم مع البورجوازيين . اما بعض الزعماء الذين لم يسمح لهم الوقت بالفرار فقد اعطيت لهم مناصب في الحكومات الجديدة .

وكان علينا ان نجد اشخاصاً جدداً ، (١) فشرعنا في عملية توطيد النظام السوفياتي على طريقة تدريجية اكثر مما كانت عليه طريقتنا في اوكرانيا وبيلوروسيا ، وذلك اولاً بتشكيل حكومات هي اكثر ميلاً نحو الاتحاد السوفياتي وبانشاء احزاب شيوعية محلية تمنح لها اوضاع قانونية . ثم بدأت القوى التقدمية بايجاد صداقات للاتحاد السوفياتي بين الجماهير . وبعد مدة معينة من الزمن اعلنت شعوب البلطيق رغبتها في ان تصبح جزءاً من الاتحاد السوفياتي ، فتم اقامة الحكم السوفياتي باساليب ديموقراطية ومع التقيد بالاجراءات القانونية المطلوبة (٢) . وقد رحب الشعب السوفياتي بدخول دول البلطيق في الاتحاد السوفياتي بالحماسة ذاتها التي رافقت ترحيبنا لتوحيد اوكرانيا وبيلوروسيا . وكانت هذه الانضمامات انتصاراً على العصبية القومية عند هذه الشعوب . واما جميعاً بدون تساؤل لحكمة ستالين ومجدناه لبعد نظره في حماية سلامة بلادنا . وكانت لنا ثقة

(١) كثيرون فروا حقيقة وآخرون لم يسددهم الحظ ان يفعلوا ذلك . وقدر ان اكثر من ١٧٠,٠٠٠ اعتقلوا بين وقوع الضم السوفياتي والغزو الالماني ووضعوا في الشاحنات المعدة لنقل الحيوانات ونفوا إلى سيبيريا . وكانت اللاتحة الاخيرة للنفات التي نفيت والتي شملت في الدرجة الأولى تقريباً كل من لم يكن عاملاً يدوياً أو فلاحاً أو شيوعياً متطرفاً بالشوعية قد وضعها سيروف قبل سبعة شهور من الاحتلال وحملت بالترتيب رقم ١٢٨٣ ، تاريخ ١١ تشرين الأول ١٩٣٩ . ووضعت قيد التنفيذ الاجراءات ذاتها الخاصة بالاعتقالات والترحيلات ولكن على نطاق موسع كثيراً .

(٢) بتعبير آخر يمكن ان يقال ان الحكومات السورية الالعبية التي اقامها البعث السوفياتي المطاع اندريه جدانوف كانت لدول البلطيق كما كان خروشوف (لاوكرانيا البولونية) : صدرت لها الاوامر من موسكو لان تطلب اندماج دولها في الاتحاد السوفياتي ، وقد اطاعت تلك الأوامر .

بمقدرته على جعل حدودنا منيعة ضد أي اعتداء ولم يكن بالأمر الصغير أن نوسع إلى الغرب حدود أوكرانيا السوفياتية ، وأن نفتتح طريقاً جديدة إلى بحر البلطيق . فقد كان لنا قبل ذلك منفذ ضيق فقط عبر خليج فنلندا . وكنا نعتقد أنه إذا نشبت حرب على نطاق كبير وحاولت انكلترا أو فرنسا أو ألمانيا انزال جيوشها لمحاربتنا ، فقد نختار استعمال أراضي لتوانيا أو لاتفيا أو استونيا كنقطة انطلاق . لهذا فإن ضم دول البلطيق دعم كثيراً وسائل دفاعنا . وهذا كانت له أهمية كبرى ، لأن اقتصادنا في ذلك الزمن وصناعتنا كانا ضعيفين وكنا مطوقين بقوات معادية ومتفوقة علينا من المعسكر البورجوازي الامبريالي .

حرب الشتاء مع فنلندا

ان رواية خروشوف عن حرب الشتاء الشهيرة في ١٩٣٩ - ١٩٤٠ تتفق نوعاً ما مع الحقائق الثابتة . على أن افضل واكمل بيان للمفاوضات التي حاول بها ستالين اقناع الفنلنديين بالتخلي عن جزء من كاريليا لضمان سلامة ليننغراد متوفر في كتاب فاينو تانر وعنوانه « حرب الشتاء » . وبالرغم من أن تانر كان المعارض الذي لا يلين للتوسع السوفياتي ، فقد قال بكل وضوح أن ستالين كان متردداً إلى أقصى حد في استعمال القوة ، وقد دهش حقاً عندما رفض الفنلنديون تلبية طلباته . وعندما قرر أن لا مناص من استخدام القوة توقع أن الفنلنديين سوف يستسلمون حالا . وقد هيء البلشفي الفنلندي المجوز كوزينين لتسلم مقاليد حكومة المنطقة المحتلة . وكما يعلم العالم بأسره لم تجر الأمور على هذا الشكل اذ أهدى المارشال مانرهم والفنلنديون مقاومة بأسلة وجلبوا المذلة على الجيش الأحمر وطفنوا كبرياءه .

واقضى الأمر استبدال فوروشيلوف بالمارشال تيموشكو الذي استعان بكامل ثقل الجيش الأحمر حتى سلم الفنلنديون في النهاية . وكان هذا الصمود صدمة قاسية للروس وخيبة كبرى .

وبعد الفزو النازي للاتحاد السوفياتي في حزيران ١٩٤١ ارغم الفنلنديون على الرضوخ لطلبات هتلر والقتال إلى جانب الألمان . وإن ما يقوله خروشوف عن أنه بعد هزيمة هتلر كان باستطاعة ستالين أن يأخذ فنلندا كلها ولكنه لم يفعل ، لقول صحيح وعادل .

ففنلندا ، عدا كاريليا ، لم تكن ضرورية للاتحاد السوفياتي . زد على ذلك أن الروس لا يرتاحون إلى الفنلنديين . وكانت فنلندا قد أصبحت معزولة ، بحيث أمكن تحطيمها في حال نشوب حرب كبرى في أوروبا ، بمنتهى السهولة .

مع ازدياد قلقنا واهتمامنا بحماية خطوط دفاعنا ضد الهجوم من الشمال ، نشأت قضية فنلندا . فكان علينا ان نضمن سلامة ليننغراد التي تقع في مدى القصف المدفعي من حدود فنلندا . اضيف إلى ذلك ان حكومة فنلندا كانت تسير على سياسة معادية للاتحاد السوفياتي . فهي بصورة علنية تداهن وتتملق المانيا النازية . وكان القائد الفنلندي الاعلى كارل مانرهيم جنرالاً قيصرياً في السابق ، وعدواً لدوداً للاتحاد السوفياتي (١) ، وكان فاينو تانر ديموقراطياً اشتراكياً قديماً ، غير انه بقي عدواً لدوداً لعقيدتنا الماركسية - اللينينية حتى آخر حياته (٢) . ونتيجة لذلك كانت فنلندا خطراً حقيقياً علينا لان اراضيها يمكن استعمالها من قبل حكومات اقوى منها . ولذلك كان من المعقول ، بل في الحقيقة من المحتم على الدولة السوفياتية ان تتخذ التدابير لحماية ليننغراد .

وهكذا بدأنا اولاً بمفاوضات مع فنلندا بغية التوصل إلى نوع من الاتفاق الدبلوماسي . ودارت هذه المحادثات بينما كنت انا في اوكرانيا . واردنا من الفنلنديين التخلي عن قدر معين من الارض ، وبالتالي ابعاد الحدود قليلاً عن ليننغراد . ولم نكن نحتاج لأكثر من ذلك لحماية سلامة المدينة . على ان الفنلنديين رفضوا الموافقة على شروطنا فلم يبق لنا سوى ان نقرر القضية عن طريق الحرب . وكنت كلما جئت إلى موسكو من كييف يستدعيني ستالين بصورة دائمة تقريباً إليه . فكنت احياناً اجده وحده عندما اذهب لمقابلته . وكان تبادل الآراء الصريحة معه أيسر اذا نحن كنا على انفراد . ولكن غالباً ما كان مع ستالين ، عندما ازوره ، مولوتوف وفوروشيلوف وكاغانوفيتش وبعض الاحيان جدانوف . وكان جدانوف السكرتير الاول لمنطقة ليننغراد الشيوعية . وكثيراً ما كان هنالك ايضاً ميكويان وبيريا .

-
- (١) كان المارشال فون مانرهيم رئيساً لمجلس الدفاع الفنلندي عندما كان التهديد بالحرب قائماً وكان هو المسؤول عن خط مانرهيم ، وهي التحصينات الشهيرة في عمقها والتي حاول الروس ، احكام الطوق عليها زمناً طويلاً ، على غير جدوى .
- (٢) كان فاينو تانر رئيس وزراء فنلندا من ١٩٢٦ - ١٩٢٧ . وهو الذي تولى مفاوضة الروس في ثلاث زيارات متتابعة إلى موسكو في خريف ١٩٣٩ ، في سعي للوصول إلى اتفاق مع ستالين . وصار بعد ذلك وزيراً للخارجية في حكومة حزبه ، وبالتالي الرجل العظيم الذي يدير شؤون السياسات الفنلندية . وقد كان يبيع الزعامة السوفياتية ليس فقط لانه كان مكروهاً بوصفه ديموقراطياً اشتراكياً (والشيوخ يكرهون جميع انواع الاشتراكيين الآخرين ويخافونهم أكثر من كرههم وخوفهم من المحافظين) ولكن ايضاً لانه كان يفهمهم تمام الفهم ويعرف قوتهم ومواضع ضعفهم .

وفي احد الايام عندما جئت موسكو ودعاني ستالين لتناول العشاء معه في منزله ، اخبرني ان مولوتوف وكوزنن سوف يحضران ايضاً .

وكان كوزنن حينئذ ملحقاً بالكومنترن . وعند وصولي إلى شقة ستالين في الكرملين خامرني شعور بان ستالين ومولوتوف وكوزنن كانوا يتحدثون عن فنلندا . والظاهر انهم كانوا قد قرروا فعلاً توجيه انذار نهائي إلى فنلندا . وكان قد تم الاتفاق على ان يرأس كوزنن حكومة جمهورية كاريلو - فنلندية سوفياتية جديدة . وقد كانت كاريليا حتى ذلك التاريخ جمهورية ذات استقلال ذاتي منضمة إلى الاتحاد الروسي . والآن سوف تصبح كاريليا جمهورية اتحادية . وكان الرأي الاجماعي الذي توصلوا اليه ، هو وجوب اعطاء فنلندا فرصة اخيرة لقبول طلباتنا الاقليمية التي سبق لها ان رفضتها اثناء المفاوضات المتعثرة ، فاذا لم ترضخ لانذارنا نأخذ إجراءات حربية . هذه كانت فكرة ستالين . وانا بالطبع لم اعارضه ، لانني في هذه الحالة كنت اعتقد ان هذا هو عين الصواب . وكل ما كان علينا ان نفعله هو ان نرفع صوتنا قليلاً ليؤدي الفنلنديون الطاعة . فاذا لم ينجح ذلك ، عدنا إلى اطلاق قذيفة واحدة فيرفع الفنلنديون ايديهم مستسلمين ، او ذلك ما كنا نظنه . وعند وصولي إلى الشقة كان ستالين يقول : « دعونا نبدأ العمل اليوم » .

وجلسنا حول المائدة زمناً طويلاً ، وكانت ساعة الانذار قد سبق تحديدها . وبعد انقضاء الزمن المحدد ارسل مارشال المدفعية كوليک للاشراف على قصف الحدود الفنلندية بالقنابل (١) . وانتظرنا نحن لئلا نرى ماذا سيحدث . وبدأ ستالين واثقاً ولم يكن احد منا يظن انه سوف تكون هنالك حرب . لقد كنا متأكدين ان الفنلنديين سوف يقبلون طلباتنا بدون ارغامنا إلى الدخول في حرب . واني اكرر القول ان هدفنا الوحيد كان حماية سلامتنا في الشمال . وبالمقارنة مع اراضينا ومواردنا الطبيعية الهائلة لم يكن لدى فنلندا ما تقدمه لنا الا القليل من الارض والغابات . ان الشيء الوحيد الذي كان موضع اهتمامنا هو السلامة : ان ليننغراد في خطر .

وفجأة وصلت مكالمة هاتفية تخبر بأننا اطلقنا نار مدفيعتنا فرد الفنلنديون علينا بنار مدفيعتهم . وهكذا بدأت الحرب . وكان هنالك ، بالطبع ، رواية اخرى

(١) مارشال كوليک كان جنرالاً في قوى الأمن مشهوراً ببلادته ووحشيته ، وعدم كفاءته ، وفساده . وكما ذكر خروشوف في ما بعد ، كان تمسك ستالين به سيكلف الاتحاد السوفياتي غالياً في اوائل ايام الغزو الالمانى .

للحقائق . فقد قيل ان الفنلنديين كانوا هم البادئين باطلاق النار . وهذه هي الحال دائماً عندما يبدأ الناس الحرب . انهم يقولون : « انتم اطلقتهم القذيفة الأولى ، او انت ضربتني اولاً وانا انما ارد ضربتك » . وهناك تقليد نراه احياناً في الأوبرا : يلقي احد الناس قفازه تحدياً لشخص آخر كدعوة للمبارزة ، فاذا التقط القفاز يكون معنى ذلك قبول التحدي . ربما كان ذلك في الايام الغابرة ، ولكن في زمنا الحالي ليس من الواضح دائماً من يبدأ الحرب .

هنالك بعض التساؤل عما اذا كان لنا حق قانوني او ادبي في عملنا ضد فنلندا . بالطبع لم يكن لنا اي حق قانوني . اما من الناحية الادبية فان رغبتنا الوحيدة كانت في ان نحمي انفسنا ، وهي حجة كافية لتبرير هذا العمل في نظرنا .

بعد ايام قليلة من بداية الحرب ، سافرت إلى اوكرانيا وكنت مثل اي شخص آخر واثقاً ان فائدتنا ستكون اعظم من ان تقدر ، وان نزاعنا مع فنلندا سوف يحل سريعاً بدون خسائر كثيرة تلحق بنا . ذلك ما ظنناه وذلك ما املناه . غير ان الامر اسفر عما هو مخالف لذلك كثيراً .

فقد استمرت الحرب بصلاية وعناد . وظهر ان الفنلنديين محاربون اشداء . فقد نظموا خطوط دفاعهم تنظيمًا بارعاً على طول خط مانرهيم على برزخ كاريليا ، فافسدوا علينا محاولتنا اقتحام الممر الاستراتيجي الهام . ويبدو اننا ادركنا اننا قد قضينا اكثر ما نستطيع مضغه . ووجدنا انفسنا امام تحصينات قوية مدعومة بالفولاذ ومدفعية موجهة توجيهاً فعالاً ، فلا يمكن اختراقها . وكانت خسائرننا ترتفع ارتفاعاً مخيفاً . وتقرر في الشتاء ان نتجاوز برزخ كريليا ونوجه ضربتنا من بحيرة لادوغا إلى الشمال ، حيث ينتهي وجود التحصينات . غير اننا عندما حاولنا ذلك من الخلف وجدنا اننا في وضع اكثر صعوبة من وضعنا السابق . ذلك ان الفنلنديين ، وهم من الشعوب الشمالية ومن اقدر الرياضيين ، يتعلمون التزلج حتى قبل ان يتعلموا المشي . فصادف جيشنا قوات من المتزلجين السريعي الحركة ، المسلحين ببنادق اوتوماتيكية ذات قوة عالية . فحاولنا بدورنا ان نضع قواتنا على قباقيب التزلج مثلهم ، ولكن لم يكن من السهل على جنود الجيش الاحمر العاديين غير المدربين ان يقاتلوا وهم على قباقيب التزلج . فشرعنا نجنّد رياضيين محترفين ، غير انهم كانوا قليلين ، فاضطررنا ان نجلبهم من موسكو واوكرانيا ومن ليننغراد ايضاً . وكان الجميع على ثقة تامة بان رجالنا الرياضيين سوف يعودون ظافرين . وشعروا هم بروح وثابة عالية . ولكن تعساً لاولئك المساكين ، فقد مزقوا تمزيقاً ولا اعلم كم كان عدد الذين عادوا منهم احياء .

كانت اوقاتاً رهيبة - رهيبة بسبب خسائرننا بل واكثر رهبة في المجال البعيد -- لان الالمان كانوا ينظرون بفرح غير مكتوم ، بينما كنا نتلقى ضربات الفنلنديين . وكانت قواتنا البحرية مشتبكة مع الاسطول الفنلندي . ولم يكن احد ليظن ان الفنلنديين سيفوقون في البحر . غير ان بحريتنا لم تستطع ان تفعل شيئاً ، واني اذكر انني سمعت عندما كنت عند ستالين ان واحدة من غواصاتنا لم تستطع ان تفرق سفينة سويدية تجارية واحدة كانت قد ظنت خطأ انها فنلندية . وقد راقب الالمان هذه الحادثة وهزأوا بنا بعرضهم مساعدتهم علينا قائلين : « هل حالتكم يمثل هذه الدرجة من السوء ؟ الا تستطيعون اغراق سفينة غير مسلحة . ربما تكونون في حاجة إلى مساعدة منا ؟ » وبامكان المرء ان يتصور كم كان ذلك مؤلماً لنا . لقد اراد هتلر ان يخبرنا بانه ادرك عجزنا ، فشمت بنا .

واني اذكر ان ستالين تحدث بمرارة وحزن عن مجرى الحرب فقال : « كانت الثلوج عميقة ، فيما كان جنودنا يسرون عليها ، وكان هنالك العديد من الاوكرانيين في وحدتنا . كانوا في البداية يمتلكن حماسة ويقولون : اين هم الفنلنديون ؟ دعونا نراهم ؟ وفجأة تفجرت النيران الاوتوماتيكية ، وسقط رجالنا على الارض » .

استخدم الفنلنديون هذا التكتيك للقتال في الغابات : كانوا يتسلقون اشجار السرو ويطلقون النار على رجالنا من مسافة قريبة عند مرورهم . اما هم فكانوا يخفون تحت الاغصان وقد التحفوا عباءات بيضاء فوق ملابسهم العسكرية فلا يقوى احد على رؤيتهم . وقد اطلق الاوكرانيون على الفنلنديين اسم « كوكو » بسبب الطريقة التي يخفون بها فوق الاشجار . وقد وضعت خطة خاصة لمقاتلة هؤلاء « الكوكو » ولكنها استغرقت وقتاً طويلاً كنا في اثنائه نتزف دماً كثيراً . وكان ستالين شديد الغضب والنقمة على العسكريين وعلى فوروشيلوف . وكان لغضبه هذا ما يبرره في رأبي . ذلك ان فوروشيلوف كان قد تولى منصب مفوض الشعب للدفاع مدة سنين كثيرة وكان يوصف تبجحاً بامهر قوادنا ، وذلك لحمل الشعب على الاعتقاد ان الدفاع عن البلاد في ايد قوية قادرة . وقد استحق فوروشيلوف ان يتحمل عبء اللوم كله من اجل الطريقة التي كانت تسير عليها الحرب مع فنلندا ، غير انه لم يكن هو الفريق المذنب الوحيد . فكان هو بلقي اللوم على المعلومات الخاطئة التي كانت تزوده بها دوائر الاستخبارات .

واني اذكر مرة ، حين كنت في منزل ستالين الريفي ، فاذا بستالين يقفز واقفاً وقد امتقع لون وجهه من شدة الغضب وشرع في تقريع فوروشيلوف ووصف نقائصه . وكان فوروشيلوف ايضاً في حالة غليان جنوني ، فوثب واقفاً

وقد تورد وجهه وشرع يكيل الاتهامات إلى ستالين في وجهه قائلاً : « عليك ان تلوم نفسك عن كل هذا. انك انت الذي أبدت الحرس القديم (١) وامرت باعدام افضل جنرالائنا » . فرد ستالين عليه . فالتقط فوروشيلوف طبقاً عليه خنزير مطبوخ وحطمه على المائدة . وكانت هذه هي المرة الوحيدة في حياتي التي شهدت فيها مثل هذا الانفجار . وقد انتهى الأمر باقالة فوروشيلوف من منصبه كفوض للدفاع وبقي زمناً طويلاً بعد ذلك يتجول وهو كبش الفداء (٢) .

وجاءني المارشال تيموشنكو الذي كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية وقال لي : « دعيت إلى موسكو . ولعلمهم سيرسلونني إلى الجبهة الفنلندية (٣) » . وقد عين فعلاً لقيادة القوات على برزخ كاريليا ، بدلاً من فوروشيلوف . وكان جيشنا قد تلقن درسه وتقرر ان لا يعتمد التطويق والضرب من خلف ، بل من الامام ، لتحطيم التحصينات الفنلندية على برزخ كريليا . وقد يتساءل المرء عن حق ، لماذا لم تنبع هذه الخطة من قبل وعلى أية حال فقد حشدت المدفعية اللازمة والقوات الجوية والمشاة لتنفيذ هذه الخطة ، فتهدمت المعازل الفنلندية الصغيرة تماماً امام مدفيعتنا .

وقد لعب سلاح الطيران دوره ايضاً . واني اذكر ما قاله ستالين بالحرف الواحد : « دعيت قواتنا الجوية للاشتراك في القتال وكانت المهمة التي عهد اليها بها تحطيم خطوط تموين الفنلنديين وقطع خطوط المواصلات الحديدية وقصف الجسور ومعدات النقل . وقد تم تدمير جسور كثيرة وتعطلت قطارات كثيرة ولم يبق لدى الفنلنديين سوى معدات التزلج . ويبدو ان ما لديهم من ذلك لا ينفذ ابداً » .

وطلبت فنلندا عقد هدنة . وبدأت المفاوضات فوافقنا على شروط الصلح ووقعت المعاهدة وتراجع الفنلنديون حوالي خمسة عشر كيلومتراً عن ليننغراد ، واعطونا قاعدة على شبه جزيرة هانغو .

وهكذا انتهت الحرب مع فنلندا وبدأنا بتحليل اسباب سوء استعدادنا ولماذا

-
- (١) « الحرس القديم » عبارة ترد كثيراً بمعنى الرعيل الأول من القادة .
 - (٢) انظر الملحق ٣ عن فوروشيلوف . حادث الخنزير يكشف عنه هنا لأول مرة .
 - (٣) المارشال سيون تيموشنكو كان سيمود إلى كييف بعد سحق حصون الدفاع الفنلندية وكسب الحرب . رفقته الوثيقة مع خروشوف كانت مستمر في الحرب وكذلك في السلم .

تكبدنا مثل تلك الخسائر الكبيرة . واني اميل إلى القول باننا فقدنا نحو مليون قتيل . وقد قال لي تيموشنكو ان اللوم لم يكن على دوائر الاستخبارات . والواقع اننا علمنا فيما بعد ان استخباراتنا كانت على علم تام بتحسينات الدفاع الفنلندية ، وقد رسمت مواقع المدفعية وتحصينات خط مانرهيم على خرائط استخباراتنا قبل الحرب .

وكان الخطأ ان احداً من ضباط الاستخبارات لم يستشر قبل التصميم على الشروع في الضرب . واني لا استطيع ان اتصور كيف امكن السماح بمثل هذه البلاهة . فمن القواعد الاساسية ان الاعمال العسكرية توضع على اساس دروس دقيقة للمنطقة التي تدور فيها رحى القتال ، وان الخبراء الفنيين في رسم الخطط الحربية يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع دوائر الاستخبارات . ولو اننا كنا وزعنا فقط قواتنا ضد الفنلنديين بالاسلوب الذي يستطيع ان يقوم حتى الاطفال به بمجرد النظر إلى الخارطة ، لكان الموقف غير ما كان عليه سواء من حيث مصلحة الاتحاد السوفياتي او اوضاع الفنلنديين .

ثم ان افترضنا ان حكومة فنلندا لن تتورع عن شيء وانها ستضع اراضيها بتصرف اعدائها ، قد بررته الاحداث التي وقعت في ما بعد . حتى اننا اكتشفنا ان هتلر قبل ان يغزو الاتحاد السوفياتي شرع في حشد قواته في فنلندا . وقد يقال جدلاً ان فنلندا هي التي دفعته إلى ذلك لأنها كانت نائمة علينا وارادت ان تسرد ما كانت فقدته في حرب ١٩٤٠ - ١٩٤١ ، فليكن ذلك . ولكن تبقى الحقيقة الراسخة وهي ان ليننغراد كانت في خطر واننا لم نكن نحيرين في بلجوتنا إلى الحرب لحل المشكلة .

انه لمن الخطأ القول ان ستالين بدأ الحرب وفي نيته الاستيلاء على فنلندا . وقد يسأل البعض لماذا لم نستول على فنلندا في اثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما سحق الجيش الفنلندي عن بكرة ابيه ؟ ان ستالين ابدى حكمة رجل الدولة هنا . فقد كان يعلم ان اراضي فنلندا ليست مناسبة للاحتياجات الاساسية التي تتطلبها الثورة البروليتارية العالمية . لذلك عندما وقعنا معاهدة مع الفنلنديين في اثناء الحرب العالمية الثانية ، كان مجرد انهاء الحرب اكثر فائدة لنا من الاحتلال . ان وقف فنلندا للاعمال الحربية وضع مثالا حسناً للدول الاخرى الدائرة في فلك المانيا هتلرية وادى ايضاً إلى تحسين علاقاتنا مع الشعب الفنلندي (١) .

(١) لكن الروس فرضوا ايضاً ما اعتقدوا انه تعويضات ساحقة . وبدلاً من الخضوع إلى استردار الشفقة ، بادر الفنلنديون بحزم إلى دفعها في اقصر وقت ممكن .

وقد اظهرت لنا حرب الشتاء مع فنلندا ما نحن عليه من ضعف خطير وكشفت ايضاً لهتلر مواضع ضعفنا . ولا يحتاج المرء لخيال واسع حتى يدرك ما لا بد ان يكون هتلر قد استنتجه بعد ان راقب محاولتنا ادارة رحى الحرب ضد الفنلنديين : « ان الاتحاد السوفياتي كاد ان لا يقوى على التغلب على بلاد كان باستطاعتنا ان نتخلص منها في ساعات معدودة ، فماذا كان ليقى من الروس لو اننا نحن هاجمناهم بافضل معداتنا وبحشود من خيرة جنودنا المدربين والمنظمين افضل تنظيم؟ » وبالاختصار ، كانت ادارتنا التعيسة للحرب الفنلندية خير مشجع لهتلر على خططه الحربية الصاعقة ضدنا .

كانت لنا في حربنا مع فنلندا الفرصة لان نختار الزمان والمكان . وكان عددنا يفوق عدد عدونا كثيراً . وكان لدينا كل الوقت لاعداد عملياتنا الحربية ، ومع ذلك ، وبالرغم من كل الظروف الملائمة ، لم نتمكن الا بعد شق النفس وبذل خسائر فادحة من التوصل ، في النهاية ، إلى الفوز . وان انتصاراً يكون هذا ثمنه هو في الواقع هزيمة معنوية .

ان شعبنا لم يعرف بالطبع اننا عانينا هزيمة معنوية . وذلك لان الحقيقة لم تكن تقال له قط . وعند انتهاء الحرب الفنلندية قيل للبلاد : « دقوا طبول الانتصار لسمع دويها » (١) . غير ان بذور الشك كانت قد زرعت في الأرض . فالحرب ضد الفنلنديين نزلت كلطخة سوداء في سجل جيشنا الذي كان شعاره ينم عن انه لا يقهر : « اذا كانت الحرب ستقع غداً فنحن على استعداد تام للزحف اليوم » .

الجيش الاحمر عشية برباروسا

عند البحث في سوء استعداد الجيش الاحمر ، يذل خروشوف جهداً كبيراً للاصرار على مفارقة كونه عضواً في المكتب السياسي ، لهيئة التخطيط العليا ، وجهله ، من ناحية ثانية ، بحقيقة اوضاع الجيش الاحمر ، رغم التبجح الكبير ، سواء بلهجة قيادته الضعيفة المفتقرة إلى الكفاءة ، او بلهجة النقص في تجهيزاته . مع ان كل طاقات الصناعة السوفياتية انصبت منذ اكثر من جيل على تقويته . ولكن في ضوء اسلوب ستالين في الحكم تبدو هذه المفارقة ممقولة الحصول . ذلك ان خروشوف كان متخصصاً كلياً بالحكومة المدنية في اوكرانيا ، وكان من شأنه الاعتماد على قائد جبهته الخاصة لضمان حسن

(١) هذا يدل على مقدرة الزعامة السوفياتية في اخفاء الحقيقة عن الشعب .

الدفاع عن اوكرانيا . وله ان يفترض ان ستالين وفوروشيلوف (وزير الدفاع) قد نظما الجيش وجهازه بكل ما يلزمه من اسلحة وذخائر . ولم يكن هنالك اجتماعات وزارية يستطيع فيها خروشوف مناقشة وزير الدفاع والتحقيق معه حتى ولو كان مؤهلاً ليفعل ذلك ، فضلاً عن انه لا يتمتع بمثل هذه الكفاءة اصلاً . ان اموالاً هائلة قد اغدقت على الجيش وعلى المناورات وحفلات العرض التي لها تأثير في النفوس إلى الحد الأقصى . ولكن خروشوف كان يعلم ان ستالين ويزهوف اعدا القسم الاعظم من قيادة الجيش العليا في ١٩٣٧ ، هذا فضلاً عن حوالي اربعين الفاً من صفوف الضباط . وينبغي ان يكون قد دُعر ذعراً شديداً للظهور الخفيف الذي ظهر به الجيش الأحمر في حربه ضد الفنلنديين . ويبدو ان من غير المعقول ان لا يكون قد انذر قط من قبل زميله العسكريين في كيف وهما تيموشنكو وجوكوف بان هنالك نقائص في الجيش . والحقيقة هي ان تيموشنكو ذاته وصف بأنه عدو للشعب وكاد يعدم رياً بالرصاص في ١٩٣٨ لولا تدخل خروشوف شخصياً لانقاذه .

اننا جميعاً - وستالين اولاً ، وقبل الجميع - تلمسنا في انتصارنا آثار هزيمة اوقعها بنا الفنلنديون . ولقد كانت هزيمة شديدة الخطراً لأنها شجعت اعداءنا وزادتهم رسوخاً في ايمانهم ، وهي ان الاتحاد السوفياتي نصب هائل الحجم قدماه من الطين . ولكن لا يكفي ان نعرف بهزيمتنا وان نتقذ انفسنا لسوء ادارتنا للحرب ضد فنلندا ، ولا يكفي ايضاً ان يعزل فوروشيلوف ويعين مفوض جديد للدفاع ليحل محله ، بل كان يتوجب علينا ان نستخرج من الحدث بعض الدروس للمستقبل القريب . كان علينا ان نتعمق ونتوسع في ادراك ما وقع من اخطاء في استعدادنا للحرب الفنلندية ، كما كان علينا ان نعرف ونصفي ما هنالك من نقص وخطأ في تنظيم ادى بنا إلى الهزيمة ، وان نرفع من شأن القدرة على القتال في الجيش السوفياتي . ومعنى ذلك ، فوق كل شيء ، رفع سوية القادة الذين يتولون زمام الامور في قيادة الجيش العليا .

اني لا اعلم ما الذي زاد في اضعاف جيشنا . هل هو النقص في الاسلحة والمعدات ام عدم كفاءة قوادنا العسكريين . انه لحما لا شك فيه ان هذين العاملين لهما اهمية كبيرة جداً .

فمن الناحية الاولى نرى ان الاستعراضات العسكرية والمناورات التي تجريها القوات المسلحة ، لعبت دوراً ايجابياً في رفع معنويات الشعب ، ومن الناحية الثانية ، لعبت دوراً سلبياً في انها حجبت عيوب جيشنا وضللتنا وحملتنا على الاعتقاد اننا في مأمن من الاخطار . كان علينا ان نعيد فحص حالة جيشنا وبنوع خاص الوحدات

الآلية ، بعد الحرب الفنلندية . وكان علينا ان نبدأ قبل ذلك بوقت طويل في تحويل صناعتنا لمواجهة متطلبات الحرب . اننا لم نكن نعلم طول الفترة التي تفصلنا عن هجوم العدو . ومع ذلك فقد كانت هنالك امور كثيرة لم تنجز حتى اليوم الذي بدأت فيه الحرب . وهي اوضاع لا يمكن ان تستمر على ما هي عليه . وقد دفعنا بسببها ثمناً غالياً من الارض والدماء .

ان الاستعداد للحرب يتطلب اكثر كثيراً من مجرد رسم الخرائط ووضع الخطط الاستراتيجية . ان الاساس في الاستعدادات الحربية هو انتاج الاسلحة ، وهذا يعني الطائرات والمدافع والدبابات والبنادق والاجهزة الهندسية والاسلحة الكيميائية والبكربولوجية . وبكلمة مختصرة : كل الوسائل الضرورية لصد الاعتداء وسحق العدو .

ان بعض المشكلة كان ان ستالين حاول ان يشرف منفرداً على صناعتنا للدخائر والمعدات الآلية . فكانت النتيجة ان احداً لم يكن يعلم حقيقة اوضاع التسليح عندنا . وعلى سبيل المثال اذكر ان ستالين امرني في ١٩٤١ ان انظر في امكانية تركيب محرك ديزل على طائرة . وكان من رأيه انه ما دام محرك ديزل يستهلك كمية اقل من الوقود ، فان ذلك يزيد في مدى القصف بالقنابل ، واخبرني ان محركات ديزل يجري الآن صنعها في مصانع خاركوف . وكنت انا طبعاً اعرف ذلك المصنع غير انها كانت المرة الأولى التي اسمع فيها ان محركات ديزل تصنع هناك . وكان يلزم الحصول على اذن خاص للدخول إلى المصنع . وكان ستالين قد اتخذ كل التدابير للتأكد من ان احداً غير الذين لهم علاقة مباشرة بالمشروع يسمح له بالدخول إلى المصنع والتدخل في شؤونه . حتى انا ، السكرتير الاول للجنة الاوكرانية المركزية ، لم اكن اعرف شيئاً عن محركات الديزل القوية التي كانت تصنع في خاركوف . ولم يكن لدي الوقت لاقدر ما اذا كانت هذه المحركات يمكن تركيبها على قاذفات القنابل ام لا . غير انها اثبتت انها فعالة جداً عندما جرى استعمالها على دبابات ت-٣٤ . ولكن لسوء الحظ لم يكن لدينا عدد كاف من هذه الدبابات عندما نشبت الحرب .

لقد كنا نعاني نقصاً كبيراً في الاسلحة من جميع الانواع في شهور الحرب الأولى . لقد كنت انا عضواً في المكتب السياسي واحد رجال حكومة ستالين ولكن مع ذلك لم يكن هنالك وسيلة اتمكن بواسطتها من معرفة ما نعانيه من نقص كبير في البنادق والرشاشات ، ناهيك بما يمكن ان يقال عن الدبابات والمدفعية الثقيلة . لم استطع ان اتصور انه يمكن ان نكون في مثل هذه الحالة البدائية من عدم الاستعداد . حتى القيصر عندما دخل حرباً ضد المانيا في ١٩١٤ كانت لديه من البنادق كميات

اكبر مما كان لدينا نحن في اليوم الثاني لقيام هتلر بغزوته . في حين ان امكانياتنا الاقتصادية كانت اعلى إلى حد لا يمكن ان تقارن به اقتصاديات الحكومة القيصرية . ومن هنا لم يكن لنا عذر على الاطلاق .

اني اضع اللوم الاول على فوروشيلوف . وحتى عندما اقبل من منصبه في اثناء الحرب الفنلندية ، كانت المسؤولية عن حالة قواتنا المسلحة تقع في الدرجة الأولى على عاتقه . لقد كنا رصدنا اعتمادات مالية كبيرة جداً للأسلحة ولم اسمع قط عن حادث واحد رفض فيه ستالين طلباً لاموال ترصد لهذا الغرض .

ولكن فوروشيلوف لم يتقدم بالطلبات الضرورية، واهماله هذا كان جريمة . ولا بد ان معاونيه قد رفعوا اليه التقارير عن سوء الحالة ولكن تقاريرهم كانت تمر في ذهنه كما يتزلق الماء عن ظهر البطة . لم يكن عابثاً بمسؤولياته بل كان يكفي بالابتسام امام المصورين ويتبخر امام آلات التصوير السينمائي . وكان الناس يقولون ان فوروشيلوف يمضي من الوقت في الوقوف امام آلات التصوير في استديو جيراسيموف اكثر مما يمضي في الاهتمام بعمله في مفوضية الدفاع (١) . وكان ايضاً يمضي اوقاتاً طويلة في عالم المسارح واكسب شهرة كبيرة كخبير وناقد في شؤون الاوبرا . واني اذكر انه مرة في حضوري ورد اسم احدى امنيات الاوبرا فخفضت زوجة فوروشيلوف عينها وقالت « ان كليمنت فريموفيش ليس معجباً بها كثيراً . » وكان فوروشيلوف يتخيل نفسه بانه مطرب فنان ، وكان في صباه في جوقة احدى الكنائس .

وخلاصة القول ان فوروشيلوف كان اكثر اهتماماً في اظهار شخصيته في الاحتفالات العامة من اهتمامه في الاشراف على احتياجات الجيش وتنظيمه . ويوم كان غامارنيك وتوخاشيفسكي وآخرون من اعضاء الحرس القديم على قيد الحياة ، قبل القضاء عليهم في ١٩٣٧ ، كانت الشؤون الادارية والسياسية المطلوبة من مفوضية الدفاع تدار بدون فوروشيلوف (٢) .

اما ستالين فقد كان يغالي كثيراً في تقديره لاستعدادات جيشنا . فكان مثل الكثيرين سواه واقعاً تحت سحر الافلام التي تظهر الجيش في حفلات العرض وفي المناورات ولم يكن يرى الاشياء على حقيقتها . وكان نادراً ما يغادر موسكو . وفي

(١) جيراسيموف كان رئيس اكاديمي الفنون السوفياتي ورسام بلاط ستالين . وكان اكاديمياً من اسوأ الانواع وانتهى بها .

(٢) هذا تعليق صحيح ، فان فوروشيلوف كان يستحق كل ما وجهه اليه غروشوف من نقد قاس .

الواقع نادراً ما يغادر الكرملين الا للذهاب إلى (مقره الريفي) او إلى حيث يمضي اوقات اجازاته في « سوشي » . وكان يتلقى سائر معلوماته من فوروشيلوف الذي كان هو ذاته بعيد الصلة بالحقائق .

ان اسباب ضعف قيادتنا العسكرية معروفة تماماً . فان افضل قوادنا كانوا قد ابعدوا (في حملة التطهير ١٩٣٧) بوصفهم اعداء الشعب . ومن هذه الناحية اقول ان ستالين كان ملوماً اكثر من فوروشيلوف الذي كان بعض الاحيان يدافع عن الجحريات المتهمة ويتجادل مع ستالين ، غير انه في احيان اخرى كان يحرض ستالين عليهم . وليس هنالك الكثير مما يمكن قوله عن الآخرين من اعضاء المكتب السياسي . لقد كان مولوتوف اقرب الجميع إلى ستالين في اتخاذ القرارات ، ومع ان الاشراف على القيادة العسكرية لم يكن جزءاً من واجبات مولوتوف غير انه كان ايضاً بعض الاحيان يحرض ستالين ويحاول اضرام نار نقمته على رجال الحرس القديم . على ان مولوتوف لم يكن مسؤولاً عن شؤون الاسلحة والتسلح .

ومما لا ريب فيه اننا كنا نستطيع ان نصد الغزو الفاشيستي بسهولة اكثر كثيراً لو انه لم يكن تم افناء كبار قادة الجيش الاحمر . كانوا رجالاً مجربين اصحاب خبرة واسعة . والكثيرون منهم كانوا من خريجي المدارس الحربية ، ومن اشتركوا في الحرب الاهلية . وكانوا على استعداد لاداء واجباتهم العسكرية في سبيل الوطن ، ولكن لم تنح لهم الفرصة لان يفعلوا ذلك . وبعد القضاء عليهم اضطررنا إلى تعيين سواهم لمناصب القيادة . والواقع ان هيئة اركان الحرب تعرضت لتغييرين أر ثلاثة بل اربعة تغييرات في صفوف القيادة . وكان ان رقي الذين كانوا يتولون مناصب الدرجة الثالثة والرابعة إلى المناصب العليا بعد ان تم اعدام الذين كانوا يتولون المناصب الأولى والثانية .

كان معظم الذين جرت ترقيةهم مخلصين شرفاء ولكن كانت تنقصهم الخبرة والتجربة . وكان عليهم ان يكتسبوا ذلك في الحرب مع المانيا الهتلرية . فكان ان كلفت مبادراتهم البلاد خسائر فادحة في الأرواح والاموال والممتلكات . وفي ١٩٤٠ عندما عين تيموشنكو مفوضاً للدفاع خلفه جوكوف في قيادة منطقة كييف العسكرية (١) . كان جوكوف خير خلف لسلفه تيموشنكو ،

(١) كان جوكوف في الواقع بعد العمليات الباهرة ضد اليابانيين في الشرق الأقصى قد عين رئيساً لهيئة اركان حرب تيموشنكو الذي كان قائداً لمنطقة كييف العسكرية ، قبل الحرب الفنلندية . وعندما استدعى تيموشنكو ليكون قائداً اعلى لسحق المقاومة =

اذ كان منظماً موهوباً ز قائداً قوياً . وبرهن على كفاءته في الحرب . ولا ازال احفظ له كل احترام ، بالرغم من خلافاتنا فيما بعد . فهو لم يفهم بصورة صحيحة دوره كوزير للدفاع مما حملنا على اتخاذ اجراءات ضده لمنع من السير في تنفيذ بعض الخطط التي كان قد وضعها . ولكن حتى ذلك الحين كنت اقدر مواهبه العالية كجندي ، واني لا اراجع خطوة واحدة اليوم عن تقديري العالي له كما اني لم اخف اعجابي بجوكوف بعد الحرب ، عندما خسر رضا ستالين عنه . (١)

وفي نهاية ١٩٤٠ او اوائل ١٩٤١ نقل الرفيق جوكوف من كييف إلى موسكو حيث عمل في دائرة العمليات في مقر القيادة العامة ، فحل محله في كييف كيربونوس . وكان كيربونوس من نوع القادة الحسني النية ولكن العديمي الخبرة الذين رقوا لاملأ المناصب التي خلت من جراء عملية التطهير التي تناولت القيادة العليا في الجيش الاحمر . وقد عين كيربونوس قائداً لمنطقة كييف العسكرية بمجرد انه لم يكن هناك شخص آخر يمكن اسناد هذا المنصب اليه . وقد اسندت اليه قيادة فرقة في اثناء الحرب الفنلندية التي تميز فيها واكسب لقب بطل الاتحاد السوفياتي ولكن لم يكن معداً لتحمل مسؤولية قيادة منطقة كييف (٢) .

كانت منطقة كييف العسكرية واقعة مباشرة في طريق الغزو الهتلري . وكانت تتوفر فيها افضل الشروط التوغرافية للهجوم الآلي . فالطرق كانت جيدة ولم تكن هناك مستنقعات تذكر . وكانت الصحف البورجوازية الاجنبية ، بقصد تحريض هتلر على مهاجمتنا ، قد دأبت على القول بان المنطقة بين بولونيا وكييف كانت مؤهلة طبيعياً لاجتياز الدبابات بحيث يتاح لهتلر استخدام دباباته فيها على

=الفنلندية رافقه جوكوف كرئيس اركان حربه. وعاد بعد انتهاء الحرب ليخلف تيموشكو في كييف ورتي إلى رتبة جنرال في الجيش في حزيران ١٩٤٠ وصار نائباً لوزير الدفاع ورئيساً لهيئة اركان الحرب العامة في شباط ١٩٤١ وذلك قبل اربعة اشهر من الغزو الالماني .

(١) انظر الملحق رقم ٣ عن خدمات جوكوف الاخرى .

(٢) الكولونيل جنرال كيربونوس وهو قائد فرقة ، مقتدر ، رقي إلى اعلى من رتبته نتيجة للتطهير وتسلم قيادة منطقة كييف العسكرية من جوكوف عندما عين هذا الاخير وزيراً للدفاع . وهكذا وجد نفسه بعد اربعة شهور في منطقة يتخذها الالمان طريقاً لهم في زحفهم . وتعليقات خروشوف عنه معتدلة غير انه قاتل ببسالة كبيرة . والواقع ان هذه الجبهة كانت ممتنة ومجهزة على نحو افضل من الجبهات الاخرى .

احسن وجه ممكن واظهار فعاليتها للعالم كله .

رأى ستالين في كيربونوس القائد المناسب لقطاع كييف ، سواء من ناحية امانته او اخلاصه . وكان في ذلك على حق ، غير ان كيربونوس لم يكن حائزاً على المؤهلات العسكرية والخبرة لقيادة مثل هذا العدد الكبير من الجنود وتوجيههم .

يضاف إلى ذلك ان عدم استعدادات بلادنا الدفاعية تركت اثارها السيئة على منطقة كييف العسكرية التي كان المفروض ان تحمي حدودنا المكشوفة لادهي الأخطار .

وعلى اساس ملاحظاتي الخاصة التي اعترف انها كانت قليلة نوعاً ، بدا لي ان مفوضية الدفاع بدأت تؤدي مهامها على صورة افضل منذ تولي المارشال تيموشنكو شؤونها . وكنت قد اعجبت بتيموشنكو منذ كان هو وانا نعمل معاً في منطقة كييف العسكرية حيث كان هو القائد وانا كنت عضواً في المجلس العسكري . وكان هو رجلاً طيباً وجندياً جيداً . وزادت معرفتي به في اثناء تحريرنا بسارابيا من الاحتلال الروماني في ١٩٤٠ (١) . وقد اشتركت اشراكاً فعالاً في تلك العملية التي نشأت عن معاهدتنا مع الالمان وعن رغبتنا في استرداد حقوقنا التاريخية ، التي كانت قد اغتصبها رومانيا الملكية بعد ثورة تشرين الأول . وكان تيموشنكو في هذا الوقت قد صار مفوض الشعب للدفاع . وقد رافقته مرة في رحلة بالطائرة إلى ان بلغنا بسارابيا وراء الخطوط الرومانية ليرى اقاربه في قرية فورمنكا حيث كان قد نشأ . ولم يكن قد عاد اليها منذ دعي للخدمة عند بداية الحرب العالمية الأولى . وقد هبطت الطائرة بنا في حقل على مقربة من فورمنكا ، فرحب القرويون بنا ترحيباً حاراً وعومل المارشال تيموشنكو معاملة البطل العائد إلى وطنه . وقد امضيت الليل في كوخ على مقربة من منزل شقيقه ، بينما امضى تيموشنكو الليل بطوله يشرب النبيذ ويتحدث عن الايام الماضية مع شقيقه وشقيقته واصدقائه . لقد كان تيموشنكو بالتأكيد افضل من فوروشيلوف بوصفه مفوضاً للدفاع .

وانه لمن سوء الحظ ان امثال تيموشنكو وجوكوف كانوا استثنائين غير

(١) بسارابيا صارت لروسيا في مؤتمر برلين ١٨٧٨ وانتقلت لرومانيا بعد الحرب العالمية الأولى بعد ان اعلنت استقلالها . واستعادها ستالين للاتحاد السوفياتي بمقتضى اتفاه مع هتلر في ١٩٤٠ وشرع في دمجها بالاتحاد السوفياتي .

عاديين . فبعد ابادة الحرس القديم ، جاء رجال من امثال ميخيليس وشيهادنكو وكوليك وصارت مفوضية الدفاع مثل الوجار الذي تأوي اليه الكلاب الضالة (١) .

وحدث مرة ان الرفيق تيموشنكو قادني بيده إلى احدى جلسات مجلس الدفاع . وقد ارادني ان ارى كيف كان اولئك الرجال الذين فرض عليه العمل معهم يتخاصمون فيما بينهم ويمزقون اعناق بعضهم البعض . وقد كان « ميخيليس » اسوأهم (٢) وكان له بنوع خاص تأثير قوي على ستالين . وكان كثيراً ما بتخطي حدود منصبه بوصفه رئيساً للإدارة السياسية في الجيش الاحمر . ومنذ عنه ستالين ليحل محل بوخارين محرراً لجريدة برافدا صار ميخيليس احد معتمدي ستالين الاوائل . وكنت انا في وقت ما على صلة حسنة معه . وقد نمت الصداقة في ما بيننا من جهودنا المشتركة في النضال ضد اليمينيين منذ ١٩٢٩ - ١٩٣٠ . وكان قد قدم لي مساعدات كثيرة عندما كنت سكرتيراً لمنظمة الحزب في الاكاديمية الصناعية . ولكن في السنين التالية تباعدنا . وعندما صار رئيساً للإدارة السياسية كان في نظري مغفلاً احمق .

وقد راعني ان احداً مثله يستطيع ان يحظى بثقة ستالين غير المحدودة . واطالما اعطى ميخيليس ستالين النصيح في الشؤون العسكرية وكان ستالين عادة يستمع اليه . وان نفوذ ستالين لم يعط الجيش والبلاد أي شيء حسن ، بل اسهم في اضعاف دفاعنا عشية اندلاع الحرب .

ان الفضل يعود لشعبنا وجيشنا في قدرة الصمود في وجه كوارث الحرب الأولى والبقاء إلى النهاية . لقد تلحمنا من اخطائنا واستطعنا في الأخير صد العدوان وسحقه على ارضه . ولكن باي ثمن تحقق ذلك كله ! لعله حتى لو لم يستأصل

(١) كان شيهادنكو وكوليك جنرالات «سياسة» ممتازين في عدم كفائتهم وسوء اخلاقهم . وقد عينهم فوروشيلوف وعرفا بنشاطهما الوافر في تطهير الجيش الاحمر في ١٩٣٧ . وقد رقي كوليك مارشالا في ١٩٤٠ ، وفعل كل ما بامكانه من الاخطاء لتسليم ليتنراد للامان . على ان جوكوف وصل في آخر لحظة لينقذ الموقف .

(٢) ل. ز. ميخيليس كان جنرالاً «سياً» من النوع المحب عند ستالين . ولا سبيل لمعرفة ما اذا كان قد سبب عدداً اكثر من الوفيات والآلام باعماله المتعمدة في سني التطهير وبعدها او في اثناء الحرب بسبب عدم كفائه .

ستالين افضل قادتنا ، لكانت وقعت الحرب . ولكن لم تكن لتكبدنا مثل هذا الثمن
الذي دفعناه بقيادة « ابينا العظيم ، وعبقرينا العظيم » .

الحرب الوطنية الكبرى

أهد الساعات حكا

ان وصف خروشوف لسنى الحرب ، وان يكن حافلا بالنوادر الكاشفة للوقائع واللقطات المضيئة لوجهات نظر القيادة العليا في الأعمال الحربية ، إلا أنه في الأساس يعبر عن انطباعاته الخاصة . ذلك ان اهتمامه الأول هو ، بكل وضوح ، عرض فشل ستالين وتقصيره ، وتقديم نفسه على انه رجل الجبهة العامل مع قادة الميدان بينما زملاؤه «السياسيون» جالسون في موسكو وقد تركوا القادة المقاتلين يعانون الحيات ويواجهون العقبات التي تقام في طريقهم والدسائس التي تحاك ضدهم ، فضلا عن حرمانهم من المؤن التي هم بأس الحاجة اليها .

ان خروشوف بطبيعة الحال ، كان هو ذاته من فئة «السياسيين» . غير انه بطبيعته العملية وحماسه لتنفيذ ما ينبغي تنفيذه ، وجد نفسه ، على ما يبدو ، في بيئته الجديدة اقرب الى الجنود المخترفين منه الى زملائه في موسكو : جئرات المباحث واقرانه من المستشارين السياسيين . وكان ان وقف الى جانب العسكريين ضد الكرملين . والحقيقة أنه كان طوال القسم الأكبر من الحرب ، أكثر أعضاء المكتب السياسي قرباً إلى دوي المدافع ، باستثناء جدانوف في لينغراد .

ومع تقدم الزحف الالمانى إلى داخل اوكرانيا نقل خروشوف بين عشية وضحاها من نائب ستالين وحاكم تلك الأرض ذات الثروة الهائلة التي تعتبر اهرأ الاتحاد السوفياتي في الخنطة وقاعدته الصناعية الكبرى ، إلى منصب ممثل المكتب السياسي في مقر قيادة الجبهة .

ولم تلبث تلك الجبهة أن تمزقت شر تمزيق وقاسى خروشوف مرارة مشاهدة اقليمه العظيم تكتسحه المدرعات الالمانية ، وذلك بالأكثر بسبب التقصير المشين الذي ارتكبه أحد المقربين من فوروشيلوف ، المارشال

بود يوني الذي كان من مخلفات الحرب الأهلية التي عفا عليها الزمن ، وكان يتميز بالهاجة وعدم الكفاءة . وقد قدر له أن يقود مليون رجل إلى هلاك جماعي وكارثة مؤكدة لا مبرر لها أدت إلى ضياع كيف وخاركوف . ان روايات خروشوف وتعليقاته تعطي صوراً حية لارتباك والمار والبطولة التي رافقت تلك الأيام الأولى عندما كان ستالين قد هبط إلى حالة انهيار تام ، بينما كان الالمان يمحون جيوشاً برمتها في تطويقات هائلة زاحفين على موسكو وليننغراد ومكتسحين اوكرانيا .

حين كنت انتقلد منصباً رفيعاً في الحكومة ، بوصفي السكرتير الاول للجنة المركزية ورئيس مجلس الوزراء ، حذرت رجالنا العسكريين من ان يلزموا منتهى الحذر عند تدوين مذكراتهم عن الحرب . وقد وجدت دائماً ان ليس باستطاعة المرء ان يتوقع تحليلاً ايجابياً لمعركة من شخص اشترك فيها بالفعل . على اني بوصفي عضواً في المجلس الحربي وممثلاً للمكتب السياسي على جبهات شتى في اثناء سير الحرب ، اظن ان باستطاعتي ان القي ضوءاً على ما حدث في عدد من المعارك الرئيسية .

فاسمحوا لي ان اوضح كيف بدت الحرب في نظري . وكذلك ان استعرض الادوار التي لعبها بعض الجنرالات والشخصيات الحكومية الذين كان علي التعامل معهم .

كنت في موسكو قبل نشوب الحرب واستبقيت هناك زمناً طويلاً مكتفياً بالجلوس دون ان اعمل شيئاً . وكان ستالين يقول لي دائماً : « اسمع ، لماذا هذه السرعة للعودة إلى اوكرانيا ؟ اعطي الموجودين هناك فرصة للعمل دون وجودك معهم في كيف . لا حاجة الآن للعودة » . اما انا فقد كنت لا ارى معنى لبقائي في موسكو . فلم اكن اتعلم شيئاً جديداً من ستالين ؛ لم يكن هناك سوى عشاء طويل ، الواحد تلو الآخر . وكنت قد بدأت اكره تلك المآدب واحتقرها . كانت تتيح لي فرصة مراقبة ستالين عن كذب ، ولم اكن راضياً عما كنت اراه . اذا بدا كأنما فقد كل ثقة بمقدرة جيشنا على القتال ، فرفع يديه يائساً ومستسلماً بعد ان سحق هتلر الجيش الفرنسي واحتل باريس . وقد ذكرت آنفاً اني كنت مع ستالين عندما سمعنا عن استسلام فرنسا ، فاطلق بعض اللعنات الروسية وقال بأن من المؤكد الآن ان هتلر سوف يحطم رووسنا . (١)

(١) هذا يؤيد انباء اخرى عن سلك ستالين عشية نشوب الحرب . انظر بنوع خاص «حصار ليننغراد» بقلم ا. هاريسون سالتزبوري .

ان هذا الكلام لم يكن ذا فائدة لي على الاطلاق . فواصلت محاولتي العودة إلى كييف . واخيراً سأله صراحة « ايها الرفيق ستالين ان الحرب قد تقع في اية لحظة الان وسوف يكون من اسوأ الأمور ان يقضى علي هنا في موسكو او على الطريق بعد نشوبها ، فالأفضل لي ان اعود حالا إلى كييف » .

فكان رده مؤيداً لما كنت احسبه من انتفاء اي سبب موجب لديه لاستبقائي في موسكو ، اذ قال : « نعم ، اظن هذا صحيح ، فالأوفق ان تذهب » . كان يعلم ان مكاني الصحيح هو في كييف ، غير انه احتفظ بي لمجرد انه كان في حاجة إلى رفقة ، وخصوصاً عندما يكون خائفاً .

وفي صباح اليوم التالي رجعت إلى كييف وتوجهت رأساً إلى مكتب اللجنة الاوكرانية المركزية لاسمع آخر الانباء . وفي ذلك المساء ذهبت إلى منزلي . وفي الساعة العاشرة او الحادية عشرة تلقيت دعوة من مقر القيادة للعودة إلى مكتب اللجنة المركزية لاطلع على برقية وردت من موسكو . وجاء في الدعوة انني بوصفي السكرتير الاول للحزب الاوكراني ينبغي ان اكون شخصياً على علم بمضمون تلك البرقية . فذهبت إلى مكتب اللجنة المركزية ووجدت ان البرقية الواردة من موسكو كانت سبباً للذعر اذ كانت تحذرنا وتدعونا لنكون على استعداد للحرب في غضون الايام القليلة القادمة او حتى في غضون ساعات محدودة . ثم تلقينا نداء من مخفر القيادة في «ترنوبول» (١) يبلغنا ان جندياً بلحا البنا من خطوط الالمان الامامية وزعم ان المانيا سوف تهاجم الاتحاد السوفياتي في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي . وبدا هذا النبأ مؤيداً للبرقية التي كنا قد تلقيناها من موسكو . فاستجبونا الجندي الالماني بكل دقة ، فبدا ما قاله معقولاً . وعندما سئل كيف علم بانهم سيقومون بالهجوم في اليوم التالي ، قال انه هو والجنود الآخريين قد صرفت لهم تعيينات ثلاثة ايام . وعندما قيل له لماذا سيقع الهجوم في الساعة الثالثة صباحاً قال ، لان الالمان يهاجمون دائماً في الصباح الباكر . وقال انه فر لانه شيوعي ضد الفاشيست ومن معارضي مغامرات هتلر الحربية . فحملنا ذلك على الميل إلى الايمان بصدق اقواله .

وبدلاً من العودة إلى المنزل تلك الليلة انتظرت حتى الساعة الثالثة لارى ما الذي سيحدث . وفي تلك اللحظة بالذات، وقد بدأ الفجر يشرق، تلقينا نبأ بان المدفعية الالمانية بدأت باطلاق النار . وعندما شن العدو الغزو تلقينا اوامر من موسكو بان

(١) ترنوبول إلى الشرق من لفوف . كان السوفييات قد استولوا عليها عند احتلالهم بولونيا الشرقية .

لا نرد على ناره بالمثل . واصدر قوادنا هذا الامر لانهم ظنوا ان نيران المدفعية كانت بقصد التحرش من قبل قائد الميدان الالماني وبتصرف منه بالاستقلال عن هتلر ويدون علمه . وبعبارة اخرى لقد كان ستالين في حالة من الخوف حتى انه عندما حاول الالمان اخذنا على حين غرة ومحونا من الوجود ، اقنع ستالين نفسه بان هتلر سوف يحافظ على العهد الذي اعطاه ولن يهاجمنا (١) .

ولكن في خلال ساعات تلاحقت قواتنا مع الالمان الغزاة في معركة وصدت محاولتهم الأولى . وعندما اشرق ضوء النهار تلقينا نبأ من مقر قيادة المنطقة العسكرية بان الطائرات الالمانية كانت تقرب من كييف ؛ ولم تلبث ان ظهرت فوق المدينة قاصفة المطار بقنابلها ، فنشبت الحرائق في الحظائر . ولكن لحسن الحظ لم يكن هنالك طائرات في داخلها عندئذ . وكانت طائراتنا كلها محتشدة على الحدود تحت غطاء من الشباك . ولم يلحق بقواتنا الجوية ودباباتنا ومدفيعتنا ومستودعات ذخائرننا ضرر يذكر من جراء اول هجوم قام به الاعداء .

على ان الحالة تبدلت سريعاً تبديلاً سيئاً جداً ، وذلك بالاكتر لعدم ورود مساعدة تذكر من موسكو . وبعد فترة قصيرة من بداية الحرب واثناء الزحف الالماني على كييف حدثت يقظة عظيمة من الوطنية الصادقة في اوساط الشعب . وجاء العمال من مصانع الغزل وغيرها الواقعة حول كييف إلى اللجنة المركزية بمشود كبيرة متلاحقة طالبين اعطاءهم البنادق لتمكينهم من مقاتلة الغزاة وردهم على اعقابهم . فتحدثت تلفونياً مع موسكو طالباً شحنه من الاسلحة لتسليح هؤلاء المواطنين الراغبين في الانضمام إلى الجبهة تأييداً لقوات الجيش الاحمر . غير ان الشخص الوحيد الذي استطعت الاتصال به كان مالنكوف . فقلت له : « اخبرني من اين نستطيع الحصول على بنادق ؟ لدينا هنا عمال من المصانع يريدون الانضمام إلى صفوف الجيش الاحمر لمقاتلة الالمان وليس لدينا شيء لنسلحهم به » .

فكان جوابه : « خير لك ان تقطع كل امل بالحصول على بنادق من عندنا ، فان البنادق المعدة لمنظمة الدفاع المدني قد ارسلت كلها إلى ليننغراد » .

— اذن ما هو المفترض ان نقاتل به ؟

— لا اعلم . الرماح والسيوف والاسلحة المصنوعة محلياً ، واي شيء يمكن صنعه في مصانعكم .

— هل تعني ان علينا ان نقاتل الدبابات بالحرايب ؟

(١) كان ستالين في الحقيقة منهوك القوى مغلوباً على أمره في اسابيع الحرب الأولى .

- عليكم ان تفعلوا افضل ما تستطيعون. يمكنكم صنع قنابل محرقة من قناني
الغازولين والكبروسين وقذف الدبابات بها .

وبوسع القاريء ان يتصور مبلغ فزعي وسخطي واشمئزازي عندما سمعت
مالنكوف يتحدث على هذا النحو . اننا هنا نحاول وقف الغزو بدون بنادق او
رشاشات ، ناهيك لما يفتقر اليه من المدفعية والاسلحة الآلية . على اني لم اجروء
ان اخبر احداً بما قاله لي مالنكوف . فمن يعلم اي رد فعل كان ينتج عن ذلك .
ومن المؤكد انني لم اكن لاستطيع ان اخبر الشعب بمبلغ سوء الحالة ، ولكن الشعب
لا بد ان يكون قد عرف من تلقاء ذاته كم نحن عليه من سوء التجهيز المهيّن
الداعي إلى الألم والقنوط . ولماذا نحن قد اسيء تسليحتنا ؟ السبب المداهنة في
مفوضية الدفاع وصناع المعنويات والتخاذل في الرعامة ؟ أهذا ما حرمتنا من بناء
مصانع للذخيرة ومن تحصين حدودنا ؟ والآفات الاروان وتأخرنا كثيراً في
التفكير في اصلاح هذه الاوضاع .

اما الالمان فقد تحركوا بسرعة إلى داخل اوكرانيا وبساراييا والاتحاد الروسي .
وقد حرمتنا احتلالهم لاوركرانيا من مناجمتنا ومن خيرة اراضيها الزراعية ومن
الجزء الاوروبي من الاتحاد السوفياتي حيث كانت قد تركزت صناعاتنا .
ووقع قسم كبير من السيارات التي انتجتها مصانعنا في ايدي الاعداء عندما زحف
الالمان إلى مواقع صناعاتنا الاساسية حول موسكو . وقد كانت موسكو ولينغراد
المركزين السياسيين والعسكريين والفنيين اللذين نعتمد عليهما . وفي ١٩٤١
حوصرت لينغراد وفقدنا ايضاً روستوف وفورنوزيه وستالينغراد ومناطق
القوقاس الشمالية .

ثم اضطررنا إلى اخلاء مناطقنا الصناعية . وقام شعبنا وخصوصاً المهندسون
والفنيون بعمل جبار ، اذ نقلوا معداتنا الصناعية ، إلى حيث لا يصل اليها العدو
حتى يتسنى لنا الاستمرار في انتاج الدبابات والمدفعية والاسلحة الآلية والبنادق
والرشاشات ومواصلة العمل في المناجم وما إلى ذلك . وقد تطلب كل ذلك
مجهوداً فوق طاقة البشر وتعاوناً تاماً . وفي النهاية ظهرت فائدة اخلائنا لصناعاتنا
واستطاع جيشنا ان يطرد العدو إلى خارج وطننا .

ومنذ صرنا في حالة حرب اضطررت ان ادخل في جدل مع ستالين مراراً
كثيرة ، وبالرغم من انه كان بوسع القضاة علي حرقاً او غرقاً ، الا انني حاولت
بمنتهى العناد والاصرار اقناعه بوجهة نظري . فوفقت إلى ذلك احياناً ووجدت
ان الحاحي ومتابعي له نحوله بعض الاحيان إلى مشاركتي في رؤية الاوضاع . الا

ان الجدل معه كان دوماً في منتهى الصعوبة ، بل والخطورة ايضاً . وبعد ان تكملت العمليات الحربية بالنجاح خارج موسكو ، وهي العمليات التي اشتركنا فيها ، اعني جبهتنا الجنوبية الغربية ، دعيت إلى موسكو للتشاور مع ستالين . فوجدت نفسي ازاء شخص جديد . لقد تبدلت صورته كثيراً عما كانت عليه في بداية الحرب ، اذ استجمع قواه وانتصب شامخاً واخذ يتصرف كأنه جندي حقيقي . ومما زاد في صعوبة امكان مناقشته والدخول معه في جدل انه أخذ يرى نفسه بمنظار الاستراتيجي العسكري العظيم . وأخذ يظهر تصميم القائد البطل القوي الارادة . غير انني كنت اعرف اي نوع من البسالة والبطولة كان يتميز بها ! فقد رأيت عندما كان يرتجف هلعاً من هتلر ، كما يرتجف الارنب امام الافعى الهائلة . ولم يتبدل رأيي فيه قط . وفي المرحلة الاولى من الحرب عندما كانت الاحوال تسير من سيء إلى اسوأ بالنسبة لنا ، لم يفني ان لاحظ غياب توقيع ستالين على اية وثيقة او امر اذ كانت عبارة « القيادة العليا » او « هيئة اركان الحرب العامة » او اية عبارة اخرى من هذا النوع هي التي تعتمد بدلا من ايراد اسمه الذي اختفى كلياً . وهذا الاسلوب لم يتبدل حتى بعد ان وقفنا إلى صد الالمان وطردهم من موسكو . وبدأ ستالين يستعيد ثقته وطمأننته وظلت التوجيهات والاوامر تصدر منه بدون توقيع . وقد ظهرت احيانا بلقبه « القائد العام » ، ولكنها لم تصدر قط باسمه . ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة ، فلم يكن شيء مما يفعله ستالين صدفة ، بل كانت كل حركة يبدئها مقصودة ومدروسة ، وكل خطوة يخطوها ، سواء الصالح منها او الطالح ، تقاس بكل دقة وعناية .

وهاكم مثالا آخر على رفض ستالين تحمل مسؤولية مباشرة عما كان يحدث على جبهة القتال . ان كثيرين من الجنرالات الذين اسروا اثناء الزحف الالماني وصموا ، في الاوامر التي كان يصدرها ستالين بأنهم خونة . وارسلت عائلاتهم إلى سيبيريا . واني لاذكر ان هذه المعاملة قد طبقت على مازيشنكو وبوندلين ، وعلى بوتابوف ايضاً ولم يسمح لهؤلاء بالعودة الا بعد وفاة ستالين . واسندت إلى مازيشنكو وبوندلين وبوتابوف مناصب في الجيش الاحمر بعد عودتهم من معسكرات الاسرى ، واعيد لهم اعتبارهم . وخلاصة القول ان ستالين كان يعامل جنرالاته معاملة سيئة جداً (١) .

(١) ان الجنرالات الثلاثة المذكورين كانوا يتولون قيادة القوات الالية (القوات المدرعة والدبابات) ، وهم الماجور جنرال م.ل. بوتابوف واثيوتان جنرال ا.ن. موزيشنكو والماجور جنرال ب.ج. بوندلين الذي كانت قواته =

ولم تكن معاملته لافراد الجنود وصغار الضباط افضل من ذلك . واني لاذكر قائداً اسمه غوردوف لطالما امتدح لمهارته ونشاطه . وكان رجلاً سقيماً صغير الهامة ، ولكن ذلك لم يمنعه من ضرب ضباطه وجنوده بصورة مستمرة .

ورجعت بعد ذلك ان اندريه ايفانوفتش يرمنكو ضرب مرة عضواً في المجلس العسكري . وكان ذلك مقبولا تماماً بل ومنتظراً من القائد لتأديب معاونيه بقبضة يده . (١) وعندما كان احد القادة يبلغ ستالين عن عدم كفاءة احد الاشخاص او ينقل اليه صورة عن اخطاء ارتكبها ، كان ستالين يتهره سائلاً : « هل صفحته على فمه ؟ اذا كرر ذلك مرة اخرى اصفعه حالا على فمه » . وكان هنالك شيء آخر استوجب حزني والمني من ستالين ، وذلك اعتماده على « التشيكا » في اعمال الاستخبارات العسكرية .

وكان رجال « التشيكا » (المباحث) الحائزون على ثقة ستالين خسيسين جذيرين بكثير من الازدراء والتحقير . ولناخذ سيرجينكو مثالا لهم ، فقد كان في الادارة المركزية لامن الدولة في موسكو وكان رجلاً واسع الحيلة كثير الدهاء . وعلمت بالاختبار انه كان ايضاً غير امين ومخادع . وحدث ما يلي : في اوائل الحرب عندما كانت الأمور تسير سيئاً سيئاً ، لم يكن امامنا ، القائد وانا ، الا ان نختار نقل مقر القيادة من كييف إلى بروفاري .

وفجأة تلقيت برقية من ستالين يتهمني فيها ظلماً بالجن والخذل ويهدد باتخاذ اجراءات ضدي . فقد اتهمني بالعزم على تسليم كييف ، وتلك كانت كذبة قدرة ، وكنت متأكداً من ان الشخص الوحيد الذي زرع ذلك الظن في ذهن ستالين لم يكن سوى ذلك النذل سيرجينكو . وكنت اعلم ان ستالين يعتبر سيرجينكو شخصاً فوق الشبهات ، ويؤمن بكل ما يقوله له . وكان سيرجينكو

= بين تلك التي كانت تتحمل عبء هجوم دبابات كليست وريخشنو وقد قاتلوا قتالاً مجيداً ، ولكن شردوا بكرات معاكسة لا فائدة منها قام بها كيربونوس . وكانت معاملة ستالين لعائلات هؤلاء الضباط الذين اسروا تدل على خصاله .

(١) ومن خصاله ايضاً أنه كان شخصياً يستعمل في أغلب الأحيان العنف إلى حد اطلاق النار حالا من قبل كبار الضباط على صغارهم الذين يرتكبون خطأ لا سيما في الأيام الأولى من الحرب . وذلك عندما كان المقربون من ستالين وبيريا ما زالوا يقتلون القيادات العليا . وحتى جوكونف كان بالغ القوة . وفي تاريخ لاحق بعد أن شفي الجيش من التطهيرات أخذ يتولى القيادات فيه بشكل متزايد ضباط اكفاء مجربون أدخلوا عليه تقاليد أكثر تمدناً .

حينذاك وراء الخطوط الألمانية . وقد بقي وراء قوات العدو عندما طوق الألمان كييف وتسلل مخترقاً الحصار متكرراً بثياب امرأة .

وبعد هذا الحادث صرت دائماً أنظر إلى سيرجينكو هذا بحذر وعدم الثقة ، لعلمي بأنه اهل لا ابتكار اية فرية اذا ما رأى أنها تجعله يظهر بمظهر البطولة ، ولو كان ذلك على حساب شخص آخر (١) . غير ان التاريخ حكم ببراءتي من اتهام سيرجينكو الاقترافي لي بالتخطيط لتسليم كييف ، اذ انزلنا في الواقع خسائر فادحة بالألمان وصدينا محاولتهم الياسة ، ورديتاهم على اعقابهم . اما سقوط كييف في ما بعد فلم يتسبب عن تخلي قواتنا عن الدفاع عنها ، بل عن حركة الكماشة التي قام بها الألمان بتطويقها من الشمال والجنوب في منطقتي كومل وكريمشوغ . ومن احط حاشية ستالين اذكر شيرباكوف (٢) . فهو افعى راقطة تنفث سما . وقد سمعت مرة انه عندما كان غوركي رئيساً لاتحاد المؤلفين كان شيرباكوف ملحقاً به بصفة سكرتير لمعالجة الشؤون العقائدية وذلك لتسكين غوركي من التفرغ للقضايا العملية . ولم يكن غوركي من الاشخاص الذين يستطيع امثال شيرباكوف السيطرة عليهم ، فانهى الامر بنقله تلبية لطلب غوركي . واني اذكر واقعة كانت من خصال شيرباكوف وستالين وقد حدثت في ١٩٤٣ . وتفصيلها ان الكسندر بروفيش دوفزينكو ، مدير الافلام السينمائية الشهير والصحافي الممتاز ، وضع « سيناريو » لفيلم عنوانه « اوكرانيا في اللهب » ، وكانت اكثر المشاهد موضوعة على اساس مقال كان قد كتبه فاضحاً فيه نقائص الجيش الاحمر وانتقد فيه وباسلوبه اللاذع الاشخاص المسؤولين عن عدم اعداد جيشنا عشية نشوب الحرب . وبعث بالسيناريو إلى اللجنة المركزية ، فقرأه مالنكوف وبعض الرفاق الآخرين . وفي أثناء احدى زياراتي لموسكو سألتني

(١) لا يعرف الشيء الكثير عن سيرجينكو . على انه يبدو انه كان « ميخليس » آخر ولكن أدنى طبقة . وكانت الادارة العليا في تلك الايام دائرة من دوائر المباحث يرئسها بيريا . وكانت تصرفاته كما وصفت هنا مميزة جنرالات الشرطة والمفوضين السياسيين العاملين مع الجيش .

(٢) شيرباكوف عضو المكتب العالي ومن كبار رجال الحزب في موسكو ورئيس المديرية العالية التابعة للقوات المسلحة وهو رجل بدين ضخم الهامة مخادع وسكير . كان مقرباً جداً من ستالين ، وفي أثناء الحرب كان الكثيرون يعتقدون أنه يرجع أن يكون خليفة ستالين . وقد توفي في ١٩٤٥ ، وقيل انه كان أحد الذين سم لهم أطباء الكرملين في مؤامرة الاطباء عام ١٩٥٣ . وهو ربما يكون قد مات مسوماً ولكن ليس بيد الدكتور فينوغرادوف وزملائه .

ستالين اذا كنت قرأته ، فكان ردي على سؤاله « نعم ، قرأته » . والواقع انني لم اكن قد جلست لاقراءه غير ان دوفزينكو كان قد قرأه علي اثناء الهجوم الالماني في شهر تموز ١٩٤٣ . وبالطبع كان اكثر اهتمامي منصرفاً إلى هجوم الاعداء فلم يكن باستطاعتي ان اجمع افكاري على حرفية نص كتاب دوفزينكو . واوضحت ذلك لستالين ، فقال انني احاول المراوغة للتملص من مسؤوليتي عما حدث . وانطلق في شجب دوفزينكو وصب لعناته عليه متقدماً كل صفاته منهما اياه بالقومية الاوكرانية وبجميع انواع الرذائل والموبقات . وقد كان في ذلك الزمن من المؤلف جداً ، بل الشائع ، اتهام الاوكرانيين بالقومية الاوكرانية ، سواء اكان هنالك دليل على ذلك ، او لم يكن . وكان هذا الاسلوب قد اصبح معتمداً اثناء عهد كاغانوفيتش في اوكرانيا ، وهو الذي كان مولعاً بالقول ان كل شخص من الاوكرانيين هو من دعاة القومية الاوكرانية . وذلك ، بالطبع ، لا صحة له على الاطلاق .

وعلى اية حال ، فقد دعا ستالين إلى عقد اجتماع للبحث في ذلك السيناريو الذي وضعه دوفزينكو . وكان ان تولى شيرباكوف عرض وجهة نظر الادعاء واخذ يحاول اثارة نقمة ستالين على دوفزينكو بالضرب على وتر الاتهام بان السيناريو متطرف في تمثيل روح القومية الاوكرانية . وظل مالنكوف ملتزماً الصمت اثناء سير المناقشة ، بالرغم من انه كان قد سبق له ان وافق على الفيلم . اما ستالين فلم يشأ ان يترك الموضوع عند ذلك الحد ، بل طلب إلي ان ادعو إلى عقد اجتماع للحزب الاوكراني وكبار رجال الحكومة بما فيهم امعاء سر اللجنة المركزية الذين يتولون شؤون الدعاوة، وطلب اليانا ان نعد قراراً بالنقد الذاتي حول سوء الحالة على الجبهة العقائدية في اوكرانيا . ثم دعا دوفزينكو شخصياً إلى حضور الاجتماع ووجه اليه تأنيباً قاسياً . ثم أمر بتجميد نشاط دوفزينكو الفني لمدة طويلة . وهذه القضية المعيبة بكاملها كانت نتيجة لتدبير شيرباكوف الذي كان قد شق طريقاً إلى التمتع بثقة ستالين ، واضعاً نصب عينيه جعل الحياة مليئة بالتعاسة لكل شخص سواه .

قد يبدو انني اقول كل هذا وانا مسير بضغينة خاصة اضمهرها ضد شيرباكوف . ليس هذا صحيحاً . فقد اعطيت شيرباكوف ما استحقه من التقدير وهو جدير بما هو اسوأ من ذلك . غير ان المذنب الرئيسي هو ستالين الذي يسمح ان يكون لمثل شيرباكوف مثل هذا النفوذ الشديد الخطر .

واني اود الآن ان اقول شيئاً عن عدد قليل من القواد الذين عرفتهم في اثناء الحرب . فقد امضيت الكثير من الوقت في صحبة عدد كبير من الجنرالات .

وكانت لي علاقات ممتازة مع الاكثريّة الساحقة منهم . كانت بالطبع تنبت خلافات طارئة ، اذ ان قدراً معيناً من التوتر لا سبيل إلى تفاديه يقع في زمن الحرب . فالاشخاص يرتكبون الاغلاط او يفقدون السيطرة على طباعهم . وانا شخصياً لست قديساً ، ولكن استطيت ان اقول بصورة عامة انني ، اعجبت بالرجال الذين عملت معهم على مختلف الجبهات . فقد كنا دائماً نجد لغة مشتركة للتفاهم في ما بيننا . كانت تنشأ خلافات احياناً ، ولكنني سوف لا اخوض في ذلك هنا . لقد انتهت الحرب منذ زمن بعيد وتم سحق العدو ، وكثيرون من القواد المشار اليهم منحوا اوسمة وتقاعدوا مكرمين ، فلا فائدة من نشر الغسيل القذر .

على اني قبل التحدث عن القواد الذين تميزوا بمواقفهم في الحرب ، اود ان اقول بعض الشيء عن بافلوف الذي وجه اليه اللوم عن انهيار المقاومة في بيلوروسيا في بداية الحرب (١) . فقد كانت دوماً تخامرني الشكوك حول بافلوف حتى قبل ان تسند اليه القيادة البيلوروسية . واني لاذكر مراقبي له في ١٩٤٠ ، عندما كان قائداً لقوات دبابتنا المدرعة وهو يجرب دبابتنا الحديثة طراز ت - ٣٤ في خاركوف .

واستناداً إلى حديث قصير جرى لي معه قررت في ضوءه انه رجل ضيق الآفاق كثيراً . ورغم انه كان من ابطال الحرب الاسبانية الا انه بدا لي غير موهل لتولي مسؤولية كبرى . فقررت ان انقل إلى ستالين شكوكي في كفاءات بافلوف فطرقت الموضوع بمتى الخذر قائلاً :

ايها الرفيق ستالين ، هل تعرف بافلوف جيداً ؟

— نعم اعرفه جيداً جداً .

— اما انا فقد تحدثت معه دقائق قليلة ، غير اني اقول صراحة انه ترك انطباعاً سلبياً عندي ، وبدا لي بانه محدود الافق . ليس هنالك من شك في انه يعرف

(١) كان الجنرال بافلوف يعتبر أكبر خير سوفياتي في الدبابات عند بداية الحرب . غير انه ارتكب الاخطاء ذاتها حول الدبابات التي ارتكبها كثيرون من الجنرالات البريطانيين . فهو لم يكن يعتقد ان المستطاع استعمالها بالسرعة التي اظهر الالمان ان بالا مكان استعمالها في تشكيلات مدرعة تشق طريقها مسافات بعيدة في أراضي العدو . وكان يرى ان استعمال الدبابات هو لدعم المشاة . فكان ذلك سبباً في الخسائر الرهيبة التي لحقت بالمدرعات السوفياتية دون جدوى في الأيام الاولى من الحرب . وكان بافلوف قائداً لجبهة بيلوروسيا التي افتقرت إلى الجنود والمؤن وانهارت في الحال .

كيف يستعمل الدبابة ، ولكنني لا اظن انه الشخص الملائم لتولي القيادة .
وبدا التوتر على ستالين وقال : كيف تستطيع ان تقول هذا ؟ انك تكاد لا
تعرف الرجل .

— سبق لي واعترفت بانني لا اعرفه جيداً .
— حسناً ، اما انا فأعرفه . وقد اثبت لي جدارته كفائد للدبابات في اسبانيا .
— كل ما اردت هو اعلامك بانه لم يترك انطباعاً حسناً في نفسي . واني اريد
ايضاً ان انقل اليك بعض شكوكي حول المارشال كولييك ، فهو مسؤول عن كل
مدفيعتنا والحرب قريبة الوقوع وانا لا اظن انه كفؤ لتلك المهمة .
وهنا احتاج ستالين وقال :

— شكوت اولاً من بافلوف ، والان انت تشكو من كولييك ، وانت
لا تعرفه جيداً ايضاً . اني اعرف كولييك من الحرب الاهلية عندما تولى قيادة
المدفعية في تسارتسين (ستالينغراد) وهو يفهم المدفعية .
— ايها الرفيق ستالين ، اني لا اشك في ان كولييك كان ضابط مدفعية جيد
في تسارتسين ، ولكن كم كان عدد المدافع التي عندك هناك ؟ اثنان او ثلاثة ؟
والان هو مسؤول عن كل المدفعية التي في البلاد .

فخرج ستالين كلياً عن طوره وقال لي ان اخرس واتوقف عن التدخل في
ما لا يعني . وذلك هو ما كنت اخشى وقوعه . فان ستالين كان يعتقد ان
الجيش الاحمر هو « طفله » ولا يملك سواه صلاحية التعليق عليه . على ان
الاحداث اثبتت خطأ ستالين وصحة ما ذهبت اليه في صدد بافلوف وكولييك .
وقد عين ستالين بافلوف قائداً لمنطقة بيلوروسيا العسكرية ولم اعلم حتى
بهذا التعيين الا بعد وقوعه ، جرياً على عادة ستالين الذي لم يكن يزجج نفسه حتى
بالشاور مع اعضاء المكتب السياسي . وهكذا عهد إلى بافلوف بالمنطقة العسكرية
الواقعة تماماً على خط الهجوم من الغرب ، فلم يفعل شيئاً لاعداد قواته لمواجهة
غزو هتلر . ففي الايام الاولى من الحرب منيت قواته بهزيمة منكرة وحطم
سلاحه الجوي على مدرجائه فقضى ستالين بمحاكمة بافلوف ورئيس اركان حربه
والعضو المحلي في المجلس الحربي امام المجلس العسكري واعدامهم رمياً
بالرصاص . وينبغي ان يكون ستالين قد ادرك اي خطأ ارتكب باسناد القيادة
البيلورسية إلى بافلوف ، ولكن بعد فوات الاوان . فالجبهة قد انهارت والامان
كانوا يتقدمون بعيداً في بلادنا .

اما كولييك فقد برهن عن افتقاره كلياً لكفاءات القائد الحربي ، واني
لاذكر اننا في ١٩٤٣ أصغينا ، انا وفاتوتين ، إلى التقرير الذي رفعه كولييك إلى

شيلوف العضو في المجلس الحزبي عن جبهة « فورنوزيه » آنذاك . وكان ذلك التقرير مهزلة مضحكة تماماً . وفي النهاية ، بناء على الحاحنا ، رضى ستالين وانزل كوليك من رتبة مارشال إلى رتبة ماجور جنرال . وبعد الحرب اعتقل كوليك واعدم رمياً بالرصاص .

وبعد سنين كثيرة ، عندما فضحت اساءات ستالين في المؤتمر الحزبي العشرين تقرر اعادة الاعتبار لبافلوف والجنرالات الآخرين الذين كانوا قد حوكموا امام المجلس العسكري واعدموا في ايام الحرب الأولى . وابدت انا بعض التحفظات حول اعادة اعتبارهم ، لاني كنت مطلعاً على الاسباب المشروعة لمحاكمة بافلوف والآخرين . غير انني كنت اعلم ايضاً ان ستالين هو المذنب الحقيقي لانه هو الذي اسند إلى رجال مثل بافلوف القيادات التي تولوا . لذلك فاني لم استعمل نفوذي لمنع اعادة الاعتبار لهم .

وشاهدت جوكونف مراراً في اوائل الحرب ، وكنت دائماً اشعر بسرور عندما كان يجيء بطريق الجو لتسلم القيادة من كيربونوس . وحدث مرة بعد ان امضى معنا يومين ان تلقى دعوة من ستالين يأمره فيها بترك كل مهامه والعودة فوراً إلى موسكو . وعندما تلقى هذا الامر قال لنا : « حسن ، اخشى ان يكون قائدكم هنا ضعيفاً نوعاً ، ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟ لا يوجد من هو أفضل منه فعلياً اذن ان نقدم للرفيق كيربونوس كل تأييد نستطيعه ونأمل بحدوث الافضل » . وكان جوكونف على حق ركنت مخلصاً عندما قلت لجوكونف كم انا آسف لذهابه .

لم تكن ترجى من الآتين إلى الجبهة من موسكو في اوائل الحرب يد العون ، ولا كانوا مثل جوكونف موضع ترحيبنا . واني اضرب مثلاً على ذلك المارشال بودويوني (١) الذي ارسل الينا من موسكو عندما كان الالمان يطبقون على كييف . وقد حضرت الجلسة بينما كان رئيس قسم عملياتنا الحربية الكولونيل باغراميان (٢)

-
- (١) س.م. بودويوني ، السرجنت ماجور سابقاً من فرقة الفرسان العنصرية الذي صار صديقاً خاصاً لستالين واطلق اسمه على قبعة الجيش الاحمر المزلية . كان جريئاً جداً وشجاعاً وسكيراً وغير كفؤ . فلم يفقد كيف فقط بل فعل أشياء ، أدت إلى تطويق عدد كبير من الجنود الروس وضباطهم .
- (٢) ا.ك. باغراميان الذي بدأ حياته ضابطاً وسيماً في الجيش القيصري وقد قاتل ضد الجيش الاحمر في الحرب الأهلية ، وخدم بعض الوقت في الحرب العالمية الثانية رئيساً لاركان حرب تيموشكو . ورفقي في وقت لاحق إلى رتبة مارشال .

يبلغ بودويوني عن الحالة العامة التي كانت تبدو حينئذ كالحلة . واني لا اذكر تماماً ما الذي قيل فان البحث كله دار في اصطلاحات عسكرية ، غير انني اذكر كيف كانت نهاية الحديث . فان بودويوني قال لباغراميان بصوت مرتفع الثبرات : « لقد اصغيت إلى ما كنت تقوله ، ويبدو لي انك لا تسيطر حتى على جنودك وليس لك معرفة بهم ، واظن ان من الافضل ان تعدم رمياً بالرصاص » .

فرد عليه باغراميان قائلاً : « سميون ميخايلوفيتش لماذا اعدم ؟ اذا لم اكن لائقاً لتولي رئاسة قسم العمليات ، اذن اعطني فرقة لاتولي قيادتها . فإني غرض نحقق من وراء اعدائي ؟ »

وقد ابى بودويوني ان يسمع شيئاً عن مجرد نقل او تتريل واصر بصلافة على حمل باغراميان لان يوافق على انه يجب ان يعدم رمياً بالرصاص . وبالطبع لم يكن باغراميان مستعداً لان يوافق على شيء كهذا .

وينبغي ان لا يغرب عن الذهن ان هذا الحديث « الودي » جرى بعد عشاء شهي وكية كبيرة من البراندي . وعلى الرغم من هذه الظروف اللطيفة كنت ما زلت مشمئزاً . فانه لمن الفظاعة ان يتصرف ممثل القيادة العليا ، بودويوني ، على هذا النحو ازاء جندي صالح مثل باغراميان . انه دون ريب لم يكن بتصرفه هذا يساعد على حل اية مشكلة من المشكلات الخطيرة التي كنا نواجهها . واحوالنا لم تتحسن بعد وصول بودويوني كما انها لم تزد سوءاً بعد ذهابه .

من حسن الطالع ان تهديدات بودويوني لم تؤد الى شيء . فان ايفان خريستوفوروفيتش باغراميان لا يزال حياً وبصحة جيدة - واتمى له ان يعيش الف سنة اخرى ، فقد كان دائماً رجلاً مهذباً وجندياً صالحاً . وقد عهد اليه بعد ذلك بقطاعات رئيسية في الجبهة .

وينبغي لي ان اخبركم عن علاقتي بفلاسوف الذي انقلب في ما بعد إلى خائن للوطن . وكان قبل الحرب قد تولى قيادة الفرقة التاسعة عشرة الباسلة التي دون التاريخ انها اول فرقة في الحرب العالمية الثانية منحت وسام الراية الحمراء . وقد كان موضع الاحترام كرجل صالح وكقائد عظيم الكفاءة . وعندما كان كبير بونوس وانا نبحث عن قائد يتولى قيادة الجيش السابع والثلاثين الذي شكلناه للدفاع عن كييف اوصى قسم الملاك الشخصي في منطقة كييف العسكرية بان نعين فلاسوف لهذا المنصب ، فقررت ان اتحقق منه بالبحث مع موسكو . وقد كنا في ذلك الحين لا نزال نعيش تحت وطأة الشبهات بان اعداء الشعب موجودون في كل مكان ، وخصوصاً بين العسكريين . لذلك اردت ان اتأكد ان بإمكاننا ان نولي فلاسوف ثقتنا ونعهد اليه باختيار معاونيه للجيش السابع والثلاثين والدفاع

عن كيف .

وعلى ذلك فقد زرت مالتكوف الذي كان متولياً شؤون الملاك الشخصي في اللجنة المركزية . وبالطبع لم اكن اتوقع انه شخصياً يعرف شيئاً عن فلاسوف بل ظننت ان باستطاعته ان يعهد إلى بعض رجاله باستقصاء المعلومات عنه .

وعندما اتصلت بمالتكوف على التلفون أسأله عن مثل هذه المعلومات اجاب : « انك لا تستطيع ان تتصور الحالة هنا فان كل عملياتنا قد توقفت ، وليس لدي من يستقصي اية معلومات عن فلاسوف فعليك ان تدبر الامر بنفسك ، وتتخذ على عاتقك المسؤولية الكاملة عما تقرر » .

وهكذا كان علي ان اعتمد فقط على توصيات بعض العسكريين . ثم قررت انا وكيربونوس ، ان نسير قدماً في تعيين فلاسوف لتولي القيادة . فتسلمها بحزم وفعالية وجمع جيشه من الوحدات التي كانت آخذة بالتراجع من الجبهة الامامية او التي استطاعت ان تخترق الطوق الالمانى المضروب حولها وبرهن على حكمة اختياره للقيادة . وكان دائماً يحتفظ بالهدوء ورباطة الجأش تحت النار . واوجد قيادة حازمة وعاقلة للدفاع عن كيف وادى واجبه كاملاً وحال دون تمكن الالمان من الاستيلاء على كيف عن طريق هجوم مواجه . وعندما سقطت كيف في النهاية ، كان ذلك سببه حركة التطويق وحشد قوات المانية كبيرة إلى الشرق . ولم يكن ذلك لان فلاسوف لم يدافع عنها دفاعاً قوياً صامداً .

واخترق فلاسوف الطوق المضروب حول قواته والنحق بخطوطنا مشياً على الاقدام . وامر ستالين بان ينقل جواً إلى موسكو . وظننت لأول وهلة ان القيادة العامة كان لديها شيء من الأدلة ضده واستدعته للتحقيق معه . غير اننا علمنا في ما بعد انه استدعي إلى موسكو لكي يقلد وساماً مكافأة له . وتولى ستالين شخصياً كبل المديح له وولاه قيادة هجومنا المضاد على الالمان خارج موسكو . وقد ميز فلاسوف ذاته مرة اخرى ، فعهد اليه ستالين بالمهمة الحرجة للدفاع عن قطاع فالداي على خطوطنا الامامية . ووقع فلاسوف مرة اخرى في طوق ضربه حوله الاعداء ، فاستطاع ايضاً ان يخترق الحصار ويعود إلى خطوطنا . وفكر ستالين حتى في وضع فلاسوف قائداً لجبهة ستالينغراد . واني لاذكر قول ستالين لي مرة بحضور شهود انه لو كان فلاسوف حراً لكان اسند اليه قيادة ستالينغراد مفضلاً اياه على بريمنكو .

وعندما تحول فلاسوف خائناً استدعاني ستالين وذكروني ، بلهجة اللوم ، بانني كنت انا الذي اوصى بترقيته قائداً للجيش السابع والثلاثين . فكان ردي عليه انني اقتصررت على تذكره انه هو الذي اسند الى فلاسوف قيادة

المهجوم المعاكس من موسكو ، وانه ذهب حتى إلى التفكير بجعل فلاسوف قائداً بلعبة ستالينغراد . فاكفى ستالين بالتخلي عن الموضوع ، ولم يعد إلى اثارته مرة اخرى .

كانت قضية فلاسوف بالطبع جرعة مرة تجرعتها انا وستالين ايضاً . وكان من المتعذر ان ندرك كيف ان رجلاً اظهر مثل ذلك الاخلاص والسمالة والمهارة واكسب كل ذلك الاحترام والتقدير استطاع ان يخون بلاده . ان فلاسوف ينبغي ان يكون صاحب اخلاق غير مستقرة على الاطلاق ليتمكن من السماح لنفسه بان يصير عميلاً للامان . كان المفترض انه شيوعي ، ولكنه لم يكن على ما يبدو صاحب عقيدة صحيحة على الاطلاق . وهو في الحياة المدنية كان معلم مدرسة ، ولم يكن في الظاهر رديئاً . وفي السنين الاولى كان يبدو بكل تأكيد مخلصاً للدولة السوفياتية وربما كان بالطبع مدفوعاً بالرغبة في الارتقاء عندما انخرط في سلك الهندية ، وربما كان يأمل ان يحرز مركزاً مريحاً عن طريق التوصل لان يكون موظفاً حزبياً . وانه لمن سوء الحظ ان يكون عندنا هذا النوع من الطامعين بالوظائف في الماضي ، واني اخشى ان يكونوا قد باتوا اكثر عدداً في هذه الايام . اما فلاسوف فقد كان بالطبع مجرماً اذ ارتكب ما يتجاوز الطموح لايجاد عمل . كان خائناً وتلك جريمة من نوع يختلف اختلافاً تاماً عن جريمة الطموح لتكوين المستقبل .

وقد نال العقاب الذي استحقه ، اذ حوكم واعدم شنقاً (١) .

(١) الكولونيل جنرال ا. ا. فلاسوف أحد المع واكفاً الجليل الجديد من القواد السوفياتيين. قد أدى أعمالاً مدهشة في سنة الحرب الأولى وتخلص مراراً عديدة بفضل شجاعته من تطويق الألمان له . كان شخصية أسطورية وجندياً موهوباً ممتازاً بذكائه . حملته القرف واثاره ما شاهده من الفساد والفساظة وعدم الكفاءة من ستالين ومحيطه فسمح لنفسه بأن يقع في يد الألمان في ربيع ١٩٤٢ عندما واجه تطويقاً في آخر حركة هجوم لم يحسن تدبيرها والاستعداد لها على نهر فولجوف ، فبدا له حينذاك ان أمل روسيا الوحيد هو في انتصار الألمان عليها وتحطيم نظام الحكم القائم فيها. ففرض ان يحول العدد الكبير من الاسرى الروس إلى جيش مقاتل وان يتولى قيادتهم إلى جانب الألمان. غير ان هتلر لم يتهمز تلك الفرصة فلم يقيم جيش فلاسوف بشيء يذكر. وكان فلاسوف ناقماً يائساً ، فلم يدرك حتى فات الاوان انه لا أمل في خلاص روسيا على أيدي الألمان. وكان أبعد ما يكون عن الانتهازية. وعندما هزمت ألمانيا كان اعدامه امراً محتوماً بصفته خائناً .

كارثة خاركوف

في ربيع عام ١٩٤٢ ، كان قد تم توقف الالمان في ضواحي لينتفرد وصدوا على أعقابهم في آخر ساعة أمام موسكو . فقرر الروس القيام بهجوم مثلث الاتجاهات في اوكرانيا . وكانت خطة ذلك الهجوم الرئيسية تقضي بأن يقوم تيموشنكو بهجوم على خاركوف . غير ان ذلك الهجوم تحول إلى كارثة لا حد لها أصابت الجيش الأحمر . وكان خروشوف في مقر قيادة تيموشنكو متورطاً إلى درجة قصوى في التخطيط للهجوم وتنفيذه . من هنا كان فشله صدمة قاسية له . فذهب إلى أبعد ما استطاع في الخطاب السري إلى محاولة تبرير ذاته والقاء كل اللوم على ستالين . وهو هنا يعيد ذلك مرة أخرى . ويقول جوكوف في مذكراته التي نشرت بعد سقوط خروشوف (أعظم معارك المارشال جوكوف) ان ذلك الهجوم المشؤوم كان حقيقة ، وليد فكر ستالين . وانه هو ، أي جوكوف ، عارضه لأسباب وجيهة جداً ، وهذا صحيح إلى درجة التأكيد . غير أن جوكوف يستطرد إلى القول ان ستالين ، كان مؤيداً تأييداً قوياً من قبل تيموشنكو وخروشوف وهذا أيضاً يحتمل أن يكون صحيحاً . ثم انه يستمر في القول ضناً (غير أن الرواية هنا غير جلية وربما ذلك عن عمد) انه لم تكن هنالك أية محاولة من قبل تيموشنكو وخروشوف للعدول عن ذلك الهجوم قبل وقوع الكارثة . وقد وقعت الكارثة لان القوات الالمانية ذاتها كانت موزعة للقيام بهجوم يرمي إلى ازالة نتؤ في الخطوط الروسية . وكان ان تيموشنكو قذف بجيشه إلى التو بما أوقعه مباشرة في داخل فكي الفخ .

بلغت نقمة ستالين علي ذروتها في اثناء فترة تفهقرنا عندما ظن اننا سوف نخسر اوكرانيا . كان هو القائد الاعلى ، غير انه لم يشأ ان يتحمل مسؤولية الهزيمة فبدأ يبحث عن كبش الفداء فكنت المرشح بداهة لذلك لانني كنت السكرتير الاول للجنة الاوكرانية المركزية وعضواً في المجلس العسكري .

وربما كانت اشد ساعات الخطر علي في اثناء الهجوم المعاكس الفاشل في اتجاه خاركوف في ١٩٤٢ . وكانت العمليات قد بدأت بداية تبشر بالخير ؛ فقد اخترقنا خطوط دفاع العدو الامامية بسهولة زائدة ، وادركنا انه ليس هنالك قوات محشودة ضدنا . وبدا لنا ان الطريق خالية امامنا للتقدم إلى عمق كثير في اراضي الاعداء . فكان ذلك داعياً للقلق ، اذ ان معناه اننا قد وقعنا في فخ . فاجريتنا استطلاعات كشفت لنا ان العدو يقوم بمشد تجمعاته في قطاع « القباينسك » من الجبهة الجنوبية . ويبدو ان الالمان خططوا لضرب جناحنا الايسر وتصفية التو

الذي كنا قد عملنا على تكوينه اثناء حملة الشتاء . واستطعنا ان نرى انه كلما ازددنا تعمقاً في تغلغلنا إلى الغرب كلما اصبح بإمكاننا نشر جناحنا وصار بالتالي من الاسهل على الألمان بان يتوصلوا إلى قطعنا وتطويقنا .

ولم نكد نتوصل إلى ادراك خطة العدو حتى كان الأوان قد فات . فبقي علينا الان ان نحصل على الاذن بوقف الهجوم كلية والتراجع إلى الوراء . (١)
نسيت الان من كان صاحب المبادرة لتنظيم عمليات خاركوف الحربية . وفي ما بعد كان لسنتين ان يتهمني بانني انا الذي امرت باتخاذ خطة الهجوم . واني لا انك انه ربما كنت قد اشركت في ذلك ، ولكن كما سألت ستالين يومها : « ماذا يقال عن القائد تيموشنكو ؟ »

« كلا » قال ستالين « انها كانت فكرتك وتيموشنكو فقط رضخ لرأيك » . فقلت : « ذلك مستحيل . انك لا تعرف تيموشنكو معرفة جيدة . فهو قوي الارادة جداً ولم يكن ليدي موافقة على الخطة ، ما لم يكن رأى انها فكرة صحيحة » .

وحقيقة الأمر ان الرفيق باغراميان هو الذي وضع الخطة لهجوم خاركوف المعاكس . ووافقت عليها قيادتنا العامة للجبهة الجنوبية الغربية وكذلك وافق عليها مقر القيادة العامة ، وكنا جميعاً مشتركين معاً في القرار الاصيل . والآن كان علي ان اقنع هيئة الأركان العامة بالعدول عن الاعمال الحربية ركنت اعلم ان ذلك لن يكون امراً سهلاً .

وحالما ادركنا خطر الاستمرار في السير صوب خاركوف اصدروا الامر بوقف الهجوم واتخذنا التدابير لبناء خطوطنا الدفاعية . فحركنا مدفعيتنا والمدركات والقوات المضادة للدبابات لتغطية جناحنا الايسر المكشوف . وعندما اعطيت سائر الاوامر الضرورية كنا قد تحولنا بصورة فعالة من الهجوم إلى الدفاع وعدت انا إلى منزلي لاحصل على بعض الراحة . وكانت الماعة قد بلغت الثالثة صباحاً . وما شرعت بخلع ملابسي للنوم حتى اقتحم الرفيق باغراميان غرفتي ، وكان شديد الاضطراب وخاطبني قائلاً : « يوسفني ان ازعجك ايها الرفيق خروشوف ، غير انني رأيت انه ينبغي ان تعلم ان موسكو نقضت اوامرنا بوقف الهجوم » .

(١) بدأ زحف تيموشنكو في ١٢ أيار وسار عدة أيام سيراً حسناً . ولم يتحول نحو السبيل الا في ١٧ أيار مع توسع خطوط القوات السوفياتية توسعاً خطيراً . وفي منتصف ليل ١٧ أيار جرت مناشدة ستالين تلفونياً . وفي فجر يوم ١٨ قام الألمان بهجومهم المعاكس وبدأت حركة التطويق المميتة والروسيون المطوقون كانوا يدافعون يائسين .

— ماذا ؟ كيف يمكن ذلك ؟ من اتخذ هذا القرار ؟
 — لا اعلم . كل ما اعرفه هو اننا اذا واصلنا خطة الهجوم فسوف نكون
 سائرين قدماً إلى كارثة . فقواتنا التي على التتو سوف يقضى عليها بالهلاك .
 لذلك فاني ابتهل اليك بان تحدث إلى الرفيق ستالين شخصياً . ان املنا الوحيد
 هو ان نتمكن من التكلم معه وحمله على الرجوع عن قراره الخاص بنقض اوامرنا .
 لم أكن قد رأيت قط الرفيق باغراميان في مثل هذه الحالة من قبل . فالمعروف
 عنه انه رجل مترن سليم التفكير . وانا اميل اليه حتى اني استطع القول انني
 احبه كثيراً . لقد كنت دائماً معجباً به لرصانة عقله وروحه الحزبية ومعرفته البعيدة
 المدى للشؤون الحربية وكذلك لتزاحته التي لا تشوبها شائبة . فوافقت تماماً على ما
 قاله عن ضرورة تحدثي إلى ستالين ، حتى لو كنت اتوقع اسوأ العواقب .
 وكان الرفيق باغراميان معي عندما طلبت مقر القيادة العامة ، وكان الكسندر
 ميخالوفيتش فاسيلفسكي على الخط (١) وكان قد سبق ان علم بما حدث .
 فخاطبته قائلاً : « الكسندر ميخالوفيتش ، بوصفك رجلاً عسكرياً درس
 الحرائط وفهم خطة العدو الحربية ، انت تعلم حقيقة الموقف بكل تفاصيله أكثر
 من معرفة الرفيق ستالين له . فارجوك ان تأخذ الخارطة وتوضح للرفيق ستالين
 ما الذي سوف يحدث اذا واصلنا هذه العمليات » . وادرك فاسيلفسكي ما الذي
 كنت ارمي اليه فكلانا قد رأى كيف كان ستالين يحاول ان يخطط حركات
 المعركة برسمه خطوط الجنود والجبهة باصبغه على كرة ارضية تمثل العالم .
 فقال فاسيلفسكي : ان ستالين الان في منزله الريفي . فقلت « اذن ، اذهب
 وتحدث اليه هناك . خذ معك خارطة لتريه كيف ان قرارنا بالعدول عن الهجوم
 هو الشيء الوحيد المعقول والمنطقي الذي ينبغي ان يعمل به » . فاجاب « كلا ،
 ايها الرفيق خروشوف ، ان الرفيق ستالين قرر واصدر اوامره فعلاً » .
 كان كل من تعامل مع فاسيلفسكي يستطيع ان يتصور الصوت الهادى القوي
 النبرات الذي قال به هذا الكلام . وكنت انا على علاقات حسنة جداً معه ، لذلك
 بعد ان تركت السماعة قررت ان اطلبه واحاول مناشدته مرة اخرى ، هذه المرة
 ملحاً عليه بان يساعدنني . غير انه ظل على رفضه قائلاً : « نيكيتا سرجفيتش ،
 ان الرفيق ستالين عقد عزمه وهذا كل ما يمكن لي قوله » . ولو كان جوكوف
 موجوداً في مقر القيادة العامة بدلاً من فاسيلفسكي فاني لتأكد انه كان يتوجه حالاً

(١) المارشال ا.م. فاسيلفسكي رئيس هيئة اركان الحرب العامة الذي خلف المارشال
 شابوشنيكوف بعد وفاته .

إلى منزل ستالين ويقابله من اجلي .
وهكذا ، فلم يبق امامي الا ان احاول ، انا شخصياً الاتصال بالرفيق ستالين .
وكانت تلك لحظة شديدة الخطر علي ، اذ اصبحت اعرف الان بان ستالين نفسه
خير عظيم في الاستراتيجية العسكرية . فطلبت منزل ستالين فرد علي مالنكوف .
وبعد ان تبادلنا التحيات سألته قائلاً : « هل يمكنك ان اتحدث إلى الرفيق
ستالين ؟ » ومن المؤكد ان ستالين كان هناك ، فاني اعرف معرفة جيدة جداً منزله
وكيف يجلس ، وكم عدد الخطوات التي يحتاج ان يخطوها للوصول إلى
الهاتف . غير ان مالنكوف عاد ليقول لي « الرفيق ستالين يقول ان عليك ان
تخبرني بما تريده منه فانقله اليه » . فكان ذلك علامة اكيدة على المتاعب التي
سأواجهها .

فقلت باصرار : « اني اريد ان اتكلم مع الرفيق ستالين شخصياً ، واريد
ان ابغله عن الحالة على الجبهة » . فابلق مالنكوف ذلك إلى ستالين وعاد إلى الخط
ليقول : « الرفيق ستالين يكرر القول ان عليك ان تخبرني بما تريده . »
وعلى ذلك فقد اضطررت ان ابلق مالنكوف اننا باستمرارنا في خطة الهجوم
نضع انفسنا مباشرة في ابدي العدو . فقد تمادينا في توسيع جبهتنا واضعفناها .
وقد كشفنا جناحنا للامان . فساد الصمت مرة اخرى بينما ابلى مالنكوف
قولي هذا إلى ستالين . وعندما عاد قال لي : « الرفيق ستالين يعلم انك لم
تحصل على موافقة قائد الجبهة على قرارك بوقف الهجوم ، وهو يعلم ايضاً
ان العدو عن العملية كان رأيك ورأيك انت وحدك ، وهو ضد هذا الرأي ؟ »
وانني لا ازال غير قادر على الاعتقاد ان تيموشنكو قد ابلى ستالين انني انا
ارغمته على القبول بذلك القرار . ولذلك ظننت ان ستالين انما يحاول ان يوهمني
ويفسد علي حجتي ، فقلت لمالنكوف : « انت تعرف عن تيموشنكو انه لا يوافق
ابداً على قرار ما لم يكن مقتنعاً به كل الاقتناع . » فقال لي مالنكوف : « لا فائدة
من الاستمرار في المناقشة . ان ستالين يقول ان الهجوم يجب ان يستمر . »
فقلت : « حسناً ، ان الاوامر هي الاوامر ! ومواصلة الهجوم امر سهل ، لان
ليس امامنا قوات للعدو . وهذا هو الذي يقلقنا كثيراً » .

وهنا علق مالنكوف الساعة وانتهت المكالمة . وكان الرفيق باغراميان معي
وسمع الحديث ، فتحطمت اعصابه واجهش بالبكاء ، اذ رأى ما سوف
يجد (١) .

(١) ان حكاية الحادثة التلفونية تتفق مع ما ورد عنها في خطبه السرية باستثناء بعض =

ووقعت الكارثة بعد ذلك بأيام قليلة تماماً كما كنا نتوقع . ولم يكن هنالك ما نستطيع ان نفعله لتفاديها . فقد هلك كثيرون من الجنرالات والكونولونيلات وصغار الضباط والجنود . ومحيت هيئة اركان حرب الجيش السابع والثلاثين بصورة تامة . اذ كان الجيش قد تقدم بعيداً في اراضي العدو ، وعندما طوق رجالنا لم يكن لديهم حتى وقود كافية للفرار .

وكانت المسافة ابعد مما يستطيع اجتيازها مشياً على الاقدام . فقتل منهم كثيرون وأخذ أكثرهم اسرى . وتمكن الجنرال غوروف بطريقة ما من النجاة في دبابته . وقال البعض انه ينبغي ان يحاكم امام المجلس العسكري بتهمة الفرار . غير انني قلت لهؤلاء: «من الثابت اننا خسرنا عدداً وافياً من الجنرالات حتى الآن . فهل تريدون خسارة البقية الباقية ممن تمكنوا من النجاة ايضاً ؟ هل اصابكم مس من الجنون ؟ »

كان امراً بديهاً ان ستالين لن يعترف قطعاً بخطأه . فبعد ايام قليلة من حلول الكارثة تلقت دعوة هاتفية من موسكو . لم يستدعوا تيموشنكو قائد الجبهة بل استدعوني انا . وبامكان القارئ ان يتصور مبلغ أسى الشديد . ولا اراني في حاجة لان اصف بآية حال كنت يومها . فلقد فقدنا الكثير ، آلافاً عديدة من الرجال ، وخسرنا اكثر من ذلك ، الأمل الذي كان يحيينا باننا قد نتمكن يوماً من صد الغزاة إلى الوراء ووقف مدهم الذي اجتاحتنا في عام ١٩٤٣ . ان تجرعنا هزيمة خاركوف كان فيه من المرارة ما يكفي . ولكي تزداد الحال سوءاً بدا كأنني سوف احمل اللوم شخصياً عما حدث . وكنت أعلم ان محاولتي وقف الهجوم وتفادي الكارثة لن تدخل في الحساب لان اعتراف ستالين باننا محقون عندما اوقفنا العملية كان يعني اعترافه بغلطته . ولم يكن من خصائص ستالين التحلي بهذا القدر من الشهامة اذ كان أبعد ما يكون عن تحمل نتائج اخطائه .

وبينما كنت بالطائرة في طريقي إلى موسكو استطعت ان ارى بوضوح نوع المأساة التي كنت قد تكهنت بوقوعها ، فوضعت ذاتي على كف القدر . وكنت مستعداً لأي شيء بما في ذلك الاعتقال .

وفي بداية الأمر لم تصدر عن ستالين اية اشارة تنم عما اذا كان ناقماً علي او متعاطفاً معي ، فقد كان مثلاً ماهراً . كان وجهه قناعاً من الغموض والابهام

=التفاصيل الجديدة والغريبة وهي أن ستالين عن طريق مالتكوف اتهم خروشوف بالعمل مستقلاً عن تيموشنكو . ان تيموشنكو ورئيس أركان حربه باغراميان كانا حريصين جداً على السماح لهما بوقف الهجوم والتراجع لا نقاذ ما يمكن انقاذه .

ثم تحدث قائلاً : « لقد أعلن الألمان أنهم أسروا أكثر من مئتي ألف من جنودنا ، فهل هم كاذبون ؟ »

— كلا ، أيها الرفيق ستالين ، أنهم لا يكذبون . ان ذلك العدد يبدو انه قريب من الحقيقة . لقد كان لدينا مثل هذا العدد من الجنود تقريباً ، وربما أكثر قليلاً . وعلينا ان نفترض ان البعض قتلوا وان الباقين أسروا (١) .

لم يقل ستالين شيئاً آخر . لكن كان بإمكانني ان اراه يغلي . ولم اكن ادري متى سوف ينفجر هذا الوعاء الذي في حالة غليان ، ومن سوف يحترق بسائله الحار . غير انه ضبط نفسه ولم يقل شيئاً آخر لبرهة قصيرة . وبعد ذلك بدأنا نتحدث عن الأوضاع مرة أخرى : ما الذي نستطيع عمله الآن ؟ اي امل لنا بيناه خطوط الدفاع على مجرى نهر دونتر لكي نمنع العدو من عبوره ؟ كيف نستطيع وقف تقدم الألمان في زحفهم بما لدينا من موارد محدودة . وبعد هذا البحث دخلنا لتناول طعام العشاء .

بقيت مقيماً في موسكو بضعة ايام . وكنت كلما طالت اقامتي انهكني وآلتي انتظاري لما عساه يحدث لي . وكان يخامرني شك كبير ان ستالين سينسى الكارثة ويفقر . انه لا يزال يبحث عن كبش فداء . وهنا تلوح له فرصة لظهور صلابته التي لا تعرف هوادة ولا صفحاً وتعتمد العقاب الصارم عندما تكون مصالح الشعب عرضة للخطر . كنت اعرف تماماً كيف سيستنبط طريقة انتقامه فهو استاذ في هذا المجال .

وبعد مرور ايام قليلة على وجودي في موسكو كنا جالسين إلى مائدة ستالين نتناول طعام العشاء فبدأ ستالين الحديث بلهجة هادئة لا تنم عن اي موقف وقال محدقاً بي : « هل تعلم ان في الحرب العالمية الأولى بعد ان سقط جيشنا في حركة تطويق المانية في بروسيا الشرقية حاكم القيصر القائد العام امام مجلس عسكري فحكم عليه بالموت واعدم شنقاً » .

فاجبته قائلاً : « أيها الرفيق ستالين ، انني اذكر تلك الحادثة جيداً وقد فعل القيصر الشيء الوحيد الذي كان صواباً ، فان ميازنكوف كان خائناً وكان عميلاً لألمانيا . »

فلم يقل ستالين شيئاً ولم يتوسع في هذا الموضوع . غير انه كان قد قال ما فيه الكفاية لاعطائي بعض الفكرة عن المكان الذي اقف فيه . ويمكن للقارئ ان

(١) ان لائحة الخسائر الموفياتية الرسمية ، كانت ٥٠,٠٠٠ قتيل و ٧٠,٠٠٠ مفقود و ٣٠٠ دبابه محطمة . أما الألمان فقد قالوا : إنهم أخفوا ٢٠٠,٠٠٠ أسير .

يتصور كيف كان شعوري . ان ستالين يحاول ان يقيم وجه شبه ولو ضمناً بين تطويق قواتنا في بروسيا الشرقية في الحرب العالمية الأولى وبين تطويق قواتنا إلى الشرق من خاركوف . لقد كان ستالين يذكرني ، بوصفي عضو المجلس العسكري المسؤول عن هزيمة خاركوف ، ان ذلك الشيء قد حدث من قبل في التاريخ . وعدا ذلك فان هنالك سابقة في الحرب العالمية الثانية وهي اعتقال الجنرال بافلوف ومحاكمته واعدامه مع رئيس اركان حربه والعضو المحلي في المجلس العسكري بعد ان اكتسح الالمان بيلوروسيا بدون مقاومة في الايام الأولى من الحرب . كان ستالين يعدني نفسياً لان افهم ، في ضوء مصلحة الوطن وضرورات تهدئة الرأي العام ، امكان اضطراره لان يعاقب بقسوة جميع الذين كانوا مسؤولين عن كارثة خاركوف .

اذن هذا كان موقعي . كان مصيري في كف عفريت . ولكن الأمر الوحيد الذي كان يحول دون ان ينحى ستالين علي باللائمة على ما حدث هو محاولاتي المتكررة بصلاية وعناد لحمله على العدول عن خطة الهجوم . وقد فعلت ذلك بحضور شهود ونقلت رأيي ومشورتي له بواسطة مالنكوف . واني متأكد ان بيريا وميكويان ومولوتوف ، وربما فوروشيلوف ، كانوا هنالك في الداشا مع ستالين عندما طلبته من الجبهة . وحتى ولئن يكن هؤلاء جميعاً على علاقة وثيقة جداً مع ستالين فانه ليستحيل عليه ان يتجاهل الحقيقة الواقعة وهي انني عارضت بشدة مواصلة خطة الهجوم . وهؤلاء الرجال كان يمكن ان يكونوا شهوداً معاكسين كثيراً لي لو ان خطة الهجوم تمت على خلاف ما حدث . ولكن بالنظر لما حدث فهم شهود غير مرضي عنهم من قبل ستالين ذاته .

واخيراً دعاني ستالين إلى مكتبه وقال ان بإمكانني العودة إلى الجبهة ، ففرج عني ولكنني ادركت انني لست في مأمن بعد . فقد كنت اعرف حالات كثيرة كان ستالين يطمئن الناس فيها ويتركهم يغادرون مكتبه مستبشرين خيراً . ومن ثم يلحق بهم وينقلهم إلى مكان غير الذي كانوا يتوقعون الذهاب اليه . غير انه لم تحدث لي شيء من ذلك اثناء الليل بعد مغادرتي مكتبه وفي صباح اليوم التالي عدت بطريق الجو إلى الجبهة (١) .

(١) لقد كان لدى خروشوف ما يحمله على الخوف على حياته . ما اغفل قوله هو ان تيموشنكو خفضت رتبته العسكرية نتيجة لكارثة خاركوف وتسلم جوكوف منصب نائب القائد الأعلى .

وعند وصولي وجدت الحالة سيئة جداً . واخبرني المارشال تيموشنكو ان الجيش قد شرد كلياً وان الطريقة الوحيدة للم شعث الجنود هي ان نقيم مطابخ متنقلة على امل ان يعود الجنود عندما يمسم الجوع وقد كان بذلك يعمل على اساس اختباراته في الحرب الاهلية ، فأنشأ مطابخ بعد ان اعدنا ببطء ولكن بصورة اكيدة تنظيم خطوط دفاعنا .

واني بعد هذه السنوات الطويلة ، اعود بالذاكرة إلى حادثة خاركوف لارى فيها لحظة مؤلمة لارضنا الأم وامثلة في حياتي اكتفتها مخاطر لا انساها .

ستالينغراد

كانت ستالينغراد أعظم ساعة في حياة خروشوف . فقد كان بوصفه المستشار السياسي للمارشال يريمينكو ، الذي كانت تقع على عاتقه مسؤولية الدفاع عن ستالينغراد ، رجل الساعة القوي . وبعد أن دمر الألمان المدينة وانتقلوا إلى القتال بين خرائبها اضطر يريمينكو إلى نقل مقر قيادته إلى الضفة الأخرى من النهر .

ان وصف خروشوف لتطورات المعركة يعطي لمحات مضيئة ، عن كسب ، للنضال الرهيب الذي انتهى بتحطيم جيش باولوس السادس ، وادى الى تحول مجرى الحرب .

عندما بدأت معركة ستالينغراد كانت قواتنا المسلحة لا تزال في حالة ضعف بالغ . وكنا نعاني نقصاً في المدفعية الثقيلة والمدافع الرشاشة والطائرات والاسلحة المضادة للدبابات . وكان الالمان ما زالوا يضغطون علينا بشدة . الا انه بدل القتال المضطرب غير المنظم الذي طبع مرحلة اوائل الحرب ، كان جنودنا الان يقاتلون ببسالة ولا يتراجعون الا عندما لا يكون هنالك سبيل آخر . وقد تراجعوا بطريقة منظمة من موقع إلى آخر ولم يسمحوا البتة لانفسهم بان يشرذموا او تشتت جموعهم .

اما انتكاساتنا او هزائمنا فبالرغم من انها كانت اقل من عددها فقد كانت مع ذلك مؤلمة جداً . ففي اثناء المعركة تلقيت نبأ بان روبين ايباروري قد قتل . (١) وقد كان روبين ايباروري ونجلي في اوائل الحرب في جناح الجرحى في كوبيشيف .

(١) كان نجل دولورس ايباروري الشيوعي الأسباني الشهير المعروف باسم لاباسوناريا وهو لا يزال يعيش في موسكو .

وكان ليونيد طياراً وقد توفي بعد ذلك في المعركة . ثم علمت بان انتاس ايغانوفيتش نجل ميكويان، وكان ايضاً طياراً، قد قتل. هذا كله كان مألوفاً عندي فحن في حرب وكثيرون من الرجال الطيبين يموتون كما يحدث في كل حرب . غير ان الجيش الاحمر قد عانى من الخسائر اكثر مما ينبغي نظراً لسوء استعداده ولنقص تسليحه . واني لا ذكر مشهداً مفاجئاً شهدته عندما خرجت إلى منطقة القتال جنوبي المدينة قرب وادي نوريمان . فقد كانت بعض قاذفات القنابل محلقة فوقنا متجهة صوب الخطوط الامامية . وفجأة ظهرت طائرة المانية من طراز مسرشميتز . وامام اعيننا اصيبت قاذفات القنابل التي لنا واشتعلت النار فيها الواحدة تلو الاخرى . فانطلق الطيارون منها . وكانت طائرتنا تبدو شبيهة كل الشبه بطائرات مسرشميتز الالمانية فظن المشاة ان القاذفات المقاتلة كانت طائرات المانية ففتحوا النار على طيارينا بينما كانوا يهبطون بالمظلات إلى الأرض . واني لأذكر احد الطيارين يصرخ وهو يهبط قائلاً : « انني واحد منكم ! انا واحد منكم ! » ثم انطلقت زخة من نيران الرشاشات وانتهى كل شيء .

كان يتولى قيادة وحداتنا الجوية خريوكين وهو شاب اطلق عليه لقب بطل الاتحاد السوفياتي نظراً للدور الذي اداه في الحرب ضد اليابان عندما كنا نقاتل في الصين إلى جانب قوات شان كاي شيك (١) .

وصل الالمان إلى القولغا وكادوا يحددون نصف احداقة بنا فاوقفوا اتصالاتنا الحديدية مع الشمال وجميع طرق الملاحة النهرية . وتلقيت مكالمة هاتفية من ستالين سألني فيها بلهجة تهديدية : « ماذا حدث حتى شرعت في اخلاء المدينة ؟ » فاجبته قائلاً : « ايها الرفيق ستالين من قال شيئاً عن اخلاء المدينة ؟ من ابلغك ذلك ؟ لم تفكر قط بهذا الشيء . واني لا اعلم كيف حصلت على هذه المعلومات ولكنها غير صحيحة على الاطلاق . »

وبعد ان اقفل الخط بدأت اتساءل من ترى الذي لفق هذه الكذبة القذرة ؟ انها بداهة موجهة ضدي شخصياً . وعلى ذلك فقد قررت الاتصال بماليشيف مع

(١) ت. ت. خريوكين قائد السلاح الجوي الثامن . والاشارة هنا إلى العمليات الحربية غير المعلنة ، وقد كانت صغيرة ولكنها دامية مع اليابانيين في مونغوليا في صيف ١٩٣٩ . وهنا اكتسب جوكوف شهرته إذ وصل في الوقت الملائم لينقذ الموقف الخطير في هلكن - غول وشتت اليابانيين . وانه ليغيب عن البال أحياناً ان الروس كان حيثز يعتبرون شان كاي شيك حليفاً لهم وقد أيدوه في قتاله ضد ماوتسي تونغ . وماو لم ينس ذلك أبداً .

انني كنت اعتقد انه لا ينحدر إلى هذه السفالة (١) فاخبرته عن اتصال ستالين بي فقال لي « نعم لقد تلقيت للتو ، انا كذلك مكالمة ساخطة من ستالين . وقد قال لي الشيء نفسه . ولا فكرة عندي عما يمكن ان يكون قد لفق هذه الاكذوبة » .

ثم انجهمت ظنوني إلى شويانوف غير ان شويانوف لم يكن من النوع الذي يمكن ان يهبط إلى هذا الدرك من السفالة . على اني اتصلت به على كل حال فقال انه تلقى مثل هذه المخابرة التلفونية السيئة من ستالين ايضاً :

ولم يعد ستالين إلى ذكر مسألة الاخلاء مرة اخرى . وقد ادركت فيما بعد ان شائعة الاخلاء كانت من صنع ستالين ذاته . وكانت ما يمكن ان يسميه هو حيلة رقائية يقصد منها المبادرة لزرع هذه الفكرة من قبله شخصياً بغية جعلنا نعلم العواقب السيئة التي تنتظر كل من تخطر له مثل هذه الفكرة في المستقبل . كان ذلك من خصال ستالين التي عرف بها في توجيه الحرب . فقد كان يريد ان يتولى تنظيم كل شيء من موسكو . وهو بمباشرة الرقابة المركزية إلى مثل هذه الدرجة من التطرف سلب من قواده والمفوضين الموجودين على الجبهة كل فاعلية او قوة .

ان مقر قيادة المعركة في ستالينغراد كان على نهر تساريتسا في ساقية حفرتها سنون كثيرة من الامطار والثلوج الدائبة . وعند اول مجيئنا إلى ستالينغراد دهشنا لاكتشافنا ان هنالك موقعاً (او مخفراً) للقيادة سبق ان حفر في منحدر هذه الساقية . وقد اعد وجرى تحصينه قبل الحرب الحالية بزمان طويل . وقد اقيمت لوقاية مدخله حواجز ضد موجات الاهتزاز التي تحدثها الانفجارات . وعززت الابواب باطواق سميكة من الحديد لتحفظها من الاندفاع بالقوة إلى الداخل . وكان كل شيء في هذه الغرفة الارضية الحصينة يبدو مألوفاً إلى درجة غريبة . وقد زين كثيراً وفقاً لذوق ستالين . وكانت جدرانه من الواح خشب السنديان المزخرفة على مثال سائر مقرات (داشات) ستالين . وجهاز تجهيزاً جيداً جداً حتى انه اعدت فيه «تواليت» لم يكن ليفكر اي رجل عسكري ان يكون له مثلها في احوال الحرب وميادين القتال . وانا لم اسمع ابداً قبل ذلك او منذ ذلك الحين ان كان قد اعد مخفر القيادة هذا في الاصل .

(١) ف.ك. ماليشيف مفوض الشعب حينئذ لصناعة الاسلحة وصارني ما بعد أحد أفراد فريق مالتكوف ومن كبار الاختصاصيين التقنيين وعضواً في برزديوم الحزب الموسع .

وفي بدء المعركة قام العدو بتوجيه اقصى الغارات الجوية على ستالينغراد . فكانت تحلق الموجة تلو الموجة من طائراته فوق المدينة وتقصفها بالقنابل . وهكذا كانت ستالينغراد تشتعل . ووجدنا اننا قد اصبحنا معزولين عن الضفة اليسرى من الفولغا في حين ان المواصلات مع الضفة اليسرى ضرورية لاشرفنا على المعركة . فقرر القائد يريمينكو (١) بالاتفاق معي ان استمرار وجودنا في ستالينغراد لم يعد مناسباً . فارسلنا برقية بهذا الصدد إلى مقر القيادة العامة طالبين الاذن بنقل مقر قيادتنا إلى الضفة اليسرى لتمكن من ان نكون على اتصال سريع مع سائر جيوشنا . فمريوم دون ان نتلقى جواباً فكررنا الطلب . ومرة اخرى لم يرد شيء من موسكو ولم يكن باستطاعتنا ان ننقل مقر القيادة بدون اذن .

ثم حدث ان ستالين اتصل بنا لشيء مختلف كلياً فتحدثت معه وقلت : « الرفيق ستالين ، لقد سبق لنا وطلبنا تكراراً الاذن بنقل مقر القيادة إلى الضفة اليسرى غير ان مقر القيادة العام لم يرد علينا حتى الآن وللوقت اهميته لذلك فاني اطلب منك ان تعطينا الامر بان تفعل ذلك » .

— « كلا هذا مستحيل . اذا علم جنودكم ان قائدهم قد نقل مقره إلى خارج ستالينغراد فان المدينة تسقط » .

فحاولت ان اوضح لستالين ، على قدر ما بوسعي ، ان مخاوفه لا اساس لها . وقلت : « الرفيق ستالين : انني لا ارى هذا الرأي فان الجيش الثاني والستين بقيادة شويكوف (٢) قد اخذ على عاتقه الدفاع عن ستالينغراد وقد عينا غوروف في المجلس العسكري وامرناه بان يبقى في المدينة ويعزز قيادة الجيش ونحن متأكدون تماماً ان شويكوف وغوروف يقومان بمهمتهما خير قيام ، ويحولان دون تغلغل للعدو في خطوط دفاعنا والاستيلاء على المدينة » .

— حسناً ، اذا كنت متأكداً ان الجبهة سوف تصمد وان خطوطنا الدفاعية لن تحترق فاني اعطيك الاذن بالانتقال إلى الضفة اليسرى ولكن تأكد من ترك ممثل لمقر قيادة الجبهة في ستالينغراد يكون بإمكانه ان ينقل اليك مجرى الامور . واني اريد منك ان تتأكد من ان لك في المدينة من تعهد اليه بالموافقة على تقارير شويكوف .

(١) المارشال يريمينكو كان قائد الجبهة الجنوبية الشرقية التي كان خروشوف ملحقاً بها . وفي هذه المرحلة كانت الجبهة الجنوبية الشرقية تشمل مدينة ستالينغراد وكانت جبهة ستالينغراد هي في عهدة مجموعة الجيوش المربطة إلى الشمال من المدينة .

(٢) المارشال شويكوف كان قد خلف الجنرال لوباتين قائد الجيش الثاني والستين الذي كان قد تحمل طويلاً وطأة الحصار كاملة . وشويكوف الذي كان عليه في ما بعد =

وهكذا اتخذنا يريمنكو وأنا الاستعدادات اللازمة لنقل مقر قيادتنا وطلبنا من رئيس هيئة أركان حربنا زخاروف مساعدتنا (١) (زخاروف ويريمنكو كانوا قد اعتادا ان يلكما الناس على الأنف عملاً بتعليمات ستالين) وقررنا ان نترك الجنرال غوليكونوف في ستالينغراد ليطلعنا دائماً على تصرفات شويكونوف في الدفاع عن المدينة . وكان غوليكونوف قد ارسل البنا من قبل ستالين ليكون نائباً اول لقائد الجبهة (٢) . وكنت قد عرفته اثناء احتلالنا لمدينة لفوف في عام ١٩٣٩، وكذلك عندما كان رئيساً للموظفين في الجيش الاحمر . وقد رأيت كثيراً بحضور ستالين عندما كان رئيساً للمخابرات العسكرية . غير ان الفرصة لم تسح قبل الآن لان اقدره كانسان وكشيوعي . واستدعينا غوليكونوف وقال له يريمنكو :

— « ايها الرفيق غوليكونوف ، لقد تلقينا الاذن بنقل مقر قيادتنا إلى الضفة اليسرى ونريد منك ان تبقى مع المقر الرئيسي هنا وان تكون على اتصال دائم مع الرفيق شويكونوف » .

فبدت على وجه غوليكونوف امارات الرعب غير انه تمكن لفترة قصيرة من تمالك نفسه . وحالما غادر يريمنكو الغرفة توسل الي غوليكونوف ان لا يتركه وحده في المدينة . ولم يسبق لي ان رأيت قط جندياً او مدنياً ، في مثل تلك الحالة اثناء الحرب كلها . فقد كان منتقع الوجه يرجو في ان لا اتركه . وظل يكرر القول : « ستالينغراد مقضي عليها » . « لا تركني فيها . لا تقضي علي بالهلاك . دعني اذهب معكم » .

سما هذا الذي تقوله ؟ كيف تجرؤ على القول بان ستالينغراد مقضي عليها ؟ الا تستطيع ان ترى ان الحالة قد تبدلت ؟ ونحن لا نراجع او نتقهقر امام العدو . ان جيشنا يقف صامداً هنا . ماذا اصابك ؟ استجمع قواك . كيف تجرؤ على التصرف هكذا ؟ لقد صدر لك الأمر بالبقاء في المدينة وسوف تطيع الامر . وبعد ايام قليلة تلقينا رسالة من ضابط في ستالينغراد ابلاغنا فيها ان غوليكونوف

الاسراع في الزحف على برلين وصار مع الوقت قائداً للقوات السوفياتية في ألمانيا، كان من أطف الرجال وجندياً لا ممأ وبطل ستالينغراد الأول .

(١) الجنرال زخاروف رئيس أركان حرب يريمنكو في ستالينغراد وصار في ما بعد قائد الجيش .

(٢) الكولونل جنرال غوليكونوف وهو جنرال «سياسي» كان أكثر توفيقاً في المهام الادارية والدبلوماسية منه في الميدان . وكاد لا ينجو من المحاكاة والاعدام

قد اضاع عقله تماماً وهو يتصرف كرجل مجنون ووجوده في الجيش لا يؤدي لنا اية فائدة . وقد صار حتى حملاً ثقيلاً علينا . وطلب الينا الضابط الذي نقل هذه الشكوى اتخاذ الاجراءات الملائمة . فجردنا غوليكونف من مسؤولياته واصدرنا امرأ باستدعائه .

وحدث بعد ذلك ان شكانا إلى ستالين . وفي اثناء احدى زياراتي لموسكو لامي ستالين غاضباً على الموقف الحاطيء الذي اتخذته ازاء جنرالنا ولتقصيري في اعطائهم العون الذي يحتاجون اليه فسألته « اي جنرال يراود ذهنك بالتحديد ؟ » فقال : « خذ غوليكونف على سبيل المثال . لقد ارسلناه لكي يساعدك فانظر كيف عاملته » ثم انطلق في حملة تقريع ضد يريمنكو واصفاً اياه بأنه كذا وكذا عديم الفائدة . فصعقت لما سمعته لانني قبل ذلك كنت قد سمعت ستالين مراراً كثيرة يمتدح يريمنكو ويمجده ناعماً اياه بافضل الالفاظ ، ناسباً اليه اعلى المزايا حتى انه ليكاد ان يعبد بوصفه افضل قوادنا وما إلى ذلك . وربما كان بعض السبب في تبدل ستالين نحو يريمنكو ان الالمان كانوا ما زالوا يدفعون بنا إلى الوراء وقد شقوا طريقهم إلى داخل ستالينغراد . وحدثت هنالك مناوشات وحتى معارك طاحنة في داخل المدينة . ولكنه بدلاً من ان يقول لي ما يقلقه حقيقة صب جام نقمته على يريمنكو ناسباً اليه اساءة معاملة غوليكونف . فقلت : « الرفيق ستالين ، لا اعلم ما الذي قاله لك الرفيق غوليكونف ولكن اذا كان قد شكاك لك معاملتنا له فلا مناص لي من ان اخبرك سبب مسلكتنا نحوه . » ثم رويت لستالين كيف تصرف غوليكونف عندما امرناه بالبقاء في مقر القيادة في المدينة . واستطعت ان ارى من تبدل وجه ستالين انه لم يكن يعرف شيئاً عن الحادثة فاختمت حديثي قائلاً : « لذلك كان لنا كل الحق والمبررات لطرد غوليكونف . واني في الحقيقة لا ارى لماذا تصب نقمتك على يريمنكو وعلي انا على هذه الكيفية . اني ادافع عن اي شخص يعاقب ظلماً ولكن غوليكونف قد نال تماماً ما يستحق » . ومن ثم ابلغني ستالين ان القرار قد اتخذ فعلاً لاعفاء يريمنكو من قيادة ستالينغراد فاجبته اني اعتقد ان ذلك سيكون غلطة خطيرة . وقلت : « اني ادرك انه قد يكون هنالك آراء متباينة في يريمنكو . فهو مثل اي انسان آخر له اعداؤه او الذين لا يحترمونه . ولكن بصفتي عضواً في المجلس العسكري فقد

=لفشله في هجوم خاركوف . وقد رقي بعد الحرب رئيساً للإدارة السياسية للقوات المسلحة ولم يكن واضحاً ماذا كانت مهمته في ستالينغراد غير انه لم يسر هنالك زمناً طويلاً .

عاشت يرمينكو في اوقات حرجة وهو في رأيي جدير كل الجدارة بالرتبة التي يحملها وبالمنصب الحالي الذي يتقلده . واني اتحدث فقط عن فضائله كفائد ولن اتكلم عن صفاته الاخرى . فالشيء المهم هو انه كفوء ، واسع الخبرة ، وقائد جيد بجنوده .

وفي البدء قاوم ستالين ، بالطبع ، بصلاية وعناد ، غير انه بعد فترة أخذ يلين ، واخيراً قال لي انني استطيت العودة بطريق الجو إلى الجبهة . وبينما كنا نتبادل كلمة الوداع هز ستالين يدي وقال :

« لقد سررت لاننا استدعيناك للتشاور معك . ولولا ما قلته لي لكنا اقلنا يرمينكو من منصبه . والواقع انني كنت قد عقدت العزم على ذلك . على ان الحجج التي اوردتها قد جعلتني ابدل رأيي . فباستطاعة يرمينكو ان يبقى في منصبه . » فاجبته قائلاً : « انك لن تندم على ذلك ايها الرفيق ستالين فقد فعلت ما هو صواب وصالح . »

وفي الوقت ذاته كان العدو يضغط علينا ، غير ان جيشنا كبدا الالمان من دمهم ثمناً لكل قيراط اكتسبوه . وكان شعارنا دائماً « لا تراجع خطوة واحدة » ، « انا سوف نصمد في مواقفنا على الفولغا » وسوف « نقاتل حتى الموت ولن ننحلي عن ستالينغراد » .

ويبدو انه كلما ظهرت الحالة بانها شديدة الخطر كان مالنكوف يطير بنا مع فاسيلنسكي وفورونوف ونوفيكوف او بعض الآخرين من ممثلي هيئة اركان الحرب العامة (١) . واني لاقول بصراحة انني لم اكن اسر كثيراً لرويتهم . فطالما لم يجلبوا لنا مساعدة حقيقية ، وذلك معناه نجادات عسكرية ودعم جوي

(١) ان المارشال ن.ن. فورونوف هو الاسم الجديد هنا . فهو بوصفه رئيس المدفعية كان أكثر الجزالات السوفيات موهبة وذكاء . ويتحدث خروشوف كما لو ان مالنكوف وفاسيلنسكي (رئيس هيئة اركان في الحرب العامة) وفورونوف ونوفيكوف (رئيس قوة الطيران السوفياتية) كانوا يبحثون في زيارة جوية واحدة . في حين ان الواقع هو ان مالنكوف كان يمضي وقتاً طويلاً في مقر قيادة يرمينكو بوصفه موفد ستالين الخاص (وهو ما كان يتمتع خروشوف منه كثيراً) في حين ان الآخرين الذين ورد ذكرهم ومعهم جوكوف كانوا زواراً يكثر من زيارتهم . فلقد كان ضروري جداً للقيادة العامة أن تعلم تماماً ما الذي يجري في ستالينغراد وكيف يمكن تموين المدينة وإلى متى يستطيع المدافعون عنها الصمود مع أقل عدد من النجادات . وذلك بينما كان جوكوف يعد بدأب وتكتم شديد هجومه المضاد الكبير .

وحدات من المشاة والمدفعية، فانه لا يفيدنا محيئهم شيئاً . بينما لدينا ملء ايدينا من العمل كان هؤلاء المشاهير يختارون الوقت غير المناسب لزيارتهم الشخصية . ولم يكونوا موضع الترحيب في مقر قيادتنا اذ كان المقر عند محيئهم مزدحماً إلى حد يكاد معه الانسان لا يقوى على التحرك الا بمنتهى الصعوبة .

وكننت اشعر في اشد الاوقات حرجاً ان ستالين يوجه دوماً التفاتاً خاصاً وشديداً نحوي ، وانه قد ارسل مالنكوف ليكون عيناً علي . وكننت الاحظ فاسيلفسكي ومالنكوف يتهاوسان معاً . وكان مالنكوف يعود إلى موسكو لابلاغ ستالين عن سبب سوء سير المعركة وهو بالطبع كان يريد ان يتجنب تحميل اية مسؤولية شخصية عما كان يحدث . وقد كان مالنكوف في حديثه همساً مع فاسيلفسكي يعد لان يوجه وشاية إلى البعض . وكننت اعلم انني انا بداهة الشخص الذي يقع عليه الاختيار . انه لم يكن يعرف شيئاً عن الشؤون العسكرية ولكنه كان اكثر من كفوء عندما يكون الامر متعلقاً بحبك الدسائس .

وفي النهاية كان فاسيلفسكي ومالنكوف يقولان لي انهما تلقيا الاوامر بالعودة إلى موسكو ، وبعد ذهابهما كان يرمنكو وانا نترك وحدنا مع عدد قليل من الموظفين في مقر القيادة . وكان يبدو كأن صمتاً رهيباً يسيطر على المنطقة كما يحدث كثيراً في الغابات بعد مرور العاصفة .

وفي احد مراحل المعركة جاء كونستنتين سيمونوف إلى ستالينغراد وسأل إلى ابن ينبغي ان يذهب على الخطوط الامامية ليرى بعض القتال ، فأشرت عليه الاتجاه ولكن حذرته من شدة الخطر في ذلك القطاع فقال : « لا بأس في ذلك » وانطلق ذاهباً (١) .

ومع تقدم المعركة في سيرها تحولت جيوشنا التابعة لجهة ستالينغراد جنوباً ضد مانستين (٢) . وبدأ جيشا روكوسوفسكي وشستياكوف في الاطباق على القوات

(١) كان سيمونوف كاتباً له شعبية قوية . أحدى قصائده : «انتظروني فسوف أعود» كانت تنشأ وتتل في كل مكان وكانت تدل على قوة الارادة والصمود . وروايته التي عنوانها «ضحايا وأبطال» تتضمن وصفاً مؤثراً للارتباك والحياة البطولة في التقهر العظيم .

(٢) هذه إشارة إلى العملية الكبيرة ، التي أدت إلى تحطيم الجيش الالماني السادس بقيادة باولوس تحطيماً كاملاً . وفي آخر تشرين الأول ١٩٤٢ كان شويكوف والجيش الثاني والستون على الضفة اليمنى لنهر القولغا متمسكين بجزر قليلة من الحصى باستانهم . ولكن قوات جوكوف كانت تتحرك سراً إلى مواقع معينة للشروع في حركة التطويق العظيمة . وفي ١٩ تشرين الثاني فتح فورونوف إلى =

الالمانية (١) . وتعرفت إلى رئيس اركان حرب شستياكوف وهو الجنرال بنكوفسكي فاحبته كثيراً . وقد كان ذكياً كفوءاً وقدم في ما بعد مساعدات جوهرية لما قام به جيش الحرس السادس . ولا يزال الجنرال بنكوفسكي حياً وفي صحة جيدة واني اتخى له مئات السنين من الحياة السعيدة (٢) .

وعندما بدأنا نضغط على العدو في اتجاه كوتلينيكوفو ازدادت الصعوبات التي كانت تواجهها قيادة واحدة في ادارة عمليتين مختلفتين كثيراً في وقت واحد . فقد كان على قيادة الجبهة ان توجه جيوشنا التي تطوق بارلوس في ستالينغراد وفي الوقت ذاته كان عليها ان توجه حركة الهجوم صوب روستوف . لذلك اقترحت هيئة الأركان العامة ان تقسم الجبهة إلى قسمين يوئلف احدهما القوات المواجهة لبارلوس في جبهة « دون » والثاني القوات التي تواجه مانستين في الجبهة الجنوبية . واني لا اعلم اذا كانت هذه فكرة ستالين او فكرة شخص آخر سواء في مقر القيادة العامة (٣) .

وازاء الصعوبات التي نشأت فقد كان من المعقول ان تقسم جبهة ستالينغراد . وكان هذا من دواعي اسفي واسف يريمنكو ان يفترق عن الجيوش على جبهة « دون » الجديدة التي كانت قد اكتسبت مكاناً لها في التاريخ : الجيوش التي مثل الجيش الثاني والستين الذي كان قد واجه ضربة العدو الأولى وصدها وتحمل العبء الكامل لمواجهة ضربات بارلو . ثم كان هنالك الجيش الرابع والستون بقيادة الرفيق شوميلوف والجيش السابع والخمسون وغيرهما .

«الجنوب أعظم «باراج» فتحته مدفعية ، في الحرب ، بينما كانت ثلاثة جيوش قد تقدمت للهجوم من الجنوب. وبعد ذلك بأربعة أيام تم تطويق المدينة ولكن ليس بصورة حاسمة تكفي لصد أية محاولة جديدة للخروج منها أو الدخول إليها . ولم يشرع مانستين حتى أوائل كانون الأول بحركته العظيمة لا ختراق الطوق ونجدة بارلوس وكان عندئذ قد فات الأوان للتصكين من انفاذه .

(١) المارشال روكوسوفسكي والجنرال شتياكوف. وروكوسوفسكي الذي كان البطل العظيم في حركة التطويق كاد لا ينجو بحياته في اثناء تطهير الجيش في ١٩٣٧ واكتسب فيما بعد سمعة سيئة ، بانه القائد الذي منع جيشه من التقدم على الفستولا (بأوامر من ستالين) عندما ثار البولونيون ضد الالمان . وكان وزيراً للدفاع في بولونيا عندما ثار البولونيون ضد روسيا في ١٩٥٦ . أما شتياكوف فقد قاد الجيش الحادي والعشرين الزاحف من رأس جسر كليتمسكايا وقد سمي هذا الجيش في ما بعد جيش الحرس السادس .

(٢) الم الأكبر لاونينغ بنكوفسكي الكولونل الذي انقلب على الدهد وصار عميلاً للغرب
(٣) ان تسمية الجبهات تسبب الارتباك. فان كلمة «جبهة» قد استعملت للإشارة إلى مجموعة

وكنا قد اقمنا صداقات وثيقة مع جميع هؤلاء . غير انني كنت اعلم ان من مصلحة القضية الوطنية ان نفارقهم لنحكم طوق الحصار حول ستالينغراد بينما نندفع جنوباً . وعندما اتصل بي ستالين ابلغته انني موافق على القرار القاضي بقسمة الجبهة .

ثم طلب ستالين يريمنكو . ولا اعلم كيف دار الحديث بينهما غير اني وجدت يريمنكو بعد ذلك غارقاً في الدموع .

فقلت له : اندريه ايفانوفيتش ماذا جرى ؟ الا ترى انه ينبغي لنا ان نقسم الجبهة ؟ ان جيوشنا قد تحولت إلى الجنوب ومهمتنا الآن هي ان نهاجم جناح العدو في شمالي القوقاس ، وستالينغراد تستطيع ان تدبر شؤونها . لكن ما بقي علينا هو ان نطوق العدو ونطبق عليه . ثم ان رفاقنا يستطيعون ان يصبروا عليه إلى ان ينفد ما لديه من الطعام والذخيرة . فكان جوابه ما يلي :

« ايها الرفيق خروشوف ، انك لا تدرك الحقيقة ، فانت مدني . انك لا تعلم كم قد قاسينا . لقد نسيت كيف ظننا في ايام الحرب الاولى انه قد قضي علينا وكيف ان ستالين كان يسألنا اذا كان باستطاعتنا الصمود ثلاثة ايام اخرى . لقد كنا جميعنا نعتقد ان الالمان سوف يستولون على ستالينغراد والان انظر ! لقد تحولنا إلى الهجوم . ربما انت لا تتوقع سلفاً ما الذي سيحدث غير اني انا اعرف ما سيحدث . ان جبهة « درن » الجديدة سوف تحظى على كل مفاخر انتصار ستالينغراد ، وجيوشنا في الجبهة الجنوبية سوف يكون نصيبها النسيان » . قال هذا وهو لا يزال يبكي بمرارة .

فحاولت تهدئة روعه قائلاً : « مما لا ريب فيه ان التضحية الشخصية التي قدمها جندي واحد او قائد واحد لها اهميتها ولكنها ليست الشيء الرئيسي .

=من الجيوش وليس لناحية معينة. وفي أيلول أبدل اسم جبهة ستالينغراد إلى جبهة «دون» ووضعت تحت قيادة روكوسوفسكي وفي الوقت ذاته صارت الجبهة الجنوبية الشرقية تسمى جبهة ستالينغراد وبقيت بقيادة يريمنكو في حين أن جبهة جديدة انشئت على النهر نزولا سميت الجبهة الجنوبية الشرقية بقيادة فاتوتين . وفي آخر كانون الثاني قررت القيادة العليا ان جبهة دون وجبهة ستالينغراد ينبغي تسيقهما معاً تحت قيادة قائد واحد للقيام بحركة الهجوم النهائي . ووقع الاختيار على روكوسوفسكي بالأفضلية على يريمنكو الذي اضطر ان يتخلى له عن ثلاثة من جيوشه بما في ذلك الجيش الثاني والستين الذي كان قد احتفظ حتى الآن بما بقي من المدينة . أما جبهة ستالينغراد فقد سميت من جديد الجبهة الجنوبية ، وعهد اليها بمهاجمة الالمان في منطقة ووستوف .

فالشيء الرئيسي هو مجد الشعب ، انتصار شعبنا وانتصار قضيتنا » . غير اني لم استطع ان افعل شيئاً لتعزيتي وانني في الحقيقة شعرت فعلا بالحزن الشديد عليه . فقد كنت اعلم كم قد عمل وكم قد تحمل وقاسى . فقد كرس كل ذرة من قوته ومهارته لضمان فوزنا وتأكيده انتصارنا . وقد عجزت عن العثور على كلمات باللغة الروسية تكفي للتعبير عن اعجابي بما قدمه يريمنكو للقضية بوصفه قائداً بلجبة ستالينغراد .

فهو الذي طوق جيش باولوس في فصل الخريف وقضى عليه في الشتاء . وقد رأيت مشهداً رهيباً عندما دخلنا المدينة في اوائل الربيع . بالطبع هنالك دائماً فظائع مريعة في زمن الحرب : رأيت جنوداً منهمكين في جمع جثث الجنود الالمان وقد خشنا ما قد يحدث لو تركناها متشرة في كل مكان ، والربيع مقبل وسوف يليه صيف حار . فقد كنا نعلم ان ما لم نفعل شيئاً سريعاً فانها سوف تتعفن وتتن وقد تنشب الاوبئة . غير ان ذلك لم يكن سهلاً فالارض كانت لا تزال مغمورة بالجليد وكان من الصعب حفر الجليد لاستخراج تلك الجثث . فقد جمعنا الف جثة وكدستها في طبقات بين الواحدة والاخرى اخشاب ثم اضرنا النار في تلك الاكوام الكبيرة .

لقد خرجت لاراقب هذا المشهد ولكن لم اخرج مرة ثانية . لقد نسب إلى نابوليون او لشخص آخر سواه انه قال ان جثث الاعداء المحترقة لها رائحة شهية . اما انا فاني من ناحيتي لا اوافق على هذا القول . لقد كانت رائحة الجثث المحترقة كريهة جداً وكان المشهد كله كريهاً للغاية .

وحول ستالينغراد وجدنا جنوداً المائاً قد نزعوا ملابسهم وبدوا نصف عراة . فاحذيتهم وسراويلهم كانت غالباً مفقودة ، ولم تكن بالطبع الذئاب هي التي استولت عليها . لقد كان ذلك نتيجة لاعمال النهب . واني لاشعر بالاسف اذ اقول ذلك . واعتقد ان الارجح هو ان الجنود والمدنيين قد اشركوا في اعمال النهب . ومع تقدمنا إلى الامام بعد معركة ستالينغراد رأيت اكواماً كبيرة من الجنود الالمان الذين قتلوا بالرصاص فسألت الجنرال فولسكي (١) عن ذلك قائلاً : « هل اعدم هؤلاء الرجال ؟ » فقال : « كلا . لقد قتلوا في المعركة . »

اجل ، ان العدو دائماً يتكبد خسائر كبيرة عندما يكون الجيش زاحفاً إلى الامام . غير انني لم استبعد امكانية مخالفة بعض رجالنا للامر الصادرة اليهم بعدم

(١) الجنرال ت.ف. فولسكي قائد الجيش الآلي الرابع .

استعمال القوة ضد الاسرى . وبالإضافة إلى الاعتبارات المعنوية فاننا لم نكن نريد ان نعطي العدو حجة لان يزعم بأن القوات السوفياتية الزاحفة كانت تعدم الاسرى رمياً بالرصاص . على انه كان من الممكن ادراكه تماماً ان بعض رجالنا ربما قد اعطوا لكرههم للالمان مداه وقتلوا كل من استطاعوا القبض عليه من الجنود الفاشيست على سبيل الانتقام من الفظائع التي ارتكبها الالمان في الاراضي السوفياتية التي احتلوها .

الجنرال مالمينوفسكي

يسلط هنا ضوء جديد على سيرة المارشال مالمينوفسكي (انظر الملحق ٣) الذي كان مع مرور الزمن سيصبح وزيراً للدفاع في وزارة خروشوف . وهذا المقطع أيضاً يعطي مثالا حياً على جو الدسائس والشبهات الذي كان يخيم على بلاط ستالين والذي يهدد بختق ، ان لم يكن بتحطيم ، كل من يمه بخاره المفن . وانه لجدير بالملاحظة ان حادث لارين وقع ليس في شهور الحرب الاولى المشبعة بالحياة بل بعد انتصار ستالينغراد .

في السنين الأولى من الحرب توصلت إلى معرفة روديون ياكوفليفش مالمينوفسكي معرفة جيدة جداً . لم يعد مرضياً عنه فترة من الزمن بعد ان استسلمت روستوف للالمان، ولكن استمر محاطاً بالتقدير على نطاق واسع باعتباره من اقدر قوادنا واكثرهم كفاءة . كان يروي لي قصصاً لذيذة عن اوائل حياته . وانا لا اظن ان والدته كانت متزوجة . فهو على كل حال لم يعرف والده قط اذ نشأ بعناية خالته وامضى طفولته في اوديسا ولم يكن يضم سوى الحقد لوالدته . غير انه كان دائماً يتحدث بعطف كثير وحنان عظيم عن خالته . وقد عمل ناقلاً للرسائل وجمل السلع في اوديسا. ثم عندما نشبت الحرب العالمية الأولى جاء وحيداً هارباً والتقى بفرقة اخذته معها إلى الجبهة . وهكذا انضم إلى الجيش . وانتهى لان يكون من حاملي الرشاشات مع فصيلة من القوات الروسية الموفدة إلى فرنسا لتكون جزءاً من قوة الحملة الروسية .

وبعد سنين كثيرة عندما كان وزيراً للدفاع في الاتحاد السوفياتي رافقني مالمينوفسكي في رحلتي إلى باريس للاجتماع بروساء الدول الثلاث الكبرى . وقد فشل ذلك الاجتماع قبل ان يبدأ لان الاميركيين ارسلوا احدى طائراتهم ي - ٢ المعدة للتجسس فوق اراضيها فاسقطناها . واثاء وجودنا في باريس

اقترح مالىنوفسكي قائلاً : « دعنا نذهب لزيارة القرية التي كانت وحدتنا مرابطة فيها اثناء الحرب العالمية الاولى . ان الفلاح العجوز الذي اقمنا في بيته يرجح ان يكون قد توفي غير ان زوجته كانت امرأة شابة فربما تكون ما زالت على قيد الحياة. » فاخذنا سيارة وانطلقنا بها على الطرق الفرنسية الجميلة فارشدنا مالىنوفسكي إلى القرية المقصودة بدون صعوبة فوجدنا المترل ورحبت بنا ربة المترل وابنها الذي كان عنده الان اولاده بلباقة وكرم وقالت لنا تلك السيدة « ان زوجي قد توفي منذ زمن بعيد . » وبدأ الاصدقاء يلتفون حولنا وفتحت الشبانيا وشرع مالىنوفسكي في استعادة الذكريات والسؤال عن الاشخاص والاماكن التي كان يعرفها .

- الم يكن هنالك صالون على مقربة من هذا المكان يجتمع فيه الفلاحون .
- الا تزال تذكر ذلك ؟
- اجل ، اني اذكره جيداً .
- اذن يرجح انك تذكر تلك الفتاة التي اسمها كذا وكذا ؟
- نعم - قال مالىنوفسكي باسم - انني اذكرها بكل تأكيد .
- فضحكوا جميعاً وقالوا « انه يذكرها ! لقد كانت اجمل فتياتنا ولكن ماتت منذ زمن بعيد » .

واخذ فرنسيون آخرون بالوصول وانتشر النبا بسرعة ان الزائر هو وزير الدفاع السوفياتي الذي كان جندياً في وحدة روسية مرابطة في القرية قبل خمسين سنة تقريباً .

وكانوا جميعاً يقولون بصوت واحد « اننا طبعاً نذكره ، فقد كان لديك في وحدتكم دب روسي اليس كذلك ؟ » فضحك مالىنوفسكي واخبرني انه هو وبعض رفاقه كانوا قد وجدوا جرو دب صغير في طريقهم إلى فرنسا فنقلوه معهم . وكان مالىنوفسكي قد جاء إلى فرنسا عندما نشبت الثورة في بلادنا . واني اذكر ذلك عندما روى لي قصة حياته حيث قال : « لقد كنت اشعر باسف كبير ان الثورة وجدتي عند نشوبها عاملاً في الخارج في الحملة الروسية وقد تمكنت بعد صعوبة كبيرة من العودة إلى روسيا بطريق فلاديفوستك وانتقلت وسط سيبيريا التي كانت حينئذ تحت سيطرة كولشاك . واخيراً التقيت بالجيش الاحمر . » واني اعيد هذا الجزء من تاريخ مالىنوفسكي نظراً لاهميته لفهم عهد ستالين . وقد ظلت الشكوك والشبهات معلقة فوق مالىنوفسكي مثل سيف ديموقليس اولاً لانه كان احد المشتركين في الحملة القيصريّة في فرنسا اثناء الحرب العالمية الأولى ، وثانياً لانه كان في منطقة يحتلها البيض قبل انضمامه إلى الجيش

الاحمر . ثم انه تعرض إلى شكوك ستالين شخصياً به مرة أخرى عندما كنا نعمل معاً على الجبهة الجنوبية بعد معركة ستالينغراد. وفي ما يلي رواية ما حدث :
في احد الايام دخل مالنوفسكي فجأة علي في محل اقامتي في فرخين - تسارتمسينك وهو شديد الاضطراب ، ودموعه منهمة على وجهه فصحت به قائلاً :

- رودوين ياكوفليفتش ، ماذا وقع ؟ اي شيء حدث ؟
- شيء رهيب . ان لارين قد اطلق النار على نفسه .
وكان لارين عضواً في المجلس العسكري عن جيش الحرس الثاني وكان ايضاً جندياً حقيقياً وجنرالاً قديراً وكان هو ومالنوفسكي صديقين حميمين . وكان لارين مفوضاً حزبياً لمالنوفسكي عندما اعطي هذا الاخير قيادته الأولى ومنذ ذلك الحين طلب اكثر من مرة ان يكون لارين مفوض وحدته .
وقد اخبرني مساعد لارين في ما بعد ظروف وفاته . وهي قصة لا تصدق في حد ذاتها . ويظهر انه عن قصد سمح لذاته بان يصاب برصاص العدو عندما خرج لتفقد الخطوط الامامية في الجبهة . فبدلاً من الاحتماء وراء كومة من التبن عندما فتح الالمان النار اخذ بتقل سائراً بالعدو ملوحاً له بهدف فيه كل الاغراء متممداً طلب الموت . فاصيب بجرح ولكن لم يكن جرحه خطراً فقد استقرت القذيفة في القسم الناعم من « بطة » ساقه . ولم يكن عظم الساق قد اصاب . وعندما ذهبت لاراه في منزله كان جالساً يتحدث بمرح مع طبيبة ارمنية وبدا مرحاً حتى آخر ساعة عندما اطلق الرصاص على نفسه .
اننا نعلم كيف اقدم لارين على الانتحار . غير اننا لا نعلم لماذا انتحر . لقد كان بالامكان ادراك السبب لو كان حدث ذلك في بداية الحرب عندما انتحر عدد من الجنرالات اثناء تفهقنا . ولكن الآن كانت الحالة قد تبدلت وكنا نحن نقوم بالهجوم فقد طوقنا باولوس وكان جيش الحرس الثاني الذي كان لارين يمثل في عضوية المجلس العسكري يقاتل ببسالة ضد مانستين لذلك يبدو انه لم يكن هنالك من سبب على الاطلاق يحمله على الانتحار - وذلك على الاقل في ما يتعلق بنضالنا ضد الالمان .

وقد ترك لارين رسالة قصيرة ، غريبة جداً ، خلاصتها بكل بساطة انه لم يكن يستطيع ان يبقى حياً . وقد كتب فوق توقيعها الشعار المؤلف « يعيش لينين » . فارسلنا حالاً رسالة لارين عن انتحاره إلى موسكو حيث تسلمها شيرباكوف . ولا يجوز للانمان ان يقول شيئاً غير حسن عن الميت لذلك سوف لا اقول شيئاً عن شيرباكوف سوى انه كان من كبار رجال الحزب

طيلة سنين كثيرة ورئيساً للإدارة السياسية في الحرب . وقد استعمل شيرباكوف رسالة لارين لينفخ في نار شكوك ستالين ضد مالمينوفسكي . وكذلك ليغمز من قناتي انا ايضاً اذ كنت عضواً في المجلس العسكري التابع للجبهة التي وقع فيها الحادث .

فبعد فترة قصيرة من ارسالنا رسالة لارين استدعيت إلى موسكو وحسب العادة كانت هنالك مآذب لا نهاية لها مع كل ما يرافقها من زخرفات ستالين . واثناء تناول الطعام تحول ستالين نحوي وسألني قائلاً : من هو مالمينوفسكي ؟

فقلت له : « لقد قدمت لك تقارير عن مالمينوفسكي اكثر من مرة في الماضي فهو قائد مشهور نوعاً . تولى قيادة فرقة في بداية الحرب ثم جيشاً واخيراً كان قائداً للجبهة الجنوبية حيث عانى بعض الانعكاسات كما تعلم . وقد اعفي من قيادته بعد سقوط روستوف واعيد تعيينه للمؤخرة حيث شكل جيش الحرس الثاني » . وهنا بدأ شيرباكوف في اللعب بشبهات ستالين بطريقة يقصد بها تحويل ستالين ضد مالمينوفسكي وبطريقة غير مباشرة ضدي ايضاً فقال : « ربما لم يكن من قبيل الصدفة ان لارين كتب « يعيش لينين » وليس « يعيش ستالين » . ماذا تظن كان يعني بقوله « لينين » بدلا من ستالين ؟

فأجبت قائلاً : « لا اعلم . ان لارين كان بداهة تحت تأثير نوع ما من الاضطراب النفسي عندما اطلق الرصاص على ذاته » .

لقد كان شيرباكوف يحاول بصورة واضحة ان يحملني على ان اتهم لارين ومالمينوفسكي ايضاً غير انني لم تكن لي نية ان اسمح له ان يستعملني على هذه الطريقة .

وبعد ذلك سألني ستالين مرة اخرى :

— من هو مالمينوفسكي ؟

— ايها الرفيق ستالين ، لقد عرفت مالمينوفسكي منذ بداية الحرب واستطيع ان اعطيه فقط اعلى درجات التوصية سواء بصفته العسكرية او بصفته انساناً .

لقد استطعت ان ادرك ان مالمينوفسكي كان عرضة لمناعب فان سيرته الأولى ثم فشله في روستوف والآن انتحار لارين — كل هذه الامور كانت متصلة معاً في ذهن ستالين والادلة كانت تتكوم ضد مالمينوفسكي على الرغم من جهودي القوية للدفاع عنه .

وعاد ستالين وخاطبني قائلاً :

« يحسن بك متى عدت إلى الجبهة ان تراقبه جيداً . واني اريد منك ان تبقي عينيك مفتوحة على مقر جيش الحرس الثاني ايضاً . راجع كل اوامره وقراراته

ودقق فيها ، وتبع كل حركة يديها . »

— حسن ، ايها الرفيق ستالين سوف لا اترك مالمينوفسكي بعيداً عن نظري .

وعندما رجعت إلى الجبهة وضعت جاسوساً على مالمينوفسكي يراقبه كل ساعة من ساعات اليوم . وكان يتوجب علي ان اراقبه حتى عندما يذهب للنوم لارى ما اذا كان يغمض عينه وينام حقيقة . على اني لم اكن راضياً عن عملي هذا على الاطلاق .

ولم أقل لمالمينوفسكي شيئاً عن رد الفعل الذي بدا من ستالين عندما علم بانتحار لارين الا بعد وفاة ستالين عندما خرجت معه مرة للصيد . فاخبرته كيف كان علي مراقبته وابلاغ مقر القيادة العامة عنه دوماً . فقال لي مالمينوفسكي انه كان يعلم دوماً لماذا كنت اتبعه ، ولماذا اتخذت مسكناً إلى جانب مسكنه . وقال لي انه كان باستطاعته ادراك حرج موقعي ولم يلمني على ذلك . وانه كان يعلم انه ما دام يعمل بشرف وكفاءة فاني لن اتدخل في شؤونه واني سوف ارفع تقارير حسنة عنه إلى ستالين . واني لا اعلم ما الذي انقذ مالمينوفسكي من ان يذهب ضحية رغبة ستالين الملحة في اعتقال الناس وتصفيتهم . ربما تكون تطلبات الحرب العملية هي التي ارغمت ستالين على كظم غضبه وشبهاته . ثم ربما ساعد تدخله ودفاعي في نجاة مالمينوفسكي من المصير الذي كان يتهدهده . وعلى كل حال فان نفوذي لدى ستالين لم يكن قليلاً او عديم القيمة .

زيارة من الرفيق اولبريخت

هنا تعطى لنا أول لمحة عن والتر أولبريخت الرئيس الحالي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية أو ألمانيا الشرقية الشيوعية . فهو مثل سواء من الألمان الشيوعيين أمضى زمن الحرب في الاتحاد السوفياتي حيث كان يدرّب ويعدّ للدور الذي سيقوم به في المستقبل . واثناء وجوده في موسكو كان رئيساً للدائرة السياسية في الحزب الألماني الشيوعي القائم في المنفى . وساعد على زيادة تحسين أوضاعه اتهامه لبعض زملائه الأكفاء . وفي ١٩٤٢ انشأ الروس اللجنة الألمانية الحرة في موسكو لتجنيد أسرى الحرب وتدريبهم على الأعمال السياسية ونشر الدعاية بين الجنود الألمان في الخطوط الأمامية . وبعد معركة ستالينغراد عين عدد من الضباط الألمان البارزين في تلك اللجنة وأفضل وصف عن هذه الأعمال ورد في «في ظل ستالينغراد» لمؤلفه هيريل فون اينسيدلن .

جاء والتر اولبرخت مرة مع اثنين من الالمان الشيوعيين إلى « فرخين - تمارتسينيك » لكي يذيعوا الدعاوة إلى العدو بواسطة مكبرات الصوت (١) وكانوا فيها يحرضون الجنود الالمان ويلحون عليهم لتسليم انفسهم . وهذا العمل كان عادة يجري ليلا .

وقد تناولنا اولبرخت وانا مراراً كثيرة العشاء معاً بعد ان كان يعود من الخطوط الامامية . وكنت امزح معه كثيراً مثل قلبي له « ماذا ايها الرفيق اولبرخت لا يبدو عليك انك قد استحققت عشاءك اليوم اذ ان احداً من الالمان لم يسلم نفسه » . ثم تلقيت في احد الايام نبأ ان احد الجنود الالمان قد جاء إلى جانبنا . فقلت « احضره إلى هنا لرى اي نوع من الرجال هو ونسمع ما يقوله عن الروح المعنوية لدى رفاقه » .

فجاءوا بالرجل لعندي فبألتة : « من انت ؟ وما هي جنسيتك ؟ »

— انا بولوني .

— كيف دخلت في الجيش الالماني .

— انا من ذلك القسم من بولونيا الذي ضم إلى المانيا وقد دعيت للخدمة .

فتولاني شعور الارتياح إلى هذا الرجل فقلت له « انا نخطط لكي نؤلف جيشاً بولونياً لتحرير بلادك فما رأيك في ذلك ؟ »

— اني مسرور طبعاً . فاني اريد ان تحرر بولونيا .

— حسن ، هل تريد ان توقع للانضمام إلى الجيش البولوني .

— كلا .

— اذن كيف يصير تحرير بولونيا .

— ان الروس سوف يحررونها .

فلم اشعر بارتياح لرنة صوته عندما قال ذلك فنظرت إلى الرفيق اولبرخت وقلت : « اذن هكذا ترى من تمكنت ان تجتذبه بدعايتك فهو ليس جندياً المانيا على الاطلاق . هو بولوني فار من الصفوف الالمانية ، وهو ليس على استعداد حتى لان يشترك في تحرير بلاده .

وبعد ذلك فر من الصفوف الالمانية عدد قليل من الالمان الاصليين واخذوا اسرى . وعندما جاء عيد الميلاد امرت بان تقدم لهم فروض الضيافة في مقر

(١) هذه الحادثة ينبغي ان تكون قد وقعت في اواسط شهر كانون الأول ١٩٤٢ عندما كان الروس يقاومون محاولة مانتين اليانسة للافراج عن جيش باولوس السادس والمحبوز في ستالينغراد .

قيادتنا — اعني مقر قيادة مالىنوفسكي . غير اني امرت اولاً ان يؤخذوا إلى الحمامات ويظهروا وتتاح لهم الفرصة لان يغتسلوا ويرتدوا ملابس جديدة ، وبعد ذلك جئنا بهم إلى محل سكنا وقدمنا لكل منهم مئة غرام من الفودكا وطعاماً . وكان اولبرخت هناك ايضاً . وفي اثناء الحديث الذي جرى بعد ذلك اخبرنا احد الاسرى الالمان انه ضد النازية وضد هتلر وضد الحرب . وبدأ واضحاً انه افضل رفاقه الآخرين فسأله اولبرخت : « هل انت تقبل ان نبيدك إلى الخطوط التي جئت منها لتعمل هناك لمصلحتنا ؟ »

— نعم اقبل ولنذهب منفردين كل منا على حدة لنقول لضباطنا اننا هربنا من اسرهم .

ودار جدل بين الزمرة فقال احد الالمان « اذا حاولنا الرجوع إلى خطوطنا فسوف نعدم رمية بالرصاص ولن يؤمن احد بصدق قولنا باننا هربنا ولا يؤمن احد بصدق اية رواية تلفقها . فوقف صديقنا الالماني الاول ورد بحماسة : « انت جبان ! أنا سأذهب . وليعدموني رمية بالرصاص فاني لا يضيرني ان اموت في سبيل القضية . »

وكنا ، الرفيق اولبرخت وانا ، على اتفاق تام على الرغبة في إعادة الفارين الالمان إلى خطوطهم . ثم علم تولبوخين بمشروعنا (١) فجاء لمقابلتي وقال : « ايها الرفيق خروشوف ، لا تنفذ فكرتك فهؤلاء الاسرى الالمان يعرفون موقع قيادتنا فاذا سمحنا لهم بالذهاب فقد يفشون امرنا فتلقى علينا القنابل . »

فقلت : « لا خطر هناك . فقد جئنا بهم إلى مقر القيادة واعدناهم منه وعلى عيونهم عصابات تمنعهم من الرؤية ، فليس لديهم اية فكرة عن مكان وجودهم . » — ومع ذلك ، لا استطيع المخاطرة . فعلى الأقل يجب ان لا تعيدهم الا بعد ان تكون قد اتحت لي الفرصة لنقل مقر قيادتي إلى موقع جديد .

(١) قد يكون هناك شيء من الارتباك أو التشويش حول مقررات القيادة المشار إليها فان فرخين — تاريتينيك كانت في هذا الزمن مقر قيادة الجيش الحادي والخمسين بقيادة المايجور جنرال ن.ل. تروفانوف وكان هذا الجيش منضماً إلى الجيش السابع والخمسين بقيادة الجنرال ف.ا. تولبوخين . وكان مالىنوفسكي حيتز قائداً لجيش الحرس الثاني الذي نقل بمقتضى احتجاج من جبهة روكوسوفسكي في «دون» إلى جبهة ستالينغراد في ١٥ كانون الأول في حركة سريعة لوقف هجوم مانستين (وقد حصل هذا الهجوم في ٢١ كانون الأول). كان خروشوف دون ريب مع فاسيلافسكي رئيس أركان الحرب السوفياتي في مقر قيادة الجيش الحادي والخمسين يوم ١٢ كانون الأول عندما كان هجوم مانستين في أعلى ذروته .

فاستطعت ان ادرك ان لا فائدة من الاصرار لمعرفتي ان ستالين لن يؤيدني اذا ذهب تولبوخين اليه بدون علمي . على انني لم ابلغ اولبرخت عن اعتراضات تولبوخين بل قلت له فقط : « يبدو ايها الرفيق اولبرخت انه من المستحسن ان نضع المشروع جانبا لان هنالك بعض الخطر من ان هؤلاء الالمان قد يفشون موقع مقر قيادتنا اذا سمحنا لهم بالذهاب » .
فهز اولبرخت كتفيه وقال :

- حسن .

واستمر في عمله باذاعة الدعاية عبر الخطوط الالمانية .

كورسك

كانت معركة كورسك أعظم معارك الدبابات التي شهدتها التاريخ . ففي كورسك في تموز ١٩٤٣ مزق جوكونف قلب الجيش الالمانى وقضى عليه بالفناء التام ، وقد اشتركت في المعركة حوالي ستة آلاف دبابة ومدافع ذات محرك ذاتي كانت تمزق الفضاء بزخات متواصلة من قذائفها حتى أنها بدت أقرب ما يكون إلى المعارك البحرية منها إلى معركة تدور رحاها على البر . وتوفرت فيها حرية المناورة المطلقة .

ورغم ان معركة كورسك لم تتحوز على خيال الغرب وتتأثر باهتمامه بالقدر الذي فعلت ستالينغراد ، الا انها كانت انجازاً بطولياً فذاً مذهلاً ومعركة منظمة على نطاق هائل تمثلت فيها على أرفع مثال ، المهارة وقوة الاعصاب وكثافة البطش . ولم يقتصر الفضل على جوكونف وفاسيلفسكي اللذين خططا للمعركة ووضعاً تصيبها ، بل تعداه إلى روكوفسكي قائد الجبهة الوسطى ، وفاتوتين قائد جبهة فورونزية التي عززت مجدداً . وقد قاتلوا جميعاً أكثر تشكيلات الدبابات الالمانية خبرة ومهارة واخرسوها وحطموها .

وحضر غروتشوف هذه المناسبة الفريدة التي لا مثيل لها بوصفه المستشار السياسي للجنرال فاتوتين الذي كان الآن قد برز كأكبر جنرالات الطرفين كفاءة ومواهب . وقد لقي حتفه على ايدي الوطنيين الاوكرانيين في شباط ١٩٤٤ . وفي سبيل الاطلاع على أوفى التفاصيل لمعركة كورسك ، بل للحرب كلها بين المانيا والاتحاد السوفياتي ، انظر «برباروسا» بقلم الآن كلارك .

كان المنتقصون من مواهبنا يقولون ان السبب الوحيد الذي ساعدنا على سحق جيش بارلوس الهائل في ستالينغراد هو الشتاء الروسي الذي كان إلى جانبنا . وقالوا

مثل ذلك أيضاً عن بطشنا بالالمان وهزيمتنا لهم خارج موسكو في ١٩٤١ . ومنذ صدت روسيا غزو نابوليون وهم يزعمون دوماً ان الشتاء كان حليفنا الرئيسي . غير ان الالمان لم يستطيعوا استخدام هذه الحجة او التذرع بهذا العذر لايضاح سبب هزيمتهم في معركة كورسك في ١٩٤٣ . فهم الذين اطلقوا الرصاصة الأولى ، واختاروا موعد المعركة ومكانها وشكلها . وكانت جميع الاوراق بين ايدي هتلر وايدي رجاله السفاحين . وكان الصيف في اكثر ايامه حرارة وخلواً من الثلوج والامطار . واذا اردنا استعمال العبارات البراقة في وصف الطقس لحاز لنا القول ان البلاد باسرها كانت مليئة بالازهار الفواحة العطرة .

كان المفروض ان تقوم جيوشنا بقيادة روكوفسكي بخطة هجومية من جانباها في تموز او حوالي ذلك . وكنا على ثقة ان هجومنا هذا سيحالفه التوفيق واننا سوف نسحق الالمان ونردهم غرباً إلى الدنيبر . وكنا جميعاً تحذونا رغبة واحدة هي ان نشق طريقنا في خطوط الالمان فننقذ خاركوف ونحررها .

وفجأة ، حوالي ١٥ او ١٦ يوماً قبل الموعد الذي كانت ستبدأ فيه عملياتنا ، تلقينا اشارة من الجيش السادس ابلغنا فيها قائده ان جندياً المانياً فر من الخطوط الالمانية الامامية وان لديه بعض المعلومات المهمة . فهو يقول ان الالمان سوف يقومون بالهجوم صباح الغد في الساعة الثالثة . فأمرنا ان يوثق بالاسير البنا حالا وتولينا فانتوتين وانا التحقيق معه . فسألته انا :

— ما الذي يحملك على الظن انهم سوف يقومون بالهجوم ؟

— انا ، بالطبع ، لم اطلع فعلاً على الاوامر الصادرة بالهجوم ، غير ان الجنود يستطيعون الشعور بما سوف يحدث . وليس هذا الآن مجرد شعور . فاو لا ، صرفت لنا جرايات مجففة لثلاثة ايام . وثانياً ، تحركت الدبابات متجهة إلى الخطوط الامامية . وثالثاً ، صدر الامر بتكديس الذخائر إلى جانب المدفعية الثقيلة وقطع الميدان لكي لا يضيع الوقت متى فتحت المدفعية النار .

— ولكن ما الذي يحملك على التأكد من ان الهجوم سوف يبدأ الساعة الثالثة صباحاً ؟

— تستطيع تقدير ذلك انت بنفسك . في هذا الفصل من السنة يبدأ بزوغ الفجر حوالي تلك الساعة وذلك هو الوقت الذي تمحسن القيادة الالمانية فيه ان تبدأ بالهجوم .

وقد كان ذلك الفتى الفار شاباً جميل الصورة ، انيق المظهر ، يبدو بداهة انه ليس من فئة العمال . وهو ينتمي إلى احدي الفرق المدرعة المشهورة مثل فرقة « ادولف هتلر » او « الرايخ » او « رأس الموت » . وهذه الفرق الثلاث جميعاً

كانت مرصدة ضدنا وكنت قد تعودت ان اقول إلى « فاتوتين » اني حينما توجهت على الجبهة اجد دائماً فرقة « رأس الموت » مواجهة لي .
وسألت الجندي الالماني عما اذا كان نازياً .

— كلا ، اني ضد النازيين . وذلك ما جعلني اجيء إلى جانبكم .

— ولكنك مع « فرق العاصفة » وهم جميعاً نازيون .

— كلا ، ليسوا كذلك الآن . كان هذا صحيحاً في السنة الأولى والسنة

الثانية من الحرب . ولكن فرق العاصفة الآن تضم اي شخص يستطيع الحصول عليه . لقد اخذوني بسبب مظهري اللامع . فانا لست حتى من النوع الذي ينتمي اليه النازيون . فوالدي من الالزاس ، وقد نشأت فرنسياً . ووالداي هما ضد هتلر ورياني كذلك . وانا لا اريد ان اعرض عنقي للخطر في سبيل هتلر ، وذلك ما جعلني اهرب . وانه لمن مصلحة الشعب الالماني وخيره ان يهزم هتلر وينتهي . وعندما انتهينا من استجواب الاسير تسلمه ضباط استخباراتنا وذهبوا به .

فبادرنا حالاً إلى مخاطبة موسكو لاندازار القيادة العليا بان الالمان يعدون العدة للشروع في الهجوم . وبعد فترة قصيرة تلقى ستالين لي ، ولا اعلم اذا كان قد تحدث مثل ذلك مع فاتوتين ام لا . وعندما اقول ان ستالين طلبني فلا ازعم انه لم يطلب القائد كذلك . اني لا اريد ان يقول الناس « هكذا يفعل خروشوف » فهو يمدح نفسه مرة اخرى ويقول دائماً انا ، انا ، انا » . كلا ايها الاصدقاء المحترمون ، اني لا احاول الاشادة بشخصي ، بل كل ما احاول هو ابلاغكم ما حدث . كنت عضواً في المجلس العسكري والمكتب السياسي وكان ستالين يعرفني ويثق بي حتى وان يكن بعض الاحيان يحملني اخطاءه . حتى وان يكن بنفس عن نفسته وقلقه بالتعامل علي بعض الاحيان فقد كان يمحضني ثقته الكبرى . وكثيراً ما كان يطلبني ويسألني رأبي . وقد فعل مثل ذلك عندما كنت في ستالينغراد وفي الجنوب ، وفعل ذلك ايضاً في كورسك .

وقد اصغى ستالين إلي بهدوء وانا اوضح له الحالة . ولم يكن وقحاً او متعلماً كما كان يبدو بعض الاحيان في الماضي ، فسررت لذلك . ولا اعلم ما الذي جعله هادئاً مسيطراً على نفسه هذه المرة ، بينما كان في مناسبات اخرى يشور تماماً ويفقد رباطة جأشه . وكان كما لو ان الشيطان ذاته قد امسك بخيط متصل باعصاب ستالين ، ولم يكن احد يعلم متى الشيطان يحرك ذلك الخيط فينطلق ستالين في احدى ثوبات الهياج التي اشتهر بها . على ان طباع ستالين ومقدرته على ضبط ذاته قد تحسنتا إلى درجة كبيرة . وكان ، بالاختصار ، شخصية ذات قوة عظيمة .

وبعد ان انتهيت من وصف الحالة ، سألي ستالين : « ماذا ترى انه يجب ان نفعل ؟ » فاجبته قائلاً : « ان القائد وانا قد تبادلنا وجهات النظر ونحن متفائلان كثيراً ويسرنا ان الالمان سوف يبدأون هجومهم غداً » .

— لماذا ؟

— لان مواقعنا الدفاعية متينة وسوف نجعل العدو يدفع من دمه عندما يحاول ان يخرقها . حتى وان نكن لا نزال في انتظار النجدة ، فاننا سوف نتمكن من الصمود في مواقعنا . ان الدفاع يتطلب قوات اقل من القوات التي يتطلبها الهجوم . وقد تعلمنا ذلك بالممارسة كما تعلمناه نظرياً .

اما العدو فقد كان ايضاً واثقاً من الفوز . وقد اطلعت فيما بعد على امر استولينا عليه من وحدة المانية مدرعة تم تدميرها ، وهي رسالة موجهة إلى الجنود الالمان ورد فيها شيء مثل هذا : « انكم الآن تقومون بهجوم مستعنيين بدبابات متفوقة كثيراً على الدبابات الروسية ت ٣٤ . وحتى الآن كانت دبابات ت ٣٤ افضل دبابة في العالم وتفضل حتى على دباباتنا . اما الآن فلكم دباباتنا من طراز « تيغر » (النمر) الجديدة وهذه لا يضاهيها شيء . ويمثل هذا السلاح انتم يا محاربي الجيش الالمانى لا يمكن ان تفشلوا في سحق العدو » .

والواقع ان دباباتهم الجديدة كانت ذات خطر حقيقي . غير ان جنودنا سرعان ما تعلموا كيف يتغلبون عليها . وفي كورسك ربحنا معركة قلبت ميدان الحرب لمصلحتنا ورجحت كفتنا وكانت في رأبي نقطة التحول في الحرب الوطنية العظيمة . فقد كانت حاسمة في تقرير هزيمة المانيا الهتلرية والانتصار النهائي لجيشنا السوفياتي ولعقيدتنا لحزبنا الشيوعي .

النصر

دخل خروشوف « كييف » في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٣ وكان قد رفع الى رتبة لفتنت جرنال . واصبح الان يشعر اكثر قرباً الى الجنود الذين كان قد عاش معهم أكثر من عامين ورافقهم حتى الحدود البولونية الجديدة . ولكن أيامه العسكرية كانت قد انتهت وكان عليه ان يعود إلى كييف لكي يواجه مهمة إعادة بناء إدارة الحزب والحكومة في اوكرانيا .

بعد هزيمتهم في كورسك بدأ الالمان يترنحون متقهقرين تحت ضربات جيشنا . ولست — والحق يقال — متحرراً من بعض وجوه الضعف البشري بما في

ذلك التباهي . لذلك فأنني بكل تأكيد اشعر بسرور لانني كنت عضواً في المجلس العسكري التابع للجبهات التي اشتركت في المعارك الهائلة التي خاض الجيش الاحمر رحاها في ستالينغراد وفي كورسك .

وبعد كورسك كنت في البداية متصلاً بجبهة فورونزيه ثم بالجبهة الأوكرانية الاولى . وكنا نندفع بقوة صوب « كييف » . وكانت ساعة انتصار باهر عند وصولنا إلى ضفة نهر دنيبر الغربية . كنا نقاتل في سبيل تحرير عاصمة اوكرانيا أم المدن الروسية . وكان الجميع يشعرون بدموع الفرح تتدفق في داخلهم . فمُنذ ١٩٤١ القمي بنا إلى الورا حتى ابواب ستالينغراد وغداً او بعد غد سوف نكون في « كييف » .

وبينما كنا لا نزال خارج المدينة وصل جوكوف من مقر القيادة العامة (١) وكان قد اعد له ولي غرفة محصنة تحت الارض لتنام فيها . وفي اثناء النهار كنا نجلس منصرفين إلى التمازج وبحث الحالة . وفي اليوم الثاني والثالث لم نهتم حتى لان نستعمل المخبأ . لقد طردنا الالمان وقذفنا بهم إلى الغابات وقواتنا كانت تناوشهم خارج المدينة ، وكنا نقاتل من رأس جسر إلى الغرب من المدينة لمنع العدو من شق طريق إلى زيتومير - كييف .

وكان غريشكو نائباً لقائد جبهة فورونزيه (٢) وشاهدناه يعد مقراً له في « ميزهغورا » لكي يساعد في تنظيم القوات من هناك . واني لاذكر ان الشمس كانت قد مالت إلى المغيب عندما وصل غريشكو إلى مخفر قيادتنا خارج كييف . وكان المساء دافئاً مع ان الخريف كان قد اقبل . وكنا قد انتقلنا إلى خارج الابواب وبوركاتنا (اودية قوقاسية) ملقاة على اكتافنا ، فوصل غريشكو وقدم تقريره مباشرة لنا . وكنت قد عرفته منذ زمن بعيد وأكن له الاحترام الوافر . فسمحت لنفسني ان امزج حول قامته الطويلة ، فقلت له : « ايها الرفيق الجنرال ، ارجوك ان تراجع قليلاً إلى الورا لكي انظر اليك في عينيك » .

(١) بعد كورسك تسلم فانوتين قائد جبهة فورونزيه الجبهة الاوكرانية الاولى وبقي خروشوف معه . وعندما اصيب فانوتين بجرح ممت في شباط ١٩٤٤ تسلم جوكوف القيادة لفترة من الزمن وهي أول قيادة حربية تولاها منذ معركة موسكو في عام ١٩٤١ .

(٢) الكولونل جنرال غريشكو وهو الآن المارشال غريشكو وزير الدفاع . اصبح في ١٩٦٠ القائد الاعلى لقوات ميخائيل فرسوفيا . وبصفته قائداً لمنطقة كييف العسكرية بعد الحرب تماماً عمل قريباً من خروشوف بمض السنين . وهو الذي خطط واعد وتولى قيادة غزو تشيكوسلوفاكيا في ١٩٦٨ .

فضحكك ولا اذكر تماماً ما الذي قاله في تقريره ، غير ان النقطة الرئيسية كانت ان العدو قد سحق .

وبعد قليل حدث انفجار مفاجيء وارتفعت سحابة من الدخان فوق المدينة. وكنت اعرف « كييف » مثل معرفتي لكيف يدي فقلت : « ان الالمان ينسفون المصنع البلشفي في القسم الغربي من المدينة ، فاذا كانوا قد بدأوا في المباني فذلك يدل حتماً على انهم يركنون إلى الفرار » . وكنت قبل هجومنا قد طلبت تعيين فرق خاصة لتذهب حالا إلى بنايات اللجنة المركزية ومقر منطقة كييف العسكرية وبناءة مجلس الوزراء واكاديمية العلوم وغير ذلك من المواقع ذات الاهمية حالما تدخل قواتنا إلى كييف . وكان على هذه الفرق ان تتأكد من ان الالمان لا يكون لديهم الوقت للشروع في اضرار الحرائق او تفجير المتفجرات وعليها ان تطرد فرق الهدم الالمانية وتعطل اية متفجرات قد تكون اعدت للتفجير .

وعندما بدأ الانفجار قلت لقائد المدفعية « ايها الرفيق فيرنسوف اعط الامر لتغطية كييف بقصف موزع بالقنابل » فنظر إلي مندهشاً لانه كان يعلم وفائي لكييف ومحبي للمدينة العزيزة ، فكيف اطلب اليه فجأة ان يطلق النار عليها ؟ فقلت له موضحاً موقعي « ايها الرفيق فيرنسوف ، اذا فتحت النار على المدينة يدب الذعر في قلوب الالمان فيحاولون الخروج منها باقصى سرعة ويكون ما يلحقون من الاذى بالمدينة اقل نسبياً . وباستطاعتنا دائماً ان نصلح الاضرار التي تسببها بعض القذائف القليلة الموزعة هنا وهناك » .

ودخلت قواتنا كييف في ٦ تشرين الثاني ١٩٤٣ وهو يوم انتصار خاص لانه كان عشية الذكرى السنوية لثورة تشرين الأول العظيمة وبدا كما لو اننا تعمداً تحرير كييف في ذلك اليوم احتفالاً بتلك الذكرى. غير ان الواقع هو ان ذلك كان صدفة سعيدة .

وارسلت في ساعة مبكرة من صباح يوم ٦ تشرين الثاني سائق سيارتي الرفيق زورافليف إلى كييف ليتحقق من حالة الطريق . فعاد وابلغني ان الطريق خالية تماماً ، فدخلت وبعض الزعماء الاوكرانيين إلى المدينة . واني لاعجز عن التعبير عن العواطف التي غمرني عندما انطلقت بسيارتي على الطريق إلى داخل كييف . كانت طريقاً مألوفاً اذ كنا نستعملها للوصول إلى « داشاتنا » والذهاب منها قبل الحرب . وقد مررنا وسط الضواحي ووصلنا إلى « كريشاتك » (البوليفار الرئيسي في كييف) . وذهبت رأساً إلى مجلس الوزراء لاتفقد البناء ، فكان في حالة جيدة من الخارج . وكان بناء اللجنة المركزية لا يزال قائماً ايضاً وكذلك اكاديمية العلوم والمسارح . غير ان المصنع البلشفي ومصنع « كريشاتك » كانا

قد دمرا تماماً .

الا اننا شعرنا كأن تغييراً كبيراً قد حدث في المدينة . فقد كانت قبل الحرب كثيرة الضجيج مرحة حية ، اما الان فبدت خالية كأن لا حياة ولا انس فيها . وكنا ونحن نسير على طريق كريشاتك متجهين إلى شارع لينين نسمع صدى وقع خطواتنا على الرصيف المهجور ، ثم فجأة بدأ الناس يخرجون من محابثهم ، كأنهم يخرجون من طين الارض .

وبينما كنا سائرين في شارع لينين باتجاه الاوبرا نتحدث ونقارن بين مظاهر الامس واليوم ، طرقت مسامعنا صرخة هستيرية ورأينا شاباً يركض مقبلاً نحونا وهو يواصل الصياح قائلاً : « انا اليهودي الوحيد الباقي ! انا آخر يهودي لا يزال حياً في كييف . » فحاولت ان اهدىء من روعه ، وخشيت ان يكون قد جن تماماً ، فسألته كيف بقي على قيد الحياة فقال : « زوجتي اوكرانية وقد خبأتني في « العلية » وكانت تطعمني وتعني بي ولو تجرأت على الظهور في المدينة لكان قضي علي كما قضي على جميع اليهود الآخرين (١) .

وبعد ذلك التقينا رجلاً عجوزاً ابيض اللحية يحمل جراب زاده مثل الذي كنت احمله انا عند ذهابي إلى العمل في المصنع في « يوزوفكا » فالتقى ذاته على كفتي وقبلني على الوجنتين وظهرت الصورة في صحف ومجلات كثيرة .

ووقع نظري على الاميركيين للمرة الأولى في اواخر ربيع ١٩٤٤ على مقربة من كييف . وكان النهار يومها صافى الاديم دافئاً ، واذ بنا نسمع فجأة دمدمة صوت بعيد فاجلنا بصرنا في الجو ورأينا مجموعة كبيرة من الطائرات مقبلة نحونا . ولم اكن قد رأيت ذلك النوع من الطائرات من قبل فادركت انها اميركية . لانه لم يكن لدينا ما يشبهها في سلاحنا الجوي . واني كنت في الحقيقة ، آمل ان تكون اميركية لانه ما لم تكن اميركية فقد تكون المانية . وعلمت ، في ما بعد ان تلك الطائرات كانت من نوع « الحصون الطائرة » طراز ب ١٧ . وهي التي اتخذت قاعدة لها خارج « بولتافا » وكان ذلك جزءاً من اتفاقنا مع روزفلت . وكانت

(١) الاشارة هنا هي إلى مجزرة «بابي يار» وهو وادي خارج المدينة ، حيث قتل في يومين ٣٣٧٧١ شخصاً أوقفوا على حافة حفرة كبيرة واطلقت عليهم نار المدافع الرشاشة . وقد حول موقع بابي يار في ما بعد إلى مدينة للالعاب الرياضية . ولم يسمع بها أكثر الروس إلا بعد أن كتب يفتوشنكو قصيدته الشهيرة بعنوان «بابي يار» ووقع في مشاكل بسببها .

تستعمل اراضيها لتجديد تسليحها وتجديد وقودها بعد القيام بالقاء القنابل على المانيا . وقد كنا نراها في ما بعد محقة فوق رؤوسنا ليلا في طريقها إلى اهدافها في المانيا ، ثم نراها عائدة عند الفجر . وكان الالمان على ما يبدو يتمكنون من اقتفاء اثر الطائرات الاميركية في عودتها إلى بولتافا فيقصفون قاعدتها بقنابلهم . وقد تلقيت نبأ يفيد ان طائرات كثيرة دمرت وارواح كثيرة فقدت من جراء ذلك . وكان اكثر القتلى من رجالنا الذين كنا قدمناهم ليعملوا في صيانة القاعدة (١) .

وفي اثناء دفننا للقوات الالمانية في اتجاه الغرب التقينا بعدو قديم ، اي « الوطنيين الاوكرانيين » . وعلمنا من الرفيق « بيغما » قائد قاعدة انصارنا في اوكرانيا ان « البندريت » (٢) كانوا يؤلفون فصائل من الانصار من رجالهم ، وقد اتخذوا قاعدة لهم في الغابات التي حول « روفنو » . وكان قائدهم يسمى « تاراس بولبا » على اسم بطل « غوغول » . فأمرنا « بيغما » ان يكشف بالتفصيل ماذا يعتزم الانصار البندريت ان يفعلوا ثم قلنا له ان يتيح لبولبا فرصة لان ينضم اليها ضد الالمان . فرفض بولبا ذلك ولم نلبث ان أدركنا ان البندريت يحاولون الاحتفاظ بقوتهم وتوحيدها كي يكون باستطاعتهم فتح حرب الانصار ضدنا في موخترنا بعد ان نطرد الالمان إلى خارج اوكرانيا .

فذهبت انا شخصياً إلى « روفنو » في شتاء ١٩٤٤ للشاور مع الرفيق « بيغما » ومع القائد الذي كان استولى على المدينة والذي اخذ بحرق المنطقة . واظن انه كان « موسكالنكو » (٣) وكانت الارض مكسوة بالثلوج وكان البرد قارساً جداً . فقررت

(١) عدا سرب الطائرات المقاتلة التابع لسلاح الطيران الملكي الذي اتخذ قاعدة له في مورمانسك في أوائل أيام الحرب انشئت قاعدة لقاذفات القنابل الأميركية في بولتافا وهي تمثل الامتياز الوحيد الذي منحه ستالين للحلفاء الغربيين الراغبين في استخدام قاعدة جوية في الأراضي السوفياتية . والغارة الالمانية التي يذكرها خروشوف جرت في ليل ٢١-٢٢ حزيران ١٩٤٤ وقد دمرت خمسين قاذفة قنابل أميركية وقتلت حوالي ثلاثين روسياً واثنتين من الجنود الأميركيين . وبالرغم من الآمال الكبيرة التي علقنا عليها والاحتياطات الواسعة التي اتخذت لذلك فان عملية قصف المانيا التي اطلق عليها سراً اسم «فرانكلين» لم تسفر عن نجاح يذكر ، فقد قامت اقاذفات بنائني عشرة رحلة فقط وكانت العملية تلقى عرقلة دائمة من جراء الشبهات السوفياتية السياسية وعدم الكفاءة البيروقراطية .

(٢) اتباع التأثير الوطني الاوكراني ستيفان بنديرا .
(٣) المارشال س.س. موسكالنكو الذي كان حيتن قائد عسكرياً للجهة الاوكرانية الاولى ، وكان مقرباً كثيراً من خروشوف . وفي عام ١٩٦٠ صار قائداً أعلى لقيادة الصواريخ السوفياتية ، وفي ما بعد لقوات الصواريخ الاستراتيجية .

ان اعود إلى كيف حالما ينتهي الاجتماع في مقر قيادة الفرقة . وقد حاول القائد ان يقنعي بان ابقى عنده تلك الليلة ، ولكنني اصررت على الرجوع إلى كيف حالا . فأتجهت شمالا على حدودنا القديمة مع بولونيا وتوقفت للراحة في احدى قواعد التموين المؤخرة فاسترعى التفاني عدد كبير وغريب من الناس يتسكعون حول المكان . فتساءلت في سري كم ترى من هؤلاء هم من البندريين المتكرين يأكلون طعامنا ويتدأون بنارنا ويتجسسون علينا . وكنت قد حذرت سلفاً من ان المنطقة تعج بالبندريين . فبدلاً من تمضية الليل في قاعدة التموين انطلقت إلى قرية صغيرة على الحدود البولونية القديمة وتوقفت هناك .

واني لاود لو اتحت لي فرصة أكثر لازور قيادة الجبهة بعد ان عبرت قواتنا الحدود إلى داخل بولونيا . فقد كنت ارغب في ان ارى شيئاً من آثار ملاحقتنا للألمان إلى داخل اوروبا الشرقية . غير اني كنت مثقلاً بالعمل في كيف للاشراف على اعادة بناء اوكرانيا وتنظيم الحزب فيها .

وكانت مظاهر ابتهاج عظيم تعم قطاعات الجيش لطردها الألمان إلى خارج بلادنا. وقد تميزت وحدات الحرس بنوع خاص بما أبدته في من نشاط في السنة الاخيرة من الحرب وكان شعارها « إلى برلين من ستالينغراد » . وكان موضوعاً محبباً للمزاح وشرب الانتخاب من سوف يتوصل ليكون حاكم برلين عندما نستولي في النهاية على العاصمة الألمانية . وكان كل واحد منا يطمح لهذا المنصب كما كان كل من رأى وعانى المتاعب التي جلبتها هذه الحرب على بلادنا اراد ان يقوم بدوره لكي يتأكد من أن الألمان قد دفعوا ثمن ما جتته ايديهم .

واذكر انني بينما كنت في كيف تلقيت اشارة تلفونية من جوكونوف ، وكان في حديثه معي يطير فرحاً عندما قال : « قريباً جداً سأحبس ذلك الوحش المراوغ الهزيل هتلر في قفص . وعندما ارسله في قفصه إلى موسكو سامر به في طريق كيف لبتسنى لك ان تلقي نظرة عليه » . فأجبت جوكونوف بانني اتمنى له كل توفيق . لقد كنت اطمئن إلى انه ما دام قائداً للجبهة ، فان هجوماً هو في ايد قوية صالحة .

ثم بعد استسلام المانيا طلبني جوكونوف مرة اخرى وقال : « لن اتمكن من البر بوعددي لك ، فان ذلك الافعى هتلر قد مات ، اذ اطلق الرصاص على نفسه . فاحرقوا جثته وقد عثرنا على هيكله المفحم » (١) .

(١) ظل ستالين زمناً طويلاً يصبر على القول بأن هتلر لم يميت على الاطلاق .

تستعمل اراضيها لتجديد تسليحها وتجديد وقودها بعد القيام بالقاء القنابل على المانيا . وقد كنا نراها في ما بعد محقة فوق رؤوسنا ليلا في طريقها إلى اهدافها في المانيا ، ثم نراها عائدة عند الفجر . وكان الالمان على ما يبدو يتمكنون من اقتفاء اثر الطائرات الاميركية في عودتها إلى بولتافا فيقصفون قاعدتها بقنابلهم . وقد تلقيت نبأ يفيد ان طائرات كثيرة دمرت وارواح كثيرة فقدت من جراء ذلك . وكان اكثر القتلى من رجالنا الذين كنا قدمناهم ليعملوا في صيانة القاعدة (١) .

وفي اثناء دفعنا للقوات الالمانية في اتجاه الغرب التقينا بعدو قديم ، اي « الوطنيين الاوكرانيين » . وعلمنا من الرفيق « بيغما » قائد قاعدة انصارنا في اوكرانيا ان « البندريت » (٢) كانوا يؤلفون فصائل من الانصار من رجالهم ، وقد اتخذوا قاعدة لهم في الغابات التي حول « روفنو » . وكان قائدهم يسمى « تاراس بولبا » على اسم بطل « غوغول » . فأمرنا « بيغما » ان يكشف بالتفصيل ماذا يعتزم الانصار البندريت ان يفعلوا ثم قلنا له ان يتيح لبولبا فرصة لان ينضم اليه ضد الالمان . فرفض بولبا ذلك ولم نلبث ان أدركنا ان البندريت يحاولون الاحتفاظ بقوتهم وتوحيدها كي يكون باستطاعتهم فتح حرب الانصار ضدنا في موخترتا بعد ان نطرد الالمان إلى خارج اوكرانيا .

فذهبت انا شخصياً إلى « روفنو » في شتاء ١٩٤٤ للتشاور مع الرفيق « بيغما » ومع القائد الذي كان استولى على المدينة والذي اخذ يحمر المنطقة . واظن انه كان « موسكالنكو » (٣) وكانت الارض مكسوة بالثلوج وكان البرد قارساً جداً . فقررت

(١) عدا سرب الطائرات المقاتلة التابع لسلاح الطيران الملكي الذي اتخذ قاعدة له في مورمانسك في أوائل أيام الحرب انشئت قاعدة لقاذفات القنابل الأميركية في بولتافا وهي تمثل الامتياز الوحيد الذي منحه ستالين للحلفاء الغربيين الراغبين في استخدام قاعدة جوية في الأراضي السوفياتية . والغارة الالمانية التي يذكرها خروشوف جرت في ليل ٢١-٢٢ حزيران ١٩٤٤ وقد دمرت خمسين قاذفة قنابل أميركية وقتلت حوالي ثلاثين روسياً واثنين من الجنود الأميركيين . وبالرغم من الآمال الكبيرة التي علفت عليها والاحتياطات الواسعة التي اتخذت لذلك فان عملية قصف المانيا التي اطلق عليها سراً اسم « فرانكلين » لم تسفر عن نجاح يذكر ، فقد قامت القاذفات بثماني عشرة رحلة فقط وكانت العملية تلقى عرقلة دائمة من جراء الشبهات السوفياتية السياسية وعدم الكفاءة البيروقراطية .

(٢) اتباع القائد الوطني الاوكراني ستيفان بنديرا .
(٣) المارشال س.س. موسكالنكو الذي كان حيثن قائد عسكرياً للجهة الاوكرانية الاولى ، وكان مقرباً كثيراً من خروشوف . وفي عام ١٩٦٠ صار قائداً أعلى لقيادة الصواريخ السوفياتية ، وفي ما بعد لقوات الصواريخ الاستراتيجية .

ان اعود إلى كيف حالما ينتهي الاجتماع في مقر قيادة الفرقة . رقد حاول القائد ان يقنعي بان ابقى عنده تلك الليلة ، ولكنني اصررت على الرجوع إلى كيف حالا . فانجھت شمالا على حدردنا القديمة مع بولونيا وتوقفت للراحة في احدى قواعد التموين المؤخرة فاسترعى التفاتي عدد كبير وغريب من الناس يتسكعون حول المكان . فتساءلت في سري كم ترى من هؤلاء هم من البندريت المتنكرين يأكلون طعامنا ويتدافأون بنا رنا ويتجسسون علينا . وكنت قد حذرت سلفاً من ان المنطقة تعج بالبندريين . فبدلاً من تمضية الليل في قاعدة التموين انطلقت إلى قرية صغيرة على الحدرد البولونية القديمة وتوقفت هناك .

واني لاود لو اتبحت لي فرصة اكثر لازور قيادة الجبهة بعد ان عبرت قواتنا الحدود إلى داخل بولونيا . فقد كنت ارغب في ان ارى شيئاً من آثار ملاحقتنا للألمان إلى داخل اوروبا الشرقية . غير اني كنت مثقلاً بالعمل في كيف للاشراف على اعادة بناء اوكرانيا وتنظيم الحزب فيها .

وكانت مظاهر ابتهاج عظيم تعم قطاعات الجيش لطردها الألمان إلى خارج بلادنا. وقد تميزت وحدات الحرس بنوع خاص بما ابدته في من نشاط في السنة الاخيرة من الحرب وكان شعارها « إلى برلين من ستالينغراد » . وكان موضوعاً محبباً للمزاح وشرب الانتخاب من سوف يتوصل ليكون حاكم برلين عندما نستولي في النهاية على العاصمة الالمانية . وكان كل واحد منا يطمح لهذا المنصب كما كان كل من رأى وعانى المتاعب التي جلبتها هذه الحرب على بلادنا اراد ان يقوم بدوره لكي يتأكد من أن الألمان قد دفعوا ثمن ما جنته ايديهم .

واذكر انني بينما كنت في كيف تلقيت اشارة تلفونية من جوكونف ، وكان في حديثه معي يطير فرحاً عندما قال : « قريباً جداً سأحبس ذلك الوحش المراوغ الخزيل هتلر في قفص . وعندما ارسله في قفصه إلى موسكو سامر به في طريق كيف ليتسنى لك ان تلقي نظرة عليه » . فأجبت جوكونف بانني اتمنى له كل توفيق . لقد كنت اطمئن إلى انه ما دام قائداً للجبهة ، فان هجومنا هو في ايد قوية صالحة .

ثم بعد استسلام المانيا طلبني جوكونف مرة اخرى وقال : « لن اتمكن من البر بوعددي لك ، فان ذلك الافعى هتلر قد مات ، اذ اطلق الرصاص على نفسه . فاحرقوا جثته وقد عثرنا على هيكله المفحم » (١) .

(١) ظل ستالين زمناً طويلاً يصبر على القول بأن هتلر لم يميت على الاطلاق .

وهكذا انتهت ملحمة الحرب التي شنها شعبنا العظيم ضد الغزاة الهتلريين .
لقد غمرنا السرور والابتهاج من جراء تمكنا من تحطيم عدونا وشعرنا بارتياح
معنوي رفيع بعثه فينا انتصارنا . وكانت كلمات الكسندرفسكي ترن في اذاننا :
« ان الذي يأتي بنا بالسيف فبالسيف يهلك » (١) .

وكنت قليل الحكمة حين قررت ان اتلفن لستالين اهته على استسلام المانيا .
وعندما رد على التلفون قلت : « اسمح لي ايها الرفيق ستالين بان اهتك
بانتصار قواتنا المسلحة وشعبنا على الجيش الالماني » . فماذا كان رده ؟ قطع الخط
بخشونة وقال باني اضيع وقته . اما انا فقد صغت ووبخت نفسي على مخاطبتي اياه .
كنت اعلم اي نوع من البشر هو ، وكان علي ان اتوقع تماماً ما حدث . وكما سبق
لي ان قلت ، كان ستالين ممثلاً ماهراً وكان يتظاهر انه ما دامت الحرب قد انتهت
فهو قد بدأ يفكر في شيء آخر أكثر أهمية يتجاوز الحرب واحداثها ، فلماذا
والحالة هذه اضيع وقته بالحديث عن الأمس ؟

لقد تصرف كأنه لم يفاجأ ابداً بانتصارنا ولم يدهش له . وارادني ان اعتقد انه
كان دائماً يعلم كيف ستنتهي الحرب . غير اني كنت اعلم غير ذلك ، فقد
راقبته في اثناء الازمات ورأيت كيف كان أكثر قلقاً وتخوفاً من سائر الذين حوله .

سدالين والحلفاء.

نجد في هذا الفصل أول اعتراف علني من أي سياسي سوفياتي عن الدور
الكبير جداً الذي لعبه مشروع الاغايرة والتأجير والعون الأميركي والبريطاني
للجيش السوفياتي . وانه لمن المؤسف ان خروشوف شعر بأنه لا يستطيع
التمحدث بمثل ذلك عندما كان في سدة الحكم . فالشعب السوفياتي لم يبلغ قط
عن القيمة التي وصل اليها ذلك العون . ونخبت على الموضوع كله سحابة من
الدعاوة من نوع وآخر ، بحيث ان هنالك كثيراً جداً من الناس في الغرب لم
يدركوا قط ادراكاً صحيحاً ضخامة مساعدة الحلفاء وأهميتها . وخروشوف
لا يروي نصف الحقيقة ولكنه على الأقل قد بدأ يضع الامور في نصابها .
وفي الباقي نرى التمثل القديم حول الميدان الثاني والشبهات الميقة في أغراض
الحلفاء ودوافعهم وعجزهم عن ادراك ضخامة العمليات البحرية الضرورية
للقيام بالغزو عبر بحر المانش الذي بدا على الخرائط الروسية بأنه ليس سوى
عقبة تافهة . وفي هذا الفصل يحاول خروشوف أيضاً أن يظهر بأنه كان يجهل

(١) الكسندر فسكي المحارب الروسي البطل الذي لم يكن أول من عبر عن هذا الشعور .

تقريباً ما كان يقوم به ستالين . ففي هذا الزمن لم يكن خروشوف يسيطر على أوكرانيا فحسب بل كان أيضاً عضواً في المكتب السياسي ، وفي الهيئة العليا التي تخطط السياسة وتدير شؤونها ، ومع ذلك ، فبدلاً من أن يستشار في السياسة الخارجية ، كان لا يعلم حتى عن مشاريع ستالين ومفاوضاته مع تشرشل وروزفلت إلا عرضاً في نوادر وحوادث يرويها ستالين على مائدة الطعام . وفي هذا الصدد، من الجدير بالملاحظة أن خروشوف في فصل آخر يقول انه إلى أن استدعي نهائياً إلى موسكو في عام ١٩٥٠ لم يكن اسمه حتى على قائمة الذين ترسل اليهم المعلومات التي توزع على زملائه في العاصمة ، وتلك معاملة شاذة لرجل سوف يصير في المستقبل المخطط الأكبر للسياسة السوفياتية. وفي هذا ما يدل دلالة عظيمة على ما كان لكفاءة خروشوف ومقدرته الاساسية من شأن في نجاحه بالقدر الوافي الذي يتنجح فيه وهو يوضح أيضاً إلى حد بعيد أسباب قصوره .

تقرر اقامة عرض عسكري احتفالاً بالنصر ، وحدد موعده يوم ٢٤ حزيران ١٩٤٥ . فحضرت إلى موسكو لهذه المناسبة ، راجباً في مشاهدة قواتنا في ذلك العرض ، وفي مشاركة شعبنا كله في مظاهر الابتهاج والفرح في عاصمة وطننا . وجاء ايزنهاور إلى موسكو ايضاً ووقف معنا على منصة ضريح لينين للاشراف على العرض ، وكانت تلك اول مرة اجتمع فيها بايزنهاور . واقام ستالين مأدبة كبيرة حضرها قوادنا الحربيون جميعاً وكذلك ايزنهاور . ولا اظن ان مونتغمري القائد البريطاني كان بين الحاضرين . وكان ستالين قد اقام علاقة حسنة مع ايزنهاور ، واحسن منها مع روزفلت . وكانت علاقته مع تشرشل سيئة ، واسوأ منها مع مونتغمري .

وبعد الحرب ، ولكن قبل نقلي من اوكرانيا إلى موسكو (في نهاية ١٩٤٩) ، سمعت ستالين يتكلم مرات عديدة عن مميزات ايزنهاور النبيلة في احاديثه مع المقربين اليه . وكان دائماً ينوه بطيبة ايزنهاور وكرم اخلاقه وشهامته في معاملاته مع حلفائه . وكان ستالين يقول باننا لولا ايزنهاور لما كنا وفقنا إلى الاستيلاء على برلين . فقد كان بوسع الاميركيين ان يكونوا هنالك اولاً ، وكان الالمان قد حشدوا قواتهم ضدنا بينما كانوا يدعون الاميركيين والبريطانيين للاستسلام اليهم . فوجه ستالين رسالة إلى ايزنهاور ناشده فيها ان يؤخر تقدم جيوشه ، وقال في تلك الرسالة انه وفقاً لاتفاقه مع روزفلت ، وبالنظر للدماء الكثيرة التي اراقها شعبنا ، فان قواتنا تستحق أن تدخل برلين قبل الحلفاء الغربيين . وبناء على ذلك أخر ايزنهاور جنوده ووقف هجومهم وبذلك سمح لقواتنا بان تستولي على برلين . ولو انه لم يفعل ذلك لكان الاميركيون احتلوا برلين قبل وصولنا اليها. وفي

تلك الحالة ، كما كان يقول ستالين ، كانت قضية المانيا ربما قد تقرر على نحو آخر وكان وضعنا قد انتهى على نحو اسوأ كثيراً . فهذا كان نوع الشهامة السخية التي اظهرها ايزنهاور اذ كان وفياً في بره بوعده روزفلت .

على ان الرئيس الاميركي في هذا الزمن كان ترومان ولم يكن ستالين يكن له اي احترام على الاطلاق . وكان يعتبر ترومان عديم القيمة . وهذا صحيح ، فان ترومان لم يكن جديراً بالاحترام وهذه حقيقة لا مرأى فيها .

وفي نهاية الحرب تماماً كان ستالين شديد القلق على ان يتخطى الاميركيون الحدود المرسومة لهم في الغرب . وكان يخافه الشك في انهم قد يتخلون عن الارض التي كان روزفلت وافق سابقاً في طهران على ان يعطيها لنا . وقد يكون باستطاعة الاميركيين ان يقولوا ان الخط الذي وصل اليه جنودهم هو الحدود الجديدة الفاصلة بين منطقتي الاحتلال . غير ان الاميركيين سحبوا قواتهم إلى الورا ووزعوها على الخط الذي كان قد حدد في طهران . هذا ايضاً لا بد من تسجيله للدلالة على لباقة ايزنهاور وحسن تصرفاته .

كان الالمان يواجهون ضغطاً شديداً من قواتنا ولم يكن باستطاعتهم ان يستمروا في المقاومة طويلاً . وكان المفروض ان يلقوا اسلحتهم ويستسلموا لنا . على انهم رفضوا ان يفعلوا ذلك وتحركوا بدل هذا إلى الغرب ليستسلموا إلى الاميركيين . وهنا مرة اخرى لحأ ستالين إلى ايزنهاور قائلاً له ان القوات السوفياتية قد امرت دماء كثيرة في سبيل سحق الالمان ، والآن يقوم الالمان الذين صادفهم بالاستسلام إلى الاميركيين . وشكا ستالين ان ذلك لن يكون من الانصاف . كان ذلك في الجبهة النمساوية ، حيث كان مالمينوفسكي يوجه هجومنا ، فاصدر ايزنهاور امره إلى القائد الالماني بان يستسلم إلى الروس الذين هزموا جيشه .

وحدث مرة ان ستالين تقدم بمثل هذا الطلب إلى تشرشل ، اذ كان الالمان في حالة فرار من روكونوفسكي وهم يستسلمون للانكليز في المنطقة التي يحتلها مونتغمري . فطلب ستالين من الانكليز ان لا يأخذوا اسرى وان يرغبوا الالمان على الاستسلام لقواتنا ، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل لان مونتغمري اخذهم جميعاً واخذ اسلحتهم . وهكذا ضاعت علينا ثمار انتصارنا على الالمان .

وكان الجنرال ايزنهاور والمارشال مونتغمري ممثلين للطبقة البورجوازية ذاتها ومع ذلك فقد كان قرار كل منهما في هذه المسألة مختلفاً عن قرار الاخر ، كما فسر مبادئ اتفاقية المشاركة والشرف تفسيراً متبايناً . وكلما كانت لي معاملات مع ايزنهاور في السنين التالية كنت دائماً اذكر تصرفاته هذه اثناء الحرب . وكنت احتفظ في ذاكرتي بكلمات ستالين عنه . وستالين لا يمكن اتهامه ابداً

بانه يميل إلى شخص ما بدون سبب وخصوصاً من هو عدو طبقي . فهو لا يداهن ولا يصالح في المسائل الطبقية . وكان ذلك من أقوى مزاياها ، وكان يحترم كثيراً هذه المزية (١) .

دعا ستالين ايزنهاور إلى الاحتفال بالعرض العسكري ابتهاجاً بالنصر واعرب عن تقديره لمزاياه باهدائه اعلى اوسمتنا اي « وسام النصر » . صحيح ان هذا الوسام اهدي إلى المارشال مونتغمري ولكن في تلك الحالة اهدي على سبيل انعام واجب رسمي من قبلنا بوصفنا حلفاء لان الانكليز كانوا يهدون اوسمتهم إلى قوادنا الحربيين فكان الأمر مجرد مقابلة بالمثل .

اما اذا كانت انطباعاتي من الآراء التي اعربها ستالين عن العلاقات المتبادلة في ما بين الحلفاء اثناء الحرب وخصوصاً عن روزفلت وتشرشل ، فاني اعتمدأ على ما قاله ، اظن ان ستالين كان اكثر تجانساً مع روزفلت واستلطافاً له منه مع تشرشل ، لان روزفلت بدا اكثر تفهماً وادراكاً لمشاكلنا . وكان روزفلت وستالين يشعرا بكرة مشتركة للنظام الملكي ومؤسساته . وقد روى لي مرة الواقعة الآتية : عندما كانا في طهران جالسين لتناول طعام العشاء ، رفع روزفلت كأسه واقترح شرب نخب رئيس الاتحاد السوفياتي السيد كالينين فشربه الآخرون جميعاً . وبعد لحظات رفع تشرشل كأسه واقترح شرب نخب ملك بريطانيا العظمى ، فقال روزفلت انه لا يشرب ذلك النخب . فرفع تشرشل كتفيه مندهشاً غير ان روزفلت ظل ثابتاً في موقفه وقال : « كلا ، لن اشرب هذا النخب . انا لا استطيع ان اشرب نخب ملك بريطانيا ، لانني لا استطيع ان انسى ابدأ كلمات والدي » . وقال ستالين موضحاً ذلك انه عندما غادر والد روزفلت انكلترا او ارلندا إلى اميركا قال على السفينة لروزفلت الصغير « الملك هو عدونا » . وروزفلت لم ينس ابدأ احتقار والده الملك انكلترا . وعلى الرغم من كل تطلبات اللياقة فلم يرفع روزفلت كأسه (٢) .

(١) انه لمن السهل الاعتقاد ان ستالين كان أكثر من مندهش من ضبط النفس الذي أبداه ايزنهاور وغيره في موضوع وقف تقدم الحلفاء في داخل المانيا . ومن المؤكد انه نقم على مونتغمري لان هذا الاخير اخذ عدداً أكبر من الاسرى الالمان الفارين أمام الزحف السوفياتي . وكان محقاً كل الحق في قوله إلى خروشوف انه أكثر انفتاحاً مع روزفلت منه مع تشرشل . فقد كان روزفلت ينظر بعين الشك إلى الامبريالية وكان مقتنعاً انه بإمكانه التفاهم مع ستالين .

(٢) قد يكون مفيداً العلم اذا كان ستالين حقيقة قد روى هذه القصة عن رفض روزفلت ان يشرب نخب الملك . فهو اذا كان حقيقة يعتقد ان والده الرئيس روزفلت كان =

وفي الخلافات التي نشأت في اثناء اجتماعات العمل التي عقدت في طهران كان ستالين غالباً يحد روزفلت إلى جانبه ضد تشرشل . وهكذا فان عواطف ستالين الشخصية كانت بصورة اكيدة محفوظة لروزفلت بالرغم من انه كان يحتفظ لتشرشل باعلى درجة من التقدير ايضاً . ولم يكن تشرشل رجل دولة انكليزياً عظيماً فحسب ولكنه كان يشغل احد المراكز الرئيسية في توجيه السياسات العالمية . وفي الوقت الذي واجه الحلفاء الفشل في الأردن ، وهو الفشل الذي هدد بالخطر انزال قوات الغزو ، طلب تشرشل من ستالين ان يحول الجيش الالماني علينا . وكان ذلك يتطلب قيامنا بهجوم لم يكن جزءاً من مشاريعنا في ذلك الوقت ، وكان لا ينبغي ان نقوم به الا بعد ذلك بزمان طويل . ولكن ظهر بالنتيجة انه مفيد جداً لنا . وقد احسن ستالين في اظهار حسن ارادتنا نحو حليفنا في وقت الحاجة . ومما لا ريب فيه ان تشرشل لعب دوراً خطيراً في الحرب . فقد ادرك الخطر الذي يتهدد انكلترا ، وهذا ما جعله يبذل كل ما يستطيعه لتحويل الالمان ضد الاتحاد السوفياتي - لكي يجر الاتحاد السوفياتي إلى الحرب ضد المانيا . وعندما هاجمنا هتلر بادر تشرشل حالاً إلى التصريح بان انكلترا تعتبر ان هنالك ضرورة لعقد معاهدة تضم بمقتضاها قواتها إلى قواتنا ضد المانيا . وهنا ايضاً عمل ستالين ما هو صواب ، ووافق على اقتراح تشرشل ووقع المعاهدة . وبعد مدة معينة من الزمن دخلت اميركا الحرب وبرز إلى الوجود ائتلاف يجمع الدول الكبرى الثلاث . وانه لمن الصعب الحكم على حقيقة نيات الحلفاء عند دنو نهاية الحرب . الا انني لا استبعد رغبتهم في وضع عبء اثقل كثيراً على كاهل الاتحاد السوفياتي وزيادة استنزاف دمنا . او ربما كما ادعوا لم يكونوا مستعدين الاستعداد الوافي للقيام بعملية التزول . فان انتاجهم للسلاح لم يكن قد تحسن تحسناً كافياً . وكانوا في حاجة إلى وقت اطول وما إلى ذلك . ويرجع ان التفسيرين صحيحان . غير انني اعتقد انه كان هنالك رغبة في استنزافنا حتى الجفاف ، حتى يتسنى لهم دخول المراحل الاخيرة وهم يملكون وحدهم القدرة على تقرير مصير العالم . لقد ارادوا ان يستفيدوا من نتائج الحرب ويفرضوا ارادتهم ليس على عدوهم المانيا فحسب بل ايضاً على حليفهم الاتحاد السوفياتي . واني لاسطيع ان اتصور بسهولة كيف كان هذا الخطر يلعب دوراً بارزاً في مخيلاتهم .

= قد هاجر إلى الولايات المتحدة من ارلندا أو انكلترا فمعلوماته خاطئة جداً . ويبدو محتملاً أن يكون خروشوف قد خلط بين ما روى ستالين عن الخطأ الذي وقع في طهران بين روزفلت وتشرشل وذكريات مشوشة عن اسلاف الرئيس كينيدي .

واذا نظرنا للامر من موقف طبقي نرى انه كان من مصلحة الحلفاء ان يعتمدوا على الاتحاد السوفياتي حليفاً لهم زمن الحرب بالرغم من الحقيقة الراهنة بان بلادنا قد ارسيت على المبادئ الاشتراكية . فنحن قد اضطررنا لان نوحّد قوتنا ضد عدو مشترك ، ولم يكن اي منا يستطيع الحرب منفرداً . ولكن في حين كنا نبذل مجهودنا الاجماعي ضد العدو المشترك ، بقي كل منا في موقعه الطبقي الخاص . ان الحلفاء الغربيين لم يكونوا بالتأكيد مهتمين بتقويتنا ولا كانت لهم مصلحة في ذلك . وكانت كل من انكلترا واميركا تعلمان من وضعهما الطبقي ان عليهما مساعدتنا إلى حد معين غير انهما كانتا لا تزالان ترغبان ان يكون الاتحاد السوفياتي اكثر ضعفاً بعد الحرب حتى يتسنى لهما ان تمليا ارادتهما علينا .

وكنا نحن ، من ناحيتنا ، نرى انه من المفيد ان نصير اقوى كثيراً عند نهاية الحرب لكي يكون لصوتنا بعض القوة في تسوية القضايا الدولية . فلو اننا وفقنا إلى ذلك ، لما كانت مسألة المانيا تقرر على الطريقة التي جرت في بوتسدام . ان قرار بوتسدام كان تسوية وضعت على اساس توزيع القوة في ما بين الحلفاء عند نهاية الحرب ، ومصادقات الاتفاق انعكست بصورة خاصة في البنود المختصة ببرلين وفيينا . فهاتان المدينتان كانتا واقعتين في المنطقة التي تحتلها القوات السوفياتية . وكان يبدو مفروضاً ان تكونا جزءاً من منطقتنا . على ان الحلفاء لم يعطوهما لنا ، بل جرى تقسيم كل من برلين وفيينا إلى اربعة اقسام . فكان لنا قسم واحد وأخذت الدول الغربية — انكلترا واميركا وفرنسا — الاقسام الثلاثة الاخرى . وهذا ينسب بعض الشيء عن توزيع القوة عند نهاية الحرب .

عندما بدأنا زحفنا غرباً وكنا ندنو من حدود المانيا اضطر الحلفاء ان يعملوا ويقوموا بعملية انزال قواتهم . فقد خافوا ان نتقدم إلى ابعد كثيراً من الحدود التي تقرر في بالطا .

ومع ذلك فانه يتحتم علينا ان لا نبخس الحلفاء حقهم من التقدير لمساهماتهم في القضية المشتركة ، قضية ايقاع الهزيمة بالمانيا الهتلرية . وتفادياً للعجرفة المفرطة لا بد من ابلاغ الشعب والحزب في الاتحاد السوفياتي بصورة صحيحة عما قدمه الحلفاء للقضية المشتركة وللاتحاد السوفياتي بالذات . ذلك انه اذا لم يحلل الماضي ايجابياً فبناء المستقبل سوف يقوم على اساس من الاضاليل والوطنية البدائية بدلا من بنائه على اساس الحقائق الثابتة . وانه لمن سوء الحظ ان مؤلفاتنا التاريخية عن الحرب العالمية الثانية قد ارتكبت خطأ ، اذ انها كتبت تحت تأثير شعور غير سليم من التباهي والخوف من قول الحقيقة عن مساهمة حلفائنا — وذلك كله لان ستالين ذاته كان يتمسك بوضع غير صحيح ومخالف للحقيقة . فقد كان يعرف

الحقيقة ولكنه احتفظ بها لنفسه . وكان يرى انه من المريب والمخزي لبلادنا ان يعترف بها علناً .

ولكن قول الحقيقة لا حاجة لان يكون داعياً للمذلة والخزي وتقدير مزايا شركائنا في الحرب لا ينتقص بالضرورة من مزايانا الخاصة . بل على العكس ، فان اصدار بيان موضوعي عن الحقيقة الراهنة كان ليزيد في علو مكانتنا في عيون الناس جميعاً ولا ينتقص من كرامتنا واهمية انتصاراتنا . غير ان قول الحق في هذه الحالة كان مما لا يستطيع ستالين ان يفكر به . فقد حاول تغطية وجوه ضعفنا وخيل اليه ان ذلك يجعلنا أكثر قوة من اعدائنا ، فيزدادون خوفاً منا . وهذا تفكير ساذج . فقد كان عليه ان يعلم انه لا يستطيع ان يخدع العدو . فالعدو يستطيع دائماً ان يرى ويحلل بذاته . وانه من المحتمل ايضاً ان ستالين كان يخشى ان تكون للصراحة في الاعلام عن تاريخ الحرب ردة فعل عليه شخصياً . وذلك شيء آخر ، غير انني لا ازال اعتقد انه كان من الواجب علينا ان نعترف علناً بما حدث وان لا نحاول تغطية الحقائق . فانا كنا بذلك نساعد بلادنا ونخدم قضيتنا بعدم محاولة اخفاء اغلاطنا وبكشفها للناس للاطلاع عليها مهما كان ذلك مؤلماً بالنسبة لنا .

كان الشعب يفهم ويؤيدنا . واذا قضت الضرورة فانه كان يغير الاغلاط التي ارتكبت . وعندما فضحت سوء ادارة الحرب استطاع الناس ان يقولوا « ها هو خردشوف ينتقد ستالين غير انه يستعمل ستالين لاغراض تشبيهية في تحليلات بناءة » . وذلك هو الصحيح تماماً . وانا لا اظن انه قد فات الأوان للجيل الحديد الذي سوف يحل قريباً محل الزعامة الحالية لبلادنا ، لان يلقي ضوءاً موضوعياً على بداية الحرب . ان علينا ان ندرس الماضي لكي لا نسمح في عهدنا بمثل تلك الاغلاط التي سمح بوقوعها من قبل . علينا ان نمنعها في الحاضر وفي المستقبل .

ان الاعتراف بالعون المادي الذي تلقيناه في الماضي من خصومنا الحاليين لن يكون له اي اثر على الحالة اليوم . لا يجوز لنا ان نباهي ونتبجح باننا قهرنا الألمان وحدنا دون سوانا ، وان الحلفاء تحركوا فقط لاقتسام الغنيمة . ذلك هو السبب الذي يحملني على ابداء وجهة نظري الخاصة بما قدمه حلفاؤنا من المساعدات . واني لأمل ان آرائي سوف تؤيدها ابحاث المؤرخين الذين يحققون ايجابياً في الظروف التي بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ . فالانكليز قد ساعدونا بضراوة وبتعريضهم انفسهم لخطر عظيم . لقد نقلوا شحنات إلى مورمانسك وتكبدوا خسائر عظيمة . فالغواصات الالمانية كانت مترصدة على طول الطريق وكانت المانيا قد غزت

نروج ووصلت بذلك إلى مشارف مورمانسك .

وكما اثبت ميكويان بعد رحلته إلى اميركا ، فقد تلقينا معدات وسفنًا وموئناً كثيرة من الاميركيين ساعدتنا كلها في ادارة رحى الحرب . وبعد وفاة ستالين ظهر ان مدفعيتنا كلها كانت مركبة على اجهزة اميركية . واني اذكر اني قلت مرة : « دعونا نحول كل ما تنتجه من الاجهزة الخاصة بالسيارات إلى الجيش لكي نصير التراكورات الحاملة للمدفعية والمعدات الحربية التي تظهر في حفلات العرض كلها من صنع سوفياتي » . ان كل المدفعية في جمهورية المانيا الديمقراطية (المانيا الشرقية) كانت مركبة على تراكورات اميركية من طراز ستدريكر لذلك قلت : « هذا لا يجوز انه شيء معيب . انظروا كم مر من السنين على نهاية الحرب ونحن لا نزال نتقل على مصنوعات اميركية . » وقد اردت بهذا ان اؤكد كيف ان الكثير من سياراتنا وشاحناتنا قد حصلنا عليه من الاميركيين . لتصور فقط كيف كنا نستطيع ان نرحف من ستالينغراد إلى برلين بدونها . ان خسارتنا كانت لتكون هائلة جداً ، اذ كنا نفتقر إلى القدرة على المناورة (١) .

وبالاضافة إلى ذلك لقد حصلنا على الفولاذ والالمنيوم الذي صنعنا منه طائراتنا وغير ذلك . اما صناعتنا الخاصة فقد كانت مشتتة وقد تخلينا عن بعضها للعدو . وتلقينا ايضاً منتجات من الطعام بكميات هائلة واني لا استطيع ان اذكر الارقام لانها لم تنشر قط وبقيت كلها محتجزة في ذاكرة ميكويان . وكانت هنالك نكات كثيرة تتردد في الجيش عن « السبام » الاميركي . ومع ذلك فقد كان لذيد الطعم . ولولا « السبام » لما استطعنا ان نطعم جيشنا ، بعد ان خسرنا اكثر اراضينا الحصبة - وهي اوكرانيا والقوقاس .

واني لاكرر القول ان الحلفاء اعطونا هذه المساعدة لا بدافع الشفقة على شعبنا ولا بدافع الاحترام والتقدير لنظامنا السياسي ، ولا املا في انتصار الاشتراكية وفوز الماركسية - اللينينية . بل ان الحلفاء ساعدونا عن تقدير رصين للموقف . فقد كانوا يواجهون مسألة حياة وموت لهم ، فساعدونا لكي لا يسقط الجيش السوفياتي تحت ضربات المانيا النازية وحتى نستطيع ، بعد ان نجهز بأسلحة عصرية ،

(١) كانت الدبابات السوفياتية أفضل ما في العالم ، ولكن حتى ستالينغراد لم يكن لدى الجيش السوفياتي معدات نقل ميكانيكية . وقد تمكنت هذه الدبابات بفضل الشاحنات الاميركية والبريطانية من التقدم بسرعة في زحفها لتشتت المدرعات الالمانية في كورسك ومنها إلى برلين وفيينا .

ان نسحق قوة العدو ونضعف انفسنا في الوقت ذاته . هم ارادوا ان يترثوا في
الاشتراك فعلياً في الحرب ضد المانيا إلى ان يهيء الوقت الذي يكون فيه الاتحاد
السوفياني قد انفق قوته ولم يعد قادراً على احتلال مكانة حاسمة في حل المشاكل
العالمية .

مجاعة في اوكرانيا

مرت المجاعة الاوكرانية الكبرى في ١٩٤٦-١٩٤٧ دون ان يعرف الغرب عنها شيئاً . ولم يشر إلى هذه المجاعة إلا في كانون ١٩٤٧ عندما أعلن اندريه جدانوف في إحدى خطبه العامة الأخيرة أنها نتجت عن أسوأ قحط في تاريخ اوكرانيا ، أسوأ حتى من قحط ١٨٩٠ . إلا ان هذه المجاعة الأخيرة لم تكن أسوأ من المجاعة التي سببتها سنوات التجميع الزراعي والتي لم يعترف بحصولها على الصعيد الرسمي حتى الآن . وصحيح ان المجاعة الاوكرانية الأخيرة سببها بصورة رئيسية القحط ، ولكنه القحط الذي كان يتفاعل مع حالة زراعية مخربة . وعند خروشوف ما يقوله هنا في نقص الطاقات البشرية في المزارع (ذلك ان الاتحاد السوفياتي كله لا اوكرانيا فحسب جابه حالة نقص في الرجال المؤهلين للامال الزراعية في كل المزارع الجماعية ، حيث حل النساء والأطفال والمتقدمون في السن محل الرجال. وكان هؤلاء يملكون بادوات بدائية). لقد بلغ الخراب الذي خلفته الحرب حداً ان مجموع سكان اوكرانيا وروسيا البيضاء (بيلوروسيا) كانوا يعيشون في حفر من الارض رفعوا فوقها السقوف بصورة مرتجلة .

تلك كانت خلفية ولاية خروشوف الثانية كنائب ستالين في اوكرانيا . وان وصفه لحالة الجوع وما صاحبها من توحش بلغ حد افتراس البشر أحياناً ، أبعد ما يكون عن المبالغة بل يقدم فكرة باهتة عن حالة خربة . الا ان ثمة جانباً اسهم في تفشي المجاعة، ويستتر خروشوف عليه فلا يذكره : ان عملية تشريك الأرض والتجميع الزراعي انهارت في ظل الاحتلال الالماني وكانت إحدى مهام الحزب السوفياتي فرضها مجدداً ، فاندلعت مقاومة عنيفة اشترك فيها مع الفلاحين مدراء المزارع انفسهم الذين كانوا في حالات كثيرة قد أغضوا عن استملكات فردية للأرض الجماعية مقابل بعض المكاسب

لا أنفسهم . تلك هي الحالة التي واجهت خروشوف ولم يكن سريعاً في مواجهتها . ويبدو انه واجه متاعب في تلك المرحلة فأرسل كاغانوفيتش بالذات من موسكو ليكون رئيسه وليقوم بإعادة التجميع الزراعي متوسلاً كل الاساليب التي لا ترحم . وانا نقع هنا على لمحة عن كفاح خروشوف دفاعاً عن الاوكرانيين ضد الدولة على حد تعبيره (ويعني بها حكومة موسكو التي كان عضواً فيها) . وإلى حد ما ، كان ما يجري إعادة لما حصل في الثلاثينات اي تجويع الفلاحين لا طعام المدن . غير ان خروشوف هذه المرة كان كمن يقف بين نارين . فمن جهة هو مسؤول عن غير اوكرانيا ، ومن جهة أخرى قد عهد اليه بتنفيذ أوامر ستالين . وسنعاين هنا كيف ولدت هذه الاوامر ، كما مشاهد عن كذب لقطات عن المكائد الشخصية بين أقرب المقربين إلى ستالين في موسكو . وان الشجار الكبير حول قمح الربيع ضد قمح الشتاء ، وحول الحراثة على السطح أو في العمق ، لم يكن الا جزءاً من الشجارات بين الافراد الذين ، كالعادة ، يتذرعون بأي شأن تقني أو تفصيلي ليحولوه سلاحاً في حربهم الدائمة ثم يضربون على الاوتار الحساسة عند ستالين ليحرضوه على منافيتهم . وكان مالتكوف وافر النشاط في كل هذه المجالات (ان خروشوف لا يذكر ذلك ، إلا أن مالتكوف كان قد أرسل للشروع في إعادة تعمير اوكرانيا بينما كان الالمان يترجعون إلى الوراء وبينما لم يزل خروشوف في قيادة الجبهة) .

ما ان تحررت اوكرانيا من الغزاة الهتلريين في ١٩٤٤ حتى بذلت كل طاقتي لاعادة تنظيم الحزب وبناء الاقتصاد . وكان كل الرجال المقتدرين جسدياً قد عبثوا في الجيش . وكان الجيش الاحمر كلما شق طريقه إلى الامام عبر المعارك ، يدعم صفوفه بالرجال الذين كانوا في الارض المحتلة ، ولم يكن المجندون من المناطق المحتلة بحاجة إلى ايضاح مهمتهم ولا إلى ارشادهم إلى واجبتهم في الالتحاق بصفوف الجيش السوفيائي لمقاتلة المانيا الهتلرية .

وعهد بمهمة إعادة بناء اقتصاد الشعب في اوكرانيا ، لاسيما في الزراعة ، إلى الذين تخلفوا عن اللحاق بتقدم الجيش الاحمر من المتقدمين بالسن ، والذين في طور النفاة ، وغير الصالحين للخدمة العسكرية ولاسيما النساء . وقد اعفي من الخدمة العسكرية بعض المهندسين وعمال المناجم والعمال الصناعيين . والذين عبثوا للصناعة ، وبينهم العديد من الفتيات ، لبوا الدعوة طوعاً . وكان حماسهم مفهوماً ، فمن ناحية جذبتهم الوطنية إلى خدمة القضية ، كذلك كان للتحريض والاعلام الحزبيين دورهما في التوكيد على إعادة بناء الصناعة على انه هو طريق الخلاص الاوحد من الكارثة الاقتصادية ، بل الطريق الاوحد لرفع مستوى معيشة الشعب .

ومن ناحية اخرى ، فان المناطق التي اعيدت اليها الصناعة كانت تتوفر فيها اسباب العيش افضل من المناطق الزراعية . فالطعام كان متوفراً في المدن اكثر منه في القرى . وقد اعيدت في دونباس مناجم الفحم وصناعات الصلب والصناعات المحلية إلى سابق عهدها . وجرت عملية اعادة البناء بسرعة . كان مذهلاً مشاهدة التعاضد الذي اظهره الشعب وكيف فهم ضرورة وضع كل طاقته لبناء الصناعة والزراعة . وكان لسياسات لينين الحكيمة والمستشرقة التي اقامها بعد ثورة اكتوبر الفضل العميم في شفاء الروس والاوكرانيين من العداءات القومية التي كانت بينهم . ان اجيالاً تمضي قبل استئصال كل شرور الماضي . الا ان الهدف الاساسي قد تحقق فعلاً . فالشعب – العمال والفلاحون والمتقنون – جميعهم ادرك ان بالوحدة نستطيع ان نكون اقوياء ونحقق النمو المادي والثقافي .

ان الحرب قد وحدتنا مرة وإلى الابد وبددت آمال اعدائنا في ان نتمزق تحت ضغطها الثقيل . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها وخمدت نشوة النصر واحتفالاته ، عاد العمال إلى المصانع والمناجم والمزارع الجماعية وشرعوا يعملون بخطوات اسرع في انجاز العمل .

غير ان ١٩٤٦ كان عام جفاف مفرط ، فعانت زراعة اوكرانيا كثيراً وكنا نتوقع حصاداً فقيراً . وادى إلى ذلك بصورة محتمة تجمع ظروف مناخية قاسية مع تخلف اساليبنا عن التقنية الحديثة في الزراعة . كنا نفتقر إلى البغال والخيول ، كما ان تنظيمنا للطاقة البشرية كان لم يزل ضعيفاً جداً . كان الرجال يعودون من الحرب مستعدين للعمل ، ولكن لم يجد أحد منهم مكانه اللائق . وبعد غيبة طويلة لم يعد بعض الافراد صالحين للعمل في المزارع وبعضهم لم يكن مؤهلاً لذلك حتى من قبل (١) .

اتخذت جميع التدابير لتوفير كمية كافية من الخنطة للدولة . ولا بد من القول بان عمال المزارع الاوكرانية الجماعية فهموا واجبههم . وقد بذلوا كل جهودهم لتأمين الخبز لسائر انحاء البلاد وقد عانوا هم انفسهم من المجاعة بينما كان الالمان

(١) ضاعفت من حدة هذه الحال عوامل عديدة : خسائر الحرب المروعة التي بلغت عشرين مليوناً ، أكثرهم من المقتدرين جسدياً ، ثم الحاجة اليائسة إلى الرجال لا عادة بناء المصانع والعمل فيها ، ثم سياسة ستالين المتعمدة في إقصاء الجنود عن مساطق رؤوسهم حتى لا يؤدي عملهم هناك إلى نشر التذمر والشكوى بين أهليهم إذا ما تحدثوا عن مستويات المعيشة الأفضل في الغرب . وانه يصعب عليهم التحدث بيسر مع الغرباء في المناطق الاخرى .

يحتلون بلادهم، وعرفوا معنى عدم توفر الخبز وفهموا ان الصناعة الثقيلة لا تعود الا بالخير . والأمر نفسه ينطبق على صناعة المناجم والصلب والصناعات الكيماوية .

فضلا عن هذا فقد كانت ثقة المزارعين الجماعيين في الحزب كبيرة . فنتيجة الأمر تحقق الانتصار على الالمان بقيادة الحزب . وشاع شعور عام بين عمال المزارع الجماعية في اوكرانيا بوجوب الاسهام في حفظ سلامة البلاد باسرها عن طريق توفير المحاصيل الزراعية الضرورية .

كان علينا ان نوفر المؤن للدولة اولا ولا نفنسا ثانياً . وكان قد تقرر لنا خطة انتاج بمقدار ٧٠٢ ملايين الاطنان لسنة ١٩٤٦ . وهذه الحصص كانت قد تقرررت تعسفاً رغم انها نشرت في الصحف مدعومة بتفاصيل علمية . لم تحسب على اساس طاقتنا في الانتاج بل على اساس ما اعتبرت الدولة وجوب تحصيله منا . وكان نظام الكوتا هذا في الحقيقة يقوم على المصادرة . ووجدت اننا مهددون في ذلك العام بكارثة . وكان من الصعب التكهن عن كيفية انتهائه . كنت اتلقى رسائل مفعجة تكسر القلب من عمال المزارع الجماعية ومن مديريها . واني لاذكر احداها وهي صادرة عن رئيس احدي المزارع الجماعية الذي كتب لي : « حسناً ، ايها الرفيق خروشوف ، لقد سلمنا الدولة الكوتا المطلوبة . ولكننا اعطيناها كل الموسم بحيث لم يبق لنا شيء منه . وانا واثقون من ان الدولة والحزب سيهبان لنجدتنا » . لعله اعتقد ان مصيرهم هو وقف علي اذ كنت رئيس مجلس مفوضي الشعب في اوكرانيا والسكرتير الأول للجنة المركزية الاوكرانية . وقد تخيل انه بما انني رئيس الدولة الاوكرانية استطيع معاونته . ولكنه كان يخدع نفسه ، ذلك انه لم يكن بإمكانه صنع اي شيء بعد ان تسلم الدولة الخطة ، اذ تبطل عندها صلاحياتي في التصرف بها . بل كان علي انا شخصياً ان اتقدم بطلب خاص من الدولة لتزويدي بالقمح اذا شئت اطعام شعبي (١) .

وكنتم اقدر سلفاً ان خطة انتاجنا لن تتحقق . فعينت لجنة من الخبراء الزراعيين والاقتصاديين برئاسة الرفيق ستارشينكو لوضع تقدير واقعي لامكانيات انتاج الخطة فتوصلت إلى رقم يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ مليون بود

(١) في ١٩٣٨ ذهب خروشوف إلى اوكرانيا باعتباره رجل ستالين البطاش الكلي الطاعة . الا أنه تبدل بسبب خبرته ايان الحرب فضلاً عن تفهمه لالام الشعب وإمكاناته . وهنا يبدو مدافعاً عن الشعب ضد الدولة التي كان يمثلها .

(معيار روسي) . وهذا كان رقماً زهيداً اذ كانت اوكرانيا قبل الحرب تنتج ما يقارب ٥٠٠ مليون بود . وها هي الدولة تعين لنا ٤٠٠ مليون بود للخطة الانتاجية في ١٩٤٦ . ورأيت ان افضل السبل هي ان نواجه المشكلة بصدق . وانتابني شعور بانه اذا ما عرضت الوضع بصراحة على ستالين ودعمت تقريرتي بالوقائع والارقام ، فسيصدقني . وقد رغبت في ان افعل كل ما بوسعي لحمل ستالين على فهم وضعنا .

نبحث في الماضي مرات عديدة في اختراق الجدار البيروقراطي في موسكو وتوجهت رأساً إلى ستالين حول بعض القضايا . وعندما كنت استطيع عرض المواد المنتقاة بدقة واتباعها بتقدير منطقي للنتائج ، كان يدعمني ستالين .

وكان املي الكبير ان ابرهن عن صوابية رأيي هذه المرة ايضاً فيفهم ستالين ان طلبي ليس عملية تخريب ، ذلك ان هذا التعبير كان هو السائد لتبرير القمع ومصادرة المحاصيل من المزارع الجماعية . في هذه الحال ، سأقوم بمحاولة اقناع ستالين اننا عاجزون عن تأمين المحاصيل الزراعية التي نريدها او نحتاج اليها . كانت بلادنا بحاجة إلى هذه المحاصيل ، كما ان ستالين كان يريد ارسال الغذاء لبلدان اشتراكية اخرى ، لاسيما الى بولونيا والمانيا اللتين كانتا عاجزتين عن الاستمرار دون مساعدتنا . وكان ستالين قد شرع في بناء محالفات دولية وأخذ في ارتداء عباءة قائد حملات عسكرية مقبلة . وكان سيسيته جداً اذا ما سمع ان اوكرانيا لن تقدم الكوتا المقررة لها من المواد المفروض تسليمها للدولة فضلاً عن انها هي بحاجة إلى حنطة من الدولة لغذاء شعبها .

على اي حال وجدت نفسي دون خيار في مواجهة ستالين بالحقائق : كانت المجاعة على الابواب ولا بد من صنع شيء لوقفها . واصدرت اوامري لاعداد وثيقة تعرض الحال لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي طلبت بموجبها ان تصدر الدولة بطاقات اعاشة تمكنا من تزويد سكان المزارع بكميات من المحاصيل وان ننظم سد حاجات الجائعين إلى الغذاء . وكنت اشك كثيراً بإمكانات النجاح . وكنت متردداً في ارسال الوثيقة تلك إلى موسكو نظراً لمعرفتي بستالين ، وبقحته وطبائعه الشرسة . الا ان رفاقي اقنعوني وقالوا : « لقد رتبنا الامر بحيث اذا وجهت هذه الوثيقة إلى ستالين فانها لن تمسه هو شخصياً على الاطلاق ، انه لن يراها . لقد تحدثنا إلى كوسيفين وهو سيعطينا بطاقات الاعاشة . » . وكان كوسيفين يومها مسؤولاً عن هذه القضايا (١) .

(١) أ.ن. كوسيفين رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي الحالي . كان في معظم أوقات =

ترددت طويلا ، ولكنني اخيراً وقعت الوثيقة . وعندما وصلت الوثيقة إلى موسكو لم يكن ستالين هناك ، اذ كان يقضي عطلة في سوخي . الا ان مالنكوف وبيريا اقتنصا الفرصة لاستغلال وثيقتي لحفض منزلي في عيني ستالين . وبدل ان يقررا الأمر نيابة عن ستالين فقد ارسلها اليه . وكانت كل الوثائق الرسمية الحكومية تتوجه إلى ستالين شخصياً الا انه لم يكن ينظر في اكثرها ، كما ان مراسيم حكومية عديدة لم تكن تحمل توقيع . ولكن بفضل بيريا ومالنكوف ذهب هذا الطلب رأساً إلى ستالين في سوخي .

ووجه لي ستالين برقية جوابية تقطر قحة ومهانة ، فوصفني بالشخص المتردد الذي يكتب مذكرة ليبرهن عن عجز اوكرانيا عن الاكتفاء الذاتي، وانني طلبت كمية فاضحة من بطاقات الاعاشة . اني لا استطيع ان اصف مبلغ الاذى الدامي الذي خلفته هذه البرقية في نفسي . لقد تراءت لي المأساة كاملة تحوم لا حولي شخصياً فحسب ، بل حول الشعب الاوكراني كله . ان المجاعة باتت الآن محتومة . لقد بدد رد فعل ستالين آخر الامال في امكان تجنبها .

عاد ستالين من سوخي وذهبت فوراً من كييف إلى موسكو لمقابله . وكنت قد هأت نفسي لاعنف تأنيب يتخيله انسان . وقد ينتهي بي الأمر إلى محاكمة كعدو للشعب وفي طرفة عين قد القى في لوبيانكا (مركز قيادة البوليس السري وسجنها في قلب موسكو) .

واعلمت ستالين بالجهود الكبرى التي بذلتها في وضع مذكرتي لاعكس بدقة الحالة في اوكرانيا . واصررت على ان اوكرانيا بالفعل هي بحاجة إلى مساعدة . وقد زادت حججي التي ادليت بها في غضبه . فرفض كلياً طلبنا للحصول على بطاقات الاعاشة .

وكانت المجاعة ، كما توقعت من قبل ، قد بدأت . وسرعان ما اخذت اتلقى الرسائل والتقارير الرسمية عن الوفيات . ثم بدأ أكل البشر . اذ تلقيت تقريراً انه وجد رأس بشري وبقايا قدم تحت جسر صغير قرب فاسيلكوفو وهي بلدة خارج كييف . ومن الواضح ان الجسد قد التهم . وحصلت حوادث مشابهة . واخبرني كيريشنكو (١) الذي كان يومها سكرتيراً للجنة

=الحرب مسؤولاً عن التنسيق بين مختلف صناعات الأغذية فضلاً عن الصناعات الخفيفة المتوفرة حيث .

(١) أ.أ. كيريشنكو أحد أعوان خروشوف في جهاز الحزب الاوكراني قبل الحرب . كان جنرالاً في المجالس العسكرية على مختلف الجهات ابان الحرب . وقد خلف=

الاقليمية في اوديسا انه ذهب إلى مزرعة جماعية للتحقيق في كيف استطاع الناس الاستمرار في الشتاء وقيل له ان يذهب لمشاهدة امرأة تعمل هناك . وهاكم وصفه تلك الحالة : « طالعني مشهد مرعب ، كانت المرأة ، وقد وضعت جثة ولدها على المائدة واخذت تقطعها ، وهي تهذي قائلة سبق ان اكلنا مانيشكا (ماريا الصغيرة) ، والان ستملح فانيشكا (ايفان الصغير) . وهذا يقوتنا لبعض الوقت » . فهل بالامكان تخيل حدود المأساة ؟ لقد خبل الجوع عقل هذه المرأة فذبحت اطفالها . انني اذ اروي هذه القصة تعود خواطري إلى تلك الفترة واستطيع ان اتخيل في ذهني ذلك المشهد المروع . ولم يكن لي حول ولا قوة بل رفعت هذه الاحداث لستالين الذي تقاوم غضبه أكثر . كان يقول : « انك لين العريكة وهم يخدعونك . انهم يعتمدون على اثاره عاطفتك عندما يزودونك بمثل هذه التقارير . انهم يحاولون ارغامك على اعطائهم كل الاحتياطي » . وكان جلياً ان لستالين اقنية تنخطاني يستقي منها معلوماته ويثق بها أكثر من تقاريري .

واخذ بعض الناس يشيعون بانني واقع تحت فعل التأثيرات الاوكرانية المحلية وتحت ضغط مصالح الفئات الاوكرانية ، بل انني قد اصبحت اوكرانيا قومياً بالذات . وكان بعض الناس يقول بانني لم اعد استحق الثقة الكاملة . وأخذ ستالين ينظر إلى تقاريري ببعض الحذر المألوف عنده ، ولكن من اين كان يستقي معلوماته ؟ من التشيكا دون ريب . كانوا يتجولون في البلاد ويرفعون التقارير إلى اللجنة المركزية . وقد تسربت بعض هذه المعلومات إلى ستالين نفسه . وكان الناس عادة يخشون اعطاء ستالين المعلومات لأنهم كانوا يعلمون ان التقارير المثبطة للعزائم لا تسره فيعرضون انفسهم للمتاعب . كان ستالين يحب ان يعتقد ان البلاد مزدهرة . كان يريد ان يعتقد ، كما قال مرة تاراس شيفشينكو (الشاعر الاوكراني من القرن التاسع عشر) : « من ارض المولدافانيين إلى ارض الفنلنديين كانت اللسان كلها صامتة لأن الازمنة جيدة » . الفارق الوحيد ان شيفشينكو كان يكتب ابان حكم نيقولا الأول ، بينما نحن الآن في ظل حكم جوزيف الأول . وطرح ستالين مسألة الدعوة إلى اجتماع اللجنة المركزية بكامل هيئتها لبحث الموضوع الزراعي . ولا اذكر منذ متى عقد آخر اجتماع من هذا النوع ، بعد ان

=خروشوف كسكرتير أول لا وكرانيا في أواخر ١٩٤٩ ثم استدعاه خروشوف إلى موسكو في ١٩٥٧ واعتبر ساعده الايمن في هزيمة الفئة المضادة للحزب . ولكن في ١٩٦٠ سقط فجأة من سدة السلطة والثقة دون أن تكشف الاسباب حتى الآن .

كانت تعقد الاجتماعات في اواخر الثلاثينات اولا لبحث النضال ضد اعداء الشعب ، ثم لبحث الافراطات التي سمح بها ابان الكفاح ضد اعداء الشعب . في ذلك الزمن لعب ستالين دور مكافح صالح ضد افراطات كان هو قد بادر إلى اطلاقها بنفسه . وها ستالين الآن يطرح مسألة عقد اجتماع لبحث كيفية رفع قدرة زراعتنا على الانتاج . وطرح مسألة من سيلقي التقرير العام في هذا الاجتماع . أهل يلقيه مالنكوف ؟ فهو المسؤول عن القضايا الزراعية ، ولكن اي نوع من التقارير بإمكانه ان يقدم ؟ انه لا يعرف حتى البدييات في الزراعة . حتى انه لا يعرف التعابير الزراعية . وكان ستالين يكرر هذه التساؤلات بحضور مالنكوف . وكان محقاً كلياً في هذا الصدد ، الا ان المدهش ان يكون ستالين نفسه قد سبق له ان عين مالنكوف مسؤولاً عن الزراعة ، وهو يعرف انه غير صالح لهذا النوع من العمل . انها لفارقة مثيرة للاهتمام لم استطع ان اجد لها تعليلاً . الا ان كل شيء ممكن عند ستالين .

وفجأة قال لي ستالين : « قدم انت التقرير العام » . فارعني ذلك فقلت له : « ايها الرفيق ستالين ، ارجوك ان تعفيني من هذه المهمة » .
- ولم لا ؟

- ان بإمكانني القاء تقرير عن اوكرانيا . فقد عانيت بأمرها على مدى سنوات ، حتى بت ملماً بعض الشيء بأحوالها . الا انني اجهل جهلاً مطبقاً احوال الزراعة في الاتحاد السوفياتي ، وليس عندي ادنى فكرة عن سيبيريا . ثم انني لم اشهد القطن قط حتى انني لا اعرف كيف ينمو . وفي الواقع لم اكن قبل ذهابي إلى اوكرانيا ، اعرف اي شيء له صلة بالزراعة . فانا صناعي ، كان اهتمامي ينصب على الصناعة وادارة المدينة

غير ان ستالين بقي مصرّاً : « هذا لا يهم . فانت ستضع التقرير العام على اي حال » .

قلت : « كلا ايها الرفيق ستالين ، ارجوك اعفائي من هذا . فانا لا ارغب في تضليل اللجنة المركزية ، كما انني لا اود ان اضع نفسي في موضع بلاهة اذ اتكلم عن مواضيع لا افهمها » .

وهنا فكر ستالين بضع دقائق ثم قال : « حسناً ، سنعين اندرييف (١)

(١) أ.أ. أندرييف كان أحد أعوان ستالين المتقدمين في صعوده إلى السلطة وكان بلشفيًا منذ ١٩١٤ وعضواً في المكتب السياسي منذ ١٩٣٢ ، وكان شخصية تنظيمية لا لون ولا معالم له وكان يتدخل في كل صغيرة وكبيرة =

لوضع التقرير » . وكان اندرييف قد اشتهر على انه خير الحزب الزراعي . وكان اكثر اعضاء المكتب السياسي علماً في حقل الزراعة الا ان معرفته هذه لم يكن لها في نفسي الانطباع الحسن . كنت واثقاً ان تقريره سيكون كناية عن جمع ما يقدمه له الخبراء في تقاريرهم . على اي حال لم يكن بالامكان اقتراح اسم واكتفيت بان يعبر عني هذا الكأس .

وعين اندريه اندرييفيتش اندرييف خطيباً في اجتماع اللجنة المركزية . وانهقد الاجتماع في قاعة سفيردولوف في الكرملين . وجاء تقرير اندريه اندرييفيتش متناسقاً ومنطقياً ، كما كانت كل تقاريره في الأصل . وكنت اجلس إلى جانب ستالين ولاحظت انه يصغي بانتباه . وخلال الاستراحة ذهبنا إلى الردهة حيث كان يجتمع اعضاء المكتب السياسي لتناول المرطبات . وجلسنا إلى مائدة ، وبينما كان يقدم لنا الشاي سألني ستالين : « ما رأيك بتقرير اندرييف ؟ »

فقلت : « انه دون ريب يلقي ضوءاً على المشكلات كلها . » فقال : « لكنك كنت تجلس بلا مبالاة مطلقة لما يقول ، كنت ارقبك . » فقلت : « اذا شئت الصراحة ، ففي اعتقادي ان هذه المشكلات كان مفروضاً معالجتها من زاوية مختلفة . لقد طرق مختلف القضايا بأسلوب شكلي مفنقر إلى الاصله . »

وهنا احتاج ستالين وصاح « انك ترفض اولا القاء التقرير بنفسك ، والان توجه النقد » . والحقيقة انني لم أكن ارغب في انتقاد التقرير ، خصوصاً وانني اعتذرت عن القائه . الا انني على اي حال قد نقلت إلى ستالين بصدق ما اعتقده من ان اندرييف قدم ما يمكن وصفه بتقرير من الدرجة الثانية . وقد ادركت ان ذلك قد اثار ستالين ضدي بشكل واضح .

وبعد انقضاء فترة الاستراحة شرعنا نبحث ونناقش التقرير ، فتكلم العديد من الخطباء ، وكنت احدهم . وطرقت موضوع ترميم الاقتصاد في اوكرانيا فقلت انني اعتبر مسألة التحديث الآلي للزراعة والبنار هما المسألتان الرئيسيتان . وكان قد صدر مرسوم قبل هذا الاجتماع اشتمل على الوصية الأولى للعامل في المزرعة الجماعية : ان التزامه الاول هو تلبية كوتا الانتاج وتقديم المطلوب

=ويتابعها دون هوادة لمصلحة ستالين . في ١٩٤٣ عين مسؤولاً عن الزراعة . ولكنه استحق غضب ستالين في ١٩٥٠ بسبب الخلاف على شؤون تقنية في الزراعة الا انه استطاع الاستمرار حتى اعاده مالنكوف لفترة . وأصبح خروشوف في ١٩٥٠ الناطق الرسمي بالشؤون الزراعية السوفياتية .

إلى الدولة ، وبعد ذلك ، يستطيع تزويد زملائه العمال في المزرعة الجماعية بحاجاتهم من البذور والمحاصيل الأخرى . وكنت اعتقد ان هذه الوصية الأولى ، وهي من بنات افكار ستالين دون ريب ، يجب الغاؤها ، بحيث تتأمن كمية من الحبوب للبذار في المزرعة قبل تقديم الحنطة للدولة .

كان الفلاح في الزمن القديم يتضور جوعاً ولا يأكل الحنطة التي احتفظ بها للبذار . اذ ان بذاره كان مستقبه ، كان كل حياة مزرعته . فكيف ننتزعه منه ؟ ولم يكن يأبه لكون الدولة مسؤولة عن التعويض عليه بحبوب جديدة للبذار ، اذ لم تكن لديه وسيلة لمعرفة مصادر البذار اذا تعذر توفيره . كانت الدولة تريد المزارعين ان يزرعوا حقولهم ببذار غير معروف وقد لا يناسب الاقليم . وهذا الاسلوب لم يكن اسلوباً سليماً لتدبر أمر الزراعة .

وكان ان ادت ملاحظاتي اثناء مناقشة تقرير اندرييف إلى اثاره ستالين علي أكثر . وانعقدت فوق غمامة اشد اكفهراراً بعد خطبة مالتسيف ، وكان مزارعاً محبراً ذا خبرة واسعة ، وقد أحسن ادارة زراعة الاورال (١) . وفي خطبته قال بان كل شيء يسير على ما يرام في الاورال وانهم سيحصلون على موسم ممتاز من قمح الربيع . وما ان ذكر مالتسيف حنطة الربيع ، حتى ادركت ان متاعبي ازدادت عما سبق . وادركت ان ستالين لن يتوقف عند دراسة التفاصيل ، ولكنه سيتناول موضوع حنطة الربيع ويلقيه في وجهي . ركان قد سبق لي ان اعلنت رفضي لزراعة قمح الربيع وفق قواعد ارغامية جامدة . ذلك ان قمح الربيع كان محصوله ضئيلاً في اوكرانيا ، لاسيما في الجنوب بينما كان حصاده جيداً في بعض المزارع الجماعية . من هنا كان رأيي ان يترك الامر اختيارياً للمزارع الاوكرانية الجماعية فلا يصدر أمر اليها من موسكو له صفة الارغام والشمول . غير ان ستالين لم يكن يفهم ذلك راصم اذنيه عن اي شيء بهذا الصدد . وكنت قد اعلمته بمشكلتي مع قمح الربيع قبل الحرب . ويومها وافقني على رأيي واصدر قراراً اعفى بموجه المزارع الجماعية الاوكرانية من زراعة قمح الربيع بصورة الزامية .

وما ان وصلنا إلى غرفة الاستراحة حتى تلقفني ستالين بمكر لاذع قائلاً : « هل سمعت ما قاله مالتسيف حول قمح الربيع ؟ »

(١) ت.س. مالتسيف خبير زراعي موهوب ونشط وذو صلات حزبية قوية . وقد برز في مقدمة المحاولات التجريبية التي جرت لزيادة الانتاجية ، وبعضها كان حسناً وبعضها الآخر سيئاً .

— نعم ، ولكن ايها الرفيق ستالين كان مالتسيف يتكلم عن الاورال ، بينما موسمنا الأكثر محصولا في اوكرانيا هو قمح الشتاء . في الاورال لا يبذلون قمح الشتاء على الاطلاق ، ويقتصر بذارهم على قمح الربيع . انها مسألة مدروسة عندهم . ولذلك فهم يعرفون كيف يزرعونه وكيف يحصلونه بربح .

— هذا لا يهم . فاذا كانوا في الاورال يعرفون كيف يحصلون على موسم جيد من قمح الربيع ، واذا كنا نحن (وربت على بطنه) نملك مثل هذه الارض الغنية السمراء ، فان بمقدورنا الحصول على موسم أفضل . لا بد من اتخاذ قرار بهذا الصدد .

— اذا شئت اتخاذ قرار بهذا الشأن فدونك ذلك ، ولكن بامكانك ان تسجل معارضي . الجميع يعرفون انني ضد قمح الربيع . ولكن اذا شئت ذلك ، اصدر قراراً يشمل شمالي القوقاس وأقليم روستوف .
— كلا ، فالقرار سيطبق مباشرة عليكم .

وبهذا كان ستالين يعني انه يريد ان نأخذ المبادرة حتى تفتني المناطق الاخرى اثار تجربتنا (١).

وجرى تأليف لجنة رئسها اندريه اندرييفيتش . وعينت انا عضواً فيها • وعندما انتهى اجتماع اللجنة المركزية الموسع كان علي العودة إلى اوكرانيا . ولم تكن اللجنة بعد قد فرغت من عملها ، فترك كل من مالنكوف واندريه اندرييفيتش للعمل على صوغ القرار الذي اراده ستالين . الا انني قبيل مغادرتي موسكو اقترحت ان توصي اللجنة بالغاء الوصية الأولى لعمال المزارع الجماعية واقترحت ان يتوازي تخزين البذور للمزارع الجماعية مع تسليم الحنطة للدولة في نسبة معينة . وكان هذا تنازلاً من قبلي ولكنني اعتقدت ان ذلك افضل من عدم احداث اي تغيير البتة . ذلك ان الساري كان هو ان الدولة لم تكن تترك اي شيء على الاطلاق للمزارعين . اما وفقاً لاقتراحي فعلى المزارعين تسليم نسبة معينة من حنطتهم للدولة مع الاحتفاظ بنسبة معينة لمخازن بذورهم .

ثم غادرت موسكو إلى كييف . واتصل مالنكوف بي هاتفياً بعد بضعة ايام

(١) ان مسرحية حنطة الربيع ضد حنطة الشتاء كان من خصائص تدخلات ستالين في القضايا التقنية التي كان يجهلها جهلاً مطبقاً . وكان يعجز عن ادراك ان ما ينفع زرعه في الاورال لا ينفع في اوكرانيا . ومن الغريب أن يكون غروشوف نفسه قد وقع في الخطأ نفسه عندما أصر في سنوات لاحقة على زراعة الذرة ، بصرف النظر عن تنوع الظروف المحلية .

قائلا : « ان القرار جاهز ولم نضمنه اقتراحك بما يتعلق بتخزين البذور للمزارع الجماعية ومزارع الدولة . ونحن الآن سنرفع الأمر لستالين . هل تود ان نرفع اقتراحك على حدة ؟ ام الافضل ان لا نأتي على ذكره اطلاقاً ؟ »

هذا الاسلوب كان يتضمن الاستفزاز بكل وضوح . فالكمل يعلم ، وستالين كذلك يعلم ، انني كافحت بضراوة في سبيل اقتراحي في جلسات اللجنة والان اذا قلت مالنكوف ان لا يذكر اقتراحي لستالين فسأبدو جباناً . من هنا جاء جوابي مالنكوف : « كلا ، ايها الرفيق مالنكوف ، ارجو ان تمضي برفع وجهة نظري إلى الرفيق ستالين » .

وهكذا رفعوا رأبي لستالين . ولم يمض وقت طويل حتى عاود مالنكوف الاتصال بي ليعلمني ان اقتراحي اغضب ستالين الذي رفضه على الفور .

وكانت الخطوة التالية ان ستالين طرح موضوع نوعية المساعدة التي يجب ان اتلقاها في اوكرانيا (١) وهذا يعني ان عينه تراقبني . وقال : « من الواضح ان علينا دعم قيادة خروشوف في اوكرانيا ... ان اوكرانيا تسير إلى الخراب وهذا يقود إلى كارثة تنزل ببلادنا كلها » . وبدا انه مصمم على شيء ما . ولكنني لم أكن متأكداً مما يرمي اليه . ثم قال : « اعتقد ان من الافضل ارسال كاغانوفيتش لمساعدتك . ما رأيك في هذا التدبير ؟ »

فوافقت . وكان كاغانوفيتش شغل في الماضي مركز سكرتير اللجنة المركزية في اوكرانيا وهو يعرف البلاد حق المعرفة .

ثم قال ستالين ومن الطبيعي انه نظراً لضخامة جمهورية اوكرانيا ومساحتها فهي تنسج للعشرات او المئات من العاملين فيها وليس لاثنتين فحسب . « وسنرسل باتوليشف لمعاونتك ايضاً » .

فاجبت : « من كل بد . هذا يكون امراً حسناً » . فسجل القرار ونشر . واقترح ستالين فصل وظيفة رئيس مجلس الوزراء في اوكرانيا عن مسؤولية السكرتير الأول للجنة المركزية . وقبل بضع سنوات ، عندما اندمج هذان المنصبان بناء على اقتراح ستالين حاولت اقناعه بعدم جدوى هذا التدبير . اما الآن فقد قال ستالين : « يتولى خروشوف رئاسة مجلس مفوضي اوكرانيا ، وكاغانوفيتش منصب السكرتير الأول للجنة المركزية ، وباتوليشف مهمة سكرتير اللجنة المركزية

(١) عندما كان ستالين يقترح وجوب «مساعدة» أحد الموظفين ، كان ذلك يعني أنه في الطريق استبداله .

ويكون مسؤولاً عن الشؤون الزراعية « (١) .
وابدیت استحصاني . وعقدنا اجتماعاً للجنة المركزية بكامل اعضائها في
اوكرانيا وصادقنا على قرار ستالين . وذهب كل منا إلى مركزه وباشر القيام
بواجباته . وقلت لكاغانوفيتش وباتوليشيف : « علينا الاستعداد لموسم البذار ،
ان الناس يموتون جوعاً ، وان أكل البشر قد شاع ، واذا لم ننظم الاغاثة من
المجاعة ، لا معنى للكلام عن حملة البذار » .

وكنا نخشى ان يكون الوقت قد داهمنا في مسعانا لتأمين موسم جيد في ١٩٤٧
ولزرع بذار موسم ١٩٤٨ . وطلبنا معونة ستالين فارسل البنا كمية معينة من البذور
والمواد الغذائية المقتنة من موسكو . وكان الوقت في شهر شباط وقد بدأ البذار
في بعض الاماكن من الجنوب . وما ان يأتي آذار حتى تكون مزارع جماعية
عديدة في طول البلاد وعرضها قد اخذت تزرع بذارها . وكان علينا ان ننتهي
بحملة بذار في نيسان كييفة في اقليم كييف .

وقلت لكاغانوفيتش « يجب الوصول إلى قرار حول ما نعتزم فعله » .
فاجاب : « علينا القيام بجولة في اوكرانيا » . فقلت : « نعم ، ولكن ليس هذا
بالامر الأكثر إلحاحاً الآن . غبت انت عن اوكرانيا مدة طويلة ولذلك من الخير
ان تقوم بجولة فيها . اما انا فابقي في كييف . ففي الوقت الحاضر لا يعود ظهوري
في عدد من المزارع الجماعية بالخير المرغى . ان الامر الرئيسي هو التعجيل
بارسال المخصص من البذور بواسطة السكك الحديدية إلى المزارع حيث الحاجة
ماسة اليها . وان نجاح حملة البذار يتوقف على انجاز هذا العمل » . وهكذا غادر
كاغانوفيتش كييف وبقيت انا فيها اقوم بعمل موزع المكالمات الهاتفية في
محاولتي توزيع حاجات الموسم من البذار والوقود وما اليها . ولم يخطر على بالنا
توفير السماد المعدني نظراً لافتقارنا اليه اصلاً .
وقام كاغانوفيتش برحلة إلى اقليم بولتافا . وقد اقنعه ما شاهده هناك بان

(١) هذه احدى ادهى نكسات خروشوف . ومعناها الوحيد انه كان في طريق انحداره
السريع . فباتوليشيف ، رغم ان خروشوف لا يذكر ذلك ، كان من اتباع
مالنكوف ، فجاء تميئه يزيد في احراج خروشوف . ومن الصدف ان باتوليشيف
هذا كان هو مدير مصنع المطاط في ياروسلافل الذي يشير اليه خروشوف في
الفصل الرابع . وقد سقط من الخطوة بعد تميئه في اوكرانيا لفترة ثم عاد إلى السلطة
في ١٩٥٠ عندما أصبح السكرتير الاول للحزب الشيوعي في بيلوروسيا . وقد
استمر حتى بعد خسوف مالنكوف في ١٩٥٧ وأصبح وزيراً للتجارة الخارجية
في ١٩٥٨ .

مسؤوليته كسكرتير اول سنسبغ عليه من الشرف بقدر ما ستلقي عليه من مسؤوليات خطيرة . فقد شاهد المزارعين الجماعيين وكأنما الرياح تقتلعهم من كل صوب . فهم لا يستطيعون العمل والعديد منهم كانوا يموتون جوعاً ، وبعد عودته إلى كييف فاتحني بانطباعاته عن احدى المزارع الجماعية بصورة خاصة . فأخبرني عن رئيسها واسمه موجيلشينكو ، قال : « انني لم اقابل شيئاً له من قبل » . ومضى كاغانوفيتش يقول : « انه مفرط في عناده ومقته . ولكنني اخشى ان يحصل على حصاد جيد رغم كل شيء » .

وسأله : « وما شأننا بذلك ؟ » فاجاب : « حسناً ، عندما وصلت إلى مزرعة موجيلشينكو الجماعية وجدتهم يستخدمون اسلوب الحرث السطحي . ولما سألته لماذا ، اجاب بانه انما يحرث حسب الاسلوب المفروض اتباعه » .

وهنا رد عليه كاغانوفيتش « اذا بقيت على اسلوبك هذا تنتهي بطلب خبزك من الدولة » . فقال « لست انا من يفعل ذلك ايها الرفيق كاغانوفيتش ، كلا ، لا افعل ذلك على الاطلاق . انني لم اسأل الدولة قط ان تعطيني خبزاً . بل انا نفسي اعطي الدولة الخبز . وفضلاً عن ذلك فاني لا آبه اذا كنت انت السكرتير الأول للحزب ، بل سأبقى أحرث الارض معتمداً هذا الاسلوب ايأ كان رأيك » .

وفي السنة التالية قمت برحلة خاصة لمقابلة موجيلشينكو . وكانت مزرعته الجماعية احدى اكثر مزارع البلاد ازدهاراً . كانت تقدم الحصة المفروضة عليها من الكوننا إلى الدولة قبل ستة اشهر من الموعد المضروب ، وقد ازعج هذا كاغانوفيتش كثيراً . وهذا يفسر قوله لي « اخشى ان يحصل موجيلشينكو هذا على موسم جيد باستخدامه الحرث السطحي » .

ولا يفوتني ان اذكر انه كان لكاغانوفيتش غرض شخصي في تسفيه موجيلشينكو ، ذلك لانه كان مشتركاً في مكافحة اسلوب الحرث السطحي . وكان يتعرض الذين يستخدمون هذا الاسلوب للمحاكمة وفي بعض الحالات للاعدام . فقد اعلن اسلوب الحرثة ذاك « ضد القانون » . والنظرية المبررة لهذا التصرف استنبطها في ساراتوف استاذ لم يلبث ان عوقب هو بالذات . واعتقد ان مصيره كان السجن او ما هو اسوأ (١) .

واخذ كاغانوفيتش ، منذ بدء نشاطاته في اوكرانيا ، يتحين الفرص للبروز ويلقي بظله حولنا . وراوده ان يتفوق على الآخرين بدفع اوكرانيا حتى تتجاوز خطة الانتاج المقررة لها ، خصوصاً في الصناعات المحلية .

(١) مثل آخر على ما كانت تنجب به الخلافات حول الممارسة الزراعية من متاعب .

اذكر انني في احدى السنوات كان علي بوصفي رئيساً لمجلس وزراء اوكرانيا ان اعرض على المكتب السياسي الاوكراني ارقام اهدافنا التي اقترحتها لجنة تخطيط الدولة ، فكان ان تردد كاغانوفيتش كثيراً قبل الموافقة عليها . وكان يعتقد ان الارقام عالية جداً ومحتم ان تقودنا إلى الفشل ، ولم يكن يرغب في قبول خطة انتاج لا نستطيع انجازها . بل كان يريد خطة نستطيع تجاوزها . ذلك انه من الاسهل وضع ارقام ادنى في الخطة ثم الايضاح فيما بعد عن كيف تحققت الخطة بل وتجاوزت . ومن سوء الحظ ان هذه وسيلة شائعة جداً . واعتقد انها لم تزل تستخدم على نطاق واسع حتى الساعة .

في هذه الفترة تعثرت بحظ سيء ، فقد اصابني رشح تطور إلى التهاب رئوي . وكان علي ان امكث فترة طويلة في خيمة الاوكسجين . وسنحت الفرصة لكاغانوفيتش ، وانا طريح الفراش ، ان يفعل ما يحلو له دون مراقبتي . واستأسد علي باتوليشيف إلى حد ان جاء هذا الاخير إلي وانا لما ازل طريح الفراش بعد اجتيازي ازمتي وشكالي قائلاً : « لم اعد احتمل ضغوط كاغانوفيتش » واردف « لم اعد اعرف ماذا افعل » . وادركت انه قد دفع الى فقدان صوابه ، ولم يلبث ان كتب إلى الرفيق ستالين طالباً اعفاءه من مسؤوليته نظراً لتعذر عمله مع كاغانوفيتش . فاعفي من منصبه في كييف ونقل إلى روستوف .

وأخذت صحي بالتحسن الا انني مكثت في الفراش شهرين ايضاً قبل عودتي إلى العمل . ولكن بعد ابلالي واستثنائي واجباتي تدهورت علاقتي مع كاغانوفيتش من سيء إلى اسوأ . لقد بات لا يطاق . وأخذ يضاعف نشاطه الكثيف في اتجاهين : ضد القوميين الاوكرانيين واليهود . ورغم انه هو يهودي الا ان حملته على اليهود لم تكن سوى ذريعة للنيل من اولئك اليهود الذين تربطهم بي اواصر الصداقة . مثال على ذلك اساءته معاملة مراسل صحفي في كييف يدعى تراسكونوف ، كنت اعرفه عندما كان يعمل في جريدة العمال في يوزوفكا زكيت انذاك ترشيحه لعضوية الحزب . وقد عاقب كاغانوفيتش تراسكونوف لمجرد صلاته الحميمة بي .

وطفق كاغانوفيتش بنفث تدمره وشكواه ضد كل من يقع عليه بصره . وكنت بوصفي رئيساً لمجلس الوزراء الاوكراني ، قد تركت لسكرتيرية الحزب ان تتدبر شكاوى كاغانوفيتش . وتسربت شكاوى سياسية عديدة من كاغانوفيتش إلى ستالين بشكل تقارير .

وذات يوم تلقى لي ستالين وقال : « لماذا لا تمهر هذه المذكرات من كاغانوفيتش بتوقيعك ؟ »

— ايها الرفيق ستالين هذه المذكرات ليست من اختصاص الحكومة ، بل من اختصاص الحزب ، لذلك فتوقيعي غير مطلوب .

— كلا ، فالأمر ليس كذلك ، وقد اعلمت كاغانوفيتش بانني لن أقبل ايًا من مذكراته ما لم تشترك بتوقيعها .

وما ان وضعت السماعة حتى رن الهاتف وكان كاغانوفيتش على الطرف الآخر .

— ألم يكلمك ستالين بعد ؟

— نعم كلمني .

— هل اعلمك ؟

— نعم ، فقد اعلمني بان اصبحت كلانا الآن مسؤولاً عن توقيع كل المذكرات . ولم يلبث ينبوع الشكاوى الرسمية المتدفق من عند كاغانوفيتش ان جف ، اذ علم انه لن يستطيع حملي على توقيعها معه . كان ذلك تطوراً قابله بالترحاب ، الا ان العبرة الأهم من هذه القصة هي ان ثقة ستالين بي قد عادت . فقد اتخذت مكالمته الهاتفية كإشارة تدل على انني قد عدت إلى وضع عضو المكتب السياسي الموثوق . وكان ان قويت معنوياتي بما لا يحصى (١) .

وقد تمكنا في النهاية من تحقيق حصتنا في الكوتا وسلمنا ما يقرب الـ ٤٠٠ مليون بود من الخنطة — وهي كمية لا تقارن بما كنا نسلم قبل الحرب ، الا انها اذا ما قورنت بما كنا نسلم بعد الحرب ، اعتبر موسمتا غير سيء .

وفي الخريف نقل ستالين كاغانوفيتش إلى موسكو ، وكانت سنتي الاخيرة في اوكرانيا في ١٩٤٩ هي افضل سنواتي هناك على الاطلاق . ففي التنافس مع

(١) في آذار ١٩٤٧ تخلى خروشوف عن السكرتيرية الاولى في اوكرانيا لكاغانوفيتش ، وبعد اسبوع وضع الملامة في إفشال الزراعة الاوكرانية على وزير الزراعة الاوكراني . وبعد عشرة أيام فقد مسؤولية سكرتيرية لجنة الحزب الاقليمية في كييف . وفي حزيران لم يظهر في اجتماع اللجنة المركزية الاوكرانية بكامل هيئتها . وبدا انه غاص دون أن يترك له أثراً . ولم يكن استمراره كرئيس وزراء اوكرانيا وعضو في المكتب السياسي بموسكو يعني أي شيء ، ذلك أنه في مناسبات عديدة احتفظ ستالين بعمالين رئيسيين في مراكز السلطة اسياً لبعض الوقت بعد ان يكون قد جرى اهماهم عملياً . ويخبرنا خروشوف هنا بان فترة خسوفه الكلي تعود إلى مرضه ، وهذا محتمل ، غير انه في الآونة الأخيرة ظهر ان مرض أعضاء الحكومة أصبح أمراً عادياً بعد أن كانت تكتفه الاسرار في الماضي . وفي كانون الأول ١٩٤٧ عاد كاغانوفيتش إلى موسكو وظهر خروشوف فجأة في كل مظاهر السلطان مجدداً .

الجمهوريات الأخرى تفوقنا على بيلوروسيا وسائر اقاليم الاتحاد التي كانت تعمل مثلنا للتخلص من آثار الاحتلال الألماني . وقد رفعت نجاحاتنا الاقتصادية من سوية اوكرانيا ومن هبة القيادة الحزبية الاوكرانية في نظر البلاد كلها . واني استعيد ذكريات تلك الايام بدفء واعتزاز . وقد وجهني ستالين اكثر من مرة إلى القاء التقارير حول المواضع الزراعية مثل تربية الدواجن في اوكرانيا وسواها . وكانت تقاريري بناء على اوامره تنشر في « البرافدا » كأمثلة يقتدي بها الآخرون . الا انني لن اعزو لنفسي الفضل كله ، وانا باعتباري روسياً لا اود بالطبع ان اتجاهل واستخف بالشعب الروسي ، الا انه لا بد لي من عزو كل نجاحنا في اعادة بناء الزراعة والصناعة الاوكرانيتين للشعب الاوكراني نفسه .

سنوات ستالين الاخيرة

قضية ليننغراد

قبل خطاب غروشوف السري في المؤتمر الحزبي العشرين لم يكن قد ورد علناً ذكر ما سبي قضية ليننغراد في الاتحاد السوفياتي وكل ما كان يعرفه العالم الخارجي عنها هو أنه بعد فترة قصيرة من وفاة أندريه جدانوف فجأة في عام ١٩٤٨ ، وهو الذي كان يرئس الفرع الحزبي في ليننغراد وأكثر المرشحين احتمالاً لأن يكون خليفة ستالين ، جرت حركة تطهير وحشية واسعة النطاق في الجهاز الحزبي بلينغراد وبين مؤيدي جدانوف في موسكو وأماكن أخرى . منذ ذلك جرى إعدام ا.ا. كوزنتزوف ، سكرتير اللجنة المركزية وثاني رجل بعد جدانوف في ليننغراد وبطل الحصار في الحرب . وكذلك أعدم سكرتير ومدينة ليننغراد والحزب الاقليمي جميعاً ومعهم م.ا. روديونوف ، رئيس وزراء الجمهورية الروسية الاتحادية ، وكثيرون غيرهم . ثم ان ن.ا. فوزننسكي الرئيس الشاب اللامع للجنة تسمم الدولة الذي بدا وكأن العالم كله تحت قدميه ، أعدم هو أيضاً ركباً بالرصاص في الوقت ذاته . أما ا.ن. كوسيفين وهو الاخر من جماعة ليننغراد والآن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، فقد نجا بتزليل رتبته مؤقتاً .

وكان مالنكوف المستفيد الرئيسي والمباشر من هذه العملية الدموية ، اذ جاءت وفاة منافسه جدانوف بمثابة نعمة ساهوية حلت عليه . وتحرك رجال مالنكوف حالا إلى الامام في ليننغراد وكذلك في موسكو ، كان غروشوف بصورة اكيدة تقريباً على حق في قوله ان ستالين اعاده إلى موسكو من كيف في نهاية ١٩٤٩ ليكون نقلاً مقابلاً لرجحان كفة مالنكوف الذي كان قد أخذ يصير أقوى كثيراً مما ينبغي . الا أنه ثمة ما يدعو إلى الشك في ما اذا كان ستالين يخطط مباشرة لاستبدال مالنكوف بغروشوف بل من المحتمل أكثر بكثير ان يكون مالنكوف ، بعد وفاة جدانوف ، قد قرر مساعدة

ستالين ليتحرك ضد امبراطورية جدانوف . فنجح في تسييم رأس ستالين ضد جاعة لينتفراد الذين كانوا على الأقل منافسين محتملين له . وفي مطلق الأحوال ، فان مركز مالنكوف ازداد قوة مؤقتاً ، وأصبح خروشوف منافسه الكبير من الآن فصاعداً .

كان نقلي من اوكرانيا إلى موسكو في آخر ١٩٤٩ ، من بعض الوجوه ، نتيجة للمرض الذي كان قد بدأ يكتنف ذهن ستالين ويطغى عليه في السنين الاخيرة من حياته .

وفي احد الايام عندما كنت في لقوف ادير اجتماعاً بين الطلبة في معهد الاحراش حيث قتل الكاتب كالان بيد الوطنيين الاوكرانيين تلقيت فجأة دعوة تلفونية من مالنكوف يخبرني فيها ان ستالين يريدني ان اذهب إلى موسكو . فسألته : هل في الأمر عجلة ؟

فقال : « نعم . خذ اول طائرة صباح الغد » .

ورحت استعد لكل احتمال . وحاولت ان اتوقع سلفاً جميع المفاجآت غير السارة . فقد كنت لا اعلم ماذا سيكون عليه وضعي اذا ما عدت إلى اوكرانيا . غير ان مخاوفي سرعان ما تبددت ، اذ حياني ستالين بحرارة عند وصولي إلى موسكو ، وقال : « اخبرني ، الا ترى انك قد امضيت في اوكرانيا مدة طويلة كافية ؟ صرت مزارعاً اوكرانياً حقيقياً . والآن حان الوقت لكي ترجع إلى موسكو وإلى العمل فيها . ان رأينا هو ان عليك ان تعود إلى منصبك السابق كسكرتير اول للجنة الحزب في مدينة موسكو وللجنة الحزب الاقليمية » .

فشكرته على ثقته بي وقلت له انني متفق معه على ان اثني عشرة سنة كانت مدة كافية من الخدمة في اوكرانيا ، وقلت « لقد عوملت معاملة حسنة واني شاكر لكل من ساعدني في الاشراف على اوكرانيا ، ولكن مع ذلك كله فاني مسرور بعودتي إلى موسكو » . فقال ستالين « ونحن بحاجة اليك هنا . فالامور لا تسير سيراً حسناً تماماً ، وقد اكتشفت مؤامرات وانت سوف تتولى تنظيم موسكو لكي يكون باستطاعة اللجنة المركزية ان تطمئن إلى ان الكيان الحزبي المحلي سيؤديها في نضالها ضد المتأمرين . وحتى الآن ، فقد اكتشفنا مؤامرة في لينتفراد . كما ان موسكو ايضاً أصبحت مكاناً تحتشد فيه عناصر ضد الحزب . ونحن نريد ان نجعل المدينة معقلاً للجنة المركزية » .

— سوف افعل كل ما في قدرتي .

— حسن ، وهذه رسالة خطيرة وقعت في ايدينا ، تعرف جيداً على محتوياتها وسوف نتحدث عنها بعد ان تكون قد انتقلت إلى هنا .

ثم سلمني وثيقة طويلة في آخرها قائمة من التواريخ ، غير انها كانت كأنها بيان كُتب مجهولون . وقد جاء فيه انه يوجد في موسكو جماعة من الناس الذين يتآمرون ضد اللجنة المركزية وقد سمي بوبوف (١) سكرتير لجنة موسكو واللجنة المركزية بانه زعيم تلك الجماعة المؤلفة من سكرتيري لجنة المنطقة ومديري المصانع والمهندسين . وكان اول رد فعل مني هو ان كاتب هذا البيان اما رجل مجنون او نذل لثيم . وفي الحالتين ، فان نواياه كانت صادرة عن حقد وخبث . فاودعت تلك الوثيقة في صندوقي وقررت ان لا اعود إلى ذكرها مرة اخرى ما لم يفتح ستالين شخصياً الموضوع . وشمرت باني مهما اطلت في نسيان هذه المسألة ، يكون من الافضل .

ورجعت إلى كييف لادبر امر انتقالي . وعندما وصلت إلى مترلي جاءت واندا لفوفنا ، وكورنيسوك ، لزيارتي في شقتي (٢) . فاخبرتهما عن وظيفتي الجديدة فأنهارت واندا لفوفنا تماماً وانفجرت بالدموع . واخذت تتحب قائلة : « كيف تستطيع الذهاب ، كيف تقوى على ترك اوكرانيا ؟ »

هنا كانت امرأة بولونية تأسف لذهاب رجل روسي من اوكرانيا ! اما انا فقد دعوت إلى عقد جلسة للجنة المركزية بكامل هيئتها انتخبنا فيها قيادة جديدة لاوركرانيا . وكان علي ان اسرع في العودة إلى موسكو ، اذ طلب الي ان اؤكد من العودة لحضور الاحتفال بالذكرى السبعين لمولد ستالين في يوم ٢١ كانون الاول ١٩٤٩ .

وبعد ذلك بفترة توليت رسمياً مهمة سكرتير اول للجنة موسكو (٣) . ولم يلبث ستالين ان اثار موضوع تلك الرسالة التي كان قد اعطاها لي لادرسها . فقال : — هل اطلعت على تلك الوثيقة التي اعطيتك اياها ؟

قال هذا وهو يراقبني باهتمام ..

— نعم . لقد اطلعت عليها .

— وما رأيك ؟ قال هذا وزم عيني وركزهما على عيني وشمخ بأنفه وشخر — وكان ذلك من حركاته المحببة لديه .

(١) ج .م. بوبوف الذي كان خروشوف قد حل محله رئيساً للحزب في موسكو عند عودته من اوكرانيا .

(٢) كان كورنيسوك كاتباً اوكرانياً سياسياً شهيراً محبوباً كثيراً من هيئة الحزب .

(٣) كانت مكانة خروشوف عندما عاد إلى موسكو في آخر ١٩٤٩ أعلى بكثير من ان يحتل منصب السكرتير الاول للجنة الحزب في موسكو . كان لا يزال عضواً في المكتب السياسي ، وفي سكرتيرية اللجنة المركزية أيضاً .

— هذه الرسالة يجب ان يكون واضعها ندلاً لثيماً او مجنوناً .

— ماذا ؟

ولم يكن ستالين ابداً يشعر بارتياح عندما يبدو شخص آخر فاطر الايمان ببيانات تكشف المتآمرين وتتهمهم .
فأجبت :

— ايها الرفيق ستالين ، انني متأكد مئة بالمئة ان الاتهامات الواردة في تلك الرسالة لا صلة لها بالحقيقة . انني شخصياً على معرفة بالاشخاص الذين تتهمهم هذه الرسالة بالتآمر . وهم جميعاً رجال شرفاء مخلصون . واني لمتأكد بان بوبوف ليس متآمراً . صحيح انه يتصرف ببلادة ، وليس عمله في المستوى المطلوب من الكفاءة . ولكنه لا يمكن ان يتورط في اي نوع من المؤامرة . انه رجل صادق ولم يخامرني قط اي شك فيه . وهذه الرسالة لا تبدل رأيي فيه على الاطلاق .

ينبغي ان تكون لمجتي التأكيدية قد تركت بعض التأثير على ستالين ، فحدق في وقال : « هل تعني انك لا تعتقد ان هذه الوثيقة يجب ان تؤخذ بعين الجدد ؟ »
— نعم ، ايها الرفيق ستالين . وطبعاً انا غير متأكد تماماً ولكن اظن ان الدافع اليها هو الحقد والتحريض .

فأخذ ستالين يشتم غاضباً وترك الموضوع .

وكان مما يعزز وضعي الخاص واكتساب ثقة ستالين ان اويد تلك التهم الملفقة التي تضمنتها تلك الرسالة . تأيدي كل ما كان يحتاج اليه ستالين لكي يأمر باعتقال بوبوف والآخرين جميعاً وكان هؤلاء سيرغمون بدون ذنب على الاعتراف الكاذب . وهكذا كنا قدمنا للمحاكمة مؤامرة في موسكو شبيهة كل الشبه في عيوبها بالمحاكمة التي جرت في ليننغراد ، وكنت انا اكتب الفضل بانني الرجل الذي تمكن بنشاطه وبقظته من قمع المؤامرة وهي في المهد . ولكن مع ان بوبوف نجح مؤقتاً ، الا انني كنت اعرف ان ستالين ينتظر فرصة اخرى ليفتك به . فهو لن يجد راحة الا بعد ان يكون بوبوف ازيل من الطريق . وقد اقترحت انا ان ينقل بوبوف من موسكو ، ووجدنا عملاً له كمدبر لمصنع كبير في كوبيشيف .

اما ستالين فكان بعض الاحيان يتذكر التهم التي تضمنتها تلك الرسالة ويسأل بلهجة تهديدية : « اين هو ذلك الرجل بوبوف ، على كل حال ؟ »
وكنا نجيبه : « انه في كوبيشيف » .

فتهدأ عندئذ اثرة ستالين . غير انه كان ولا شك يتساءل في داخله ، من وقت إلى آخر ، قائلاً « ربما يكون خروشوف مخطئاً ! وقد يكون بوبوف

متآمراً ضدي » . وقد وجدت في ما بعد ان يوبوف كان قد اظهر نغمته علي واتهمني بكل فرية عندما ابعدها عن موسكو . ولكنه لم يكن يعلم انه لولا دفاعي عنه لكان في عداد الاموات .

وبعد ان تسلمت عملي في موسكو استطعت ان اري ان وصولي إلى المسرح كان عقبة في طريق بيريا ومالينكوف . وبدأت حتى اشتبه بان من الاسباب التي حملت ستالين على استدعائي إلى موسكو كان ليضعني في ميزان القوة في القيادة الجماعية ، ولكي اكون عيناً على بيريا ومالينكوف ترأب تصرفاتهما .

ويبدو ان ستالين كان بعض الاحيان يخاف من بيريا ويسره التخلص منه ولكنه حار في كيف يفعل ذلك . ومن الطبيعي ان ستالين لم يخبرني بذلك على الاطلاق . غير انني كنت اشعر به (١) وكان ستالين دون ريب يعاملني معاملة حسنة . وبدا انه يثق بي ويقدرني ، حتى وان كان احياناً ينتقدني . ولكنه كان يمنحني تأييده عندما كنت احتاج اليه ، وكنت اقدر ذلك منه كل التقدير . واخذت اصطدم باستمرار مع بيريا ومالينكوف . وكان مالينكوف قد صار عضواً في المكتب السياسي بعد الحرب ، وكان بالضرورة بيروقراطياً بكل معنى الكلمة تتجلى قدرته في وضع الرسائل والتقارير . ومثل هذا الرجل يمكن ان يكون اشد خطراً من الآخرين جميعاً اذا ما اعطيت له اية سلطة . وامثاله يعتلون اي شيء على قيد الحياة اذا تحطى الحدود التي يعينونها له .

وفي هذه الاثناء كانت المطاردة مستمرة في ليننغراد . واني لا اعلم كيف كان ستالين شخصياً يشعر نحو قضية ليننغراد . فهو لم يتحدث معي عنها الا عند الاشارة إلى موضوع « مؤامرة موسكو » في صدد نقلي من اوكرانيا . ان الذين اعتقلوا في موسكو كان اكثرهم من العمال الحزبيين الذين رقامهم جدانوف من منظمة غوركي إلى منظمة موسكو (٢) .

وبعد ان كنت قد بدأت العمل بصفتي سكرتير اللجنة المركزية ومسؤولاً عن منظمة موسكو ، كان ا. ا. كوزنتروف - كوزنتروف ليننغراد - كما كنا دائماً نسميه قد اعتقل فعلاً . وكانت منظمة الحزب في ليننغراد تتمزق شراً تمزيق . وكانت الحملة مركزة ضد «ترويك» (ثلاثي) من الشبان الذين كان يرجي لهم مستقبل مرموق ، وهم كوزنتروف وفوزننسكي وكوسيفين . وكنت اعرف

(١) هناك أدلة كثيرة على ان ستالين كان في الواقع قد أخذ يتحول ضد بيريا .
(٢) كان اندريه جدانوف سكرتير الفريق غوركي وكان قد طلب بعض محاسبه إلى ليننغراد معه وتمكن ان يحسن مراكز آخرين في موسكو .

كوزنتروف بعض الشيء ، وفوزننسكي معرفة جيدة جداً ، ولم يكن قد اعتقل بعد عندما وصلت إلى موسكو . ولكنه كان قد اقبل من وظائفه كلها وكان بدون عمل ينتظر ان يلقي القبض عليه في اي يوم من الايام .

وظل فوزننسكي فترة من الزمن بعد تجميد وضعه ، يحيى لتناول العشاء عند ستالين . وكان قد تبدل كثيراً وصار رجلاً آخر فلم يعد ذلك الرجل اللامع الواثق من نفسه الميال إلى القوة والبطش . والواقع ان هذا ما ادى به إلى المكانة التي احتلها . فعندما كان رئيساً لتصميم الدولة دفعت به جرائته إلى الاصطدام مع بيريا . ذلك انه سعى لاعادة توزيع موارد البلاد بصورة أكثر مساواة . وكان معنى ذلك اخذ المال من بعض المفوضيات التي تتمتع برعاية بيريا ، هذه المفوضيات التي كان دائماً يطلب لها الحصول على أكثر من نصيبها من الأموال . وكان بيريا يتمتع بسلطة كبيرة بفضل قربه الحميم من ستالين .

وكان المرء يحتاج لأن يكون له دهاء بيريا ليتصور كيف كان بيريا يختار اللحظة المناسبة تماماً ليكتب فيها رضاء ستالين او نقمته على شخص ما لفائدته هو . وقد تجاسر فوزننسكي فاعترض طريق بيريا . وقبل ان ينتهي بيريا من تصفيته كان فوزننسكي قد صار مجرد خيال شخصيته السابقة (١) .

واني لاذكر في اثناء هذه المدة ان ستالين سأل مالنكوف وبيريا أكثر من مرة قائلاً : « ألسنا نهدر طاقتنا في عدم سماحنا لفوزننسكي بان يعمل ، بينما نحن ندرس مصيره ؟ » .

فكانا يجيبان : « نعم . دعنا نفكر في الامر . »

ويمر بعض الزمن ثم يعود ستالين إلى اثاره الموضوع ثانية ويقول : « ربما يتوجب علينا ان نسد إلى فوزننسكي رئاسة بنك الدولة فهو اقتصادي وخبير مالي حقيقي . » فلا يبدي احد اعتراضاً على ذلك . ولكن فوزننسكي كان يبقى حيث هو .

ويبدو واضحاً ان ستالين كان يشعر في قرارة نفسه ببقية من الاحترام والتقدير نحو فوزننسكي . وقبل قضية ليننغراد كانت تراوده آمال عظيمة بتلك « الترويكما » من الشبان اللامعين . وكان في الواقع يهتم بترقيتهم تدريجياً قبل « كشف المؤامرة » . وكان كوزنتروف في وقت ما يبدو انه مرشح لكي يحل

(١) كان سائداً ان ن.ا. فوزننسكي ، أبرز البارزين من شبان الجيل الجديد ، اعدم باعتباره مشتركاً في «مؤامرة» ليننغراد ، غير ان خروشوف يعطي هنا لأول مرة وصفاً معقولاً لما حدث .

متآمراً ضدي » . وقد وجدت في ما بعد ان بوبوف كان قد اظهر نغمته علي واتهمني بكل فرية عندما ابعدها عن موسكو . ولكنه لم يكن يعلم انه لولا دفاعي عنه لكان في عداد الاموات .

وبعد ان تسلمت عملي في موسكو استطعت ان ارى ان وصولي إلى المسرح كان عقبة في طريق بيريا ومالينكوف . وبدأت حتى اشتبه بان من الاسباب التي حملت ستالين على استدعائي إلى موسكو كان ليضعني في ميزان القوة في القيادة الجماعية ، ولكي اكون عينا على بيريا ومالينكوف ترأب تصرفاتهما .

ويبدو ان ستالين كان بعض الاحيان يخاف من بيريا ويسره التخلص منه ولكنه حار في كيف يفعل ذلك . ومن الطبيعي ان ستالين لم يخبرني بذلك على الاطلاق . غير انني كنت اشعر به (١) وكان ستالين دون ريب يعاملني معاملة حسنة . وبدا انه يثق بي ويقدرني ، حتى وان كان احيانا ينتقطني . ولكنه كان يمنحني تأييده عندما كنت احتاج اليه ، وكنت اقدر ذلك منه كل التقدير . واخذت اصطدم باستمرار مع بيريا ومالينكوف . وكان مالينكوف قد صار عضواً في المكتب السياسي بعد الحرب ، وكان بالضرورة بيروقراطياً بكل معنى الكلمة تتجلى قدرته في وضع الرسائل والتقارير . ومثل هذا الرجل يمكن ان يكون اشد خطراً من الآخرين جميعاً اذا ما اعطيت له اية سلطة . وامثاله يعتلون اي شيء على قيد الحياة اذا تخطى الحدود التي يعينونها له .

وفي هذه الاثناء كانت المطاردة مستمرة في ليننغراد . واني لا اعلم كيف كان ستالين شخصياً يشعر نحو قضية ليننغراد . فهو لم يتحدث معي عنها الا عند الاشارة إلى موضوع « مؤامرة موسكو » في صدد نقلي من اوكرانيا . ان الذين اعتقلوا في موسكو كان اكثرهم من العمال الحزبيين الذين رقامهم جدانوف من منظمة غوركي إلى منظمة موسكو (٢) .

وبعد ان كنت قد بدأت العمل بصفتي سكرتير اللجنة المركزية ومسؤولاً عن منظمة موسكو ، كان ا. ا. كوزنتروف - كوزنتروف ليننغراد - كما كنا دائماً نسميه قد اعتقل فعلاً . وكانت منظمة الحزب في ليننغراد تتمزق شراً تمزيق . وكانت الحملة مركرة ضد «ترويك» (ثلاثي) من الشبان الذين كان يرجي لهم مستقبل مرموق ، وهم كوزنتروف وفوزننسكي وكوسيفين . وكنت اعرف

(١) هنالك أدلة كثيرة على ان ستالين كان في الواقع قد أخذ يتحول ضد بيريا .
(٢) كان اندريه جدانوف سكرتير الفريق غوركي وكان قد طلب بعض محاسبه إلى ليننغراد معه وتمكن ان يحسن مراكز آخرين في موسكو .

كوزنتزوف بعض الشيء ، وفوزنسكي معرفة جيدة جداً ، ولم يكن قد اعتقل بعد عندما وصلت إلى موسكو . ولكنه كان قد اقبل من وظائفه كلها وكان بدون عمل ينتظر ان يلقي القبض عليه في اي يوم من الايام .

وظل فوزنسكي فترة من الزمن بعد تجميد وضعه ، يجيء إلى لتناول العشاء عند ستالين . وكان قد تبدل كثيراً وصار رجلاً آخر فلم يعد ذلك الرجل اللامع الوثاق من نفسه الميال إلى القوة والبطش . والواقع ان هذا ما ادى به إلى المكانة التي احتلها . فعندما كان رئيساً لتصميم الدولة دفعت به جرائته إلى الاصطدام مع بيريا . ذلك انه سعى لاعادة توزيع موارد البلاد بصورة أكثر مساواة . وكان معنى ذلك اخذ المال من بعض المفوضيات التي تتمتع برعاية بيريا ، هذه المفوضيات التي كان دائماً يطلب لها الحصول على أكثر من نصيبها من الأموال . وكان بيريا يتمتع بسلطة كبيرة بفضل قربه الحميم من ستالين .

وكان المرء يحتاج لأن يكون له دهاء بيريا ليتصور كيف كان بيريا يختار اللحظة المناسبة تماماً ليكتسب فيها رضا ستالين او نقمته على شخص ما لفائدته هو . وقد تجاسر فوزنسكي فاعترض طريق بيريا . وقبل ان ينتهي بيريا من تصفيته كان فوزنسكي قد صار مجرد خيال شخصيته السابقة (١) .

واني لاذكر في اثناء هذه المدة ان ستالين سأل مالنكوف وبيريا أكثر من مرة قائلاً : « ألسنا نهدر طاقتنا في عدم سماحنا لفوزنسكي بان يعمل ، بينما نحن ندرس مصيره ؟ » .

فكانا يجيبان : « نعم . دعنا نفكر في الامر . »

ويمر بعض الزمن ثم يعود ستالين إلى اثاره الموضوع ثانية ويقول : « ربما يتوجب علينا ان نسد إلى فوزنسكي رئاسة بنك الدولة فهو اقتصادي وخبير مالي حقيقي . » فلا يبدي احد اعتراضاً على ذلك . ولكن فوزنسكي كان يبقى حيث هو .

ويبدو واضحاً ان ستالين كان يشعر في قرارة نفسه ببقية من الاحترام والتقدير نحو فوزنسكي . وقبل قضية ليننغراد كانت تراوده آمال عظيمة بتلك « الترويكما » من الشبان اللامعين . وكان في الواقع يهتم بترقيتهم تدريجياً قبل « كشف المؤامرة » . وكان كوزنتزوف في وقت ما يبدو انه مرشح لكي يحل

(١) كان سائداً ان ن. ا. فوزنسكي ، أبرز البارزين من شبان الجيل الجديد ، اعدم باعتباره مشتركاً في «مؤامرة» ليننغراد ، غير ان خروشوف يعطي هنا لأول مرة وصفاً معقولاً لما حدث .

عمل مالنكوف .

وكان فوزننسكي قد عين نائباً اول لستالين ، وكان كثيراً ما يعهد اليه بمهمة تروئس مجلس الوزراء . وكان كوسيجين قد اعطي منصباً مسؤولاً بتولي الشؤون التجارية والمالية . وفي رأبي ان سقوط اولئك الرجال قد تقرر لانهم كانوا على ذلك المستوى من الكفاءة . فقد كان ستالين يعمل على اعدادهم ليخلفوا هيئة حرس الكرملين القديمة مما يعني ان بيريا ارلا ، ثم مالنكوف فمولوتوف وميكويان لم يعودوا يتمتعون بثقة ستالين (١) .

ويتعذر علي ان اقول كيف تمكن رجال الحرس القديم من نفس ثقة ستالين بهؤلاء الشبان .

واني استطيع فقط ان اقدم الاستنتاجات التي توصلت اليها على اساس مشاهداتي ، وعلى اساس ملاحظات تسقطها من احاديث دارت بين مالنكوف وبيريا .

لقد استطعت ان اري كيف كان بيريا ومالنكوف يتصرفان مع ستالين عندما كانت تذكر اسماء اولئك الشبان الثلاثة . وكونت سريعاً الاعتقاد ان بيريا ومالنكوف كانا يبذلان كل ما يستطيعانه لتحطيم « الترويك » المؤلف من كوزنتزوف وفوزننسكي وكوسيجين . وكما سبق لي ان قلت كان بيريا اقدر الجميع على نفس ثقة ستالين بالآخرين . وكان مالنكوف لديه بمثابة منجنيق لذلك حصون منافسه . ذلك ان مالنكوف كان يجلس في سكرتيرية اللجنة المركزية وباستطاعته التوصل إلى الاطلاع على جميع المعلومات التي كانت تعطى إلى ستالين . فكان بإمكانه ان يتلاعب في تكييفها بالاسلوب الذي يستفز نقمة ستالين وبوذي إلى اثاره عدم ثقته .

ان المكائد التي كان يحبك خيوطها بيريا ومالنكوف ضد « ترويك » لينغراد شملت قضية اخرى وسابقة لهذه القضايا ، هي قضية ا. ل. شاخورين الذي كان نزيل السجن عندما بدأ اعتقال اللينغرايين بصورة جدية . وكان شاخورين اثناء الحرب مفوض الشعب لصناعة الطيران ، وكنت انا قد عرفته جيداً عندما كان منظماً حزبياً في اللجنة المركزية ، وفي عهده المصنع الجوي الثالث عشر .

(١) ان هذا يتجاوز الحد . ويبدو من المرجح ان خروشوف كان يسبق في رؤيته مشاريع ستالين ، والأكثر احتمالاً هو ان مالنكوف وبيريا قد امتعضا من بروز كوزنتزوف وبوبوف وفوزننسكي فوقاً في الدس عليهم وتحطيمهم . وبعد ان ابعد أصحاب المناصب العالية كانت النتيجة المتوقعة ، كما يتبع الليل النهار ، ان يلحق بهم مساعدوهم .

وبينما كنت في اوكرانيا ، اعتقل شاخورين لانه ، على ما قيل ، سمح بانتاج طائرات غير الحقة في اثناء الحرب . وقد اخبرني مالنكوف فيما بعد ان فاسيا (فاسيلي) ستالين الذي كان طياراً كان قد وشى بشاخورين إلى والده . وان ستالين امر باجراء التحقيق (١) . وكان مالنكوف متورطاً بصورة غير مباشرة بقضية شاخورين ، لان جزءاً من مهمته اثناء الحرب كان الاشراف على صناعة الطيران مما جعله مسؤولاً عن العمل السيء الذي يصدر عن مفوض الشعب . وكان هنا بعض العدل لان الاسراع في انتاج الكمية اثناء الحرب كان يتم على حساب النوع . ومهما يكن من امر فان شاخورين زج به في السجن واقتل مالنكوف من سكرتيرية اللجنة المركزية وارسل إلى مكان ما في آسيا الوسطى - إلى طشقند على ما اظن . واستعمل بيريا نفوذه لحمل ستالين على اعادة مالنكوف إلى موسكو . ولم يعد الاثنان بيريا ومالنكوف يفرقان منذ ذلك الحين .

ثم ان مارشال الجوا ١.١. نوفيكونوف كان ايضاً في السجن عند بداية قضية ليننغراد (٢) . وقد اعتقل بعد الحرب لقبوله تسلم طائرات فاسدة . وهو ايضاً كان قد وشى به - على ما يقال - فاسيلي ستالين . وكنت انا اعرف نوفيكونوف جيداً . فقد تولى قيادة السلاح الجوي في الجيش الاحمر في القسم الأكبر من الحرب وقام بزيارة مقر قيادتنا اثناء معركة ستالينغراد . وقد كانت له عيوبه ، فكان يشرب اكثر مما هو على الارجح مفيد له بكثير . غير انه كان رجلاً مخلصاً صادقاً وشريفاً .

(١) كان ابن ستالين مشهوراً بعجرفته وطبعه الانتقامي وكان ايضاً سكيراً عريداً ، ثم انه استغل إلى حد بعيد سلته بأبيه فكانت ترفقه إلى رتبة لفتنت جنرال اثناء الحرب محابة فاضحة ، وقد اضطر ستالين ان يقيله قبل وفاته بزمان قصير من قيادة سلاح الجو في منطقة موسكو العسكرية . وأكدت سفيلانا اليليويفا في كتابها وعنوانه «عشرون رسالة إلى صديق» ان فاسيلي كان مسؤولاً عما أصاب المارشال نوفيكونوف القائد الأعلى لقوات الجو السوفياتي من تحقير وسجن. وبعد وفاة ستالين، حكم على فاسيلي بالسجن ٨ سنين بسبب ذلك والجرائم اخرى . وقد اطلق سراحه قبل انتهاء مدة محكوميته لأن خروشوف كان يشفق عليه ويعامله بمشابة ابنه وأعيدت له رتبته في سلاح الطيران وعضويته في الحزب . ولكنه سجن مرة اخرى ثم اطلق سراحه . واستمر يسكر حتى مات في ١٩٦٢ .

(٢) كان نوفيكونوف قائداً من الطراز الاول وكان ايضاً طياراً ماهراً ورجلاً محبوباً .

يظهر انه بعد هذه الاعتقالات كان ستالين يشعر بقدر معين من حسن النية نحو شاخورين ونوفيكوف . فكان يتحول نحو بيريا ومالنيكوف اثناء تناول الطعام سائلا اذا كان شاخورين ونوفيكوف ما زالوا في السجن وعندما يردان على سؤاله بالاجاب يقول : « الا تريان انه يكون من الموافق اطلاق سراحهما ؟ » غير ان ستالين كان يلقي مثل هذا السؤال على ذاته ، اي انه كان يفكر بصوت مرتفع . وكان يقابل سؤاله بالصمت فترك الموضوع مؤقتاً إلى ان يعود إلى اثارته مرة اخرى . وذهب مرة إلى حد القول : « يتوجب عليكما ان تفكرا جدياً باطلاق سراح شاخورين ونوفيكوف . فأني عمل مفيد يقومان به في السجن ؟ انهما لا يزالان يستطيعان العمل . » وكان يوجه ملاحظاته هذه إلى بيريا ومالنيكوف لانهما كانا مسؤولين عن القضية ضد شاخورين ونوفيكوف .

وكنا بعد العشاء نلتقي في غرفة الحمام لنغسل ايدينا . وكانت تلك الغرفة كبيرة واسعة . وكنا احياناً نقف فيها قبل الجلسات وبعدها . وكنا دائماً نسمي العشاء مع ستالين « جلسات » عمل نبحث فيها ما يتوجب عمله وما يحتمل ان تكون نتائج الجلسة . وقد سمعت مرة بيريا يقول لمالنيكوف في غرفة الحمام :

« ان ستالين قد اثار موضوع ذينك الطيارين مرة اخرى . فانت تعلم انه اذا اطلق سراحهما فان ذلك قد يمتد إلى آخرين » .

فماذا ترى كان يعني بيريا بقوله « قد يمتد إلى آخرين » ومن هم « اولئك الآخرين ؟ » ينبغي ان يكون بيريا خائفاً من انه اذا اطلق سراح شاخورين ونوفيكوف فقد يعود ستالين إلى موضوع كوزنتروف وفوزننسكي . وكان مالنيكوف وبيريا يخافان اذا ما اطلق سراح كوزنتروف وفوزننسكي اللذين يعتبرانها زعمي مؤامرة لينتفرد ، فان الحملة ضد منظمة لينتفرد كلها قد تنهار . وهكذا كان مالنيكوف وبيريا يبذلان كل ما في استطاعتهما لابقاء شاخورين ونوفيكوف في السجن . وقد نجحنا في ذلك ، فلم يطلق سراح « الآخرين » اي جماعة لينتفرد .

ولم يتسن لي ولا مرة ان اطلع على قرارات الادانة في قضية لينتفرد . غير انني افترض ، وذلك ايضاً بناء على احاديث استطعت سماعها بين مالنيكوف وبيريا ، ان التهم الموجهة ضد جماعة كوزنتروف كانت الوطنية الروسية ومعارضة اللجنة المركزية . لقد بدأ التحقيق ، ومن هو الذي ادار التحقيق ؟ ستالين نفسه فعل ذلك . ولكن اذا كان ستالين هو مدير الحقوة ، فبيرييا كان اذن عازف الكمان الاول . وما الذي يحملني على هذا القول ؟ ان اباكوموف الذي اشرف فعلاً على الادعاء كان من اتباع بيريا . فلم يكن ينقل بلاغاته

إلى أي كان ، ولا حتى إلى ستالين ، بدون أن يتداول الأمر أولاً مع بيريا .
ولم أكن أنا في الحقيقة مطلعاً على القضية شخصياً . غير أنني اعترف بأنني قد
أكون وقعت بامضائي على الحكم . ففي تلك الأيام كان ستالين يوقع بامضائه على
الأحكام إذا رأى ذلك من الضرورة ، في جلسة يعقدها المكتب السياسي ،
يوقع عليها الباقون منا بامضاءاتهم ، دون النظر إليها . وذلك كان المقصود من
« القيادة الجماعية » . وبالمقارنة مع أساليب ستالين المعتادة في معاملة أعداء الشعب ،
نجد أن قضية ليننغراد كانت نموذجاً للعدل . فقد أعطيت مظهراً للقضية التي جرى
تداولها وفقاً للإجراءات القضائية الصحيحة . فالمحققون أجروا التحقيق والنائب
العام قام بالادعاء ، وجرى المحاكمة أمام محكمة ودعي الأعضاء العاملون في
منظمة ليننغراد ليراقبوا الإجراءات عندما كان المتهمون يجري استجوابهم في
قاعة المحكمة . ثم أعطيت الفرصة للمتهمين لأن يقولوا شيئاً من الدفاع عن أنفسهم
قبل تلاوة الحكم .

وقد اتفق أنني كنت مع ستالين عندما أبلغ ما قاله فوزنسنسكي قبل أن يعلن
عليه الحكم بالاعدام رمياً بالرصاص . فقد وقف فوزنسنسكي ونفث كرهه
ضد ليننغراد ولعن اليوم الذي وطأت فيه قدمه تلك المدينة عندما جاء لتلقي العلم
فيها من دونباس . وقال إن ليننغراد سبق أن نالت نصيبها من المؤامرات ، وأنها
تعرضت لجميع أنواع النفوذ الرجعي من بيرون (١) إلى زينوفيف .

ويبدو جلياً أنه فقد عقله . فإن من الهذيان التحدث عن بيرون وزينوفيف
في وقت واحد كما لو أنهما كانا الشيء ذاته . فزينوفيف كان يمثل رأياً سياسياً
يتناقض مع رأي ستالين في كيف يجب أن تبنى الاشتراكية في بلادنا . قد تكون
أنت معه أو ضده . أما أنا من ناحيتي فقد كنت دائماً أداخ عن موقف ستالين ،
ولذلك قاتلت ضد زينوفيف واتباعه . ولكن بيرون كان شيئاً آخر بالمرّة .
وإني لا أعلم ماذا قال كوزنتزوف والآخرين في كلماتهم الأخيرة . ولكن أياً
كان ما قالوه فلم يكن له أي تأثير على مصيرهم إذ كانوا قد حكموا قبل زمن
طويل من صدور الحكم عليهم رسمياً ، وحتى قبل بدء محاكمتهم . والواقع أن

(١) بيرون هو كونك فون بوهرن الشهير الذي صار في ما بعد دوق كورلند وهو من
أصل الماني غامض بدأ «صنعه» كعاشق وسكرتير الامبراطورة أنا إيفانوفنا قبل
أن تتسلم العرش ، وارتقى ليصير من أكثر الطغاة المكروهين في التاريخ الروسي .
وقد توافق كثير وأتجاوز الحد في فرض نفسه ، وقد انتهى بان ارسل إلى سيبيريا لمدة
عشرين سنة .

ستالين كان قد حكم عليهم شخصياً عند اعتقالهم . لقد هلك كثيرون في ليننغراد ، وكذلك ايضاً كان نصيب كثيرين من الذين نقلوا من ليننغراد للعمل في مناطق اخرى .

اما بصدد كوسيجين ، فقد كانت حياته معلقة بخيط واه . والرجال الذين كانوا قد اعتقلوا وحكم عليهم في ليننغراد وجهوا اتهامات سخيفة ضده في شهاداتهم ، وكتبوا جميع انواع الهراء عنه . وقد كان كوسيجين في موقف حرج منذ البداية ، لانه كان متصلاً بالقرابة بكوزنتزوف عن طريق المصاهرة . وبالرغم من صلته الوثيقة بستالين ، فقد اقبل فجأة من جميع المناصب التي كان يتقلدها وعين للعمل في احدى الوزارات . وقد القت الاتهامات التي وجهت اليه ظلاً حالكاً ، بحيث انني لا استطيع ان اوضح كيف نجا من القضاء عليه مع الآخرين . فلعلة ، كما يقولون ، سحب ورقة يانصيب رابحة ، فمر ذلك الكأس به دون ان يتجرعه (١) .

في تلك الايام لم يكن مستغرباً حلول اي شيء بأي واحد منا . كان كل شيء يتوقف على ما يخطر لستالين حين يشخص ببصره نحوك . وكان بعض الاحيان حين يفعل ذلك يقول : « لماذا لا تنظر إلى عيني اليوم ؟ لماذا تحول عينيك عن عيني ؟ » او بعض السخافات الاخرى الشبيهة بهذه . وقد يتحول نحوك بدون انذار بشراسة حقيقية . وليس من محقق في الكون يتصرف مع اعظم المجرمين كما كان يتصرف ستالين مع اصدقائه الذين كان يدعوهم لتناول الطعام معه على مائدته .

وقد وصف بولغانين مرة ، اصدق وصف ، الاختبارات التي كان علينا جميعاً ان نعيشها معه في تلك الايام . فقد كنا خارجين في طريقنا بعد طعام العشاء مع ستالين في احدى الليالي ، اذ قال بولغانين : « انك تأتي إلى مائدة ستالين ضيفاً معزراً ، ولكنك لا تستطيع ان تتأكد من انك تعود إلى منزلك او تؤخذ إلى السجن » .

ورغم ان بولغانين كان يتعمه السكر وهو يتلفظ بهذه الكلمات الا ان ما قاله يكاد يكون وصفاً دقيقاً لاحوالنا الحرجة بين يوم وآخر .

(١) لم يكن خروشوف وحده الذي تسأل كيف استطاع كوسيجين ان ينجو بحياته . ربما لأنه استطاع أن يبقى بعيداً عن الدسائس الحزبية وركز اهتمامه على الادارة والاقتصاد الصناعي . وقد اعاده ستالين إلى العمل وعينه عضواً مرشحاً لهيئة الرئاسة (البرزيديوم) الموسعة بعد مؤتمر الحزب التاسع عشر في عام ١٩٥٢ .

عداوة ستالين للسامية

لعل أبرز ظاهرة في هذا الفصل هي اهتمام خروشوف إلى درجة الخروج عن الموضوع ، في إيجاد المداخل ليتسنى له شجب العداة للسامية . ومع ان ليس هناك دليل يثبت ان خروشوف شخصياً كان متورطاً عملياً بسياسات معادية للسامية ولكنه لم يكن يحب اليهود فكان يقول المرة تلو الاخرى بانهم ينبغي أن يوضعوا في مكانهم . وعندما كان مسيطراً على اوكرانيا احتفظ بالصلت ازاء ما كان يفعله النازيون باليهود . وهو وفقاً لياسة ستالين التي اتخذها في ما بعد ، رفض ان يعلم بان اليهود عانوا أكثر مما عاناه غير اليهود في الأراضي السوفياتية . كما انه ينبغي ان يكون قد تقاضى عن ترحيل اليهود بوصفهم غير مرغوب فيهم ، ذلك الترحيل الذي اجراه ستالين ذاته بعد الحرب من اوكرانيا الى اقاصي سيبيريا . على ان كل شيء قاله عن مصير أفراد من اليهود في هذه الفترة كان حقيقياً ، وكان بوسعهم ان يقول أكثر وهو يؤكد هنا رسياً مقتل منجويل ويرمي ضوءاً جانبياً على مصير لوزوفسكي . ولم يكن شيء من ذلك قد جسيء على ذكره في الخطاب السري ، كما انه لم يرد شيء عن اعتقال زوجة مولوتوف وسجنها . ومن الناحية الاخرى لقد احتوى الخطاب السري على معلومات أكثر مما هو وارد في هذا الفصل عن تدمير ستالين لشعوب باسرها في القرم والفوقاس (تتر وشركس وانفوتس وغيرهم) عقاباً لهم على تعاونهم مع الالمان . وموقف التهور والاستخفاف الذي اتخذته خروشوف ازاء أعمال العنف والحكم الاستبدادي يظهر في هذا الفصل كما ظهر في الفصول السابقة عن التطهيرات المظلمة، فهو يقول : «انني اوافق موافقة كلية على اعتقال الناس، ولكن شرط ان يتم ذلك على الوجه الصحيح» .

عندما كنا لا نزال ندفع بالألمان إلى خارج اوكرانيا تألفت هيئة اطلق عليها اسم اللجنة اليهودية ضد الفاشية التابعة لمكتب المعلومات السوفياتي . وتشكلت هذه اللجنة لكي تجمع المواد - المواد الايجابية طبعاً - عن بلادنا وعن نشاطات جيشنا السوفياتي ضد العدو المشترك: المانيا النازية، وللقيام بتوزيع هذه المواد على الصحافة الغربية وخصوصاً في اميركا حيث لليهود دوائر كبيرة ذات نفوذ واسع .

وقد تألفت هذه اللجنة من يهود يشغلون مراكز رفيعة في الاتحاد السوفياتي . وتولى رئاستها لوزوفسكي ، وهو عضو في اللجنة المركزية كما كان رئيساً سابقاً لاتحاد العمل الدولي . وكان ميخويلز اشهر ممثل على المسرح اليهودي، هو ايضاً، عضو في اللجنة المركزية كما كانت ايضاً من اعضائها زوجة مولوتوف الرفيقة

زمشورينا . واطن ان هذه المنظمة انشئت في البداية بناء على اقتراح مولوتوف وان تكن ربما هي في الاصل فكرة ستالين شخصياً .

وكان مكتب المعلومات السوفييتي وبلخته المضادة للفاشية يعتبران ان لا غنى لمصلحة الدولة ولا لسياستنا ولا للحزب الشيوعي عنهما (١) .

وكان اوزوفسكي معتاداً على الاتصال بي في كل مرة اجيء بها إلى موسكو . وكان بعض الاحيان يطلبني على التلفون ويسألني عن مواد ليستعين بها في الدعاية ضد الفاشستية المحتلرية ، فاعطي الاوامر لاعداد مثل هذه المواد بتوقيع مؤلفين مختلفين ، وكانت ترسل إلى امبركا وتستعمل على نطاق واسع للاشادة بانتصارات الجيش الاحمر وللكشف عن الفظائع التي ارتكبها الالمان في اوكرانيا . وبصورة عامة كانت نشاطات لوزوفسكي ذات قيمة كبيرة . وكان شخصاً جم النشاط كثير الحركة . وكان بعض الاحيان يكاد يغضبني بالحاحه إلى حد انتزاع المعلومات مني قائلاً : « اعطني مواد اخرى ! اكثر ! واكثر » وقد كنا في ذلك الحين منهمكين في اعادة بناء الاوضاع الاقتصادية . ولم يكن لدي فراغ لاهتم بمثل هذه الامور ، على انه لم يكن ليتركني بل كان يلاحقني بالحاحه قائلاً : « ينبغي ان تدرك ما لظهارنا حقيقة العدو المشترك إلى العالم من اهمية عظيمة بفضح فظائعه وفي الوقت ذاته باطلاع العالم على اعمال الاصلاح التي تقوم بها في مدتنا وقرانا » .

وبعد ان تم تحرير اوكرانيا وضع اعضاء لجنة اوزوفسكي عريضة رفعت إلى

(١) كان لوزوفسكي معروفاً كثيراً لدى المراسلين الغربيين ومحترماً منهم ، باعتباره الناطق السوفييتي الرسمي . وقد اختفى فجأة في ١٩٤٨ وترك ففده حزناً كبيراً . ولم يمض زمن طويل حتى عرف انه اعدم ربيعاً بالرصاص مع عدد من الادباء اليهود بعد ان حلت فجأة اللجنة اليهودية المضادة للفاشية وكانت أول اشارة من خروشوف إلى «قضية القرم» في مقابلة أجراها معه وفد شيوعي كندي في ١٩٥٦ . وقد اختفى أيضاً الممثل اليهودي ميخويلز شقيق أحد أطباء الكرملين الذي اتهم في ما ذلك النبأ لم يترف به . وكان ميخويلز شقيق أحد أطباء الكرملين الذي اتهم في ما بعد بنشاطه في التسميم واعداد بدوره . أما مدام مولوتوف زمشورينا فقد كانت شخصية بارزة وكانت في وقت ما رئيسة مؤسسة المساحيق وقد اضطرت مولوتوف ان يقف صاعقاً ويتألم لا اعتقالها في الوقت الذي كان يدير جبهته الحديدية إلى الغرب في أوائل أيام الحرب الباردة .

ستالين تضمنت اقتراحاً بان تصبح القرم جمهورية يهودية سوفياتية ضمن الاتحاد السوفياتي بعد ابعاد التتر القرميين . على ان ستالين رأى وراء هذا الاقتراح يد الصهيونية الاميركية تعمل عن طريق مكتب المعلومات السوفياتي وقال ان اعضاء اللجنة هم عملاء للصهيونية الاميركية وانهم يحاولون اقامة دولة يهودية في القرم لكي ينتزعوا القرم من الاتحاد السوفياتي وينشئوا نقطة انطلاق للاستعمار الاميركي على شواطئنا تكون خطراً مباشراً على الاتحاد السوفياتي . فاعتقل ستالين لوزوفسكي وميخويلز ولم تلبث زمشوزينا ان اعتقلت ايضاً واستغرق التحقيق مع هذه الزمرة وقتاً طويلاً . في النهاية واجهوا جميعاً مصيراً مفعجاً . فاعدم لوزوفسكي رمية بالرصاص ونفيت زمشوزينا ، وكنت ظننت انها اعدمت ايضاً لانه لم يعلن شيء عما حدث . و ستالين بالذات كان يقرر من ينبغي ان يعدم ومن منهم ينجو من الاعدام . واني اذكر ان مولوتوف اتصل بي ليطلب نصيحتي في صدد القضية كلها . ويبدو ان زمشوزينا حرصته على ذلك .

ولم يوافق مولوتوف ستالين على ضرورة اعتقال زمشوزينا . وعندما عرضت مسألة اقالمتها من هيئة موظفي اللجنة المركزية في اجتماع عام عقدته اللجنة المركزية وافق سائر الاعضاء على ذلك غير ان مولوتوف امتنع عن الموافقة . فلم يقل «نعم» بل ظل ممتنعاً ، فانتفض ستالين غاضباً وترك هذا الحادث اثره على موقف ستالين تجاه مولوتوف . وبدأ من ذلك الحين يعامل مولوتوف معاملة سيئة للغاية . وكانت خبائثات كاغانوفيتش بارومترأ (ميزاناً) صادقاً بصورة خاصة لمركز مولوتوف الشاذ الحرج . فقد كان كاغانوفيتش ، بتحريض من ستالين ، يمثل دور الكلب الحسيس الذي اطلق من عقاله لينهش اوصال واطراف اي عضو من اعضاء المكتب السياسي احس ببرودة ستالين نحوه . وهكذا اطلق كاغانوفيتش على مولوتوف .

ولم اعلم انا بان زمشوزينا كانت باقية على قيد الحياة الا بعد وفاة ستالين ، عندما اخبرني مولوتوف انها كانت تعيش في المنفى . وكنا جميعاً متفقين على وجوب اخلاء سبيلها ، فاطلق بيريا سراحها واعادها إلى مولوتوف . ووصف بيريا كيف جاء مولوتوف إلى مكتبه في وزارة الشؤون الداخلية ليجتمع مع زمشوزينا بعد طول الفراق ، وكان مولوتوف شديد الفرح انها لا تزال على قيد الحياة رلقى بنفسه بين ذراعيها . وهنأ بيريا مولوتوف وزمشوزينا ولكنه جعلهما يفهمان بانها تحررت بفضل مبادرة منه وكان يقول ذلك وفي صوته لهجة لا تخلو من التهكم .

ومن المسائل الجوهرية المطروحة : ما اذا كان ثمة ضرورة لاقامة اتحاد

يهودي او جمهورية ذات استقلال ذاتي داخل الاتحاد الروسي او داخل اوكرانيا ؟ انا لا ارى ذلك . ان حكماً يهودياً مستقلاً ذاتياً كان قد سبق اقامته ولا يزال اسماً موجوداً لذلك لا ضرورة لاقامة حكم كهذا ايضاً في القرم (١) . غير ان هذه المسألة لم تبحث قط جدياً . كان يفرض علينا ان نوافق على ما يرتأيه ستالين وقد استسلمنا لسلطته المطلقة . وكان يرى انه اذا انشئت جمهورية يهودية في القرم فان الصهيونية المتفشية في اميركا تحصل بذلك على موطىء قدم لها في بلادنا . وهذا كل ما كان في الأمر . ولكن ستالين كان قد عقد العزم وامر باعتقال الكثيرين بصورة تعسفية ، وبدون اية مراعاة للاصول القانونية . اني اعتبر ان القضية كلها كانت لعنة وعاراً . فقد كان باستطاعة ستالين ان يكتفي برفض اقتراحهم ويوبخهم . الا انه اراد ان يحطم اولئك الذين ابداوا الاقتراح جميعاً . وانها لمجرد معجزة فقط ان زمشوينا بقيت على قيد الحياة واقتصر نصيبها على النفي لمدة طويلة .

وكان اكثر انطباقاً على الاساليب المعتمدة ، العقاب الوحشي الذي لقيه ميخويلز رجل الادب والثقافة ، اذ انهم قتلوه كما تقتل الوحوش . قتلوه سراً . ثم كوفيء قتلته ودفنت ضحيتهم بالتكريم . ان العقل ليضطرب ويصاب بدوار لمجرد ذكر ذلك . لقد اعلن ان ميخويلز سقط امام دبابه ، والواقع انه القي عمداً بحندق ومهارة امام سيارة شحن . ومن الذي فعل ذلك ؟ انه ستالين ، او على الاقل من يأتمرون بأمره . وبعد وفاة ستالين ، عندما فتحنا محفوظات وزارة أمن الدولة واستجوبنا رجال بيريا ، اكتشفنا انهم كانوا قد خططوا لقتل لتفينوف (سلف مولوتوف في وزارة الخارجية) بالطريقة ذاتها . كان المقرر ان يقع لتفينوف في كمين ينصب له ويقتل على الطريق ، اثناء انتقاله من موسكو إلى « الداشا » التي كان مقيماً فيها (٢) .

وبعد ذلك قدم إلى المحاكمة جماعة من اليهود كانوا يحملون في مصنع ستالين للسيارات . وفي هذه القضية كان ستالين يبحث ايضاً عن المكابد التي تخطط لها الامبريالية الاميركية العاملة عن طريق الصهيونيين .

(١) هذه اشارة إلى جمهورية بيلوبونديزجان في سيبيريا التي خصصت لكي تكون وطناً قومياً لليهود السوفيات . غير انها لم تفر عن شيء يذكر . واليهود لم يقبلوا السكن فيها ما عدا القليل منهم .

(٢) م.م. لتفينوف وزير الخارجية السوفياتية وقد خلفه مولوتوف بعد فشل حملة «الامن الجماعي» في ١٩٣٩ . رواية التصميم على اغتياله جديدة ، فقد توفي في النهاية وفاة طبيعية .

وانه ليكاد يتعذر تخيل حدوث مثل هذه الامور في عصرنا هذا . اني اوافق بصورة كلية على اعتقال الناس على ان يحاكم المتهمون محاكمة عادلة ويكتفى بنفيهم او سجنهم اذا ثبت من متابعة قضيتهم بامانة واخلاص انهم ، فعلا ، مجرمون او مذنبون سياسيون . والادعاء والمحاكمة ينبغي ان يلتزما الاصول القانونية والمحاكمة ينبغي ان تكون علانية ، بحيث تنتفي اية ريبة من ذهن اي كان . ان المتهم مفروض عليه ان يكون مذنباً . وبذلك لن يتقدم احد للدفاع عن الاشخاص الذين قد انزل بهم العقاب والرأي العام سوف يؤيد الهيئات التي حكمت بالقصاص . كنا نرى في ايامنا هذه اناساً يرفعون اصواتهم ليشهدوا في المحكمة بصحة الاتهامات ويدقون صدورهم ويقسمون ان المتهمين هم من اعداء الشعب - كل ذلك ، وليس لديهم اي علم على الاطلاق بما حدث . ان الشاهد يوافق على قرار الادانة ويرفع يده مقترعاً على اعدام المتهم بدون ان يكون على بينة بواقع الجريمة المزعومة او بدور الشخص الذي يزعم تجريمه . ان هذه لم تكن محاكمات صحيحة . انها كانت محاكمات مغلقة في ايدي اشخاص معدودين ؟ ومن هم الذين يؤلفون الهيئة ؟ ثلاثة رجال هم الذين اعتقلوا المتهم وحاكموه وحكموا عليه مستقلين بانفسهم . ان اكثر الناس الذين اطيح بروؤسهم في عهد ستالين جرت محاكمتهم امام مثل هذا النوع من المحاكم .

لقد حاولت ان اعطي ستالين حقه واعترف بمزاياه ولكن لم اجد اي عذر لما كان في رأبي عيباً كبيراً في صفاته ، وهو موقفه من اليهود . وهو كزعيم وكبحانة ضليع في النظريات قد بذل عناية عظيمة كي لا تبدر منه اية اشارة ولو تلميحاً إلى عداوته للسامية في مؤلفاته المكتوبة او في خطاباته . ثم انه محظور كلياً الاستشهاد علناً من اي حديث خاص ابدى فيه ملاحظات تشتم منها رائحة قوية عن عداوة للسامية . وعندما يتفق له ان يتكلم عن اليهود كان ستالين كثيراً ما يقلد بلهجة معروفة جيداً ومبالغ فيها الطريقة التي يتكلمون بها .

واني لاذكر عندما كنت اعمل في موسكو . ان نوعاً من الخلل أو الاضطراب في مصنع الطيران الثالث عشر نقل نبأه إلى ستالين عن طريق الاقنية الحزبية او امن الدولة . وفي اثناء اجتماع مع ستالين ، بينما كنا جالسين نبادل الآراء ، تحول ستالين نحوي وقال : « ان العمال الصالحين في المصنع ينبغي ان تعطى لهم هراوات لكي يستطيعوا ان يؤدبوا بصرامة اولئك اليهود في نهاية يوم العمل » . وعندما قال ستالين ذلك لم اكن وحدي معه بل كان هنالك مولوتوف وبيريا ومالكوف (على ان كاغانوفيتش لم يكن هناك ولم يكن ستالين يسمح لنفسه بآية ملاحظة ضد السامية بحضور كاغانوفيتش) ففكرت بيني وبين نفسي :

ما هذا الذي يقوله ؟

وبينما كنا نغادر الغرفة سألني بيريا بنحث : « والآن . هل تلقيت اوامرك ؟ » فأجبت : « نعم ، كان والدي امياً ولكن لم يشترك ابداً في مجزرة منظمة ، كان ذلك يعتبر عيباً وعاراً . والآن هذا التوجيه يعطى لي بوصفي سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » .

وعلى الرغم من ان ستالين اعطاني امراً صريحاً ، فقد كنت اعلم اني اذا قمت بتنفيذه وصار ذلك معروفاً للجمهور ، فان لجنة ستعين دون ريب للتحقيق ، فيعاقب المسؤول عما جرى عقاباً صارماً . وستالين لن يتورع عن اي شيء لمعاقبة العداء للسامية علناً . اوامر اولاً اوامر . كان يقطع رأس اي شخص تسمي تصر فاته إلى اسم ستالين او إلى سمعته لاسيما في موضوع يتعذر الدفاع عنه مثل العداء للسامية . وكانت تدور احاديث كثيرة مثل حديثنا عن مصنع الطيران الثالث عشر ونحن صرنا متعودين عليها . فكنا نسمع ما يقوله ستالين لنا ثم نمحوه من ذاكرتنا ونتناساه بالكلية .

وبعد نقلي من اوكرانيا إلى موسكو دعاني ستالين مع خلفي السكرتير الاول في اوكرانيا مالنكوف وكوروتشنيكو ، (١) إلى « الداشا القرية » للعشاء والح عليهما بالشرب . فقد كان مالنكوف وكوروتشنيكو يزوران ستالين لأول مرة ، فشربا بنهم ، معتبرين انه لمن الشرف الكبير لهما ان ستالين كان يبالغ في اكرامهما . اما انا فكنت ادري منهما بستالين وكنت اعلم برغبته في ان يسكر الناس . فلم يكن ذلك التكريم هو الشيء الرئيسي الذي يحول في خاطره . كان يطيب له ان يوصل ضيوفه إلى حالة تحل فيها عقدة الستهم ليبدأوا الثرثرة باشياء كانوا يفكرون مرتين قبل النطق بمثلا عندما يكونون في حالة الرصانة ، مالكين لقواهم العقلية .

وجلسنا انا مضطرب الاعصاب . وكان علي ان اكون مسؤولاً عن مالنكوف اذ انني انا الذي دعوته للحضور إلى موسكو . ولم يكن هناك شيء كثير لاقوله عن كوروتشنيكو فقد عرفت بانه رجل صادق ولكنه محدود جداً . وفي ذلك الوقت بدا كأن ستالين غير قادر على اخفاء عداوته للسامية وأخذ في ذكر ملاحظات ضد

(١) كان كوروتشنيكو صاحب شخصية قوية وقد وقف إلى جانب خروشوف كيد اليمني في اوكرانيا . وصار رئيس الوزارة الاوكرانية في ١٩٤٧ ثم رئيس جمهورية اوكرانيا في ١٩٥٤ . وكان لمدة من الزمن عضواً مرشحاً لرئاسة اللجنة أما مالنكوف فقد خلف خروشوف سكرتيراً أول لاوركرانيا .

الساميين . وكان مالنكوف مستعداً لخل هذا الحديث فجلس هو وكوروتشنكو منصتين دون ان يقولوا كلمة . وانتهى العشاء وغادرنا المكان وقفل مالنكوف وكوروتشنكو عائدين إلى اوكرانيا .

وبعد ثقلي إلى موسكو اتخذ المكتب السياسي للجنة المركزية قراراً بأمري به ان اراقب بعين ساهرة نشاطات الحزب الشيوعي الاوكراني . وكنت بهذه الصفة اتلقى الصحف الاوكرانية كلها . وكنت اتولى مراجعة الصحف الاساسية بينما يهتم المساعدون لي بالآخرى وينقلون إلي اي شيء يستحق التفاني . وبعد ذلك العشاء في « داشا » ستالين جاءني مساعدني شويسكي بصحيفة اوكرانية واطلعتني على مقال ينتقد بعض العيوب والنواقص ، وقد انقرد المقال بذكر ستة اسماء وجه إلى اصحابها الانتقاد وقد كانوا جميعاً يهوداً . فادركت حالاً إلى اين تنجح الرياح . ان مالنكوف وكوروتشنكو ، وهما اوكرانيان بكل معنى الكلمة ، قد استوعبا في ذهنيهما ان ستالين كان يوجه حملة انتقاد ضد الشعب اليهودي . وظناً منهما انهما يعملان باشارة ستالين ، بدأ العمل على مسؤوليتهما .

فطلبت مالنكوف تلفونياً وقلت له : « قرأت مقالك وينبغي ان نخجل من نفسك . كيف تجرؤ ان تقول مثل هذا الكلام في الصحف ؟ الا ترى ان هذا دعوة صريحة ضد السامية . لماذا فعلت ذلك ؟ اني اعلم ما الذي يحول في ذهنك . غير انك اسأت فهم ما اراده ستالين . فلو قرأ ستالين هذا المقال ، فلا اعلم ماذا قد يحدث لك بوصفك سكرتير اللجنة المركزية في اوكرانيا . كيف استطعت ان لا ترى ان في هذا ذخيرة تقدمها لاعدائنا لكي يستعملوها ضدنا ؟ فهم سوف يستغلون هذا الشيء المريب ويقولون ان اوكرانيا ترفع راية الكفاح ضد اليهود ، راية العداء للسامية (١) » .

فشرع مالنكوف في تبرير ذاته ثم بدأ يشهق باكياً . على اني لم اتوقف عن تقريره بل قلت : « اذا استمر هذا العمل الفاضح فاني سوف اتولى شخصياً ابلاغ ستالين عنك » . كنت بالطبع اقوم بمجازفة لانه لم يكن لدي ما يضمن ان محادثتنا التلفونية لم تكن مراقبة ، ولم اكن ايضاً متأكداً ان مالنكوف لن يكتب هو شخصياً إلى ستالين ويقول له ان خروشوف كان يعطي توجيهات مناقضة للتي تلقاها منه عندما كان في منزله . ان ستالين لم يكن ليقبل صدور مثل ذلك مني .

(١) في الاشارة إلى نشاط مالنكوف لا يتحدث خروشوف عن ترحيل اليهود من اوكرانيا حالاً بعد الحرب .

وبعد ذلك بوقت قصير تلقت نينا بتروفنا (زوجة خروشوف) رسالة من البروفسور فرومينا تروي فيها قصة اخرى تشير إلى مالتكوف والعداء للسامية . فقد كان في كييف مستوصف اللاطفال المصابين بسل العظام وكانت رئيسة ذلك المستوصف البروفسور فرومينا . وعندما كنا في كييف ، قبل نقلي إلى موسكو ، كانت البروفسور فرومينا تتردد كثيراً على شقتنا . وكانت تعالج نجلي سيريوغها (نوع من التحبب في تسمية سيرجي) عندما كان مصاباً بالسل ، فتوصلت إلى شفائه . والآن ليس لدى سيرجي اية علامة تدل على ذلك المرض ، اذ شفي تماماً ونحن نسب ذلك بالاكتر إلى فرومينا . وكان اختصاصي آخر في سل العظام وهو خريج اكاديمية لينغراد قد قال لنينا بتروفنا ان ليس من اختصاصي في معالجة هذا المرض افضل من فرومينا . ثم بعد انتقالنا إلى موسكو كتبت فرومينا رسالة إلى نينا بتروفنا تخبرها بأنها طردت من وظيفتها في المستوصف بحجة انها تفتقر إلى المؤهلات الضرورية . ففضبت لذلك وتلفتت إلى مالتكوف مرة اخرى وقلت له : « كيف تسمح بهذا ؟ كيف امكن ذلك - ان يطرد من وظيفة شخص يمثل هذه الجدارة ولمثل هذا السبب ؟ كيف تقول انها غير حائزة على المؤهلات المطلوبة في حين ان احد خريجي اكاديمية لينغراد يقول ان ليس هنالك من هو اكثر معرفة منها في سل العظام ؟ فمن الذي خالف هذا الرأي ؟ » فأخذ مالتكوف يحاول تبرئة نفسه . فقلت : « انك بكل بساطة تسيء إلى اسم الشيوعية وتجلب عليه العار ! » وكان ان فرومينا اعيدت ، على ما اذكر إلى مركزها ، غير ان الهجوم ضد السامية لم ينقطع .

لماذا تظل هذه الظاهرة تبرز بين حين وحين ؟ ان بعض ذلك يعود إلى ان العداء للسامية كان مستأصل الجذور عندنا منذ القديم ، ومن الصعب التخلص منه . والاجيال القديمة تذكر مذابح لا يحصى عددها وتذكر فلاديمير بوريشكفتش الذي كان ابرز ممثلي « المنة اسود » في الدوما (البرلمان القيصري) (١) .

في عهد طفولتي في « دونباس » شهدت مرة مذبحة بأم عيني . فقد كنت أذهب إلى مدرسة تقع على بعد اربعة فراسخ (ميلان وثلاث الميل) عن المنجم الذي كان يعمل فيه والذي . وفي احد الايام وانا في طريق عودتي إلى البيت من

(١) ان ما اطلق عليه اسم « المنة اسود » كان منظمة رجعية متطرفة تعمل من صندوق الشرطة السرية القيصرية التي كانت مهمتها ارباب مؤيدي الحركات الاخلاقية والثورية وكذلك اليهود . وكان أكثر تلك الهيئات توفيقاً وشرأ والمسؤول عن أسوأ المذابح « اتحاد الشعب الروسي » .

المدرسة ، وكان ذلك من ايام الحريف الجميلة المشرقة تتطاير شباك العنكبوت حولنا فيه مثل رقاع الثلج . وكنا في ذلك اليوم نسير حفاة القدمين كما كان شأننا في مطلع الربيع إلى اواخر الحريف . وكان كل قروي يحلم بان يكون لديه زوج من الاحذية . وكنا نسمح انوفنا باطراف اكمامنا ونربط سراويلنا بنحيط . وكان اليوم جميلاً ، وكنا في حالة نفسية لا نحمل همأ ولا نخشى شراً .

والتيقت مع زملائي في المدرسة برجل يسوق عربة فلما وقع نظره علينا توقف وبدأ يبكي وقال « اواه ايها الاولاد - لو انكم تشاهدون ماذا يفعلون الآن في « يوزوفكا » . فأسرعنا الخطى وحالما بلغت المنزل القيت كيس كسبي على الارض ، وهرعت راكضاً إلى « يوزوفكا » . وعندما بلغت البلدة رأيت جمهوراً كبيراً قد اصطف على قمة اكداس من الحديد الخام المودع إلى جانب خط السكة الحديدية . ورأيت ان القوزاق كانوا قد وصلوا ثم بدأ النفخ في البوق ولم أكن قد رأيت جنوداً من قبل . اذ لم يكن في يوزوفكا ذاتها جنود . لذلك كان كل ما وقع عليه بصري جديداً ومثيراً لاهتمامي . وعندما بدأ النفخ في البوق قال الجنود القداماء الذين بين العمال ان تلك كانت اشارة الدعوة للتأهب لاطلاق النار وان في اية لحظة سوف نسمع دوي الطلقات الاولى . فاندفع الجمهور المحتشد إلى الجانب الجنوبي من المنحدر ، غير ان الجنود لم يسمحوا للعمال بالدخول إلى المدينة . ودوى صوت الطلقة الأولى من البنادق فصاح احد الموجودين حولنا قائلاً انهم يطلقون النار في الفضاء ، وقال آخر انهم يطلقون الخرطوش فارغاً من الرصاص ، وان واحداً او اثنين فقط يطلقون قذائف حية بقصد القاء القليل من الذعر في نفوس اليهود .

واخذ كل واحد يبتكر وصفاً لما كان يحدث حولنا . وتفرق الجمهور في ساعة متأخرة من المساء . واخذ العمال في منجمنا يتحدثون في اليوم التالي في ما بينهم عن عدد الاحذية التي عثر عليها والتفتطها كل منهم اثناء جمع الغنائم . فقال احدهم انه خرج باثني عشر زوج من الاحذية . وكان بعض عمال المنجم يروون كيف كان « الايديش » يسرون موجهين إلى الروس اقبح التعوت والاسماء وهم حاملون الاعلام وقد القوا « قيصرهم الايديش » على اكتافهم . وعندما هاجمهم الروس بالهراوات اختبأوا في مصنع الجلود فاضرم الروس النار في ذلك المصنع فاحترق « قيصر الايديش » وهو حي في داخله .

وفي اليوم التالي لوقوع المجزرة اتجهت راكضاً مباشرة من المدرسة إلى « يوزوفكا » لارى ماذا كان يجري هناك . فوجدت ان النهب كان لا يزال مستمراً ، ورأيت دكاكين اصلاح الساعات وقد حطمت ابوابها والرياش تتطاير

في الهواء على الشوارع حيث كان الناهبون يمزقون الوسادات وينفضون الرياش التي كانت في داخلها من نوافذ البيوت اليهودية .

ثم سرت اشاعة انه صدر مرسوم ينص على السماح للناس ، طيلة ثلاثة ايام ، بان يفعلوا ما يشاؤون باليهود . فظل النهب مستمراً ثلاثة ايام دون توقف . وبعد انقضاء الايام الثلاثة شرع رجال الشرطة ومعهم افراد منظمة « المئة اسود » الذين كانوا قد استغلوا عقلية العمال الفطرية للتحريض على المذبحة في بادىء الأمر ، في اعادة النظام . ولكن لم يتخذ اي اجراء في صدد اعمال النهب والتخريب . فالسلطات التي كانت قد قررت القيام بالمذبحة حافظت على وعدھا باطلاق يد « المئة اسود » ثلاثة ايام كاملة يتصرفون في اثنائها كما يحلو لهم . وهكذا ذهبت اعمال النهب والقتل جميعها بذرن عقاب . وسمعت ان الكثيرين من اليهود الذين ضربوا كانوا في مستوصف المصنع ، فقررت ان اقصد ذلك المكان مع احد اصدقائي وهو صبي صغير لتلقي نظرة على ما يجري . فوجدنا جثث اليهود الذين ضربوا حتى الموت موضوعة في صفوف على الارض .

وفي اواخر الخريف اصطحني عمي مارتن شقيق والذي معه من المناجم إلى القرية . وقد ارسلني والذي ووالدتي معه لأنهما ارادا لي ان اكون قريباً من الارض الزراعية . فقد كان والذي قبل العمل في المناجم مزارعاً . وكنا فقراء حينئذ ونحن لا نزال فقراء الآن . وكانت والدتي تكتسب بعض النقود من غسل الملابس . وكنت انا اجني « دراهم » قليلة من العمل في تنظيف المراحل بعد المدرسة وفي ايام الاحد . وكان والذي ووالدتي ، ولكن بنوع خاص والذي ، يحملان باليوم الذي يستطيعان فيه الرجوع إلى القرية ، إلى منزل صغير وجواد وقطعة ارض تكون ملكنا الخاص . وقد ذهبت إلى القرية عندما بدأت الاضرابات في « دونباس » . وكانت الاعلام الحمراء خافقة والاجتماعات الكبيرة تنعقد باستمرار . وعندما عدت إلى المدينة من القرية اخبروني بما حدث . اخبروني عن الذين نظموا الاضرابات وتولوا قيادتها . فلاحظت ان معظمهم كانوا يحملون اسماء يهودية . وكان الناس يمتدحون اولئك الخطباء . وكان العمال جميعاً يتحدثون عنهم بحماسة ومودة .

وبعد مرور سنين على ذلك ، وبعد ان تسلم ستالين مقاليد السلطة ، بدلا من ان يضع حداً لعداوة السامية عمل على نشرها . فالعداء للسامية نما ، كما تنمو الغرسة ، داخل عقل ستالين . ثم بعد وفاة ستالين اوقفنا انتشارها قليلا . ويبدو انه حتى الان ليس هناك ما يحذ من هذه التزعة ويكافحها كما يجب . ان رجال

الحرس المرافقين لي ليسوا اشراراً ، ولكن العداء للسامية يبرز ، حتى على غير قصد منا ، في احاديثي معهم .

مؤلفات ستالين النظرية

هنا يتحدث خروشوف عن وجه آخر من ستالين كان خافياً على بطائنه والمقربين اليه . فقد كان ستالين يريد ان يترك أثره على النظرية الشيوعية (كان ، برغم كل شيء ، عالي الثقافة ، وتدريب ليكون استاذاً جامعياً) وشعر بالحاجة إلى إيجاد مبررات نظرية لبعض تصرفاته . ان نشاط ستالين في حقل العلوم اللغوية ، وهي اليونانية بالنسبة لخروشوف ، مهم لفهم عقلية ستالين التي كادت أن تكون غير ملحوظة في الغرب . ان العالم الجيورجي المشار اليه يجب أن يكون تليداً للاستاذ اللغوي ن.و. مار . وفي صيف ١٩٥٠ برز ستالين ، الذي كان لم ينطق علناً بكلمة طيلة سنين (باستثناء أجوبة عرضية على أسئلة الصحفيين المقربين) فجأة على صفحات جريدة برافدا بمقال طويل عويص عن خطأ نظريات مار (الذي لم يسمع به أحد من قراء برافدا) ثم تابع ذلك « بردود على مار » توسع فيها في شرح آرائه الخاصة . وذهل قراء برافدا ووقعوا في حيرة . غير ان الامر الجوهري كان هذا : ان مار بموافقة رسمية كان قد جادل بأسلوب ماركسي ان اللغة هي مظهر بنية المجتمع الفوقية وهي تتبدل مع تبدل المجتمع ، أي في الوقت المناسب مع تقدم الشيوعية عالمياً سوف تذوي الفوارق اللغوية ويصير هنالك لغة عالمية . وعلى ذلك فقد قرر ستالين انه قد حان الوقت لوضع حد للعالمية المشوشة التي من هذا النوع ، وان لغة المستقبل سوف تكون اللغة الروسية ، لذلك كان من الضروري ان يبرهن بأسلوب ماركسي ان اللغة هي مظهر لأساس المجتمع الذي لا يتبدل وليس لبنية الفوقية . وبدلاً من الخروج من هذا التعمق في الأبحاث بدون جدوى فان ستالين ، على ما يقول خروشوف ، نال ارتياحاً بالفاً من الترسس النظري على هذا المستوى العالي .

أما المثل الثاني على تطبيق ستالين لنظرياته الذي يشير اليه خروشوف هنا فقد عرضه ستالين على العالم عشيّة المؤتمر الحزبي التاسع عشر في شكل رسالة عنوانها « اقتصاديات الاشتراكية » . وقد أعطيت هذه الرسالة إلى خطاب المؤتمر وإلى الوفود أيضاً قبل نشرها نهائياً . ويبدو أنه لم يهتم أحد منهم كثيراً بها ، اذ انها كانت طويلة وجدلية عملة غير انها تضمنت اتجاهات معينة من التفكير عظيم الأهمية للمستقبل ، ذلك انه حتى شهر تشرين الأول ١٩٥٢ كان ستالين بالنسبة لجميع الظواهر موافقاً على اطروحة لينين بأن الطريق إلى الثورة العالمية يجب ان يمر بالحروب . وقد ظل متمسكاً بهذه العقيدة زمناً طويلاً بعد ان دل على فسادها ظهور القنبلة الذرية . غير ان ستالين في

مؤلفه «اقتصاديات الاشتراكية» أعلن أخيراً ان الامور تبدلت وان الاتحاد السوفياتي صار الان في وضع من القوة يستطيع به مع موافاة الحظ وحسن التقدير والتصرف ان يتجنب الحروب التي قد تقع في المستقبل ، تاركاً الدول الرأسمالية تحطم واحدها الاخرى في نضال من أجل الاسواق العالمية الآخذة في التضاؤل والانهار .

عندما حان وقت انعقاد المؤتمر الحزبي التاسع عشر (١٩٥٢) كان ستالين قد اتخذ دور المفكر العظيم ، اذ وضع عدداً من المؤلفات النظرية . وهكذا تورط في ابحاث جدلية حول العلوم اللغوية . وكانت تلك مناقشة غريبة جداً لا فائدة منها له على الاطلاق من اية ناحية كانت . ودعا ستالين عالماً جيورجياً كان صديقاً له إلى تناول العشاء معه ، ولسبب ما بدأ يتكلم عن علم اللغات مع ذلك الرجل . وبعد ذلك كتب ستالين مقالاته التي هاجم فيها صديقه الجيورجي ذاته . وهكذا بدأت مؤلفات ستالين النظرية في الظهور اثناء المرحلة الاخيرة من حياته .

وروجه اهتمامه إلى المشاكل الاقتصادية فنظم جلسة مناقشة علنية ونشر نظرياته الخاصة . وعندما شرع ستالين في طبع حلقات من تعليقاته عن المشاكل الاقتصادية التي تواجهها الاشتراكية ، وذلك قبل وفاته بقليل ، حمل كل انسان على قراءتها ودرسها . وكان المفروض ان الحزب بكامله ينكب على التعمق في دراسة مؤلفاته . رذهب ستالين إلى حد الاقتراح بان ينصرف الخطباء الذين سيتكلمون في مؤتمر الحزب التاسع عشر إلى بحث المسائل النظرية التي كان قد اثارها . وقد تحدث مالنكوف مطولاً حول نظريات ستالين في التقرير العام الذي قدمه إلى المؤتمر . وحذا الخطباء الآخرون حذوه باستثنائي انا . لم افعل ذلك لانني كنت صاحب جرأة او ذكاء او لاني غير معجب بكتابات ستالين او منتقداً لها ، كلا . بل لانني لم اكن في المؤتمر التاسع عشر من الخطباء الاساسيين . وكان المفروض ان القبي بياناً عن انظمة الحزب وقوانينه الاساسية . ولم يكن في تلك الانظمة شيء يتطلب مني ان اشير إلى مؤلفات ستالين عن علم اللغة والقضايا الاقتصادية ؛ وعدا ذلك فان مالنكوف كان قد اعطاها من الاهتمام الكافي في تقريره العام .

وفي احد ابام الصيف الجميلة كنا مجتمعين في « داشا » ستالين وجلسنا إلى تناول الطعام على النحو الطويل الممل الذي عرفت به جلسات الطعام عند ستالين ، واذا بنا نرى فوروشيلوف ينطلق فجأة بالشائم ويقول : « كوبا - وهو كثيراً ما كان ينادي ستالين بكنية التحجب التي اطلقت عليه - انك لم تقرأ هذه

الورقة التي ارسلها هذا العالم فلان ... انظر اية قطعة من الحثالة ، واي رقيب نذل هو هذا الرجل ! فقد كتب كذا ، وكذا ... انك لا تذكر ذلك ؟ . انك لم تقرأ هذا ؟ »

فقال ستالين : « كلام لم اقرأها . »

فحول فوروشيلوف بصره نحو الباقيين منا ، فقلنا جميعاً اننا لم نقرأ ما كان يتحدث عنه . وقال مالنكوف انه علم ان احد الاخصائيين في الشؤون الاقتصادية وضع كتاباً وطلب ان تنظم اكااديمية العلوم ندوة لمناقشة آرائه . واني أذكر اسم ذلك العالم واكنه كان على ما يبدو اوكرانياً . وقد اغرق اللجنة المركزية بسيل من الرسائل طالباً منا ان نتدخل لتؤكد من ان مؤلفاته تلقى الاهتمام الذي يرى انها تستحقه . وتوسع مالنكوف في اعطاء بعض التفاصيل فقال ان ذلك العالم ارسل ايضاً نسخاً من كتابه إلى اعضاء اللجنة المركزية . وهنا عاد فوروشيلوف إلى اطلاق شتائمه قائلاً : « هذا المحتال يجب ان يعتقل . »

وايد ستالين فوروشيلوف قائلاً : « يا له من خنزير ! اقبضوا عليه . »

وبعد ذلك بوقت قصير صب علينا ستالين جام غضبه لاهمالنا التدقيق والحذر في اختيار هيئة موظفي مكتبنا . وشكا من ان وثائق سرية كانت تتسرب إلى الخارج بواسطة السكرتيرية وقال انه سوف يجري التحقيق لمعرفة المذنب . فنظرنا كلنا اليه بدهشة متسائلين عما يرمي اليه . وفجأة تقدم مني وقال : « انت المسؤول . ان المعلومات تتسرب عن طريق موظفي مكتبك . »

فاجبت قائلاً : « ايها الرفيق ستالين . هذا غير صحيح . فان مساعدي امناه ولي عظيم الثقة بهم . انهم من اعضاء الحزب الاوفياء ومن المستحيل ان يفضي احدهم بمعلومات سرية . »

فقال ستالين : « هذا لا شأن لنا به . ان المعلومات قد تسربت إلى الخارج عن طريق موظف في مكتبك . » ثم اخذ ستالين يخبرنا ان بعض ما تحدث عنه في مؤلفه عن الشؤون الاقتصادية يطابق حرفياً ما اورده العالم الذي تحدث عنه فوروشيلوف وكال له الشتائم . ثم سأل قائلاً : « كيف حصل هذا الرجل على مؤلفي ؟ كيف اكتشف الذي كتبه انا ؟ لا يمكن ان يكون قد سمع حديثنا عنه . وهذا يعني انه تلقى المواد التي امليتها ووزعتها عليكم . وها هو ينشر هذه الآراء كأنها من وضعه . »

وبينما كان ستالين يتكلم كان يزداد غضباً اكثر فاكثر . ثم فهمت ما حدث ، او على الاقل لماذا كان يلقي اللوم علي ، ذلك ان العالم المذكور كان يحمل اسماً اوكرانياً ، وكان ستالين يعلم ان هنالك عدداً من الاوكرانيين في مكتبي ،

وبنوع خاص مساعدي شوبزكي ، وهو رجل امين لا يرقى اليه اي شك .
وهكذا تعرض شوبزكي مع الاوكرانيين الآخرين من موظفي مكبتي للشبهة .
وادركت انه كان يحاول ان يتترع اعترافاً مني . فهو كثيراً ما كان يفعل ذلك .
انه يحدق بالشخص ثم يوجه اليه التهمة ويراقب اذا كانت عيناه ترفان .
وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتب لجنة موسكو واستدعيت شوبزكي وسألته :
هل تعرف هذا العالم فلاناً الفلاني ؟

— كلا ، لا اعرفه .

— اولم تسمع به على الاطلاق ؟

— نعم . سمعت به .

— هل هو من معارفك ؟

— كلام التق به ابداً .

— حسن . جثني بملفه .

فجلب لي شوبزكي ملف العالم فدرسته ملياً وتعرفت إلى محتوياته ولاحظت
انه وان كان يحمل اسماً اوكرانياً فهو في الواقع من سيبيريا . وكان هذا العالم
عضواً في الحزب منذ ١٩١٨ او ١٩١٩ واشترك في قسم خطير من النضال في سبيل
الاشتراكية بوصفه احد الانصار الذين قاتلوا اثناء الحرب الاهلية ضد القوزاق
البيض في سيبيريا .

وفي اليوم التالي قلت لستالين : « ايها الرفيق ستالين ، سألتني عن هذا العالم وقد
استخرجت ملفه . فهل تعلم .. انه ليس من اوكرانيا ، اي انه لم يولد فيها ،
غادرها جده إلى سيبيريا . »

وكنيت بذلك احاول ان اثبت ان موظفي مكبتي لا علاقة لهم بتسرب
المعلومات .

فنظر ستالين إلى نظرة شرسة ، وصاح بي « يا لجهنم ! » وتلك كانت
طريقته في الاعتذار لاتهمه اياي . ثم لان صوته وقال : « اذن هو من سيبيريا ،
ليس كذلك ؟ »

— نعم انه سيبيري . واين لا تجد اشخاصاً باسماء اوكرانية ؟ انهم منتشرون
في جميع انحاء الارض . هناك الكثيرون منهم في الشرق الاقصى ، وفي كندا ،
وفي بلدان اخرى في ما وراء حدود بلادنا .

وهكذا نجحت في ازاحة الضربة عني . غير ان ستالين لم يترك القضية عند هذا
الحد . اذ ظل متألماً لان اقتراحاته اتفقت كلمة كلمة مع اقتراحات ذلك العالم ،
نصف الناضج كما سماه ستالين . وكان لا يسمح لاحد بأن يبدي الآراء ذاتها التي

ابداها ، كأنما اراد ان ينظر إلى نفسه انه هو وحده النابغة العبقري . فكل شيء جديد ينبغي ان يكون هو قائله .

ولو ان ستالين كان ايجابياً ، وغير اناني إلى هذا الحد ، وقادراً على عرض نظرياته الخاصة بروح النقد الذاتي ، لكان تحقق من ان هذا النظري الحزبي نصف الناضج وضع كتابه من زمن طويل ، اي قبل ان يضع ستالين كتابه . كان ذلك العالم السييري ، في الواقع هو الذي يجب ان يقول لستالين : « انت سرقت افكاري ، لان اوراقي تسربت اليك » . فكثيراً ما يحدث ان رجلاً غير معروف نسبياً يوفق إلى اكتشاف خطير . والرجل العظيم انما يكون مغموراً وبسيطاً قبل ان يتخذ الخطوة التي تجعله عظيماً . غير ان ستالين لم يكن يسمح بهذه الامكانية ما دام هو حياً . وما دام هو الزعيم العظيم ، فينبغي دائماً ان تكون له الكلمة الأولى والاخيرة في تقرير القضايا النظرية .

وكان ان اضهد ذلك العالم السييري ، ثم طرد من الحزب . وهاجمته الصحافة وعمدت إلى تحقيره واخيراً اعتقل ووضع في السجن . فكيف يحدث ذلك ؟ كل ما فعله الرجل انه كتب دراسة ربما كانت سيئة ، وربما كانت هدامة ولكنه ارسلها مباشرة إلى اللجنة المركزية . انها كانت تحمل وجهة نظره الخاصة ، وهو عضو قديم العهد في الحزب ومحارب قديم في الحرب الاهلية . والآن يلصق الناس به التهمة بانه مجرم . لماذا ؟ هم انفسهم لا يعرفون . كل ما يعرفونه انه كتب بحثاً عن الشؤون الاقتصادية لم يرض عنه ستالين .

وبعد وفاة ستالين اطلقنا سراح هذا الرجل . فتقدم بشكوى إلى لجنة موسكو عن الطريقة التي عمل بها ، وصب جام نقمته على شخصياً . وبالطبع لم يكن يعلم شيئاً عن دوري في القضية . لقد انتقدني لانني لم اهتم به ولم اقدر عمله حق قدره . ربما كان عمله جديراً بالتقدير . وعلى كل حال لم تؤد شكواه إلى اية نتيجة . ذلك لان الذين اتبعوا هدى ستالين وامتدحوا كتاباته وهاجموا ذلك العالم السييري ، لم تكن لهم مصلحة في تبديل رأيهم . الآن وقد مات ستالين فمن المحتمل ان هذا الرجل لم يلق التقدير الذي يستحقه . غير انه ليس من شأني ان احكم في ذلك . فالشؤون الاقتصادية هي موضوع بالغ الاختصاص . فليرجع الاقتصاديون الخبراء إلى رسالته ليقوموا ويحللوا ويضعوها في مكانها اللائق .

ان حادثة تسرب كتابات ستالين الاقتصادية لم تنته باعتقال العالم السييري . فبعد ان اقنعت ستالين بان التسرب لم يقع عن طريق مكنتي توصل إلى الاستنتاج بان التسرب ينبغي ان يكون قد جرى عن طريق بوسكرشيف . وهذا الاقتناع

كان مثيراً للاشمئزاز وذلك لان بوسكريشيف عمل لسنتين مدة سنين عديدة وكان « كلب ستالين الامين » . فكيف لأحد ان يصدق ان بوسكريشيف هو الذي افضى باسرار رسمية ؟ وهو لا يمكن ان تكون له اتصالات مع اي كان ، لان الجميع كانوا يعلمون حق العلم من هو بوسكريشيف فكانوا يخافونه ويتجنبونه. وهو لم يكن رجلاً ابلاً ، بل كان قد جمع في شخصه قدراً كبيراً من القوة حتى بدأ يظهر شيئاً من الكبرياء ، فيتصرف بترفع وشموخ وبازدراء نحو اي عضو من « البرزديوم » (هيئة الرئاسة) يكون قد خسر رضى ستالين . فكان يزأر بضراوة في وجه مولوتوف وميكويان مثلاً ، عندما فقد رضى ستالين . وكان يستطيع ان يكون مؤثماً بشكل لا يحتمل . وكان دائماً مع ستالين ويعلم قبل الآخرين منا من هو الذي وقع تحت ظل شبهات ستالين ونقمته . لذلك كان كل من يتحول بوسكريشيف ضده يحتمل ان يكون الضحية التالية .

والآن ها هو بوسكريشيف يسقط فجأة تحت شبهات ستالين. ومن الطبيعي ان بوسكريشيف كان يستطيع الوصول إلى سائر الوثائق التي يدور حولها الحديث فهو الذي كتبها عندما املاها ستالين عليه . فقد كان ستالين يذرع الغرفة جثة وذهاباً اثناء املائها . لم يكن يستطيع الجلوس اثناء انصرافه إلى التفكير ، فكان يملئ وهو يتمشى . ولم يكن ابدا يستعين بالمختبرين بل كان يملئ دائماً على بوسكريشيف ثم يعيد بوسكريشيف عليه ما املاه ، فاذا ظهر ان هذا الاخير كتب شيئاً بصورة غير صحيحة او اذا طرأ على ستالين تعبير اكثر دقة ، فان بوسكريشيف يعتمد إلى تصحيح النص . واني اريد ان اعطي ستالين ما يستحقه هنا ، فانه حتى ساعة موته كان يستطيع ان يعبر عما يريده بكل وضوح ودقة . وكانت جملة وتعايره قصيرة مفهومة ومعبرة . لقد كان ذلك من اعظم مواهب ستالين . وكان ستالين من هذه الناحية ذا مقدرة عظيمة لا يمكن انكارها ولا الانتقاص منها . فكل من عرف ستالين كان معجباً بموهبته هذه ومن جرائها كان يعتز بالعمل معه .

أقال ستالين بوسكريشيف من منصبه وعين شخصاً آخر مكانه وهكذا وضع بوسكريشيف في الخلد. واني لموقن انه لو بقي ستالين حياً مدة اطول ، لكان بوسكريشيف اعتقل واعدم ، دون ريب ، بتهمة الخيانة . وكانت آخر كلمات قالها ستالين في الموضوع : « اسكت بوسكريشيف وهو ينقل بعض مواد سرية . لا احد سواه كان يستطيع ان يفعل ذلك . ان تسرب الوثائق السرية حدث عن طريقه . انه هو الذي خان السرية » . واية سرية ! ذلك ان كل ما قال ستالين انه « تسرب » إلى الخارج كان في الواقع سبق ونشر !

المؤتمر الحزبي التاسع عشر

كان ستالين عندما وُثِن المؤتمر الحزبي التاسع عشر في تشرين الأول ١٩٥٢ قد صار رجلاً عجوزاً مريضاً ، لم يبقَ بينه وبين الموت سوى أقل من خمسة شهور. ويروي خروشوف هنا ، وفي أجزاء أخرى بعض الشيء عن حالة ستالين النفسية في تلك الأيام . ويقول خروشوف أيضاً ، كما قال في خطابه السري ، ان ستالين كان على وشك الشروع في حملة تطهير جديدة كانت ستناول البعض من أقرب زملائه اليه من كبار أعضاء المكتب السياسي القديم . غير ان خروشوف يتجاهل ، فعلاً ، المغزى الحقيقي لعدد من تصرفات ستالين كما انه لا يعطي أي دليل على الاطلاق عن الصراع من اجل السلطة والنفوذ الذي دار بينه وبين مالنكوف (المتحالف مع بيريا) والذي كان يزداد حدة كل يوم. وقد سيطر ستالين بالطبع على المؤتمر وان يكن لم يتكلم سوى مدة سبع دقائق . وكان الشخصان الرئيسيان هما مالنكوف الذي القى تقرير اللجنة المركزية العامة ، وخروشوف الذي القى خطاباً له أهمية مماثلة عن اصلاح انظمة الحزب . وكان هذان المتنافسان قد ارتقعا فوق رؤوس الذين هم اقدم منهم ، ويبدو ان ستالين كان في هذا الزمن يضع هذين الرجلين في الطليعة كخليفين متضامنين له - ولكنه كان ، في الوقت ذاته ، يلعب الواحد منهما ضد الآخر. وما أغفل خروشوف ذكره هو ان كلا منهما قد هاجم الآخر بمنف في خطابه - فمالنكوف هاجم خروشوف دون ان يذكر اسمه وذلك بانتقاد اصلاحاته الزراعية الناقصة والفاشلة ، كما ان خروشوف هاجم بدوره مالنكوف للفساد والرشوة وضعف المعنويات وفساد الأخلاق في داخل الحزب .

في ١٩٥٢ استدعانا ستالين واقترح علينا ان ندعو إلى عقد مؤتمر حزبي . ولم يكن في حاجة لاقناعنا بذلك ، لاننا كنا جميعاً نرى ان من غير المعقول ان تمضي ثلاث عشرة سنة دون ان يعقد مؤتمر حزبي . وفضلاً عن هذا كانت اللجنة المركزية قد انقطعت اجتماعاتها بعض الوقت (١) . وبالاختصار كان قد انتهى دور الحزب بكامله وبنوع خاص اللجنة المركزية

(١) كان نظام الحزب يقضي بعقد مؤتمر حزبي كل ثلاث سنين . وكان من مهام المؤتمر ان ينتخب لجنة مركزية جديدة يختار منها أعضاء المكتب السياسي والسكرتيرين وغيرهم من كبار رجال الحزب . على ان ستالين كان يحكم دون مؤتمر منذ ١٩٣٩ ولا يعير التفاتاً إلى اللجنة المركزية مجرياً تعييناته الخاصة للمكتب السياسي الخ . (انظر ملحق رقم ٢) .

من القيادة الجماعية . وكان ستالين يعمل وحده متخطياً اللجنة المركزية ، ومتخذاً من المكتب السياسي ختم مطاط يصدق به قراراته . ولم يكن ستالين يزعج نفسه الا نادراً لان يطلب رأي اعضاء المكتب السياسي حول قضية معينة ، بل كان يتخذ القرار ثم يصدره بمرسوم .

ومهما يكن من امر فقد تقرر ان ندعو إلى مؤتمر حزبي في شهر تشرين الأول ١٩٥٢ . ومر بعض الزمن ولم يقل ستالين شيئاً عن جدول اعمال المؤتمر او من يريد هو ان يتكلم فيه . وكنا جميعاً نحاول ان نعرف اذا كان ستالين سيتولى هو شخصياً القاء التقرير العام او انه سيعهد بذلك إلى سواه . وفي هذه الحال ، فمن سيكون ذلك الشخص . وقدردنا انه اذا لم يلق التقرير هو شخصياً ، فمعنى ذلك انه يحس بالعجز عن الوقوف مدة طويلة على المنصة . طبعاً ، كان بإمكانه ان يوزع نسخاً من الخطاب على المندوبين ولا يزعج ذاته بتلاوته بصوت مرتفع . واخيراً اتخذ ستالين قراره بصدد جدول اعمال المؤتمر واعلن انه سوف يعهد بالتقرير العام إلى مالنكوف ، واستطرد يقول : « لنكلف خروشوف بوضع التقرير عن انظمة الحزب ، وسابوروف بوضع التقرير عن مشروع السنين الخمس » . وكان سابوروف هذا رئيساً للجنة التصميم (١) . وبعد ان ابلغنا ستالين قراراته هذه ، جرى تسجيلها حالاً ، ثم وضع جدول اعمال المؤتمر الحزبي التاسع عشر وجرت الموافقة عليه .

واني لا اعترف انه عندما صدر الامر لي بان اعد التقرير عن انظمة الحزب توترت اعصابي حذراً . فالتعين هو دون ريب شرف عظيم ولكن في الوقت ذاته كنت اعرف انه عمل صعب ، اذ على القيادة الجماعية ان توافق عليه . وعلمت انني عندما اعرض صيغة التقرير ينبغي ان اتوقع اعتراض الآخرين عليه وبنوع خاص بيريا الذي سوف يأخذ مالنكوف إلى جانبه . وذلك ما حصل فعلاً . اما ستالين فلم يطلع على تقريري ، بل اصدر امره إلى مالنكوف وبيريا ولي ولشخص آخر ان تراجع التقارير كلها . واصر بيريا على ان تقريري طويل جداً ويجب تلخيصه فحذفت منه كثيراً من المواد حتى ان تلاوته في النهاية لم تستغرق سوى حوالي ساعة واحدة .

(١) م.ز. سابوروف مهندس امضى أكثر حياته في لجنة التصميم وكان نائب رئيس الوزراء في ١٩٤٧ . لم يدخل اللجنة المركزية حتى ١٩٥٢ وكان تدرجه في الارتفاع حيثئذ سريعاً . وقد تعرض لخطر جدي في ١٩٥٧ بسبب تأييده «اللزمة المعادية للحزب» ضد خروشوف .

على اني لا اظن ان الجوهر تأثر كثيراً . لقد تم اختصاره بحذف الامثلة التي لم تكن سوى حواشي ادبية يقصد منها زيادة توضيح بعض البيانات . وبتعزيز تقريره بالامثلة كنت في ذلك اقلد إلى درجة معينة جدانوف الذي تولى تقديم التقرير عن انظمة الحزب في المؤتمر الثاني عشر (١٩٣٩) مستعيناً بتدوين امثلة كثيرة فيه لا اعلم مبلغ ضرورة وجودها . غير انني اعتقدت ان ذلك الاسلوب الخاص قد سبقت الموافقة عليه لذلك سرت على منواله (١) .

ورب سائل يسأل لماذا لم يعهد ستالين بالتقرير العام إلى مولوتوف او ميكويان وكل منهما كان يشغل في الحزب منصباً اعلى من المالكوف ، وهما شخصيتان حزبيتان لهما اهميتهما ؟ وكان البعض من الذين في هيئة القيادة قبل الحرب يعتبر ان مولوتوف سوف يكون زعيماً في المستقبل وانه ارجح المرشحين لان يخلف ستالين . غير ان هذا الظن زال من رؤوسنا بعد الحرب . وفي الايام التي سبقت وثلت المؤتمر الحزبي التاسع عشر كان ستالين يهاجم مولوتوف وميكويان في كل اجتماع نعده ، وكان هذان الرجلان قد فقدوا الخطوة وحياتهما كانت في خطر .

وهكذا عقد المؤتمر وتليت التقارير وبدأت المناقشة . وكانت المدد المخصصة للمناقشة قصيرة . وكان الجو المهيمن على الحزب في ذلك الوقت يكاد لا يكون مساعداً على مناقشة الاقتراحات الواردة في التقارير المقدمة من قبل القيادة . ومع اقتراب المؤتمر من نهايته بحثنا في تقرير سابوروف عن مشروع السنين الخمس . وكان اسوأ مشروع خمسي اقره المؤتمر على الاطلاق . كان هزيباً في صيغته وفي تقديمه . وقد اضطررنا في ما بعد إلى تحمل مسؤولية تحقيقه . ولما كان التقرير لا يمكن الاعتماد عليه ، فلم يكن امامنا سوى ان ندخل عليه بعض التعديلات . وكانت القاعدة المتبعة انه لا يجوز التفكير في تعديل اي وثيقة يكون قد ابرمها المؤتمر الحزبي . غير ان هذه كانت حالة استثنائية وكان من البديهي في نظرنا ان مشروع السنين الخمس هذا لن ينتهي إلى شيء . واني لاذكر ان في بحثنا عن وسيلة ديموقراطية لتعديل مشروع السنين الخمس لكي تتفق اهدافه مع شيء من الحقيقة ، اجرينا توزيع التعديلات المقترحة على المندوبين . وبالاختصار اتخذنا التدبير المعقول الوحيد الذي كان باستطاعتنا ان نتخذه .

وفي نهاية المؤتمر القى ستالين خطابه الذي لم يستغرق اكثر من ست او سبع

(١) ان بيان خروشوف عن الاسلوب الذي اتبعه في اعداد خطابه ، وهذه كانت أعلى لحظة في تاريخه حتى ذلك الوقت ، يلفت النظر .

دقائق . وانطلق الجميع في المتاف والتصفيق له ، مسبغين عليه نعوت النبوغ والعبقرية وما إلى ذلك من اطراء . وبعد ان غادر ستالين المنصة ورفعت جلسة المؤتمر ، التقينا جميعاً في قاعة الرئاسة (البرزديوم) وهناك قال ستالين : « انظروا ! انني لا ازال استطيع ذلك » . اي انه يستطيع ان يقف على المنصة مدة ست او سبع دقائق ، وهو يعتبر ذلك نصراً عظيماً . ومع ذلك يرى انه لا يزال يمتلك القوة الكافية ليستمّر في العمل !

وبعد المؤتمر افتتح ستالين شخصياً جلسة اللجنة المركزية . واقترح انشاء هيئة رئاسة (برزديوم) مؤلفة من ٢٥ عضواً واخرج بعض الاوراق من جيبه قرأ قائمة الاسماء علينا . وصودق على الاقتراح والتعينات ايضاً بدون مناقشة . وكان المعروف انه عندما يقترح ستالين شيئاً ، فلا تلقى اسئلة ولا تعليقات . فالاقترح الذي يصدر عن ستالين هو بمثابة امر من الله وليس لاحد ان يجادل في ما يأمر به الله ، بل يتوجب على الجميع ان يرفعوا فروض الشكر ويؤدوا الطاعة . وبينما كان ستالين يتلو اسماء الاعضاء خفضنا جميعاً عيوننا وانكمشنا في مقاعدنا - ٢٥ شخصاً ! سوف يكون من الصعب العمل في مثل هذه المجموعة الكبيرة ، وسيكون من المتعذر اقرار اية قضايا عملية .

وبعد انتهاء الجلسة العامة تبادلنا جميعاً النظرات . ما الذي حدث ؟ من وضع هذه القائمة ؟ ان ستالين شخصياً لا يمكن ان يعرف معظم هؤلاء الاشخاص الذين اقر الان تعيينهم هو شخصياً . وظننت في بادىء الامر ان مالنكوف كان وراء هذا البرزديوم الجديد دون ان يخبرنا بذلك . ولكنني فيما بعد سألته بأسلوب ودي فاجاب قائلاً : « اقسم لك ان لا علاقة لي على الاطلاق بهذه القائمة . ان ستالين لم يطلب مساعدتي ولا انا ابدت اية اقتراحات في صدد تأليف هيئة البرزديوم » . وهكذا زاد انكار مالنكوف في غرابة الموضوع وغموضه . ولم يكن باستطاعتي ان اتصور ان يبريا له يد في ذلك ، لان هنالك اسماء في القائمة لا يمكن لبريا ابدأ ان يوحي لستالين بها . ولكنني مع ذلك سألته قائلاً : - « لافرنئي ، هل انت اوصيت لستالين بهذا ؟ » .

« كلا . كنت في بادىء الأمر متأكداً ان مالنكوف هو الذي فعل ذلك ، غير انه انكر بقسمه » . ثم ان لا مجال للظن بمولوتوف وميكويان ، اما بولغانين فقال انه لم يكن على علم بشيء وهكذا بقينا نتساءل حول هذا الموضوع محاولين ان نتوصل إلى معرفة من كان وراء تلك الاسماء . وكان بوسكريشيف هو المتولي شؤون سكرتيرية ستالين الشخصية ، غير انه لم يكن باستطاعته ان يقترح اسماء دون الاستعانة بهيئة سكرتيرية مالنكوف ، وهو لو فعل ذلك لكان مالنكوف

علم بالامر . ذلك ان في الهيئة جماعة موالية له كانت تبلغه بالامر حتى لو تلقوا امراً مخالفاً من ستالين . وهكذا فشلنا في التوصل إلى معرفة الحقيقة . وبقيت تلك القائمة لغزاً تعذر علينا حله . واني اقدر الآن على اساس بعض الادلة ان ستالين تخطى مالنكوف تماماً واستعان بكاغانوفيتش . لقد كانت بعض الاسماء غير معروفة الا قليلا في الحزب ، غير ان كاغانوفيتش كان يعرف اصحابها ، ويرجع انه هو اخبر ستالين عنهم .

يرى القارىء من هذا اي نوع من الزعامة كان عندنا ؟ كان المفروض ان ستالين هو الذي يدير المؤتمر ويؤلف لجنة مركزية جديدة وينشيء « برزديوم » جديداً ، غير ان الواقع هو انه لم يكن يعلم الا بالقليل جداً مما تصنع يده . كان « البرزديوم » الجديد اكبر كثيراً من ان يكون صالحاً للعمل ، وعضويته متافرة العناصر . فقد كان الاشخاص الخمسة والعشرون الذين وقع عليهم الاختيار متفاوتي النوعية ومن فئات مختلفة المزايا . كانوا جميعاً يتمتعون بثقة الحزب وكانوا دون شك رجالاً لهم مكانتهم . غير ان الكثيرين منهم لم يكونوا معدين لعمل له مثل هذه الاهمية (١) .

عندما كان ستالين يقرأ اسماء اعضاء « البرزديوم » الجديد اصغيت باهتمام وتساءلت هل سيكون مولوتوف ومينكويان وفوروشيلوف ضمن هذه الهيئة ؟ كنت ارتاب في ذلك اذ كانوا من الرجال الذين طرحهم ستالين جانباً . ان خطر اعتبارهم كجواسيس وبذلك اعلانهم اعداء للشعب كان معلقاً فوق رؤوسهم . ولكن ، وردت اسمائهم في اللائحة . وقد رأيت في ذلك علامة حسنة .

وبعد ان اقترح ستالين الاسماء الخمسة والعشرين قال انه نظراً لصعوبة العمل

(١) كان تعيين « برزديوم » من ٢٥ شخصاً ليحل محل المكتب السياسي الا صغر كثيراً موضع دهشة لدى جميع الذين لم يكونوا على بينة بالحقائق . ولكن هل كان خروشوف ومالنكوف على غير معرفة مثل الباقين منا . ان ما يشير الاهتمام في صدد الأشخاص المستجدين ، سواء من الأعضاء أو المرشحين للعضوية ، انهم كانوا محسوبين بالتساوي من رجال مالنكوف ورجال خروشوف . وهذا ، إذا استعملنا تعبير ستالين ، لم يكن صدفة . وتجدر الملاحظة ان الاعضاء المرشحين كان بينهم كوسيفين بعد ان كان قد عزل من مناصبه بعد قضية ليننغراد . كما ان ل.أ. بريجنيف ، الذي كان حينذاك مشمولاً برعاية خروشوف إلى حد بعيد ، ظهر لأول مرة على المسرح . وكان ستالين على ما يبدو قد وسع لجنة الحزب العليا لكي يغطي سبقاً التصفية المتوقعة للبعض من كبار أعضائها .

في مجموعة من هذا الحجم فان علينا انتخاب هيئة مكتب من اعضاء البرزديوم (١) . وهذا الاقتراح كان غير دستوري ، اذ كنا قد اعتمدنا نظاماً جديداً للحزب في المؤتمر الحزبي التاسع عشر. ونحن لم نضع نصاً بانشاء هيئة مكتب للبرزديوم . وهكذا بدأنا فعلاً في مخالفة الانظمة . وقال ستالين بان المكتب سوف تكون اجتماعاته اكثر من اجتماعات البرزديوم ، وسوف يتخذ قرارات في صدد جميع القضايا العملية التي قد تعرض عليه . اقترح ستالين تأليف هذا المكتب من تسعة اعضاء ، وقرأ اسماءهم حالا . وهم ستالين شخصياً ، مالنكوف ، بيريا ، خروشوف ، فوروشيلوف ، كاغانوفيتش ، سابوروف ، برفوخين (٢) بولغانين . وهكذا ترك خارجاً مولوتوف وميكويان . كان ادخال فوروشيلوف غريباً لان ستالين كان قد بدأت تخامره الشكوك حوله قبل زمن طويل من فقدان مولوتوف وميكويان الخطوة لديه . وقد اسفّت اشد الاسف لان مولوتوف وميكويان لم يعينا لعضوية المكتب . وكنت ارى وجوب تعيينهما . والقي ستالين خطاباً في الجلسة العامة ادلى فيه ببعض الايضاحات المدهشة كثيراً والغامضة في الوقت نفسه عن سبب عدم جدارة مولوتوف وميكويان بثقة الحزب . فقد قال انهما عملاء لبعض الحكومات الغربية . وبالطبع لم يكن هنالك شيء من المنطق في هذا . فلو انهما كانا عملاء للاجانب وليسا جديرين بثقتنا ، اذن لماذا ابقيا في اللجنة المركزية وفي « البرزديوم » ؟ وعلى اي حال ، فان مولوتوف وميكويان استبعدا في الواقع من الهيئة الحاكمة . غير انه سرني ان فوروشيلوف عين في هيئة المكتب . ورأيت ان ستالين ادرك اخيراً انه كان من الخطأ اعتبار فوروشيلوف جاسوساً للانكليز وغير ذلك من الاتهامات . كان كل شيء يتوقف على تحيلات ستالين الحصبة المتبدلة بين يوم وآخر .

وبعد المؤتمر الحزبي التاسع عشر وانشاء « البرزديوم » الموسع وهيئة مكتب « البرزديوم الجديد » ، استمرت اعمالنا وفقاً للنمط ذاته الذي كنّا قد سرنا عليه قبل كل التبديلات والتحسينات . ومن اعضاء المكتب التسعة اختار ستالين لجنة داخلية من خمسة وفقاً لارادته وصادقاته .

(١) كان يعتقد انذاك ان ستالين هيئة داخلية صغيرة يعتمد عليها ولم يعرف بالقبض من كانت مؤلفة .

(٢) م.ج. برفوخين كان أحد الوزراء الفنيين (مثل سابوروف) الذين اكتسبوا شهرة في الصناعة ورقوا بسرعة إلى القمة في سني ستالين الأخيرة ، وهو أيضاً وجد ذاته في متاعب بعد هزيمة الزمرة المعادية للحزب .

لقد كان يعتبر شرفاً عظيماً ان يدعى انسان إلى الاجتماع مع ستالين . ومن الناحية الاخيرة كان يعتبر نذير شؤم اذا دعي المرء مرة ولم توجه اليه دعوة بعد ذلك . والاشخاص الخمسة كانوا: ستالين ومالينكوف وبيريا وبولغاين وخروشوف . وهو نادراً ما كان يدعو كاغانوفيتش وفوروشيلوف . اما مولوتوف وميكويان فلم توجه اليهما الدعوة على الاطلاق . والحقيقة الفعلية ان « البرزيديوم » كذلك لم يدع إلى الانعقاد ابداً . فكانت هيئة المكتب تقرر كل القضايا ، وهذه الهيئة كان معناها عادة اللجنة الداخلية المؤلفة من خمسة . وكانت جميع القرارات تتخذ بالطريقة ذاتها التي كان ستالين قد وضعها قيد الممارسة بعد عام ١٩٣٩ . فقبل المؤتمر الحزبي الثامن عشر كان « البرزيديوم » قد حافظ على قدر معين على الاساليب الديمقراطية . غير ان الديمقراطية اخذت تدريجياً تفصح الطريق امام الاوتوقراطية . فكان ستالين ، منذ ان اباد هيئة اللجنة المركزية الاساسية التي كان قد جرى انتخابها في المؤتمر الحزبي السابع عشر (١٩٣٤) والتي ضمت «الرجال الشيوخ» الذين خاضوا النضال لانشاء حزبنا منذ قبل الثورة ، يصدر الامر وحده ويعطل المناقشات . وفي هذا ما فيه الكفاية عن القيادة الجماعية .

مؤامرة الأطباء

كان اعتقال أطباء الكرملين في كانون الثاني ١٩٥٣ بتهمة تسميم جدانوف وآخرين من السوفييات البارزين حركة تمهيدية لما أخذ يعرف بتطهير ستالين الأخير ، وهو تطهير يهدف إلى التخلص من بعض أقرب زملائه ، وخصوصاً بيريا ثم مولوتوف وميكويان على الأرجح . ويروي لنا خروشوف شيئاً جديداً عن هذه الحركة التي عرفت بأنها «مؤامرة الأطباء» . والقضية كانت قد لفقت مسبقاً في وقت سابق للمؤتمر الحزبي التاسع عشر المنعقد في شهر تشرين الأول ١٩٥٢ ، وإلا لما كان خروشوف يعلم بأن الطبيب الذي كان يعالجه هو بالذات في أثناء المؤتمر سيكون موضع اتهام . وما لم يكن خروشوف يخطط في تواريخ الحوادث ، فتمة رائحة كريمة تفوح من هذه الرواية . والحقيقة أن دور خروشوف في هذه القضية المشؤومة هو موضع شبهة . فان س.د. اغناتيف ، وهو رجل مقرب جداً من خروشوف كان قد حل محل أباكوموف ، أحد أنصار بيريا ، وزيراً لأمن الدولة . وفي ١٩٥٢ كان قد اشترك اشتراكاً فعلياً في تطهير رجال بيريا في مصالح الأمن تطهيراً وحشياً ، وكانت مهمته ان يلقى أدلة الإثبات ضد الأطباء (الرسالة الانتهامية التي ارسلتها ليديا تيماشوك كانت عملية ملفقة كما قال خروشوف ذاته في خطابه السري) والاعترافات المقتضبة منهم بالعنف . وعندما أعيد التحقيق

بالقضية بعد وفاة ستالين اتهم بيريا أغتاتيف بأنه وراء القضية . ولم يلبث بعد ذلك ان اعتقل بيريا واعدم مع كبار شركائه ، ومنهم أباكوموف . أما أغتاتيف الذي قال خروشوف أنه كان على فراش الموت في ١٩٥٢ فقد استعاد صحته إلى حد أتاح له البروز عضواً في سكرتيرية خروشوف الحزبية الخاصة . ورواية خروشوف لهذه الواقعة ، تحول الا نظار عن أكبر مضامين هذه القضية وعن الحقيقة التي لا تزال مبهمة غامضة التفاصيل . فهو يعالجها كأنها مثل على سفالة ستالين في مهاجمة الا برياه ، كاولئك الأطباء .

استدعانا ستالين ذات يوم إلى الكرملين وتلا علينا رسالة من امرأة طيبة اسمها تيماشوك زعمت فيها ان جدانوف مات لأن الأطباء تعمدوا علاجه علاجاً خاطئاً اودى بحياته . ومما لا ريب فيه انه لو صح ذلك لكان من افظع النذالات . اذ كيف يقدم اطباء على تدمير الحياة وهم المولجون بانقاذها .

ولو كان ستالين شخصاً عادياً موزوناً ، لما اعار رسالة تيماشوك اي اهتمام . فالثابت ان مثل هذه الرسالة تصدر عن اشخاص غير مترنين نفسياً او يكيدون لاعدائهم بغية التخلص منهم . غير ان ستالين كان اكثر من متجاوب مع هذا النمط من المخطوطات . واني في الواقع اعتقد ان هذه المؤامرة هي نفسها كانت من منتجات السياسات الستالينية . فستالين كان قد غرس في ضمائرنا جميعاً الشكوك باننا محاطون بالاعداء وعلينا ترصدهم لنكتشف خائناً مكتوماً او مؤمراً غير مفضوح في كل واحد منا .

وكان ستالين يسمي ذلك كله « باليقظة » او « الحذر » ودرج على القول انه اذا كان في نأ ما عشرة بالمئة من الصحة فيتوجب علينا ان نعتبره صحيحاً ، ولكن كيف يمكن العثور حتى على عشرة بالمئة من الحقيقة في رسالة مثل رسالة تيماشوك ؟

ان نظرة ستالين « لليقظة والحذر » حولت عالمنا إلى ملجأ للمجانين يلقي كل واحد فيه تشجيعاً للبحث عن حقائق غير موجودة في الشخص الآخر . فالابن تحول ضد ابيه ، والاب ضد ابنه ، والرفيق ضد الرفيق . وقد سمي هذا « مواجهة طبقية » . واني ادرك ان النضال الطبقي لا يؤدي اية مساعدة بل يفرق العائلات بدون رحمة . ان النضال الطبقي يحدد موقف كل عضو في الاسرة . واني لأؤيد الكفاح الذي لا يلين ولا يهاود في النضال الطبقي ، فهو ضروري لبناء الاشتراكية وتحقيق مستقبل أفضل . ان الحرب الطبقيّة ليست عرضاً احتفالياً ولكن معركة دموية قاسية . وانا اعرف هذا . لقد كنت انا شخصياً

مشاركاً في النضال الطبقي وتوصلت إلى تفهم المواجهة الطبقة أثناء الحرب الأهلية ، عندما اشتركت في النضال الدموي الذي اثاره الجيش الاحمر ضد عصابات المخوفيتش والحيورجويين والانطونوفيين المشتتة وبقايا وحدات البيض الاخرى التي كانت لا تزال متشرة ، ولم يقض عليها .

كان القوقاس الشمالي يعج بالعصابات واشتركت انا شخصياً في الاجتماع الذي عقد لتنظيم النضال ضدها . واخذت صورة فوتوغرافية مرة لفريق منا مع فورمانوف رئيس الادارة السياسية . وارسلت إلى رفيقي في السلاح وفي ادارة شؤون الجيش السياسية فيرا شوتسكينيا نسخة من تلك الصورة . وهي الآن متفاعدة واني مسرور لانها على قيد الحياة وفي صحة جيدة . واني لا اعلم كيف تخطاها الكأس عندما كانت المجازر الستالينية لا تزال مستمرة . وعلى كل حال حتى في الماضي عندما كان النضال ضد عصابات البيض مستمراً في سيره في القوقاس الشمالي ابدى لينين بفضل بعد نظره ضبطاً عظيماً للنفس والكثير من الانسانية ، ففعل كل ما باستطاعته لكي لا يلحق اذى بالابرياء . وعندما كان يرى شخصاً ما مذنباً كان يتفانى في العمل على خلاصه واعادة اعتباره بدلا من معاقبته . وحتى لو كان الرجل ارتكب خطأ ، كان لينين يعمل على مساعدته واعادة تركيزه على اوضاع ايجابية اولا بشل خصال ذلك الرجل السلية ثم باعادة تجنيده تدريجياً في النضال الفعال لبناء حياة اشتراكية جديدة . غير اننا خلفنا المسرح اللينيني وراءنا وانتقلنا إلى المسرح الستاليني وإلى السياسات اللاعقلانية - سياسات رجل مريض انزل الرعب بنا جميعاً .

وبالعودة إلى رسالة تيماشوك ينبغي ان اذكر ان جدانوف كان قد عولج من قبل اطباء الكرملين الذين ما كان يمكن ان يكونوا الا من خيرة الاطباء الموثوق بهم . ولم يكن يجند للعمل في مستشفى الكرملين الا الرجال المعروفون والحاترون على كل احترام في عالم الطب السوفياتي . غير ان هؤلاء القمى القبض عليهم وزجوا في السجن مثل المجرمين العاديين .

كان جدانوف قبل وفاته في صحة سيئة مدة من الزمن . واني لا اعلم ما هي العلة التي كان يشكو منها الا ان بين الله كانت اضاعته قوة ارادته ، وفقدانه السيطرة على نفسه بسبب المسكرات . وكان مشهده يدعو إلى الشفقة . واني لا ذكر حتى في ايام جدانوف الاخيرة ان ستالين كان يصيح به لان يوقف الشرب ، وكان هذا شيئاً مذهلاً لان ستالين كان عادة يشجع الناس لان يتمادوا في الشرب حتى السكر . غير انه كان يرغم جدانوف على شرب عصير الفاكهة فيألم اذ كنا نحن في الوقت ذاته نشرب النبيذ او شيئاً اقوى من النبيذ . وكان من

السهل ان نتصور ان ستالين هو الذي ارغمه على ذلك . الا ان جدانوف كان يقلت من كل رادع في مترله . ان هذه العادة الشريرة ذاتها هي التي قتلت شيرباكوف ، وهي بكل تأكيد عجلت في وفاة جدانوف إلى حد بعيد . انني لا اضع على الاطلاق شيرباكوف وجدانوف على مستوى واحد . فمنذ وفاة ستالين ادركت ان طائفة المفكرين المثقفين عندنا تضرع كرهاً عميق الجذور ضد جدانوف بسبب دوره في تعطيل صحف لينغراد . غير انه ينبغي ان لا يغرب عن البال ان جدانوف لم يكن الا منفذاً لاوامر ستالين . واني اعتقد ان سياسات ستالين الثقافية ، وخصوصاً سياساته الثقافية التي فرضها على لينغراد بواسطة جدانوف ، كانت قاسية حمقاء لا معنى لها (١) .

فليس من المستطاع تنظيم تطور الاداب والفنون والثقافة بالعصا او باصدار الاوامر ، وليس بالامكان شد جميع الفنانين بالزمام للتأكد من عدم انحرافهم عن السير في الخط الضيق الذي رسم لهم . ان محاولة السيطرة على الفنانين واحكام القيود عليهم يؤدي إلى عدم تبادل الآراء وتصادمها وزوال الانتقادات ، وبالتالي ضياع الحقيقة تماماً . ولن يبقى سوى صورة مظلمة معلقة داعية إلى الضجر لا فائدة منها . وهذه الصورة لن تؤدي فقط إلى عدم تشجيع الناس على الافادة من الفن بل انها تسمم وتقتل اهتمامهم بالفن وعلاقاتهم به .

وعلى كل حال فان الاطباء الذين كانت لهم علاقة بمرض جدانوف اعتقلوا جميعاً وكان بينهم فينوغرادوف الذي تولى مرة علاج ستالين ، وهذا امتياز وشرف عظيم له ، لان ستالين لم يكن يسمح قط للاطباء بمعالجته . غير ان ستالين لم يوفر فينوغرادوف ، بل امر باعتقاله وضربه . وقد تعرفت إلى فينوغرادوف بعد اطلاق سراحه ، اذ جيء به أكثر من مرة لاستشارته عن صحي . واعتقلوا ايضاً ف.ك. فاسيلنكو ، وهو طبيب واسع الشهرة واستاذ كبير . لم اكن اعرفه شخصياً معرفة جيدة غير اني سمعت اشياء كثيرة حسنة عنه من سترازهسكي الذي كنت احترمه كثيراً . وكنت قد عرفت سترازهسكي من ايام كييف . فكان ضوءاً يستنار به ليس فقط في عالم الطب عندنا بل في الخارج ايضاً . وعندما انتهت الحرب طلب مني سترازهسكي اطلاق سراح فاسيلنكو من الجيش لكي يستطيع

(١) ان الاشارة هنا إلى تطهير الفنون بواسطة جدانوف كانت فضيحة كبيرة في ١٩٤٧-١٩٤٨ . فالمجلات عطلت وحدد عدد المؤلفين وأرغم الشعراء البارزون على الاعتراف بأغلاطهم الماضية واجبروا على اعطاء وعود بأن ينظموا للجواهر فقط . وقد كانت في الواقع موجة ارهاب ثقافي .

العمل في المستوصف الذي كان سترازهسكي يديره وقال « فاسيلنكو تلميذي واود ان يتسلم العمل مني لكي اكون متأكداً ان المستوصف انتقل إلى أيد يعتمد عليها ». وكان سترازهسكي قد اسس هذا المستوصف قبل الثورة وكانت له سمعة ممتازة . وكان فاسيلنكو في الصين عندما بدأت الاعتقالات فاستدعي منها . وفي الدقيقة التي وطأت اقدامه الحدود السوفياتية القي في السلاسل والقبود . واني لاذكر بعد اللقاء تقريرتي عن انظمة الحزب في المؤتمر الحزبي التاسع عشر انني مرضت ولم اتمكن من مغادرة المنزل عندما كان تقريرتي يناقش في المؤتمر ، بل اضطررت ان الزم الفراش لبضعة ايام فجاء طبيب متقدم في السن لفحصي . وبينما كان منصتاً لدقات قلبي وضع اذنه على صدري فتأثرت ببعد نظره وشدة تفكيره وعنايته وشعرت برهبة في تلك اللحظة . واحسست بالالم . لا لانني كنت مريضاً بل ، لانني كنت قد قرأت شهادة ضد ذلك الطبيب الشيخ الذي اثر بي كثيراً اهتمامه بصحتي . وكنت اعلم انني قلت بصده ان ستالين لن يوفره ويعفي عنه .

وبعد فينوغرادوف جرى اعتقال فاسيلنكو والآخرين . ووزع ستالين نسخاً عن رسالة تيماشوك مع تعليقه عليها فأثار غضب الجماهير ضد الاطباء الذين « ارتكبوا مثل تلك السفالة » بقتلهم جدانوف . وبدأت رسائل اخرى تندفق واصفة الاطباء بالخونة . وكانت تلك الرسائل تعكس رأي الشعب الذي اعتقد ان ستالين لم يكن ليذيع مثل هذه الوثيقة لو لم تكن قد اثبتت الادلة الجريمة . . فتوردة الناس كانت بدافع استنكارهم لحدوث مثل ذلك الجرم . كونييف (١) الذي كان هو نفسه مريضاً في ذلك الوقت ، وجه رسالة طويلة إلى ستالين زعم فيها انه هو ايضاً يجري تسميمه بالادوية ذاتها التي قيل انها استعملت للقضاء على جدانوف . وقد جاءت رسالة كونييف مضاعفة للمهزلة . ويبدو ان جميع اعضاء البرزديوم ادركوا افتقار اتهامات كونييف إلى الحقيقة . ولكننا لم نكن نناقش الموضوع علناً ، لان ستالين عقد العزم على اتخاذ موقف يصعب علينا تبديله . وكنا عندما نجتمع وتبادل الآراء سرّاً نعرف بامتعاضنا من

(١) المارشال ا.س. كونييف وهو جنرال ممتاز من الحرب العالمية الثانية ، أظهر بعد ذلك ميلاً للانغماس في الدسائس السياسية . وكان في اوقات مختلفة نائباً أعلى للقوات البرية السوفياتية ، (خلفاً لجوكوف بعد طرده في ١٩٤٦) فقائداً أول لوزير الدفاع وقائداً أعلى لقوات ميخاق فرصوفيا . وقد قيل ان اثنين من المارشالات الآخرين واميرالا واحداً قد سمهم أيضاً (ليس لدرجة الموت) لإطباء التعاء .

رسالة كونيف اذ ان الاشخاص الذين اتهموا بقتل جدانوف كانوا جميعاً في السجن . على ان تلك الرسالة وسعت دائرة المتهمين وزادت في اضرار نار ارتياب ستالين بالاطباء عامة .

ثم بدأت الاستجوابات وسمعت باذني كيف كان ستالين يتحدث مع س. د. اغناتيف الذي كان حينئذ وزير امن الدولة . وكنت اعرف اغناتيف جيداً واعرف انه رجل مريض جداً وقد اصيب بنوبة قلبية كادت تكون قاتلة ، وكان معتدلاً لطيفاً محبوباً ، وكنا جميعاً نعلم اي نوع من الحالة الصحية كان فيها . وكان ستالين قد اعتاد ان يتفحص من مكاته بصورة خبيثة على التلفون بحضورنا . ولكن ستالين قد صار شبه مجنون مهتاجاً يصبح على اغناتيف ويهدده طالباً منه ان يضع الاطباء بالقيود والاصفاد ويضربهم حتى يصيروا كتلة محطمة ويسحقهم حتى يصيروا مثل الغبار . ولم يعترنا اي استغراب عندما اعترف الاطباء جميعاً تقريباً بجرائمهم . واني لا استطيع ان الومهم لاتهمهم انفسهم . لقد مر امامي كثيرون من الناس على اختلاف انواعهم : صادقين وخونة ، رجال ثورة ، ومخربين ، اعترفوا جميعاً بما كان ينسب اليهم . واني اضرب مثلاً آخر على ذلك ميرتسكوف الذي يقرب الآن من آخر عمره ويمشي عاجزاً مقوس الظهر . اعترف بانه جاسوس للانكليز . وان اطباء الكرملين قد وضعوا في مثل هذه الحالة ذاتها فاعترفوا هم ايضاً بجرائمهم (١) .

تلك كانت قصة القضية التي سميت « مؤامرة الاطباء » . كانت بالفعل عملاً معيياً مخجلاً . فبعد سحق العدو في الحرب العالمية الثانية ، وبعد ان استعادت طائفة المثقفين السوفيات حقوقها وحقت مكانتها العالمية ، نرى فجأة طائفة من مثقفينا — على الاقل الاطباء منها — يسقطون عرضة لشبهات ستالين . ان قضية الاطباء كانت شيئاً فظلاً وحقيقاً .

ولو عدنا إلى ١٩٠٢ لوجدنا اضطرابات نشبت نتيجة انتشار الكوليرا في « ماكيبفكا » ، وهي مدينة في دونباس ضرب في اثنائها اطباء تلك المنطقة بلا رحمة او شفقة . ثم اني لاذكر في اوائل شبابي حوالي عام ١٩١٠ انه انتشر وباء الكوليرا في جميع انحاء دونباس وكان كثيرون من عمال المناجم يموتون تحت الارض حيث كان يشتغل والذي . وكان العامل عندما يصاب بالمرض ينقل إلى ثكنات الكوليرا التي لم يكن يرجع منها احد . وسرت شائعة بين عمال المناجم ان

(١) برأت لجنة شكلها يوريا بعد موت ستالين الاطباء من الاتهامات التي وجهت ضدهم غير ان اثنين منهم لقيا حتفهما أثناء التحقيق .

الاطباء كانوا يسممون المرضى . ووجد شهود يزعمون بأنهم شاهدوا احدهم يلقي مسحوقاً في البئر والآن ، في ايامنا هذه ، عادت السلطات السوداء نفسها ترفع رؤوسها من جديد وعاد اضطهاد المثقفين والاطباء إلى العلانية .

سفتلانا

بالامكان مقارنة إنطباعات خروشوف عن ابنة ستالين وعلاقتها مع والدها وحياتها البيتية مع ما ورد في المؤلفين اللذين وضعتهما سفتلانا وعنوان الأول «عشرون رسالة إلى صديق» ، وعنوان الثاني «فقط سنة واحدة» ورغم أن ثمة فوارق واختلافات صغيرة ، إلا أن سفتلانا على العموم تؤيد رواية خروشوف التي تظهره على أحسن ما يكون ، بينما تظهر من ستالين أسوأ خصاله وبصورة نافرة جداً .

أن السرد التاريخي للاحداث هو كالعادة ، مبهم إلى حد ما ، غير أن رواية سفتلانا تؤيد وصف خروشوف عن تدخل ميكويان للدفاع عنها وموقف خروشوف الودي نحوها . وقد فرض حظها العاثر أن يعزل خروشوف بينما هي وبراجيش سنخ في لحظتها الحرجة . فكان أن تولى كوسيفين وسولوف من بعده ، منها من الزواج ثم منها من مرافقة براجيش في رحلته الأخيرة إلى الهند ليموت هناك بسلام .

وعندما توفي وسمح لها في النهاية أن تأخذ رماده إلى الهند حاولت السلطات أن تبيدها حالاً إلى بلادها . وكان بنيدكتوف وهو السفير السوفياتي في الهند ، وهو الذي يصفه خروشوف بالمتزمت ، عبارة عن انسان مذعور . فقد كان وزيراً للزراعة لفترة ثم عزله خروشوف .

أما تعليقات خروشوف عما يتوقع المواطنون السوفيات عندما يستعدون إلى موسكو ، فتفي بإيضاح حقيقة الحال .

عرف ستالين بطباعه المتوحشة وطباعه الحادة . لكن فظاظته لم تكن دوماً تنطوي على حقد نحو الاشخاص الذين كان يتصرف معهم بخشونة . كان بذيثاً وبسيء التصرف مع كل الناس ، لأن ذلك كان في طبعه وطبيعته . وقد تعرضت انا مراراً إلى خشونته . فقد كان ستالين يحبني ولو لم يكن يحبني او لو انه شعر باقل شبهة نحوي لكان استطاع ان يتخلص مني في اي وقت اراد ، وبالطريقة ذاتها التي تخلص بها من اشخاص كثيرين اصبحوا في نظره غير مرغوب فيهم . وحدث أكثر من مرة انه بعد ان كان فظاً او ناقماً علي عاد فاعرب لي عن حسن قصده . ولكن معاذ الله ان يبدي اي نوع من الاعتذار . ان الاعتذار كان غريباً

عن طباعه . وهناك رواية تعطي فكرة جلية كيف ان ستالين كان يسمح لنفسه ان يشتم ويحقر المقربين اليه .

فقد حدث في العام الاخير من حياته ان دعانا جميعاً إلى منزله الريفي للاحتفال معه بالعام الجديد . وكنا جميعاً في حالة ابتهاج كبير . انه عام جديد نضيف به إلى مصلحتنا سنة اخرى من الانتصارات والنجاحات . وكانت هنالك موائد عليها اصناف المقبلات ، فتناولنا عشاء فاخراً وشربنا كثيراً . وكان ستالين في حالة زهو ومرح فشرب كثيراً ، والى على الجميع بان يحذوا حذوه . وكانت هنالك مقادير كبيرة من الخمر تحت تصرفنا .

وتوجه ستالين نحو الحاكي ووضع بعض اسطوانات الموسيقى الروسية والجيورجية . فاصغينا جميعاً واخذنا نغني مرافقين الاسطوانات . ثم وضع بعض الألحان الراقصة وانطلقنا نرقص . وكان بيتنا راقص واحد ماهر هو انسطاس ايفانوفيتش ميكويان . وجميع رقصاته كانت مبنية على ايقاع ليزغينكا (رقصة قوقاسية شعبية) .

ثم بدأ فوروشياوف يرقص وانضمنا جميعاً اليه . وأنا عندما أرقص لا احرك قدمي ، انني أرقص كما ترقص البقرة على الجليد . غير اني مع ذلك اشركت في الرقص ، وكذلك فعل كاغانوفتش على انه كان راقصاً من مرتبتي ولم يكن أعلى من مرتبتي كثيراً . وبولغانين على ما يظهر قام بشيء من الرقص في شبابه . فكان يحاول أن يؤدي رقصة روسية غامضة الايقاع . وقد رقص ستالين أيضاً يمسح الأرض بقدميه ، وذراعه ممدودتان إلى الخارج . وكان واضحاً انه لم يرقص على الإطلاق من قبل (وانه لمن المؤسف أن مولوتوف لم يكن معنا في تلك المناسبة . فهو الوحيد ، بسبب نشأته في عائلة مثقفة ولكونه طالباً جامعياً ، كان يعرف ، مثل سائر الطلاب ، كيف يرقص . وكان يحب الموسيقى ويستطيع العزف على الكمان . ورغم انني لم أكن خبيراً في هذه الامور حتى أكون حكماً صالحاً ، غير ان مولوتوف كان في نظري راقصاً من المرتبة الاولى) وكان الجو العام في الحفلة مرضياً . ثم ظهرت سفتلانكا (صبيغة تحب لاسم سفتلانا ابنة ستالين) . ولا أدري اذا كانت قد دعيت أو انها أتت من تلقاء ذاتها . إلا أنها وجدت ذاتها وسط حشد من الناس أكبر منها سناً ، اذا شئنا استخدام تعبير ملطف . وحالما وصات هذه السيدة الرصينة دعاها ستالين أن ترقص . واستطعت أن اتبين علام الارهاق على وجهها . كانت تتحرك بصعوبة وهي ترقص . ورقصت لفترة قصيرة من الزمن ثم حاولت أن تتوقف . ولكن والدها ظل مصرّاً على استمرارها في الرقص . فذهبت ووقفت إلى جانب الحاكي (الفونوغراف) مسندة كتفها إلى

الحائط . وذهب ستالين اليها ، وانضمت بدوري اليهما ، ووقفنا معاً . وكان ستالين يترنح متميلاً . ثم قال : «والآن هيا ، يا سفتلانا ارقصي ، فانت المضيفة هنا ، هيا ارقصي ! »

فقلت : «سبق أن رقصت يا أني ولكنني أشعر انني متعبة ! » وعند ذلك أمسكها ستالين بخصلة من شعرها وجرها . فتخرج وجهها احمراراً ، وامتلاأت عيناها بالدموع . وشعرت أنا بالاسى لما أصابها . لكن ستالين مضى يدفعها بقسوة ويجرّها إلى حلبة الرقص .

وها نحن أمام مشهد والد يعبر بهذا الاسلوب عن حنانه وجهه لابته ! ذلك انه مما لا يتطرق اليه الشك ان ستالين كان يحب سفتلانا كل الحب . وكان يحب فاسيا أيضاً ، غير انه كان ينحى باللائمة على فاسيا لأنه يعاقر الخمرة ويفتقر إلى حسن السلوك . وكانت سفتلانا من جهة ثانية طالبة مهيبة وذات سلوك حسن ومهذب . ولم أسمع شيئاً سيئاً عنها . وكان ستالين فخوراً ومولعاً بها . ومع ذلك انظروا كيف أبدى شعوره الوالدي نحو ابته . لقد تصرف معها بقسوة ووحشية ليس لانه أراد أن يؤلمها ، كلا . بل كان سلوكه نحوها تعبيراً عن محبته ، ولكن باسلوب فظ .

وقد قلت آنفاً ، انني كنت أشعر نحو والدة سفتلانا ، ناذرها الليلويفا : بكل تقدير واحترام . واذا كانت مختلفة كثيراً عن ستالين ، فقد كنت معجباً بوداعتها . أما فاسيا (فاسيلي) فقد كان صبيّاً حسناً ، ذكياً ولكن عنيداً جداً . وقد بدأ يعاقر الخمرة باكراً في شبابه . وكان طالباً لا يعرف النظام وحسن السلوك ، مما سبب لوالده حزناً كثيراً . وأظن ان ستالين كان يضربه دائماً . وقد عهد إلى «شيكنس» وضع «فاسيا» تحت رقابة دائمة .

أما سفتلانا ، فكانت على خلاف ذلك . وعندما كانت طفلة صغيرة كانت تنتقل في جوانب المنزل دائماً عندما نكون هناك . وكان ستالين دائماً يدعوها «المضيفة» وأخذنا نحن أيضاً نسميها «المضيفة» كذلك . وكانت دائماً أنيقة في ملابسها . ترتدي تنورة اوكرانية وقميصاً مطرزة . فكانت تبدو شبيهة بدمية جميلة تزينها ثيابها ، ولكنها كانت في الوقت ذاته مثل والدتها ، بشعرها الكستنائي ونقط النمش الصغيرة التي تملأ بشرتها . وقد نشأت «المضيفة» وكبرت أمام عيوننا . لاني اذكر انه كلما كنا نجيء إلى منزل ستالين كان ستالين يقول لها : « هيا أينها المضيفة ، احتفي بالضيوف » . وكانت تركض إلى المطبخ . وكان ستالين يقول : كلما غضبت علي تهددني بقولها : « سأذهب إلى المطبخ واشكوك إلى الطباخ » وكنت أنا دائماً ابتهل اليها قائلاً «ارحميني ، اذا ما شكوتني إلى الطباخ ، فلا

أدري ماذا يصيبي « . وكانت ، سفتلانا تقول بحزم وقوة أنها ستشكو والدها اذا كرر ارتكاب أي خطأ .

وكان لسالتين نجل أكبر هو ياشا (ياكوف) من زوجته الاولى ، وهي امرأة جيورجية . وكان ياشا مهذباً . ولم يصدف ان تعارفا . وعندما بدأت اجتمع بستالين في منزله ، لم يكن ياشا هنالك إلا نادراً . فقد كان يسكن منزلاً مستقلاً مع زوجته وابنته الطفلة . وعندما كان يجيء قليلاً إلى عشاء عائلي في منزل ستالين ، كان يأتي دائماً وحده ولم يجلب معه زوجته وابنته على الاطلاق .

ثم حدث ان زوجة ستالين ناديا انتحرت في ظروف غامضة غريبة . ولا بد أن يكون ستالين قد فعل شيئاً حملها على الانتحار . وكانت سفتلانا تعرف ذلك . وسرت شائعة بأن ستالين اطلق الرصاص على ناديا . ويؤخذ من رواية اخرى وهي أقرب إلى الحقيقة في نظري ان ناديا انتحرت باطلاق الرصاص على نفسها بسبب إهانة وجهت إلى شرفها كأمرأة . ومما لا ريب فيه ان سفتلانا كانت تعلم شيئاً عن الطريقة التي ماتت بها والدتها وكانت تتألم لذلك كثيراً .

وبعد وفاة ناديا ، كان فاسيا وسفتلانا دائماً في المنزل عندما كنا نحضر لمقابلة ستالين . وقد اعتدت على رؤية سفتلانا ، وكنت دائماً مولعاً بها . وكنت أشعر نحوها كما يشعر الانسان نحو طفل يتيم : شعور الابوة المترج بالشفقة الانسانية . أما ستالين فكان متوحشاً ، قليل الاهتمام بها ، لا يبدي أبداً أي حنان والذي نحوها . وعندما لا يكون صارماً بصورة ظاهرة في معاملتها ، كان يبدو بارداً وعديم الاحساس في معاملته . وكان ستالين حينما توجه يترك أثراً سيئاً في علاقاته مع الآخرين . فقد كان يتميز بشخصية مرعبة . وكانت علاقات سفتلانا بوالدها غريبة معقدة . وكان حنانه نحو ابنته أشبه بحنان القطة نحو الفأر . فقد حطم قلبها وهي طفلة ، ثم وهي فتاة يافعة ، ثم وهي امرأة وأم . وقد أدى ذلك كله إلى انهيار سفتلانا تدريجياً . وكان ستالين يذهب في رحلاته للتزهة وحده ، لا يصطحب أحداً من أولاده معه . ان الحيوانات تحب ان تحتضنها وتلاعبها امهاتها في الشمس وجميع المخلوقات تحتاج إلى المحبة والمخلوق البشري اذا حرم من المحبة تتحجر عواطفه ويصير متصلباً نفسانياً . وهذا ما حدث لسفتلانا .

ولا أعلم أي نوع من البشر تولى الاشراف على تربية سفتلانا ونشأتها . أذكر انني رأيت في بعض الأحيان امرأة جيورجية شابة جميلة في المنزل . وقال البعض انها مربية سفتلانا أو معلمتها . ولا أعلم أي نوع من المعلمة كانت تلك الشابة ولا من أين جاءت . وسرت شائعة تقول انها وجدت هناك لفائدة بيريا لا لفائدة سفتلانا . وجاء يوم اختفت فيه فجأة .

وتزوجت سفتلانا رجلاً اسمه موروزوف . كان اسمه روسياً ، ولكنه كان يهودياً . وعاشا بعض الوقت معاً . وكان ستالين يكاد لا يأبه له أو يتحمل رؤيته . ولم أر موروزوف يدعى ولا مرة إلى أي مكان من قبل ستالين . وهذا أيضاً ضايق لسفتلانا وألمها كثيراً ثم فجأة بعد الحرب ، استولت على ستالين نوبة من العداء للسامية ، فتم الطلاق بين سفتلانا وموروزوف . وكان رجلاً ذكياً . وقيل لي انه الآن اقتصادي كبير وانه يحمل دكتوراه ودرجة علمية في الشؤون الاقتصادية . وبالاختصار فهو رجل ممتاز ومواطن سوفياتي له مكانته .

ولعل ستالين عندما طلب من سفتلانا أن تطلق زوجها ، ذكر شيئاً من ذلك مالنكوف . وكانت ابنة مالنكوف ، وهي فتاة طيبة جداً اسمها فوليا ، قد تزوجت نجل صديق مالنكوف ، شامبرغ ، الذي كان قد عمل عدة سنين في مكتب مالنكوف . ثم في أحد الأيام اخبرني زوجة مالنكوف ، فاليريا الكسييفنا مالنكوف ، وهي امرأة ذكية أحترمها كثيراً ، ان فوليا طلقت زوجها الشاب شامبرغ وتزوجت شخصاً آخر يعمل مهندساً . ولن احاول أن اقارن بين الرجلين . ذلك من شأن فوليا . واني أظن أن زوجها الجديد شاب طيب أيضاً . غير انني لم استطع ان افهم ما الذي دعاها لترك ابن صديق والدها شامبرغ . ان هذا شيء اقلقني في حينه . لم يكن مالنكوف عدواً للسامية ، ولم يخبرني أبداً ان ستالين تحدث اليه عن استيائه لان ابائه متزوجة من رجل يهودي ، غير انني متأكد ، انه حتى وان يكن ستالين لم يقتل مالنكوف مباشرة ، فان مالنكوف قد علم من الآخرين ان ستالين كان قد أمر ابنته سفتلانا بان تطلق زوجها لانه يهودي . ومما لاشك فيه ان مالنكوف وجد من الافضل اقتفاء اثر ستالين مع ابنته . ان هذا الحادث كان مظهر آخر لذلك العداء الكبير والنامي للسامية الذي سبق وتحدثت عنه . انني لا انسب هذا الشعور إلى مالنكوف ، فان الوضع من ناحيته كان مجرد ولاء خادم لسيده . ان ستالين حمل ابنته على الطلاق من زوجها اليهودي وهكذا ينبغي أن يفعل مالنكوف أيضاً . وعلى العموم ، كنت اعتبر مالنكوف انساناً عادياً سليماً غير مصاب بهذا الداء .

ثم ان سفتلانا تزوجت للمرة الثانية . وكان ستالين يريد ان تزوج يوري ، ابن جدانوف ، وهو الآن رئيس إحدى كليات جامعة روستوف . وكنت دائماً أحبه ولا أزال كذلك . فهو شاب ذكي مثقف وعاقل . وستالين يحبه أيضاً . غير ان سفتلانا لا تحبه . وبعد وفاة ستالين تم الطلاق بينهما ، وأسفت كثيراً لكل ذلك ، ولم أكن أميل لأن اسمع الناس يتحدثون عن سوء سلوك سفتلانا وعدم اخلاصها للذين كانت مقترنة بهم . لقد عاشت زمناً في وحدة لا زوج لها . وهذا

شيء غير طبيعي . وكان لها ولدان ، صبي من زوجها الأول وطفلة صغيرة من الشاب جدانوف . ثم ان اطلاعها على ما فصح عن سوء استعمال والدها لسلطته كان صدمة عنيفة اخرى لها .

وبعد ذلك بمدة أخبرني ميكويان ان سفتلانا ذهبت اليه لاستشيرته وتطلب نصيحته في أمر زواجها من صحافي هندي اسمه براجيش سنغ . كان أكبر منها في السن ، ولكنها عرفته منذ زمن بعيد ، وهو رجل مستقيم وشيوعي . وقال لي ميكويان : « طلبت مني أن اعرف ما هو رأيك » فادهشني منها أنها تطلب رأيي في شأن من شؤونها الخاصة . فقلت لميكويان : « اذا كانت هي ترى انه الشخص اللائق والجدير بالثقة ، فلتتزوجه . من شأنها هي أن تختار . وأي شيء تقرره لن نتدخل فيه . ان كونه ليس مواطناً سوفياتياً لا ينبغي ان يكون عقبة اذا كانت هي حقيقة نجيّة . دعها تقرر ما تريد . » وهكذا تزوجته ، وكنت راضياً ، وأردت لها أن تتمكن من أن تعيش الحياة التي تريدها . ثم كان الحدث الأخير ، القشة التي تقصم ظهر البعير . كما يقول المثل : وفاة زوجها الثالث ودفنه .

واني أتحدث عن سفتلانا بمثل هذا التطويل ، أولاً لأنها بائسة جداً . وعندما علمت أنها سافرت لتدفن زوجها في موطنه وانها لن تعود ، رغبت في الاعتقاد ان ذلك ليس سوى افتراء خادع لفقه الصحفيون البورجوازيون . واستمر رفضي تصديق النبأ بضعة أيام ، حتى تلقيت توكيداً لا يرقى اليه شك بصحة الخبر ، ولم استطع أن افهم كيف أنها توصلت إلى هذا القرار . لقد تركت وطنها وأولادها ، وأفسحت لاعداء طريقة الحياة السوفياتية مجال الثروة ، اذ استغلوا اسم بنت سالتين لاغراض لا تخدم بلادنا . ان ما أقدمت عليه أمر لا يفتر بالنسبة لمواطنة سوفياتية . الا انني ، رغم ذلك كله ، أشعر بأسى عميق من أجلها . وعندما أفكر بها وبحظها الناعس ، استعيد هذه الأبيات لنكراسوف :

« ان مشهد الأرض اليتيمة الأشجار يبعث في عينيها الدموع ، اذ تذكر شجر البتولة الذي كان ينمو هناك . »

فان مجرد تذكري سفتلانا يبعث في عيني الدموع . اذ آسف أن يكون هذا مآلها . وهي منذ بداية حياتها ومصيرها تكتنفه الصعوبات . ان ذلك كله لا يبرر ما فعلت الا انه يجعلني حزيناً من أجلها أكثر مني غاضباً عليها .

لم تنيسر لي قراءة كتابها الا انني سمعت مختارات منه عبر المذياع . ان الغرب يذيع الفقرات التي تخدم اغراضه ، ولعل الاجزاء التي سمعتها لا تعطي فكرة سليمة عن الكتاب ككل . غير ان ما اذيع ، يبدو على الأقل ، مستهجنًا ، فكأنه كتب نتيجة انهيار عقلي وعاطفي من نوع ما . مثل على ذلك ما تقوله عن أنها كانت

ترسم إشارة الصليب ، وانها كانت متديّنة . ان في كتابها اشياء غريبة وفيه روح مريضة . وانني لا استطيع ان أقبّله . اذ كيف يكون بإمكان مواطن سوفياتي ترعرع في مجتمعنا أن يكتب مثل هذه الكتابة ؟

ان هربها إلى الغرب لخطيئة كبرى اقترفتها ، ولا مبرر لها . غير ان للقضية جانباً آخر . فهي حقاً قد ارتكبت بلاهة ، ولكنها عوملت كذلك ببلاهة . ولنقل انها عوملت ببلاهة وفضاظة . فمن الواضح انها بعد ماتم زوجها ذهبت إلى سفيرنا في نيودلهي بنيدبكتوف وأرادت ان تمكث في الهند لبضعة شهور . وبندبكتوف الذي أعرفه ، هو رجل مترمت ، فكان أن رفض ذلك وطلب منها العودة فوراً إلى الاتحاد السوفياتي . تلك كانت بلاهة ارتكبتها السفيرة . ذلك انه عندما يوحي سفير سوفياتي بعودة مواطن من الاتحاد السوفياتي إلى البلاد فوراً ، فان ذلك يبعث في المواطن الشكوك والريب . وكانت سفتلانا مطلعة ، بصورة خاصة ، على ما كان يجري في حالات كهذه . ففهمت ان هذا التدبير يعني أنها غير موثوق بها . ولم يكن مثل هذا التدبير ليعني اهتماماً بصالحها ، بل الشك فيها – ولنقل الشك السياسي – مما يمكن أن يؤول إلى نتائج سيئة بالنسبة لها .

كان هذا التصرف بمثابة تكتيك عدواني ومذلّ من شأنه أن يضيق توازن شخص موفور الاستقرار ، فكيف بسفتلانا التي كانت تفتقر إلى الاستقرار . وان كتابها ليكشف عن عدم استقرارها . فكان ان انهارت واستنجدت بدولة أجنبية . ان قومها يتحملون جزئياً مسؤولية ارتدادها عندما يستخدمون الوسائل القمعية البوليسية بدل اعتماد الحكمة والاحترام في التوجه إلى مواطن من الوطن السوفياتي .

أما عن رأيي بصدد ما كان يجب صنعه ، فاني أعتقد جازماً انها لو عوملت معاملة مختلفة لكان بالإمكان تجنب حصول هذه الحادثة المؤسفة . فلو أنهم قالوا لسفتلانا عندما جاءت إلى السفارة تطلب بقاءها في الهند شهرين أو ثلاثة : « يا سفتلانا ابوزيفوفنا ، لماذا تطلبين ثلاثة أشهر فقط ؟ بإمكانك أخذ تأشيرة لسنة أو اثنتين أو ثلاث سنوات بل بإمكانك أخذ تأشيرة للبقاء هنا إلى ما تشائين . وعندما يعنّ لك ، فباب العودة إلى الاتحاد السوفياتي مفتوح أبداً . » ذلك انها لو اعطيت حرية الخيار لكانت معنوياتها ارتفعت واطمأنت نفسياً وكان عليهم أن يشعروها بأنها موثوق بها . وانني على يقين لو انها عوملت على هذا النحو ، وحتى لو كانت قد وضعت كتابها ، فانها اما تعود عن نشره أو تعيد كتابته . الا انهم عاملوها على نحو وضعها في جو من الشكوك . ولما كانت امرأة مقتدرة وقاهرة ، فقد ذهبت نتيجة هذه الاجراء إلى السفير الاميركي . هذه قصة رحلتها إلى سويسرا ثم أميركا .

لقد قطعت علاقاتها بالوطن الام وفارقت اولادها - ابنها وابنتها - واصدقاءها. لقد فقدت كل معارفها . وبكلمة ، انتهت حياتها كمواطنة سوفياتية . انه لأمر مؤسف جداً ، وانني أشعر بالحزن من أجل سفتلانا . ورغم تقدّم السنين لم أزل اناديبها بصيغة التحجب : سفتلانكا ، وهي المعروفة منذ زمن بسفتلانا ايوزيفوفنا .

والآن ماذا كان حصل لو اننا تصرّفنا وفق ما ذكرت ولم تعد رغم ذلك سفتلانا من الهند إلى وطنها ؟ ان ذلك كان دون ريب أمراً سيئاً ، ولكنه ليس أسوأ مما قد حصل . ان ما حلّ بسفتلانا يؤسفني كثيراً ، الا انني لم أزل اعتقد اننا لم نخسر كل شيء وبامكانها رغم ذلك ، أن تعود . فلعل حينها نحو أولادها سيزداد تضرّماً . فلا بد من اعطائها والحالة هذه ، فرصة اخرى . ومن الضروري اعلامها أنها ، اذا شئت العودة ، تنزل على الرحب والسعة ، وان ما أظهرته من ضعف عندما غادرت الوطن وذهبت إلى أميركا ، لن يكون سيفاً مسلطاً فوق رأسها . انني ، اذ لا أعذر سفتلانا عما اقترفت لكنني لا أعذر كذلك اولئك الذين بدل مد يد المعونة لدهلها على الطريق الملائم ، دفعوها إلى اتخاذ خطوة غير سليمة ولا مبرر لها ولا معقولة ، عندما القت بنفسها في عالم الاغتراب .

المآدب والنزهات مع ستالين

ان أقل ما يتوجب قوله في هذا الفصل هو انه يقدم صورة حية عن الديكتاتور في مرحلة الانحدار ، وعن التلق الذليل والنفاق اللذين كانت تمارسها حاشيته ، بمن فيها خروشوف . ولا يغيب عن بالنا ان خروشوف في هذه المرحلة كان منشغلاً في صراع محموم مع مالنكوف . وكان يناضل لنيل خطوة ستالين إلى أقصى حد . ان كل من يشكك في هذه الحقيقة الأساسية عليه بقراءة «أحاديث مع ستالين» بقلم الناشر اليوغسلافي ميلوفان دجيلاس . فهنا يظهر دجيلاس ستالين بين قواده «وأقرب أقرانه» باكرافي ١٩٤٧ . «مرقزم قبيح المنظر عبر القاعات الإمبراطورية الرخامية المطلية بالزخارف فانفتح ممر أمامه ، ولا حفته النظرات المشعة المعجبة ، بينما أصاحت آذان رجال البلاط لا لتقاط كل كلمة منه . أما هو ، فانطلاقاً من ثقته بنفسه وبمنجزاته ، بدا واضحاً أنه لا يأبه لكل هذا . كانت بلاده خربة ، وجائعة ، ومنهكة . الا ان جيوشه وقادته ، اثقلتهم السنة واسكرتهم الفودكا والنصر اذ كانوا قد اجتازوا بسابك خيلهم نصف اوروبا حتى الآن ، وكان هو مقتنعاً بأنهم سوف يأخذون نصفها الآخر في الجولة القادمة . كان يعلم بأنه أعنى شخصية

في التاريخ وأشدها طغياناً . غير ان ذلك لم يكن يقلقه ، لأنه كان مقتنعاً بأنه ينفذ ارادة التاريخ » .

ثم ان وصف دجلاس لسلوك ستالين يطابق وصف خروشوف . في ١٩٤٧ كان ستالين لا يزل قوياً ومفرطاً في اعتداده . وخروشوف يظهره كذلك في مرحلته الأخيرة - مرحلة تقزم شخصية اثيلا إلى رجل متقدم في السن ومتهدم ، يسمى جاهلاً لتحطيم أقرب زملائه قبل ان يعددوا هم إلى تحطيمه ، وهو يعيش على خوف تسرب السم إلى مطبخه . أما الرفاق ، بمن فيهم خروشوف ، فقد توافقوا على حكمة ؟ من الطبيعي جداً في العالم القائم أن يخفض المرء جناحه ويعزف عن مقاومة مظالم اللحظة الراهنة وشرورها .

كانت تلك السنوات الاخيرة مع ستالين اياماً عصيبة . فقد توقفت الحكومة فعلاً عن العمل ، واختار ستالين مجموعة صغيرة ابقاها على مقربة منه في كل الاوقات . ثم كانت هناك مجموعة أخرى من الناس لم يكن يدعوها طوال فترة غير محدودة عقاباً لافرادها ، وكان اي منا يجد نفسه بين هذه الفئة اليوم او ضمن تلك الفئة الاخرى غداً .

وبعد المؤتمر التاسع عشر انشأ ستالين من بين اعضاء البرزديوم الحدود بلحاناً لتتبع مختلف القضايا على نطاق واسع . غير انه تحقق عملياً ان هذه اللجان لم تكن فعالة ، نظراً لاضطرار كل من اعضائها اتباع وسائله الخاصة . فلم يكن ثمة مرشد يوجهها ، ولا عين احد لها ما يتوجب عليها القيام به ، فهامت على وجهها تختار هي ما تشاء دون اي تنسيق او تخطيط . فكان كل واحد في الجوقة يعزف على آله عندما يطيب له العزف .

وكنا عادة نلتقي معاً في اجتماعات المكتب السياسي على النحو التالي : لم تكن هنالك اجتماعات رسمية بالمعنى الحقيقي . الا انه عندما كان يأتي ستالين إلى المدينة من منزله الريفي (الداشا القرية) حيث يسكن ، كان يوجه الينا الدعوة عبر سكرتيرية اللجنة المركزية . وكنا نجتمع اما في مكبه في الكرملين ، او غالباً في قاعة السينما في الكرملين . وكنا نشاهد الافلام السينمائية ونتباحث في مختلف القضايا في فترات الاستراحة . وكان ستالين ينهض من قيلولته بعد الظهر في نحو الساعة السابعة او الثامنة مساءً ويتجه إلى الكرملين . وكنا نقابله هناك . وكان يختار الافلام بنفسه . وكانت تلك الافلام في الغالب يصح وصفها بالافلام التذكارية ، وكنا نأتي بها من الغرب . والعديد منها اميركي . وكان ستالين يحب افلام الكاوبوي بصورة خاصة . كان يشتم هذه الافلام ويعطيها التقييم الايديولوجي المناسب لكنه كان يطلب على الفور المزيد منها . ولم تكن على هذه الافلام ترجمة مطبوعة ،

ولذا كان وزير السينما بولشاكوف يترجمها لنا بصوت عال . وكانت الافلام متنوعة اللغات الاوربية الاميركية ولم يكن في الواقع الوزير يعرف ايها منها ، الا انه كان قد أخبر بعقدة الفيلم مسبقاً ثم يبذل جهداً مضنياً لحفظ تلك العقدة غيباً ، وبعد ذلك « يترجم » الفيلم لنا . وغالباً ما كانت ترجماته مدار تعليقاتنا الفكاهية وكان ابرعنا في ذلك بيريا . وكان بولشاكوف في معظم الاحيان يفهم العقدة خطأ فيوضح لنا ما يستطيع اي منا ان يشاهده بوضوح على الشاشة . كأن يقول مثلاً : « انه الآن يغادر الغرفة .. انه الان يقطع الشارع » . وعندها كان بيريا يمد له يد المساعدة قائلاً : « انظر ! لقد بدأ يعدو ! انه يركض الآن ! »

ولم يكن ستالين يذهب إلى اية قاعة سينما الا تلك التي في مسرح الكرملين ، وكانت آلة الاضاءة فيها متخلفة حتى عن ذلك الزمن . ولم تعد القاعة الان تستخدم كصاله عرض سينمائي . وكنا نشاهد كل انواع الافلام من المانية وانكليزية وفرنسية واميركية . ومن بلدان اخرى كذلك . وكانت لدينا محفوظات من الافلام ضخمة . وعلى العموم لم تكن تعجبنا هذه الافلام كثيراً .

واذكر اننا ذات مرة شاهدنا فيلماً تاريخياً قائماً رديئاً انتج في بريطانيا . ويحكى الفيلم قصة كنز تقرر نقله من الهند إلى لندن ، وكان هناك قراصنة اسبان على طول الطريق يغيرون على السفن البريطانية ويقتلون بحارتها . وعندما حان الوقت لنقل الكنز ، تذكر الانكليز ان في احد سجونهم واحداً من قادة القراصنة . وكان هذا متوحشاً وجريئاً وماكراً ، فقرروا ان يسألوه ان كان يقبل تولي نقل الكنز من الهند ، ورد القرصان (القبطان) بانه يقبل شرط ان تترك له حرية اختيار طاقمه بين القراصنة الآخرين الذين هم معه في السجن . ووافق الانكليز واعطوه سفينة فتوجه إلى الهند حيث حمل الكنز ، وفي طريق العودة شرع يتخلص من القراصنة الملاحين واحداً تلو الآخر . واتباع الاسلوب التالي : ان يضع صورة الضحية المقبلة في مقصورته حتى يذكر نفسه بالأمر . وعندما يتخلص من هذا الشخص ويرميه في البحر يعود فيضع صور ضحايا المستقبل ... وهكذا دواليك ، واعتقد ان الفيلم ينتهي بتصفية القرصان القائد نفسه . ويقولون ان هذه كانت قصة حقيقية . وفيما كنا نشاهد الفيلم ونعائين خيانة هذا القبطان ، تذكرنا كيف ان الناس الذين يعملون حول ستالين غالباً ما اختفوا . وأخذت تطاردنا الفكرة التالية : « ألم يكن اعداء الشعب يقتلون بهذه الطريقة ؟ »

وكانت العادة انه عندما ينتهي الفيلم ينهض ستالين ويقول : « حسناً ، فلنذهب ونتناول شيئاً من الطعام ، لم لانفعل ذلك ؟ » وكثيراً لم نكن حينذاك جاعين ولم نكن نريد ان نأوي الى النوم متأخرين لان لدينا عملنا في الصباح . أما

ستالين فلم يكن لديه عمل في الصباح ولم يكن ليأبه لنا . وكان الجميع يحيون بنعم ويقولون انهم جاثعون ، وهذه الكذبة الجماعية عن الجوع كانت بمثابة رد فعل لا ارادي . فتركب سيارتنا ونتوجه إلى منزله الريفي .

كان بيريا ومالكوف يركبان عادة سيارة ستالين ويتوزع الباقون منا حسب اختيارهم . أما أنا فكنت اركب إلى جانب بولغانين . وكانت قافلنا تتخذ طريقاً لها من الشوارع الجانبية . وكنت غالباً أسأل الذين يركبون مع ستالين : « لم قمتم بهذا الانحراف في سيركم ؟ » وكانوا يحيون « لا تسألنا . فنحن لم نقرر الطريق . ستالين بنفسه اختار الشوارع التي سنجتازها » . ويبدو ان ستالين كان يملك خريطة لشوارع موسكو ، فكان يسلك طريقاً مختلفة كل مرة . ولم يكن يخبر حتى حراسه عنها . ولا يحتاج الأمر إلى كبير عناء حتى يفهم على حقيقته . فتالين كان يتخذ تدابير احتياطية لخداع اعدائه المفترضين اذا ما خططوا لاغتياله . اما بالنسبة للكرملين فلم يكن مسموحاً لاحد ولوجه في تلك الايام . وكان المبنى الذي يقع فيه المسرح مغلقاً في وجه الجميع الا الذين يصطحبهم ستالين شخصياً معه .

وفي كل مرة كنا نذهب إلى المنزل الريفي كنا نتهامس حول ازدياد الاقفال مرة بعد أخرى . وكانت البوابة الرئيسية تغلق بكل انواع المزالج كما كانت هناك حواجز . وكان ثمة سوران وضعت بينهما كلاب حراسة ، بالإضافة إلى جهاز انذار كهربائي وكل انواع اجهزة الامان الأخرى . وانني اشعر بان هذا كان أمراً طبيعياً إلى حد ما ، لان ستالين ، في المنصب الذي يحتله ، كان هدفاً مغرياً لأي عدو من اعداء النظام السوفياتي . ان هذه مسألة لا تتحمل المزاح ، ورغم انه كان من الخطر جداً على اي منا ان يحاول تقليده في هذا المجال .

وعندما كنا نصل إلى « الداشا » كانت « الجلسة » ، اذا صح تسميتها كذلك تستأنف . وهذا النظام للعمل ، اذا صحت التسمية ايضاً ، اتبع منذ الحرب حتى وفاة ستالين . فلا اللجنة المركزية ولا المكتب السياسي ، ولا مكتب البرزيديوم كان ينعقد بانتظام ، لكن اجتماعات ستالين المنتظمة مع دائرته الداخلية (عادة ، مالكوف وبيريا وبولغانين وخروشوف) كانت تسير مثل الساعة . فاذا مضى يومان او ثلاثة ولم يستدعنا ، كنا نعتبر ان شيئاً حدث له . كان يعاني من الوحدة بصورة رهيبه . وكان بحاجة إلى ان يكون الناس حوله طول الوقت . وعندما يستيقظ في الصباح كان يستدعينا على الفور ، ويدعونا اما إلى مشاهدة فيلم او يشرع في محادثة يمكن انهاؤها ، في دقيقتين ، لكنه كان يمدّها بحيث تبقى معه وقتاً أطول . وكانت تلك اوقات فراغ وتسليه بالنسبة اليّنا ، وصحيح ان شؤون

الدولة والحزب احياناً كانت تقرر في هذه الاجتماعات ، الا اننا كنا نصرف جزءاً من وقتنا في التسلية . الأهم كان ان نشغل اوقات ستالين حتى لا يعاني الوحدة . كان مغتماً من الوحدة وكان يخافها .

كان يشعر بخوف عميق يتخطى حتى مجرد ما تبعته فيه الوحدة او امكان نجاح اعدائه في نصب كمين له على طريقه إلى « الداشا » . فعندما كنا نتناول الطعام معه لم يكن يلمس اي صحن او زجاجة قبل ان يكون شخص آخر تذوقها . وهذا يظهر انه كان في اقصى حالات الملح والريبة . ولم يكن يثق حتى بالاشخاص الذين كانوا يخدمونه طول سنوات كثيرة ، والذين كانوا دون ريب مخلصين له كلياً . لم يكن يثق باحد على الاطلاق . وعندما كنا نتناول العشاء عند ستالين كانت تقدم دوماً لنا صنوف الطعام المفضلة عنده ، وكان الطباخون يجيدون طهيها . فكانت اصنافاً لذيدة المذاق . غير انه كان مفروضاً علينا ان نأكل على النحو التالي : لنقل ان ستالين اراد ان يأكل شيئاً ، فكان يعين لكل منا صنفاً من الطعام يتذوقه قبل ان يشرع هو بتناوله .

فكان يقول مثلاً : « نيكيتا ، هاك بعض القوانص ، هل جربتها ؟ » ثم يقول : « انظر . هاك بعض الرنكة (نوع من السردين) » . وكان الرنكة يوضع على المائدة من دون ان يملح بحيث يملحه كل حسب رغبته . وكان علي ان اتذوقها اولاً ثم يأخذ ستالين حصته . وهكذا دواليك في كل صنف . وكان لكل صنف واحد منا مكلف بتذوقه ليتأكد من انه مسموم ام لا .

وكان بيريا الوحيد الذي لم يكن مفروضاً فيه ان يتذوق . لقد استثنى من ذلك لان بيريا كان يأمر باحضار طعامه الخاص من منزله ، وكانت خادمة ستالين العجوز ماتريونا بيروفنا تخدم بيريا وتقول بصوتها ذي الخنة « حسناً ، ايها الرفيق بيريا . هذا هو عشبك » . وكنا نضحك عالياً كلما قالت ذلك . والواقع ان بيريا كان يكثر من أكل الخضار كما يفعل اهل آسيا الوسطى ، وحياناً كان يدفع الطعام في فمه باصابعه رغم انه كان بين الفينة والفينة يستعمل الشوكة . كانت هذه المآدب مرعبة . كنت احاول خلال النهار عادة ان اخذ قسطاً من الراحة ، بعض القيلولة . اذ ان الخطر من انك اذا لم تنم قليلاً ثم دعاك ستالين إلى العشاء ، فان النعاس قد يدب فيك وانت جالس إلى المائدة . والذين كان يأخذهم بنعاس وهم إلى مائدة ستالين كانوا يواجهون نهايات سيئة . وغالباً كانت هناك ايضاً نوبات شراب مفرطة . واذكر ان بيريا ومالكوف وميكويان كانوا يطلبون من الخادومات ان يقدمن لهم مياهاً مصبوغة بدلا من النبيذ ، لانه لم يكن باستطاعتهم مجاراة ستالين في الشراب .

كان ثمة افراط في الشراب على مائدة ستالين منذ ما قبل الحرب . وكان كل من شيرباكوف وجدانوف قبل وفاتهما من اكثر المسيئين في تصرفاتهما المبتذلة الكريهة - كما كانا الضحيتين الاولين لتلك التصرفات . ومرة تهادى شيرباكوف إلى حد التعريض للتدبير الذي اتخذه بيريا ومالكوف وميكويان مع الخادما ت ليقدمن لهم الماء الملون بدل الحمر ة . وعندما ادرك ستالين انه كان يخدع ، ارغى وازبد وانفجر بصاعقة من الغضب .

وقابلنا جميعاً تصرف شيرباكوف بالامتناع والاستنكار ، الا اننا لم نكن نستطيع قطعاً الاعراب عن ذلك علناً . وانهى شيرباكوف نفسه بالسكر حتى الموت . ولم يكن يشرب لانه مولع بالحمر ة ، بل لمجرد ارضاء ستالين الذي كان يتسلل بروية الناس حوله وقد اصبحوا ثمالى يتردون في اوضاع محرجة وحتى مخزية احياناً . وكان يجد في اذلال الآخرين متعة تروق له . واذكر ان ستالين جعلني ذات مرة ارقص الغوباك (رقصة اوكرانية شعبية) امام بعض كبار المسؤولين في الحزب . وكان علي ان اجلس القرفصاء على وركي وارفع قدمي في الهواء ، وهو امر اقول بصراحة انه لم يكن سهلا علي . لكن كما قلت في ما بعد لميكويان : « عندما يقول ستالين ارقص ، فان الرجل الحكيم يرقص » . وفي تلك العشاءات الطويلة الباعثة على السأم ، كان ستالين يفرقنا بالحكايات . لن انسى ابداً كيف وصف لنا نفيه الأول . وقد ساعدتنا تلك القصة على فهم سر افراطه في الشرب . فقد ارسل إلى اقليم فولوغدا ، حيث كان قد بقي عدد من المحكومين من مجرمين وسياسيين . وكان ستالين يقول : « كان بين المحكومين من المجرمين اناس طيبون . وكنت اتجول معظم الوقت معهم . وكنا ندخل إلى حانات الخمر في البلدة ونشرب بكل كوبيك نملكه . وكنت ادفع انا مرة ثم يدفع آخر مرة ثانية ، وهكذا دواليك . وكان المحكومون المجرمون طيبين ، كانوا ملح الارض . لكن كان هناك الكثير من الجرذان بين المحكومين السياسيين . وذات مرة نظموا محكمة رفاقية وقدموني إلى المحاكمة بسبب تناول الشرب مع المجرمين العاديين ، وقالوا هذه مخالفة » .

ولا اعرف اي نوع من الحكم اصدرته محكمة الرفاق على ستالين . لم يجرؤ اي منا ان يسأله . اكتفينا بتبادل النظرات . وبعد خروجنا من عنده تبادلنا الملاحظات مثل « هل رأيت ؟ حتى في فتوته كان يميل إلى الافراط في الشراب . ان هذا بالوراثة على الأرجح » . وكان ستالين قد اخبرنا قصصاً عن ابيه . قال ان والده كان صانع احذية وكان يشرب كثيراً . كان يقول ان والده كان يشرب إلى درجة انه اضطر إلى بيع حزامه من أجل بعض الكحول . والمعروف

ان الحيورجي لا يبيع حزامه الا اذا كان في حالة يائسة . وقال ستالين : « باع والدي حزامه مرات عدة ، وعندما كنت لا ازال في المهد كان يغمس اصبعه في كأس من اللبن ويجعلني امصها . كان يعلمني ان اشرب حتى وانا في المهد » . لا اعرف ماذا كتب في سيرة ستالين عن ابيه غير انني اذكر انه في بداية تحمله للمسؤوليات سرت شائعة تقول ان والده لم يكن عاملاً ولا صانع احذية بسيطاً ، بل كان يملك مشغلاً يعمل فيه على الاقل عشرة مستخدمين بأمرته . وبالنسبة لتلك الايام كان ذلك مشروعاً كبيراً . ولو ان مثل هذه الحقيقة كشفت خلال حملة التطهير فيما يتعلق بسيرة اي شخص عدا ستالين ، لكان اخضع لتحقيق يجعل عظامه تصطك رعباً . كان الناس كثيري الفضول حول ماضي المرء قبل الثورة . واذا اكتشف انك تأتي من خليفة غير عمالية ، كنت تعتبر مواظن درجة ثانية . ان هذا الموقف بالامكان تفهمه . ان الطبقة العاملة هي اكثر طبقات المجتمعات ثورية واكثرها استقراراً . لقد حملت هذه الطبقة على منكبيها ثقل سائر الطبقات الاخرى عبر التاريخ . من هنا ان موقف الناس ازاء اية طبقة عدا البروليتاريا كان دوماً يكتفه التحسب والانتقاد .

وكان ستالين يجربنا نخطاً آخر من القصص . قال ذات مرة :

« ذهبت في يوم من ايام الشتاء إلى الصيد . اخذت بندقيتي واجترت نهر البانييسي على اداة التزلج . قطعت اثني عشر فرسخاً (نحو ثمانية اميال) ، وشاهدت بعض الحجل في شجرة . ولا صدقكم القول لم أكن اعرف ان ما شاهدت حجلاً . كنت قد اصطدت حجلاً من قبل ولكنني كنت دوماً اعتقد انها تصطاد في الحقل وانها لا تعلو عن العشب . كان معي اثنا عشرة خرطوشة ولكن ثمة اربع وعشرون حجلاً . فقتلت اثني عشر حجلاً واستمرت البقية جالسة هناك . فقررت الرجوع لاستجلاب المزيد من الخرطوش . ورجعت فعلاً وجلبتها ثم عدت » . وكنا في تلك اللحظة بانتظار ان يقول اي شيء . فقال « وصلت وكانت الحجال لم تزل جالسة تنتظر » . فاعترضت سائلاً : « ماذا تعني بانها لم تزل جالسة تنتظر ! هكذا تماماً » . قال : « كانت لم تزل جالسة تنتظر » ، فأصر بيريا عليه بالمضي في قصته ، « قتلت الحجال الاثني عشر الباقية ، وأخذت سلكاً وربطتها به ثم اوثقتها إلى حزامي وسرت بها إلى البيت » . بعد العشاء بينما كنا نغسل ايدينا قبل الانصراف ، أخذنا نبصق في الحمام باحتقار . هكذا اذن قطع اثني عشر فرسخاً في يوم ماطر ، وقتل اثني عشر حجلاً ، وعاد قاطعاً اثني عشر فرسخاً اخرى ذهاباً واياباً ، ثم قتل اثني عشر حجلاً أخرى ، وعاد إلى بيته مجتازاً اثني عشر فرسخاً أخرى — النتيجة ثمانية واربعون فرسخاً

قطعها على اداة التزلج ! وقال بيريا : « اسمعوا ، كيف يستطيع شخص من القوقاس لم يتح له الحظ من قبل ان يتزلج ، ان يقطع مثل هذه المسافة ؟ انه يكذب ! » بكل تأكيد كان يكذب . ولم يكن يخامر احدنا ادنى شك بذلك . واني لا اعرف الحافز الذي دفعه إلى ذلك . لعل دافعاً داخلياً كان وراء ذلك . كانت هذه القصة بالذات اكذوبة مسلية ولم تعد على القضية بأي ضرر ، ولكن ستالين كان يكذب في محادثات اكثر جدية كذلك . اما بلجهة ادعاءاته عن مهاراته في الرماية فقد انكشف انه لم يكن بإمكانه التصويب على الاطلاق ، فكيف يقتل اربع وعشرين حجلاً باربع وعشرين خرطوشة . فذات مرة حمل بندقية صيد عندما كنا نتناول العشاء وخرج ليطارد رفاً من الدوري . لكن نجاحه اقتصر على اصابة احد حراسه خطأ . ومرة اخرى كان يقبل مدساً فانطلق منه الرصاص وكاد يقتل ميكويان الذي كان يجلس إلى جانبه . وادى انطلاق الرصاصة إلى انتشار الحصى على الطاولة وعلى ميكويان . لم يتفوه احد بكلمة ، لكننا جميعاً اصبنا برعب شديد .

واذا كان ثمة ما هو اسوأ من تناول العشاء مع ستالين ، فانه كان تمضية العطلة معه . ان تناول العشاء معه او الذهاب إلى العطلة بصحبته ، هو دون ريب لشرف عظيم . الا ان ذلك كان ايضاً جهداً جسدياً رهيباً . ولو ان بإمكان الناس ان يتصوروا اية محنة على المرء ان يتحمل واية مرارات عليه ان يتلع للحفاظ على العلاقات الطيبة ولاظهار جو الود والصدقة رغم كل شيء . كان لا بد من هذه التضحيات . ولكن لهذه الآلام ثمن . فالمحادثات كانت تجري على قدم وساق ، وبالإمكان دوماً استخدامها لفائدتك والوصول إلى استنتاجات مفيدة منها لمصلحتك . بعد شروعي في العمل في موسكو ، أخذ ستالين يدعوني غالباً لمرافقته عندما يذهب إلى القوقاس لتمضية العطل . وهذه الدعوات المتابعة كانت جزءاً من مخاوفه من الوحدة . ولا بد ان يكون ستالين أحبني بصورة خاصة ، لأنه قبل ان يذهب إلى عطلة كان غالباً يدعوني قائلاً : « فلنذهب جنوباً . انك بحاجة إلى عطلة ايضاً » .

وأجيب : « حسناً . يسرني ان اذهب معك » . وواضح انني كنت افضل الا اذهب ، لكن لم يكن من المعقول ان يفكر المرء بالرفض . فكنت اذهب واعاني الآلام . وذات مرة امضيت شهراً كاملاً في اجازة معه . وضعني في الغرفة المجاورة لغرفته تماماً . كان ذلك عذاباً لي شديداً ، وخصوصاً تناول الوجبات التي لا تنتهي . كلما قدمت على مذبح دعواته ، كان بيريا يقول لي : « احذنا يجب ان يتألم ، ولا يمنع ان تكون انت » .

كان ستالين يمضي ، عادة ايام عطلة في سوخي ، وكان يسمح لفوروشيلوف ان يأتي إلى سوخي اكراماً للايام الماضية . وكان فوروشيلوف وزيراً للدفاع وذا حظوة عند ستالين . وقد بنى لنفسه منزلاً ريفياً كبيراً على غرار قصر ليفاديا (في بالطا) .

ومرة كنت امضي اجازة وحدي في سوخي ، وكان ميكويان في مكان آخر — في سوخومي على ما اعتقد . واتصل بنا ستالين هاتفياً من منتجعه في بورزومي . واعتقد انها المرة الوحيدة التي امضي اجازته هناك . وكان قد استدعى جميع الذين يمضون اجازات في القوقاس بالاضافة إلى بيريا الذي كان انذاك في عمله في موسكو . تجمعنا كلنا في بورزومي . وكان البيت كبيراً ولكنه فقير التجهيز . وقد سبق ان كان متحفاً . وبالتالي لم يكن ثمة غرف ، فكنا ننام في قاعة واحدة . كان ذلك رهيباً . وكنا نعتمد على ستالين في كل شيء . وكان لنا منهج يومياً يختلف عن منهجه . ففي الصباح ننهض ونذهب في نزهة مشياً على الاقدام ، فيما يكون ستالين لا يزال يغط في نومه . ثم عندما ينهض يبدأ نهارنا رسمياً .

وفي احد الايام استدعانا ستالين اليه وقال : « ان راكوزي (الديكتاتور المجري ماتياس راكوزي) جاء لتمضية عطلة في القوقاس . لقد اتصل بي وطلب أن آذن له » . وماذا بعد ذلك ؟ فهذه لم تكن المرة الأولى التي يأتي فيها راكوزي إلى القوقاس لتمضية العطلة . لكننا بقينا صامتين . واضاف : « من الافضل ان يتصل احدكم براكوزي ويقول له ان يأتي إلى هنا » . واتصل أحدنا براكوزي هاتفياً . وعندئذ قال ستالين : « كيف يعرف راكوزي دائماً بمجيئي إلى القوقاس ؟ الظاهر ان نوعاً من جهاز الاستخبارات يبلغه ، يجب ان نمنعه من ذلك » . وهكذا سقط راكوزي إلى قائمة المشبوهين . وفي الواقع لم يكن لغزاً كيف كان يعرف راكوزي بمجيء ستالين إلى القوقاس . كل ما كان عليه فعله هو ان يتصل هاتفياً بسكرتيرة اللجنة المركزية ليسأل عن ستالين فتقول له انه في عطلة في القوقاس . هذا كل ما في الامر ، والارجح ان هذا ما كان يحصل بصورة عفوية . عندما وصل راكوزي انضم إلينا على العشاء واخذ يشارك في حفلات الشراب . ومرة قال : « اسمعوا ، ماذا يجري هنا ؟ ما هذا السكر كله الذي استفحل امره بينكم ؟ » ان كل ما فعله راكوزي هو تسمية الاشياء باسمائها ، وكنا نعرف في قرارة نفوسنا انه على حق ، ولكن كان كل واحد منا قد استنبط الذرائع والمبررات لسلوكه . ان احداً منا لم يكن يجب هذا النمط من السلوك والعيش ، لكننا مع ذلك اعتبرنا قوله هذا اهانة . وابلغ بيريا ستالين ان راكوزي قد وصفنا باننا زمرة من السكرارى ، فأجابه ستالين : « حسناً . سنرى ما تفعل بهذا الشأن » .

وفي تلك الليلة بالذات بدأ ستالين يصب الحمرة لراكوزي : زجاجتان او ثلاث من الشمبانيا ولا ادري كم من النبيذ . واستطاع الرجل ان يصمد بطريقة ما ، لكنه سافر في اليوم التالي . وكان ستالين طول ذلك النهار في مزاج جيد ، يضحك ويمزح ويقول : « هل رأيتم في اية حال وضعته ؟ » .

وبقي ستالين هناك لبعض الوقت . واستبقانا انا وميكويان لفترة اطول حتى نبقى في رفقته . واخيراً هربنا وذهبنا إلى منازل عطلتنا الخاصة .

وكان ستالين يستضيف عندما يكون في القوقاس ، رجالا متقدمين في السن من اقرانه الذين عرفهم في طفولته . واذكر من بينهم عاملا في سكة الحديد كان ستالين يخصه بعطف خاص . وبدا انه كان شخصاً طيباً وصادقاً . وكان شيوعياً . أخبر ستالين مرة عن الحالة السيئة المتفشية بين الجبل الحديد في جيورجيا . ذلك ان الشبان عندما يختمون دراساتهم كانوا يعجزون في الحصول على عمل مناسب في جيورجيا ، وفي الوقت نفسه لا يرغبون في مغادرتها . فكانوا اما يتسكعون دون عمل ، او يبدأون بالسعي وراء الربح الفاحش عن طريق التجارة الفردية . وكان هذا الامر شائعاً في جيورجيا ولكنه كان خيراً جديداً على ستالين ، وخيراً سيئاً . وقال لي فيما بعد : « هل تعلم ماذا يجري في جيورجيا ؟ ان الشبان اما يتسكعون او يتعاطون الربح الفاحش ؟ انه لأمر يدعو إلى الاشمئزاز والاستنكار » .

وكان بيريا هو الزعيم في جيورجيا . وقد مضت عليه سنون وهو سكرتير اللجنة المركزية في جيورجيا ولكنه كان مصدر الاعلام الوحيد لستالين عن جيورجيا ، موطنه . وكان بيريا في الواقع قد حجب عن ستالين كل ما يجري في جيورجيا ، ولكن الاخبار تسربت الآن إلى ستالين فاقضت مضجعه وأثارت غضبه .

ومما لا ريب فيه انه كان من الواجب مكافحة عدم الكفاءة في جيورجيا والنقص العديدة الاخرى ، ولكنني ارفض ان أعزو ذلك إلى اخطاء قومية في الجيورجيين انفسهم . فالمشكلات هذه كانت حصيلة ظروف الحياة في جيورجيا . ان جيورجيا هي زاوية الاتحاد السوفياتي التي يطل منها على الجنة . فهي ذات مناخ دافئ ، مثالي لمواسم الليمون والكرمة . وفيها كذلك غوايات انسانية عديدة . فمن الطبيعي ان يجد الجيورجي العادي صعوبة في ترك هذه الجنة ، فتتشأ الاغراءات لسلوك مسلك الربح الفردي الفاحش . وكانت هذه المثالب المتشرة بسرعة بين العناصر غير المستقرة في جيورجيا بالامكان انتشارها في اي شعب يعيش الظروف نفسها . ولطالما سمع حراسي يتذمرون : « الجيورجيون في كل مكان ويستغلون كل شيء » وكنت دوماً اقول لهم لو كان الروس يعيشون في جيورجيا لفعلوا الشيء نفسه .

واذكر انه بعد مضي بضع سنوات علي في القيادة شرع الجيورجيون يتعاطون التجارة باوراق شجر الكستناء . فقلت لف . ب . مزافانادز (رئيس جيورجيا من قبل خروشوف) وللقيادة القرميين ان يثبتوا بان اشجار الكستناء لا تزرع الا في مزارع الدولة . وهم يقولون لي الآن ان التجارة باوراق الكستناء انتفت كلياً منذ ذلك التدير .

ومن الطبيعي ان تنشأ اغراءات لتحصيل بعض المال الاضافي . وهذا هو مصدر حصول الاستغلال ، فهي ليست مسألة قومية بل واقعة من وقائع الحياة . واذا تاجر وضارب الجيورجيون بالخضار فعلى الدولة ان تزرع الخضار عندها ، بحيث تضع على المضاربين فرصة الربح من هذه التجارة ، ببيع الخضار في موسكو . وذلك بان تصبح الخضار أجنس ثمناً باننتاجها في مزارع الدولة . وعندما تكافح التجارة غير المشروعة ، فان الامة الجيورجية كلها يشرفها ذلك ، وينتفي عن الجيورجيين في موسكو صيت الاستغلال والتجارة . الا ان ستالين لم يكن يفكر على هذه الأسس المعقولة البناءة في ايجاد الحلول للمشاكل . بل كان يعتقد ان معالجة مشكلة الربح والاستغلال في جيورجيا انما تكون بالتدابير الادارية ، وهذا يعني اعتقال الناس ونفيهم .

الخوف والمكاند في دائرة ستالين الداخلية

هنا يقدم خروشوف المزيد من الأمثلة عن عقدة جنون الاضطهاد والا انتقام عند ستالين ، والتي تعود بالأكثر إلى سنوات الحرب ، حين كان يبدو الجنراليسيمو الرابطذ الجأش الهادىء الطباع . إلا ان الذي يغيب عن هذا الرد ، عدا بعض لمعات قليلة في هذا الاتجاه ، هو فهم للمزايا التي مكنت ستالين من المحافظة على هدوئه والبحث على مستوى رفيع مع تشرشل وروزفلت . هنا أيضاً في هذا القسم نجد لمحات ، معظمها تناول بيريا ، تكشف المكاند التي كانت تجري على قدم وساق بين أقرب المقربين إلى ستالين ، والنادرة المروية هنا عن الطاهي الجيورجي هي بمثابة فاصل هزلي رائع .

اذكر حادثاً مذهلاً وقع عندما امضى ستالين عطلة في افون عام ١٩٥١ . فقد استدعاني من موسكو كما استدعى ميكويان من سوخومي . وذات يوم كنت وميكويان ننتزه في الخارج فاذا بستالين يبرز من شرفة المنزل . وبدا انه لم يلحظ وجودنا ، ميكويان وانا . وردد لنفسه « انتهيت . انني لا اثق باحد . حتى

ولا بنفسني « . كان هذا اعترافاً مذهلاً . كنا قد عاينا شكه هذا في الناس امدأ طويلاً ، ولكنه الآن جاء يعترف به وبهذا الاسلوب الخامس .

يمكن تصور صدور مثل هذا التصريح من انسان في يديه مقدرات البلاد وله تأثيره على مصير العالم ؟ ان يشك المرء بالناس ، فهذا شأنه ، واما ان يذهب المرء إلى ازالة كل من يشك بهم فذاك أمر آخر بالغ الخطورة .

كنا جميعاً نحن الذين حوله اناساً ظرفين . فما دام يثق بك إلى حد معين ، فيسطل في امكانك ان تعيش وتعمل . لكن في اللحظة التي يتوقف عن الثقة بك ، عندها يأتي دورك فتصبح في عداد الموتى . ذلك كان المصير المحتمل لكل الذين يتبعونه ويكافحون إلى جانبه في صفوف الحزب ونصلحة الحزب . والكثيرون من هؤلاء ، ومن أشد رفاق ستالين ولاء ، قد ازيلوا . وان كامينف وزينوفيف لملان صالحان على ما اعني . لست اعرف بالتحديد نوع العلاقات التي كانت تقوم بين ستالين وتروتسكي في المرحلة المبكرة بعد الثورة ، فقي وصيته المكتوبة قبل وفاته ، يقول لينين ان تروتسكي لم يكن قط ماركسياً ، بينما توفرت في ستالين المواصفات الضرورية ليكون ماركسياً حقيقياً (١) . الا ان لينين قال ايضاً ان ستالين ليس رجب الصدر ، ومتقم . ان هذا الاعتراف الذي صدر عن ستالين في افون جعلنا نفد ببصائرنا عبر الستار الذي حجب بعض اسباب المأساة التي حلت بالحزب والبلاد في ظل قيادته . وقد طال حكمه فترة طويلة ، وطويلة جداً . لقد فقد الكثيرون من الشرفاء والابرياء رؤوسهم في ظل ستالين .

في ايامه الاخيرة ، كنا غالباً ما نلتقي ستالين كجماعة — بيريا ، ومالكوف وبولغانين وانا . ولم يكن بولغانين يحضر دوماً جلسات العشاء التي تنعقد فيها حلقتنا الداخلية . وعاماً بعد آخر كان يزداد وضوحاً ان الوهن حط بستالين عقلياً وجسدياً . وبدأ هذا بوضوح في الخسوف الذي كان يمر به عقله وفي تضعف ذاكرته . وعندما كان لم يزل في حالة جيدة ومتزنة ، كان قائداً هائلاً ، ولكنه الان يشارف على الانهيار بسرعة .

وذات مرة استدار نحو بولغانين وبدأ يقول له شيئاً لكنه لم يستطع ان يتذكر اسمه . فطلع اليه ستالين بتركيز ثم قال : « انت هناك ، ما اسمك ؟ »

(١) كان تروتسكي دون ريب منشيفيكياً لسنوات قبل انضمامه للبلاشفة . وكمشتيفيكى سابق لم يكن يصنف في نظر لينين بالماركسي الحقيقي . ولم يقل لينين شيئاً في وصيته التي يلمح اليها خروشوف ، ان تروتسكي لم يكن قط ماركسياً .

— بولغانين .

— بالطبع بولغانين . هذا ما كنت اريد ان ا قوله . وكان ستالين يغضب كثيراً عندما يحدث مثل هذا الأمر . لم يكن يريد للاخريين ان يلاحظوا . ولكن الأمر كان يتكرر فيدفعه إلى الحجل كلما حدث . وكان كاغانوفيتش يحضر اجتماعات حلقتنا الداخلية اقل من بولغانين : اما فوروشيلوف فلم يعد يدعى اليها تقريباً .

واستمر ستالين لمدة عشر سنوات يشك بفوروشيلوف على انه جاسوس انكليزي ، وكانت تلك بلاهة بالغة (١) . فلا استطيع ان اتصور المدى الذي يبلغه انسان في شكه بالناس حتى يصل إلى هذا الحد الاقصى . لقد عمل ستالين وحارب جنبا إلى جنب مع فوروشيلوف عدة سنوات . ان نزاهة فوروشيلوف في نظر الحزب وفي نظر الطبقة العاملة لم تكن لتخضع لادنى شك . وان تقييم عمله في وزارة الدفاع باعتباره كان غير مهياً لهذه المسؤولية وكسولا ومهملاً لا يجوز ان يختلط مع أسر ولائه ونزاهته . اذكر مرة غضب فيها ستالين فجأة في احدى جلساتنا وسأل : « لماذا تسلل فوروشيلوف كالدودة إلى المكتب (السياسي) ؟ » قلنا له « لم تسلل بل انت عيته » . فيما بعد تباحثنا بيريا ومالنكوف وانا في الموضوع وهزنا رؤوسنا عجباً من ستالين كيف يستطيع ان يقول مثل هذه الأشياء . اما كاغانوفيتش فكان اقل جاذبية من فوروشيلوف ولكنه في النشاط والاجتهاد كان كالعاصفة التي لا تهدأ . كان يعمل دون ان يرحم نفسه ولم يكن يقيم اعتباراً للوقت الذي يقضيه في العمل . كان يكرس كامل وقته للحزب ، ويسعى وراء الوظيفة . ولكن ذلك امر آخر . انني هنا اتكلم عن نمط عمله واسلوبه .

اذكر الآن كيف أخذ ستالين ذات مرة ييوح بشكوكه حول مولوتوف . كنا في الجنوب ، في افون ، على ما اظن ، عندما خطر فجأة في بال ستالين ان مولوتوف عميل للامبريالية الاميركية . ويبدو ان مولوتوف سافر مرة في الولايات المتحدة بالقطار من واشنطن إلى نيويورك . وقدر ستالين ان مولوتوف لابد ان يكون وضع في مقصورة خاصة ، فمن اين اتى بالمال ؟ اذن لابد ان يكون قد باع نفسه من الاميركيين . وشرحنا لستالين ان من غير المعقول ان يكون مولوتوف قد اقتنى قطاراً ليسافر فيه . ذلك ان كل القطارات في الولايات المتحدة تملكها شركات خاصة . ومع ذلك فقد ابرق ستالين إلى (اندريه) فيشنسكي الذي

(١) يبدو من غير المعقول ان يكون ستالين قد أخذ يفكر بأحد محاسبه القدامى ، فوروشيلوف ، على انه جاسوس انكليزي منذ ١٩٤٣ ايأ كان الرأي الذي كونه.

كان يعمل آنذاك في الامم المتحدة مستوضحاً . وبالطبع رد فيشنسكي على الفور ان مولوتوف لا يملك ، ولا يمكن ان يملك ، مقصورة خاصة او قطاراً . وبنتيجة هذه الشكوك ، كما قلت آنفاً ، جمد ستالين وضع مولوتوف وميكويان بعد المؤتمر التاسع عشر . وقد ساءنا جميعاً مصيرهما . وظننا ان ستالين يفكر بخطة ضدهما عندما لم يدخلهما في عضوية المكتب السياسي . وبعد المؤتمر شرع ستالين في انتهاج سياسة عزلة ضد ميكويان ومولوتوف .

وقد تأثرت شخصياً بابعادهما من الحلقة الداخلية إلى حد بعيد ، اذ كنت احترمهما كثيراً . وكنت اعتبر مولوتوف ذا خبرة غنية وواسعة لاسيما في شؤون السياسة الخارجية . اذ كان غالباً ما يتحدث في هذه الشؤون بحضوري فأجد في كلامه سعة الاطلاع والمنطق والقوة . من هنا كان قلقي بالغاً من ان يؤدي ابعاده إلى التأثير على نوعية العمل القيادي . كما كنت احب انتاس ايفانوفيتش ميكويان . وكنت اقدر كثيراً احكامه في القضايا الدولية كذلك ، لاسيما ما اختص منها بالتجارة الخارجية .

لكن ميكويان ومولوتوف ، بعد المؤتمر التاسع عشر ، ظلا ، أكالا لتقليد قديم يحضران كلما اجتمعنا إلى ستالين . ولم يكلفنا نفسيهما ولا مرة الاتصال بـ ستالين وطلب الأذن منه بالحضور . كل ما كانا يفعلان هو التثبت من ان ستالين هو في الكرملين او في منزله الريفي ثم يحضران بكل بساطة . وكان يسمح لهما دائماً بالدخول . لكن كان واضحاً ان ستالين لم يكن مسراً جداً برويتهما . كانا يريدان البقاء على مقربة من ستالين لأنهما ارادا انقاذ حياتهما — لا مجرد انقاذ مركزهما في الحزب والدولة . فكانا يحاولان استعادة ثقة ستالين بهما . وكنت مدركاً للخطر الذي يتعرضان له ، وكنت كلياً إلى جانبهما .

وذات يوم قال ستالين : « لا اريد ان يأتي هذان الرجلان إلى هنا بعد الآن » . وبعد ذلك تحدثنا ، ميكويان ومولوتوف وبيريا ومالينكوف وانا ، واففقنا على ان نحاول تليين موقف ستالين منهما . كما اتفقنا على اعلامهما عندما يذهب ستالين إلى المنزل الريفي او إلى صالة سينما الكرملين حتى يقابلنا هناك . ولفترة استمر ميكويان ومولوتوف يأتيان إلى دار السينما . ثم لاحظ ستالين مناوراتنا واستنتج اننا نعمل كعملاء لهما . وذلك بعد ان حقق مع معاونيه من الموظفين فتأكد انهم يلتزمون اوامره ولا يعلمون ميكويان ولا مولوتوف عن اماكن وجوده .

وذات مرة ثار صاخباً ، وهو لم يسم احدنا ولكنه كان يتطلع باتجاه مالينكوف وهو يزأر : « تعتقدون انني لا اعرف انكم تبلغون مولوتوف وميكويان موعد ذهابنا إلى السينما ؟ توقفوا عن اخبارهما اين أكون ! لن اتسامح في هذا الأمر . »

ورأينا انه لم تعد فائدة من الاصرار . فذلك لن يعود عليهما بأي نفع . وقد تتعرض مراكرنا نحن عند ستالين ، ولم يكن أحد يريد ذلك . كان ستالين مهتاجاً ، وعندما يحصل ذلك تصبح علاقتك به في مهب الريح . وهكذا دون ان نعود إلى بحث الموضوع فيما بيننا ، قررنا طيه للوقت المناسب . واني مقتنع بانه لو عاش ستالين طويلاً لكان قضي على ميكويان ومولوتوف .

اود ان اذكر شيئاً عن علاقة بيريا بستالين في اواخر حياته . في اثناء الحرب أصبح بيريا أكثر صفاقة من ذي قبل . وعندما فقد ستالين السيطرة على نفسه ابان التراجع امام الالمان ، أصبح بيريا مصدر الرعب في الحزب . وكان تزايد نفوذه واضحاً من تركيب حاشية ستالين . فعندما كنت اعود من الجبهة إلى موسكو في الحرب ، كنت الحظ ان ستالين يحاط بالجيورجيين . فكان ثمة رئيس طهارة قوقاسي يطبخ الشيشلك لستالين ، وقد رسم برتبة ماجور جنرال . وكلما كنت اجيء إلى موسكو كنت الحظ ان الاوسمة والشرائط تزداد على صدر هذا الطاهي الكبير ، ربما اعترافاً بفضله ومهارته في طبخ الشيشلك .

وذاث يوم ضبطني ستالين احدى في شرائط الطاهي واوسمته فحدجني بنظرة منه . لقد عرف بماذا افكر ، وعرفت بدوري ماذا افكر هو ، ولكن كلينا لم ينس بينت شفة . كنا جميعاً نشعر بان وجود هذا الطاهي بلباسه الرسمي المغطى بالاوسمة هو بمثابة اهانة بليغة لنا كلنا ، ولكننا لم نذكر الأمر لأن لا فائدة من ذكره . وبالإضافة إلى هذا الماجور جنرال الطاهي ، كان جيورجي آخر مسؤولاً عن تزويدنا بالخمرة وبلحم الغنم للشيشلك وبمؤن أخرى لمطبخ ستالين . وقد رسم هذا في الحرب برتبة لفتننت جنرال . وكنت الحظ كلما عدت من الجبهة ، انه هو الآخر قد منح وساماً او وسامين خلال غيبي . واعتقد ان الآخرين جميعاً من زملائي كان يثيرونهم كما اثارني هذا التصرف .

بعد الحرب أصبح بيريا عضواً في المكتب السياسي . وأخذ القلق يساور ستالين من تزايد نفوذ بيريا ، بل انه أخذ يخافه . ولم أكن اعرف في ذلك الوقت جذور هذه المخاوف . عرفتها فيما بعد وذلك عندما اكتشفت اجهزة بيريا الرهيبة لاستئصال البشر وازالتهم من الوجود .

وأدرك ستالين ان قدرة بيريا على ازالة اي شخص يشير اليه ستالين باصبعه ، انما تساعده في ازالة من يرغب هو شخصياً في ازالته يوماً من الايام . وكان ستالين يخشى ان يكون هو اول شخص يختار بيريا ان يزيله . ومن الطبيعي ان لا يفضي ستالين لاحد بهذه المخاوف ، ولكنني كنت اتبينها بوضوح . من ذلك اني كنت اتعشى معه في احد الايام بعد نهاية الحرب وفجأة تطلع ستالين حوله إلى الاشخاص

مذنين يخدمونه وسأل بغضب : « لماذا انا مطوق بالجيورجيين ؟ » وكان بيريا التحسباً للامر فوراً فقال : « ايها الرفيق ستالين ، هؤلاء الناس هم خدامك الاوفياء ، المخلصون » .

فازداد غضب ستالين : « هل يعني ذلك بان الروس ليسوا مخلصين ، وليسوا اوفياء لي » ؟

« كلا » اجاب بيريا « انا لم أقل ذلك . غير ان الاشخاص الذين اختيروا هنا هم خدام اوفياء جميعاً لك » .

فصرخ ستالين : « لا اريد ولاءهم ، اطردهم جميعاً » .

وكان بين الجيورجيين طاهي الشبلك وموظف التموين - فطردوا جميعاً وخرج بيريا من الغرفة مهزوماً .

وما ان تخلص ستالين من الجيورجيين واستبدلهم بالروس حتى بدا مرتاحاً إلى انه حال بين بيريا والتوصل إلى المطبخ عبر حاشيته . غير ان ستالين كان يتقدم في السن ولا يعرف مدى قوة بيريا الحقيقية . مثال على ذلك ان اباكوموف وزير أمن الدولة كان يرفع تقاريره إلى ستالين وهي تحتوي على ما كان بيريا قد اخبره ان ستالين يرغب في سماعه .

فضلا عن هذا ، فان بيريا كان يسيطر بصورة عملية على حاشية ستالين . حتى بعد طرد الموظفين الشخصيين الجيورجيين . . وكان بيريا قد عمل في التشيكا مدة طويلة من الزمن وكان جميع افرادها معروفين لديه . وكانوا جميعاً يحاولون جهدهم ان يحصلوا على رضاه مما يسهل له استخدام هؤلاء لاغراضه . لذلك لم يكن ستالين يثق حتى في حاشيته الروسية بما فيه حرسه الشخصي من « التشيكا » .

ان احساسه بان ستالين يخاف بيريا قد تأكد عندما لفق ستالين قضية المنغوليين . واني متأكد بصورة مطلقة بان تهمة « المؤامرة » قد لفقت بقصد الخلاص من بيريا الذي كان هو نفسه منغولياً . فقد نشر ستالين مرسوماً ينص على ان للمنغوليين علاقات بالاتراك وان بعضهم يخضع للتوجيه التركي . وبالطبع كانت المزاعم سخيفة لا اساس لها . ونظراً لتقدم ستالين بالسن ومرضه لم يكن متناسقاً في تتبع خطته ، فقلب بيريا الأمر كله لمصلحته وفرض نفسه بفطنة كرجل ستالين الذي بنفذ اوامره . لم يكن يحمره احد سواه على التدخل بقضية لها علاقة بالجمهورية الجيورجية . غير ان بيريا ندب نفسه للمهمة وذهب إلى جيورجيا وادار عمليات

القصاص ضد الاعداء الوهميين . فاقيد هؤلاء المساكين إلى الذبح كالاغنام . وكان طعم ذلك كله مرّاً كالعلقم في افواهنا . وكونت عندي اقتناعاً شخصياً بأن القيادة يجب ان تكون تحت سيطرة الجمهور حتى تصان من افعال تتنافى مع عقيدتنا الاشتراكية وتؤدي طريقة حياتنا الاشتراكية .

وازداد غرور بيريا . فأصبح بمقدوره - وكان يذهلني كيف يتحمل ستالين ذلك - ان يطرح موضوعاً اثناء العشاء ، فاذا رفضه ستالين ، يبادر بيريا فينهر اي شخص يحاول طرح الموضوع نفسه فيما بعد قائلاً : « هذه المسألة لا حاجة إلى اثارها مجدداً » . وكان ستالين لا يقول شيئاً ، رغم انه سمع باذنيه ان بيريا بنفسه هو الذي طرح الموضوع في البداية .

وكان بيريا مغترّاً في كل شيء . فلم يقرر أمر بدونه ، ولا يرفع أي أمر إلى ستالين دون اخذ موافقته مسبقاً . واذا رفعت تقريراً إلى ستالين بحضور بيريا دون ان تعلمه مسبقاً ، فانه يعتمد إلى معارضة التقرير وتخطيمه في نظر ستالين وذلك بطرح مختلف انواع الاسئلة واثارة كل التناقضات الممكنة حوله . وفي ابان ذلك كله كان بيريا يوطد سلطانه .

وفي الفترة اللاحقة للحرب أخذ مالنكوف ايضاً يوطد سلطانه ، رغم ان احواله كانت بين الحين والآخر تصاب بنكسة . فذات مرة نقل ستالين مالنكوف من سكرتيرية اللجنة المركزية إلى آسيا الوسطى . ولكن بيريا مد يد المساعدة لمالنكوف ودبر اعادته إلى موسكو . ومنذ ذلك الحين أصبح بيريا ومالنكوف صديقين لا يفصلان . وكان ستالين يمزح على العشاء فيقول عنهما « هذان المتشردان المحتالان » . وكنت اراقب باهتمام كبير تلك الصداقة وهي تنمو بين هذين المتشردين المحتالين . وكنت ادرك ان بيريا لا يجب مالنكوف ولا يحترمه الا انه يستخدمه لاغراضه السياسية . ومرة قال لي بيريا ان مالنكوف هزيل الشخصية ، وانه ليس الا تيس ماعز ، وانه يفر اذا لم توثقه إلى مقود . واضاف : « ولكنه روسي ومناسب جداً . وهذا يجعله سهل المنال ، مطواعاً » . ولعل العبارة الاخيرة : « وهذا يجعله سهل المنال » هي مفتاح صداقة بيريا لمالنكوف (١) .

(١) خلال هذا السرد كله ينجح خروشوف في تصوير مالنكوف وكأنه داس لا مزايلا له ، بحيث يصح على القارئ ان يبذل الجهد ليذكر ان هذا الموصوف هنا «تيس الماعز» هو الذي كاد في ١٩٥٧ ان يقيل خروشوف نفسه ، فضلاً عن منزلته العلمية الثقافية التي جعلته ينظر أحياناً من فوق إلى خروشوف .

وكننت انا صديقاً لمانكوف منذ عملت معه في منظمة موسكو قبل الحرب . ولطالما صرفنا عطلاتنا معاً . ولنا منازل ريفية متجاورة . وصمدت صداقتنا لكل التقلبات حتى عندما اظهر مانكوف قدراً معيناً من الشعور بالتفوق نحوى ابان الحرب ، لاسيما عندما كان ستالين يبدي استياءه منى .

وذات مرة كننت ومانكوف معاً في منزل ستالين الريفى في سوخى . وكننت قد أتيت من كييف واتى مانكوف من موسكو . وذهبنا إلى التزهة معاً فقلت له : « اننى مندهش كيف انك لا تدرك موقف بيريا منك . ألم تتحقق بعد منه ؟ » فصمت ولم ينبس بكلمة .

واضفت : « اعتقد انه يحترمك ؟ انا اعتقد انه يسخر منك » . واخيراً أجاب مانكوف : « نعم ، بكل تأكيد ، ادرك ذلك . ولكن ماذا باستطاعتى ان افعل ؟ » فقلت : « ما باستطاعتك ان تفعل ؟ كل ما ارغب فيه هو ان تفهم الأمر على حقيقته . الآن لا تستطيع ان تفعل اى شىء ، ولكن الوقت سوف يحين » .

واخذ قلقي يزداد . فقد اصبح ستالين في سن من العمر وضعنا جميعاً في موقف صعب . وكننت ابعد ما اكون عن انتظار موت ستالين ، اذ اننى في الواقع ، كننت اخشى وفاته . كننت اخاف النتائج . ماذا سيحدث للبلاد ؟ ورغم شكوكى حول الحملة ضد اعداء الشعب ، الا ان ثقتى بـ ستالين كانت لم تزل قوية . كننت اقدر ان بعض الافراطات حدثت ، ولكن في الاساس رأيت ان كل ما جرى كان سليماً . وليس فقط اننى لم ادن ستالين بل مجدته لأنه لم يتهيب تطهير الحزب في سبيل وحدته . وفي اواخر الاربعينات كننت مقتنعاً بانه عندما يموت ستالين فاننا سنفعل كل شىء ممكن لمنع بيريا من احتلال منصب قيادى في الحزب واذا لم نوفق إلى ذلك فستحل بالحزب نهايته . بل اننى توصلت إلى يقين ان نجاح بيريا سيعنى فشل الثورة . وعلى اقل تقدير فانه يعنى فشل مكاسب الثورة . وكان رأيى في الاساس ان بيريا قد يحيد بالبلاد عن طريقها الاشتراكى إلى الطريق الرأسمالى .

وفي السنوات الاخيرة من حياة ستالين كان بيريا يظهر اكثر فأكثر قلة احترام لـ ستالين وبصورة تزداد سوءاً ، وكان يصارح مانكوف اكثر منى ، الا انه كان ، على العموم يتكلم بحضور ستالين دون احترام ، واحياناً بأسلوب مهين . وقد اثارنى هذا الأمر دوماً وجعلنى أكون يقظاً . اذ اننى كننت انحسب لان يكون بيريا يقصد من ازدرائه الظاهرى لـ ستالين التحريض لـ بحرى إلى الادلاء بملاحظات مشابهة او حتى لمجرد الموافقة معه ، بحيث يستطيع ان يذهب إلى ستالين ويثني بى كعدو للشعب ومعاد للـ ستالينية . الا اننى كننت قد ألفت خيانات

القصاص ضد الاعداء الوهميين . فاقيد هؤلاء المساكين إلى الذبح كالاغنام . وكان طعم ذلك كله مرّاً كاللقم في افواهنا . وكونت عندي اقتناعاً شخصياً بان القيادة يجب ان تكون تحت سيطرة الجمهور حتى تصان من افعال تنافى مع عقيدتنا الاشتراكية وتؤدي طريقة حياتنا الاشتراكية .

وازداد غرور بيريا . فأصبح بمقدوره - وكان يذهلني كيف يتحمل ستالين ذلك - ان يطرح موضوعاً اثناء العشاء ، فاذا رفضه ستالين ، يبادر بيريا فينهر اي شخص يحاول طرح الموضوع نفسه فيما بعد قائلاً : « هذه المسألة لا حاجة إلى اثارها مجدداً » . وكان ستالين لا يقول شيئاً ، رغم انه سمع باذنيه ان بيريا بنفسه هو الذي طرح الموضوع في البداية .

وكان بيريا مغترأ في كل شيء . فلم يقرر أمر بدونه ، ولا يرفع أي أمر إلى ستالين دون اخذ موافقته مسبقاً . واذا رفضت تقريراً إلى ستالين بحضور بيريا دون ان تعلمه مسبقاً ، فانه يعتمد إلى معارضة التقرير وتخطيمه في نظر ستالين وذلك بطرح مختلف انواع الاسئلة واثارة كل التناقضات الممكنة حوله . وفي ابان ذلك كله كان بيريا يوطد سلطانه .

وفي الفترة اللاحقة للحرب أخذ مالنكوف ايضاً يوطد سلطانه ، رغم ان احواله كانت بين الحين والآخر تصاب بنكسة . فذات مرة نقل ستالين مالنكوف من سكرتيرية اللجنة المركزية إلى آسيا الوسطى . ولكن بيريا مد يد المساعدة لمالنكوف ودبر اعادته إلى موسكو . ومنذ ذلك الحين أصبح بيريا ومالنكوف صديقين لا يفصلان . وكان ستالين يمزح على العشاء فيقول عنهما « هذان المتشردان المحتالان » . وكنت اراقب باهتمام كبير تلك الصداقة وهي تنمو بين هذين المتشردين المحتالين . وكنت ادرك ان بيريا لا يجب مالنكوف ولا يحترمه الا انه يستخدمه لاغراضه السياسية . ومرة قال لي بيريا ان مالنكوف هزيل الشخصية ، وانه ليس الا تبس ماعز ، وانه يفر اذا لم توثقه إلى مقود . واضاف : « ولكنه روسي ومناسب جداً . وهذا يجعله سهل المنال ، مطواعاً » . ولعل العبارة الاخيرة : « وهذا يجعله سهل المنال » هي مفتاح صداقة بيريا لمالنكوف (١) .

(١) خلال هذا السرد كله ينجح خروشوف في تصوير مالنكوف وكأنه داس لا مزاياله ، بحيث يصبح على القارئ ان يبذل الجهد ليتذكر ان هذا الموصوف هنا «تبس الماعز» هو الذي كاد في ١٩٥٧ ان يقيل خروشوف نفسه ، فضلاً عن منزله العلمية الثقافية التي جعلته ينظر أحياناً من فوق إلى خروشوف .

وكنـت انا صديقاً لـمالنكوف منذ عملت معه في منظمة موسكو قبل الحرب . ولطالما صرفنا عطلاتنا معاً . ولنا منازل ريفية متجاورة . وصمدت صداقتنا لكل التقلبات حتى عندما اظهر مالنكوف قدراً معيناً من الشعور بالتفوق نحوى ابان الحرب ، لاسيما عندما كان ستالين يبدي استياءه منى .

وذاـت مرة كنـت ومالـنكوف معاً في منزل ستالين الريفى في سوخى . وكنـت قد أتيت من كييف واتى مالنكوف من موسكو . وذهبنا إلى التزهة معاً فقلت له : « اننى مندهش كيف انك لا تدرك موقف بيريا منك . ألم تتحقق بعد منه ؟ » فصمت ولم ينبس بكلمة .

واضفت : « اعتقد انه يحترمك ؟ انا اعتقد انه يسخر منك » . واخيراً أجاب مالنكوف : « نعم ، بكل تأكيد ، ادرك ذلك . ولكن ماذا باستطاعتي ان افعل ؟ » فقلت : « ما باستطاعتك ان تفعل ؟ كل ما ارغب فيه هو ان تفهم الأمر على حقيقته . الآن لا تستطيع ان تفعل اى شيء ، ولكن الوقت سوف يحين » .

واخذ قلقي يزداد . فقد اصبح ستالين في سن من العمر وضعنا جميعاً في موقف صعب . وكنـت ابعد ما اكون عن انتظار موت ستالين ، اذ اننى في الواقع ، كنـت اخشى وفاته . كنـت اخاف النتائج . ماذا سيحدث للبلاد ؟ ورغم شكوكي حول الحملة ضد اعداء الشعب ، الا ان تقى ستالين كانت لم تزل قوية . كنـت أقدر ان بعض الافراطات حدثت ، ولكن في الاساس رأيت ان كل ما جرى كان سليماً . وليس فقط اننى لم ادن ستالين بل مجده لأنه لم يتهيب تطهير الحزب في سبيل وحدته . وفي اواخر الاربعينات كنـت مقتنعاً بانه عندما يموت ستالين فاننا سنفعل كل شيء ممكن لمنع بيريا من احتلال منصب قيادي في الحزب واذا لم نوفق إلى ذلك فستحل بالحزب نهايته . بل اننى توصلت إلى يقين ان نجاح بيريا سيعنى فشل الثورة . وعلى اقل تقدير فانه يعنى فشل مكاسب الثورة . وكان رأيي في الاساس ان بيريا قد يحيد بالبلاد عن طريقها الاشتراكي إلى الطريق الرأسمالي .

وفي السنوات الاخيرة من حياة ستالين كان بيريا يظهر اكثر فأكثر قلة احترام لستالين وبصورة تزداد سوءاً ، وكان يصارح مالنكوف اكثر منى ، الا انه كان ، على العموم يتكلم بحضور ستالين دون احترام ، واحياناً بأسلوب مهين . وقد اثارنى هذا الأمر دوماً وجعلنى أكون يقطاً . اذ اننى كنـت اتحسب لان يكون بيريا يقصد من ازدرائه الظاهري لستالين التحريض لجرى إلى الادلاء بملاحظات مشابهة او حتى لمجرد الموافقة معه ، بحيث يستطيع ان يذهب إلى ستالين ويشي بي كعدو للشعب ومعاد للستالينية . الا اننى كنـت قد ألفت خيانات

بيريا فاصغيت دون اي تعليق على ما يقول . انني لم اغلق اذني قط ولكنني لم افتح فمي ابداً . لكن بيريا استمر بالروح نفسها ، رغم كل محاولاتي لصدده . فقد كان واثقاً ان لا شيء يتهدهده . وكان يعرف انني لن لعب دور المخبر الواشي . وعرفت ايضاً انه كان اقرب كثيراً إلى ستالين مما كنت بحيث يستطيع ان يكون اقل حذراً . ذلك انه عندما كان يتخاصم بيريا وستالين ، كان بيريا يحاول دوماً التظاهر بان ما جرى هو خصام بين الاحبة . فعندما يتخاصم جيورجيان ، فانما بفعالان ذلك للتسلية ، وفي النهاية لا بد ان يتصالحا .

وبالاختصار ، كان بيريا سيداً من اسياذ الاستفزاز . بل كان ماهراً جداً في ضروب القذارات والحيايات . وكنت اعرف انه يتحين الفرص لبشي بي ويتخلص مني . لذلك كنت دوماً يقطاً ، حذراً منه . لقد استخدم هذه الحيلة مع بولغانين ايضاً ، لكن بولغانين عرف هدفه كما عرفت . الا انني واثق ان بيريا لم يتجاسر ان يتفوه بأي شيء ضد ستالين في حضور كاغانوفيتش . فلم يكن بيريا غير واثق من كاغانوفيتش فحسب بل كان يثق به بعنف .

تلکم كانت الحالة عشية موت ستالين .

موت ستالين

اعلن راديو موسكو للعالم في صبيحة الرابع من آذار ١٩٥٣ ، بأن ستالين قد أصيب بتزيف في الدماغ « بينما كان في منزله في موسكو » . بينما في الواقع ، وكما يؤكد ذلك خروشوف هنا ، فقد كان ستالين في منزله الريفي . وقد سحب البلاغ تداء وجهته اللجنة المركزية ومجلس الوزراء إلى الشعب السوفياتي لمضاعفة « وحدته وتضامنه وثبات روحه ويقظته في هذه الأيام المضطربة » . وأمر كل من البطريك الارثوذكسي الروسي والحاخام اليهودي إقامة خدمات دينية خاصة بالمناسبة ، وبعد إنقضاء يومين ، أي نحو الساعة الرابعة صباحاً جاء الاعلان الذي سبقه قرع الطبول بأن « قلب رفيق لينين في السلاح ، حامل عبقرية وقضيته ، القائد والمعلم الحكيم للحزب الشيوعي والاتحاد السوفياتي ، قد توقف عن النبض » .

ان وصف خروشوف للظروف المروعة المحيطة بموت ستالين هي في خطوطها العريضة ، صحيحة ويؤيدها بصورة أساسية وصف سفلانا اللليوييفا في «عشرون رسالة إلى صديق» . ان كلا من الوصفين ، رغم التفاصيل التي يخدمها ، يلتقي مع الآخر ، بصورة مثيرة للاهتمام ، حول سلوك بيريا ، الذي يكاد لا يصدق ، على فراش موت ستالين .

ويحول خروشوف كثيراً بمخاوفه من ان يتولي بيريا على وزارة الشؤون الداخلية ، ذلك لان بيريا رغم سيطرته طوال سنين على الشرطة السرية لم يكن يتبوأ مركزاً رسمياً كهذا . وقد كان له ، بوصفه عضواً في المكتب السياسي ، اشراف عام على وزارتي الشؤون الداخلية وأمن الدولة . وقد رأس هاتين الوزارتين (التي خلفتا المفوضيات القديمة) محاسب بيريا حتى ١٩٥١ عندما أصبح س.د. أغناتيف صديق خروشوف رئيساً لأمن الدولة . فكان مبعث قلق خروشوف ان بيريا يستطيع بما له من قاعدة اتباع واسعة في أجهزة الأمن الداخلي التخلص من أغناتيف واستعادة السيطرة على الوزارة، وهذا تماماً ما حصل الا أنه لم يدم طويلاً .

اصاب المرض ستالين في شباط ١٩٥٣ . وكنا ، مالنكوف وبيريا وبولغانين وانا في منزله الريفي مساء يوم سبت بعدما حضرنا فيلماً في الكرملين . واستمر العشاء كالعادة حتى الخامسة او السادسة صباحاً وكان ستالين مغموراً تماماً وفي حالة نفسية جيدة . ولم تظهر عليه ادنى امارات التعب الجسدي . وعندما حان وقت انصرافنا جاء إلى المدخل ليشيعنا . وكان يمزح بمرح صاحب ويلكرني في بطني لكزات مؤلمة باصبعه ، ويناديني « نيكيتا » ولكنه اوكرانية كما كان يفعل دائماً عندما يكون طيب المزاج . وهكذا بعد هذا العشاء بالذات ذهبنا جميعاً إلى بيوتنا مسرورين . اذ ان العشاءات عند ستالين لم تكن تنتهي دائماً بمثل هذا السرور .

كان اليوم التالي ، الاحد ، يوم عطلة كالعادة . وكنت متأكداً ان ستالين سيتصل بنا ليدعونا إلى اجتماع من نوع ما . ومساء الأحد ، نظراً لتوقعي مكالمته منه في أية لحظة ، تأخرت في تناول العشاء في بيتي . واخيراً صرفت النظر عن الانتظار وتناولت بعض الطعام . ولم يتصل بي احد بعد الطعام . ولم اكن اصدق ان يوم عطلة يمضي بأكمله دون ان يستدعينا ستالين . ولكنه لم يفعل . كان الوقت متأخراً جداً عندما خلعت ثيابي واستلقيت على الفراش .

وفجأة رن الهاتف . كان المتكلم مالنكوف : « اسمع ، ان صبيان الشيكات (الشرطة السرية المعروفة بهذا الاسم) اتصلوا للتو من منزل ستالين الريفي . يعتقدون ان شيئاً قد حدث له . الافضل ان نذهب إلى هناك . ولقد ابلغت ايضاً بيريا وبولغانين . هيا فلنمض حالا إلى هناك » .

استدعيت ، على الفور ، سيارتي التي كانت معي قرب منزلي الريفي . ولبست ثيابي بسرعة وتوجهت إلى منزل ستالين . استغرق وصولنا إلى هناك

خمسة عشرة دقيقة . وعندما اجتمع شملنا توقفنا لتحدث إلى الضباط المتواجدين قبل ولوج غرفة ستالين . فأعربوا عن قلقهم : « الرفيق ستالين دوماً على وجه التقريب يستدعي شخصاً ما في الحادية عشرة ليطلب الشاي او شيئاً يأكله . هذه الليلة لم يفعل » . فارسل الحراس ماتريونا بتروفنا لترى ما حدث . وكانت بتروفنا خادمة مسنة صديقة ومخلصة لستالين . وبعد ان اقلت ماتريونا بتروفنا نظرة فاحصة ، عادت وابلغت الحراس ان ستالين يستلقي نائماً على ارض الغرفة الواسعة التي ينام فيها عادة ، ويبدو انه نهض من الفراش ووقع . ورفع الحراس ووضعوه على مقعد في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة .

عندما اطلعنا على ذلك كله ، قررنا ان حضورنا غير مناسب وستالين في حالة الغيبوبة هذه . فافترقنا وعدنا جميعاً إلى منازلنا . وفي وقت متأخر من تلك الليلة تلقيت مكالمة ثانية من مالنكوف قال فيها : « تلفن الصبيان (التشيكا) مرة اخرى ، يقولون انه لا بد ان يكون مصاباً بسوء ، وماتريونا بتروفنا تقول انه كان ينام بهدوء عندما ارسلناها لتلقي عليه نظرة ثانية ، ولكن نومه غير طبيعي . من الافضل ان نعود » .

وطلبنا من مالنكوف ان يستدعي فوروشيلوف وكاغانوفيتش اللذين لم يحضرا إلى العشاء في الليلة السابقة ولم يحضرا إلى المنزل الريفي في المرة الأولى التي حضرنا فيها لتفقد الحالة .

ورتبنا استدعاء الاطباء ايضاً . واذكر منهم البروفسور لوكومسكي . وبعد ان تقابلنا في محطة الضباط المتواجدين ذهبنا إلى الغرفة التي كان يضجع فيها ستالين على المقعد . فطلبنا إلى الاطباء ان يجرؤوا اللازم وان يفحصوا حالته بدقة . فتقدم البروفسور لوكومسكي من ستالين بحذر شديد ، وعرفت بماذا يفكر . كان يرتجف بعصبية وامسك بيد ستالين كأنه يمسك بحديدة حامية . وقال بيريا بفظاظة : « افك طيب ، اليس كذلك ؟ امسك يده كما يجب » .

فقال البروفسور لوكومسكي ان ذراع ستالين اليمنى لا تتحرك ، وكذلك ساقه اليسرى . وكانت حالته خطيرة . فترعوا عنه ثيابه واعادوه إلى الغرفة الضخمة حيث كان ينام عادة ، وحيث الهواء متوفر بصورة أفضل .

ونظم الاطباء رقابة دورية عليه . كما اقمنا في ما بيننا ، نحن اعضاء مكتب البريزيديوم ، مناوبة دائمة حوله على النحو التالي : كانت نوبة بيريا ومالنكوف ، وكاغانوفيتش وفوروشيلوف ، وبولغانين وانا . وكان من الواضح ان مالنكوف وبيريا قد رتبا نوبات الحراسة بحيث اخذا نوبة النهار لهما وتركنا نوبة الليل لبولغانين وانا . واني اعترف بالانزعاج الذي اعتراني ، وكنت آسفاً لأننا فقدنا

ستالين . قال لنا الاطباء ان ستالين قد يعيش ، لكنه لن يكون قادراً على العمل وان مرضاً من هذا النوع لا يستغرق طويلاً وينتهي بالموت .

وبدلتنا كل ما في وسعنا لانهاض ستالين على قدميه . وادركنا انه كان غائباً عن الوعي . ولكن فيما كان الاطباء يأخذون عينه من البول ، لاحظت ان ستالين حاول ان يغطي نفسه ، فلا بد انه شعر بالضيق . وذات مرة ، في النهار ، استعاد وعيه فعلاً . وبدأ وجهه يتحرك . كانوا يطعمونه الحساء ويسقونه الشاي بالملعقة . رفع يده اليسرى وبدأ يشير إلى شيء على الجدار . وكان هنالك صورة معلقة على الجدار ، وهي مقطوعة من مجلة « اوغنيوك » . وكانت الصورة اعادة للوحة تمثل طفلة صغيرة تطعم حملاً بواسطة قرن . ولعل ستالين حاول ان يقول : « انني في وضع ذلك الحمل تماماً . وانتم تفعلون معي الشيء نفسه بواسطة الملعقة » .

ثم بدأ يصفاحنا واحداً واحداً - بيده اليسرى ، لان يده اليمنى شلت . واعطيته يدي فهزها بيده اليسرى . وقد عبر بمصافحته هذه عن مشاعره .

وما ان سقط ستالين طريح الفراش حتى أخذ بيريا ينشر حقداً ضد ستالين ويسخر منه . كان الاصغاء لبيريا لا يطاق . ولكن مما لفت النظر ان بيريا كان ، ما ان يظهر ستالين بعض دلائل الوعي ويشعر بانه قد يشفى ، يرمي بنفسه عند ركبتيه ثم يمسك بيده ويروح يقبلها . وحين كان ستالين يفقد الوعي من جديد ويغمض عينيه ، كان بيريا يقف ويبصق . كان هذا بيريا على حقيقته - خائناً حتى نحو ستالين الذي كان من المفروض ان يقدره ، بل يعبه .

وذات مساء وصلت مع بولغاين لتتولى نوبة الحراسة الليلية على ستالين ، وكنا قد امضينا معظم النهار هناك . كان علينا ان نراقب الاطباء عندما يكونون هناك . كنت صريحاً مع بولغاين أكثر مما كنت مع الآخرين . قلت له « ان ستالين لن يستطيع الشفاء . هل تعرف كيف سنجد انفسنا عندما يموت ؟ هل تعرف اي مركز سيتخذ بيريا لنفسه ؟ سيحاول ان يجعل نفسه وزيراً لأمن الدولة . لا نستطيع ان نتركه يفعل ذلك ، والا كانت بداية النهاية بالنسبة اليها » .

فقال بولغاين انه يوافقني على ذلك . قلت « سأتحدث إلى مالكوف . اعتقد انه سيرى المسألة كما نراها . اذا لم تفعل شيئاً ، وفوراً ، فان هذا يعني كارثة وشيكة بالنسبة للحزب . ان في استطاعة بيريا ان يعيد عقربي الساعة إلى الوراء اي إلى ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، وفي امكانه ان يفعل أسوأ من ذلك » .

وبدأت تساورني الشكوك في ما اذا كان بيريا شيوعياً حقيقياً ام لا . فلهذه

ممن تسللوا إلى الحزب . وتذكرت كلمات غريشا كامنسكي عندما قال ان بيريا كان عميلاً للاستخبارات الانكليزية المضادة في باكو في السنوات الأولى من الثورة . كان بيريا ذنباً في ثياب حمل ، وقد تسلل إلى ثقة ستالين وتوصل إلى وظيفة خطيرة علياً بالخداع والحيلة .

ووافقني بولغانين على كل ما قلت . وانتهت نوبتنا وعدت إلى المنزل . وما ان استلقيت في الفراش حتى رن جرس الهاتف . مالنكوف يتكلم : « احضر سريعاً . اصيب ستالين بنكسة . تعال حالا . » استدعيت سيارتي فوراً وتوجهت إلى منزل ستالين . وعندما وصلت إلى المنزل الريفي وجدت ستالين فعلاً في وضع سيء . ووصل الآخرون . وكان بإمكاننا جميعاً ان نرى ستالين على شفير الموت . وابلغنا الاطباء انه يحتضر واننا نشاهد احتضاره . وفجأة توقف عن التنفس . وجاء رجل ضخم من مكان ما وبدأ يدلك صدره لكي يحمله على التنفس ثانية . كانت مراقبة المشهد مؤلمة بالنسبة إلي . قلت : « اسمع ! أوقف ذلك ، ارجوك ! لا ترى ان الرجل مات ؟ » فاستلموا . كان ذلك صحيحاً - لقد مات ستالين . وفي اللحظة التي لفظ ستالين انفاسه ركب بيريا سيارته وانطلق ذاهباً .

الخلافة

العامر علو اسقاط بيريا

بالنسبة لخروشوف ، بدأ التآمر لاسقاط بيريا بينما كان هو وزملاؤه وسفيتلانا الليويفا يقفون إلى جانب جثمان ستالين . ومرة أخرى تتفق سفتلانا وخروشوف في وصفها لموقف بيريا غير الاعتيادي . فقد فوجيء كلاهما بابتسامته المتفطرة عندما استدعى سيارته لحظة وفاة ستالين . وكان واضحاً ان بيريا يريد الاسراع بمغادرة كونستيفوليمسك بزماء قيادة قوى الأمن . (بالا مكان ان تذكر ان سفتلانا تشرّد عن الموضوع وهي تمتدح شعور خروشوف نحوها حيثذ وفيها بعد). ولم يكن من شك ان بيريا كان يسعى إلى السلطة العليا ، وهكذا كان يفعل مالنكوف الذي برز في إحدى المراحل كخلف لستالين ، بوصفه رئيس الوزراء والسكرتير الأول للحزب الشيوعي ، ويليه بيريا في الهرم التسلسلي . وكان الرجلان حليفين موقوتين ، يعتقد كل منهما ان بإمكانه توصل الآخر واستخامه . ولكن خروشوف كان قد بدأ آنذاك يتطلع إلى فوق . ولبرهة تحالف خروشوف مع مالنكوف وبيريا ، ولكن خلال عشرة أيام أرغم مالنكوف ، الذي بقي رئيساً للوزراء يومها ، على التخلي عن السكرتيرية الأولى للحزب فتقلدها خروشوف رسمياً بعد ستة أشهر . ان زعم خروشوف الضمني بأنه كان الرأس المدبر للمؤامرة ضد بيريا ، لا ريب في صدقه بصورة عامة ، ولكن يشك في أن الأمر حدث تماماً على النحو الذي وصفه . ذلك ان آخرين إلى جانب خروشوف كانوا متشبهين لمقاصد بيريا والخطورة الناتجة من تجمع السلطات في يديه . فعدا أفراد البريزيديوم ، كانت قيادة الجيش العليا كلها ضد بيريا كما انها كانت تكره مالنكوف بسبب تصرفاته ابان الحرب ، حين تصرف كأنه جاسوس ستالين على الجيش .

ومن المحتمل ان بعض الماريشلات ، والعديد منهم عمل مع خروشوف ابان

الحرب ونشأت صداقات بينه وبينهم ، كان لهم دور فعال أكثر مما هو مذكور هنا ، في مراحل التآمر الأولى ضد بيريا . ولا بد ان قضايا أخطر من مسألة إشادة المنازل الريفية في سوخومي ، وهي القضية النافذة والمالية ، كانت موضع الخلاف . وان التآمر ذاته كان دون ريب مسؤولية أشد اكفهراراً من مجرد «تطبيقات» تجري مع مترددين لدفعهم إلى تأييد المؤامرة . وان وصف خروشوف لاعتقال بيريا وتوقيفه يختلف كثيراً عن بعض الروايات المثيرة التي كان يمتع بها الزوار الشيوعيين الأجانب بين الفينة والفينة ، ولكن المرجح ان وصفه هنا هو الاصح .

مات ستالين ، وبدا موته حينئذ مثل مأساة رهيبة ، ولكنني كنت اخشى ما هو اسوأ . لقد نظر كل منا إلى موت ستالين على طريقته الخاصة . اما انا فكان موته صعباً علي جداً ليس فقط لان روابطني به كانت قوية حينئذ بل لان بموته سيفرغ مركز أخذ بيريا يهيء نفسه له . فقد كان وراء الاكمة ما وراءها من توقعات غير مستحبة ، بل من نتائج لها طابع الكارثة .

كان بيريا فرحاً بعد وفاة ستالين . ويمكن القول انه بدأ يحتفل حتى قبل ان توضع جثة ستالين في النعش . كان واثقاً من ان ليس من قوة على الارض تستطيع شدة إلى الخلف ، وان لحظة العمر التي كان ينتظرها قد حانت ، فلا عقبة تعترض طريقه . وبإمكانه الان ان يفعل ما يشاء . كانت هذه الافكار المنتصرة ترسم على وجهه وهو ينطلق نحو المدينة تاركاً ايانا في منزل ستالين الريفي .

كنت اعرف ان مالنكوف لم تكن له ولا مرة مكانة او دور مستقل بل كان دوماً يمثل دور الوسيط او الصبي الذي ينقل الرسائل . كان ستالين يقول خلال احاديثه في الحلقة الداخلية : « مالنكوف هذا كاتب جيد . بإمكانه كتابة قرار بسرعة . وهو شخص ملائم لتوزيع المسؤوليات ولكن لا قدرة عنده البتة للتفكير المستقل او المبادرة » (١) . وكان مالنكوف يعتبر التودد لبيريا مكسباً يعود عليه بالنفع رغم معرفته بان بيريا كان يستخف به ويسخر منه . وكان مالنكوف على حق - فقد كان نافعاً جداً ان يتودد المرء لبيريا . فصلاوات مالنكوف الوثيقة ببيريا استطاعت ان تقيه ذا حظوة عند ستالين . اما الآن وقد مات ستالين ، فلم يكن في وسع مالنكوف الا ان يكون « مطواعاً » في تنفيذ خطط بيريا كما

(١) قبل خمسة أشهر من وفاة ستالين ، في تشرين أول ١٩٥٢ ، دلى ستالين على ان نظرته إلى مالنكوف مختلفة كلياً ، اذ اسند اليه وضع التقرير العام للمؤتمر التاسع عشر للحزب .

قال لي بيريا ذات مرة .
تلك هي الافكار التي جالت في مخيلتي بينما انا اقف قرب جثمان ستالين
في منزله الريفي .

وعندما ذهب بيريا ، قرر الباقون منا دعوة اعضاء المكتب السياسي والبريزيديوم .
وبينما كنا ننتظر وصولهم ، كان مالنكوف يذرع ارض الغرفة جيئة وذهاباً
بعصبية . فقررت ان احديثه الآن ، وهنا ، فتوجهت نحوه وقلت : « إيغور ،
اريد التحدث اليك » .

وسأل ببرودة : « عن ماذا ؟ » فقلت : « الآن ، وقد مات ستالين ، لدينا
شيء نبحثه . وهو ما عسانا ان نفعل ؟ »
فأجاب : « سوف نجتمع كلنا معاً ونحدث . أليس من أجل هذا دعينا
إلى اجتماع ؟ »

فقلت : « حسناً ، ستحدث فيما بعد » .
والتأم شمل الاعضاء في منزل ستالين الريفي وشاهدوه ميتاً . ثم وصلت سففلانا
وتوجهت لمقابلتها . كانت مضطربة وأخذت تتحب . فلم استطع لحجم
مشاعري . وأخذت ابكي معها ، وبكيت بصدق موت ستالين .

لم أكن أبكي مجرد موت ستالين بل كنت قلقاً على مستقبل الحزب والبلاد .
كنت اشعر ان بيريا سيبدأ بالتصرف كالرئيس ذي الصلاحية ، فبأمر وينهي .
واذا حصل هذا كانت بداية النهاية . لقد عرفت لأمد طويل انه لم يكن شيوعياً
وكنت اعتبره انتهازياً خائناً لا يتورع عن اي شيء في سبيل مآربه . ومن ناحية
ايدولوجية لم أكن اعتبر انه ينطلق من موقع شيوعي . كان جزاراً وقاتلاً .
وعندما انعقد الاجتماع اقترح بيريا على الفور ان يرثس مالنكوف مجلس
الوزراء . واقترح مالنكوف تعيين بيريا نائباً اولاً له ، كما اقترح دمج وزارتي
أمن الدولة والشؤون الداخلية في وزارة واحدة هي « وزارة الشؤون الداخلية »
على ان يكون بيريا وزيرها .

وبدا في ظاهر الأمر ان بيريا قنع بمركز متواضع (١) . وبقيت صامتاً .
وكنت اخشى ان يعترض بولغانين على هذا الاجراء غير المناسب ، الا ان
بولغانين بقي هو الآخر صامتاً . وكنت احظ موقف الباقيين . ولو اننا ، بولغانين

(١) ليس بهذا القدر من التواضع . الم يظهر خروشوف مخاوفه من قبل من مثل هذه الخطوة .
ثم ان بيريا اختير نائباً اول لرئيس الوزراء .

وانا ، اعترضنا لانهما بفتح معركة قبل ان تبرد الحمة وبانا نحب المشاكسة
ونتصرف بدون روح نظامية . على ان الامور كانت تسير في الاتجاه الذي
خشيت ان تسير فيه .

وتم تعيين مولوتوف وكاغانوفيتش نائبين اولين لرئيس الوزراء : وعين
فوروشيلوف رئيساً للبريزديوم (رئيساً لاتحاد الجمهوريات السوفياتية) بدل
شفرنيك (١) . وكان بيريا يتكلم عن شفرنيك باحتقار ويقول ان شخصاً غير
معروف من الأمة باجمعها ليس مناسباً لشغل مركز خطير في القيادة .
فاتصحت امامي معالم الخطة التي وضعها بيريا والتي لم تكن جميع هذه الترتيبات
الا اجزاء متماسكة منها . فقد كان يحاول بتعيينه فوروشيلوف في رئاسة بريزيديوم
السوفيات الاعلى ان يجعله شخصاً يعتمد عليه عندما يبدأ الجولة الثانية من المذابح .
ثم اقترح بيريا ان اعفى من مهامي كسكرتير للجنة موسكو بحيث استطع التركيز
على عملي في سكرتيرية اللجنة المركزية . وصدر المزيد من التعيينات والتسميات .
ثم قررنا ترتيبات المآتم والطريقة الافضل لاعلان وفاة ستالين على الشعب (٢) .
وهكذا فقدنا ستالين وبدأنا ندير دفة الحكم بانفسنا .

وخلال الجنازة وبعدما كان بيريا لائقاً معي كثيراً ، وهو أمر أدهشني . وبدأ
بيريا ومالينكوف بدعواني الى التمشي معهما حول الكرملين . ولم يقطع بيريا
صلوات الود بينه وبين مالينكوف ولكنه حاول ان يقيم صلوات ود مماثلة معي .
ومن الطبيعي انني لم اقاوم ولم ارفض مثل تلك الصلوات ، غير ان رأيي ببيريا
لم يتغير بل على العكس ازداد قوة . وادركت ان مودته نحوي من الحيل التي
اشتهربها . وعرفت ما يرمي اليه بيريا في سياسته المناقفة ازائي ، كان يداعبني ليمت في
حذري ، فيما هو ينتظر الفرصة المانحة للتخلص مني قبل سواي .
وتقرر ان نعمل : مالينكوف وانا ، على وضع جدول اعمال جلوسات

(١) ن.م. شفرنيك ، أحد المخلصين القدامى المتقدمين لستالين وقد امضى معظم
احترافه الحزبي على رأس النقابات السوفياتية . ان رئاسة بريزيديوم السوفيات
الأعلى أو رئاسة الاتحاد السوفياتي كانت وظيفة بروتوكولية على الأغلب لرؤس
الاحتفالات أو ما يشبه . كما ان بولغانين قد عين نائباً أول لرئيس الوزراء مع
بيريا وكاغانوفيتش ومولوتوف . ولم يتقلد خروشوف أي منصب وزاري .
وكانت قوته في مركزه كعضو في البريزيديوم وسكرتيرية الحزب .

(٢) اشتمل الاعلان عند صدوره على النداء المشهور إلى شعب الاتحاد السوفياتي لتجنب
«الذعر والشرود» .

البريزيديوم . وكان مالتكوف سيرئس الجلسات وأعمل انا معه في وضع جدول الاعمال .

اجرينا في البريزيديوم تبديلا كبيراً . فالغينا البريزيديوم الموسع والمكتب السياسي المصغر اللذين انشأهما ستالين في اجتماع اللجنة المركزية الاول بعد المؤتمر التاسع عشر . وعدنا إلى حلقة ضيقة من ١١ شخصاً . وحدث الصدام الأول بين بيريا ومالتكوف من جهة ، وسائر اعضاء البريزيديوم الجديد من جهة ثانية ، عندما قدم بيريا الاقتراح الآتي :

« بما ان احكاماً كثيرة بالسجن والنفي اوشكت على الانتهاء ، وبما ان جميع هؤلاء المحكومين والمنفيين سابقاً سوف يعودون إلى بيوتهم ، فاني اقترح ان نوافق على مشروع قرار بعدم السماح لاحد منهم بالعودة من دون اذن خاص من وزارة الشؤون الداخلية » . وهذا يعني من بيريا نفسه . كان هذا الاقتراح انذاراً بما كان يقصده بيريا .

وتملكني الغضب فتكلمت ضد الاقتراح قائلاً : « ارفض اقتراحك التعسفي هذا جملة وتفصيلاً . لقد فعلنا الشيء نفسه في الماضي . اما الآن فنحن نفكر ، بصورة اسلم في تقييم الماضي ونقده ، فلا نستطيع بعد اليوم ان نفرض مثل هذا الخروج على الشرعية . ان هؤلاء المحكومين او المنفيين الذين نتحدث عنهم قد اعتقلوا واستجوبوا وحوكموا وحكموا من قبل « ترويكات » أمن الدولة (١) دون ان يتاح لهم الاستعانة بشهود او المثول امام قضاة . وكان نصيبهم السجن او القتل . والآن تريد ان يجرد هؤلاء الناس ثانية ، بعد ان انهوا احكاماً من هذا النوع ، من حقوقهم كلها ويعاملون كمجرمين ولا يسمح لهم اختيار امكنة سكنهم . ان هذا امر غير مقبول مطلقاً » .

وأيدني الآخرون . فسحب بيريا بدهاء اقتراحه . وبما ان مالتكوف كان يسجل الوقائع فلم يسجل الاقتراح . وفي وقت لاحق قدم بيريا ما بدا انه اقتراح ليبرالي ، وهو اقتراح بخفض العقوبة القصوى من ٢٠ سنة إلى ١٠ سنوات . وادركت مقصد بيريا الحقيقي من وراء هذا الاقتراح فقلت : « انني اعارض هذا كلياً ايضاً . لأنه علينا اعادة النظر في نظام الاعتقال والتحقيق كله من الاساس لا ان نعدل التفاصيل . وهذا الاقتراح يحاول مرة اخرى ، تشجيع الحكم التعسفي . ليس مهماً اذا كان الحد الاقصى هو عشرون سنة او عشر سنوات ، لأنك

(١) هذه جماعات ثلاثية دججت فيها وظائف النيابة العامة والقضاء وعرفت بالتعسف المتطرف .

تستطيع ان تحكم شخصاً تكرهه عشر سنوات تلو عشر سنوات حتى يموت في السجن . ان المطلوب هو اعادة نظر جذرية في اسلوب الاعتقال الكيفي والحكم التعسفي الذي كان سائداً في ايام ستالين . ان ما ترمي اليه هو اصفاء الشرعية على الحكم التعسفي — على الوضع الراهن . ان الوثائق تنهى لاطهار الاساليب التي تقترح على حقيقتها كما طبقت في الماضي فاقامت حكم التعسف واللاشرعية ، وكان ان دمر الحزب نتيجة ذلك » .

ومرة أخرى سحب بيريا اقتراحه . وهكذا تكلمت ضده بقوة مرتين حتى الآن . ولم يكن بخامرني شك انه بعد معرفته بموقفي منه أخذ يرسم معالم الخطوة التالية . اذ لم يكن يحتمل ان يعترض طريقه احد .

والآن ماعسى ان تكون الخطوة التالية عند هذا النذل بيريا ؟ ذات يوم كنا نتمشى معاً — بيريا ومالنيكوف وانا — عندما بدأ بيريا يعرض بمذاقة الفكرة الآتية : « اننا نتقدم في السن ، وان اي شيء قد يحدث لنا ، وسيكون علينا ان نترك عائلاتنا وراءنا دون معيل او معين . علينا ان نفكر بهذا كله . لذلك احب ان اقترح على الحكومة بناء منازل ريفية ، تسلم بعد ذلك إلى قادة البلاد من أجل استعماهم الشخصي . اقترح بناء هذه المنازل في سوخومي (على ساحل البحر الاسود) بدل ضواحي موسكو — وليس في ضواحي سوخومي بل في قلب المدينة . عندها يصبح بإمكاننا ان نخلي وسط المدينة ونحوه إلى حديقة مليئة بأشجار الخوخ » . وأخذ يتحدث عن الروعة التي تتميز بها مدينة سوخومي وعن الخوخ والعب النامين فيها . كان كل شيء عنده قد أصبح ناجزاً ومهيأ حتى ادق التفاصيل حول الموارد لتمويل المشروع والملاك الشخصي للإشراف عليه . وكان يتحدث على نطاق واسع وفخم . وتابع حديثه : « ستشرف وزارة الشؤون الداخلية على المشروع . علينا البدء ببناء منزل ريفي لك يا ايفور (مالنيكوف) ثم لك يا نيكيتا وبعد ذلك لمولوتوف وفوروشيلوف والباقيين » .

كنت اصغي اليه ولم احاول مناقشته . كنت متأكداً ان فكرة المنازل الريفية هذه كانت نوعاً من الاستفزاز المفتعل . لم احاول الاعتراض بل اصغيت . وكنت اردد بينما هو يتكلم : « نعم ، نعم ، علينا ان نفكر بالأمر » وكأنني اوحى اليه بالموافقة .

وبعد ان انهينا الحديث صعدنا إلى سيارتنا متوجهين إلى منازلنا في الريف . وكنا في سيارة واحدة ولكن على منعطف طريق روبليف كنا سنفترق ، اذ يتابع بيريا سيره على خط مستقيم اما نحن ، مالنيكوف وانا ، فكان علينا ان ننعطف يساراً إلى منازلنا . وعندما اصبحنا ، مالنيكوف وانا ، في سيارة واحدة بمفردنا

قلت مالنكوف « اسمع ما رأيك في فكرة بيريا تلك ؟ انها اكثر الاستفزازات سماجة ». فقال : « لماذا تعتقد ذلك ؟ » فقلت : « ان بيريا محرض فهو يريد ان يبني هذه المنازل للتحريض لا كههدف آخر . دعنا لا نعترض على هذا الأمر لفترة . »

وهكذا بدأ بيريا تنفيذ فكرته ، فأمر بوضع الخطط . قال انه تم اختيار موقع منزل مالنكوف بحيث يتمكن من مراقبة الاتراك . وقال بيريا مازحاً : « ايفور ! سيكون في امكانك ان ترى تركيا . هل ترى اي منزل جميل سيكون منزلك ؟ » قال بيريا هذا بعد ان دعانا إلى اجتماع لهذه الغاية حضره بناء شهير قدم لنا تقريراً عن المشروع . وأمر بيريا بالشروع فوراً بالتنفيذ . وكان بيريا يعتبر هذا البناء حليفاً يثق به . وكان يعمل لمصلحة بيريا وينفذ كل ما يطلبه منه . وقد أصبح هذا البناء اليوم مسؤولاً عن بناء مصانع الطاقة الذرية . وبعد ان انتهى الاجتماع وذهب بيريا ، انفردت مالنكوف وقلت له « انه لاساسي بالنسبة لخطط بيريا ان يبني منزلك الريفي في وسط مدينة سوخومي . وهذا يستلزم اجلاء عدد كبير من السكان ، فتحل بهم نكبة كبرى . وهذا ليس مزاحاً . ألم تفهم بعد جانب التحريض في المشروع ؟ بيريا يريد ان يبدأ نوعاً من المذبحة المنظمة التي تستهدف رمي الناس خارج بيوتهم وهدمها لكي يبني لك قصراً . وسيرفع سور حول المنزل الريفي وملاعبه . وستموج المدينة بالاستنكار والغضب . وسيساءل الناس لمن سبني هذا البناء كله ؟ . وعندما ينتهي كل شيء ، تصل انت إلى منزلك فبقول الناس الذين سيأهونك : رئيس مجلس الوزراء يغادر سيارته ويختفي في قصره . عندها يدركون ان المذبحة واجلاء السكان من بيوتهم قد حدث كله في سيلك . وسينتشر الحقد عليك ليس في مدينة سوخومي فحسب بل في البلاد كلها . وهذا تماماً ما يرمي اليه بيريا . انه يحاول دفعك بمناورات هذه إلى موقع لا تحسد عليه من الفضيحة التي لا يرجي منها خلاص حتى تضطر إلى الاستقالة . الا ترى ذلك ؟ بيريا يقول انه سيأمر بوضع مشاريع لبناء منزل له ، لكنه لن يبني مثل هذا المنزل . سيبني منزلك ثم يستغله من أجل تشويه سمعتك . » فقال مالنكوف : « كيف تستطيع ان تقول هكذا ؟ ان بيريا قد بحث الأمر معي ! »

على ان كلامي دفع مالنكوف إلى البدء بالتفكير . وذات يوم ، عندما كان بيريا يعرض علي التصاميم قال : « ان تكون هذه المنازل جميلة ؟ » — طبعاً . جميلة جداً . انها فكرة رائعة . — لماذا لا تأخذ التصاميم معك إلى المنزل ؟

واخذت التصاميم معي ولكنني لم اعرف ماذا افعل بها . وقد وقعت عليها نينا بتروفنا (زوجة خروشوف) فسألني : « ما هذا ؟ » . وعندما ابلغتها قالت بغضب : « هذه فكرة معيبة » .

لم استطع ان اشرح لها الأمر ، فقلت لها : « سوف نتحدث عن ذلك في ما بعد دعينا الآن نضعها جانبا » (١).

وحاول بيريا الاسراع في بناء المنازل الريفية في سوخومي ولكن شيئا لم يكن قد تحقق عندما حان وقت اعتقاله . وبعد اعتقاله الغينا المشروع كله . واحتفظت بمشاريع المنازل في بيتي لفترة طويلة بعد ذلك .

وفي اثناء ذلك بدأت الامور تتوالى بسرعة . كان بيريا يحاول التدخل في اعمال الحزب ، فاخترع نوعاً من الوثائق عن الاوضاع في قيادة الحزب الاوكراني . وهكذا قرر ان تكون ضربته الأولى موجهة ضد المنظمة الحزبية في اوكرانيا . وكنت مستعداً لهذا الأمر لأنني تصورت انه سيحاول توريطي اذ كنت لم ازل مسؤولاً الى حد كبير عن اوكرانيا . وكان بيريا قد اخذ يجمع الأدلة عن طريق دوائر وزارة الشؤون الداخلية الاقليمية في اوكرانيا ، وكان ستروكاش هو رئيس مكتب وزارة الداخلية في لفوف (٢) . وقد توفي فيما بعد . كان شيوعياً صادقاً وجندياً صالحاً . وقبل الحرب كان كولونيلا في قيادة قوات الحدود في اوكرانيا . ثم تولى ابان الحرب رئاسة اركان قوات الانتصار الاوكرانيين وكان يرفع تقاريره الي عن الحالة في الارض المحتلة وراء خطوط العدو ، وكنت قد تحققت خلال ذلك من صدقه ونزاهته . وبعد الحرب عين ممثلاً لوزارة الشؤون الداخلية في اقليم لفوف ، وعلمنا في ما بعد انه عندما اتصل وزير الشؤون الداخلية لاوكرانيا ، وكان من محاسيب بيريا ، بستروكاش وطلب منه معلومات عن موظفي الحزب المحليين ، اجابه ستروكاش انه ليس مسؤولاً عن الملاك الشخصي وان عليهم الاتصال بلجنة الحزب الاقليمية . عندها اتصل بيريا بنفسه بستروكاش وقال له اذا كنت ستجادل في امور نافهة كهذه فيكون مصيرك كالغبار . وقد اكتشفنا هذه الحادثة لاحقاً بعد ان اوقفنا بيريا . ولكننا آنذاك لم نكن نعرف ان الحزب كان يخضع لوزارة الشؤون الداخلية في اوكرانيا .

وبدأ البريزيديوم البحث في مذكرة وجهها بيريا حول التشكيل العرقي للهيئات

(١) لحظة آسرة عن حياة خروشوف البيتية وعن تصرفات زوجته الرائعة .
(٢) ت.أ. ستروكاش ، لفتنت جنرال في شرطة الأمن ، أصبح في ما بعد على رأس وزارة الشؤون الاجتماعية .

الحاكمة في اوكرانيا . وكانت فكرة بيريا ان الموظفين المحليين اي من غير الروس يجب ان تسند اليهم مراكز القيادة في جمهورياتهم ، فلا يوثى بهم للعمل في مركز الحزب في موسكو . فاصدرنا قراراً يقضي بان يحتل منصب الامين العام في كل جمهورية مواطن ينتمي اليها لاشخص يرسل من موسكو (١) .

وصدف ان موقف بيريا بالنسبة لهذه المسألة كان سليماً ومطابقاً لموقف اللجنة المركزية للاتحاد كله ، الا انه كان يتخذ هذا الموقف ليدفع اغراضه المعادية للحزب إلى الامام . كان يبشر بضرورة عكس عملية زعامة الروس على الجمهوريات غير الروسية . وكان الجميع يعرفون ان مثل هذا الامر صحيح ومطابق للخط الحزبي . لكن الناس لم تكن تعرف في البداية ان بيريا كان يدفع هذه الفكرة قدماً من أجل اثاره التوتر القومي بين الروس وغير الروس ، فضلاً عن اثاره التوتر بين القيادة المركزية في موسكو والقيادات المحلية في الجمهوريات .

عند هذا الحد انتحيت مالنكوف جانباً وقلت له : « انا نسير إلى كارثة . بيريا يشحذ خناجره » . وتساءل مالنكوف « حسناً ، ولكن ماذا نستطيع ان نفعل » .

— حان وقت المقاومة . انت دون ريب تلاحظ ان موقف بيريا ذو طابع معاد للحزب . لا يجوز ان نقبل بما يفعل . علينا رفضه .

— هل تعني ان اقاومه وحدي ؟ انا لا اريد ان افعل ذلك .

— ماذا يجعلك تعتقد انك ستكون وحيداً ؟ هناك انت وانا ، اي اثنان . ثم اني واثق من ان بولغانين سيوافق ، واثق من ان الآخرين سينضمون الينا اذا عرضنا حجتنا من موقف حزبي ثابت . المشكلة انك لا تترك فرصة لاحدنا ان يقول ما عنده ، اذ ما ان يقدم بيريا اقتراحاً حتى تقفز فوراً لتأييده قائلاً : « هذا رائع ، رفيق بيريا ، انه اقتراح حسن . انا مع هذا الاقتراح . هل يعارضه أحد ؟ » . وتطرح الاقتراح فوراً على التصويت . هلا اعطيت مجموعتنا فرصة التعبير عن آرائنا ولو لمرة ؟ وسرى ماذا يحصل . سيطر على نفسك . لا تكن متسرعاً . وسوف ترى انك لست الوحيد الذي يفكر بالطريقة التي تفكر بها . انا واثق ان العديدين هم معنا ضد بيريا . فلنضع انت وانا جدول الاعمال معاً ، ولنطرح

(١) هنا إشارة إلى العملية التي لم تنته معالجتها بعد والتي قادها بيريا لتشجيع القيادات المحلية في الجمهوريات التي تشكل الاتحاد . وقد اعتقل واعدم قبل أن يتضح الفرض البعيد من وراء مشروعه ، رغم ان التفسير الذي يعطيه خروشوف يرجح ان يكون صحيحاً .

على البحث بعض القضايا التي نعتقد ان بيريا مخطيء فيها . عندها نعارضه .
وانا واثق اننا نستطيع تعبئة سائر اعضاء البريزيديوم وراءنا ونمر قراراتنا . انح لنا
فرصة التجربة على الأقل .

في النهاية وافق مالنكوف ، وقد ادهشني ذلك وبعث في السرور . وكتبنا
جدول اعمال الجلسة المقبلة للبريزيديوم وضمناه عدداً من القضايا التي ايدنا فيها
الآخرون ، وكانت النتيجة انهزام بيريا . وتكرر هذا الأمر مراراً ، وعندها فقط
اصبح مالنكوف واثقاً من ان في امكاننا استخدام وسائل الحزب ضد بيريا فنهزم
مقترحاته المؤدية ، في نظرنا ، لحراب البلاد . وعندما ايقن بيريا ان الآخرين
أخذوا يتجاوزونه ، حاول ان يسرع في اعداد الامور كما يريد . فاضفى على
نفسه مظهر الاهمية الذاتية وحاول ان يظهر تفوقه في كل المجالات . كنا نمر في
فترة حرجة . وشعرت ان الوقت حان لنواجه بيريا .

وأخبرت مالنكوف ان علينا الاتصال بسائر اعضاء البريزيديوم وتأليهم معنا .
ومن الجلي ان ذلك لم يكن ليتيسر ابان انعقاد الجلسة بينما بيريا حاضر بيننا . كان
علينا ان نتحدث مواجهة مع كل فرد حتى نكتشف موقفه الحقيقي من بيريا .
وأخيراً وافق مالنكوف وقال : « نعم ، علينا ان نعمل » .

وكنيت اعلم ان بولغانين يقف مع الحزب وهو يفهم كلياً الخطر الذي يمثله
بيريا . واتفقنا ، مالنكوف وانا ، انه كبدية يجب ان اتحدث إلى الرفيق فوروشيلوف .
وكنيت قد خدمت مع فوروشيلوف في لجان مختلفة ، وقررت الذهاب اليه بهذه
الذريعة . فاتصلت به هاتفياً واعلمته انني اريد مقابله بشأن عمل احدى اللجان .
فقال الرفيق فوروشيلوف انه بفضل مقابلي في مبنى اللجنة المركزية . فاجبته :
« كلا ، ارجوك ان تدعني اجيء إلى مكتبك » . ولكنه اصر على المجيء إلي ولكنه
في الاخير سلم باقتراحي . واتفقت مع مالنكوف على ان امر به عند رجوعي من
فوروشيلوف فتناول الطعام معاً وتحدث بتائج مقابلي لفوروشيلوف . وكنيت
انا ومالنكوف نسكن البناية نفسها ، وشقتي هي مباشرة فوق شقته .

ذهبت إلى مكتب الرفيق فوروشيلوف لكنني لم استطع انجاز المهمة التي جئت
من اجلها ، اذ ما ان وطأت قدمي مكتب فوروشيلوف حتى بدأ يكيل الاطراء
لبيريا : « اي انسان رائع هو لافرنتي بافلوفيتش (بيريا) ، يا رفيق خروشوف ،
اي انسان رائع حقاً هو ! » . واجبته « ربما ، وربما كنت تبالغ في تقديره » .
ولم يعد مناسباً بعد ان استقبلني فوروشيلوف على هذا النحو طرق الموضوع معه .
وكنيت افكر لعل فوروشيلوف تكلم على هذا النحو لأنه يعتقد ان للجدران اذاناً .
او لعله ظنني حليف بيريا ، باعتباري اتزعه معه ومع مالنكوف في هذه الايام .

على اي حال ، كان رأيي مختلفاً كلياً عن رأي فوروشيلوف في بيريا ، ولكن ، لو انني قلت ما كنت اريد قوله ، لوضعت فوروشيلوف في موضع غير مناسب . اذ يصعب عليه ، ولو من زاوية كبريائه الشخصي ، ان يقفز إلى موقف معاكس لما كان يقفه من بيريا ، عند ولوجي باب غرفته .

وهكذا تبادلنا وفوروشيلوف بعض الكلمات حول الموضوع الرسمي لمقابلتنا والذي كان يتعلق بمسألة جزئية تافهة سرعان ما انتهينا منها وغادرته معجلاً إلى بيت مالنكوف حيث كنا قد تواعدنا على الغداء . وأخبرت مالنكوف بزيارتي الخائبة لفوروشيلوف .

واتفقنا ، مالنكوف وأنا ، على انه يجب ان اتحدث إلى مولوتوف الذي كان كوزير للخارجية ، قد سألي في وقت سابق ان كان في الامكان ان نلتقي لكي نبحث في امور تتعلق بموظفي وزارة الخارجية . فاتصلت بمولوتوف هاتفياً وقلت : « اذا كان في وسعك ان تأتي إلى هنا فوراً ، فاننا نبحث في قضية الملاك الشخصي (الموظفين) » .

وعندما وصل بعد برهة قصيرة قلت له : « دعنا نتحدث عن الموظفين لكن ليس عن موظفي وزارة الخارجية » . وافصحت له عن وجهة نظري بشأن بيريا ودوره والمخاطر التي تهدد الحزب . وكان قد سبق لي اعلامه بخطة بيريا لزيادة التوترات القومية في الجمهوريات .

ويبدو ان مولوتوف كان هو نفسه فكر في هذه الامور طويلاً . ولم يكن يستطيع الا ان يفكر في ذلك ، لانه كان يعرف الكثير عما حدث خلال حكم ستالين . واذكر ان مولوتوف عندما كان لم يزل متمتعاً بثقة ستالين الكاملة كان يهاجم بيريا بعنف ولكن ليس بحضور ستالين . وكان مولوتوف نفسه ضحية تحريضات بيريا المرائي وخياناته . ولطالما سمعته يصف نشاطات بيريا باسمائها الحقيقية في وجه بيريا نفسه . لذلك عندما وصلت في حديثي مع مولوتوف إلى الموضوع الجدي المطروح على بساط البحث ، ادركت انه على اتفاق تام معي . وقال : « نعم . اوافقك تماماً ، لكن ما هو موقف مالنكوف ؟ » .

— انني ابحت في هذا الأمر معك باسم مالنكوف وبولغانين ايضاً . لقد تبادلنا وجهات النظر معاً حول الموضوع .

عندها قال مولوتوف . « انتم على حق في اثاره هذا الموضوع . وانا اعطيكم تأييدي الكامل . لكن قل لي شيئاً آخر : ماذا تريدون بالضبط ؟ إلى اين سيقودكم هذا المسعى ؟ » .

— اولاً علينا ان نعفي بيريا من مسؤولياته كعضو في البريزيديوم وكنائب

رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الشؤون الداخلية .
قال مولوتوف ان هذا ليس كافياً . « فيريا خطر جداً . لذلك اعتقد
ان علينا اللجوء إلى تدابير أكثر تطرفاً » .

قلت : « هل تعتقد ان علينا ان نوقفه تمهيداً لاستجوابه » . لقد استخدمت
كلمة « توقيف » وليس « اعتقال » لأنه لم تكن هناك بعد تهمة اجرامية ضد بيريا .
كنت على يقين من انه عميل كما وصفه كامنسكي ولكن هذا الاتهام لم يجر
اثباته . اما بصدد سلوك بيريا التحريضي والاستفزازي فلم يكن لدينا سوى حدسنا
بوجوب المضي في الأمر ولا يجب ان يعتقل انسان لمجرد الحدس . من هنا
استخدمت تعبير « توقيفه » للتحقيق . المهم اني انتهيت مع مولوتوف الى اتفاق
واعلمت فيما بعد الرقيق مالنكوف وبولغانين بما تم .

وقررنا الاسراع في الأمر قبل ان تسرق « آذان بيريا » السمع او قبل ان
يطلق احدهم القطة من عقابها (اي يروح بالسر) . ان في استطاعة بيريا ان
يعتقلنا جميعاً اذا ما تسربت اليه انباء عن نشاطاتنا . وقررنا ان اتكلم إلى
سابوروف الذي كان يومها عضواً في البريزيديوم . وعندما تحدثت اليه اجاب على
عجل : « انا موافق كلياً معكم » . ثم سألتني : « ولكن ما هو موقف مالنكوف ؟ » .
كل من حدثته بالموضوع يتساءل عن موقف مالنكوف .

في ذلك الوقت لم يكن كاغانوفيتش في موسكو ، اذ كان يقوم بجولة
تفتيشية على صناعة الخشب . وعندما عاد إلى موسكو طلبت منه المرور بمكتب
اللجنة المركزية لمقابلي . ووصل في المساء فجلسنا نتحدث . واستغرق حديثنا وقتاً
طويلاً ، اذ كان يخبرني بتفصيل واف عن سيبيريا ومناشر الخشب . ولم احاول
مقاطعته عندما أخذ يتحدث ، برغم انه كانت تجول في ذهني امور اخرى غير
مناشر الخشب . وعندما انتهى قلت له : « ان ما اطلعني عليه ممتاز جداً . الآن
اريد ان اخبرك بما يجري هنا » . وأخبرته حقيقة الظروف والنتائج التي توصلنا
اليها . فقام كاغانوفيتش بحركة لكز فيها اذنيه كأنه يفتحهما وقال « من تقصد
بنحن ؟ » ، اجبته ان مالنكوف وبولغانين ومولوتوف وسابوروف وانا متفقون
واننا نشكل اكثرية من دونه . ذلك ان طريقة طرحه السؤال بدت وكأنه
يريد تقييم توزيع القوى . ولكنه استدرك قائلاً : « انا معكم . بالتأكيد انا
معكم . ان ما كنت اطرحه مجرد سؤال » . ولكننا ، كل واحد منا ، ادرك
حقيقة تفكير الآخر ، ثم سألتني : « ماذا عن فوروشيلوف ؟ » فأخبرته عن لقائي
الفاشل معه وامتداحه بيريا .

فقال كاغانوفيتش متعجباً كأنه لا يصدق ما اقول : « هل قال ذلك فعلاً ؟ »

ولما أكدت له الأمر ، لعن كاغانوفيتش فوروشيلوف ولكن بدون مرارة ، قائلا : « هذا العجوز ابن حرام . كان يكذب عليك . لقد اعلمني بنفسه انه لا يطبق بيريا ، وان بيريا خطر وانه على الأرجح سوف يحططنا جميعاً . ان ما قاله لا يعني شيئاً » .

— اعتقدت فعلا ان فوروشيلوف لم يكن صادقاً معي ، ولكن على اي حال هذا ما قاله لي .

— ما قاله لا يعني شيئاً البتة .

— اذن علينا ان نحاول التحدث اليه مرة اخيرة ، ربما كلمه مالنكوف . نظراً لانه سبق لي ان حدثته ، فلعل الافضل ان لا اثير معه موضوع بيريا ثانية . اذ لا اريد ان اضعه في موقف صعب . واتفقنا على ذلك .

ثم قال كاغانوفيتش : « ما هو موقف ميكويان ؟ »

— لم اتحدث إلى ميكويان بعد . ان قضيته أكثر تعقيداً بعض الشيء . ان الجميع يعرفون ان ميكويان على علاقات حسنة جداً مع بيريا ، وكانا دائماً يلتقيان . لا بد من التحدث إلى ميكويان بالأمر ولكن من الافضل ارجاء ذلك إلى وقت لاحق .

ثم اخبرت مالنكوف باحاديثي مع كاغانوفيتش فوافق على ان يتولى هو مفاتحة فوروشيلوف . بقي برفوكخين . وفجأة قال مالنكوف : « اريد التحدث إلى برفوكخين بنفسي » .

— من كل بد ، اذا شئت ذلك ولكن برفوكخين شخص معقد ، انا اعرفه .

— وانا اعرفه ايضاً

— حسناً ، اذن ، تكلم اليه انت .

ودعا مالنكوف برفوكخين اليه . ثم لم يلبث ان اتصل بي قائلاً : « تعلم اني استدعيت برفوكخين واخبرته كل شيء . فقال لي سيفكر بالأمر بعض الوقت . ان هذا خطر جداً . اعتقد ان عليك الامساك به حالا ، من يعرف ماذا ينتج عن الامر ؟ سأفكر بعض الوقت . هذا قول خطير جداً » .

اتصلت هاتفياً بالرفيق برفوكخين . فجاء إلي وأخبرته كل شيء بصراحة . فقال : « لو ان مالنكوف طرح الموضوع بالصراحة التي اعتمدتها انت معي لما بقي تساؤل عندي . انني اتفق معكم كلياً . ليس من بديل عما تقترحون » . لا ادري ما قال مالنكوف لبرفوكخين ولكن الأمر سوي الآن .

وبهذا كنا قد بحثنا الأمر مع جميع اعضاء البريزيديوم باستثناء فوروشيلوف وميكويان . واتفقنا على ان اتحدث انا إلى ميكويان وان يتحدث مالنكوف إلى

فوروشيلوف . وفي وقت لاحق ذهبت لاقابل مالنكوف وسأله « حسناً ! ماذا حدث ؟ الا يزال فوروشيلوف يكيل المدائح لبيريا ؟ »
فقال مالنكوف : « ما ان اطلعت على خطتنا حتى عانقني وبدأ يبكي » .
لا ادري اذا كان هذا قد حدث فعلاً ولكن لم يكن الرفيق مالنكوف مضطراً ان يكذب في هذا الصدد .

مع هذا برز سؤال آخر : عندما نقرر رسمياً تجريد بيريا من مناصبه ، من الذي سيوقفه فعلاً ؟ ان الحراس في البريزيديوم يدينون له بالطاعة ، ثم ان رجال الشرطة السرية سيكونون جالسين في الغرفة الثانية وفي امكان بيريا ان يأمرهم بسهولة باعتقالنا جميعاً . سنكون ضعفاء تماماً لأنه كان هناك حرس مسلح ضخيم في الكرملين .

ولهذا قررنا ان نطلب مساعدة العسكريين . واوكلنا ، في البداية امر توقيف بيريا إلى الرفيق موسكاليينكو (١) ، قائد الدفاع الجوي و ه جنرالات . كانت هذه فكرتي .

ثم عشية الجلسة وسع مالنكوف حلقنا بحيث شملت المارشال جوكوف وآخرين . وهذا يعني ان المجموع أصبح ١١ مارشالا و جنرالا . وكانت التعليمات تلك الايام يقضي بان يودع العسكريون اسلحتهم الباب قبل الدخول إلى الكرملين ، ولذلك طلبنا من بولغانين ان يتأكد من السماح للمارشالات والجنرالات بان يحضروا مسدساتهم معهم . ورتبنا الأمر بحيث ينتظر فريق موسكاليينكو في غرفة منفصلة إلى ان نستدعيه ، فبدخل غرفة الاجتماع ويوقف بيريا لمجرد ان يعطي مالنكوف اشارة معينة بذلك . وكنا قررنا عقد جلسة لرئاسة مجلس الوزراء لكننا دعونا جميع اعضاء رئاسة اللجنة المركزية ايضاً . وافتتح مالنكوف الجلسة على انها جلسة لمجلس رئاسة اللجنة المركزية وليس لمجلس الوزراء حتى يتسنى البحث في احوال الحزب . وكان علينا ان ندعو فوروشيلوف بصورة استثنائية لأنه كان رئيساً للسوفيات الاعلى وبالتالي فانه لم يكن يحضر بصورة منتظمة جلسات هيئة رئاسة مجلس الوزراء او الحزب .

وما ان افتتح مالنكوف الجلسة حتى قال : « دعونا نبحث مسائل الحزب . هنا بعض القضايا المتوجب معالجتها فوراً » ووافق الجميع على ذلك . وكما سبق ان اتفقنا ، طلبت الكلام واقترحت ان نبحث في قضية بيريا . كان بيريا يجلس

(١) الجنرال ك.س. موسكاليينكو أصبح مارشالا فيما بعد . وعنده اعتقال بيريا كان قائداً للدفاع الجوي عن موسكو .

إلى يميني . فامسك بيدي بشدة ، وتطلع إلي وتعاير اندهشة على وجهه وقال :
« ماذا يجري يا نيكيتا ؟ بماذا تغمغم ؟ »

قلت : « عليك ان تصغي إلى ما اقول وسوف تكتشف فوراً عما اتحدث » .
ثم تكلمت فأعدت إلى الازدهان الاجتماع الكامل للجنة المركزية في شباط ١٩٣٩
الذي اتهم فيه الرفيق غريشا كامينسكي بيريا بالعمل للاستخبارات الانكليزية
عندما كان سكرتيراً لمنظمة الحزب في باكو . ثم اعدت إلى الذاكرة كيف ان
غريشا كامينسكي اختفى عن الانظار بعد ذلك فوراً مثل حجر يرمى في الماء .

وقلت : « تساءلت دائماً بشأن بيان كامينسكي وعجبت لماذا لم تبذل اية
محاولة لشرح ما قال » . وعرضت التحركات التي قام بها بيريا منذ وفاة ستالين ،
وتدخله في شؤون منظمات الحزب في اوكرانيا وروسيا البيضاء ودول البلطيق .
ووصفت كيف ان بيريا يعتمد على اذكاء العداوات القومية لتقويض الوحدة
السوفياتية . واوردت اقتراحه الاخير بشأن الاشخاص الذين في المنفى او في
معسكرات الاعتقال ، مشدداً على ان بيريا يريد اصفاء الطابع الشرعي على الحكم
التعسفي . وانتهيت إلى القول : « توصلت إلى الاقتناع بأنه ليس شيوعياً . انه
محترف استطاع ان يتسلل مثل الدودة إلى الحزب لاغراض شخصية . ان عجزه
لا نطاق وليس من شيوعي شريف يستطيع ان يتصرف بالطريقة التي يتصرف
بها هو ضمن الحزب » .

وطلب بولغانين الكلام وقال شيئاً مشابهاً لاقوالي . ثم تكلم الآخرون كل
بدوره . وعرض مولوتوف موقف الحزب المناسب من القضية ، كما شدد سائر
الرفاق على عرض المبادئ نفسها ، باستثناء ميكويان الذي كان آخر المتكلمين .
كرر ما كان قاله لي قبل الجلسة ، وعلى وجه التحديد : ان بيريا سيقبل انتقاداتنا
بصدق ويعمل على اصلاح نفسه ، وانه ليس حالة ميؤوساً منها ، وانه لا يزال
مفيداً للقيادة الجماعية .

وعندما انتهى الجميع من الكلام ، كان من المفترض في مالنكوف ،
كرئيس للجلسة ، ان يجمع خلاصة ما قيل لكي يخرج منها باقتراح ، لكن اعصابه
خانت في اللحظة الاخيرة . فبقيت الجلسة معلقة بعد نهاية آخر كلمة . وساد صمت
طويل ، ورأيت اننا نتخبط في مشكلة ، فطلبت من الرفيق مالنكوف حق الكلام ،
لاتقدم باقتراح . واقترحت ما كنا اتفقنا عليه : ان يعفي بريزيبوم اللجنة المركزية
بيريا من مسؤولياته كنائب لرئيس مجلس الوزراء ووزير للشؤون الداخلية ، ومن
كل المناصب الحكومية الاخرى التي يتقلدها .

وكان مالنكوف لما يزل في حالة رعب . وعلى ما اذكر لم يطرح اقتراحي على

التصويت ، بل ضغط الزر الذي يعطي الاشارة السرية للجنرالات الذين كانوا ينتظرون في الغرفة المجاورة . وكان جوكوف اول من دخل ، ثم تبعه موسكاليينكو والآخرون . وقال مالنكوف للرفيق جوكوف بصوت واهن : « انني كرئيس لمجلس وزراء الاتحاد السوفياتي اطلب منك ان توقف بيريا في انتظار نتائج التحقيق في التهم الموجهة اليه » .

وأمر جوكوف بيريا بقوله : « ارفع يديك » .

وفك موسكاليينكو ورفاقه العسكريون عقال مسدساتهم تحسباً لاية محاولة تبدر من بيريا الذي مد يده يحاول التقاط حقيبة يده التي كانت عند النافذة ، فامسكت بذراعه لامنعه من سحب اي سلاح من الحقيبة . لكننا اكتشفنا في ما بعد انه لم يكن يحمل سلاحاً ، لا في الحقيبة ولا حول وسطه . ولم تكن حركته السريعة سوى رد فعل عفوي .

ووضع بيريا على الفور في مبنى مجلس الوزراء ، إلى جانب مكتب مالنكوف في ظل حراسة مسلحة . وفي هذه المرحلة برز سؤال جديد : « الآن وقد اوقفنا بيريا ، اين نضعه ؟ لا نستطيع تسليمه إلى وزارة الشؤون الداخلية لأن جميع من هناك من رجاله . وكان نواب بيريا كروغولوف (١) وسيروف . وبالكاد كنت اعرف كروغولوف الا انني عرفت سيروف جيداً وكنت اثق به . ولم يزل هذا رأيي حتى الآن . واذا كانت قد علقت بسمعته بعض الهنات فذلك يعود بالفعل إلى كونه من رجال التشيكا الذين كانوا ضحايا سياسة ستالين العامة في القمع والاضطهاد . في البدء اقترحت ان يوقف سيروف بيريا ولكن الآخرين اعترضوا . واخيراً قررنا ايكال امر بيريا إلى الرفيق موسكاليينكو الذي أمر رجاله بنقل بيريا إلى تحصين قائم في مقره . وكنت واثقاً من ان الرفيق موسكاليينكو سيفعل ما تمليه قضية الحزب .

وعندما انتهى كل شيء انتحى بي مالنكوف جانباً وقال : « اصغ إلى ما لدي رئيس حراسي » . ثم توجه الرجل إلي وقال : « لقد سمعت للتو ان بيريا اعتقل . اريد ان ابغلك انه اغتصب ابنة زوجتي القاصرة . قبل سنة تقريباً ماتت جدتها ، وكان علي زوجتي ان تذهب إلى المستشفى تاركة الفتاة وحدها في

(١) س. ن. كروغولوف كولونيل جنرال في بوليس الأمن وكان لفترة نائب مدير «سيرش» ومسؤولاً عن المحافظة على سلامة ستالين وروزفلت وتشرشل في بالطا وطهران . كان مشهوراً بحبه الظاهر للانتقام والقسوة . إلا أنه خلافاً لبعض زملائه ، كان شخصياً ، شجاعاً . وقد خلف بيريا كوزير للداخلية .

المنزل . وذات مساء ذهبت لتشتري بعض الخبز من مكان قريب من المبنى الذي يسكنه بيريا . وهناك وقعت على رجل عجوز يتطلع إليها بنهم . فأصبحت بهلع شديد ، ثم جاء احدهم واخذها إلى منزل بيريا الذي أرغمها على تناول العشاء معه . ثم سقاها شيئاً ما ، فغلبها النعاس فاقدم على اغتصابها . »

قلت لهذا الرجل : « اريد منك ان تخبر قاضي الاتهام بكل ما اطلعني عليه » . وبعد ذلك اعطينا لائحة باسماء أكثر من ١٠٠ فتاة وامرأة اغتصبهن بيريا . لقد استخدم الاسلوب نفسه معهن جميعاً : عشاء ونيذ فيه دواء منوم .

وعندما وضع بيريا في الانفراد طلب ورقة وقلماً . وساورتنا شكوك ، لكننا قررنا في النهاية اعطائه ما يريد لعله يعاني من رغبة في الاعتراف بصراحة من التهم الموجهة اليه . الا انه بدأ يكتب رسائل : الاولى كانت إلى مالكوف : « ايغور ، الا تعرفني ؟ ألسنا صديقين ؟ لماذا وضعت ثقتك في خروشوف ، انه هو الذي زجك في هذا الأمر . أليس كذلك ؟ » وهكذا دواليك ، وارسل لي كذلك رسالتين او ثلاث يقسم فيها انه انسان صادق ، إلى آخر المعزوفة !

لم نكن نثق بقدرة النائب العام على التحقيق في قضية بيريا بصورة موضوعية فعزلناه واستبدلناه بالرفيق رودينكو (١) . وعندما شرع رودينكو يستجوب بيريا ، وجدنا انفسنا ازاء رجل مرعب حقاً ، بل وحش لا مقدسات الا وينتهكها . وعندما فتحنا الملفات وحولناه إلى المحاكمة اطلعنا على الاساليب التي كان يتوسلها لتحقيق اغراضه . يسعنا القول انه كان بعيداً عن الشيوعية وعن اي ملمح من ملامح الانسانية .

وواجهتنا بعد اعتقال بيريا مشكلة هي ما عسانا نفعل بميركولوف وزير اشراف الدولة (٢) . وانني اعترف بانه كان موضع احترامي وكنت اعتبره عضواً صالحاً في الحزب . كان شخصاً مثقفاً ، دون ريب ، وبصورة عامة كان يعجبني . على هذا الاساس قلت لرفاقي « لا يعني كون ميركولوف معاوناً لبيريا في جيورجيا انه بات شريكه في جرائمه . لعله لم يكن كذلك . ثم اننا لا نستطيع معاملة كل من تعاون مع بيريا على انه شريكه . اقترح استدعاء ميركولوف

(١) ر.أ. رودينكو، أوكراني كان النائب العام السوفياتي الأول في محاكمات نورنبورغ. ثم أصبح النائب العام للاتحاد السوفياتي في ١٩٥٣ .

(٢) ف.ن. ميركولوف ، شخصية مرموقة ولكنه من جهاز الشرطة السرية المقيت وأحد أقرب المقربين من أعوان بيريا . حل محله أباكوموف في وزارة الشؤون الداخلية في ١٩٤٦ ولم يلبث ان أصبح وزير اشراف الدولة ، وقد حوكم مع بيريا واعدم .

والتحدث اليه . لربما يساعدنا على ايضاح بعض المسائل الغامضة حول بيريا . »
وانخذنا ترتيباً باستدعاء ميركولوف إلى مكتب اللجنة المركزية واخبرناه بما حدث .
من اعتقال بيريا الى التحقيق معه . وقلت له : « لقد عملت مع بيريا سنوات عديدة ، ايها
الرفيق ميركولوف ، ولذلك نعتقد ان بوسعك معاونة اللجنة المركزية في تحقيقاتها . »
- سأفعل كل ما تريدون .
- اذن اكتب تقريراً وارفعه لنا .

ومضت ايام قلائل سلمنا في نهايتها ميركولوف مذكرة مطولة ، كانت دون
قيمة البتة . بل كانت اقرب إلى قصة خيالية . وقد كان ميركولوف كاتباً اديباً
الى حد ما . فقد الف الروايات وكان بارعاً في الكتابة الخيالية . وبعد ان احلت
ما كتب إلى النائب العام ، طلب رودينكوف موعداً مني . وعندما جاءني اخبرني
انه بدون اعتقال ميركولوف فان تحقيقاتنا مع بيريا تبقى ناقصة . ووافقت اللجنة
المركزية على اعتقال ميركولوف . واني آسف ان ميركولوف الذي وثقت به
كشف عن تورط عميق في بعض جرائم بيريا . لذلك صدر حكم بحقه وكان عليه
تحمل المسؤوليات نفسها . وفي كلماته الاخيرة ، بعد صدور الحكم ، لعن
ميركولوف اليوم والساعة التي تعرف فيها على بيريا . وقال بان بيريا قاده إلى
هذا المصير . وهكذا : في النهاية ، اعترف ميركولوف بجرائمه واصدر حكمه
الخاص على الرجل الذي ورطه في عالم الجريمة .

كان بين الاشخاص الذين عادوا إلى حياة نافعة ونشطة بعد سقوط بيريا ،
الكسندر بيروفتش دوفجنكو ، مدير الافلام البارع والذي كان قد انزل به ،
بغير حق ، العار اثناء الحرب . بعد فترة قصيرة على اعتقال بيريا جاءني دوفجنكو
الى مكتبي واخبرني القصة التالية :

ذات يوم استدعى المدير شواريلي الذي انتج فيلم « سقوط بيرلين »
دوفجنكو . وكان شواريلي يعتمد كلياً على عطف ستالين ، ولم تكن محض صدفة ان
فيلمه المذكور ابرز ستالين يحول في عالم الاستراتيجية في قاعة ضخمة وهو محاط
بالمقاعد الفارغة - وكأنه بنفرد بهذه العظمة وحيداً ، لولا وجود الجنرال بوسكر بشيف
رئيس القسم الخاص في اللجنة المركزية . بكلام آخر كان شواريلي مترلفاً لعبناً .
وبعد موت ستالين واعتقال بيريا ارسلناه إلى الاورال . ولست اعرف اي مكانة
يحتل في عالم الافلام اليوم وان كاد قد افاد من النقد الذي وجه اليه بعد موت سيده
وحاميه ستالين .

على اي حال فقد استدعى شواريلي دوفجنكو وقال له : « ايها الرفيق دوفجنكو .
اشير عليك بالذهاب إلى الرفيق بيريا ومقابلته . انه مهم جداً بك ولديه اقتراح

لمصلحتك يريد عرضه عليك » . ووقع دوفجنكو في حيرة من أمره فلماذا شواريلي يقول له بوجوب الذهاب إلى بيريا ؟ ثم ما علاقة وزارة الشؤون الداخلية بالأمر ؟ وفي النهاية قرر ان لا يذهب .

واوضحت لدوفجنكو : « ايها الرفيق بتروفيتش ، ان شواريلي كان يحاول تجنيذك عميلاً لبيريا . فهو يعرف انك شخص ذو نفوذ وعلى ذلك تكون نافعا لمخططات بيريا في اوكرانيا . كان يريد بيريا الاعتماد عليك عندما يبدأ بحمام الدم في اوكرانيا ، وهو لا يعرف اسلوباً للعمل غيره » . كان دوفجنكو في رأيي مواطناً صادقاً مستقيماً مخلصاً . كان يؤخذ عليه انه جابه القادة احياناً بكلام غير ملائم ولكن هل الافضل سماع مثل هذا الكلام من مواطن صادق على ان نسمعه من الاعداء . بوسعك دوماً ان تخاطب العقل في الانسان الصادق فتصلحه ، واذا كان على حق تنتفع منه . وبعد موت الكسندر بيروفيتش دعوت الاوكرانيين إلى تسمية ستديو كيف للافلام باسمه . وهكذا فعلوا .

وكانت قصة دوفجنكو عن كيف حاول بيريا استخدامه ، نموذجاً عن العديد من مثيلاتها ، وبعضها اربح كثيراً من هذه . وقد أخذت هذه القصص تنكشف بعد اعتقال بيريا .

مؤتمر الحزب المشرون

اعتقل بيريا في حزيران ١٩٥٣ . وهانحن نقفز هنا في الاحداث الداخلية إلى الذروة في مؤتمر الحزب العشرين المنعقد في شباط ١٩٥٣ . بعد ذلك يخيم الصمت . وكانت فترة ١٩٥٣ - ١٩٥٦ بالنسبة لخروشوف هي فترة التجربة بين النجاح أو الفشل . ففي أيلول ١٩٥٣ ، تقلد منصب السكرتير الأول للحزب وهو منصب ترك فارغاً منذ ارغم مالنكوف على التخلي عنه (مع احتفاظه برئاسة الحكومة) بعد عشرة أيام من موت ستالين . ومنذ ذلك الحين أخذت اسطورة القيادة الجماعية تتلاشى . وفي ١٩٥٥ ارغم مالنكوف على الاستقالة من رئاسة الوزارة وحل محله بولغاين الذي كان دوره ثانوياً وانتقالياً . غير ان مالنكوف استمر قوة في المكتب السياسي ، وكان من الجلي ان مولوتوف وميكويان وسواهما من أعضاء القيادة قد وضعوا خروشوف تحت رقابتهم الشديدة وهو الرجل الذي اختاروه لقيادة الحزب ، الا ان الدلائل أخذت تتضاعف بان خروشوف كان منهكاً في مسمى مكشوف للسيطرة . كان يقلب الزراعة والصناعة رأساً على عقب ، وحملته في سبيل الأرض العذراء معروفة . كان يظهر نفسه على الصعيدين الداخلي والخارجي على أنه القائد الحقيقي ، حتى عندما كان بعض زملائه يقاومون

نشاط بعض سياساته . فميكويان مثلاً (وسواه أيضاً) اعترض على حملة الأراضي العذراء ، واعترض مولوتوف ، فاهينا علناً . كان خروشوف ناشطاً في تثبيت عبدة شخصيته . وكان كذلك (واستمر هذا حتى سقوط مالنكوف) يتبع الموقف التالي بالنسبة لمنعة روسيا ازاء امكان انفجار حرب ذرية وبالنسبة لتقديم الصناعة الثقيلة على سلع الاستهلاك . (وكان مالنكوف قد أعلن ان الاتحاد السوفياتي يدمر مع سائر العالم اذا ما انفجرت حرب نووية ، كما كان قد شرع في برنامج يحول فيه الاعتمادات من الصناعة الثقيلة إلى صنع سلع الاستهلاك) .

عند انعقاد المؤتمر العشرين للحزب كان خروشوف قد وصل إلى موقع سيطر دون ريب ، ولكن كان عليه الا تنتظر ستة أشهر تالية قبل أن يتوصل إلى السيطرة الكاملة . ففي حزيران ١٩٥٧ تم تحطيم الجناح «المضاد للحزب» : مالنكوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وسواهم . ولكنه رغم ذلك بقي ، على عكس ستالين ، معرضاً للسقوط اذا شاء زملاؤه الاقربون العمل ضده كما فعلوا في تشرين أول ١٩٦٤ .

ان قلة من تلازمة الشؤون السوفياتية يعتبرون سرد خروشوف في خطبه السرية ضد ستالين وافيّاً ، ومن الواضح بان رفاقه ، وبصورة خاصة مالنكوف ، كانوا قد دفعوه إلى موقع مكشوف . وكانوا مختلفين في أهدافهم في هذا الأمر . فبعضهم كان مهتماً بتذكير الحزب ان ستالين قد مات وان خلفاءه هم في سدة السلطان . وغيرهم من كان قد وافق بتردد ، اعتقد ان خروشوف سيكون الضحية الأولى للمصافة المحتمة هوبوها .

ومن الواضح ان خروشوف الذي افتتح المؤتمر بتقريره العام لم يكن يرغب اطلاقاً في التنديد بسيد السابق قبل ان ينتهي المؤتمر . ولكنه قرر في النهاية ان يقلب الطاولة على رفاقه وان يربح بجرأة كلية الفضل في الاتجاه الجديد الذي كان يقاومه في السابق .

كانت مغامرة جريئة بل مغامرة رابحة عادت على صاحبها بالفوائد الكبيرة.

نشأت حالة مبهمة . مات ستالين ودفن ولكن إلى ان اعتقل ييريا كانت لم تزل السياسات الستالينية هي المتبعة . واستمر العمل كالعادة . ولم يخطر لاحد وجوب إعادة الاعتبار لأولئك الذين دفنوا في القبور وقد وصموا بانهم اعداء الشعب ، او اطلاق سراح السجناء من معسكرات الاعتقال واكثرهم بقي حتى المؤتمر العشرين ، اي ٣ سنوات بعد موت ستالين .

لم نستطع طول ثلاث سنوات ان نتفصم عن الماضي ولا حالفتنا الشجاعة والتصميم لرفع الستار عن ما اختبأ وراءه من اعتقالات ومحاكمات واحكام تعسفية واعدامات وما إلى ذلك مما حدث ابان حكم ستالين . وبدا كأننا بتنا

امرى نشاطاتنا في ظل قيادة ستالين فلا نستطيع تحرير انفسنا من سيطرته حتى بعد موته . ولم نستطع تحرير انفسنا من النتائج البسيكولوجية لهستيريا مطاردة اعداء الشعب حتى ١٩٥٦ واستمر اعتقادنا بالوهم الذي خلقه ستالين في اننا محاطون بالاعداء ، وان علينا مكافحتهم ، واننا باتباعنا الاساليب التي بررت على صعيد نظري وتكرست بالممارسة من قبل ستالين ، انما تضاعف من الاتصال الطبقي وتوطد مكاسب الثورة . لم نستطع ان نتخيل ان تلك الاعدامات كلها التي جرت خلال حملات التطهير ، كانت من وجهة نظر شرعية جرائم بحق ذاتها . لكن ذلك كان صحيحاً . لقد ارتكب ستالين اعمالا اجرامية تخضع في اية دولة في العالم للعقاب ، باستثناء الدول الفاشية كدولتي هتلر وموسوليني (١) .

ثم حدث اعتقال بيريا والتحقيق بقضيته . وظهرت فضائح صارخة عن الاجهزة السرية التي اخفيت عنا والتي تسببت بموت العديد من البشر . اذكر انني دهشت بصورة خاصة عندما اتضح ان كيروف قد اعدم كعدو للشعب . فقد كان كيروف اول قائد في الشمال نظم الدفاع عن بلادنا ضد الانكليز . ولكن حتى عندما تفتحت اعيننا ابان محاكمة بيريا ، فقد رفضنا التصديق بان ستالين نفسه كان وراء ارباب بيريا . فلهذه استمرينا نعطي الحزب والشعب تفسيرات غير صحيحة عما حدث في الماضي ، اذ وضعنا اللوم كله على بيريا . كان شخصية مناسبة لتحميلها الازوار . وبذلنا كل ما بوسعنا لصون ستالين دون ان ندرك اننا بذلك كنا نحمي مجرمًا ، سفاحًا ، قاتلا جماعياً . اكرر ، حتى ١٩٥٦ لم نكن قد حررنا انفسنا من التبعية لستالين .

وشعرت لأول مرة بزيف موقفنا عندما ذهبنا إلى يوغسلافيا وتحدثنا إلى الرفيق تيتو في ١٩٥٥ . اذ عندما تعرضنا لموضوع الارهاب وذكرنا اسم بيريا كمسؤول عن جرائم عهد ستالين ، ابتسم الرفاق اليوغسلافيون بهزء وابدوا ملاحظات ساخرة . فاثارنا ذلك ودخلنا في جدل طويل دفاعاً عن ستالين . وتكلمت فيما بعد امام الجمهور ، دفاعاً عن ستالين عندما انتقده اليوغسلافيون . ومن الواضح الآن ان موقفي ذاك كان خاطئاً . فلم اكن ادرك ان الضرورة ليست إلى فضح الجرائم بقدر ما هي في تحديد المسؤوليات ووضع اللوم على من يجب حتى لا تنكرر الاساليب الستالينية ثانية في الحزب .

كنت لم أزل ابكي ستالين كفائد فذ قوي فقدناه . كنت اعرف انه مارس

(١) هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها خروشوف أو أي سياسي سوفياتي إلى حد المساواة بين أفعال ستالين وهتلر .

سلطانه بتعسف واحياناً في الاتجاه غير الملائم ، ولكنني كنت لم ازل اعتقد ان قوة ستالين الرئيسية استخدمت في سبيل تعزيز الاشتراكية وتوطيد مكاسب ثورة اكتوبر . لربما توسل ستالين اساليب ، هي في رأيي ، غير سليمة بل حتى بربرية الا انني لم أكن قد شرعت بعد في تحدي حق ستالين الاساسي بمكانة عالية في التاريخ .

لكن كانت ثمة اسئلة بدأت تثار من دون ان يكون لدي جواب جاهز عنها . كنت بدأت اتساءل لماذا لم يطلق احد من جميع اولئك الذين اعتقلوا ولماذا لم يفرج عن أحد من جميع اولئك الذين سجنوا . وبدأت اشك في ما اذا كانت كل الاعتقالات والاحكام مبررة من وجهة نظر قضائية . ولكن ستالين هو ستالين . فقد كان له سلطان لا يضاهى حتى في الموت ، ولم يكن يخطر لي ان بوسعه اساءة استخدام سلطانه .

على اية حال ، فقد شعرت ، ربما بفعل ما تكشف عنه التحقيقات مع بيريا ، برغبة ملحة في رفع الستار اكثر قليلاً - لنعرف من هم الذين اعتقلوا بالتحديد وما هي الوسائل التي استخدمت في استجوابهم ، وقبل ذلك كله ما هو الدليل الذي اعتمد في اعتقالهم . وطرحنا المسألة على البريزيديوم في احدى جلساته واقترحت ان تقوم بتحقيق للحصول على صورة اوضح لما حدث في ظل ستالين (١) . وكنت متحمساً بصورة خاصة للقيام بهذا العمل نظراً لاقتراب موعد المؤتمر العشرين للحزب .

ولم يكن مفاجئاً الا يتحمس فوروشيلوف ومولوتوف وكاغانوفيتش كثيراً لاقتراحي هذا . وكما اتذكر ، لم يدعم مالنكوف اقتراحي بحماسة ، ولكنه لم يقم بما يحول دون تنفيذه . وشرحت للذين عارضوا الفكرة انه نظراً لكون المؤتمر العشرين سيكون هو المؤتمر الأول بعد موت ستالين ، فعلينا ان نثبت تحملنا لكامل مسؤولياتنا في حكم الحزب والبلاد . وان هذا يعني وجوب معرفتنا على وجه التحديد لكل ما حدث في ظل ستالين وحقيقة الدوافع التي كنت وراء قرارات ستالين حول مختلف القضايا ، لاسيما تلك المتعلقة بالاشخاص الذين اعتقلوا .

وكان ثمة سؤال لا بد ان يواجهنا في المؤتمر : لماذا يبقى هذا العدد الكبير من الناس في المعتقل وما عسانا نفعل بالنسبة لهم ؟ وباختصار ، كان علينا الاجابة عن

(١) عينت فعلاً لجنة تحقيق من قبل بريزيديوم الحزب في ١٩٥٤ وذلك ، فوراً ، بعد ان اعدم بيريا . وأعلن خروشوف في الخطبة السرية ان ٧٣٧٩ شخصاً قد اعيد اعتبارهم نتيجة ابحاث هذه اللجنة .

اسئلة حول ما حدث ابان حكم ستالين وعن مشاكل نابعة من سياساته ولم نزل نتحمل نتائجها بعد موته .

والفنا لجنة وجعلنا بوسيلوف مسؤولاً عنها (١) . ان الادلة التي جمعتها لجنة بوسيلوف كان لها وقع المفاجأة بالنسبة لبعضنا . واعني بذلك انا نفسي ، وبولغانين ، وبيرفوخين ، وسابوروف واخرين . واعتقد ان مولوتوف وفوروشيلوف كانا اكثر الناس اطلاعاً على الابعاد الحقيقية للاضطهاد الستاليني ، ولذا فانه لم يكن لديهما سبب للمفاجأة . وكذلك كان ميكويان مهياً أكثر من معظمنا لتصديق الحقائق التي كشفت . ولست متأكداً اذا كان قد عرف كل شيء ، ولكنه كان مقرباً جداً من ستالين . وكان العديدون ممن عملوا معه ومن كان يثق بهم قد جرفتهم موجات التطهير . ونظراً لمعرفتي بقدرة ميكويان على فهم الظاهرات وتقييمها كنت واثقاً انه كان على اطلاع بصورة عامة عما يجري حوله . وحتى لو لم يكن وافي الاطلاع ، فهو على الاقل قد قدر وهن التبريرات التي كانت تعطى للاعتقالات والاعدامات .

اما بالنسبة لكاغانوفيتش فاني لا اعتقد انه كان يعرف كل التفاصيل . ولم يكن ستالين بحاجة إلى اطلاعه على الاسرار ، اذ انه كان معروفاً بتبعيته التي تصل إلى حد قطع عتق ابيه لو ان ستالين امره . ولم يكن ستالين يحتاج إلى اطلاع كاغانوفيتش ايضاً ، لانه كان دوماً متملقاً مقيتاً يكشف الاعداء ويعرض الناس للاعتقال بمنة ويسرة .

ولا بد من كلمة عن مالنكوف . فقد كان مسؤولاً عن الملاك الشخصي للجنة المركزية ابان التطهيرات ولعب دوراً فعالاً في هذا المجال . فقد ساعد على ترقية اشخاص من صفوف الحزب ثم ارساهم إلى الموت . انا لا اقول انه كان يتخذ المبادرة في الاضطهاد والاعدامات ، لكن مئات من الناس صفوا في المناطق التي اوفده ستالين اليها لفرض النظام (٢) .

-
- (١) ب.ن. بوسيلوف (اسمه الحقيقي فيجليسون) كان من ايدولوجيي الحزب الرئيسيين. وكان يرئس تحرير البرافدا بين ١٩٤٠ - ١٩٤٩ ثم عين مديراً لمعهد ماركس - انجلز - لينين - ستالين بين ٤٩-٥٢ ، وكان ديماغوخياً . عمل مع سوسلوف . ولم يعرف من قبل انه كان مسؤولاً عن اللجنة التي جمعت الدلائل للخطبة السرية .
- (٢) كان مولوتوف ومالنكوف من الناشطين في الموافقة على جرائم ستالين وتشجيعها. كما ان خروشوف نفسه كان كذلك ، على الاقل في أوكرانيا . أما الباتون فقد علموا على الأقل ، بتلك الجرائم وتسروا عليها .

وعشية انعقاد المؤتمر العشرين لم أرد ان اقدم التقرير العام إلى المؤتمر . كان من رأيي أنه طالما نحن مقبلون على اعلان قيادة جماعية ، فليس من الصواب ان يلقي السكرتير الأول للجنة المركزية التقرير العام . واقترحت في جلسة للبريزيديوم قبل انعقاد المؤتمر ان نبحث في من سيتولى وضع التقرير العام . ونظراً لكون مولوتوف هو العضو المتقدم بيننا ، فهو الانسب ليكون خطيب المؤتمر . ولكن الجميع اصرروا بالاجماع على ان القي انا التقرير .

واحسنت أنهم يريدونني ان افعل ذلك صادقين . وكان أحد الاعتبارات ان لقاء السكرتير الاول للجنة المركزية للتقرير العام لا يثير حساسيات يمكن ان يثيرها اي شخص آخر ، نظراً لتعدد المرشحين الطامحين بمركز الصدارة في القيادة الجديدة . ولما لم يكن هنالك بعد ستالين من زعيم معترف به (١) رغم توفر المرشحين للزعامة ، لذلك فقد طلب مني كسكرتير اول ان القي بنفسني البيان العام .

وضعت مسودة التقرير وعرضتها على المناقشة والاقرار . وكان التقرير حصيلة تأليف جماعي . فقد اعتمدت اللجنة المركزية على معاهد البحوث وفئات أخرى تستدعي عادة للمعاونة في التقارير العامة .

افتتح المؤتمر ، فألقيت التقرير وبدأت المناقشة . كنا نواجه امتحاناً حقيقياً . كان الجميع يتساءلون اي نوع من المؤتمر سيكون هذا الذي ينعقد بعد موت ستالين ؟ ويجدر بي القول ان المؤتمر كان يجري بصورة مرضية . وتوالى الخطباء الواحد تلو الآخر يؤيدون خط اللجنة المركزية . ولم يبد اي منهم اية معارضة (٢) ولكن رغم ان المؤتمر كان يسير على نحو مرض وقد تقبل تقريرني بالترحيب ، الا انني لم اكن راضياً . كانت تعذبي الفكرة الآتية : « ان المؤتمر سينتهي . لكن ماذا بعد ذلك ؟ ان مئات الألوف من الناس الذين اعدوا سبطلون في ضامائرنا

(١) كان ثمة «مرشحون» للزعامة دون ريب : خروشوف ومالينكوف مثلاً . وكان خروشوف يظهر نفسه في كل مناسبة سواء داخل الاتحاد السوفياتي أو خارجه - في بلغراد ودلهي وجنيف - على أنه هو السيد . وفي الجمهوريات التي كان يسيطر عليها أنصاره (مثل أوكرانيا وكازاخستان) أخذت عبادة شخصية خروشوفية بالظهور فالأزدهار . الا ان مالينكوف كان لم يزل يقاوم . كان خروشوف ، لا يسمح ، الا اذا اعترف بالهزيمة ، لاحد سواء بالقاء التقرير العام في المؤتمر العشرين .

(٢) هل يبعث هذا على الدهشة ؟ ان القيادة الجديدة قد أمضت ثلاث سنوات وهي تعمل على مها شاة أية معارضة .

وبينهم ثلثا اعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا في المؤتمر السابع عشر (١٩٣٤) . حتى ان معظم الاعضاء الناشطين في تلك الايام قد اعدموا او اضطهدوا » . وبايجاز ، فان ما اكتشفته لجنة بوسيلوف كان يثقل وجداني . وأخيراً استجمعت قوتي وعزيمتي ، وعندما فرغت قائمة الخطباء الا من اعضاء البريزيديوم ، أثرت المشكلة من اساسها : « ايها الرفاق ، ماذا عسانا نفعل بشأن القضايا التي اكتشفها الرفيق بوسيلوف ؟ ماذا عسانا نفعل بصدد جميع الذين اعتقلوا او قتلوا ؟ لقد شارف المؤتمر على الانتهاء ، وسوف نفترق جميعاً من دون ان نقول كلمة في مفاصل عهد ستالين . لا نستطيع ان نبقى الناس في المنفى او في معسكرات الاعتقال بعد الآن ، اننا نعرف ان هؤلاء كانوا ابرياء . فلدينا ادلة لا يرقى اليها شك بانهم كانوا أبعد ما يكون عن ان يوصموا باعداء الشعب ، بل انهم كانوا نساء ورجالا شرفاء يقفون انفسهم على الحزب ، والثورة والقضية اللينينية ، قضية بناء الاشتراكية والشيوعية في الاتحاد السوفياتي . لا نستطيع ان نبقى الناس في المنفى ومعسكرات الاعتقال بعد الآن . مفروض ان نتوصل إلى طريقة حول كيفية ارجاعهم » (١) .

وما ان ختمت كلمتي حتى اخذ الجميع يهاجموني لاسيما فوروشيوف : « ماذا دهاك ؟ هل تعتقد ان بإمكانك ان تثير كل هذه الامور وتنجو بنفسك ؟ ما هو اثرها في اعتقادك على هيئة الحزب والبلاد ؟ ليس بوسعك ابقاء ما ستقوله سراً بل سيشتع وعندها تمتد الاصابع رأساً نحونا . ماذا سيكون بوسعنا ان نقول بشأن ادوارنا في ظل ستالين ؟ »

وتدخل كاغانوفيتش في الحديث يعارضني على الاسس نفسها . ولم يكن موقفه ينطلق من تحليل فلسفي عميق لقضايا الحزب المثارة بقدر ما كان يجادل خوفاً على نفسه . كان هاجسه الاوحد الهرب من اية مسؤولية تترتب عليه . وكان يريد التأكد من انه لم يترك آثاراً تدل على اشتراكه في هذه الجرائم . فاجبت هؤلاء المعارضين بقدر ما امكنتني من الهدوء والاقناع : « ما زالت اعتقد انه يستحيل علينا ستر كل شيء . فعاجلاً ام آجلاً سيعود الناس من السجون ومعسكرات الاعتقال إلى المدن . وسوف يخبرون اقاربهم واصدقائهم وكل معارفهم بما حدث . وسيعلم الحزب كله ، بل البلاد بأسرها ، بان اشخاصاً قد قضوا عشرة او خمسة

(١) ان خروشوف لا يذكر هنا ان ميكويان قد فجر في المؤتمر قبلة بابدائه ملاحظات تضمنت نقداً عنيفاً لستالين ، وبالتالي لخروشوف ، ولو مداورة . كما ان غيره أبدى ملاحظات ضد «عبادة الشخصية» دون تحديد ، وان خروشوف وحده امتدح في كلمته ستالين لتزيقه «اعداء الشخص» رغم أنه بعد احد عشر يوماً اضطر في خطبته السرية إلى استنكار استعمال هذا التعبير .

عشر عاماً في السجن . ولكن من أجل ماذا ؟ من أجل لا شيء . ان الاتهامات ضدهم كانت ملفقة ، ولو جئنا بهم إلى المحاكمة ستبخر قضايا الادعاء ضدهم في الهواء . ارجوكم ايها الرفاق ان تفكروا بشيء آخر هو اننا نعتقد هذا المؤتمر ، وهو الأول بعد موت ستالين ، لذلك يتوجب علينا ان نصارح مندوبيه بكل ما حدث في الماضي . صحيح ان المقروض ان نقدم تقريراً عما قمنا به بعد موت ستالين ، ولكن كأعضاء في اللجنة المركزية ابان حياة ستالين علينا ان نعلمهم بحقيقة ما حدث في تلك الفترة . كيف بإمكاننا التظاهر باننا لا نعرف ما حدث ؟ »

وكررت رجائي إلى البريزيديوم ان بدعمني في موقفني هذا لكن رد الفعل كان عاصفاً . وردد فوروشيلوف وكاغانوفيتش في صوت واحد تقريباً : « ان ذلك سيؤذي . وحتى لو لم تكن نعرف ما حدث فان ذلك سيكون سيئاً ايضاً . سيظل علينا ان ندفع الثمن » .

واجبتهما : « اذا كنتم تعتبرون حزبنا يقوم على مبدأ الديمقراطية المركزية فاننا كفادة لم يكن يحق لنا على الاطلاق ان لا نعرف ما كان يحصل . ان البعض منا لم يعرف الكثير من الأمور لأننا كنا جزءاً من نظام لم نطلع فيه على ما يفترض ان نطلع عليه . وكان يقال لنا لا تحشروا انوفكم في كل شيء . فامتلتنا . ولكن لم يكن الجميع في هذا الموقف . فبعضنا عرف ما حصل ، وبعضنا ادخل انفه حتى تلتطخ بالاحداث . ولكن مهما تفاوتت نسبة المسؤولية بيننا ، فاني مستعد كعضو في اللجنة المركزية منذ المؤتمر السابع عشر (١٩٣٤) ان اتحمل قسطين من المسؤولية حتى لو رأى الحزب من المناسب ان يوبخ جميع اولئك الذين كانوا في مواقع القيادة في ظل ستالين وحكمه التعسفي » .

وهذه المرة اعترض مولوتوف : « الاترى ماذا سيحدث ؟ » ومضى فوروشيلوف في احتجاجه الصارخ بان ما ادعوا إلى تحقيقه ينزل غضب الحزب على رؤوسنا ، وأخذ يكرر قوله « من يطلب منا ان نفعل ذلك ؟ من يقول ان علينا ابلاغ المؤتمر هذه الأمور ؟ » .

اجبت « ان احداً لا يلزمنا . ولكن الجرائم قد ارتكبت اليس كذلك ؟ علينا ان نقر على الاقل بذلك بيننا وبين انفسنا . ولا محالة ان الناس سيكشفون الأمر . فاذا صمتنا ، أصدرنا احكامهم علينا . انا لا اريد حصول ذلك . انني لا ارجب في تحمل المسؤولية على هذا النحو . بل افضل ان نكشف نحن الأمر بأنفسنا » . وكان صعباً جداً التوصل إلى اتفاق حول هذا الموضوع . ورأيت ان من المستحيل حمل البريزيديوم على الوصول إلى قرار ، كما اننا لا نستطيع من جهة أخرى ، ان نطرح الموضوع رسمياً على المؤتمر الا بعد حصول الاتفاق فيما بيننا .

وعندها قررت ان اجرب الذريعة الآتية: « ان المؤتمر الحزبي يسير على اتم ما يرام ، ولكن النظام الداخلي المطلوب توفره لقيادة الموحدة من قبل اللجنة المركزية قد انهار . فهل لي ان اذكركم بان لكل عضو في البريزيدوم الحق في ان يتكلم في المؤتمر ويعرب عن وجهة نظره حتى ولو لم تطابق خط التقرير العام » . وهكذا لم اعد في حاجة إلى ان ابلغهم اني مستعد اذا اقتضت الضرورة ان القي مثل هذا الخطاب . واضفت : اذا كنا نريد ان نعترف بالفساد التي ارتكبتها ستالين ، فيجب ان نفعل ذلك الآن . وان اعتراف المجرم يخفف عليه جرمه . فلو انتظرنا حتى المؤتمر الحادي والعشرين ، يكون الاوان قد فات ، وتلقينا التوبيخ من الحزب » .

وانخذ احدهم المبادرة وقال « حسناً . اذا كان هذا هو الوضع الذي نحن فيه ، فان من الافضل ان يلقي احدنا بياناً عن مفسدات ستالين » . وبالنسبة وافق الجميع ولو بفتور على وجوب القاء البيان . واعتقد ان بولغانين ويروفوخين وسابوروف وربما مالنكوف اعطوني تأييدهم الشخصي .

وهكذا بقيت مسألة الشخص الذي سيلقي البيان . فاقترحت اسم بوسيلوف نظراً لكونه رئيس اللجنة التي قامت بجمع الادلة التي بالامكان اعتمادها في البيان . ولكن الآخرين اعترضوا وقالوا ان علي ان اقيه . فرفضت اذ انه سبق لي والقيت التقرير العام دون ذكر شيء عن ادلة بوسيلوف ومكشفاتنه ، فكيف القي الآن بياناً جديداً نرتكر عليها ؟ ولكن الآخرين اصرروا قائلين : « اذا القي بوسيلوف البيان فان الناس سيدأون بالتساؤل : لماذا لم يقل خروشوف شيئاً عن هذا الأمر في التقرير العام ؟ وذلك قد يقوي الانطباع بوجود انشقاق في القيادة » . ان هذه الحجة تستحق التقدير . واخيراً استسلمت . وتقرر ان القي بياناً ترتكز خلاصته على ادلة اللجنة . وطلبنا من بوسيلوف ان يحول التقرير إلى بيان . وقررنا عقد جلسة خاصة مغلقة القيت خلالها خطابي (١) .

(١) ان وضع البيان السري لا بد انه كان معقداً أكثر مما يقوله خروشوف هنا . فلا بد انه كان معقداً قبل انمقاد المؤتمر لانه طويل وسهب يضم عشرين ألف كلمة مليئة بالتفاصيل وتدل على جهد مركب (مع مقاطع قصيرة يبدو ان خروشوف نفسه أضافها في اللحظات الأخيرة) . ولو ان خروشوف قصد التنديد بستالين لكان أعد ذلك في التقرير العام كما فعل ميكويان في بيانه . ويبدو ان خروشوف وقع تحت ضغط جعل من المحال بالنسبة اليه انهاء عبادة شخصيته أكثر ، ثم انه تصرف بحجة فحاول ان يستغل حالة سيئة لمصلحته بان يبرز أنه هو الرجل الذي يتجرأ ان يتكلم .

واصفى المتدوبون بصمت تام . وكان الجو هادئاً في القاعة الضخمة بحيث امكنك ان تسمع صوت ذبابة تطير . رسيطر الدهول على الحاضرين وهم يستمعون إلى الفطائع التي تعرض لها اعضاء الحزب من بلاشفة قدماء وحزبيين شبان على السواء . وكانت هذه اول مرة يستمع فيها معظمهم إلى شيء من المأساة التي عاشها حزبنا : مأساة تنطلق من المرض في نفسية ستالين التي حذرنا منها لينين في وصيته التي اكدها ستالين في اعترافه امامي وامام مالنكوف : « انا لا اثق باحد حتى بنفسني » .

وهكذا ولد البيان عن مفاسد ستالين في المؤتمر العشرين للحزب . كان من المفترض ان يكون سرياً ، لكنه كان في الواقع أبعد من ان يكون كذلك . واتخذنا اجراءات للتأكد من ان نسخاً منه وزعت على الاحزاب الشيوعية الشقيقة حتى يتسنى لها الاطلاع عليه . وعلى هذا النحو تلقى الحزب البولوني نسخته . وعند انعقاد المؤتمر العشرين توفي سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني الرفيق بيروت .

وحدث اضطراب كبير بعد موته ، ووقعت وثيقة البيان السري في ايدي بعض الرفاق البولونيين الذين كانوا معادين للاتحاد السوفياتي فاستخدموه لاغراضهم الخاصة ، ووزعوا نسخاً منه . وقيل لي ان النسخة كانت تباع بسعر بخس . وهكذا اصبح بإمكان عملاء الاستخبارات من اي بلد شراؤها من السوق بثمان بخس .

وعلى هذا النحو تيسر نشر الوثيقة . ولكننا لم نخبئ البيان علناً . واذكر انه عندما كان الصحفيون يسألونني : « ماذا في امكانك ان تفيدنا عن هذا البيان ؟ » كنت اجيبهم ان عليهم ان يوجهوا اسئلتهم إلى (ألن) دالاس ، اي الاستخبارات الاميركية ا » (١) .

اذ اعود بالذاكرة إلى الوراء ارى باننا احسنا تكليف بوسلوف باجراء التحقيقات . وانني مرتاح لكوني تحيئت اللحظة المناسبة واصررت على القاء بيان في المؤتمر العشرين حول هذا الموضوع ، ولو لم افعل لانعكس الأمر . فقد كنا في حالة غير مستقرة . كان الناس في السجون ومعسكرات الاعتقال ولم يكن بإمكاننا تفسير ما حدث لهم ، لاسيما بعد الافراج عنهم . ولو اننا استعنا بطريقة تحميل بيريا كل الاثام التي ارتكبها ستالين ، لكننا قد كررنا ما حصل بعد محاكمة

(١) انه لجدير بالتسجيل انها المرة الأولى التي يعلن فيها خروشوف ان الخطبة السرية وجدت فعلا .

بيريا من تحميله هو الاوزار كلها دفاعاً عن سمعة ستالين حتى يبقى « اب الشعب وصديقه ». فان نقول ان بيريا لا ستالين هو المسؤول ، هو كالقول بان ملاكاً ضلل الله بتقاريره فارسل البرد والرعد وكل الكوارث على البشر نتيجة هذا التضليل ، والناس لم يتألموا لان الله ارادهم ان يتألموا ، بل لان ذلك الملاك الشرير بيريا كان يجلس إلى يمين الرب .

ومنذ فترة غير بعيدة بينما كنت اصغي إلى الراديو استمعت إلى قراءة فصل من رواية شولوخوف « حاربوا في سبيل وطنهم » . وفيه يحاول المؤلف ميخائيل الكسندروفيتش ان يفسر في محادثة بين صيادين ما حدث من مفاصد في عهد ستالين . فيسأل احد الصيادين زميله : « ما رأيك بالرفيق ستالين ؟ يقولون انه لم يلحظ كل تلك الأمور الرهيبة التي كانت تحدث والتي ذهب ضحيتها اناس مخلصون وشرفاء حوكوا واعدموا . كيف سمح الرفيق ستالين بحدوث ذلك كله » . ويقول الصياد الآخر « حقاً ، انه لامر يصعب تصديقه » . ثم يسأل الأول : « اليس بيريا هو المذنب الأول ؟ ألم يكن هو الذي يفضل ستالين بتقاريره ؟ » « نعم ، كان بيريا الرهيب هو سبب ذلك كله » .

ان ميخائيل الكسندروفيتش لكاتب موهوب وانسان ذكي ، ولكن ليس من شأنه انه يعمل على استمرار هذا التفسير للبأساة التي تسببها ستالين للحزب . ثمة حقيقة بديهية ومطلقة وهي ان بيريا لم يخلق ستالين ، بل العكس هو الصحيح : ان ستالين هو الذي خلق بيريا . ومن قبل ، خلق ستالين يزهوف الذي لقبه ستالين بـ « القبضة الفولاذية » الخ ... وقبل يزهوف كان ياغودا . وستالين هو الذي اخترع ياغودا . واحدهم بعد الآخر دخل ثم خرج ، وهذا التبديل في شخصيات المسرح كان جزءاً من منطق ستالين . كان يستخدم اتباعه ومحاسبيه لتحطيم الشرفاء في الحزب الذين كان يعرف انهم بلا لوم او عيب في نظر الحزب والبلاد . ثم كان يقف ستالين بعيداً عن كل هذا ، بينما الارهاب يلتهم منفذيه انفسهم . وعندما كان الارهاب يستهلك عصبه من الجلادين كان يستبدلها باخرى . وبهذا المنطق توألوا الواحد بعد الآخر : ياغودا اولاً ، ثم يزهوف ، واخيراً بيريا . وكسرت الحلقة بموت ستالين ، وواجه بيريا محكمة الشعب كمجرم .

قبل انعقاد المؤتمر بقليل كنت قد استدعيت رودينكو (النائب العام) الذي كان قد تورط بقضايا عديدة في الثلاثينات وقلت له : « انني مهتم بامر المحاكمات العلنية (١٩٣٠) . قل لي كم كانت نسبة الصواب في الاتهامات التي وجهت إلى بوخارين وريكوف وسيرتسوف ولومينادز وكريستنكي والكثيرين غيرهم من المعروفين لدى اللجنة المركزية ، والمكتب السياسي والمكتب التنظيمي ؟ »

فاجاب الرفيق رودينكو انه من ناحية الاصول القانونية لم يكن هناك اي ممسك قانوني يسمح بالحكم على هؤلاء او حتى محاكمتهم . وقال ان القضية ضدهم استندت إلى اعترافات ادلوا بها تحت تعذيب جسدي ونفسي . وان مثل هذه الاعترافات المتزعة بمثل هذه الاساليب غير مقبولة كاساس قانوني لمحاكمة اي كان .

ومع هذا قررنا ان لا نقول شيئاً عن المحاكمات العلنية في بياتي . والسبب ان ممثلين في الاحزاب الشقيقة كانوا قد حضروا محاكمة ريكونوف وبوخارين وغيرهما من الزعماء . وقد عاد هؤلاء المندوبون إلى بلادهم وشهدوا بعدالة المحاكمة . ولم نرد ان نسيء اليهم ، ولذا قررنا تأجيل اعادة الاعتبار إلى بوخارين وزينوفيف وريكونوف والباقيين إلى أجل غير مسمى .

وكان من الافضل ان نقول كل شيء . ان الجريمة تنكشف دائماً . لكن برغم تلك الغلطة فان المؤتمر العشرين انجز الشيء الكثير . وكان انجازه الأهم هو انه بدأ السير في طريق تنقية الحزب من الستالينية وتوطيد المقاييس اللينينية ، تلك المقاييس التي كافح في سبيلها افضل ابائنا .

القسم الثاني
العالم الخارجي

البلدان الشقية

كانت بعثة خروشوف إلى فرسوفيا في ١٩٤٥ أكثر أهمية مما وصفها . فقد كان رئيساً للجنة التي عهد إليها بوضع الخطط لاعادة بناء مدينة دمرت تدميراً مربعاً ، فصارت كوماً كبيرة من الانقراض التي سودتها النار . وانها في الحقيقة جراً من خروشوف ان يقلل من ضخامة الصعوبات التي واجهها في فرسوفيا ، ثم في بلدان أوكرانيا ومدنها التي كان يحبها والتي لم يبق في بعض الأحيان منها شيء يدل عليها ، عدا صفوف المداخن النافرة من قلب الثلج لتظهر في شكل جبانة كثرت فيها شواهد القبور . ثم ان وصف خروشوف للعلاقات السوفياتية مع البلدان الدائرة في فلكها واقعي كثيراً . وهذا الوصف ، باستثناء عدد قليل من النوادر ، تكاد تنحصر أهميته الرئيسية في الضؤ الذي يلقيه على عقلية رجل يتحدث ويحدد موقف موسكو تجاه بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا والمجر مع الحكومات القائمة فيها على هذا الشكل : «... لقد تجنبنا عمداً أن نعامل الضغط على البلدان الاشتراكية الاخرى» . وهو يشير بذلك إلى جزء من العالم أقدم فيه الحكم الشيوعي ، عملاً بتعليمات ستالين ومساندة الجيش بسلطة من المحاكمات الفاضحة وأعمال القتل القانونية : راجك في المجر وكوستوف في بلغاريا وسلانسكي في تشيكوسلوفاكيا وآخرون أيضاً لا يحصر عددهم . وهكذا تحولت الاحزاب الشيوعية في أوروبا الوسطى والشرقية إلى نسخة طبق الأصل للحزب الشيوعي السوفياتي كما قولته التطهيرات الكبرى في الثلاثينات .

في كانون الثاني ١٩٤٥ اتصل بي ستالين هاتفياً إلى اوكرانيا وسألني قائلاً : «هل تستطيع ان تأتي إلى موسكو حالاً ؟ انا في حاجة ملحة اليك » . فانتقلت جواً إلى موسكو من كييف . فاستقبلني ستالين بحماسة وابتهاج وقال : « ان الرفقاء البولونيين طلبوا ان نساعدهم في اعادة بناء مرافق بلادهم العامة ، وبنوع خاص

شبكات المياه والمجارير . نحن حررنا فرصوفا ، ولكن البولونيين في حالة يأس ويقولون ان فرصوفا خرائب ولا يعلمون ماذا يفعلون او كيف يبدأون . وانت قد سبق لك ان اكتسبت خبرة واسعة في سرعة اعادة بناء المرافق الضرورية في المدن المخربة ، لذلك نريد ان نرسلك إلى فرصوفا لتشرف على العمل هناك » .

فاجبته قائلاً : « سأذهب بكل سرور ، غير انني اود ان اصطحب معي بعض الخبراء في ادارة الشؤون البلدية ، وفي الهندسة والكهرباء . واول شيء ينبغي عمله هو اعادة تشغيل محطة القوى الكهربائية في بولونيا ، ثم شبكتي توزيع المياه والمجارير » .

وطلبت من الرفيق ستراسمتوف ان يرافقني لعلمي انه منظم قدير وخبير في ادارة الخدمات الكهربائية . واخذت ايضاً بعض المهندسين الذين تخصصوا في شؤون محطات توليد القوى الكهربائية وفي مشاريع توزيع المياه وشبكات المجارير . وانتقلنا جميعاً بطريق الجو إلى فرصوفا .

وكانت الحكومة البولونية او « اللجنة » كما كانت تسمى في ذلك الزمن قد اتخذت مقرها في « براغا » ، وهي ضاحية من فرصوفا على الضفة اليمنى من « الفستولا » . وكان اوسوبكا - موراسكي رئيساً للوزراء ، والرفيق بيروت سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي البولوني (١) ، والجنرال سيخالسكي محافظاً لفرصوفا . وكنت التقيت بيروت من قبل ، ولكن هذه كانت اول مرة ألقى فيها سيخالسكي ، فكان انطباعي عنهما جيداً . وكان هذا الاخير شاباً نشيطاً محباً للعمل ، مهندساً معمارياً ماهراً . اما بيروت فكنت اعتبره شيوعياً صادقاً مخلصاً للقضية الماركسية - اللينينية . على ان ضعفه كان في انه خجول ، وطيب القلب ، يميل كثيراً إلى الثقة بالآخرين . وقد ادى هذا الضعف إلى بعض الارتباك في بولونيا في ما بعد ، عندما استغل زملاؤه ضعفه .

وانقسم المهندسون إلى ثلاث زمر مع زملائهم البولونيين . فعهد إلى الزمرة الاولى باعادة القوى الكهربائية بأسرع ما يمكن . وتولت الثانية اعمال توزيع المياه . وعهد إلى الثالثة باصلاح شبكة المجارير . وترك للبولونيين امر القيام

(١) هؤلاء جميعاً كانوا اعضاء في « لجنة لوبلين » الشهيرة التي ألفها الروس لتعمل بوصفها أول حكومة لبولونيا الشيوعية ، فكان اوسوبكا موراسكي أول رئيس للوزراء من ١٩٤٤-١٩٤٧ ، ثم اقل وأخيراً أمين في التطهير الذي جرى في ١٩٤٩ . ولم يلبث بيروت أن صار أول رئيس للبلا د . أما مركز سكرتير الحزب العام فكان في الواقع يتولاها غومولكا في ١٩٤٥ .

بتنظيف المدينة . وعهدت إلى الرفيق سترامتوف بتولي الاشراف على هذه الاعمال بمساعدة اخصائيين بولونيين وروس . وكان عليه معالجة بقية المشاكل التي قد تنشأ ، ثم اطلاعي واطلاع الرفاق البولونيين على الحالة العامة .

وكان لدى رجالنا بعض الاخبار الحسنة لينقلوها لنا . فقد ظهر ان محطة توليد الكهرباء لم يلحقها التخریب الا من الخارج وان بقية المعدات والاجهزة في داخلها صالحة للعمل . وكان البولونيون قد ظنوا ان المحطة دمرت تماماً . ثم ان الآلات الميكانيكية ومضخات الماء في بقية انحاء المدينة كانت ايضاً لا تزال صالحة للعمل ، كما ان شبكة المجاري لم تكن على ما يظهر قد تضررت كثيراً . وسررت لسماعي كل ذلك . وبعد ايام قليلة من الفحص والتدقيق ، قلت للرفيق بيروت مازحاً : « لماذا لا تدفع نفقات رحلتنا واستشارتنا باعطائنا نصف القوى الكهربائية التي سوف نعيدها إلى العمل في فرصوفيا ؟ اننا من المؤكد نستطيع الافادة منها في كييف . » وكنت اشير بذلك إلى الحالة المشؤومة التي كانت سائدة في كييف في ذلك الزمن . فمحطة توليد الكهرباء هناك دمرها الالمان تدميراً تاماً .

استعادت فرصوفيا الكهرباء والماء ، ففرح بيروت كثيراً وشكرنا بحرارة وطلب لنا ان ننقل تحياته إلى الرفيق ستالين . وكان يتكلم بكل اخلاص . وقبل سفرنا اقترح علي الرفيق بيروت قائلاً : « عندنا هنا شخص ذو اهمية كبيرة في الحزب الشيوعي البولوني هو الرفيق فلاديسلاف غومولكا . فليتك تزوره في منزله ، لانه مريض ولا يستطيع الخروج منه » .

وهكذا ذهبت لزيارة الرفيق غومولكا ، فاذا هو في شقة مظلمة قذرة مؤلفة من غرفة واحدة . وكانت زوجته تغسل الملابس عند وصولنا . وكان غومولكا جالساً على كرسي وقد لف ما يشبه فوطة سوداء حول عنقه . ولم يكن الرفيق البولوني يتكلم الروسية جيداً ، غير اننا استطعنا بواسطة المترجم ان نفاهم ، فاعطاني غومولكا تقييمه للحالة العامة في بولونيا واخبرني كيف يجري تنظيم العمل الحزبي فتأثرت بحديثه . وبدا لي انه يعلم من اين يبدأ تنظيم اعمال الحزب والحكومة . وبالاختصار ترك غومولكا اثراً قوياً عندي بانه زعيم سياسي ورجل دولة قدير . وختم حديثه معي قائلاً : « انني مريض الآن ، ولكن سوف انهض واتجول قبل مضي وقت طويل » .

وعندما قدمت لستالين تقريراً عن رحلتي ، اخبرته بأمر غومولكا واوصيت به

كثيراً (١) .

وابدى ستالين ارتياحه للانباء التي نقلتها اليه عن بولونيا. وسر كثيراً لتمكنا من مساعدة البولونيين لان هذه المساعدة سوف تترك أثراً حسناً لدى الشعب البولوني وخصوصاً سكان فرسوفيا. اذ كانت معاهدة ١٩٤٩ (ميثاق روينتروب - مولوتوف) قد تركت جرحاً عميقاً في نفوس البولونيين . وكان هذا الجرح لا يزال طرياً لما يندمل فاراد ستالين ان يفعل كل ما يستطيعه في هذا السبيل . وهو بالطبع لم يقل ذلك لي صراحة ، غير انني ادركت ما كان يحول في خاطره .

وعند انتهاء الحرب كانت لنا قوات مرابطة في بولونيا والمجر . ووجه ستالين اهتماماً شخصياً فعالاً إلى شؤون هذين البلدين (٢) وكذلك لشؤون تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا . وكان الباقون منا في القيادة حريصين ان لا يتدخلوا في اوروبا الشرقية ما لم يدفعهم ستالين نفسه إلى ذلك . وكان هو حريصاً على الاحتفاظ بالسياسة الخارجية عامة ، وبسياسة ازاء البلدان الاشتراكية الاخرى بنوع خاص . ولم يكن ستالين ابداً يزعج نفسه بطلب مشورة الآخرين . وكان هذا هو الواقع بعد الحرب ، اذ كنا بمثابة خدم له نؤمر فنطيع . وكان ستالين يزار مهدداً في وجه كل من يتخطى حدود المهام التي اسندت اليه .

وكان من الاسباب التي حملت ستالين على الانصراف بكمليته إلى الاهتمام باوروبا الشرقية هو ان الحرب الباردة كانت قد بدأت . والقي تشرشل بيانه الشهير في فولتون فألح على تعبئة القوات الامبريالية في العالم ضد الاتحاد السوفياتي . وكانت علاقاتنا مع انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية والبلدان الاخرى التي كانت قد تعاونت معنا لسحق المانيا هتلرية من جميع الوجوه ولجميع الاغراض قد اصابها العطب الكلي. وكانت اميركا توجه سياستها الخارجية من

(١) بقي غومولكا على قيد الحياة بعد تحطيم ستالين المتعمد للحزب الشيوعي البولوني لأنه كان لحسن حفظه في السجن في بولونيا عندما كان زملاؤه يواجهون الإعدام في موسكو . ولم يلبث ان صار بعد اجتماعه هذا مع خروشوف سكرتيراً عاماً للحزب البولوني الذي ولد من جديد ، إلى ان سجن مرة ثانية (وقد سجنه ستالين هذه المرة) في ١٩٤٩ بتهمة الميل إلى تيتو . ولحسن حفظه لم يعدم . وقد اجتمع خروشوف به مرة ثانية في ظروف مختلفة كثيراً ، عندما تولى رئاسة الثورة البولونية في خريف ١٩٥٦ ورفض المطالب التي قدمها وفد سوفياتي عالي الصلاحيات (خروشوف وكاغانوفتش وميكويان ومولوتوف) ، طار إلى فرسوفيا ليهدد البولونيين .

(٢) قد يكون هذا أكبر خطأ في الكتاب .

مركز القوة ، اذ كان لديها دون سواها ، القبلة الذرية . ومما زاد الحالة سوءاً ان ترومان كان رئيساً في ذلك الزمن، وهو لم يكن يملك درهماً من الكفاءة السياسية ، ولا عقلاً مرناً . وكان لا يضر سوى العداء والكراهة نحو الاتحاد السوفياتي . واني لا استطيع ان اتصور كيف ان احداً اعتبر ترومان جديراً بنبابة الرئاسة ، بل الادمي من ذلك ، بمنصب الرئاسة .

ان العالم بأسره يعلم عن طريق الصحف كيف انه صفع صحافياً انتقد ابنته لانها مطربة فاشلة . ان تلك الحادثة وحدها جعلتنا نشك بكفاءة ترومان كرجل دولة ، فانه لم يجددته في احتلال منصب خطير كمنصب رئاسة الولايات المتحدة الاميركية . وكانت قوة اميركا الجوية في ذلك الوقت اقوى ما في العالم ، سواء في النوع او في الكمية . وكانت « القلاع الطائرة » الاميركية و « الحصون الممتازة » (سيوبر فورترس) قد لعبت دوراً كبيراً في كسب الحرب ضد المانيا واليابان . وهذا كله جعل اميركا لا تقهر . وكان الاميريكيون يتباهون باظهار هذه الحقيقة ، وذلك بارسال طائراتهم للتخليق فوق اوروبا كلها ، متهكة بذلك الحدود الجوية ، وخصوصاً اجواء الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا . وكان في الاتحاد السوفياتي زعر شديد من ان ترسل الولايات المتحدة جنودها إلى تشيكوسلوفاكيا لاعادة الحكومة الرأسمالية التي اسقطتها في ١٩٤٨ الطبقات العمالية بقيادة الحزب الشيوعي .

وكان هذا الخطر عاملاً آخر حمل ستالين على ان تحظى شؤون البلدان الاشتراكية الصديقة ، وبنوع خاص تشيكوسلوفاكيا ، بذلك الاهتمام المباشر . وكان للحزب التشيكوسلوفاكي الشيوعي مكانة بارزة بين الاحزاب الاوروبية ، وكانت له قيادة بروليتارية صالحة ، وهبة عالية .

كان غوتولد رئيساً للحزب . وكنت اسمع عنه ، واعلم ان ستالين يقدره تمام التقدير . وكنت انا شخصياً قد اجتمعت اليه في ١٩٤٨ بعد انتصار الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا على البورجوازية . وفي احد الايام تلقيت مخابرة هاتفية من ستالين وهو في حالة نفسية حسنة ، ودعاني إلى القرم حيث كان يمضي فرصته واخبرني ان غوتولد وزوجته ذهبا ايضاً إلى القرم في اجازة للراحة ، واردف قائلاً : « احضر إلى هنا ، فان غوتولد يقول انه لا يستطيع ان يعيش يوماً آخر بدونك » . فطرت إلى القرم في اليوم التالي تماماً . وكان ستالين حينئذ مقيماً في احد قصور يالطا حيث تمت لقاءاته مع روزفلت ونشرشل في اثناء الحرب . وكان غوتولد مقيماً في القصر ذاته ، فكانت لنا احاديث كثيرة طويلة وذلك ، كالعادة ، حول مائدة الطعام . وكانت الاحاديث

عادية باستثناء الزراعة والاقتصاد .

ظل ستالين بعض الزمن يسألني مشككاً : « هل هنالك صحة في ما قاله غوتولد عن ان التشيكيين يجنون محصولاً من شمندر السكر يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ « سنترس » (٥٦٣ إلى ٦٧٥ بوند) واننا نحن قبل الحرب ، كنا لا نجني في اوكرانيا اكثر من حوالي ١٦٠ سنترس ؟ » فكنيت اجيب : « نعم ، ايها الرفيق ستالين ، هذا صحيح » .

وطلبت من خبائنا الزراعيين درس الموضوع ، فكان تقريرهم ان تشيكوسلوفاكيا هي في المرتبة الأولى ، لأنها ليست منكوبة بذلك النوع من السوسة التي تلتهم محصول الشمندر السكري في اوكرانيا ، وان تشيكوسلوفاكيا تحصل على كمية من الذرة في شهور الصيف اكثر من مناطق اوكرانيا التي ينمو فيها الشمندر السكري (١) .

وبدا ستالين غير راض . كان يريد ان يتباهى بتفوق زراعتنا ومزارعنا الجماعية على تشيكوسلوفاكيا وكذلك صناعتنا . ولما كانت افضل زراعتنا حيثند في اوكرانيا ، فقد دعاني إلى القرم لكي اؤيد ادعائه لغوتولد بتفوقها على زراعة بلاده . غير اني حسمت النزاع حالما بدأت المناقشة ، فلم يبق مجال للجدل بتفوق التشيكيين .

وبعد ذلك ببضع سنين رأيت غوتولد مرة ثانية : عندما رئيس الوفد التشيكوسلوفاكي إلى مآتم ستالين . واصيب غوتولد بمرض شديد في موسكو واقتضى الأمر اعادته إلى براغ حيث توفي بعد زمن قصير .

وصدر الامر إلى بولغاين الذي كان حينذاك وزير الدفاع أن يمثل الاتحاد السوفياتي في مآتم غوتولد . وعند عودته إلى موسكو ابلاغنا ان الحالة في براغ مائعة كثيراً ، وان من الصعب التكهن بما سيكون عليه خلفاء غوتولد . وعلى الرغم من ان علاقتنا مع تشيكوسلوفاكيا كانت ممتازة ، فان وفاة غوتولد سببت لنا بعض الخوف لان علاقتنا الوثيقة معه كانت الحيط الرئيسي الذي يربط حزبنا ودولتنا معاً .

وعين زابوتوكي ، الذي كان رئيساً للوزراء في عهد غوتولد ، رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا . وبعد وفاة ، او بالاحرى اعتقال واعدام ، السكرتير العام

(١) الزراعة التشيكوسلوفاكية كانت ، دون ريب ، متقدمة كأي بلاد أخرى . وذلك يعود إلى المهارة والسداد ، أكثر منه إلى عدم وجود السوس .

سلانسكي ، صار نوفوتني رئيساً للحزب (١) . واني لا اعلم الكثير عن الاحداث التي ادت إلى صعود نجم نوفوتني ، ولذلك ان اتحدث الا عن المدة التي زرت فيها تشيكوسلوفاكيا بعد ان كان نوفوتني قد صار سكرتيراً للجنة المركزية .

كانت معرفتي بنوفوتني محدودة عندما بلغنا نياً ترقيته . وكان ذلك اول دخوله الميدان الدولي . وقيل لنا انه كان سكرتيراً للجنة مدينة براغ التي كانت اقوى هيئة حزبية في تشيكوسلوفاكيا ، وانه كان يتمتع بهيبة واسعة في الحزب التشيكوسلوفاكي . على ان هذا لم يكن اكثر من شائعة .

وفي لقائي الأول بنوفوتني ، احببته كثيراً ولا ازال اعتقد انه شيوعي طيب صادق ، وقف نفسه على الماركسية - اللينينية والطبقة العاملة . ولم يخافني ادنى شك في ذلك . وعندما رأيته يعمل ادركت انه كرس حياته كلها للحزب الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا . وقصارى القول ان صلتني به كانت جيدة .

والتقيت ايضاً وزير الشؤون الداخلية في حكومة نوفوتني (٢) ، وكان صديقاً مخلصاً ونشطاً للاتحاد السوفياتي . ولكنه اعتقل وقدم للمحاكمة . وشعرت باستياء لذلك ، ولكن لم استطع ان ادافع عنه بسبب الادلة الدامغة التي قدمت ضده .

(١) توفي غوتوله بعد قليل من وفاة ستالين في ١٩٥٣ وخلفه في منصب الرئيس زابوتوكي الذي كان رئيساً للوزارة منذ ١٩٤٨ ، وصار نوفوتني حيثز سكرتيراً للحزب . وتوفي زابوتوكي في ١٩٥٧ وخلفه في الرئاسة نوفوتني الذي احتفظ ايضاً بسكرتيرية الحزب ، وهكذا كان في الواقع دكتاتوراً على تشيكوسلوفاكيا . وكان نوفوتني قد اكتسب سمعة سيئة أثناء السنين الأربع التي قضاها في معسكر اعتقال نازي (ماوتاون) وكان قد تمكن بسرعة أن يأخذ لنفسه ولاصفاته امتيازات خاصة على حساب الجناء الأقل حظاً ومستعيناً بمركزه لتعظيم اعدائه . وكان ارتقاء نوفوتني السريع بعد الحرب يرجع إلى درجة كبيرة للدور الذي لعب في الكشف عن مؤامرة مزعومة قام بها زميله سلانسكي واخرون أدت إلى إتهامهم بالخيانة ومحاكمتهم واعدامهم بطريقة مماثلة لمحاكمات الخيانة السوفياتية في الثلاثينات . وبعد أن وطد نوفوتني ذاته ، حكم تشيكوسلوفاكيا على الطريقة السالينية مقاوماً كل تبديل حتى ربيع ١٩٦٨ ، عندما اكتسحت موجة من الامتناع الشعبي عبرت عن ذاتها بحركة الاصلاح الكبرى التي رثها الكسندر دوبتشك والتي انتهت نهاية مفاجئة بالفوز السوفياتي .

(٢) رودولف باراك ، اعتقله نوفوتني وقضى بالحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ سنة في ١٩٦٢ فخلص بذلك من منافسه الوحيد الخطر ، بالإضافة إلى استخدامه لتفطية فشله في ارضاء خروشوف في أخذ خطوات أسرع ضد السالينية في تشيكوسلوفاكيا .

اضف إلى ذلك اننا كنا في تلك الايام نتجنب استخدام الضغط على البلدان الاشتراكية الاخرى . وقد افترضنا ان كل حزب شيوعي ينبغي ان يعالج مشاكله الداخلية بذاته . لذلك عندما كنا نلقى انباء تطورات لم نوافق عليها ، كنا احياناً نعبر عن آرائنا وشكوكنا دون التدخل المباشر وقد تمسكنا بمثل هذا الموقف في قضية الحزب الشيكوسلوفاكي .

على انني مع ذلك لا اذكر حدثاً كان فيه بعض التوتر بين الزعماء التشيكيين وبيني . كنت استعد مرة لمراقبة وفد سوفياتي في زيارة إلى تشيكوسلوفاكيا ، فأخبرتهم انني ارجب في القيام بزيارة خاصة للجبرال سفوبودا وان احمل له بعض الهدايا الروسية كدليل لتقديري الشخصي له وامتنان الشعب السوفياتي للدور الذي لعبه في الحرب . ففي ١٩٤٣ كان مع فالوتن ومعي فرقة تشيكوسلوفاكية تحت قيادة الكولونل سفوبودا ملحقه بجيشنا . وهذه الفرقة تميزت بنضالها خارج خاركوف . وبعد ذلك زادت معرفتي بسفوبودا بعد ان شكل رجاله فرقة عسكرية قوية . واني لا اذكر ان الشيوعيين التشيكيين اخبروني اثناء الحرب بانه كان زعيماً سياسياً نشيطاً كما هو قائد عسكري ممتاز . ووفقاً لدستور تشيكوسلوفاكيا آنذاك كان ممنوعاً انشاء خلايا سياسية في صفوف الوحدات العسكرية . ولذا فان الهيئة الشيوعية في الفيلق التشيكي كانت مخالفة للقانون . غير ان ذلك لم يمنع سفوبودا من دعوة زعيم الهيئة الشيوعية وابلاغه نوع العمل السياسي الذي يجب القيام به . وقد قاتل التشيكوسلوفاكيون جنياً إلى جنب معنا على الجبهة الاوكرانية الاولى وكنت انا عضواً في المجلس الحزبي ، وكان سفوبودا احد معاوني . واتيحت لي فرصة اخرى لان اجتمع بسفوبودا والزعماء التشيكوسلوفاكيين الآخرين بعد ان حررت قواتنا بلادهم . وكانت الحكومة التشيكية المؤلفة من جديد قد سافرت إلى براغ بطريق كييف ، حيث قمت انا باستقبالهم . وهكذا فتاريخ الرجل وعلاقاتي به كانت تعني انه من عدم الاياقة ان اذهب إلى تشيكوسلوفاكيا دون ان اقوم بزيارة شخصية له .

ولكن ، في الوقت الذي اتيت لي الفرصة للذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا مع الوفد ، كان سفوبودا يمر بمحنة ، وكان مغضوباً عليه . ويؤخذ من معلومات تلقيناها انه بات يعمل محاسباً في مزرعة جماعية . وهذا لم يكن معقولاً ، فهو لم يفعل شيئاً ليستحق هذا الاذلال . فقلت لرفاتي اني ارى وجوب وضع سفوبودا في عمل مفيد واعطائه المركز الذي استحقه بمساهمته الخطيرة في الحرب بوصفه القائد العسكري الوحيد في الجيش التشيكي الذي قاتل إلى جانبنا ضد المانيا . فعلياً ان نفعل شيئاً لرفع مكانته واعادته إلى الحياة السياسية . وقد وافق رفاتي في قيادة الحزب

الشيوعي السوفياتي والحكومة السوفياتية على اقتراحي .
وعندما تحدثت مع اصدقائنا التشيكيين عن رغبتنا في ان نرى الجنرال سفوبودا
حاولت ان اقنعهم بانني اعتبره محارباً ممتازاً ورفيقاً صادقاً ولذلك فاني لا استطيع ان
انساه ، كما لو انه ليس في الوجود . وسألتهم اذا كان لديهم اي مانع من اجتماعي
به ، فسمحوا لي بذلك على مضض منهم (١) .

هنالك شعور اخاء قوي نحو الاتحاد السوفياتي في اوساط بقية شعوب
البلدان الاشتراكية ، غير انني وجدت دائماً ان صداقة البلغاريين لنا هي ،
في الاخص ، صداقة حميمة . وشعورهم هذا يمكن ادراكه ونهمه . ذلك لان
مباردين القتال في بلغاريا لا تزال ملأى بعظام المحاربين الروس الذين ماتوا في
سبيل انتزاع استقلال بلغاريا من الاتراك .

(١) ل. سفوبودا الذي صار رئيساً لتشيكوسلوفاكيا بعد سقوط نوفوتني في ١٩٦٨
وأبدى مقاومة باسلة ضد تدخل الاتحاد السوفياتي في بلاده. وكان قبل ذلك بكثير وزير
الدفاع الشيوعي الميول في عهد بنس وبهذه الصفة لعب دوراً فعالاً في إسقاط
البرلمانية الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا . وهو لم ينضم فعلاً إلى الحزب الشيوعي
حتى ١٩٤٨ . وكان ينظر إليه ستالين نظرة شك متطرفة وقد عمل على إسقاطه . في
١٩٥٠ و ١٩٥١ اختفى عن المسرح وأمضى بعض الوقت في السجن ، ثم
أطلق سراحه . وكان يعيش كحاسب في مزرعة جماعية . وان عودته على المسرح
السياسي كان الفضل فيها لخروشوف .

الحرب الكورية

هنا تبدو، مرة أخرى ، ان الهواية اللامبالية هي الطابع الغالب التي كان يعالج بها ستالين المشاكل التي لا علاقة مباشرة لها بسلامة الاتحاد السوفياتي كما يفهمها هو. ويحتمل أنه تلقى مشورة مفصلة عن الحالة في كوريا من وزارة خارجيته غير انه شجع الكوريين الشماليين على الحرب دون أن يعطي الموضوع اهتماماً جدياً. والنقطة المهمة التي تبرز في هذا الفصل هي ان خروشوف لا يتردد في القاء تبعه الحرب أو حتى التحرش على الشماليين . والقضية كلها كما يمرضها خروشوف هنا كانت غزوة عن الغزو الذي قام به الكوريون الشماليون ، اعتدت على تقدير خاطيء الموقف وقع فيه ستالين . غير انه من الواضح أيضاً ان ستالين عرف غلطته قبل معرفة خروشوف بزمان طويل . ولم يستطع خروشوف أن يدرك السبب الذي حمل سيده على سحب المستشارين السوفيات جميعاً والوقوف على الحياد التام باستثناء حملة الدعاية التي واصل القيام بها - عندما تطور ما كان ينبغي أن يكون مجرد نزعة يقوم بها الكوريون الشماليون إلى حرب كبيرة. فلا عجب ان أظهر ستالين احتقاراً لاقوال خروشوف الذي كان في جهل تام لوضع القوى الدولية الحقيقية ، وخصوصاً دور الأمم المتحدة .

يوم نقلت من اوكرانيا إلى موسكو ، في نهاية ١٩٤٩ ، وصل « كيم إل سنغ مع وفده لاجراء مشاورات مع ستالين . واراد الكوريون الشماليون ان يقتحموا كوريا الجنوبية بروؤس الحراب . وقال كيم إل سنغ ان الضربة الأولى ستؤدي إلى انفجار داخلي في كوريا الجنوبية ، وان قوة الشعب سوف يكون لها الغلبة - اي القوة الحاكمة في كوريا الشمالية . وبالطبع ، لم يكن باستطاعة ستالين ان يعارض هذا الرأي الذي يتفق مع ايمانه الراسخ كشيوعي بان الصراع في كوريا هو قضية داخلية . فالكوريون الشماليون يريدون مد يد

المساعدة إلى اخوانهم الواقعين تحت سيطرة « سنغمان ري » . وقد اقنع ستالين كيم إل سنغ بان عليه ان يدرس الموضوع جيداً ويجري بعض الحسابات ، ثم يعود اليه بمشروع واقعي متماسك . وغادر كيم موسكو إلى بلاده ، ثم عاد بعد ان درس الوضع جيداً هناك ، وابلغ ستالين انه متأكد كل التأكد من النجاح . واذكر ان ستالين خامرته الشكوك والمخاوف من تدخل الاميركيين . ولكن اذا انتهت الحرب بسرعة - وكيم إل سنغ كان متأكداً من ذلك - فان تدخل الولايات المتحدة الاميركية يمكن تجنبه .

وعلى الرغم من ذلك قرر ستالين ان يسأل ماوتسي تونغ عن رأيه في اقتراح كيم إل سنغ . وعلي ان اوكد هنا ان الحرب لم تكن من رأي ستالين ، بل من رأي كيم إل سنغ . على ان ستالين لم يحاول ان يثنيه عن عزمه . فما من شيوعي يقف حائلاً بين كيم إل سنغ وبين رغبته الملحة في تحرير كوريا الجنوبية من سيطرة سنغمان ري ومن تفوذ الرجعية الاميركية . فذلك يناقض وجهة نظر الشيوعية العالمية . اصف إلى ذلك ان ماوتسي تونغ وافق على اقتراح كيم إل سنغ ورأى ان الولايات المتحدة لن تتدخل ، لان الحرب ستكون قضية داخلية بهم الشعب الكوري وحده .

ودعا ستالين إلى مأدبة عشاء فاخرة في منزله الريفي ، حيث اخبرنا كيم إل سنغ عن الأحوال في كوريا ، وخصوصاً ما ينعم به جنوبها من تربة صالحة ومناخ ممتاز لزراعة الارز وصيد الاسماك وما إلى ذلك . وقال ان توحيد كوريا الجنوبية والشمالية يفيد البلاد بأسرها . فتمنينا لكيم إل سنغ كل توفيق وشرنا نخب الزعامة الكورية الشمالية ، متطلعين إلى محيي ساعة النصر .

وكنا قد اعطينا كوريا الشمالية بعض الاسلحة ، وكان من البديهي ان يتلقوا الآن ما يطلبونه من الدبابات والمدافع والبنادق والرشاشات والمعدات الهندسية والاسلحة المضادة للطائرات . وكانت طائرات سلاحنا الجوي تحمي بيونغيانغ ، ولذلك كانت مرابطة في كوريا الشمالية .

وحانت الساعة وبدأت الحرب وجرى الهجوم بصورة موفقة ، اذ انطلق الكوريون الشماليون جنوباً بسرعة فائقة . غير ان الذي توقعه كيم إل سنغ ، اي قيام الشعب في كوريا الجنوبية بانتفاضة داخلية بعد الطلقات الأولى لاسقاط سنغمان ري ، لم يتحقق لسوء الحظ . وكان توقع كيم في محله من حيث ان الحكم في كوريا الجنوبية لم يكن وطيد الدعائم ومستقراً وقادراً على الدفاع ، كما انه لم يكن محبوباً في داخل كوريا الجنوبية . غير القوى الشيوعية الداخلية لم تكن كافية للقيام بالانتفاضة ، كما انها لم تكن منظمة

التنظيم الذي ظنه كيم .

واحتل الكوريون الشماليون سيول . وفرحنا نحن لذلك وتمنينا مرة أخرى لكيم إل سنغ كل توفيق ، لأن هذه الحرب كانت حرب تحرير وطني ، أو قل حرباً طبقية لا حرب شعب ضد شعب آخر إذ اتحد العمال والفلاحون والمثقفون بقيادة حزب العمال في كوريا الشمالية ضد الرأسماليين . وهذا بحمد ذاته تطور تقدمي . ولو قدر لجيش كوريا الشمالية الوصول إلى مدينة بوزان ، وهي آخر مرفأ في كوريا الجنوبية ، لكانت الحرب قد انتهت ولكان قد تم توحيد كوريا في دولة اشتراكية قوية غنية في موادها الأولية وصناعتها وزراعتها . غير أن ذلك لم يتم . فقد استفاد العدو من المقاومة التي نظمها سنغمان ري في بوزان ، اذ نجح في ائزال قواته في « شمولبو » ، مما جعل موقف الكوريين الشماليين شديد الخطر . والواقع أن جيش كوريا الشمالية بكامله في الجنوب قد انعزل تماماً ووقعت جميع اسلحته في ايدي سنغمان ري . وهكذا أصبحت الكارثة تهدد كوريا الشمالية ذاتها .

ويقع على ستالين بعض اللوم في ذلك ، فلاسباب لا يستطيع فهمها ، سحب ستالين جميع مستشارينا لدى جيش كوريا الشمالية عندما كان كيم إل سنغ يستعد للزحف . وحين سألت ستالين عن ذلك ، انتهرني قائلاً : « من الخطر ابقاء مستشارينا هناك ، اذ ربما يؤسرون ، فتتهم بالاشراك في هذا العمل الذي هو من شأن الكوريين وحدهم » . وكانت النتيجة أن جيش كوريا الشمالية واجه المتاعب منذ البداية . وعندما بدأت المعارك الطاحنة بعد « شمولبو » تأثرت كثيراً من الانباء التي كانت تبصلنا عن الوضع الفاجع الذي اوقع كيم إل سنغ نفسه فيه . وشعرت بالحزن على كيم إل سنغ حتى أني قلت مرة لستالين : « أيها الرفيق ستالين ، أليست فكرة حسنة أن تقدم مساعدة أكثر فائدة إلى كيم إل سنغ ؟ انه يريد أن يقاتل في سبيل شعبه لكي يجعل كوريا حرة مستقلة ، غير انه ليس رجلاً عسكرياً . وهو الآن يواجه وحدات اميركية قوية مجربة . وسفيرنا في كوريا الشمالية كان سكرتيراً ثانياً للجنة ليشغزاد الاقليمية ، ومع انه منح زمن الحرب رتبة لفتننت جنرال فهو ليس جندياً محترفاً ولم يحصل حتى على تدريب عسكري اساسي ونصيحته لا يمكن ان تكون بديلاً عن مشورة رجل مدرب على ادارة العمليات الحربية . ولتأخذ مثلاً مالمينوفسكي (وزير دفاع خروشوف في المستقبل) فهو قائد منطقة الشرق الاقصى العسكرية ، فلماذا لا نرسل مالمينوفسكي إلى كوريا الشمالية لكي يستطيع ، متكرراً ، ان يساعد كيم إل سنغ في ادارة رحى الحرب بصورة أكثر فعالية واثراً ؟ »

فاستقبل ستالين ملاحظاتي بمتهى الغضب والاستياء . فادهشني ذلك . ألم يكن ستالين قد اعطى بركته إلى كيم إل سنغ ؟ ألم يقدم اسلحة إلى الزعيم الكوري ؟ ألم نكن نحن إلى جانب كيم ؟ . انه بدون مساعدتنا لم يكن له اي امل . غير ان مساعدتنا هذه كانت بالاسلحة فقط ، ولو اننا لم نرفض اعطاء مساعدة رجال قادرين على توزيع القوات وادارة العمليات الحربية ، لكنت كوريا الشمالية دون ريب خرجت من الحرب منتصرة ظافرة . واني اعتقد انه لو تسنى لكيم إل سنغ الحصول على فرقة واحدة من الدبابات او فرقتين على الاكثر ، لكان استطاع ان يعجل زحفه جنوباً ويحتل بوزان في طريق تقدمه ، ولكانت الحرب قد انتهت حيثذ وهناك . ألم تقل الصحف الاميركية انه لو تم الاستيلاء على بوزان لما كانت الولايات المتحدة قد تدخلت بقواتها المسلحة (١) .

وكان الذي حدث ، ان الاميركيين بعد تأخر طويل انزلوا قواتهم فاستردوا سيول وتحركوا متجهين إلى الشمال متخطين خط العرض الثامن والثلاثين ، وهو خط الحدود الذي قررته معاهدة الصلح بعد سقوط اليابان . وهكذا تحولت الحالة إلى كارثة حلت بكوريا الشمالية وكيم إل سنغ .

وكانت قوات كوريا الشمالية الجوية مؤلفة بالاكثـر من طائرات ميغ ١٥ وهي احدى افضل مقاتلاتنا النفائة واسرعها مناورة . وفي اثناء سير الحرب جدد الاميركيون تسليح سلاحهم الجوي وادخلوا فيه مقاتلات جديدة اسرع واقوى من مقاتلاتنا ، فبدأت طائراتنا التي من طراز ميغ ١٥ تواجه الهزيمة . فصار الاميركيون يستطيعون اختراق خطوط دفاعنا الجوي وقصف كوريا الشمالية بقنابلهم وهم بمأمن من اي خطر . ولم يعد بوسعنا ان نوفر التغطية الجوية للمدن ولمحطات توليد القوى الكهربائية .

وبينما كان هذا الوضع المؤسف يزداد سوءاً ، وبينما كنا نشعر بأشد الحزن

(١) ان ذاكـرة خروشوف قد خانتـه هنا ، فبعد هجوم كوريا الشمالية حاول الأميركيون التدخل على الفور بتوتهم الجوية ثم بكل ما استطاع الجنرال دوغلاس ماك آرثر جمعه من القوات البرية من حامياته الناقصة في اليابان . وقد تحمل الأميركيون خسائر فادحة في أيام الحرب الأولى وخسروا ماجور جنرال واحداً أخذ اسيراً غير أنه بقي هناك العدد الكافي من الرجال للاحتفاظ برأس جسر بوزان في الطرف الجنوبي لكوريا . وبلعن الأميركيين كانت بوزان دون ريب قد سقطت . وفي الوقت ذاته كان ماك آرثر سبق بتوجيه ضربة قاضية إلى «انشون» التي كانت موقفاً قد حطمت جيش كوريا الشمالية . ثم أن التدخل الصيني في خريف ١٩٥٢ حول مجرى الحرب مرة أخرى .

نحو كيم إل سنغ وشعب جمهورية كوريا الشمالية ، ظهر شوآن لاي فجأة . ولم اكن انا موجوداً اثناء اجتماعه بستالين ، اذ كان ستالين حيثنذ في الجنوب (في سوخي) . وعندما عاد ستالين إلى موسكو قال ان شوآن لاي جاء للاجتماع به ، بناء على تعليمات من ماوتسي تونغ .

وكان جيش كوريا الشمالية في هذا الوقت قد فقد القسم الاكبر من رجاله . وسأل شوآن لاي ستالين اذا كان ينبغي ان تتحرك القوات الصينية إلى اراضي كوريا الشمالية لكي تسد الطريق في وجه الاميركيين والكوريين الجنوبيين . وفي بادىء الأمر ، رأى ستالين وشوآن تدخل الصين لن يأتي بفائدة . ولكن حين استعد شوآن لاي للعودة إلى بلاده ، عاد احدهما - اما شوآن لاي عملاً بارامر ماوتسي تونغ ، أو ستالين ذاته - إلى فتح الموضوع من جديد . واتفقنا عندئذ على ان تقدم الصين مساعدة عسكرية لكوريا الشمالية . وكانت هنالك قوات صينية مرابطة فعلاً على الحدود . واعتقد ستالين وشوآن لاي ان هذه القوات تستطيع ان تتدبر الموقف تماماً ، فترد القوات الاميركية والكورية الجنوبية إلى الوراء وتنفذ الوضع .

وعاد شوآن لاي إلى بكين . وكان شوآن لاي اذكي مستشاري ماوتسي تونغ واكثرهم نفوذاً . وكان ستالين يقدره حق قدره . وكنا نحن جميعاً نعتبره رجلاً لامعاً مرناً نستطيع ان نتكلم معه بعقل وحكمة .

لم تعلن الصين الحرب ولكنها اكثفت بارسال متطوعين إلى كوريا . وكانت هذه القوات بقيادة بنغ تي - هواي الذي كان له مكانة رفيعة عند ماوتسي تونغ الذي كان يقول عنه انه الملع كوكب في الافق العسكري الصيني .

وبدأ القتال مجدداً ، ونوفق الصينيون إلى ايقاف تقدم الاميركيين والكوريين الجنوبيين . ودارت معارك طاحنة . وهنالك في المحفوظات وثائق تضمنت التقارير التي اعطاها بنغ تي - هواي عن الحالة إلى ماوتسي تونغ . وقد وضع بنغ تقارير مطولة تصف خططاً مفصلة لمحكمة للمعارك ضد الاميركيين . وقد اعلن صراحة انه سيطوق العدو ويقضي عليه بضربات حاسمة . حتى ليتمكن القول ان القوات الاميركية سحقت والحرب انتهت مراراً كثيرة في هذه التقارير الحربية التي كان يرسلها بنغ إلى ماو ، وهذا بدوره يرسلها إلى ستالين .

على انه من المؤسف ان الحرب لم تنته سريعاً على الاطلاق . وقد عانى الصينيون هزائم كبيرة . وتلقينا انباء تفيد ان نجل ماوتسي تونغ ، وهو ضابط برتبة جنرال ، قتل في غارة جوية على احد مخافر القيادة . وهكذا لقي نجل ماوتسي تونغ حتفه في كوريا الجنوبية ! وتكبدت الصين خسائر فادحة وذلك لان مقدرتها الفنية

وتسلحها كانا ادنى كثيرا من قوة الاميركيين . وكانت تدابير الصين في الهجوم وفي الدفاع على السواء تعتمد بالاكثير على مجرد الطاقة البشرية . واخذت الحرب تطول وتتعثر . وبينما كان الفريقان يحفران الخنادق ، ازداد القتال شدة ودموية .

ان ذكرياتي عن الحرب الكورية هي حتماً مجتزأة . فاني لم اطلع على اي من الوثائق التي تضمنت المناقشات التي جرت حول قضية العون العسكري والفني لكوريا الشمالية . غير انني اطلعت في الاساس على سياستنا وقرأت سائر الوثائق التي كنا نلقاها من سفيرنا . وبينما كنت اعمل في اوكرانيا ، لم اكن اتلقى اي رسائل من المكتب السياسي سوى ما يختص مباشرة باوكرانيا ، او بي شخصياً . ثم عندما نقلت إلى موسكو قال ستالين ان بالامكان توزيع الوثائق السرية علي ، لانني لم اكن احصل من قبل على اي بريد يتعلق بشؤون المكتب الداخلية . وهكذا بدأت اطلع على تقارير المعارك التي كان ماوتسي تونغ يتلقاها بدوره من بنغ تي - هواي ويحولها إلى ستالين . وبهذه الطريقة ايضاً استطعت ان اعرف ، حق المعرفة ، شيئاً عن الحالة وتطوراتها في كوريا الجنوبية .

حسم النزاع مع تيتو

كان أول ظهور لخروشوف على المسرح الدولي رحلته إلى يوغوسلافيا في صيف ١٩٥٥ لاصلاح ما تسبب به ستالين من ضرر عندما أصدر حرمه المشهور على تيتو في ١٩٤٨ . وقد رافقه في رحلته هذه بولغائين الذي كان حينذاك رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ، وكذلك ميكويان ، ووزير الخارجية الجديد شيلوف . وكان بولغائين يتصرف ، دوماً ، وكأنه مهرج سكير محب يعمل ما يطلب إليه خروشوف القيام به . أما ميكويان فكان يبقى في الظل يدي أحياناً انذارات صوتية عندما يكثر خروشوف من الكلام ويبالغ في التمارين . وكان خروشوف في ذلك الزمن لا يزال يكثر من تناول الشراب ويصل في بعض الاوقات إلى درجة السكر الظاهر .

وفي هذا المحيط غير المألوف كان خروشوف يرتكب الغلطة تلو الغلطة ، بدءاً بخطابه في المطار الذي أغضب تيتو اذ ادعى فيه ان المعاملة السوفياتية ليوغوسلافيا كان المألوم فيها بيريا لا ستالين . غير ان خروشوف لم يرتكب الغلطة ذاتها مرتين . واطهر أنه يكتب المعرفة بسرعة ، كما انه يمتلك طاقة غير متوقعة على ضبط سلطانه الشخصي .

وينبغي أن نتذكر أن ستالين في ١٩٤٩ كان قد استعمل كل وسيلة ما عدا الحرب - من مناورات عسكرية على الحدود وحصار اقتصادي ونشاطات تخريبية ودعاية عنيفة خبيثة - للتوصل إلى إسقاط تيتو .

كنت عند وفاة ستالين ، سكرتير اللجنة المركزية وسكرتير اول لكل من لجنة مدينة موسكو واللجنة الاقليمية . وبعد وفاة ستالين اعفيت من واجباتي في لجنة الحزب في موسكو ، لكنني بقيت محتفظاً بسكرتيرية اللجنة المركزية . ولفترة من الزمن لم يكن هنالك سكرتير اول للحزب . ثم اقترح بولغائين ، في اجتماع عام عقدته اللجنة ، ان اتولى منصب السكرتير الأول للحزب .. وهكذا أصبحت

بموافقة البرزديوم ، السكرتير الاول للحزب في الاتحاد السوفياتي . وبذلك
الصفة توليت رئاسة الوفد إلى يوغوسلافيا في ١٩٥٥ لاعادة العلاقات الطيبة مع
الرفيق تيتو .

كان تيتو واسع الشهرة ومحجوباً في الكومنترن قبل الحرب العالمية الثانية . وفي
اثناء النضال العظيم الذي قام به الشعب اليوغوسلافي ضد الغزاة الهتلريين حقق
تيتو شهرة واسعة بوصفه زعيماً للانصار . ولا اظن ان احداً يشعر بالاساءة اذا ما
قلت ان اعظم مقاومة ضد الاحتلال النازي في اوائل الحرب كانت تلك التي
ابدها حركة الانصار الوطنية التي نظمها الحزب الشيوعي اليوغوسلافي . فقد كانت
حركات عظيمة - في فرنسا وفي ايطاليا وفي بلدان اوروبية اخرى ايضاً -
غير ان الحركة اليوغوسلافية كانت الأولى والاكثر ضخامة وفعالية .

وكننت قد التقيت تيتو لأول مرة بعد الحرب عندما جاء إلى موسكو مع
كاردلج ودجلاس لمقابلة ستالين . عاد الرفاق اليوغوسلافيون إلى بلادهم
بالقطار مروراً بطريق كييف وقد ارادوا مشاهدة انحاء من البلاد ، ولو حتى
من نافذة مركبة السكة الحديدية . وتلفن ستالين لي وقال : « نظم استقبالا حسناً
واعنن بهم اثناء وجودهم في كييف ، ودع تيتو يشعر ان بلادنا تحتفظ باعمق
شعائر الصداقة نحو يوغوسلافيا . »

وعند وصولهم استقبلناهم استقبالا لائقاً ، رغم اننا كنا لا نزال في حالة فقر .
وتلبية لارادة تيتو نظمت له ولجماعته زيارة لاحدى المزارع الجماعية . وقال تيتو
ان ما شاهده ترك اثراً حسناً في نفسه ، حتى ولو ان اقتصادنا كان لا يزال في حالة
خراب . ولم تكن زراعتنا بعد شيئاً نستطيع ان نفاخر به .

لقد شعرت انا بميل إلى تيتو . فقد كان صاحب شخصية مرحة ومتواضعة
واستلطف كاردلج ايضاً لخفة روحه وسرعة بداهته وتهذيبه وطيبته . وليلة كنا
في الأوبرا روى لي دجلاس عدداً من الحكايات لا تزال واحدة منها عالقة في
ذهني اود ان ارويها هنا :

كان ما كان في زمان ما كلب وبقرة وجحش في قرية في مكان ما من
يوغوسلافيا . وكانت الامور تسير من سيء إلى اسوأ واخيراً قرر الكلب والبقرة
والجحش الهرب إلى الجبال ، حيث راحوا يتجولون مدة من الزمن إلى ان بدأوا
يشعرون بالجوع والحنين إلى الوطن . فارسلوا الكلب ليرى اذا كانت الحالة قد
تحسنت هناك . ولم يلبث الكلب ان عاد راكضاً باقصى ما استطاعت ان تحمله
قوائمه ليقول : لا تزال الحياة صعبة جداً في القرية ، انهم لا يسمحون بالبناح ،
فكيف يستطيع الكلب الحياة بدون ذلك ؟ وهكذا استمر الثلاثة في التجوال في

الجبال فترة اخرى من الزمن ، ثم قرروا ارسال البقرة للاستطلاع ، قائلين للبقرة : لما كنت لا تنبحين فسوف لا يلحقك اذى من تحريم النباح . وهكذا انطلقت البقرة في طريقها . وبعد حين عادت وهي في يأس عظيم وقالت : انه لمستحيل ، انه لمستحيل ، اذ حالما وصلت إلى القرية هجم الناس علي وامسكوا بحلمات ضرعي وشرعوا في امتصاصها للرضاعة منها وشدها بقوة حتى كادوا يمزقونها . واخيراً تمكنت من النجاة ! . وعلى ذلك بقوا في الجبال مدة اخرى . وفي النهاية قرروا ان يحاولوا للمرة الاخيرة بارسال الجحش إلى القرية . فراح ولم يلبث ان عاد مسرعاً وقال : مستحيل ، مستحيل على الاطلاق . لا نقدر ان نعيش في المدينة ! فقال رفيقه : لماذا ؟ ماذا حدث ؟ فقال الجحش : حالما وصلت إلى المدينة حاولوا ترشيحي لعضوية البرلمان ، ولم استطع الفرار الا بصعوبة ! .

وبعد الانتهاء من هذه الحكاية وجه تيتو إلى دجلاس نظرة قاسية وقال مازحاً : « هل تريد من وراء حكايتك هذه ان نخبرنا باننا ننتخب الحمير للبرلمان ؟ » فضحكنا جميعاً .

وفي ما بعد اخبرت ستالين بالجو الودي الذي كان سائداً عند زيارة اليوغوسلافيين فسر كثيراً ، لانه كان يريد آنذاك ان تكون لنا افضل واصدق العلاقات الودية مع يوغوسلافيا .

ومر بعض الوقت على هذه الزيارة ، ثم ابلغنا سفيرنا في بلغراد وهو اكاديمي وفيلسوف اسمه يودين (ب. ف. يودين الذي صار بعد ذلك سفيراً في بكين) ان اليوغوسلافيين وجهوا في اجتماع حزبي جميع انواع الملاحظات الساخرة والمهينة إلى الاتحاد السوفياتي ، وخصوصاً إلى مستشارينا العسكريين والفنيين الذين ارسلناهم إلى هناك بناء على طلب تيتو ، للمساعدة في اعادة بناء البلاد . ووصف يودين ذلك بالتفصيل . فارسل ستالين نسخاً من هذا الوصف إلى اعضاء المكتب السياسي ، فتلقت نسخة عنه في كييف .

ثم بدأت القيادة الرسمية اليوغوسلافية تكتشف العيوب وتحاول ان تلمس اعداراً للدخول في خصام معنا . ثم ان كثيرين من اليوغوسلافيين الذين كانوا اصدقاءنا لم يوافقوا على هذا الموقف الجديد الذي اتخذته حكومتهم ، فوضعوا في السجن . وقد بعضهم حياته لا بسبب صداقتهم لنا ، بل لمعارضتهم زعامة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي والحكومة اليوغوسلافية . وبلغ الأمر ذروة حدته عندما استدعى الاتحاد السوفياتي جميع المستشارين الذين كانوا يساعدون يوغوسلافيا لاعادة تنظيم شؤنها الاقتصادية والعلمية

والعسكرية (١) .

وبعد وفاة ستالين ، بدأنا نتبادل الآراء حول امكانية إعادة العلاقات مع اليوغوسلافيين وتصفية العداء الذي كان قد خلقه ستالين بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا . وقد قوبل هذا الرأي بمعارضة قوية منذ البداية وكان الناس يقولون كيف نستطيع ان نستعيد العلاقات مع يوغوسلافيا حين تكون حكومتهم تسير بالبلاد نحو الرأسمالية ، وتسمح للرأسمال الاميركي بان يسيطر على اقتصادها ، وتعيد الملكية الخاصة وتطلق الحرية للبنوك ؟ وكان ميخائيل سوسلوف ، على الاخص ، متشدداً في معارضته ومصرأ على القول ان يوغوسلافيا لم تعد بلداً اشتراكياً .

والحق ان سبب هذه المزاعم السخيفة هو اننا ابتعدنا كثيراً عن اليوغوسلافيين إلى حد اننا اصبحنا نوؤمن بهذه المزاعم . وهذا ينطبق على الحكاية القديمة عن ذلك الذي قال للناس في ساحة القرية ان هنالك في مكان ما من يوزع لحم الخراف والرز مجاناً . وهكذا كان حالنا مع يوغوسلافيا . لقد سمعنا تلك الروايات كثيراً حتى اننا اصبحنا نوؤمن بصحتها .

وفي الرد على اولئك المعارضين اقترحت ان ندرس الموضوع ايجابياً من جديد ، وذلك بتأليف لجنة من الاقتصاديين وغيرهم من الاختصاصيين . فقبل الاقتراح وعين شيلوف وبعض الرفاق الآخرين في تلك اللجنة . وبعد ابحاث وتحقيقات وافية ، قدموا لنا تقريراً يمكن العثور عليه في محفوظات اللجنة المركزية ، خلاصته

(١) ليس واضحاً هنا لماذا يقول خروشوف في هذه المرحلة ان اليوغوسلافيين كانوا ملومين للخصام الذي حدث . ففي خطابه السري القى اللوم صراحة على ستالين الذي روى عنه انه قال : «اني حين احرك اصبعي لا يبقى هنالك تيتو . فهو يسقط حالاً» وعلق خروشوف على ذلك قائلاً : كان دوراً مخجلاً ذلك الذي لعبه ستالين . كاردلج وميلوفان دجيلاس كلاهما من الزملاء المقربين إلى المارشال تيتو . وكاردلج الذي كان رئيساً للوزراء لا يزال رجل دولة عجوزاً . أما دجيلاس ، وهو رجل متحمس ذكي من الجبل الأسود ، فقد خسر حظوته عند تيتو فزجه في السجن لموقفه ضد البيروقراطية الشيوعية . وهو في كتابه «الطبقة الجديدة» يهاجم النظام الشيوعي من أساسه ، واحداث كتابه «أحاديث مع ستالين» اساءة أكبر للنظام . ومن الواضح أن يفور خلافاته مع ستالين خاصة ومع الشيوعية عامة ، نشأت في هذه الزيارة .

ان لا صحة لاعتبار يوغوسلافيا دولة رأسمالية . واذا كان الفلاحون هناك يملكون الأرض ويستغلونها لانفسهم ، فلا يزال في البلاد مزارع جماعية وحكومية . اما البنوك والتجارة ووسائل الانتاج فهي جميعاً في يد الدولة التي يهيمن عليها الشعب بواسطة دكتاتورية الطبقة العاملة . ولذلك فان يوغوسلافيا هي دولة اشتراكية . وهكذا لم يبق من مبرر للابقاء على حالة الخصاص التي اوجدها ستالين . فقررنا استئناف الصلات واعادة العلاقات بين الحزبين السوفيائي واليوغوسلافي . ولكن لما كانت احزاب شيوعية اخرى قد تورطت في نزاعنا مع يوغوسلافيا ، فقد كان علينا ان نحصل على موافقتها . وكان ان حصلنا عليها .

وعندما اثبتت قضية ما هي افضل طريقة للاتصال بتيتو ، ارتفعت اصوات تقول ان نطلب إلى اليوغوسلافيين ان يبحثوا الينا لاجراء المفاوضات . فقلت ان هذا امر مستحيل وغير وارد على الاطلاق اولا لانني اشك في قبولهم الدعوة لتلا يظهروا بمظهر المتسولين ؛ وثانياً لاننا كنا نحن البادئين في قطع علاقاتنا معهم ولذلك يجب ان نكون نحن البادئين في اعادتها . وثالثاً لان بلادنا كبيرة وحزبنا كبير وسلطانا وهيبتنا عظيمنتان في ميدان الشيوعية العالمية . ولذلك يتعرض الزعماء اليوغوسلافيون لخطر كبير اذا هم اجتمعوا بنا في اراضيها ولم يتمكن من التوصل معهم إلى الاتفاق .

وهكذا تقرر ارسال وفد إلى بلغراد، على ان اتولى رئاسته ويكون من أعضائه بولغانين وميكويان وشيلوف. وكانت سفارتنا في يوغوسلافيا آنذاك تقوم بمهمتها بواسطة هيئة صغيرة من الموظفين. ولبي الرفاق اليوغوسلافيون رغبتنا في زيارتهم وتبادل الآراء معهم . وعندما هبطنا في مطار يوغوسلافيا استقبلونا بجميع مظاهر اللياقة والقيت كلمة في المطار اتفقنا على صياغتها جميعاً ، فلم تكن تعبر عن رأيي الشخصي بقدر ما كانت تعبر عن وجهة نظر قيادة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيائي .

ورد تيتو على كلمتي قائلاً : « لا حاجة بنا لترجمة كلمتك ، لان كل واحد هنا يفهم اللغة الروسية » . وقد اراد بذلك ان يبرهن على ضبط النفس الذي احسنا بوجوده . وشعرت ببعض الحيرة للاستقبال البارد الذي لقيناه في المطار ، وخشيت ان يشجع ذلك الذين عارضوا في قيادتنا اعادة العلاقات الطيبة مع يوغوسلافيا (١) .

(١) شمر خروشوف بأكثر من خيبة الأمل للجفاء الذي لقيه من تيتو في المطار ، فظهرت عليه علامة الغضب الشديد . وتجدر الملاحظة انه سبق لخروشوف ان =

وعندما بدأت المناقشات اتخذنا نحن المبادرة باقتراحنا ان ندفن خلافاتنا . وقلت انني متأكد تماماً اننا سوف نتمكن من التوصل إلى نوع من التفاهم المتبادل . وانني اعترف انه ما تزال هناك بعض الاخطاء في موقفنا . واليوغوسلافيون قد لاموا ستالين عن حق للانشقاق الذي حدث بين حزبنا ولم يوجهوا ذلك إلينا بل إلى ستالين . ونحن ايضاً كنا نسير على الافتراض بان ستالين اوجد الحصام ولكننا كنا نتجه إلى تجنب اثاره موضوع من هو المعلوم عندما بدأنا فعلاً العمل لاعادة علاقاتنا إلى وضعها الطبيعي مع يوغوسلافيا . وكنا قد بدأنا ندرك مدى اساءة استعمال ستالين لسلطته والضرر الجسيم الذي سببه باستئصاله زهرة شباب حزبنا . وكما ذكرت من قبل ، اننا ببيكولوجيا لم نكن على استعداد لاجتماعنا مع اليوغوسلافيين اذ لم نكن بعد حررنا انفسنا من اعتمادنا الوضيع على ستالين . ومع ذلك فقد وافق اليوغوسلافيون على انه من الممكن ان نتوصل إلى نوع من التفاهم وظهروا بانهم مستعدون لتقبل حسن نوايانا .

ونظم الزعماء اليوغوسلافيون جولة لنا في البلاد . ومرة اخرى كان استقبالنا في المدن والبلدان استقبالا يدل على التحفظ . وظهر جلياً ان الجماهير المصطفة في الشوارع لم تحضر تلقائياً لاستقبالنا . فقد نظمها الحزب . ولم يظهروا العداء ، لكنهم لم يظهروا الود كثيراً . وكانوا بالكثير يهتفون « ليحيا تيتو ... تيتو ... تيتو (١) ! » على اننا سررنا في اثناء جولتنا في البلاد بمشاهدة الشعب اليوغوسلافي يتصرف بكل احترام ازاء ذكرى جنودنا الذين قدموا حياتهم في سبيل تحرير يوغوسلافيا من هتلر (٢) فقد كانت قبور محاربينا الابطال في حالة حسنة وعليها لوحات تدل على اسمائهم .

كانت البلاد ، دون ريب ، فقيرة جداً ، وذلك لضعف زراعتها قبل الحرب . وقد دام الاحتلال الهتلري فيها مدة طويلة وكان قاسياً . ورأينا الفلاحين وليس لديهم سوى معدات زراعية بدائية جداً . ان اسباب تخلفهم جلية جداً فان

= تحمل مسؤولية كلمته السيئة في المطار ، اذ وضع اللوم على ييريا ، لأنه ، كما يقول ، لا هو ولا رفاقه كانوا قد تخلصوا بعد تماماً من أثر ستالين .

(١) ان غروشوف بحق تماماً في ما يقوله عن سلك الشعب اليوغوسلافي . فقد كانوا يبدون عداء ظاهراً .

(٢) ان اليوغوسلافيين هم الذين حرروا انفسهم من الالمان وان يكن مصيرهم توقف بصورة مطلقة على انتصار الحلفاء في ميادين أخرى . وقد كان هذا من الأسباب التي جعلت تيتو يرفض ان يتلقى الاوامر من ستالين .

يوغوسلافيا بلاد معزولة يسودها الخراب حتى وان يكن الرأسماليون يزعمون بانهم يقدمون لها المساعدة (١) .

واذكر انني تحدثت مع فوكمانوفيك - تمبو ، فترك في نفسي اثراً حسناً باخلاصه وصدقه وانسانيته . وقد احببته على الرغم من انه كان يتكلم بعنف ضدنا . ولا اظن انه كان يحسن به ان يذهب إلى هذا الحد البعيد في حملته علينا . وقد اخبرني كيف ذهب إلى اميركا للتفاوض على عقد قرض وقال : « كنا نواجه اقصى الصعوبات ، فمواسمنا كانت قد فشلت وكنا امام خطر المجاعة . وكان التوتر بين بلادنا والاتحاد السوفياتي على اشده . وعرف الاميريكيون مبلغ بؤسنا فحاولوا استغلال ذلك في معاملتهم لنا وان يفرضوا علينا اقصى الشروط واشدها تحيزاً لمصلحتهم مقابل اعطائنا القرض . وقد رأوا ان لا مندوحة لنا عن القبول وكانت شروطهم بصورة واضحة ذات صفات واهداف سياسية ترمي إلى ابعاد يوغوسلافيا عن طريقها الاشتراكي وارغامها على الاتجاه نحو الرأسمالية . فقلت لهم اننا نؤثر الموت على القبول بمثل تلك الشروط ، وخرجت واقلت الباب بقوة . وقد بقيت هناك بضعة ايام لاعطي الاميريكيين فرصة اعادة فتح المفاوضات . واخيراً اضطروا للتنازل قليلاً لأنهم خافوا ان يدفعوا بنا بتصلبهم إلى ابعادنا هذا وادركوا اننا اذا عدنا ناقمين فقد يفقدون كل أمل بابعاد يوغوسلافيا عن المعسكر الاشتراكي . وكان غرضهم الأول منعنا من العودة إلى الاتفاق مع الاتحاد السوفياتي او ، كما كانوا يقولون ، لحمايةنا من الاضطرار إلى الاستسلام إلى ستالين . لقد ارادوا ان يشجعوا الانقسام في العالم الاشتراكي وان يزيدوا في تحصين معسكرهم الامبريالي » .

وسررت برجل يتكلم بمثل هذه الصراحة معبراً عن كرهه الطبقي . غير انني شعرت بالامتناع عندما تناولني فوكمانوفيك - تمبو بقارس الكلام . وقد قلت في احدى اجتماعاتنا « اذا اردتم في اي وقت ان تزيدوا في حدة توتر علاقاتكم مع اية بلاد اخرى ، فان الرفيق تمبو هو اكفأ المؤهلين لذلك » . فنظر تيتو نحوي وانفجر ضاحكاً . وبعد ذلك صرنا ، فوكمانوفيك - تمبو وانا ، على احسن ما يمكن من الاتفاق . وكنت في الواقع احترمه كثيراً . كان طبعه الحاد ناتجاً عن كرهه لاعداء الطبقة العاملة ، وهذا ما جعاه يسمح لنفسه باستعمال لغة غير معتدلة معنا .

(١) كان الغرب الرأسمالي مدة من الزمن كثير التردد في تقديم أية مساعدة إلى تيتو لشككه في جدية خصامه مع ستالين . ولكن مع مرور الزمن قدم له مساعدات كثيرة وذلك لتمكينه من المحافظة على استقلال يوغوسلافيا خارج الكتلة السوفياتية .

وعلى كل حال ، فتحن قد اظهرنا بعض النقص والتقصير في شعورنا مع يوغوسلافيا عندما كانت تواجه اقصى الصعوبات التي مرت بها في تاريخها (١) .

وفي نهاية زيارتنا الأولى إلى يوغوسلافيا اصدرنا بلاغاً مشتركاً . وكان ذلك التصريح نقطة انطلاق فقط . فقد اصرر تيتو على تقيدنا بمبادئ عدم التدخل التام في شؤون البلدان والاحزاب الاخرى الداخلية ، والاعتراف بحق كل بلد بحريته في العمل دون ضغط من الخارج . فوافقنا نحن على ذلك معتقدين باخلاص ان العلاقات ينبغي ان تقوم على اساس الثقة المتبادلة . وقد اثار البلاغ المشترك بعض القضايا التي كان من الافضل تجنبها ، غير ان اكثر النقاط الصعبة تم تلطيفها . وكان هذا الاتفاق بالطبع مجرد بداية . فبعد تلك المدة الطويلة من الجفاء كان هنالك ما يتطلب اكثر من الجلوس إلى الموائد وتناول كوؤس النيذ معاً .

وبعدتنا إلى موسكو قدمنا تقريرنا عن كيفية سير اجتماعاتنا مع اليوغوسلافين وقلنا ان يوغوسلافيا ظهرت بأنها بلاد متمسكة بطريقتها الاشتراكية ، وان الشعب والحزب صامدون في العقيدة الماركسية - اللينينية . وقررنا في موسكو توسلا للملاقة اليوغوسلافين في منتصف الطريق ووضع الاسس لزيادة التعاون الاقتصادي معهم ، ان نخفض المبلغ الكبير الذي هم مدينون به لنا ونتخلى عنه . ثم لم يلبث اليوغوسلافون ان طلبوا منا قرضاً ، لا اذكر قدره تماماً ، ولكنه كان كبيراً ، وقد ارادوا الحصول عليه لبناء مصنع للفولاذ فاعطيناهم القرض المطلوب على شرط ان يقدم القرض في شكل آلات وماكينات تستعمل في بناء المصنع وتجهيزه .

لقد كان تيتو دائماً شيوعياً صحيحاً ورجل مبادئ . ولكن قبل ان تبدأ علاقاتنا معه في التحسن ، كانت يوغوسلافيا قد اتجهت بتجارها بالاكثـر نحو الشركات الاميركية والانكليزية وغيرها من الشركات الغربية ، مقابل الحصول منها على القروض . وكانت قد ترددت شائعة ان يوغوسلافيا قد منعت ، بمقتضى معاهدة ، من الاتجار مع الاتحاد السوفياتي . والواقع ان هذه الشائعة كانت ملفقة

(٦) كانت المفاوضات متوترة جداً ووصلت مراراً كثيرة إلى نقطة تهدد بقطعها . وكان خروشوف مصمماً على إعادة العلاقات الحميمة بين الحزبين الشيوعي السوفياتي واليوغوسلافي . وبعبارة أخرى إعادة دمج يوغوسلافيا مع الاتحاد السوفياتي على مستوى الحكومات ، كما هي الحال بين الدول المستقلة ، وهذا ما حدث . أما فوكا نوفيك - تمبر الذي كان مدة طويلة رئيساً لاتحاد العمال اليوغوسلافي ومن الأنصار القدماء ، فقد كان ولا يزال رجلاً مستقيماً صادقاً .

لا صحة لها اذاعها كثيرون ممن لا يريدون الخير ليوغوسلافيا ولا للاتحاد السوفياتي . ولم يكن بين يوغوسلافيا والغرب مثل هذه المعاهدة . ولكن في الوقت ذاته لم يكن هنالك مجال للشك في ان الامبرياليين لم يكونوا يقدمون ليوغوسلافيا منحاً وهبات حباً بها . فقد كان مما يجلب الارباح للبلدان الرأسمالية حيثئذ ، ولا يزال الآن كذلك ، ان تستعين باتفاقات تجارية مغرية لمحاولة ابعاد البلدان الصديقة عن المعسكر الاشتراكي الواحدة بعد الاخرى . واني لاذكر في هذا الصدد حديثاً ذا طابع سري ، ولكن ودي ، جرى لي مرة مع الرفيق غومولكا الذي كان قد طلب ان يبيع بولونيا حنطة . فرأيت حقيقة الدافع الكامن وراء هذا الطلب وقلت له بكل صراحة : « اني اشعر بانك ترغب في شراء الحبوب منا لسبب غير مواجهة احتياجاتك الداخلية . فمن بين جميع البلدان الاشتراكية ، باستثناء الاتحاد السوفياتي طبعاً ، لدى بولونيا افضل وارقي مستويات التقدم الزراعي . ولذلك فيجب ان يكون لديك من الحبوب ما يكفي احتياجات بلادك . ولذلك فاني اعتقد ان هنالك بالتاكيد شيئاً آخر يحول في خاطرك » .

فحدثني الى وقد ادرك اني فهمت غرضه وقال : « نعم ايها الرفيق خروشوف انك على حق ، فنحن بالطبع لسنا بحاجة إلى الحبوب كقطاع ولكن نحتاج اليها علفاً للخنازير التي نعتد عليها في صناعة البايكون (لحم الخنزير المملح) . والبولونيون على ما هو معروف ، ينتجون افضل انواع « البايكون » الذي يباع باسعار جيدة جداً في الاسواق الاميركية . وعندما كان الاميركيون يفرضون الحصار على ما يستورد من الاتحاد السوفياتي ومن بلدان اخرى اشتراكية حرصوا على ترك ثغرة مفتوحة يمكن عن طريقها الحصول على « البايكون » البولوني .

وعلى هذا ، كان الغرب دائماً يعقد صفقات خاصة مع يوغوسلافيا . فليس بمستغرب ان يشعر الاتحاد السوفياتي بنقمة كبرى عليها . وكان مرد هذه النقمة إلى الغيرة والحسد ، اكثر منها إلى النظرة العقائدية . ونحن ، لم يكن الاربح لنا جلب المعدات الميكانيكية من الولايات المتحدة ؟ غير ان الاميركيين رفضوا بيعها لنا . كانوا يبيعونها من يوغوسلافيا . غير اننا لا نرى لماذا نحول غضبنا على الاميركيين إلى نقمة على اليوغوسلافيين الذين كانوا يستفيدون من فرصة كنا نحن نود ان نستفيد منها ؟

اتخذت يوغوسلافيا دائماً موقفاً خاصاً مستقلاً في سياستها الخارجية ، خصوصاً في مواجهة قوات معادية من البلدان الامبريالية . وكانت يوغوسلافيا دائماً تحرص على ان لا تنضم او تنتسب إلى كتلة او إلى اخرى . ولم تكن سياستها دائماً متفقة مع سياستها الخارجية . وكانت تقع احياناً خلافات بيننا . وقد رفض اليوغوسلافيون ان

ينضموا إلى حلف فرصوفيا نظراً لارتباطهم بعلاقات تجارية خاصة مع الغرب . وقد ترك رفضهم هذا شرارة لم تنطفيء في ما بيننا حتى بعد ان بدأت علاقاتنا تتحسن في ١٩٥٥ . وكان هنالك بطبيعة الحال سبب آخر لرفض يوغوسلافيا توقيع ميثاق فرصوفيا . وهذا السبب هو نزاعها على الحدود مع بلغاريا . وعادت علاقاتنا فتوترت مرة أخرى بعد حوادث ١٩٥٦ في المجر . وتخلينا نحن من جانبنا عن بعض التدابير التي كنا قد اتخذناها لتحسين علاقاتنا مع يوغوسلافيا . مثال على ذلك اننا اوقفنا الاتفاق المعقود بيننا حول القروض . غير انه لم يكن هنالك من سبب لنسمح بتطور الوضع إلى قطع العلاقات مرة أخرى مع يوغوسلافيا. ولذلك فقد عمل تيتو وانا على تلطيف هذا النزاع في اجتماع خاص عقد في بوخارست .

ويمكن بنا في هذا الصدد ان ننظر في موقف يوغوسلافيا في المؤتمرين الخطيرين اللذين عقدهما الحزب في ١٩٥٧ و ١٩٦٠ . فقد حضر اليوغوسلافيون هذين المؤتمرين بصفة لا تزيد كثيراً عن صفة المراقبين . ولربما قاموا ببعض المشاركة في المناقشات ، غير أنهم لم يوقعوا قرارات المؤتمر . اني لا انكر ان موقفهم هذا اثارني كثيراً في حينه (١) . ولم استطع ان ادرك لماذا كانوا يتصرفون مثل هذا التصرف ، غير انه لم يكن باستطاعتنا ان نفعل شيئاً في هذا الصدد . والظاهر ان الرفاق اليوغوسلافيين لم تكن لهم ارادة لان يأخذوا على عاتقهم اي شيء من الالتزامات المتبادلة التي كان توقيع القرارات يفرضها . واني اعتقد ان رفضهم ان يقيّدوا انفسهم كان خطأ ، غير اني الآن على الأقل استطع ان ادرك الاسباب التي دعتهم إلى ذلك . وكما قال تيتو في سياق حديثه معي : « انك دون ريب توافق معي على اننا اذا كنا نريد ان نبقي غير منحازين لاية كتلة ، فاننا لا نستطيع ان نوقع قرارات المؤتمر » . لقد اراد اليوغوسلافيون ان يتكلموا باسم البلد التي برزت مجدداً ويدافعوا عنها ، وهي البلدان التي كانت قد تحررت لتوها من الاستعمار ، والتي وجدت انها في وضع معين بين العالمين الاشتراكي والرأسمالي . وقد كان لليوغوسلافيين كل الحق باتخاذ هذا الموقف ، وكان يتوجب علينا ان نتمكن من المحافظة على علاقاتنا معهم بالرغم من رفضهم الانضمام اليها انضماماً اوتق .

(١) ان كلمة «اثارة» كلمة لطيفة معتدلة من وصف شعور خروشوف نحو تيتو لرفضه الاشتراك عملياً في المؤتمرين الكبيرين اللذين عقدا في موسكو في ١٩٥٧ و ١٩٦٠ . فقد احتاج كثيراً وجرى ضغط شديد على اليوغوسلافيين نتيجة لذلك .

ومع ذلك فان سياسة الوقوف على الحياد التي اعتنقها الحزب الشيوعي اليوغوسلافي كانت مجرد عثرة على ممر السنين .

وبعد رحلتنا إلى يوغوسلافيا في ١٩٥٥ وجهنا دعوة إلى وفد يوغوسلافي يرثه الرفيق تيتو لزيارة الاتحاد السوفياتي . فقام باكثر من رحلة واحدة من هذا النوع واصبح يعرف بلادنا معرفة جيدة . وقد دعونا مرة لزيارة القرم للاستراحة بضعة ايام والقيام برحلة صيد . وكانت رحلات الصيد قد اتخذت ، منذ قرون ، فرصة لالتقاء زعماء بلدين او ثلاثة بلدان ومناقشة القضايا ذات المصلحة والاهمية المتبادلة . وكان الجو الذي ساد مباحثاتنا مع تيتو اثناء خروجنا للصيد معاً جواً حميماً ودياً . ووجه اليوغوسلافيون دعوة الينا لزيارة بلادهم ، رداً لزيارتهم بلادنا . فزرتهم عدداً من المرات . واثاحت لي تلك الرحلات فرصة مشاهدة كثير من الاشياء الجديدة وغير العادية التي كانت يوغوسلافيا تنشئها في بلادها .

ان يوغوسلافيا ترعم ، كما يعلم العالم باسره ، انها اكتشفت اساليب ادارية واجراءات اقتصادية تؤدي إلى تسهيل التحول او الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية . والذي يدعونه هو ان تلك الاساليب التنظيمية الجديدة هي اكثر ديمقراطية تسمح للعمال والموظفين والخبراء بزيادة المساهمة في ادارة اقتصاديات الشعب . اما نحن فقد كنا في بادئ الامر ضد هذه الاصلاحات المقترحة . الا انني اهتمت في معاينتها في طور التطبيق والتنفيذ عندما زرت المصانع في يوغوسلافيا رغبة مني في ان اتحقق إلى اي مدى كانت تلك الاجراءات الجديدة قابلة للتطبيق في احوالنا الخاصة في الاتحاد السوفياتي .

واني اذكر ان الرفاق اليوغوسلافيين ذهبوا بي مرة لزيارة مصنع للتراكورات في ضواحي بلغراد . وهناك حاول المهندسون والمديرون والمشرفون على العمل وممثلو اتحادات العمل والمنظمون الحزبيون جميعاً ان يشرحوا لي كيف تقرر مشروع الانتاج بالاساليب الديمقراطية . ولكنني في الواقع لم استطع ان افهم شيئاً مما كانوا يحاولون قوله عن مفهومهم الجديد للملكية الخاصة . فكان كل ما قالوا بهذا الصدد بمثابة اضافة بعض الزينة على الواجهات . وقد ابدت شكوكي للرفاق اليوغوسلافيين بمنتهى الصراحة ، وبدا لي كأنهم وافقوا معي بعض الموافقة ولكنهم استمروا في محاولة اقناعي ان طريقتهم كانت تختلف نوعاً عن الطريقة التي كنا نسير عليها في الاتحاد السوفياتي ، وانها اكثر ديمقراطية واكثر توصلاً إلى

مساهمة الشعب في تحقيق اهداف الانتاج . (١) .
وعلى الرغم من الشكوك التي ساورتني فقد كانت حججهم ، دون ريب ،
جديرة بقدر معين من الالتفات . وفي اثناء المدة التي عشتها وعملت فيها واشتركت
في قيادة الحكومة ، كان اقتصادنا دائماً يدار ادارة مركزية واني ارى ان في
ايامي كانت المركزية افضل واكفأ نظام .

غير انني بدأت منذ عهد قريب اشعر بانه في حين لا تزال الادارة المركزية
ضرورية الا انه لا يقل عنها في الاهمية في نظر العمال ان يكون لهم رأي اكثر مما
كان في السابق ، بلهجة تحديد حصصهم من الانتاج واحوالهم فيه . وفي حين ان
مشاريع الانتاج ينبغي دائماً ان تضعها القمة وتشرف عليها ، فاني اعتقد ان في
المستقبل سوف يكون ، بكل تأكيد ، للعمال انفسهم مساهمة اكثر في وضع
الخطط وتعيين الحصص وتقرير كيفية القيام بتلك المشاريع وتنفيذها . وبعبارة
اخرى ، انني اعتقد ان هنالك علي الاقل ذرة من الصواب ، ولو في مجرد
الشروع باسهام مفيد في ادارة الشؤون الاقتصادية ، تقدمه الاساليب التنظيمية
الجديدة التي وضعها اليوغوسلافيون . ولا فائدة من التكرار لذلك .

وقد زعم اليوغوسلافيون انهم اوجدوا شروطاً اقتصادية مفضلة لمواجهة
متطلبات المستهلك . غير انه كان لهم نصيبهم من العقد والمشاكل ايضاً . وفي
اثناء احدي زياراتي اعترف لي تيتو بقوله : « اننا نحاول معالجة بعض التطورات
المؤسفة عندنا . واني اظن ان لدى بعض رجالنا الذين يديرون المشاريع الحكومية
حسابات مالية في بعض البنوك الرأسمالية في الخارج . وبعبارة اخرى انهم
يختلسون من اموالنا » . وفي رأبي ان هذا النوع من اساءة الامانة طبيعي . وهو
نتيجة حتمية لسياسة تيتو الاقتصادية . وربما يكون اليوغوسلافيون الآن إما انهم
قد تخلصوا من مثل هذه المشاكل بتصفيتها او انهم ابتكروا طريقة ما للتغلب عليها .

ان الاساءات والاختطاء تحدث دائماً عندما يكون المجتمع في سياق اجراء
اختبارات وتجارب لاساليب وانظمة جديدة . وانه ليس مما يدعو إلى الدهشة
والاستغراب ان لا تكون جميع اختبارات اليوغوسلافيين وتجاربهم قد ثبت نجاحها
وصحتها . ولكن في الوقت ذاته ليست جميع اختبارات اليوغوسلافيين وتجاربهم

(١) هنا ، يشير خروشوف خاصة إلى محالس العمال التي انشئت في يوغوسلافيا في
محاولة لتحقيق نوع جديد من الاشتراكية المحررة من التصميم المركزي ، وذلك
بجمل المصانع والبنوك والمشاريع والمعاهد من جميع الأنواع تدبير ذاتها . وفي
زيارته الأولى إلى يوغوسلافيا نظر خروشوف إلى تلك الفكرة نظرة احتقار بالغة.

مما ينبغي رفضه على الفور . بل علينا ان نفحص الحالة فحصاً دقيقاً وبدون تحيز ، ثم نقرر اي نوع من انظمة اليوغوسلافيين يجوز تطبيقه بصورة مفيدة تجلب الربح على اقتصاديات بلدان اشتراكية اخرى . واني أعترف ان ابجائنا وفحوصاتنا لهذه الامور لم تكن دائماً متزنة وإيجابية . وقد جرت بعض الاحيان فحوصات مشتركة يزعم فيها الفريقان انهما توصلا إلى الحقيقة . اما انا فلم اشعر ابداً ان احد الفريقين كان على حق بصورة كلية . انه لمن الخطأ دائماً ان يدعي المرء انه على حق مطلق لا يتنازع فيه احد . فالاصرار بعناد على ان الاسلوب الذي يتبعه احدنا هو الاسلوب الوحيد الصحيح لتحقيق اي أمر ، لخطأ فاضح وبلاهة . كانت الزراعة هي احد المجالات التي كان يبدو ان اليوغوسلافيين يسرون فيها على الطريق القويم . وقد كان لي مرة حديث مفيد مع تيتو حول هذا الموضوع ، قال لي فيه : « عندما كانت علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي مقطوعة ، اردنا ان نتحقق من اننا لا نعتبر مرتدين عن الاشتراكية . فانخذنا تدابير ادارية لتتابع نظام التجميع الزراعي (التشارك) إلى النهاية . فمن ناحية الكمية البحتة ربما نكون قد وفقنا في الجماعية ، ولكن صادفنا صعوبات كبيرة في انتاج المحاصيل الكافية لتلبية طلبات السكان . ومع ذلك فانا لم نبدأ بالانتقال من المزارع الجماعية إلى المزارع الحكومية الا بعد ان اتبعنا النظام الجماعي إلى النهاية » . واستشهد على ذلك برقم كبير يمثل نسبة مثوية من ارض استعملت للمشاريع الزراعية الحكومية كانت قد حددت لزراعة القمح وانتاج الحليب وتربية الدواجن والبقر . فكانت الدولة تبتاع المزارع من الفلاحين وتحوّلها إلى مزارع حكومية على مثال الاساليب المتبعة في مزارعنا السوفياتية الحكومية . وكانت سياسة الرفيق تيتو الرامية إلى اقامة زراعة الدولة التعاونية بدلا من ان تكون مناقضة لطريقتنا في بناء الاشتراكية بعيدة عن ذلك كل البعد ، وجديرة بكل التفات وعناية من قبلنا . لقد كان لينين شخصياً يقول ان تعاونيات الفلاحين والمزارع الحكومية تمثل اكثر مراحل التطور الزراعي تقدماً ورقياً . واني أعتقد ان اليوغوسلافيين اتبعوا الطريق القويم عندما بدأوا في استبدال المزارع الجماعية بمزارع حكومية (١) .

(١) قبل الخصام مع الاتحاد السوفياتي في ١٩٤٨ ، ولمدة من الزمن بعد ذلك ، كانت الشؤون الاقتصادية والصناعية والزراعية اليوغوسلافية تدار بأقصى درجة من الصراحة على النمط السوفياتي . الا أن السيطرة المركزية في الصناعة تركت مكانها للإدارة الذاتية ، وفي الزراعة ألغيت المزارع الجماعية بسبب نقمة الفلاحين لتحل =

وقد حاولنا نحن انفسنا ان نقوم باجراء تحسينات شاملة في نظامنا الزراعي عندما حاولنا اعادة اسكان الزراع الجماعيين في الارض البكر . ويمكن للمرء أن يتصور الصعوبات التي سببتها حملة الاراضي البكر لعائلة كان عليها ان تنتقل من مكان عاشت فيه طيلة اجيال كثيرة إلى مكان آخر . فقد كان ذلك صعباً جداً عليها . ولكن كان علينا ان ننقل عائلات كثيرة - اوكرانية وبييلوروسية وروسية - إلى ألوف الكيلومترات بعيداً عن ارض آباءها واجدادها . وقد انفقنا مبالغ كبيرة في سبيل تنفيذ حملة اعادة الاسكان . واضطررنا كذلك ان نعطي قروضاً ومساعدات مالية إلى الشبان الذين استخدموا في بناء مستعمرات الاسكان في الارض البكر . وكنا قد صرنا مقتنعين ان علينا انشاء مزارع جماعية على تلك الأرض . والمزرعة الجماعية هي منظمة مصطنعة ، اي أنها ليست متحداً جماعياً حقيقياً فضلاً عن انها كثيرة الكلفة .

لذلك قررنا اختيار الطريقة الاخرى وهي المزارع الحكومية. وعندما كنت انا في القيادة كان اخص انواع الحبز هو الذي كان يتج في المزارع الحكومية على الارض البكر (١) .

وقد سرتني ان تبتو ، اذ كان يرى فوائد الزراعة التعاونية ويفضلها على الجماعيات ، كان ايضاً يدرك اهمية التصميم المركزي . والتصميم او التخطيط

= محلها التعاونيات الزراعية التي الح على الفلاحين، أصحاب الملكيات الصغيرة، لينضموا اليها وقد فعل أكثرهم ذلك . والمزارع الحكومية وهي دائماً محبوبة من خروشوف (مزارع كبيرة يملكها الدولة ويتولى ادارتها موظفون يتقاضون مرتبات ويعمل فيها عال مأجورون) ليست في الواقع كثيرة الانتشار في يوغوسلافيا . وقد وجدت بالأكثر لا غراض خاصة مثل تربية المواشي . والمزارع الجماعية ، كان، نظرياً، يملكها فلاحو القرية أو جماعة من القرى الصغيرة ويعملون فيها لجنّي ارباح مشتركة .

(١) ان حملة الأرض البكر التي يشير اليها خروشوف هنا كانت عملية ضخمة ترمي إلى فتح مساحات كبيرة من السهول الخالية من الاشجار ، وبالأكثر في خازستان، لزراع الحبوب . وقد حرثت هذه الاراضي لأول مرة في ١٩٥٤ وكانت مساحتها لا تقل عن تسعين مليوناً من الاقدنة ، أي أكثر من مجموع الأراضي المزروعة في انكلترا وفرنسا واسانيا معاً . وقد نقل نصف مليون من روسيا الاوروبية إلى تلك السهول الخالية حيث عاشوا في أحوال بدائية ، منظمين في مزارع حكومية كبيرة جداً . ورغم النجاح الأول (الكبير النفقة) أوقفت الاختبارات وتحولت الأرض سريعاً إلى حفر من التراب .

المركزي الذي كانت تقوم به لجنة التصميم الحكومية في الاتحاد السوفياتي هو ضرورة جوهريّة في إدارة الاقتصاد الاشتراكي . فبدون التصميم المركزي فان سيطرة السوق - العرض والطلب ، التي تتألف منها عناصر الدولة الرأسمالية - تزول سريعاً وتحل محله العلاقات الاشتراكية بين الافراد والمشاريع . وكان من دواعي سروري وارتياحي ان تدرك دولة يوغوسلافيا بزعامة الرفيق تيتو ان التصميم المركزي ضرورة لا غنى عنها للمحافظة على الاقتصاد الاشتراكي الصحيح . وفي اثناء زيارتي ليوغوسلافيا واحاديثي مع تيتو نما عندي احترام عظيم له ، وثقة كبيرة بمقدرته كزعيم بعيد النظر ، مقدام . وعندما زرت برفقته داخل البلاد رأيت ان الاحوال قد تحسنت كثيراً بالنسبة لما كانت عليه عندما قام وفدنا بزيارته الأولى في ١٩٥٥ . فكان الشعب اسعد حالا والمصانع تنشأ في جميع الانحاء . واني لاذكر زيارتي لموقع كان يبنى عليه مصنع للبلاستيك جهر بالآلات جرى شراؤها من الولايات المتحدة . فكانت معدات واجهزة مفيدة جداً والمصنع يبشر بان يكون نعمة عظيمة ومصدر خير كبير للشعب اليوغوسلافي . وقد اخبرني الرفيق تيتو مرة ان يوغوسلافيا في ١٩٦٣ جنت ايراداً بلغ مقداره ما يقرب الـ ٧٠ مليون دولار من السياحة . ومثل هذا المبلغ قد يكون تافهاً لبلاد مثل ايطاليا او سويسرا او اسوج وسواها من البلدان الغربية ، ولكنه لبلد اشتراكي ، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي ، مبلغ كبير يستحق الذكر . وقد ابغني تيتو ان يوغوسلافيا تعمل على بناء فنادق وطرق جديدة لجلب عدد اكبر من السياح . فالسياحة تدر نقداً اجنبياً هو ضروري للتجارة الخارجية . واني استطيع ان اقول اننا نحن في الاتحاد السوفياتي كنا نحسد يوغوسلافيا على نجاحها في الرغبة بالسياحة واستدراج السياح الاجانب اليها .

وبدأت ابحث واسأل لاكتشف كيف استطاع اليوغوسلافيون ايجاد مثل هذا المورد السياحي المزدهر . فقالوا ان الطرق الصالحة كانت في طبيعة العوامل ، وتليها الفنادق والمطاعم اللائقة . وزادوا في الايضاح قائلين انهم ، لكي يضمنوا حسن الخدمة للسياح في الفنادق اليوغوسلافية ، اوفدوا اشخاصاً منهم إلى البلدان الرأسمالية لدرس كيفية استقبال السياح واعداد الطعام وإدارة الفنادق ادارة صحيحة . وقد زرت بعض فنادقهم السياحية فوجدتها نظيفة جداً وعصرية .

ومما لا ريب فيه ان ليوغوسلافيا مزايا طبيعية كبيرة . فهي احدى اجمل بلدان اوربا الاشتراكية . وكنت قبل زيارة يوغوسلافيا اعتقد ان القرم عندنا وشواطئ القوقاس هي ابهج المناظر واعظمها في العالم بأسره . ولكن عندما شاهدت دوبروفنك وغيرها من المناطق السياحية في يوغوسلافيا ، ادركت اننا لسنا البلد

الاشتراكي الوحيد الذي يستطيع ان يدعي مثل هذا الجمال الطبيعي وبفاخر به . وربما كان مناخ يوغوسلافيا وشواطئها الفسيحة وثروتها الكبيرة بالآثار التاريخية ، تجعلها متفوقة حتى على ما في بلادنا من مظاهر الجمال الكثيرة .

والسياح ، بالطبع ، يسبون المشاكل بعض الاحيان . وقد سألت الرفيق تيتو مرة قائلا : « اخبرني ، كيف تراقب وتنحقق من اوضاع السياح الغربيين الذين يدخلون يوغوسلافيا بالسيارات ؟ ففي الاتحاد السوفياتي لدينا جهاز بيروقراطي هائل يضع الكثير من الحواجز في طريق السياح » .

فضحك وقال : « وجدنا حلا للمشكلة بكل بساطة . فهناك جميع انواع الطرق التي يستطيع بها السياح غير المرغوب فيهم والجواسيس وامثالهم الدخول إلى البلاد . والتحقق على الحدود ليس فيه الضمانة الكافية ضدهم . هنالك طرق اخرى لمكافحة تسلمهم ، ولذلك فان حراس الحدود في بلادنا يخضعون السياح لافل ما يمكن من التحقيقات الرسمية . والعملية المألوفة كلها لا تستغرق سوى دقائق معدودة سواء في الدخول إلى البلاد او الخروج منها . ولا يجري عادة اي تحقيق في الهويات على الاطلاق . فالقادم يقول بكل بساطة إلى اين سيذهب فيرفع الحاجز وينطلق بسيارته . وهذا يجري مع القادمين إلى يوغوسلافيا من بلدان اخرى . ومثل هذه الحرية تعطى للمواطنين اليوغوسلافيين المتوجهين إلى الخارج . ومثالا لذلك ، فان هنالك عمال مناجم كثيرين يغادرون يوغوسلافيا للعمل بعض الزمن في المانيا الغربية . فهؤلاء يجبرون حارس الحدود انهم ذاهبون للحصول على بعض المال لشراء سيارة فيسمح لهم بالخروج حالا » .

فأثارت هذه الطريقة في معالجة مشكلة رقابة الحدود اهتمامي وفضولي . وعندما رجعت إلى بلادي ابلغت ذلك إلى الرفاق الذين كانوا يشرفون على السياحة . وقلت لهم ان يفكروا في ذلك . وشرعنا ايضاً في تنفيذ برنامج كبير لبناء الفنادق ولاستغلال ما لدينا من المشوقات لاستجلاب السياح إلى بلادنا .

وفي اثناء حديث آخر مع الرفيق تيتو سأله : « هل تسمح لنا بان نرسل رجالنا ليتعلموا من اختباركم الكبير في السياحة ؟ »

فاجاب تيتو قائلاً : « طبعاً ، وانه ليسرنا ان نريهم ونبلغهم كل شيء يهكم ان يطلعوا عليه . ان السائح العادي الذي يجيء إلى هنا ليس صاحب ثروة وليس رأسمالياً كبيراً . انه عادة من الطبقة العاملة من المانيا الغربية او ايطاليا ولديه دخل متوسط . ولذلك فمعظم السياح لا يجلبون معهم مبالغ كبيرة من المال لينفقوها ويذهبوا ، بل هم يستعملون خدماتنا ويدفعون ما عليهم بالنقد الاجنبي » . ثم اني سألت الرفيق تيتو ايضاً اذا كان لديهم مشكلة صغار الباعة من الشبان

والشابات الذين يطاردون السياح محاولين بيعهم جميع انواع الحلوى الصغيرة والزخارف وخصوصاً حول الفنادق وقلت : « اننا في بلادنا نشعر بالحجل من جراء ذلك » .

فقال : « ليس عندنا في الحقيقة ، مثل هذه المشكلة . ذلك انه عندما تدرج اية سلعة بين شعبنا وتصبح شائعة ، نبادر إلى ابتياع المعدات اللازمة لصنعها ونشرع في انتاجها محلياً . ان اذواق المستهلكين تتبدل دوماً ، على ان كل ما نفعله هو تدبير الأمر عقلاً ، فنعمل للتأكد من ان صناعتنا تجاري تقلابات الازياء ، وتتكيف بصورة مستمرة وفق ما يطلبه المستهلك » .

فاقترحت على رفاقي ان نحدو في بلادنا حدو الرفيق تيتو ونسج على منواله ، ونضع حداً للعار الذي يلحق بنا من تراكض شبابنا وراء السياح .

واني لا اعلم أي اقتراحاتي وضع فعلاً موضع التنفيذ . غير اني أظن اننا ارسلنا بعض الاشخاص إلى يوغوسلافيا لدرس الشؤون السياحية . واني ارى من الصحف ان عدداً كبيراً من الفنادق قد انشيء في الاتحاد السوفياتي .

ان اختباراتي مع الرفيق تيتو دلتي على وجود طرق مختلفة في الخارج لبناء الاشتراكية . وليس ثمة قالب واحد يلائم احتياجات جميع بلدان العالم ، وان الظن بوجود مثل هذا السبيل المفرد هو مجرد جهل وبلاهة . ان كل حزب يعرف ما هو افضل السبل لتأمين الوحدة بين صفوفه . ان مزيداً من الصبر هو المطلوب ازاء الاحزاب في اختباراتنا لاساليب تختلف قليلا في مواجهة مشاكل الشعب الاساسية .

ومن المفروض تمكين كل طبقة عمالية من اختيار طريقها الخاص للنهوض والتقدم على اسس الظروف الاقتصادية التاريخية والمحلية . وذلك بالطبع ضمن شرط واحد هو ان تكون وسائل الانتاج والمصارف ملكاً للشعب وان تدار شؤون الدولة من قبل ديكتاتورية البروليتاريا . ومفروض ان يسود التسامح علاقات التفاعل المتبادلة مع الاحزاب والدول المختلفة ، وان يرحب صدرنا نحو الآخرين وان نتجنب التحدث عن عيوبهم وخصوصاً علناً وفي الاماكن العامة . على ان ما يدعو إلى الأسف انه أحياناً يتعذر علينا ضبط انفسنا . الا انني لن اورد هنا امثلة على ذلك . ان اهل الادراك التذكير الحسن جميعاً يعلمون حق العلم من هم الذين اشير اليهم في حديثي هذا .

مؤتمر القمة في جنيف

في بلغراد وجد خروشوف نفسه يلتقي لأول مرة رئيس دولة أجنبية ،
ويعرض لتفحصات دبلوماسيين وصحافيين أجانب بعيداً عن قواعده المألوفة .
وفي جنيف بعد ذلك بشهر أو شهرين اجتمع للمرة الأولى بزعماء الدول
الامبريالية : الرئيس ايزنهاور واليدين ايدن وفور ، ناهيك بجون فوستر
دالاس . وكان ذلك امتحاناً خطيراً إلى جانب كونه نقطة تحول هامة . فالفلاح
الذي نشأ في كاليغوفكا - والزعيم الحزبي الذي شق طريقه صعوداً في ظل
ستالين كان يجتمع الآن وعلى مستوى الند للند برؤساء العالم الغربي المنتخبين
وذوي الخلفيات الثقافية من «وست بونت» «وايتون» «واكسفورد»
«واللييه» «والسوربون» .

وكان خروشوف وبولفانين ما زالا يرتديان الملابس التي اوتدياها
في زيارتهما ليوغوسلافيا - أي البدلات الصيفية البفسجية الباهتة الفضفاضة
والسراويل الواسعة والمعاطف الصيفية المتدلية إلى الأرض فظهرا في هيئة
سائق سيارة قبل حرب ١٩١٤ (وبعد جنيف أخذت الزعامة السوفياتية تهم
بحسن الهندام) .

ويعطي خروشوف هنا فكرة نابضة بالحياة عما عاناه من توتر وغربة
ومركب فقص . وكان شعوره ، مثلاً ، بالارتباك والحيرة حول طائرة
«اليوشن» ذات المحركين التي جاءوا عليها من موسكو ، يدل على أشياء كثيرة
في نفسه .

ظل ستالين حتى وفاته يقول لنا « سوف ترون ، عندما اذهب ستدق الدول
الامبريالية اعناقكم مثلما تدق اعناق الدجاج » . ولم نحاول من جهتنا ، ولا مرة ،
ان نطمئنه إلى اننا سنكون قادرين على تدبير امورنا ، اذ كنا نعلم ان لا فائدة من
مثل هذا الايضاح . فضلاً عن ذلك ، فقد كانت تساورنا الشكوك حول سياسة

ستالين الخارجية . فقد كان يبالغ في تأكيد اهمية القوة العسكرية ، وبالتالي في اعتماده الكلي على قواتنا المسلحة . وعاش في رعب دائم من هجوم العدو . وكانت السياسة الخارجية في نظره تعني الاحتفاظ بوحدة جوية حول موسكو في حالة استفار طيلة اربع وعشرين ساعة مستمرة .

وبعد وفاة ستالين واجهنا تحدياً مثيراً في محاولتنا التعامل مع الدول الاجنبية بانفسنا . وفي ١٩٥٥ ذهبنا إلى الخارج عدداً من المرات للاجتماع بممثلي الدول البورجوازية ولحس نبضهم حول مختلف القضايا . وقد اتاحت رحلتنا إلى جنيف لرؤساء الدول البورجوازية فرصة امتحاننا وتفحصنا . وكان اجتماع جنيف محكاً عصياً لنا . هل سنكون قادرين على تمثيل بلادنا تمثيلاً صحيحاً ؟ هل نواجه الاجتماع برصانة مجردة عن الآمال الخيالية ، وهل ستمكن من منع الجانب الآخر من تخويفنا والتهويل علينا ؟

اقول ، بعد حساب كل ما حصل ، اننا قد اجتزنا فعلاً التجربة . ولا بد لي هنا من كلمة حول المقدمات التي ادت إلى اجتماع جنيف : فمنذ القى تشرشل خطابه في فولتون داعياً البلدان الرأسمالية في العالم إلى تطويق الاتحاد السوفياتي ، تأثرت علاقاتنا مع الغرب (١) . وأظن ان رأي تشرشل كان في الواقع يتلخص في ان على الدول الغربية المبادرة بسرعة بعد وفاة ستالين إلى فتح خطوط الاتصالات مع الاتحاد السوفياتي . وكان تشرشل يدعو الغرب إلى استغلال عدم تشكيل الحكومة السوفياتية الجديدة تشكيلاً كاملاً ، مما جعل وضعنا اكثر عرضة للتأثر بالضغط . وكانت الصحف الغربية قد امتلأت فجأة بدعوة ملحاحه لعقد اجتماع بين الدول الاربع الكبرى . وكنا نحن نويد انعقاد مثل هذا الاجتماع . وكان يخالجنا شعور ان بعد تلك الحرب الدامية ، نحن والغرب ، قد نستطيع التوصل إلى التفاهم والاتفاق في ما بيتنا على مبادئ معقولة للتعايش السلمي وعدم التدخل في شؤون الدول الاخرى الداخلية .

وتم الاتفاق بالطرق الدبلوماسية على ان يكون مكان انعقاد الاجتماع في جنيف ، وحدد صيف ١٩٥٥ موعداً لانعقاده . وكان بولغاين قد أصبح في ذلك الوقت رئيساً لمجلس الوزراء . واني اعتقد ان من الاسباب التي حملتنا على الموافقة

(١) من المفيد هنا ان نلاحظ كيف يستخدم عبارة «تطويق» للدلالة على السياسة الاميركية المعروفة بسياسة «الاحتواء» والتي اعتمدت بعد ان تم فرض «السفوتة» على القسم الأكبر من أوروبا الوسطى وشرقي أوروبا .

على اجتماع جنيف هو ان مالنكوف كان حيثذ قد اعفي من منصبه كرئيس مجلس الوزراء. وبوسع كل من عرف مالنكوف ان يعترف بانه ، بعد وفاة ستالين ، فقد كليا روح المبادرة ، وبات لايمكن مطلقاً التكهن بما يقوله ويقوم به . وبدا ضعيفاً ومتقلباً إلى حد الخطورة ، نظراً لسرعة تأثره بضغط الآخرين ونفوذهم. ولم يكن من باب الصدفة انه سقط في برائن بيريا . ومع ان بيريا قد لا يكون اذكي من مالنكوف ولكنه كان اكثر دهاء معه واقوى ارادة .

وكان بولغانين بصفته رئيس الوزراء سيتولى رئاسة الوفد إلى جنيف بالرغم من انه لم يكن مطلعاً اطلاقاً كبيراً على السياسة الخارجية ، ولا خبيراً في المفاوضات الدبلوماسية . ولما كان وزراء الخارجية في الحكومات الثلاث الاخرى ، وهي الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، سيكونون مرافقين لرؤساء تلك الحكومات ، فقد قرر البريزيديوم واللجنة المركزية ارسال وزير خارجيتنا مولوتوف كما تقرر انضمامي انا إلى الوفد . وقد حذرت من انه قد يتعذر على الوفود الاخرى ادراك الداعي لوجودي لانني لا اتقلد منصباً وزارياً واني فقط امثل الحزب (بوصفي سكرتيره الأول) . فرد مولوتوف على ملاحظتي قائلاً : « ان من شأننا نحن دون سوانا ان نقرر من نضم إلى وفدنا . ثم انك عضو في بريزيديوم السوفيات الاعلى الذي هو اعلى هيئة حاكمة في الاتحاد السوفياتي . ولذلك ارى انك ينبغي ان تذهب معنا . واني لا ازال حتى الآن غير متأكد اذا كان ذهابي إلى جنيف آنذاك كان مناسباً او غير مناسب . ولكنني لا انكر انني كنت منشوقاً إلى الالتقاء بممثلي الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا وفرنسا ، وان اشترك في حل المشاكل الدولية . كانت السياسة السوفياتية الخارجية في ذلك الوقت تدعو إلى التعايش السلمي على ان الزعماء الغربيين كانوا يهجمون بامور اخرى . فقد ارادوا ان يتوصلوا إلى عقد اتفاق ضمني على شروطهم معنا حول الوضع السياسي في الشرق الاقصى . فلم تكن لديهم رغبة في ان يعبروا اي اهتمام لمصالح اورغبات الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى . وقد كان هدفهم ايضاً ، بالطبع ، ان يعيدوا الرأسمالية إلى البلدان التي كان قد حررها الجيش السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية ، فضلاً عن سلخ بولونيا عن الكتلة الاشتراكية . غير اننا كنا نعلم ان الهدف الأول الذي يسعى الانكليز والاميركيون والفرنسيون لتحقيقه هو ما كانوا يسمونه « باعادة توحيد المانيا » والذي كان بالحقيقة يعني طرد القوى الاشتراكية من جمهورية المانيا الديمقراطية . وبعبارة اخرى تصفية الاشتراكية في جمهورية المانيا الديمقراطية وخلق المانيا رأسمالية واحدة تكون ، بدون ريب ، عضواً في الحلف الاطلسي (ناو) . اما بصدد موقفنا من هذه القضية

فكان يختصر برغبتنا في توقيع معاهدة صلح تعترف بوجود الدولتين الالمانيتين وتضمن تطور كل واحدة منهما على النحو الذي يراه شعبها موافقاً .

اما انا فقد كنت اشعر ان المهم والرئيسي هو حفظ السلام . غير ان الدول الغربية كانت لا تزال مترددة في اتخاذ حتى التدابير الاساسية الضرورية لارساء اسس صحيحة لسلام مضمون . من هنا كان محتملاً على اجتماع جنيف الفشل حتى قبل انعقاده . غير انه كانت له فوائده في عدد من النواحي المهمة . فقد اتاح لزعماء الدول الكبرى الاربع فرصة ان يرى كل منهم الآخر عن كنب ، وان يتبادلوا على الموائد بصورة غير رسمية وجهات النظر في ما بينهم .

وكان مما يدعو إلى الاسف ان وفدنا وجد ذاته في وضع غير موات منذ اللحظة الأولى التي هبط بها في مطار جنيف . ذلك ان وفود الدول الثلاث الاخرى جاءت في طائرات ذات اربعة محركات بينما وصلنا نحن في طائرة اليوشن متواضعة ذات محركين (ال - ١٤) . كانت طائراتهم بالتأكيد ادعى للاعجاب من طائرتنا ، والمقارنة في هذا المجال كانت محرجة .

واقيمت حفلة على شرف الوفود الأربعة في المطار بدأت بعرض عسكري كان رئيس كل وفد يأخذ دوره في استعراض حرس الشرف . وهنا وقعت حادثة غير سارة في اثناء هذه الحفلة . وذلك ان بولغائين ، بوصفه رئيس وفدنا ، كان عليه ان يتقدم إلى الامام ويستعرض حرس الشرف (١) وفيما هو يستعد لذلك ، تقدم فجأة ضابط بروتوكول سويسري ووقف امامي تماماً وظهره يلاصق انفي ، فكان اول ما خطر لي هو أن ادفعه من طريقي . ولكنني علمت في ما بعد انه انما فعل ذلك عملاً باوامر الحكومة السويسرية التي ارادت ان تمنعني من السير مع بولغائين لعرض الجنود ، اذ لم يكن مسموحاً ان افعل ذلك بموجب البروتوكول . غير ان طريقتها بايقاف ذلك الضابط امامي كان فيها كثير من الخشونة وعدم التهذيب . وبينما كنا في طريقنا بالسيارات إلى مقر اقامتنا ، رأيت ان حرس ايزنهاور الخاص كان ينطلق راكضاً وراء سيارته . فادهشني ذلك المشهد المستغرب جداً . فكيف يمكن للسائر اللحاق بسيارة مهما ابطأت في سرعتها . وبعد هذا باربع سنين شهدت ذلك مرة اخرى عندما قابلني ايزنهاور على المطار في واشنطن في بداية

(١) لا يزال خروشوف يزعم أنه لم يكن على رأس الوفد السوفياتي . والحقيقة انه راعى في حركاته كلها تقديم بولغائين عليه ، غير ان مركزه البارز كان واضحاً لدى الجميع .

زيارتي لاميركا . وهنا ايضاً كان هؤلاء الشبان المتحمسين من افراد حرسه الخاص يركضون وراء السيارة التي نقلتني إلى المدينة .

لم يكن اجتماع جنيف اول مرة اجتمعت فيها مع ايزنهاور فقد اجتمعت به في نهاية الحرب عندما جاء إلى موسكو ووقف على منصة نصب لينين لمشاهدة عرض النصر في ٢٤ حزيران ١٩٤٥ . غير ان ذلك كان في تاريخ مبكر في حياتنا العامة . فقد كان ايزنهاور جنرالاً وكنت انا رئيس الحزب الاوكراني والدولة . وها نحن الان في جنيف ، بعد ذلك بعشر سنين نلتقي مرة اخرى كممثلين لبلادنا . لقد وقفنا من قبل جنباً إلى جنب على منصة العرض . والآن كان علينا ان نجلس على جانبيين متقابلين حول مائدة المفاوضات وجهاً لوجه . اذا كان لي ان اقرن بين الرئيسين الاميركيين اللذين تعاملت معهما - ايزنهاور وكيندي - فان المقارنة لن تكون في مصلحة ايزنهاور . فرجالنا اللذين كانت مهمتهم ان يدرسوا ايزنهاور عن كتب قالوا لي انهم يعتبرونه قائداً عسكرياً عادياً ورئيساً ضعيفاً . لكنه كان رجلاً طيباً ، ودمت الطبع . والذي اكتشفته في جنيف انه كان يعتمد اكثر من اللزوم على مستشاريه . وكان يبدو لي جلياً ان وجوده رئيساً للولايات المتحدة كان عبئاً ثقيلاً عليه .

كانت محادثتنا مع الوفد الاميركي بصورة عامة بناءة ومفيدة للجانبين ، على الرغم ان اياً منهما لم يبدل موقفه جوهرياً حول اية قضية من القضايا التي تواجهنا . فالولايات المتحدة في تلك الاثناء رفضت حتى ان تبدي تساهلاً حول اكثر القضايا عدلاً وعقلانية ، لان جون فوسر دالاس كان لا يزال حياً ، وكان هو الذي يقرر سياسة الولايات المتحدة الخارجية لا الرئيس ايزنهاور . وتأكيداً لهذا القول استطيع ان اصف شيئاً لاحظته في احدى الجلسات العامة في جنيف .

كان كل من رؤساء الوفود الاربعة قد اخذ دوره في رئاسة الجلسات . وعندما جاء دور ايزنهاور وقف دالاس إلى يمينه وكنت انا جالساً إلى يسار بولغاين ، مما جعلني إلى يمين دالاس او ربما كان هنالك مترجم بيننا . ومهما يكن من امر فقد رأيت دالاس يدون كلاماً على ورقة بقلم رصاص ثم يتزع الورقة من دفتره ويدسها تحت يد ايزنهاور ، فيلتقط ايزنهاور تلك الوريقات ويفتحها ويقرأها قبل اتخاذ اي قرار حول اي موضوع يطرح للبحث . وكان يسير على هذا النمط بكل دقة ، كما يفعل الطالب الصغير عند تلقي الاوامر من معلمه . وقد كان من الصعب علينا ان نتصور كيف ان رئيس دولة يستطيع ان يسمح لنفسه ان يستسلم لسواه على هذا النحو امام وفود بلدان اخرى . فقد بدا بشكل لا يطرق اليه الشك ان ايزنهاور كان يترك للدالاس ان يدرس ويفكر بالنيابة عنه .

وهنا اورد كلمة عن دالاس . فبعد بضع سنين عندما رثت الوفد السوفياتي إلى الجمعية العمومية لحيثة الأمم المتحدة في نيويورك سألني السيد نهرو عن رأيي بدالاس وكيف كانت حالتنا معه في مؤتمر جنيف . واني اذكر لهذه المناسبة ان نهرو كان الطفل واحب شخص عرفته . فقد كانت الابتسامة لا تفارق ثغره وكان وجهه يطفح بالبشر والايناس . ولم يدهشي سؤاله فاجبته باني تحدثت مع دالاس بصورة غير رسمية حول مائدة الطعام في جنيف فوجدته شخصاً ذا طابع جافة ولذلك لم يدر بيننا حديث الا عن انواع الطعام .

كان دالاس غالباً ما يردد ان هدف الولايات المتحدة هو ارجاع الاشتراكية في اوروبا إلى حدود الاتحاد السوفياتي . وكان يبدو ان فكرة التطويق هذه مستحوزة عليه إلى درجة الهوس . وقد توسع دالاس في الخطر الاقتصادي الاميركي المفروض على الاتحاد السوفياتي ، فجعله يشمل مقاطعة التبادل الثقافي . حتى انه لم يكن يسمح للسباح السوفيات ولاعبي الشطرنج القيام بزيارة الولايات المتحدة . واني اذكر ايضاً انه عندما عقدت الولايات المتحدة مؤتمراً دولياً للطهاة برعايتها لم يسمح لوفد الطهاة السوفياتيين بحضوره .

الا انني اسجل ما يلي لمصلحته : ان دالاس عرف الحد الذي يستطيع دفعنا اليه ولم يدفعنا ، ولا مرة ، أبعد منه . مثال على ذلك انه عندما تواجهت قوات بلدنا في الشرق الادنى في احداث سوريا ولبنان في ١٩٥٨ تراجع دالاس عن شفير الحرب . فقد انسحبت قوات الولايات المتحدة وانكثرا الرجعتين بفضل ضغط الرأي العام العالمي جزئياً ولكن بعض الفضل يعود إلى حكمة دالاس وحصافته ، فتعزز مركز الاتحاد السوفياتي في سائر البلدان التقدمية في العالم .

وعندما توفي دالاس قلت لاصدقائي : انه على الرغم من انه عاش على كره الشيوعية ، ورغم مقتله لكل تقدم ، الا انه لم يتجاوز على الاطلاق ذلك الحد الذي كان دوماً يذكره في خطبه . ولهذا السبب وحده ينبغي ان نحزن لموته .

ولما كان ايزنهاور قد جلب معه وزير الدفاع (شارلس ولسون) إلى جنيف في ١٩٥٥ ، فقد حرصنا نحن على ان يضم وفدنا وزير دفاعنا الماريشال جوكوف . وكان جوكوف من اصدقاء ايزنهاور ابان الحرب . واعتقدنا ان تعارفهما السابق قد يساعد في وضع اسس مباحثات قد تؤدي إلى تخفيف التوتر بين بلدنا . وكنا نأمل ان ايزنهاور وجوكوف قد تباح لهما فرصة للتحدث معاً على انفراد ، وانهما قد يتبادلان وجهات النظر حول ضرورة التعايش السلمي . غير ان ذلك الهر الخبيث دالاس كان يحوم دائماً حول ايزنهاور ويزجره اذا ما شعر انه قد تخطى الحدود المرسومة . وكان دالاس لا يطبق فكرة التعايش السلمي مع الاتحاد السوفياتي .

واظهر ايزنهاور الكثير من المشاعر الودية نحو جوكوف وقدم له هدية وحمله نحية شخصية إلى زوجته وابنته . ولكن ما عدا هذه المجاملات لم تسفر محادثات جوكوف مع ايزنهاور عن شيء .

وبعد أن أصبحت اجتماعات جنيف تواصل سيرها العادي ، اقترح ايزنهاور ان نلتقي بعد كل جلسة عامة لتناول المرطبات فنهي يومنا في جو لطيف . وكانت فكرته انه اذا كان قد صاحب جلسات النهار اي انقباض او توتر فقد نستطيع غسله بكأس من المارتيني . واني لاذكر انه في احدى هذه اللقاءات غير الرسمية قدمني ايزنهاور إلى نلسون روكفلر الذي كان مرافقاً للوفد الاميركي بصفة مستشار . ولم يكن هنالك شيء خاص يتميز به على ما استطعت ان ارى . فقد كان ديمقراطي الملابس وهو من ذلك الصنف من الرجال الذين لا يتركون اثراً كبيراً في النفوس (١) . وعندما التقيت به قلت « اذن هذا هو السيد روكفلر بشحمه ولحمه » . ولكثرته مداعباً في خاصرته بقبضة يدي فتقبل المداعبة وقابلني بمثلها .

واهتمت بالتحدث إلى روكفلر حول امكانية الحصول على قرض من الولايات المتحدة بنحو ٦ مليارات من الدولارات . غير ان الاميركيين كانوا قد بدأوا فعلاً بالالاحاح علينا بوجوب تسديد ما نحن مدينون لهم به بموجب قانون الاعارة والتأجير . فأجبتنا اننا على استعداد لأن ندفع للاعارة والتأجير مبلغاً معيناً ، لا كل الدين ، شرط ان يوافقوا على منحنا قرضاً بستة مليارات دولار . ودارت بيننا بعض المناقشات حول هذا الأمر غير انها لم تسفر عن نتيجة .

كانت افضل علاقاتنا في جنيف مع الفرنسيين . وكان ادغار فور الذي اطلقنا عليه لقب « ادغار فورودفيتش » لطيفاً وخلاباً جداً . وقد بذل الكثير ليظهر صداقته وحسن ضيافته . على ان الحكومة الفرنسية في تلك الايام كانت عرضة لتبدلات ونحولات سريعة ، لذلك لم يكن من فائدة ترجى من اعطاء اي اهتمام جدي للفرنسيين في اجتماعات جنيف (٢) .

اما علاقاتنا مع الوفد البريطاني وان لم تبلغ الود الذي ساد علاقاتنا مع الوفد الفرنسي الا انها كانت حسنة لاسيما محادثاتنا مع ايدن الذي كان يسير على

(١) ان الاشارة إلى نلسون روكفلر «ديمقراطي الملابس» هي دعاية ظريفة تلقى بعض الضو على نظرة السوفيات إلى الغرب .

(٢) ان صرف النظر ، كما يقول خروشوف ، من أخذ السيد فور على محمل الجد ، مع حبه له ، بحجة سرعة تبدل الوزارات الفرنسية ، تسجيل للحدود التي لا تمتداه ذهنية الحكومة السوفياتية .

السياسة العامة نفسها التي يقول بها الاميركيون غير انه كان يبدو اكثر مرونة منهم وانفتاحاً لتقبل الحجج المعقولة . وفيما كنا نتناول طعام العشاء ، مساء احد الايام سألني ايدن : « ما رأيك لو دعيت لتقوم بزيارة رسمية إلى بريطانيا العظمى ؟ الا ترى ان مثل هذه الرحلة قد تعود بالفائدة على الحكومتين ؟ »

فقلت : « قد تكون حقاً مفيدة . » وكدنا نتفق . وكان على البريطانيين ان يوجهوا دعوة رسمية لنا لقبولها .

وعند انتهاء اجتماع جنيف وضعنا بياناً مشتركاً يوضح موقف الوفود الأربعة . وقد صيغ هذا البيان بأسلوب يترك لكل وفد امكانية تفسيره على طريقته الخاصة . وكان نصه نتيجة اتفاقات وتسويات متعددة ، مما سمح لنا جميعاً توقعه ، لاننا لم نكن نريد ان نفرق دون ان نبدي شيئاً يدل على نتائج ايجابية . ومن الناحية الاخرى لم يرد اي منا ان تفسر اية نقطة من البيان على انها تنازل عن مبدأ او سياسة لمصلحة الجانب الآخر .

وقد توقفنا في برلين الغربية بطريقنا إلى بلادنا . وهناك التقينا بزعماء الجمهورية الالمانية الديمقراطية واصدروا بياناً مشتركاً آخر . وقد استقبلنا في برلين بكل مظاهر التكريم وخرجت جماهير غفيرة تهتف لنا ، وقد زرت انا المانيا قبل الآن ، غير ان هذه كانت اول مرة ازورها بصفة رسمية . كنت اتوقع ان تكون هنالك بعض مظاهر العداء نحونا غير انه لم يحدث شيء من ذلك . كانت هنالك بعض الوجوه العابسة ولكنها لم تكن كثيرة . وعلى العموم ، لقينا ترحيباً حماسياً مما عزز يقيننا بان الالمان ملوا الحرب ، وانهم يريدون الآن ان يقيموا علاقات ودية قوية معنا .

وهكذا عدنا من جنيف ونحن نعلم اننا لم نحقق اية نتائج جديدة ، غير اننا تشجعنا اذ ادركنا الان ان اعداءنا يخافون منا على الارجح اكثر من خوفنا نحن منهم . وقد شهروا سيوفهم وحاولوا الضغط علينا لحملنا على القبول باتفاقات هي اكثر فائدة لهم منها لنا ، لانهم كانوا خائفين منا . لقد علموا الان ان عليهم ان يتعاملوا معنا بصدق وانصاف وان عليهم ان يحترموا حدودنا وحقوقنا ، وان ليس باستطاعتهم ان يحصلوا على ما يريدونه بالقوة او بالتهديد والخذاع . وادركوا ان عليهم ان يقيموا علاقاتهم معنا على اساس افتراضات جديدة وامال جديدة ، اذا كانوا حقيقة يريدون السلام . ان اجتماع جنيف كان انتصاراً لنا على الصعيد الدبلوماسي . فقد اثبتنا مقدرتنا على الصمود والمحافظة على مواقفنا في الميدان الدولي . جاءت دعوة ايدن لنا للقيام بزيارة رسمية إلى بريطانيا مؤكدة نجاحنا ودليلاً صريحاً عليه .

زيارة لندن

في غضون المدة التي سبقت زيارة خروشوف وبولغاين الى لندن في ربيع ١٩٥٦ ، كان خروشوف قد زار بكين في ١٩٥٤ ، وقام برحلته الشهيرة إلى الهند في ١٩٥٥ ، ومر ببلغراد ، وسافر إلى جنيف ، فصار سائحاً ناصحاً مدرباً على الاسفار . وكان قد أصبح معروفاً في المؤتمر العشرين للحزب وخطبه السرية . وكان بولغاين رئيس الوزراء ، ولكن بات واضحاً ان خروشوف هو الذي يملك بزمام القيادة رغم أنه حتى صيف ١٩٥٧ ، لم يكن قد كسر بعد شوكة المعارضة وحطم مالتكوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وغيرهم نهائياً .

ولا يذكر هنا خروشوف الحقيقة بأن مالتكوف بقي عضواً في بريزديوم الحزب بعد أن تخلى عن رئاسة الوزراء وقام حيثز بزيارة موفقة إلى انكلترا ، قبل زيارتهما ، فهد الطريق ، وجس نبضات كل البلاد .

وقد طرأ ما شوه زيارة خروشوف وبولغاين اذ أوفد الجنرال سيروف رئيس الشرطة السية السمة للاشراف على تدابير الأمن أثناء زيارتهما . فطلعت الصحف البريطانية حافلة بالا احتجاج الصارخ ، مما اضطر سيروف إلى الرجوع إلى الاتحاد السوفياتي . أما خروشوف فلم يستطع أن يدرك لماذا البريطانيون لم يكونوا راضين عن سيروف .

كانت حكومة العمال التي حكمت انكلترا بعد الحرب لا تبدي صداقة نحو الاتحاد السوفياتي . وما بذلناه من الجهود لاقامة علاقات تجارية حسنة لم تنجح كثيراً . وكانت علاقاتنا مع بريطانيا العظمى قد تحسنت قليلا بعد وفاة ستالين ، عندما زارنا وفد حزب العمال وفتحوا معنا مباحثات في شؤون مختلفة . ثم حل المحافظون

محل العمال وصار ايدن رئيساً للوزراء (١) . وكنا نعتبر ايدن رغم نزعته المحافظة ، تقديمياً إلى حد ما . وكنا لا نزال نذكر مع التقدير انه عندما كان وزيراً للخارجية قبل الحرب ، ايد معاهدة توحيد القوات البريطانية والسوفياتية ضد المانيا هتلرية . وكان ايدن قد استقال عندما بدأ تشمبرلين سياسته الهوجاء المعادية للسوفيات والرامية إلى تحريض هتلر ضدنا (٢) . لذلك فان عودة ايدن إلى الحكم بعثت فينا الأمل بإمكانية تحسين علاقاتنا مع بريطانيا العظمى .

وبعد ان اتفقنا مع ايدن في جنيف على القيام بزيارة رسمية إلى انكلترا ، اتخذنا التدابير اللازمة عن طريق تبادل المذكرات الدبلوماسية ، وتقرر سفر وفدنا إلى لندن في شهر نيسان ١٩٥٦ . وينبغي ان يكون الموعد الذي حدد هو منتصف نيسان لأنني اذكر جيداً ان الاحتفال بذكرى مولدي جرى في الطريق إلى انكلترا . ومولدي هو في ١٧ نيسان .

كان بولغانين لا يزال رئيساً لمجلس الوزراء ، ولذلك فقد كان هو رئيساً للوفد (٣) . وقد جرى ضمني إلى الوفد لأنني كنت توصلت إلى علاقات جيدة مع ايدن في جنيف . وكان قد تحدث معي أكثر مما تحدث إلى أي شخص آخر . واصطحبنا معنا أيضاً إلى لندن الاكاديمي كورشاتوف ، لأننا كنا نريد ان ننشئ اتصالات مع الاوساط العلمية البريطانية (٤) . وكان كورشاتوف رجلاً جذاباً ، ذكياً ، ظريف المعشر ، إلى جانب كونه عالماً لامعاً .

سافرنا إلى انكلترا على طراد حربي ، لكي يتسنى لنا بعد ذلك ان نستقل القطار إلى لندن . وبهذه الطريقة تيسر لنا مشاهدة أكثر قدر من البلاد الريفية . وقبل ان نترك روسيا سألنا السفارة البريطانية في موسكو اذا لم يكن لدينا مانع من السماح لاحد الملحقين البحريين فيها بمرافقتنا في الرحلة . فوافقنا على ذلك .

(١) كان تشرشل رئيساً للوزراء عندما عاد المحافظون إلى الحكم . وقد خلفه ايدن بعد ذلك .

(٢) من الاسباب الرئيسية لاستقالة ايدن من منصبه كوزير للخارجية ، المحاولة التي قام بها تشمبرلين لاسترضاء موسوليني لفصله عن ألمانيا . لم يفعل تشمبرلين شيئاً لكي «يخرض هتلر» ضد روسيا ، لأن هتلر لم يكن في حاجة إلى التحريض . وكانت سياسة تشمبرلين ترمي إلى استرضاء هتلر بالسماح له بضم قسم من تشيكوسلوفاكيا . وعندما لم ينجح هذا المسعى بذل في الواقع محاولة فائرة لتحقيق تحالف من أي نوع مع روسيا .

(٣) كان خروشوف في الواقع هو رئيس الوفد .

(٤) ف. كورشاتوف ، العالم الذري الشهير .

ولقد ساور بعضنا القلق بان الملحق البريطاني قد يسمى وراء الاسرار الحربية والمواصفات التقنية على ظهر الطراد . على ان مثل هذه الغباوة كانت من رواسب العهد الستاليني . وقد ظهر ان الملحق البحري الانكليزي كان حسن الاخلاق ظريف المعشر . وفي ١٧ نيسان ، وهو يوم ذكرى مولدي ، قررنا ان ندعوه لتناول العشاء مع وفدنا . وقد شربنا ، طبعاً ، كووس الحمر ، فظهر الرجل الانكليزي ان له ذوقاً رفيعاً فيها . والواقع انه افرط في الشراب إلى حد كاد لا يستطيع الرجوع إلى حجراته ، فكيف يرجى منه التجول على ظهر السفينة باحثاً عن الاسرار العسكرية ؟ وبعد ذلك مزحت مع ايدن حول ذلك الموضوع . فسألني قائلاً : « هل احسن ملحقنا العسكري السلوك على ظهر سفيتكم ؟ » .

— لقد أحسن السلوك كثيراً . لقد مثل بريطانيا العظمى ، باخلاص وكفاءة .
— هل تعني بهذا انه تجسس عليكم ؟ هل تجول في سائر انحاء السفينة فاحصاً كل شيء ؟

— آه ، نعم . كان مدهشاً . ظل يعصر جسمه ويضغطه حتى دخل في زوايا لا تستطيع حشرة البق ان تجد متسعاً لدخولها . وقد شاهد كل ما يجب مشاهدته ! فضحك ايدن ، ولا اعلم اذا كان احد اخبره من قبل عن درجة السكر التي وصل اليها الملحق . ومهما يكن من امر ، فقد كان مستعداً لان يمزح مع بولغاين ومعني عنه .

وعندما بلغت سفيتنا الميناء في انكلترا جرى لنا استقبال حافل بكل مظاهر التكريم العسكرية . واطلقت المدافع تحية لنا واخذنا القطار إلى لندن واستطعنا ان نرى من البلاد اكثر كثيراً مما استطعنا رؤيته من سويسرا ، باستثناء جنيف . ولم اكن قد ذهبت إلى الخارج من قبل . واول ما انطبع في نفسي عن انكلترا ، تلك البيوت الصغيرة المبنية بالاجر الاحمر ، لانها ذكرني بمثل ذلك العدد الكبير من البيوت التي كنت قد رأيتها في طفولتي في دونباس . فقد كان والدي يعمل في منجم قريب من مصنع يوزوفكا الذي كان في وقت ما ، يملكه رجل من ويلز اسمه جون هيوز (١) . وكان هيوز قد بنى لعماله الفنيين او المديرين بيوتاً صغيرة من الاجر الاحمر تشبه تماماً تلك البيوت التي رأيتها في زيارتي لانكلترا . واني لاذكر اننا في ايام الصيف في دونباس كنا لا نرى سوى نوافذ تلك المنازل لانها كانت مغطاة بنبات اللبلاب .

(١) — يوزوفكا — أو هيوز — اوفكا وقد اطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم جون هيوز .

وكان الفندق الذي حللنا فيه في انكلترا ممتازاً والخدمة فيه حسنة جداً . وكان كل هذا جديداً علينا ، اذ لم نكون على اتصال كثير مع الاجانب من قبل . واظن اننا تركنا انطباعاً حسناً في نفوس السكان المحليين . واني لا اذكر اننا مرة كنا ننتقل إلى فندقنا في سياراتنا ، فبدأ اللندونيون حالاً يتجهرون حولنا . وقد اعجبوا على الاخص ، بالاكاديمي كورشاتوف ولحيته . فكان الاولاد الصغار يشيرون اليه ويضحكون ويقفزون بحماسة كما يفعل الصغار في بقية انحاء العالم .

وبعد ان استقر بنا المقام ، بدأنا المباحثات مع زعماء الحكومة البريطانية . كان الفريق البريطاني بقيادة ايدن ولويد ، واظن ان ماكيلان ايضاً اشترك في المفاوضات . ولم تضاف محادثتنا ، في الجوهر ، شيئاً كثيراً إلى ما كان قد اسفر عنه اجتماع جنيف . وكانت القضية الرئيسية لا تزال المانيا ، ونزع السلاح ، والتعايش السلمي . وكنا قبلاً قد رأينا ان الغرب لم يكن بعد مستعداً لان يعالج هذه القضايا المهمة معالجة جدية . فالدول الغربية كانت لا تزال تحاول ملاطفتنا لحملنا على القبول بشروطها .

واني لا اذكر حادثة سيطرت على جو محادثتنا في لندن . فقد كان بولغانين ولويد وانا في سيارة واحدة ركبناها لزيارة بعض المعاهد التربوية . فالتفت لويد نحوي وقال : « هل تعلم ، ان عصفورة صغيرة هبطت على كفي منذ ايام وهمست في اذني انكم تبيعون السلاح لليمن ؟ » فاجبته قائلاً : « يظهر ان هنالك جميع انواع العصافير الصغيرة تطير حولنا هذه الايام ، هامة بشئ الانباء ، لان واحدة منها هبطت على كفي انا ايضاً وقالت لي انكم تبيعون السلاح لمصر والعراق . وقالت لي هذه العصفورة الصغيرة ايضاً انكم تحاولون ان تبيعوا السلاح لكل من يرغب في شرائه منكم ، وبعض الاحيان حتى إلى الذين لا يريدون الشراء منكم » .

— أظن ان هذا صحيح ، وان هنالك جميع انواع العصافير ، منها ما يهمس في آذانكم ومنها ما يهمس في آذاننا .

— نعم ولكن أليس من الافضل ان تهمس جميع العصافير الصغيرة الانباء ذاتها في آذانكم وآذاننا ، فنتخذ نحن وانتم التزامات متبادلة بان لا نبيع السلاح لاحد؟ وهكذا تقوم هذه العصافير بخدمة للقضية المشتركة التي هي قضية السلام (١) ؟

(١) سلوين ولويد وحده يستطيع أن يملنا اذا كان هذا الحديث صحيحاً .

كان هذا النوع من الحديث مزاحاً بالطبع . ولا ينبغي ان يفهم منه انه لم تكن احاديثنا واجتماعاتنا جدية مع الانكليز . فقد اتاحت لنا هذه الاجتماعات ، فوق كل شيء ، فرصة لان نوضح موقفنا . وقد كان الغرب يبدي اهتماماً في محادثتنا للسبب ذاته . زد على ذلك اني اظن ان بريطانيا كانت تهتم اهتماماً خاصاً في منع التراع الحربي ، وبنوع خاص في الشرق الادنى . فقد ارادوا منا ان نوافق على عدم بيع السلاح لمصر . ونحن كنا على استعداد لذلك من حيث المبدأ ، غير اننا اشترطنا ان يتقيدوا هم ايضاً بعدم بيع السلاح لأي بلد من بلدان الشرق الأدنى . وفي احد الايام وجه ايدن دعوة إلى بولغانين والي لتناول العشاء في « الداشا » التي يسكنها كما سمينا منزله الريفي . واخبرنا ان احد الاثرياء الرأسماليين وهب هذا المنزل الريفي للحكومة لتستعمله ، على ان يوضع تحت تصرف رئيس الوزراء ، بصرف النظر عن انتمائه الحزبي . وقبل العشاء خرجنا بولغانين وانا لتمشي معه على الطريق القريب من المنزل . وقد ذكرتي المناظر الطبيعية باراضينا الريفية في اقليمي اوريل وكورسك .

كان منزل ايدن الريفي محاطاً بالزهور من كل صوب . وكانت وسائل التدفئة فيه مواقد من الحديد ، يوقد فيها الفحم الحجري . وكنت اعلم من اختباراتي في دونباس ان الفحم الحجري (الانتراسيت) يحتوي كميات كبيرة من الكبريت . وهذا يوضح سبب انتشار رائحة كبريه وغشاوة لزجة فوق كل شيء في داخل المنزل .

وقد اشترك معنا في تناول العشاء مكميلان ولويد وبعض السياسيين المحافظين النافذين . وكانت زوجة ايدن تمثل دور المضيفة . وكانت سفارتنا قد اخبرتنا انها ابنة شقيقة تشرشل . ويبدو انها ورثت بعض مزاي تشرشل في الميل إلى الخمر . فلم نحرمنها من رفقتها عندما كانت تقدمها . ولكني لا استطيع القول بانها اساءت استعمال هذا التقليد الخاص بتشرشل .

وفي اثناء العشاء ، سألتنا السيدة ايدن قائلة : « اخبروني ، اي نوع من الصواريخ عندكم ؟ هل تطير مسافة بعيدة ؟ »
فقلت : « نعم ، مداها بعيد جداً . فهي تستطيع بسهولة ان تصل إلى جزيرتكم وابتعد منها قليلاً » .

فعضت على لسانها ، وكان من القفاظة بمكان ان ارد على سؤلها كما فعلت . اذ لعلها اعتبرته نوعاً من التهديد . مع اننا لم نقصد ان نهدد احداً . كنا فقط نحاول ان نذكر البلدان الاخرى باننا اقوياء ونستحق الاحترام ، واننا لا نسمح ان يكون التخاطب معنا بلغة الانذارات النهائية .

ودعانا ايدن ، بولغانين وانا ، ان نمضي الليلة في منزله الريفي فارشدونا إلى غرف منفصلة في الطابق الاعلى . وفي الصباح نهضت مبكراً وذهبت إلى القاعة باحثاً عن غرفة بولغانين لكي اوقظه ، فطرقت احد الابواب ظاناً انه باب غرفة بولغانين ، فسمعت صوت امرأة وقد بدا انها مندهشة او خائفة . فادركت انني كدت ان افاجيء زوجة ايدن في غرفتها . فاسرعت عائداً إلى غرفتي دون ان اعتذر او اكشف عن هويتي . وقد ضحكنا ، بولغانين وانا ، على هذه الحادثة غير اننا قررنا ان لا نذكرها إلى مضيفنا .

وفي اليوم التالي كنا على موعد لزيارة الملكة اليزابت . ولم يكن يطلب منا ان نرتدي اي نوع خاص من الملابس . ذلك اننا كنا ابلغنا ايدن سلفاً اننا سنسر لمقابلة الملكة اذا كانت ستقبلنا بلباسنا اليومي وكانت لدينا بعض المعرفة بمثل هذا النوع من الحفلات الرسمية . ولم تكن نريد ان نزعج انفسنا بلبس البدل الرسمية ذات الذبول والقبعات العالية وما إلى ذلك لكي نخشى بمقابلة الملكة . واني لاذكر اننا كنا مرة في موسكو نتفرج على فيلم ظهر فيه انستاس ايفانوفيتش ميكويان في باكستان فاعرقنا جميعاً في الضحك من منظره . فقد بدا حقيقة شبه جتلمان اوروبي من الطراز القديم . واستطيع القول ان المظاهر الغربية المطلوب من الدبلوماسيين الاجانب ان يظهروا بها لم تكن غريبة عن انستاس ايفانوفيتش .

ومهما يكن من امر فقد وصلنا إلى قصر الملكة في يوم دافئ جميل . واخبرنا ايدن ان شهر نيسان هو افضل ايام السنة واقلها مطراً . وكانت جماهير من السياح يتفرجون على جنيحة القصر . واخبرنا ايدن اننا سنجد الملكة امرأة بسيطة ، ولكن ذكية ، ولطيفة جداً . فاستقبلتنا عند دخولنا القصر ، ومعها زوجها واثنان من اولادها . فقدمونا إليها ، وكانت ترتدي فستاناً بسيطاً ابيض ، فبدت شبيهة بالنساء اللواتي تشاهدن سائرات في شارع غوركي بعد ظهر احد ايام الصيف اللطيفة . وسمحت لنا بالطواف في ارجاء القصر ، ثم دعتنا لتناول كأس من الشاي معها (١) . فجلسنا حول الشاي وتحدثنا عن امور شتى ، وابدئ زوج الملكة اهتماماً عظيماً بمدينة لينغراد . فقال انه لم يذهب إليها ، ولكنه يحلم بزيارتها يوماً من الايام . فأكدنا له انها مدينة جميلة واننا فخورون بها . واكدنا له انه من السهل علينا ان نجعل حلمه يتحقق في اي وقت يشاء . وقلنا ان باستطاعته ان يزورنا بابة

(١) الروس يشربون الشاي بالكأس .

صفة يريد - سواء كممثل للحكومة او كقائد في الجيش . فشكرنا وقال انه سيقبل دعوتنا اللطيفة عندما تتاح له الفرصة .

اما الملكة فكانت تبدي اهتماماً خاصاً بطائرتنا « تو - ١٠٤ » التي كانت تجلب البريد لنا في اثناء وجودنا في انكلترا . والواقع ان احد الاسباب التي دفعتنا إلى استخدام طائرة « تو - ١٠٤ » هناك هي رغبتنا في اظهار ان لدينا طائرة ركاب نفائثة من نوع جيد . وقد كانت هذه طائرة من افضل طائرات السفر النفائثة في العالم ، و اردنا ان يعرف مضيفونا ذلك . وكانت الملكة قد شاهدت الطائرة في الجو عندما حلقت فوق القصر في طريقها للهبوط إلى الارض . فشكرناها ووافقنا معها على انها طائرة ممتازة عصرية جداً وبدون شك افضل ما في العالم . تركت الملكة اثراً كبيراً في نفسي . فقد كانت لطيفة ، هادئة الصوت ، متواضعة ، مجردة من مظاهر الفطرية التي يتوقع المرء ان يراها في الاسر المالكة . فهي قد تكون ملكة انكلترا ، ولكنها في نظرنا كانت اولا وفوق كل شيء زوجة لرجلها واما لاطفالها . واني لاذكر بعد ذلك بمدة من الزمن ، في اثناء رحلة قمت بها لانكلترا ، اني التقيت امرأة انكليزية فقالت لي : « اذن ، لقد اجتمعت بالملكة فما رأيك فيها ؟ » فاجبتها اننا اعجبنا بالملكة كثيراً فهزت المرأة رأسها حزناً وقالت : « انني اشعر بالأس من اجلها ، فانها لا تعيش حياة سهلة » . فسألتها : « لماذا تقولين هذا ؟ »

فقلت : « انها امرأة شابة ويرجع انها تود ان تحيا حياة عادية مثل اية امرأة في سنها . غير انها لا تستطيع ذلك لأنها ملكة : فهي تعيش في قفص . وهي دائماً معروضة للفرجة ، ويتوجب عليها ان تظهر دائماً في حالة تتفق مع مقامها الملكي . وهذه مسؤولية ثقيلة تجعل حياتها صعبة متعبة . وذلك ما يجعلني اشعر معها بل احزن عليها » .

وقد اعجبت بهذه المرأة . فكل ما قالته عن الملكة كان يدل على شعور انساني واحساس انوثي . ربما كان نكرازوف (ن . ا . نكرازوف شاعر القرن التاسع عشر) محقاً عندما قال : « من في روسيا يعيش مرتاحاً من المتاعب ؟ حتى القيصر نفسه » والشيء ذاته ينطبق على الملكة اليزابت الثانية .

كان بولغانين ، من الناحية القانونية رئيس الدولة ورئيس وفدنا . وكنت انا عضواً بسيطاً في الوفد . غير انني في الواقع كنت اتولى تمثيل بلادنا في المفاوضات مع الانكليز . واني في الحقيقة ما كنت لاريد ان يكون الوضع هكذا . غير ان بولغانين كان يطلب مني دائماً ان انوب عنه . وكان يحدث مراراً ، عندما يطلب منا ان نقول شيئاً او ان ندلي ببيان من نوع ما ، ان انتظر بولغانين لان يقول شيئاً .

وبعد فترة صمت مزعجة كان يتلفت نحوي ويقول : « هيا ، قل ما تراه ،
واجب على السؤال » . وبطبيعة الحال لم اكن غريباً ، بل كان يتوجب علي ان
اقول انا شيئاً اذا اردنا ان نتجنب الارتباك والحيرة .

واني اضرب هذا مثلاً : اقام وزير البحرية حفلة استقبال غير رسمية لنا
حضرها كثيرون من مختلف الفئات ، ولكن الاغلبية كانت من ضباط البحرية .
ولما كان علينا ان نقرر كيفية الرد على خطاب الوزير ، قال لي بولغانين :
« تكلم انت » . فقررت ان اقي خطاباً صريحاً قاسياً ، وان اتخذ موقف الهجوم
ضد الانكليز ، فقلت : « ايها السادة ، ها انتم هنا تمثلون بريطانيا العظمى .
والعالم بأسره يعلم انه كان زمان سادت بريطانيا البحار . غير ان ذلك العهد قد
مضى وينبغي لنا الآن ان ننظر إلى الأمور نظرة واقعية . ان كل شيء قد تبدل .
لقد ابلغني رجالكم الاخصائيون بمدى اعجابهم بالطراد الذي جاء بنا إلى هنا .
انه ليسرنا ان نبيعكم هذا الطراد ، اذا كنتم حقيقة تريدون الحصول عليه
لانه اصبح من طراز قديم ، ولا قيمة له . وعدا ذلك ، فان الطرادات التي مثله
لا تلعب الآن دوراً حاسماً . ولا قاذفات القنابل تلعب هذا الدور ايضاً . ان
الغواصات هي التي تحكم البحار الآن ، والصواريخ هي التي تحكم الفضاء » (١) .
وفي فترة الاسئلة والاجوبة التي تلت كلمتي تناولنا وجهات النظر بصراحة
تامة ، ولم يكن احد الطرفين يتورط في اتخاذ اي موقف خاص كما انه لم يهدد
او يظهر بمظهر المتجه نحو الحرب . وكان هنالك تيار خفي من التهكم في الاسئلة
التي كان يوجهها الانكليز ، وشيء قليل من الضحكات الخافتة .

وعندما اجتمعنا مع ايدن في اليوم التالي سألتني باسماً :

- كيف كان حالكم مع بحارتنا ؟
- لديكم بحارة ممتازون ، لهم شهرتهم في العالم كله . ويظهر من ابتسامتك
انك علمت بما دار بيننا من مناقشات .
- نعم علمت بها ، وبملاحظاتك ايضاً .
- وما هو رأيك في ملاحظاتي ؟
- انت تعلم انني اميل إلى الاتفاق معك ، غير انني انا رئيس الوزراء
ولا استطيع ان اتحدث إلى ضباط بحريتنا بالاسلوب الذي تستطيع انت ، اي ان

(١) هذا في الواقع كان رأي خروشوف في ذلك الزمن . وكما يعلم غير الروس
رأيهم هذا وأنشأوا اسطولا عابراً قوياً ، وباشروا بيناته عندما كان خروشوف
لا يزال في الحكم .

اقول لهم ان سفنهم واسلحتهم قديمة وعديمة الفائدة . وعلى كل ، فباستثناء بعض قاذفات القنابل ، فان اسطولنا العام هو كل ما لدينا ، فما رأيك ، هل نستطيع ان نتحدث كما تحدثت انت ؟

وقد نشرت الملاحظات التي ابدتها للاميرالية فيما بعد وسط ضجة عظيمة في الصحف الاميركية . وساق الاميركيون كل انواع الحجج ضد ما زعمته بان السفن العائمة وقاذفات القنابل تخطاها الزمن . غير ان الايام حققت ما قلته . والاميركيون يعرفون الان بان قاذفات القنابل فقدت فائدتها وينبغي ان تستبدل بالصواريخ .

كان ايدن قد وضع برنامجاً كبيراً لطوافنا في البلاد فكنا نجوب ونجول منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل بالسيارات والطائرات . وكانت السرعة مرهقة . وبدأت اظهر عدم ارتياحي . واخيراً ضربت الأرض بقدمي عندما كان من المفروض ان ننتقل لزيارة بعض المدن الانكليزية لنطير بعدها إلى اسكتلندا . وأخذت ايدن جانباً وقلت له : « يا مستر ايدن ، ان ساقى لا تحملاني خطوة اخرى ، وسوف اعلن الاضراب غداً ، ولن اخطو خطوة واحدة إلى خارج الفندق » .

فضحك وقال : يا مستر خروشوف ، ستخلى عن المدينة التي كان المفروض ان تزورها اليوم ، ولكن ارجوك ان تستمر في الرحلة إلى اسكتلندا . الم تسمع عن الاسكتلنديين ؟ انهم قوميون شرسون في تعصبهم ، وسيقضون مضجعي اذا لم تذهبوا إلى اسكتلندا ، ثم انهم يعلنون الثورة وينفصلون عن الكومنولث ؟

فتبادلت مع بولغاين النظرات ووافقنا على الذهاب رغم اننا لم نكن نرى ان الرحلة تستحق ذلك العناء . واتضح لنا فيما بعد ان اسكتلندا بلد جميل وزيارته لا تخلو من المتعة والفائدة . كان مرورنا بها عابراً . وحرّم علينا الاتصال الا بالرسميين الذين كان من المقرر ان نجتمع بهم . وهذا بصورة عامة ما كان متعباً ابان اقامتنا في بريطانيا العظمى .

وعند وصولنا إلى اسكتلندا استقبلنا حرس شرف سار امامنا وعزف الموسيقى . وقد راقبنا العرض من تحت خيمة وقتنا المطر البارد . وكان قد سبق تحذيرنا من ان طقس اسكتلندا ماطر بصورة مستديمة . وكنت قد اخبرت من قبل عن الملابس العسكرية الاسكتلندية وقد رأيتها في برلين وفيينا عند نهاية الحرب . ان بزائهم العسكرية غير مألوفة وكذلك التناير الرمادية — وموسيقاهم غريبة كذلك، وهي تعزف

على آلات موسيقية اسكتلندية خاصة (١) .

وقيل لنا ان مآدبة اعدت على شرفنا برعاية الملكة . اذن ، هي ايضاً ملكة اسكتلندا ، وقيل لنا ان المترل الذي ستقام فيه المآدبة كان قصراً للماري ستيوارت . وتكلم مضيفونا جميعاً بوقار كثير عن تلك الملكة وعن ماضي بلادهم . وكان نجلي سيريزوجا (سيرجي) معي في هذه الرحلة وجلس إلى المائدة مع سيدتين متقدمتين في السن ، واحدة منهما كانت مترجمة وكانت تحاول باستمرار ان ترسخ في ذهن سيريزوجا وتحمله على الاعتقاد بان المرأة الثانية على المائدة هي اميرة . وعندما رأت ان ذلك لم يكن له تأثير خاص عليه ، قالت مؤكدة ان تلك لم تكن امرأة عادية على المائدة معهم ، بل هي اميرة حقيقية . وروى لي سيريزوجا في ما بعد ما حدث وضحكنا كثيراً . واني لا اظن ان المترجمة كانت تتظاهر ، بل اعتقد انها حقيقة كادت نظير فرحاً بلحوسها على مائدة واحدة مع احدي الاميرات . وقد غاظها بعض الشيء ان الشاب الروسي لم يقدر ما لذلك الشرف من الاهمية البالغة .

وعندما عدنا إلى لندن من اسكتلندا اقام ايدن مآدبة عشاء في مكان ما من دوائر الحكومة . وقبل العشاء مررنا بمكتب ايدن ، فرأيت ما ظننت لأول وهلة انه صورة القيصر نقولا الثاني مرفوعة على الحائط . على ان ايدن اوضح لي الحقيقة ، وهي ان صاحب الصورة هو نسيب القيصر نقولا (الملك جورج الخامس) ، فتركت الموضوع وغيّرت الحديث لانه قد لا يكون ساراً لهم اذا انا ذكرتهم ان نسيبه ذاك قتل في سفردلوفسك في ١٩١٨ (٢) .

وقبل ان نذهب إلى العشاء ، اخبرنا ايدن ان تشرشل سيكون هنالك ايضاً . وجلست إلى جانب تشرشل تماماً . وكان متقدماً كثيراً في السن ، بديناً وخرفاً . واخذنا نتبادل عبارات عارضة ، لا تعني في الحقيقة شيئاً . ثم قدم لنا طبق من المحار فسألني تشرشل : « هل اكلت المحار قبل الآن ؟ »

— كلا يا مستر تشرشل .

— اذن ، انظر كيف آكله انا فاني احب المحار .

— حسناً ، سوف اراقبك واتعلم منك كيف يؤكل .

-
- (١) قد يطيب للاسكتلنديين أن يروا أنفسهم كما يبدوون في أعين الروس .
(٢) الملك جورج الخامس ملك انكلترا كان يشبه كثيراً آخر القياصرة الذي قتل مع زوجته وأولاده في قبو في سفردلوفسك التي كانت تعرف حينئذ باسم «اكاترنبرغ» .

وشرع هو في الأكل ، بينما كنت انا اتناول الحساء وراقبه . ثم اكلت ما في صحنى من المحار .
فألني :

— هل احبته ؟

— صراحة ، ليس كثيراً .

— ذلك لآنك غير متعود على اكله .

قد يكون هذا حقيقياً ، ولكنني مع ذلك لم احبه .

ذلك كان مجمل حديثي مع تشرشل . وقد اتى هو مرة على ذكر ستالين قائلاً : « اتعلم ، كنت اكن احتراماً عظيماً للمستر ستالين اثناء الحرب » . وكان تشرشل ، بصورة واضحة ، يبذل جهده لتجنب الحديث عن الشؤون الرسمية . فهو لم يكن رئيس الحكومة ، وقد ترك لإيدن بحث المسائل الجدية .

ورأيت تشرشل مرة ثانية عندما دعينا لمشاهدة احدى جلسات البرلمان من شرفة الزائرين . وكان قد ألحق بنا شاب من المحافظين يحسن التكلم باللغة الروسية ليكون دليلاً وترجماناً للوفد . وكان هذا الشاب يتقن اللغة الروسية اتقاناً تاماً ، حتى انه كان يستطيع ان يعبر عما يريد بلغة سائقي سيارات الشحن . وكان يحاول كثيراً ان يقنعنا بسيطرته التامة على اللغة الروسية وان يظهر في الوقت ذاته انه من عامة الشعب . غير اننا تظاهرنّا بعدم الاكتراث وباننا لم نلاحظ الدور الذي كان يمثلّه امامنا . وبينما كانت المناقشة جارية ، همس ذلك الشاب فجأة قائلاً : « انظروا — ها هو تشرشل » . ودخل تشرشل إلى المجلس وذهب إلى مقعده . ثم قال لنا الدليل : « تشرشل لا يستطيع الجلوس اكثر من خمس او عشر دقائق دون ان يستغرق في النوم » . فراقبنا ما يجري . وبالفعل ، بعد فترة قصيرة القى تشرشل رأسه على جانب مقعده واستسلم لنوم عميق .

وذهبوا بنا مرة في جولة في لندن لمشاهدة مناظرها ، فشاهدنا البرج حيث كان الملوك والملكات يعدمون افراد الشعب . وراقبنا حفلة ابدال الحرس ، وهي حفلة فنية المظاهر ، حية ، استطعت بعد مشاهدتها ان ادرك لماذا كانت من الوقائع التي تجتذب السياح . وعلى العموم ، فقد سررت ان ارى كيف يكرم الانكليز ماضيهم وكيف يعيدون تمثيل تاريخهم في مهرجانات تذكارية مثل حفلة ابدال الحرس . على ان ثمة تقاليد بدت لي سخيفة مضحكة . فعندما زرنا مجلس اللوردات خرج الرئيس لاستقبالنا في زي ظهر فيه بشكل هزلي مضحك . كان يرتدي جلباباً احمر ورداء (روب) احمر ولمة كبيرة الحجم من الشعر المستعار . وقادنا إلى المنصة التي كان من فوقها يرئس جلسات مجلس اللوردات ، فيما كان الاعضاء

جميعاً يمرون ايضاً بالشعر المستعار . فدهشت ان ارى رجالا اصحاب مقامات خطيرة يستطيعون ان يديروا اجتماعات جدية بمثل هذه الملابس المضحكة ومحاطين بمثل هذه المخافات . ولم اتمالك نفسي عن الابتسام عندما شاهدت هذه المناظر المسرحية الشاذة .

ووقع لسوء الحظ حادثان عندما اقتربت اقامتنا من نهايتها . حدثت الأولى في الميناء ، حيث كان طرادنا راسياً . وكنا قد طلبنا إلى القبطان ان يتخذ تدابير الأمن الضرورية . وفجأة تلقينا نبأ يفيد ان بحارتنا شاهدوا شخصاً يسبح تحت الماء حول الطراد . ولكن يظهر انه تهرب من رجالنا قبل ان يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً . وكان ذلك آخر ما شوهد منه . فابلغنا مضيفنا بما حدث ، ولكنني نسيت اي نوع من الايضاح قدم لنا . فتركنا الموضوع عند ذلك الحد ، مع اننا لم نستبعد احتمال وضع لغم في اسفل الطراد . وقد ذكر بعض رجالنا العسكريين ذلك الاحتمال كنظرية توضح ما حدث . وفي ما بعد ، عندما اكتشفت جثة ضابط مخبرات اسمه الكومندور كراب (١) في انكلترا ، قال رجال مخبرائنا ان الانكليز ربما كانوا يحاولون التقاط بعض المعلومات عن رفاصات وهيكل طرادنا . وعلى كل حال ، لم نهتم كثيراً بهذا الحادث . غير انه كان من الجدير بالذكر ان الانكليز لم يكفوا باننا سمحنا للمحقق البحرى بان يسافر معنا على الطراد من الاتحاد السوفياتي ، فارادوا فوق ذلك ان يحاولوا التجسس على ضيوفهم . وكان هذا الحادث احد الاسباب التي حملتنا على ان لا نضيع وقتاً أكثر في انكلترا وان نعود إلى بلادنا .

اما الحادثة الثانية فقد جرت اثناء لقاء اعد لنا مع حزب العمال المعارض . وكان العمال قد اقترحوا ان نتناول طعام العشاء معهم . وقبلنا الدعوة رغم اننا لم نكن نتوقع ان يحقق ذلك اللقاء اية غاية مفيدة . وكنا قد وجدنا العمال يتخذون منا موقفاً معادياً أكثر من المحافظين . واني اظن ان باستطاعتي ان اوضح سبب هذه الظاهرة الغربية ، ذلك اننا كنا على طرفي تقيض مع المحافظين . فهم يمثلون رأس مال كبير واعمالاً كبيرة ، ونحن نمثل الطبقة العاملة والحزب الشيوعي . فكنا نعرف موقفنا منهم وهم يعرفون موقفهم منا . فلم يتظاهروا بغير حقيقتهم . ونحن من جهتنا لم تكن لدينا بالطبع اي اوهام حولهم او آمال كبيرة نعتقها عليهم . لذلك كنا نستطيع التعامل فيما بيننا على اسس سياسية ثابتة .

(١) ان مسألة الكومندور كراب خلقت فضيحة كبيرة في حينها ولا تزال ، فهل قتله الروس أم أنه مات غرقاً ؟ لماذا كان يسبح تحت الطراد السوفياتي على كل حال ؟

اما العمال فقد كانوا خلاف ذلك كلياً . كانوا يعتبرون انفسهم انهم هم الذين يمثلون الشعب العامل ويعتقدون ان سياستهم هي سياسة الطبقة العاملة . وبالاختصار كانوا يدعون شئ المزاعم التي لم نكن نقرأها ولا نعرف بها . ولذلك كان بيننا توتر عظيم .

اقيمت حفلة العشاء التي دعانا اليها العمال في احد مطاعم دار البرلمان . وكان ولسن ، الذي كان يعتبر صديقنا ، أحد زعماء حزب العمال في ذلك الحين . ورغم كونه محافظاً قليلاً فإنه لو كان في الحكم فسياسة نحونا تكون أكثر وداً من سياسة حكومة ايدن . ولكن هاكم ما فعل وقد مر على وجوده في الحكم الآن مدة طويلة من الزمن . لقد اتبع السياسة ذاتها نحونا التي كان قد اتبعها المحافظون من قبله !

عندما اتخذنا مقاعدنا حول مائدة العشاء ، ظهرت الويسكي الانكليزية التي لا يستغنى عنها . وكان النخب الأول ، كما هي العادة في المآدب العامة ، نخب الملكة ، فرفعنا كوؤوسنا وشربنا نخب الملكة ثم تبادل الوفدان الانتخاب .

واظهر غيتسكل على الاقل قدراً من اللباقة في ملاحظاته التي ابداهها بعد العشاء . ولكن جورج براون نهض فجأة واعتلى منبر الخطابة . وكانت لبراون في ذلك الحين مطاعم في زعامة حزب العمال . وكان متطرفاً في عدائه نحونا . فلقى كلمة كانت مخزية وغير مقبولة على الاطلاق . فهنا نحن في ضيافته ، ومع ذلك فقد انطلق في محاضرة طويلة ضد سياساتنا . اما انا فلم احاول التصنع او تزويق الكلام في الرد على هجومه ، بل قلت موجهاً الحديث اليه : « يا مستر براون ، سوف اقول لك تماماً ما هو رأيي في كلمتك . اننا ضيوفك ونتوقع ان نعامل وفقاً لذلك . فاذا كنت تصر على اهانتنا ، فاني اخشى ان لا خيار لنا الا ان نشكركم على دعوتكم لنا ونصرف » . وهكذا خرجنا في تظاهرة تعبر عن استيائنا وانتهت المأدبة (١) .

(١) كان حادث مأدبة حزب المال الذي وقع في مجلس العموم حديث الصحف وعنوان أخبارها في ذلك الزمن . وكان غيتسكل حينئذ زعيم حزب المال ، وكان هو أيضاً قد أثار غضب خروشوف بتسليم قائمة بأسماء السياسيين الاشتراكيين في أوروبا الشرقية الذين كانوا قد اختفوا ، طالباً اليه ان يكشف ماذا حدث لهم ، وكانوا جميعهم بالطبع قد اعدموا رماً بالرصاص . أما جورج براون فقد فقد السيطرة على طباعه وصاح في وجه خروشوف الذي تأذى وغضب كثيراً . وللاسباب التي ذكرها خروشوف ، كان الشيوعيون السوفييت يكرهون دائماً الاشتراكيين الاوروبيين أكثر كثيراً من كرههم للمحافظين .

وبعد يوم او نحو ذلك ، اقيمت حفلة استقبال في مجلس اللوردات وكان براون هناك فتقدم نحوي مصافحاً فرفضت قائلاً : « يا مستر براون ، بعد حادث ذلك المساء لا استطيع ابدأ مصافحتك » .

فقال : « هل تعني انك لا تهز يدي ؟ » ومد يده نحوي واستردها مرتين . فلم اتحرك . وقلت : « كلا لن اصافحك » . فترك يده تسقط إلى جانبه ومشينا متباعدين احدهما عن الآخر . اما العمال الآخرون الذين شاهدوا ذلك الصدم الذي وجهته إلى براون ، فقد كانوا حذرين جداً عندما تقدموا لتحيي . فكانوا يقدمون ايديهم لي بتمهل كثير كأنهم يريدون التحقق عما اذا كنت ساقبلها او أرفضها . غير اني صافحتهم جميعاً وتبادلنا المجاملات المرحية بالرغم من اني كنت ما زلت ناقماً على براون . وفي ما بعد جاء وفد ثلاثي من العمال واعتذر لي عن خشونة براون ، واكد لي الوفد انه كان يتكلم عفويةً معبراً عن رأيه فقط . وكان براون يعتبر عدواً للسوفييات ، وحاول ان يتخذ من زيارتنا فرصة لتسميم علاقاتنا ، فوفق إلى ذلك (١) .

وعندما التقيت ايدن بعد هذه الحادثة مع براون ، ابتسم من تحت شاربيه وقال : « كيف كانت حفلتكم مع العمال ؟ » .

فقابلت ابتسامته بمثلها وقلت : « انت تعلم ان الامور لم تكن على ما يرام » . — « ألم اقل لك ان من الافضل ان تتعامل مع المحافظين . فهؤلاء العمال يستحيل العمل معهم » لم يكن ايدن ليضيع هذه الفرصة لكي يستغل سياسياً ، النزاع الذي وقع بيننا وبين حزب العمال إلى ابعد مدى . وقد اغتبط المحافظون بان اول احتكاك لنا مع زعماء العمال كان سيئاً .

وقلنا لايدن على سبيل المزاح اننا كنا نحاول ان نعقد العزم حول اي من الحزبين ننضم اليه . فضحك وقال : « اني الح عليكما بكل قوة ان تختاروا المحافظين » . فقلت له اننا ربما عملنا باقتراحه .

وفي سياق مفاوضاتنا في لندن طلبنا من ايدن ان يسمح لنا بان نقابل ضيفاته بمثلها ، فيقوم بزيارة الاتحاد السوفياتي . فشكر دعوتنا وقبلها . غير انه لم يتسن له ان يقوم بتلك الرحلة . فبعد عودتنا من لندن وقعت حوادث بولونيا وحوادث

(١) ان الاشارة إلى تسميم العلاقات لها دلالتها . لأن خروشوف لم يدرك ان بعض الناس قد يقول اشياء عفوية لا غاية خفية وراءها .

المجر والاهم من كل ذلك هجوم بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مصر .
وكنا نحن إلى جانب مصر ، واتخذنا خطوات دبلوماسية للضغط على المعتدين
لوقف الحرب . وقد انتهت تلك الحرب بعد مرور اربع وعشرين ساعة على
البدء بها . غير ان الجدل والحملات الصحافية بلغت حدها من العنف . وهكذا
كان من غير المعقول ان يقوم ايدن بزيارة الاتحاد السوفياتي .

١ إعادة النظام في المجر

يختلف وصف خروشوف الدفاعي لانتفاضة المجر في ١٩٥٦ اختلافاً كبيراً جداً عن الحقائق المسلم بصحتها ، بحيث يقتضي وضع كتاب صغير للرد عليه نبذة نبذة وإيراد تعاقب تلك الحوادث على حقيقتها . غير أن هنالك بعض المسائل الرئيسية التي ينبغي إيضاحها وهي أن إمري ناجي لم يكن مسؤولاً عن الانتفاضة ، وإنما دفعه إلى تولي الحكم مؤقتاً ثورة شعبية لم يتمكن من السيطرة عليها ووقفها .

إن سكرتير الحزب الساليني ، ماتياس راكوزي ، كان قد أقيمت من منصبه في تموز ١٩٥٦ في اجتماع عقدته اللجنة المركزية المجرية برئاسة ميكويان (كان ميكويان قد انتقل جواً من موسكو لأن السفير السوفياتي في بودابست أرسل يقول أن ثورة ستحدث ما لم يعزل راكوزي) . وحل جيرو محل راكوزي كسكرتير أول . واستمر جيرو في اتخاذ تدابير القمع . وكان ناجي في ذلك الوقت قيد الاعتقال ، فانضم الشيوعيون إلى الطلبة والمثقفين طالبين حريات أعظم ، وحدث الانفجار في ٢٣ تشرين الأول عندما انطلق مئتا ألف من المتظاهرين في بودابست مطالبين بالحرية وبإطلاق سراح ناجي ، فجرى إهراق دماء . وعندما استدعى جيرو الجيش ورجال الشرطة العاديين ، لم يلبوا طلبه بل سلموا أسلحتهم إلى الطلبة ، وفي بعض الأحيان انضموا إليهم . أما إمري ناجي فلم يقبض على السلطة من تلقاء ذاته . ولكن ميكويان وسوسولوف حملاه على ذلك ، تلبية للمطالب الشعبية ، على أمل أن يتمكن من جمع صفوف الحزب وقمع الثورة . وكان ناجي محتجزاً في مقر الحزب من قبل السالينيين الذين ناشدوا الجيش السوفياتي مساعدتهم . فكانت النتيجة أن القسم الأكبر من الجيش المجري تحول ضد الروس . ثم أن الحزب الشيوعي المجري زال عملياً من الوجود ووقف الجميع يؤيدون ناجي الذي طالب الروس بسحب جنودهم من البلاد ، ففعلوا ولكن بعد تردد طويل . غير أنهم عادوا بقوة كبيرة وسحقوا المقاومة

يعنف . وهنا برز جانوس كادار الذي كان قد لجأ إلى حماية الروس ، ليقيم تحت الحماية السوفياتية ، نظام الحكم الذي لا يزال مستمراً حتى اليوم .

في ١٩٥٦ ، بعد نضال دموي نشب في بودابست ، استعمل ايمري ناجي الخداع والتهديد لجر الشعب إلى التمرد وإلى حرب اهلية يثور فيها الاخ ضد اخيه . فارغم مواطنين بارزين على الوقوف امام الميكروفون والاعلان عن موافقتهم على زعامته وشجب عهد راكوزي . وقد أذعن بعض الناس لطلبات ناجي عن خوف ، والبعض الآخر عن عدم تفهم وادراك لما يجري . وطورد اعضاء الحزب المعروفين بنشاطهم ، وخصوصاً رجال التشيكا ، في الشوارع وعطلت لجان الحزب ومنظمات التشيكا . وكان الناس يقتلون ويعلقون على اعمدة المصابيح باقدامهم وساد البلاد شتى الفظائع . ثم دارت رحى الثورة المضادة وكان الشباب ، اول الامر ، العنصر الغالب فيها . وكانوا قد نهبوا المستودعات العسكرية ومخازن الذخيرة . ثم انضمت اليهم بعد ذلك فصائل مسلحة وبدأت المناوشات في شوارع بودابست واستولت بعض هذه الفصائل المسلحة على المدافع ، وبالأكثر على المدافع المضادة للطائرات فحولوها ضد المدينة . وبدأ المهاجرون المجريون بالعودة إلى بودابست وذلك بالاكثـر من فيينا . وكان هؤلاء من العناصر الرجعية التي ارغمت على الفرار بعد سحق هتلر وانشاء حكومة اشتراكية . وكانت البلدان المنضمة إلى الحلف الاطلسي (ناتو) قد بدأت فعلاً في التدخل في القضية . فكانت تلقي الوقود في نار الحرب الاهلية ، على أمل اسقاط الحكومة الثورية وتصفية مكاسب الثورة لمصلحة عودة الرأسمالية إلى المجر .

ووجه ايمري ناجي طلباً إلى البنا بأن نسحب جميع القوات السوفياتية من المجر . ووفقاً للتراماتنا ، بمقتضى معاهدة فرسوفيا ، كنا نستطيع سحب قواتنا فقط اذا طلبت منا ذلك حكومة مؤلفة بصورة قانونية . ولم يكن لنا اية نية بأن نفعل ما يطلبه منا زعيم حركة انقلاب مسلح . وكان الوضع من وجهة نظرنا ان عصاة صغيرة استغلت الاغلاط الفاضحة التي ارتكبتها حكومة راكوزي واسقطت حكومة المجر الشرعية . فلم تكن طلبات ناجي من الناحية القانونية تستند إلى اي تأييد برلماني ، ولذلك فليس لها قوة القانون .

وبالرغم من ان ناجي كان شيوعياً ، فهو لم يكن يمثل الحزب الشيوعي المجري ، بل كان يمثل نفسه مع فريق صغير من المهاجرين الذين عادوا لمعاونة الثورة المضادة . لذلك قررنا حالاً ان الانتفاضة وحكومة ناجي لا تمثلان العمال والفلاحين والطبقة المتخفة في البلاد عامة . وقد رفض الفلاحون تأييد الثورة المضادة

بالرغم من مناشدات ناجي ، فقد لزم هؤلاء الحياد ورفضوا ان يخذعوا فاستمرت مزارع جماعية كثيرة في العمل ، متجاهلة الشعارات المضادة للنظام الجماعي التي كانت تذاع من بودابست (١) .

وقررنا نحن سحب قواتنا من بودابست ، دون ان يكون لعلنا هذا اية علاقة بطلبات ناجي ، ووضعها في ميدان الطيران خارج المدينة . وبقينا مطلعين على حقيقة الموقف في المدينة عن طريق موظفي سفارتنا .

وبحثنا قضية التمرد في البريزيديوم وفي اللجنة المركزية وتوصلنا إلى الاستنتاج ان لا عذر لنا في التزام الحياد والتخلف عن مساعدة الطبقة العاملة في المجر في نضالها ضد الثورة المضادة . واتخذنا قراراً بالاجماع في هذا الصدد . ولم يحضر انتاس ايفانوفيتش ميكويان وسوسلوف الاجتماع لانهما ذهبا إلى بودابست في النهار ذاته وعادا منها في المساء إلى المطار ، حيث كانت قواتنا مرابطة .

كانت هذه لحظة تاريخية ، اذ كنا نواجه اختياراً عسيراً ، بين ان نعيد قواتنا إلى المدينة ونسحق الانتفاضة وبين ان ننتظر لئلا نرى اذا كانت القوات الداخلية تستطيع ان تتحرر وتحبط هي الثورة المضادة ؟ فاذا نحن قررنا الحيلة الاخيرة فثمة احتمال ان تسيطر الثورة المضادة مؤقتاً مما يعني ان دماء بروتيتارية كثيرة سوف تهرق . زد على ذلك انه اذا نجحت الثورة المضادة واتخذ الحلف الاطلمي (ناتو) قواعد له وسط البلدان الاشتراكية فسيبتج عنه تهديد شديد للخطر على تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا ، ناهيك بالاتحاد السوفياتي نفسه . وفي اتباعنا اية من الخطتين ، لا نكون عاملين لمصلحة اهداف قومية ، بل في سبيل تحقيق هدف اممي لمصلحة تعاقد الاخوة البروليتارية . وحرصاً على التأكد من ان جميع البلدان تدرك حقيقة موقفنا من هذه الناحية ، قررنا ان نجري مشاورات مع البلدان الاشتراكية الاخرى ، وفي طليعتها الحزب الشيوعي الصيني الشقيق ، رعى ذلك فقد طلبنا من ماوتسي تونغ ان يوفد ممثلاً من قبله ليتشاور معنا حول حوادث المجر . فلبى الصينيون الطلب سريعاً وجاء وفد بطريق الجو برئاسة ليوشاوشي . وكان ليو يتمتع بخبرة واسعة وذا همة ، وكان موضع احترامنا البالغ . ندبني سكرتيرية اللجنة المركزية لتمثيل الجانب السوفياتي . وكان بونومارييف عضواً في وفدنا ايضاً .

(١) الحقيقة أن كثيرين من الفلاحين لزموا الحياد ولم يشتركوا في القتال . وقد استمروا يعملون في الحقول تاركين القتال للمال والطلاب في المدينة ، وبعض وحدات الجيش المجري .

وعقدت مشاوراتنا مع الصينيين في لبكي التي كانت سابقاً إحدى « داشات » ستالين ، ثم أصبحت منتجاً للراحة . امضينا الليل بطوله نزن الامور بكل دقة ونشاور حول فوائد استخدام قوة السلاح في المجر أو مضارها . وقال ليو شاوشي في بادئ الامر ان لا ضرورة لذلك ، وان علينا ان نخرج من المجر وندع الطبقة العاملة تحسن ذاتها وتعالج الثورة المضادة بطرقها الخاصة ، فوافقنا نحن على ذلك .

ولكن ، بعد ان توصلنا إلى هذا القرار ، شرعنا في بحث الحالة مرة اخرى فحذرنا البعض من احتمال ميل الطبقة العاملة إلى الثورة المضادة لاسيما ان الشباب في المجر هم بنوع خاص عرضة لذلك .

واني لا اعلم كم مرة بدلنا رأينا بين هذا وذاك من الاحتمالات . وكلما كنا نظن اننا عقدنا العزم على امر ما ، بادر ليو إلى التشاور مع ماوتسي تونغ تلفونياً . وكان ماو يوافق على كل ما يوصي به ليو . واخيراً انتهينا من تلك الجلسة التي دامت الليل كله إلى اتخاذ قرار بعدم استعمال القوة العسكرية في المجر . وبعد ان اتفقنا على ذلك ذهبت إلى متزلي وبقي ليو ووفده في « الداشا » .

وعندما صعدت إلى فراشي ذلك الصباح وجدت نفسي لا ازال قلقاً ، اقلب المشكلة على وجوها ، بحيث تعذر علي الركون إلى الراحة . وكانت المشكلة مثل مسار في رأسي يحرمني النوم .

وفي الصباح ، اجتمع بريزديوم اللجنة المركزية للاستماع إلى تقريرني عن نتيجة مباحثاتنا مع الوفد الصيني . فاخبرتهم كيف اننا بدلنا موقفنا مراراً كثيرة ، وكيف اننا توصلنا في النهاية إلى اتخاذ قرار بان لا نستعمل القوة العسكرية في المجر . على انني حذرت البريزيديوم آنذاك من عواقب الامتناع عن مد يد المساعدة للطبقة العاملة قبل ان تكون عناصر الثورة المضادة قد تغلغلت في صفوفها . وبعد مناقشات طويلة قرر البريزيديوم انه لن يكون لنا من عذر على الاطلاق

نتذرع به اذا نحن وقفنا جانباً ورفضنا مساعدة رفاقنا المجرين . وعندئذ سألنا المارشال كونييف الذي كان قائدا لقوات ميثاق فرصوفيا : « كم يقتضيك من الوقت اذا اصدرنا لك الامر باعادة النظام إلى المجر وسحق قوات الثورة المضادة ؟ » فبعد ان فكر لحظة رد قائلاً : « ثلاثة ايام لا اكثر » . فقلنا له : « اذن استعد وسنبفك متى تبدأ بالعمل . » وكان على ليو شاوشي ان يطير إلى بكين ذلك المساء ، وكان لا يزال يعتقد اننا اتفقنا على عدم استعمال القوة العسكرية في المجر . لذلك رأينا ان علينا ابلاغه باننا بدلنا موقفنا . واتفقنا ان نشاور معه في مطار فنوكوفو . وطلبنا اليه ان يتوجه إلى المطار قبل الموعد المقرر لسفره ، لكي يتسنى لنا الاجتماع

به هناك والتحدث اليه .

وعلى ذلك فقد توجهت هيئة البريزيديوم بكاملها إلى المطار . ووصل ليو ورفاقه وعقدنا اجتماعنا معهم . ولم يدر أي جدل على الإطلاق ، بل جرى الحديث في جو ودي جداً . وظهر الصينيون أنهم يشاطرون الشعب السوفياتي اهتمامه وقلقه . وكنا نحن جميعاً مهتمين بمصلحة الطبقة العاملة المجرية وبمستقبل الشعب المجري . ووافق ليو على أن قرارنا المعدل القاضي بالشروع بارسال قواتنا هو عين الصواب .

وقال : « لن نستطيع الحصول على موافقة الرفيق ماوتسي تونغ في هذه اللحظة غير أنني اعتقد أنه سوف يؤيدكم . وحالما اصل إلى بكين سوف ابلغ المكتب السياسي للحزب الصيني الشيوعي بذلك ، ثم ننقل اليكم قرارنا الرسمي . غير أن باستطاعتكم أن تفترضوا انكم حائزون على تأييدنا » .

وبعد أن تم الاتفاق على ذلك ، ودعنا الوفد الصيني (١) فطار إلى بلاده . كان علينا الآن التشاور مع بولونيا لحل المشاكل التي برزت هناك . وكانت المتاعب التي لقيناها هنا أقل كثيراً في خطورتها من متاعبنا في المجر . فلم يكن في بولونيا ثورة مسلحة . وكانت قد تألفت قيادة بولونية مقبولة من قبل الرفاق غومولكا وسيرناكيوفكز وآخرين من الرفاق الذين نثق بهم . فكان لدينا من الاسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الموقف في بولونيا كان يتجه نحو الاستقرار (٢) . وكان لدينا لذلك ما يزيد في وجوب التشاور مع بولونيا ، نظراً لقلق الشعب البولوني على مصير بلاده . وكانوا يشعرون أن لهم علاقة كبيرة بما قد تنتهي اليه احداث المجر . ونحن لم نكن فقط نريد أن نعرف رأي الرفاق البولونيين قبل اتخاذ تلك الخطوة الحاسمة بارسال الجنود إلى بودابست - بل اردنا ايضاً أن يكون رد الرفاق البولونيين ايجابياً . وكنا نريد أن نحصل على تأييدهم . لذلك اتخذنا التدابير لجعل للرفيق غومولكا مع سيرناكيوفكز وغيرهما من الرفاق أن يقابلونا في مكان

(١) كان الصينيون في البداية قد نصحوا بعدم العمل العسكري في بولونيا . وبعد تردد كثير احوالى استعمال القوة في المجر ، وفي ما بعد حملوا الكثير من المسؤولية عن ذلك .

(٢) يبدو أن غروشوف ليس لديه شيء ليقوله عن محاولة التدخل السوفياتي في بولونيا . فالجيش استعد للضرب هناك ، غير أن المارشال روكوسوفسكي الذي كان وزير الدفاع في بولونيا ، رغم كونه سوفياتياً ، حذر قيادة الكرملين من أن الجيش البولوني كان معادياً وسيقف وراء غومولكا ويقاوم معه . وقد كان ج. سيرناكيوفكز رئيس وزراء بولونيا ، عندما حدثت ثورة ١٩٥٦ .

خارج الاراضي السوفياتية على الحدود السوفياتية - البولونية . وعين البريزيديوم هيئة ثلاثية من خروشوف ومولوتوف ومالنكوف تمثل الجانب السوفياتي في الاجتماع .

وبعد التشاور مع البولونيين طرت انا مع مالنكوف إلى بوخارست . وكان قد سبقنا إليها وفد روماني وآخر تشيكي بقيادة نوفوتني وبلغاري بقيادة جيكونف . كان علينا ان نوضح الحالة القائمة ، ولم يكن علينا ان نقنع اياً كان بضرورة اتخاذ عمل حاسم ، لان هؤلاء الرفاق كانوا قد تلقوا معلومات وافية من سفرائهم في بودابست عن الحالة التي كانت آخذة في التدهور هناك . زد على ذلك ان بعض مناطق الحدود في المجر كانت قد بدأت فعلاً في السعي للحصول على سلاح من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا للدفاع عن النفس ضد حكومة ايمري ناجي التي تمثل الثورة المضادة . وكان زعماء البلدان الاشتراكية الصديقة موافقين بالاجماع على ان علينا ان نعمل ، وبسرعة .

وقال الرومانيون والبلغاريون انهم يرغبون في الانضمام الينا في تقديم مساعدة عسكرية للعمال الثائرين في المجر في نضالهم ضد الثورة المضادة ، فكان ردنا ان لا حاجة لتوريط اية قوات في هذه العملية عدا القوات السوفياتية المرابطة حالياً في المجر ، بمقتضى اتفاق بوتسدام . ثم مزحنا مع الرفاق الرومانيين حول اهتمام رومانيا الآن ورغبتها الملحة في الاشتراك في المعركة ضد الثورة المضادة ، في حين انها في ١٩١٩ كانت منحازة إلى جانب الثورة المعاكسة التي سحقت ثورة بيلاكون المجرية . فضحك الرفاق الرومانيون ثم تمنوا لنا التوفيق والاسراع في العمل .

وفي ساعة متأخرة من ذلك المساء طرت ومالنكوف إلى يوغوسلافيا للتشاور مع الرفيق تيتو . كان الطقس سيئاً جداً وكان علينا ان نخلق فوق الجبال ليلاً وسط عاصفة رعديّة شديدة . وكان البرق يسطع حولنا فلم يغمض لي جفن . وكنت قبلاً قد طرت كثيراً ، خصوصاً في اثناء الحرب ، غير انني لم اطر قط في مثل هذه الاحوال السيئة . وكان يقود طائرتنا طيار واسع الخبرة مجرب هو الجنرال تسين . وفي اثناء العاصفة فقدنا كل اتصال مع طائرة الاستكشاف المرافقة لنا والتي كانت تطير امامنا صوب جزيرة بريوني ، تجاه ساحل يوغوسلافيا . وكان المطار المحلي غير مجهز تجهيزاً حسناً ، بل كان من تلك المدرجات البدائية التي انشئت في اثناء الحرب . غير اننا بفضل مهارة الجنرال تسين تمكنا من الوصول . وعندما هبطنا في ارض المطار سألنا اذا كانت طائرتنا الاخرى قد وصلت فقال لنا اليوغوسلافيون انهم لا يعرفون عنها شيئاً ف شعرنا بقلق شديد

على مصير ملاحيتها .

وكانت هناك سيارة في انتظارنا ومنها انتقلنا الى زورق بخاري اتجه بنا إلى مقر الرفيق تيتو في جزيرة بريوني . وكان مالنكوف ممتنع الوجه كأنه جثة لا حياة فيها . فقد كان يصاب بالدوار في السيارة على الطرق الجيدة ، فكيف في هذه الرحلة . فاستلقي مالنكوف في الزورق واغمض عينيه وقلقت عليه وعلى الحالة التي سيكون عليها متى نزلنا الى البر . وكان تيتو في انتظارنا عندما بلغنا الجزيرة . فرحب بنا ترحيباً حاراً وتعانقنا وتبادلنا القبلات ، بالرغم من اننا كنا إلى عهد قريب على علاقات متوترة ، وقد ازدادت توتراً أكثر فأكثر مع تطور الاحداث في المجر . فقد كان بيننا خلاف في الرأي حول افضل السبل وأصلح طريق للعمل هناك .

ابلغنا تيتو عن سبب محبتنا وواجهناه بالقرار الذي اتخذناه بارسال قوات إلى بودابست ، وسألناه رأيه في ذلك . وكنت اتوقع ان اسمع من تيتو اعتراضات تفوق كثيراً ما لقيناه في اثناء مناقشاتنا مع الرفاق البولونيين . غير اننا فوجئنا حين قال تيتو اننا على حق تام في ما قررناه ، وان علينا ان نرسل قواتنا للعمل بأسرع ما يمكن . وقال لنا انه ملزم بمساعدة المجر لسحق الثورة المضادة . واكد لنا انه يدرك كل الادراك ضرورة اتخاذ تلك التدابير . لقد كنا مستعدين لتلقى منه معارضة ، ولكن بدلا من ذلك تلقينا منه التأييد التام . واني لأذهب إلى القول انه ذهب إلى ابعد من ذهابنا في الاحاح بوجوب تصفية تلك المشكلة بسرعة وبصورة حاسمة . وبعد ان تقرر ذلك قلت : « اذن يحسن بنا ان نعد إلى بعض الراحة لان علينا ان نعود إلى موسكو في ساعة مبكرة من الصباح » . على ان تيتو قال : « كلا - لا تعجلوا بالعودة . لماذا لا تمكثون هنا يوماً او يومين ؟ » فشكرناه ، ووضحنا له ان الوقت لا يسمح لنا الا بالعودة إلى موسكو حالاً . واخيراً سألتني : « متى تعزمون ان تعيدوا النظام إلى بودابست ؟ »

فأجبتته باننا لم نقرر بعد اليوم بالضبط . غير اننا ننتظر ان يكون عاجلاً . ولعل تيتو ادرك ان قولي هذا لم يكن يدل على الحقيقة بكليتها لأننا قد حددنا اليوم الذي نوجه فيه الضربة . غير انني لم اكن اريد ان اخبر احداً عن موعد تحرك قواتنا للدخول إلى بودابست . ولم يكن لليوغوسلافيين اي دور مباشر في العملية . لذلك فلا حاجة بهم لان يعلموا ما عزمنا عليه . وكنت ارى انه كلما كان عدد الذين يعلمون اقل ، بما فيهم اصدقاؤنا ، كان ذلك هو الافضل . ولو ان موعد شروعا في العمل تسرب إلى الخارج لكان كلفنا ثمناً غالياً .

واخيراً قلت : « ارى ان نحاول ان نحصل على قليل من النوم الآن » فقال تيتو : « اسمع ، لماذا النوم الآن ؟ ما الذي يدعوكم إلى السرعة ؟ لماذا لا نمضي

الليل في الحديث ؟ لا يزال هنالك ساعات قليلة لبزوغ الفجر ، وأنا اود ان امضي ما لدينا من الوقت القليل معكم » .

فاجبت قائلاً : « حسناً ، سنحاول أن نغمض عيوننا قليلاً في الطائرة ، ونحن في طريق عودتنا إلى موسكو » .

وهكذا سهرنا حتى الفجر . وفي الصباح قال تيتو انه سيخرج لوداعنا . فجلس امام مقود السيارة وانطلق بنا إلى مكان الاقلاع ، حيث تبادلنا عبارات الوداع وتمنى لنا سفرأ سعيداً (١) .

وصلنا إلى موسكو حوالي المساء ، فخرج اعضاء البريزيديوم لمقابلتنا في المطار ، ثم توجهنا رأساً إلى الكرملين .

بعدها ابلغنا كونيف بان يحرك قواته إلى داخل البلاد ليعيد النظام على الفور في كل مكان من المجر ، باستثناء بودابست حيث ابدى الشعب مقاومة شديدة نوعاً ما . فقد كان ضباط من الجيش المجري قد انضموا إلى الثورة ، كما وضع جنودنا وجهاً لوجه امام اساليب دفاعية منظمة تنظيمياً جيداً . وكانت المدافع قد نقلت إلى الطوابق العليا من البنايات واستعملت لتغطية الشوارع . ولكن المقاومة ، كما توقع المارشال كونيف استمرت اقل من ثلاثة ايام . وكان من الممكن سحق التمرد بسرعة اكثر ، الا ان ذلك كان يتطلب تدابير هدامة إلى حد ابعد وكان هذا في غير مصلحتنا .

واختبأ ايمري ناجي في السفارة اليوغوسلافية ، مع عدد كبير من زعماء الحركة الآخرين . وأحدث ذلك توتراً اكيداً في علاقاتنا مع يوغوسلافيا . وقد طلب الرفاق المجريون تسليم ناجي ورجاله لهم لكي يقدموا إلى المحاكمة ليحاسبوا على جرائمهم . وقاوم اليوغوسلافيون ذلك بكل صلابة .

اما حكومة الثورة المجرية المؤقتة ، وعلى رأسها كادار ومونيش ، فقد انتظرت بكل برودة حتى لم يعد باستطاعة الرفاق اليوغوسلافيين ان يستبقوا لديهم ناجي ورجاله (٢) . وعندما اطلق اليوغوسلافيون ناجي اصرروا على الحصول على

(١) ان موقف تيتو ازاء القضية المجرية كان غير مؤكد . فقد الح على الروس بضرورة التخلص من راكوزي ، ولكن يبدو أنه دعر من عنف الانتفاضة ، ولو أنه كان شديد العطف على ناجي .

(٢) كانت حكومة «المجر الثورية المؤقتة» التي اطلق عليها هذا الاسم قد أقامها الروس من تلقائهم عندما بدا كأن حكومة ناجي في بودابست سوف تدوم . وكانت هيئة مؤلفة من بقايا حكومة الحزب الشيوعي المجري التي كانت قد تفككت =

على مصير ملاحيتها .

وكانت هنالك سيارة في انتظارنا ومنها انتقلنا الى زورق بخاري اتجه بنا إلى مقر الرفيق تيتو في جزيرة بريوني . وكان مالنكوف ممتقع الوجه كأنه جثة لا حياة فيها . فقد كان يصاب بالدوار في السيارة على الطرق الجيدة ، فكيف في هذه الرحلة . فاستلقى مالنكوف في الزورق واغمض عينيه وقلقت عليه وعلى الحالة التي سيكون عليها متى نزلنا الى البر . وكان تيتو في انتظارنا عندما بلغنا الجزيرة . فرحب بنا ترحيباً حاراً وتعانقنا وتبادلنا القبلات ، بالرغم من اننا كنا إلى عهد قريب على علاقات متوترة ، وقد ازدادت توتراً أكثر فأكثر مع تطور الاحداث في المجر . فقد كان بيننا خلاف في الرأي حول افضل السبل واصح طريق للعمل هناك .

ابلغنا تيتو عن سبب مجيئنا وواجهناه بالقرار الذي اتخذناه بارسال قوات إلى بودابست ، وسألناه رأيه في ذلك . وكنت اتوقع ان اسمع من تيتو اعتراضات تفوق كثيراً ما لقيناه في اثناء مناقشاتنا مع الرفاق البولونيين . غير اننا فوجئنا حين قال تيتو اننا على حق تام في ما قررناه ، وان علينا ان نرسل قواتنا للعمل باسرع ما يمكن . وقال لنا انه ملزم بمساعدة المجر لسحق الثورة المضادة . واكد لنا انه يدرك كل الادراك ضرورة اتخاذ تلك التدابير . لقد كنا مستعدين لتلقى منه معارضة ، ولكن بدلا من ذلك تلقينا منه التأييد التام . واني لأذهب إلى القول انه ذهب إلى ابعد من ذهابنا في الالحاح بوجوب تصفية تلك المشكلة بسرعة وبصورة حاسمة . وبعد ان تقرر ذلك قلت : « اذن يحسن بنا ان نعد إلى بعض الراحة لان علينا ان نعود إلى موسكو في ساعة مبكرة من الصباح » . على ان تيتو قال : « كلا - لا تعجلوا بالعودة . لماذا لا تمكثون هنا يوماً او يومين ؟ » فشكرناه ، ووضحنا له ان الوقت لا يسمح لنا الا بالعودة إلى موسكو حالاً . واخيراً سألتني : « متى تعزمون ان تعيدوا النظام إلى بودابست ؟ »

فأجبتُه باننا لم نقرر بعد اليوم بالضبط . غير اننا ننتظر ان يكون عاجلاً . ولعل تيتو ادرك ان قولي هذا لم يكن يدل على الحقيقة بكليتها لأننا قد حددنا اليوم الذي نوجه فيه الضربة . غير انني لم اكن اريد ان اخبر احداً عن موعد تحرك قواتنا للدخول إلى بودابست . ولم يكن لليوغوسلافيين اي دور مباشر في العملية . لذلك فلا حاجة بهم لان يعلموا ما عزمنا عليه . وكنت ارى انه كلما كان عدد الذين يعلمون اقل ، بما فيهم اصدقاؤنا ، كان ذلك هو الافضل . ولو ان موعد شروعنا في العمل تسرب إلى الخارج لكان كلفنا ثمناً غالياً .

واخيراً قلت : « ارى ان نحاول ان نحصل على قليل من النوم الآن » فقال تيتو : « اسمع ، لماذا النوم الآن ؟ ما الذي يدعوكم إلى السرعة ؟ لماذا لا نمضي

الليل في الحديث ؟ لا يزال هنالك ساعات قليلة لبزوغ الفجر ، وأنا اود ان امضي ما لدينا من الوقت القليل معكم » .

فاجبت قائلاً : « حسناً ، سنحاول أن نغمض عيوننا قليلاً في الطائرة ، ونحن في طريق عودتنا إلى موسكو » .

وهكذا سهرنا حتى الفجر . وفي الصباح قال تيتو انه سيخرج لوداعنا . فجلس امام مقود السيارة وانطلق بنا إلى مكان الأقلاق ، حيث تبادلنا عبارات الوداع وتمنى لنا سفرأ سعيداً (١) .

وصلنا إلى موسكو حوالي المساء ، فخرج اعضاء البريزيديوم لمقابلتنا في المطار ، ثم توجهنا رأساً إلى الكرملين .

بعدها ابلغنا كونيف بان يحرك قواته إلى داخل البلاد ليعيد النظام على الفور في كل مكان من المجر ، باستثناء بودابست حيث ابدى الشعب مقاومة شديدة نوعاً ما . فقد كان ضباط من الجيش المجري قد انضموا إلى الثورة ، كما وضع جنودنا وجهاً لوجه امام اساليب دفاعية منظمة تنظيمياً جيداً . وكانت المدافع قد نقلت إلى الطوابق العليا من البنايات واستعملت لتغطية الشوارع . ولكن المقاومة ، كما توقع المارشال كونيف استمرت اقل من ثلاثة ايام . وكان من الممكن سحق التمرد بسرعة اكبر ، الا ان ذلك كان يتطلب تدابير هدامة إلى حد ابعد وكان هذا في غير مصلحتنا .

واختبأ ايمري ناجي في السفارة اليوغوسلافية ، مع عدد كبير من زعماء الحركة الآخرين . وأحدث ذلك توتراً اكيداً في علاقاتنا مع يوغوسلافيا . وقد طلب الرفاق المجريون تسليم ناجي ورجاله لهم لكي يقدموا إلى المحاكمة ليحاسبوا على جرائمهم . وقاوم اليوغوسلافيون ذلك بكل صلابة .

اما حكومة الثورة المجرية المؤقتة ، وعلى رأسها كادار ومونيش ، فقد انتظرت بكل برودة حتى لم يعد باستطاعة الرفاق اليوغوسلافيين ان يستبقوا لديهم ناجي ورجاله (٢) . وعندما اطلق اليوغوسلافيون ناجي اصبروا على الحصول على

(١) ان موقف تيتو ازاء القضية المجرية كان غير مؤكد . فقد ألح على الروس بضرورة التخلص من راكوزي ، ولكن يبدو أنه دعر من عنف الانتفاضة ، ولو أنه كان شديد المظف على ناجي .

(٢) كانت حكومة «المجر الثورية المؤقتة» التي اطلق عليها هذا الاسم قد أقامها الروس من تلقائهم عندما بدأ كان حكومة ناجي في بودابست سوف تدوم . وكانت هيئة مؤلفة من بقايا حكومة الحزب الشيوعي المجري التي كانت قد تفككت =

تأكيدات بالمحافظة على سلامته . فرفض الرفاق المجرىون ذلك . وحالما وصل ناجي إلى منزله جرى اعتقاله - كما كان ينبغي ان يفعل (١) . ثم ان الرفيق كادار اقترح ان ينقل ناجي بطريق الجو إلى بوخارست ، إلى ان يتم اعادة النظام وتتاح الفرصة للحكومة الجديدة لان تعيد الحالة إلى مجراها الطبيعي في المجر .

اما الحكومة الثورية المجرية الموقفة التي انتقلت إلى المجر من اوزغورود (في اوكرانيا السوفياتية) عندما اعيد النظام لأول مرة فقد ابدلت اسمها باسم « حزب العمال الاشتراكي » . وبدأ الزعماء الجدد في جمع قواتهم ، ثم اخذت الحالة تعود إلى الاستقرار بصورة مرضية جداً .

وعندما تمت تسوية جميع الامور اعاد الرفاق الرومانيون إمري ناجي إلى المجر . وكان قد نشأ بعض التوتر بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا بسبب الموقف الذي اتخذته يوغوسلافيا اثناء حوادث المجر . فاقترح الرفيق تيتو ان تجتمع ونسأل عن اعادة العلاقات الحسنة في ما بيننا . وقد اقترح في البداية ان تجتمع سرّاً على سفينة في نهر الدانوب على الحدود بين رومانيا ويوغوسلافيا . لكنه قبل ان نساfer

= كلياً . وكان جانوس حاكم المجر الحالي عضواً في حكومة ناجي وظهر هنا تأييده لها . أما فرنك منيش فقد كان لبضعة أيام وزير الداخلية في حكومة ناجي . غير ان هذين الرجلين اختفيا فجأة دون اذار في ٢ تشرين الثاني تاركين ناجي وحده في الساحة . ثم ظهرا في المعسكر السوفياتي في اوزغورود . وبعد ذلك بيومين اذاع كادار بيانه الشهير على الراديو ، زاعماً أنه ألف حكومة جديدة وناشد الروس أن يرسلوا قوة لسحق الثورة . ثم عاد مع منيش إلى بودابست بصحبة القوات الروسية تسانده الدبابات الروسية ، وأنشأ الحكم الجديد الذي ترأسه منذ ذلك الحين . وكان منيش بوصفه وزيراً للدفاع وللداخلية ، هو المسؤول عن تدابير القمع القاسية التي أعادت المجر إلى النظام ثم صار رئيساً للوزارة في ١٩٥٨ ، في حين بقي كادار سكرتيراً للحزب . ومنذ وفاة مونتش ، حاول كادار أن يجرى قدراً من الإصلاح في المجر وان ينفلي إلى حد ما الدور الذي لعبه . والذي كشفه خروشوف عن منيش يلقي ضوءاً على طابعه الخاص وموقفه بوصفه زعيماً سوفياتياً جديداً من البلدان الدائرة في الفلك السوفياتي .

(١) هذا مخالف للحقيقة فان المجرين وعدوا في الواقع تيتو بأن لا يلحق ناجي أي أذى اذا خرج من حماية السفارة اليوغوسلافية في بودابست . وقد غضب تيتو كثيراً عندما اعتقل . ولا يذكر خروشوف تلك الحقيقة الصغيرة بأن ناجي نقل بعدئذ من السجن واعدم رمياً بالرصاص . كما انه لا يشير إلى اعتقال الجنرال بال ماليتر واعدامه عندما اجتمع بالروس للتفاوض بعد ان امنوه على حياته .

غير رأيه واقترح ان نجتمع علناً في بوخارست . وكنا نحن قد صفينا نزاعنا مع يوغوسلافيا بعد وفاة ستالين ، ولم تكن نرى سبباً لاثارة نزاع آخر . فتحدثنا حول كيفية تحسين العلاقات التجارية وقلت ان ليست لنا اية مطالب للسيطرة على يوغوسلافيا ، وكررت تقييدنا بمبدأ عدم التدخل في شؤون يوغوسلافيا الداخلية . ومر بعض الزمن ورأينا ان الامور لا تسير سيراً حسناً في المجر ، فبحثنا الحالة في البريزيديوم وقررنا انه لم يعد باستطاعتنا ان نتركها تستمر على تلك الحال . واصدر البريزيديوم امراً لي كي أطير إلى بودابست لاجراء محادثات مع الزعماء المجرين .

وكانت امالي الخاصة معلقة على مونيش . فقد ظننت بانني استطيع التعامل معه افضل من التعامل مع كادار . وقد كان مونيش ذنباً عجوزاً داهية مجرباً خاض غمار الثورة المجرية مع بيلاكون وعاش في الاتحاد السوفياتي فترة طويلة من الزمن . وقد ظننت انه مستعد اكثر من اي شخص آخر لمعالجة المشاكل التي كانت لا تزال تواجه المجر .

وعند وصولي وجدت من استقبلي في المطار وقلني بالسيارة إلى المدينة . وكان قد سبق لي ان زرت بودابست في ١٩٤٦ ، فوجدتها الآن لا تزال جميلة كما كنت اذكرها وان يكن هنالك بعض آثار القتال على الجدران التي اصابها الرصاص ، وحتى بعض الخرائب .

واقمت لي مأدبة في قاعة مظلمة ولا اعلم لماذا كان الضوء هكذا خافتاً . وكنت في الغرب قد حضرت مأدب على ضوء الشموع ، ولكنها كانت دائماً تقام لمناسبة الاحتفال بنصرنا . ولم يكن هنا في بودابست مناسبة من هذا النوع . ولعل الوليمة كانت معتمة لان النور كان خفيفاً جداً . وكانت القيادة بكاملها حاضرة . قدم لنا المجريون « الغولاش » اللذيذ والنيذ الممتاز ، ثم لم يلبث أن دار الحديث حول الشؤون السياسية . وقال مونيش رداً على انتقاداتي : « كنت كما تعلم ، سفيراً لبلادي في موسكو اثناء عهد راكوزي ، لذلك لا يمكنني ان اكون مسؤولاً عما حدث » . فسألته عن الصحافة المجرية التي لا تزال في سياستها غير ملتزمة بالموقف المطلوب ، فقال : « اسمع ايها الرفيق خروشوف ، انا لست مكلفاً بالاشراف على الصحف ، فهذه من مهام غيري من الرفاق . »

وبالاختصار ، كان لا يزال هنالك مشاكل ، وهذه هي الحال دائماً عندما تمر البلاد والحزب في مثل تلك الانتفاضة الشديدة . وكان من آثار التمرد السيئة ان الجيش المجري كان في حالة فوضى وضعيف المعنويات . ولم يكن الجيش بكامله قد اشترك في الثورة المضادة ، غير ان افراداً من الضباط ، وعددهم قليل ،

اشتركوا اشتراكاً نشيطاً فيها (١) . وبعد سحق الثورة المضادة ، وسقوط عصابة ناجي ، بقي قدر معين من التردد والتذبذب بين ضباط الجيش . لذلك طلبت حكومة الرفيقين كادار ومونيش من جميع الضباط ان يحددوا موقفهم السياسي ازاء الاحداث ، مما ادى إلى ان قسماً منهم اقساموا اليمين ان يخدموا الشعب المجري بامانة واخلاص ويقوموا بتنفيذ اوامر الحكومة المجرية . وقد امتنع عدد قليل من الضباط عن توقيع هذا القسم ، وادى امتناعهم هذا إلى الاستغناء عنهم وكانت نتيجة ذلك ان الجيش نقص في الكمية ، ولكنه تحسن في النوع .

اما الحياة في البلاد فبدأت تعود إلى طبيعتها بالرغم من الاتهامات التي كانت ترددها الصحف البورجوازية والدعاوة المشوهة للحقيقة المفتراة في الخارج بان الاتحاد السوفياتي قد قمع ثورة شعبية في المجر .

وطلب الرفيق كادار ولجنة الحزب الشيوعي المجري المركزية من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ان توفد مستشارين لمساعدتهم على اعادة تنظيم صناعة الفحم التي كانت في حالة نكسة . ونزولاً عند طلب الحكومة واللجنة المركزية المجرية ، قمت بعدد من الرحلات إلى المجر في ١٩٥٧ .

وحدث مرة عندما كنت هناك في الصيف ان كادار قال لي انهم عازمون على اقامة اجتماع حاشد امام سفارة الولايات المتحدة ، ستكون له اهمية خاصة لان الكردينال مندزني وهيئة موظفي السفارة الاميركية سيكونون على شرفة السفارة يراقبون الاجتماع . وكان مندزني رئيس الكنيسة الكاثوليكية في المجر ويمثل الجناح الاكثر رجعية في قوات الثورة المضادة التي كانت تصدت لضرب الحكومة المجرية وكيان الاشتراكية في المجر في ١٩٥٦ . ولجأ بعد سحق الثورة المضادة إلى السفارة الاميركية واختبأ فيها وبقي هناك سنين طويلة .

واذا كان ليس باستطاعة مندزني والاميركيين ان يسمعو الخطب التي تلقى في الميدان ، فانه لمن المؤكد ان يكون لهم عملاء متشرون بين الجمهور يدونون في مذكراتهم كل ما كان يحدث او يقال .

وكان لدينا سبب آخر يحملنا على الاهتمام بذلك الاجتماع . ذلك انه عندما انتشر خبر وصولي إلى المجر : بدأ الصحفيون الاميركيون يطلقون اصواتهم قائلين ان خروشوف لن يجزأ على الظهور امام الجمهور ، لأن المجريين لن يغفروا له استعماله القوة لسحق الثورة المضادة . وكنا نتوقع الكلام الهراء من

(١) القسم الأكبر من الجيش المجري انضم للثورة .

الصحافة الاميركية .

وتولى كادار افتتاح الاجتماع . والح علي الرفاق المجريون ان اتكلم . ولم يكن باستطاعتي الرقص . وفي الكلمة التي القيتها ، انحيت باللائمة على العمال والمتقنين في المجر لسماحهم بوقوع تمرد ضد الثورة في بلادهم .

وفي اثناء الاجتماع قال كادار : « انظر هناك إلى اليسار فترى السفير الاميركي واقفاً مع رجاله ، كما ترى مندزنتي ايضاً » . وعندما انتهى الاجتماع قلت : « ايها الرفيق كادار ، دعنا نترل عن المنصة نتمشى وسط الجمهور » .

فابتسم وقال : « هنالك حشد كبير ، كما تعلم » . فقلت : « وهذا يزيدني رغبة ، فاننا بهذه الطريقة نظهر للصحفيين الاميركيين وللسفير الاميركي ومندزنتي ان خروشوف لا يخاف من الظهور ، وانه لا يزال يختلط مع الشعب ، يغسل عقولهم ، كما يقول الصحفيون الاميركيون الذين يريدون سوء للاتحاد السوفياتي وللمجر » .

وكانت كلمتي التالية التي القيتها في اكبر مصنع للالات الميكانيكية في المجر . ومن هناك ذهب الرفيق كادار ، وانا برفقته ، إلى منطقة مناجم الفحم حيث كان يتزعم المقاومة الحزبية السرية اثناء الحرب . ولما كنت انا شخصياً عاملاً سابقاً في المناجم ، فقد شعرت ان باستطاعتي ان اتخذ اسلوباً صارماً مع عمال مناجم الفحم . فقلت اني شديد الحجل باخواني عمال المناجم الذين لم يرفعوا اصواتهم ولا قبضاتهم في وجه الثورة المضادة . انهم لم يسهموا في التمرد ولكنهم لم يقوموا بآية مقاومة ضده ايضاً . وعندما انتهت من كلامي ابدى عمال المناجم اسفهم وقالوا انهم يشعرون بالندم لارتكابهم مثل هذا الخطأ السياسي الفاضح ووعدوا بانهم سوف يفعلون كل ما يستطيعونه لعدم السماح بوقوع ما وقع مرة اخرى .

ثم انتقلنا إلى اجتماع حاشد في مصنع الفولاذ على الدانوب الذي جهز بقرض منا . كان قائماً في بلدة تعرف باسم «ستالينوفاراش » ، غير ان اسمها استبدل باسم آخر . وسألني الرفيق كادار ذات مرة : « هل من المناسب ان تجتمع بوفد من المتقنين عندنا ، فنوجه دعوة للعاملين في اكااديمية العلوم وفي المعاهد الاخرى » . فوافقت على ذلك وسررت اذ وجدت في ذلك الاجتماع ان المتقنين ايضاً ادركوا ضرورة التدابير التي اتخذت .

وفي جميع هذه الاجتماعات كنا نلقي بيانات نقض فيها مكائد الثورة المضادة العالمية ، والامبريالية العالمية الرامية إلى اعادة الرأسمالية إلى المجر . وكان الرفاق المجريون من ناحيتهم يظهرون للصحافة البورجوازية ان الشعب المجري ابعد كثيراً من أن يضمر اي سوء نحو الاتحاد السوفياتي ، بل انه يشكر لنا

ولجيشنا ما ادينا من واجب المساعدة على سحق الثورة المضادة . وكان لكل من الحاضرين ملء الحرية في أن يقول ما يحول في خاطره . وكان يسود هذه الاجتماعات جو من الابتهاج والحماسة . وهكذا ابدى الشعب المجري موافقته التامة على التدابير التي عازمت على اتخاذها الزعامة الحديدية للحزب المجري وللحكومة المجرية .

واتفقت وجهات نظرنا مع الزعامة الحديدية على ان التمرد أثاره اساءة ستالين استخدام سلطته ، وان بذور الخلاف زرعها في المجر مستشار ستالين راكوزي . وبعبارة اخرى ، كانت الثورة المضادة نتيجة اخرى لنفسية ستالين المريضة التي كان لينين قد حذرنا منها في وصيته (١) .

واني اذكر اننا عندما اقترحنا مشروعاً يرمي إلى انقاص قوات الجيش السوفيائي المرباط كحاميات في مختلف انحاء اوروبا الشرقية ، سألت المجريين رأيهم في ذلك وقلت لكادار « ما رأيك في احتمال سحب قواتنا من المجر ؟ هل تستصوب ذلك ؟ اننا نعتمد على حكمك في هذا الصدد ونحن نفعل كل ما نقرره » . فاجاب : « ايها الرفيق خروشوف ، اظن انه من الافضل ان تقرر انت هذا الأمر . وباستطاعتي ان اقول لك شيئين : الأول هو ان ليس هنالك اي امتعاض في بلادنا من وجود قواتكم في اراضينا ، اقول هذا بصراحة تامة ؛ والثاني هو ان هنالك شيئاً واحداً فقط يقلق الشعب المجري ، عمالاً وفلاحين ومثقفين على السواء ، وهو ان لا يعود راكوزي إلى المجر » . وفي ذلك الوقت كان راكوزي يعيش في الاتحاد السوفيائي . ويبدو انه كان هنالك في المجر قوى لا تزال تعطف عليه وتأسف لسقوطه من الحكم ، كما كان هنالك قوى في الاتحاد السوفيائي تؤيد ستالين حتى بعد ان اثبتنا جريمته نحو الحزب .

والآن ، اني ادرك ان من الناس من يزعم ان حكومة كادار تساندها موسكو ، وانها انشئت تحت رعايتنا ونفوذنا . على اننا نستطيع ان نجيب على ذلك بطرح السؤال الآتي : تحت اية رعاية قامت حكومة ايمري ناجي ؟ ولمن كانت الطائرات التي نقلت العملاء البورجوازيين والمهاجرين المضادين للثورة إلى المجر ؟ انها الامبريالية العالمية ، وخصوصاً الولايات المتحدة (٢) . وعدا ذلك ، فقد كانت

(١) بعد أن كان خروشوف قد صرح مرة أن القضية كلها سببها ناجي تحول الآن ليقول أنها قد تسببت عن تصرفات ستالين وراكوزي .

(٢) مما لا ريب فيه ان عدداً من المهاجرين المجريين عادوا إلى المجر عند بدء الثورة ، غير ان الدول الغربية المنهمكة حينذاك بقضية السويس وقفت على الحياد .

حكومة كادار نتيجة انتخاب جرى في مؤتمر للحزب المجري ترأسه راكوزي بالذات . هكذا ادحض مزاعم اولئك الذين يزعمون ان كادار وحكومته كانوا — اذا استعملنا تعبيراً فظاً — العوبة في ايدينا وعملاء لنا .

واود ان اكون واضحاً كل الوضوح بصدد هذه المسألة . اننا ، في الاتحاد السوفياتي ، نويد القوى الثورية في العالم . ونحن انما نفعل ذلك قياماً بالتزاماتنا ، ورغبة منا في اخذ قسطنطين من نضال الطبقات العاملة تحت العلم الاحمر يزينه الشعار « يا عمال العالم اتحدوا » . اننا ضد تصدير التغييرات إلى الخارج ، ولكننا ايضاً ضد تصدير الثورات المضادة . وذلك هو السبب الذي يجعل مساعدة الطبقة العاملة في اي بلد من البلدان ، في نضاله ضد قوات الرأسمالية ، أمراً لا يمكن التخلي عنه . وهذا ما فعلناه في المجر . ونحن بمساعدتنا الشعب المجري على سحق الثورة المضادة ، منعنا العدو من تفكيك وحدة المعسكر الاشتراكي . وقد حاز ذلك على تأييد جميع الطبقات العاملة والعناصر التقدمية في العالم بأسره .

لهذا فاني اقول : نعم ! ساعدنا المجر في ١٩٥٦ . وكما قلت مرة في اجتماع حزبي حاشد : اننا وفينا ديناً علينا للمجر كان يثقل كاهلنا منذ ١٨٤٨ . ففي ذلك العام ، قامت ثورة ناجحة في بودابست ، غير ان نقولا الأول سحق بجيوشه تلك الثورة واعاد الحكم النمساوي الملكي إلى المجر ، فكان ذلك عاراً مخجلاً . وهو عار لا يلحق ، طبعاً غير نقولا الأول وحاشيته لا العمال ولا الفلاحين في الامبراطورية الروسية سابقاً . ومع ذلك كانت بلادنا تشعر بوطأة هذا الدين إلى ان تسنى لنا ، في ١٩٥٦ ، وفاؤه . وهكذا اصبح الآن « لا علينا ولا لنا » .

عبد الناصر والسويس وسد أسوان

كان خروشوف في وصفه لعلاقات الكرملين مع الرئيس عبد الناصر أكثر توسعاً وأكثر تفصيلاً وأكثر صراحة واستقامة وأقل تحفظاً مما كان في أحاديثه عن شرقي أوروبا . وقد سهل التغلغل السوفياتي في الشرق الأوسط تخلي الميركيين عن مشروع سد أسوان . ثم إن أزمة السويس التي تلت ذلك كانت إلى حد بعيد قصة توفيق . وبالرغم من أن خروشوف يحرف بعض الحقائق لجعل دور السوفيات يبدو أكثر واقعية ووثوقاً مما هو ، فلم يكن هناك سوى القليل من التصرفات التي عليه أن يخفيها . وأكثر ما تبرز أهميته بوضوح جهل السوفيات لحقيقة الحالة في مصر ، قبل تأميم قناة السويس في ١٩٥٦ ، وفي العراق بعد ذلك .

لا أنكر أننا واجهنا بعض الصعوبات عندما أوجدت العناصر المعادية للسوفيات حالة حرجة في بولونيا والمجر . وبينما كنا نعالج هذه المشاكل اجتمع دبلوماسيون انكليز وفرنسيون من الفئة الثالثة مع رجال سفارتنا في لندن وباريس حول فنجان قهوة أو كأس من النبيذ وقالوا : « يبدو أن لديكم بعض المتاعب في بولونيا والمجر واننا ندرك كيف يحدث ذلك أحياناً . ونحن أيضاً نواجه بعض المتاعب في مصر ، فلنتفاهم بصورة صامتة في ما بيننا على أن تصفوا انتم متاعبكم بأية طريقة ترونها موافقة ، وان لا تتدخلوا بينما نحن نصفي متاعبنا . » وبعبارة أخرى ، حاول الامبرياليون أن يستغلوا المتاعب التي نعانيها في بولونيا أو المجر ، لكي يرسلوا قواتهم إلى مصر لاعادة الحكم الاستعماري إلى سابق عهده فيها .

لقد تخلصنا نحن سريعاً من متاعبنا في بولونيا . وحالما انتهينا من سحق التمرد في المجر انجھنا حالاً إلى الاهتمام بانتهاء الحرب التي كان الاستعماريون يديرون رحاها ضد الرئيس المصري عبد الناصر (١) .

ان استعمال نفوذنا الدولي لوقف اعتداء انكلترا وفرنسا واسرائيل على مصر في ١٩٥٦ كان نقطة تحول تاريخية . فقبل ذلك الزمن كان الاتحاد السوفياتي - وروسيا الامبريالية قبله - ينظر إلى الشرق الأدنى على انه يخص انكلترا وفرنسا . وكان الملك فاروق قد طلب مرة من ستالين ان يبيعه أسلحة لكي يستطيع ان يرغم بريطانيا العظمى على اجلاء قواتها عن مصر . غير ان ستالين رفض تلبية طلبه وقال بحضوري ان الشرق الأدنى هو جزء من منطقة نفوذ بريطانيا ، ولذلك فانا لا نستطيع أن ندس انفسنا في شؤون مصر . ولم يكن ذلك لان ستالين لم يكن يريد أن يتحرك نحو الشرق الأدنى - اذ كان في الواقع يود كثيراً ذلك - ولكنه كان واقعياً يدرك ان ميزان القوة ليس لمصلحتنا ، وان بريطانيا لم تكن لتسكت عن تدخلنا .

على ان الأمور تبدلت في السنين التالية . فاقتصادنا وقواتنا المسلحة وثقل نفوذنا في الشؤون الدولية ، كل ذلك ازداد زيادة عظيمة جداً . وعندما جاء عام ١٩٥٦ كنا قد صرنا قادرين ان نخطو إلى الأمام ونساعد الرئيس عبد الناصر والشعوب العربية . وليس معنى ذلك اننا نريد ان نحل محل انكلترا في استغلال مصر وبلدان عربية اخرى ، أو اننا مدفوعون بمصالح ذاتية ومركانتلية . بل على العكس ، كنا لا نريد إلا مساعدة هذه الشعوب لترزع نير عبوديتها واثكاليتها على أسياها الاستعماريين . كانت مهمتنا في الشرق الأدنى مهمة شريفة . لقد كانت دبلوماسيتنا تستند على مبادئ لينين ذاتها في السياسة الخارجية . وبدأنا فعلاً نجني ثمارها من مستقبل الامم العربية .

وعندما بدأنا نوجه اهتماماً فعالاً إلى شؤون مصر ، كان موقفنا مشعباً بالخطر ، وكان تفاؤلنا منضبطاً متحفظاً .

وعندما تولى عبد الناصر مقاليد الحكم بعد الثورة التي نشبت في مصر (٢) ، لم

(١) الثورة المجرية . تم سحقها نهائياً في ٩ تشرين الثاني . وحرب السويس بدأت في ٢٩ تشرين الأول .

(٢) ان الاحداث على نوع ما متداخلة مشوشة في هذه الفقرات .

نكن نطمئن إلى أن سياسته سوف تحقق ما هو ضروري لاصلاح الكيان الاجتماعي السياسي في بلاده . ولمدة معينة بعد الانقلاب وبروز الكولونيل عبد الناصر كرئيس للدولة ، لم نتأكد من الاتجاه الذي سوف تتخذه الحكومة الجديدة المؤلفة من ضباط من الجيش ، سواء في السياسة الخارجية أو في السياسة الداخلية .

انبثقت الزعامة المصرية بالاكثـر من الطبقات العليا في الجيش المصري ، وبعبارة أخرى من البورجوازية لا من الطبقة العاملة . وعلى العموم كان لهؤلاء ماضٍ يتمتع بالامتيازات ، وان يكن الحكم الجديد بعيداً جداً عن ان يكون متجانساً على الصعيد الاجتماعي .

وكنا نترع إلى الظن ان انقلاب عبد الناصر كان في جملة الانقلابات العسكرية التي صارت عادة مألوقة في أميركا الجنوبية . ولم نكن لتوقع انه سيتج عنه الكثير مما هو جديد ، على اننا لم نكن نغيرين إلا أن ننتظر لئرى ما يحدث .

وقد اعجبنا بما رأيناه ، فان المصريين بدأوا في السير على سياسة كانت لها مزايا كثيرة . اذ باشروا فعلاً بالضغط على الانكليز لیسحبوا قواتهم من البلاد . ولم يكن لدى الانكليز مجال للرفض فلبوا طلب المصريين .

وعلى هذا فقد قدرنا موقف عبد الناصر واحترمناه وأدركنا ان حكومته لم تكن مجرد حلقة أخرى من سلسلة الحكومات الجديدة التي تستولي على الحكم ثم تنتهج السياسات القديمة . كلا — ان الحكومة المصرية الجديدة كانت تضمر في قلبها مصلحة شعبها الوطنية — ولذلك فهي جديرة بكل احترام وتأييد . لقد اردنا مساعدة عبد الناصر لكي يواصل نضاله ضد الاستعماريين .

غير انه بقي هنالك صعوبة كبيرة في تحديد الاهداف السياسية الاجتماعية التي ترمي إلى تحقيقها حكومة مصر الجديدة . ذلك ان مقادير كبيرة جداً من الرساميل الأجنبية كانت لم تزل في البلاد وقد تركت الحكومة المصارف الخصوصية وشأنها . فحكومة عبد الناصر كانت بداهة حكومة وطنية غير انه كان يبدو كما لو انها أخذت في التحول إلى حكومة بورجوازية . وبالرغم من ذلك ، فقد كان من مصلحتنا أن نويد زعامة عبد الناصر البورجوازية لانها تبشر بأنها سوف تضعف نفوذ الاستعمار الانكليزي في الشرق الأدنى ، وهذا من صالح الاتحاد السوفياتي (١) .

(١) يبدو أن خروشوف في هذه المرحلة لم يستطع ان يقرر الهدف الاساسي الذي دفع الاتحاد السوفياتي الى مساعدة مصر .

وكانت علاقات عبد الناصر مع الرفيق تيتو أفضل حتى من علاقاته معنا . وعندما سافرتيتو إلى الهند ذهب بالباخرة عن طريق قناة السويس . وأفاضت الصحف اليوغوسلافية في كيل المديح للحكومة المصرية . وفي ذلك الوقت لم تكن علاقاتنا قد تحسنت بعد مع يوغوسلافيا . ولكن بعد ذلك بوقت قصير ، عندما اجتمعنا ، الرفيق تيتو وأنا ، لأول مرة لتبادل وجهات النظر حول القضايا الدولية ، امتدح تيتو عبد الناصر وسياسته كثيراً .

فأثرنا بحديثه ، ولكننا أشرنا إلى أنه من الصعب التأكد من أن عبد الناصر يعترم ان بنشىء حكماً تقديمياً في مصر أم لا . فلم يكن بعد قد مس البورجوازيين والبنوك .

فرد الرفيق تيتو على ملاحظتنا بقوله ان عبد الناصر شاب لا يتمتع بخبرة سياسية واسعة . وهو حسن النوايا ، لكنه لا يزال يفتقر إلى تدعيم سلطته في الحكم . وذكر تيتو اننا إذا اعطينا عبد الناصر فرصة ، فقد نتمكن في مابعد من ممارسة تأثير مفيد عليه ، سواء لخير الحركة الشيوعية أو لخير الشعب المصري . فمصالح الشعب في مصر ومصالح الاشتراكية متشابهة معاً . وعلى كل حال ، فان الاشتراكية تستطيع أن تنقل ثمارها إلى جميع شعوب العالم . لذلك فان رغبتنا في تأييد الحكومة المصرية في سياستها ليست مؤامرة تحوكمها بلاد ضد بلاد اخرى ، ولكنه نمو طبيعي لرغبتنا في اشتراك أمة أخرى في اختباراتنا (١) .

وبعد وقوع الانقلاب بقليل ، وبعد ان قرر المصريون أن يحاولوا إخراج الانكليز ، جاء ممثلو عبد الناصر إلينا طالبين مساعدة عسكرية ، وقالوا انهم في حاجة إلى ان يكون لهم جيشهم الخاص ليمارسوا به الضغط على الانكليز ، فوافقنا على طلبهم وأعطيناهم أسلحة تراوح بين البنادق والمدفعية العادية . لكننا ، على ما أذكر ، لم نعطيهم أية طائرات في بادئ الأمر ، بل دبابات واعتدة للبحرية . وقال عبد الناصر انه يحتاج ، في الأخص ، إلى زوارق طوربيد . وأظن اننا قدمنا لهم المساعدة العسكرية على أسس تجارية ، ولكن بأسعار مخفضة .

وبعد شراء الاسلحة منا ، بدأ عبد الناصر - الذي صار مقرباً كثيراً من تيتو - بالتحدث عن بناء الاشتراكية في بلاده . على أنه تحدث عن الاشتراكية بأسلوب من شأنه أن يجعلنا غير متأكدين إذا كان حقيقة يفهم ما يقول . وبدأ أيضاً ان من

(١) هنا نرى ان الاتحاد السوفياتي يأخذ على عاتقه ما كان يسمى انه «عبء الرجل الأبيض» .

المحتمل أن تكون عنده بعض الدوافع البعيدة المرمى من وراء اعتناقه المبادئ الاشتراكية . وفي الأزمته الحاضرة أصبحت كلمة اشتراكية تستخدم بأسلوب مطاط . حتى أن هتلر كان يثرثر عن الاشتراكية ويطلق الكلمة على حزبه النازي (الاشتراكية الوطنية) . في حين أن العالم كله يعرف أي نوع من الاشتراكية كان هتلر يقصد . لذلك كنا حذرين ممن تبنا كلمة اشتراكية بينما كان كل ما يهتمون به هو الحصول على مساعدة عسكرية منا .

كان أحب ما يتمنى الشعب المصري تحقيقه هو السيطرة على نهر النيل العظيم وتسخيره لخدمة إقتصاده . ومنذ الأزمنة القديمة ، كان المصريون يستعملون مياه النيل لري أراضيهم الزراعية الواقعة على ضفتي ذلك النهر . فمياه النيل هي أساس حياتهم الزراعية ، فضلاً عن أنها مصدر لم يستغل بعد لتوليد القوى الكهربائية . وعندما تولى عبد الناصر الحكم أخذ يروج لفكرة بناء سد . فدخل في مفاوضات حول هذا الموضوع مع الولايات المتحدة ، وتوصل إلى اتفاق مع أحد البنوك الأميركية المسمى «البنك الدولي» لاقتراض مبلغ من المال لبناء ذلك السد . واستسلم المصريون للوهم القائل بأن ذلك الحلم الذي كان يراودهم منذ قرون بعيدة سوف يتحقق .

غير أن وهمهم هذا لم يستمر طويلاً حين رفضت مصر السير على الطريق التي رسمتها لها الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، فتج عن رفضها هذا أن الامبرياليين غضبوا وأعلنوا فجأة أن القروض التي وعدوا مصر بها لبناء السد لن تعطى لهم .

فانفجر الرئيس عبد الناصر غضباً وأعلن أن مصر سوف تؤمم قناة السويس ، مما أدى إلى ارتفاع حرارة الوضع السياسي الدولي حتى درجة الخطر . وعندما هاجم الامبرياليون مصر ، تشاورت مع مولوتوف الذي ، وإن لم يعد من العناصر الفاعلة ، كان وزيراً للشؤون الخارجية زمناً طويلاً مما جعله أكثر رجالنا السياسيين خبرة وتجارب . فطلبته على التلفون وسأله عن رأيه في فكرة خايرتي «فياشيلاف ميخايلوفتش» ، أظن أنه يحسن بنا أن نقترح رئيس الولايات المتحدة الأميركية لاتخاذ عمل مشترك ضد المعتدين على مصر .

فأبدى مولوتوف ملاحظة صائبة ، وهي أن ايزنهاور لن يوافق مطلقاً على الانضمام إلينا ضد انكلترا وفرنسا واسرائيل . فقلت له - انه ، طبعاً ، لن يوافق ، لكننا إذا نحن وضعناه في موقف يضطر فيه إما إلى الرفض ، فنفضح بذلك كذب بياناته العلنية في شجب الاعتداء على مصر ، وإما إلى قبول الاقتراح السوفياتي ، فيشترك معنا في حماية استقلال مصر . ثم أخبرت مولوتوف بوجود

طرح الموضوع على البريزيديوم في الحال . وهكذا دعوت أعضاء البريزيديوم إلى الكرملين لعقد اجتماع عاجل . وفي هذا الاجتماع وضعنا صيغة الاقتراح وتولى شيلوف وزير الشؤون الخارجية الحديد ارسال مذكرتنا إلى الرئيس ايزنهاور متضمنة رأينا في أن تتحد قواتنا تحت علم الأمم المتحدة. وأرسلنا أيضاً مذكرات إلى رؤساء وزراء بريطانيا وفرنسا واسرائيل طالبين اليهم فيها وقف هجومهم العدواني على مصر في الحال .

وبعد تسليم رسالتنا إلى ايزنهاور بفترة قصيرة ، نشرناها في الصحف . وقبل لنا ان الرئيس ايزنهاور قال للصحافيين عند تسليم مذكرتنا : «هذا لا يصدق ! هل الروس جادون في ما يقولون ؟ كيف يخطر في بالهم ان ننضم اليهم ضد بريطانيا وفرنسا واسرائيل ؟ انه لأمر لا يمكن تصوره ! » . وهكذا حققت مذكرتنا تماماً ما كان مفروضاً أن تحققه اذ اثبت كذب زعم الاميركيين بأنهم يقاتلون في سبيل السلم والعدالة وعدم الاعتداء . قد يقاتلون بالكلام لا بالافعال ، وقد كشفنا حقيقتهم .

وفي ربيع ١٩٥٦ ، عندما كنا في لندن وأجرينا محادثات مع السادة إيدن ولويد ومكميلان وبطلر وغيرهم من رجال الدولة البريطانيين ، قلنا لهم صراحة ان لدينا صواريخ تصل إلى مرمى بعيد . ثم ، عندما هاجمت اسرائيل وبريطانيا وفرنسا مصر قالت الحكومة السوفياتية في رسالة وجهتها إلى رئيس الوزارة البريطانية : «ماذا يكون موقف بريطانيا ذاتها اذا هي هوجمت من دول أقوى منها تمتلك أسلحة هدامة من جميع الأنواع ؟ » وأضافت الرسالة ان تلك الدول تستطيع أن تفعل ذلك بدون أن ترسل اساطيل بحرية وجوية إلى الشواطئ البريطانية ، بل نكتفي باستخدام وسائل أخرى كالصواريخ مثلاً . ويبدو ان هذا البيان من الحكومة السوفياتية كان له تأثيره عليهم . فقد ظنوا ، قبلاً ، على ما يظهر ، اننا «نبلفهم» عندما قلنا علناً ان لدى الاتحاد السوفياتي صواريخ بعيدة المرمى غير أنهم ما لبثوا الآن أن تأكدوا أن لدينا في الحقيقة صواريخ . وكان لذلك أثره في نفوسهم .

وفي ذلك الحين طرت إلى جزيرة بريوني للتشاور مع تيتو حول حوادث المجر . وكان تيتو في تلك الجزيرة لاعتلال صحته . وأذكر انني سألته : «ألا ترى ان من الخطر وجودك هنا بينما هنالك حرب تدور رحاها في مصر ؟ فالطائرة تستطيع

بسهولة ان تلقي قبلة على هذه الجزيرة فلا يبقى شيء منك أو من «الداشا» التي أنت فيها . ولا يستطيع أحد أن يثبت ان ذلك ليس نتيجة حادث طارىء .

« ان الانكليز والفرنسيين يعرفون كل شيء عن صلتك مع عبد الناصر ، وكل شيء ممكن حدوثه ١ »

فقال رانكوفيك (وزير الشؤون الداخلية في يوغوسلافيا) : «نعم انني اكرر القول دائماً للرفيق تيتو بأن يعود إلى بلغراد في أثناء الحرب الدائرة في الشرق الأدنى ، غير انه لا يريد ذلك . وهو يقول انه في حاجة إلى الاستحمام بالمياه المالحة الضرورية لشفائه » . ولكن إذا كان تيتو لم يعترف بأنه في خطر شخصي ، فقد اعترف بخطورة الموقف في الشرق الأدنى . وكان قلقاً على يوغوسلافيا ، وكذلك على مصر وعبد الناصر .

وفي مذكراتنا إلى الحكومات المعتدية الثلاث قلنا : «لقد هاجمتم مصر مع علمكم أنها أضعف منكم كثيراً ، غير أن هنالك بلداناً أخرى قادرة تماماً على المجيء للدفاع عن مصر .» وكنا بهذا نلمح بوضوح إلى أن الاتحاد السوفياتي هو إحدى تلك البلدان وأنه على استعداد للتدخل اذا قضت الضرورة . ثم حذرناها اننا لا نستطيع البقاء على الحياد ، لأنه إذا استمر النزاع في الشرق الأدنى وانتشر ، فانه يهدد مصالحنا الوطنية . وكانت حكومتا انكلترا وفرنسا تعلمان حق العلم ان بيان ايزنهاور في شجب اعتدائهما كان مجرد بادرة ظاهرية . ولكن عندما وجعنا نحن تحذيرنا الحازم إلى المعتدين علموا اننا لم نكن نتلاعب بالرأي العام . ولذلك أخذوا كلامنا على محمل الجد . وقد قيل لي انه عندما تلقى غي موليه مذكرتنا أسرع إلى التلقون وهو لا يزال مرتدياً «البيجاما» وطلب ايدن . ولا أعلم اذا كانت هذه الرواية صحيحة ، ولكن سواء كانت صحيحة أو لم تكن ، وسواء كان مرتدياً البيجاما أو لم يكن ، فان ذلك لا يغير الحقيقة الآتية ، وهي ان الاعتداء توقف بعد ٢٢ ساعة من تسليم مذكرتنا . وكان علينا أن نوجه انذارنا مرة واحدة فقط - خلافاً للأساليب الصينية التي كانت توجه الانذارات الف مرة قبل أن يصبح لها أي مفعول .

وأظن أن باستطاعتي أن أوضح لماذا تراجعت اسرائيل من الأراضي التي استولت عليها بمساعدة فرنسا وانكلترا . فبالإضافة إلى حملتنا للأمم المتحدة على شجب الاعتداء ، فقد أعلننا في الصحف باننا كنا نجنّد متطوعين للخدمة في الجيش المصري

صفة سائقي دبابات وطيارين واخصائيين وما إلى ذلك . وبعبارة أخرى ، قررنا أن نقدم إلى مصر مساعدة جدية تتخذ شكل ارسال رجال قادرين على استخدام الأسلحة العصرية . ووضعنا شروطنا لاسرائيل بعبارات لا غموض فيها أو إبهام على الإطلاق : وهي اما ان تسحب اسرائيل قواتها وتذعن لقرار الامم المتحدة ، وإلا فإنها تصطدم مع قوات مصر المسلحة وبعملها هذا قد تجدد نفسها تواجه المتطوعين الذين جندناهم .

وكانت سياستنا موضع تقدير كبير من قبل الشعب المصري والرئيس عبد الناصر . وكان انتصارنا عظيماً عندما وضعنا نهاية للامزة . وكان ذلك أيضاً انتصاراً عظيماً للقوات التقدمية في العالم ، عزز هية الاتحاد السوفياتي ليس فقط في أوساط الشعب المصري ، ولكن بين جميع الشعوب التي تحررت حديثاً من الاستعمار ولا تزال تواصل نضالها في سبيل الاستقلال .

ومع ان الرئيس عبد الناصر امتدحنا كثيراً ، الا أن اقواله اشتملت على حقائق دقيقة عن سياستنا بعد وقوفنا إلى جانب مصر في ١٩٥٦ . ولم يكن هنالك أية شروط ملحقة بدفاعنا عن مصر ، بل كانت تصرفاتنا قائمة على اسس إنسانية بحتة ، بعيدة عن الارتاق والانتفاع الذاتي . والواقع أننا لم نكن بحاجة إلى ما يمكن الحصول عليه من مصر . فلدينا تقريباً كل ما نتججه مصر ، فضلاً عن الكثير مما لا نتججه : زيتنا وارزنا . وإذا كان هنالك شيء نحن في حاجة اليه ، فاننا نحاول دائماً الحصول عليه من بلدان أخرى بشروط تجارية أفضل كثيراً . ونحن على خلاف البلدان الاستعمارية لاحاجة بنا للالتجاء إلى الحرب أو المكائيد السياسية للحصول على ما نريد . على ان المصريين كانوا ، بعد زوال خطر الاعتداء الاستعماري ، يواجهون صعوبات خطيرة . فقبل تموز ١٩٥٦ ، كان معظم الذين يديرون شؤون قناة السويس والمرشدين الذين يتولون قيادة السفن في عبورها من الفرنسيين . وعندما أمم الرئيس عبد الناصر القناة ، استدعي هؤلاء جميعاً إلى بلادهم . وراود الغرب الأمل بأن تعجز مصر عن إدارة شؤون القناة وحدها ، فتقع في متاعب مالية وسياسية ، فيفشل عبد الناصر ويثبت عدم كفاءة .

وكان أن انجبت الحكومة المصرية لنا طلباً للمساعدة ، فارسلنا حالاً اليها المرشدين والمهندسين بحيث تيسرت الأمور واعيد فتح القناة حالاً بإشراف الادارة المصرية .

وولد هذا الوضع بكامله نزاعاً حاداً بين الدول الكبرى في الشرق الأدنى وكانت الازمة نتيجة أخرى لسياسة الضغط الاعباطية التي كان يمارسها دالاس . لكن سياسات دالاس ارتدت عليه . وقد أسدى دالاس خدمة إلى مصر بطريقة ما .

إذ أظهر لناصر من هم أصدقاؤه الحقيقيون ومن هم أعداؤه . وقد أدرك عبد الناصر هذه الحقيقة . وفي ١٩٥٨ طلب زيارة الاتحاد السوفياتي .

وبعد درس طلبه في القيادة الجماعية أجبنا باننا على استعداد لاستقباله في أي وقت أراد . وتبادلنا نحن وجهات النظر في القيادة حول القضايا التي قد ترغب مصر في بحثها معنا ، وحرصنا على توفّر الاجماع حول موقفنا ، ثم رأيت ان اجتمع بعبد الناصر اجتماع الند للند .

وجاء عبد الناصر بعد أن أمضى فترة استجمام في يوغوسلافيا . وقد ترك أثراً حسناً في نفسي منذ لحظة لقائي به . كان لا يزال شاباً يتسم بالتحفظ والرصانة والذكاء ، وتأتلى الابتسامة دائماً على شفتيه . وأقول بصراحة انني اعجبت به كثيراً ، وقد تم اجتماعنا خارج مدينة نوفوي أويغاريفو . وكان عبد الناصر قد أصطحب سفيره غالب ، وهو رجل لامع ، لذيد المعشر ، جدير باحترامنا ، وكان يتكلم الروسية جيداً ، وقام بدور المترجم لعبد الناصر .

وفجأة اتصل بنا نبأ انقلاب عسكري وقع في بغداد . فلقني النبأ ، بالطبع ، ترحيباً ، لأنه كان يعني نهاية طال انتظارها لأكثر العهود رجعية وإرهاباً في العالم . وقد قتل الديكتاتور الحاكم ، وهو عميل خبيث عتيق للاستعمار الانكليزي . (١) ويمكن أن يسمى هذا الانقلاب ، بحق ، انقلاباً ثورياً . وكان باستطاعتنا أن نرى في الزعيم الجديد قاسم مثلاً للقوات التقدمية في العراق . وكان لدينا ، بالفعل ، بعض المعلومات عن قاسم ، اذ كانت له اتصالات فردية مع الشيوعيين ، حتى انه كان يسمى نفسه شيوعياً . واستطعنا أن نرى من رد الفعل عند عبد الناصر ان نبأ الانقلاب كان مفاجأة تامة له ، وبدا بالطبع متحمساً وقال انه يجب أن يعود إلى الشرق الأدنى حالاً . وكانت مصر وسوريا قد أنشأنا قبل انقلاب العراق بفترة قصيرة الجمهورية العربية المتحدة . وراود عبد الناصر الامل بأن تنضم حكومة العراق الجديدة إلى السياسة التي تنتهجها مصر ، وهي رغبة يمكن فهمها تماماً . ولكن ظهر فيما بعد أن ، لا الأمل الذي راود عبد الناصر ولا المعلومات التي كانت لدينا عن قاسم ، على شيء من الصحة . وظهر ان قاسم كان متقلباً في سياسته .

وأبدى عبد الناصر عزمه على العودة إلى يوغوسلافيا ومنها يسافر مع عائلته بالباخرة إلى الاسكندرية . ولكنني اقترحت عليه ان لا يركب الباخرة لان انقلاب العراق جعل الوضع قابلاً للانفجار في المنطقة كلها ، إذ شرعت الولايات المتحدة

(١) الاشارة هنا هي إلى نوري السعيد

الأميركية وانكلترا وسواهما في تحريك وحداتها العسكرية والاستعداد للحرب . وهكذا يكون من السهل عليها إغراق سفينة في البحر دون أي اثبات . وأضفت قائلاً ان الأفضل له أن يطير من باكو (في ازربيجان السوفياتية) إلى إيران فالعراق فسوريا ، ثم إلى القاهرة .

ففكر عبد الناصر في ذلك ووافق على اقتراحي . وفي ذلك الوقت لم تكن علاقاتنا مع إيران سيئة ، على أنها لم تكن حسنة جداً أيضاً . لذلك لم نكن نستعمل الفضاء الإيراني بدون طلب اذن خاص ، على انني كنت متأكداً من ان الشاه لن يرفض طلبنا ، لاننا في أثناء زيارته للاتحاد السوفياتي شعرنا باهتمام كبير من جانبه في تحسين علاقاته معنا . ونحن ، طبعاً ، عندما طلبنا الاذن بأن يسمح لنا بالطيران فوق إيران لم نقل ان المسافر بالطائرة سوف يكون رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، بل ابتدعنا رواية اخرى . وبعد مرور وقت قصير على سفر عبد الناصر ، تلقينا خبر وصوله بسلام إلى سوريا .

كانت الوفود العسكرية المصرية التي اعتادت أن تزورنا بانتظام يرئسها عامر ، القائد الأعلى للجيش المصري (١) . وينبغي أن أذكر هنا أن هذا الرجل لقي في ما بعد نهاية فاجعة ، فقد انتحر بسبب الهزيمة المشؤومة التي لحقت بالجيش المصري ، حاملاً على عاتقه مسؤولية تلك الهزيمة . قد يكون عليه بعض اللوم ، غير انه من العسير علي أن احكم بذلك . على انني عندما عرفته ، كان يترك في نفسي انطباعاً بأنه رجل شريف ، حسن الصفات ، مخلص لقضية الشعب المصري .

وظننت في ذلك الزمن أن تيتو هو الذي وضع في رؤوس المصريين فكرة استخدام جميع أساليب الضغط الودي معنا لاقناعنا بأن نبني لهم السد الذي يرغبون في بنائه . والذي حملني على هذا الاعتقاد هو انه في كل مرة كنت القاه فيها كان يدافع بقوة عن عبد الناصر ويمتدحه كثيراً جداً . وكان دائماً يقول بوجوب مساعدة مصر . وقد أثبتت الأيام صدق رأيه . ومع مرور الزمن ، عملنا بمشورة تيتو . وكان لنا ، طبعاً ، خلافاتنا ، وكانت لصحافتنا أحياناً ما تنتقد به مصر . ولكن المصريين استطاعوا دائماً أن يعتمدوا علينا في الوقوف إلى جانبهم في الأوقات الحرجة .

لم يقبل المصريون كلمة «لا» ، في ما يتعلق بسد أسوان . وعرف عامر كيف يكون مثابراً ، دون أن يكون مزعجاً . وكان كلما جاء موسكو يطلب موعداً

(١) نائب القائد الأعلى للقوات المصرية ، وقد اعتقل بعد حرب الأيام الستة في آب ١٩٦٧ وانتحر في أيلول ١٩٦٧ .

للاجتماع ببى شخصياً . وكان يجهد فى إقناعى بأن مساعدتنا فى بناء السد العالى تعود علينا بالمنفعة المتبادلة . وكان يصبر على القول بأن السد سيزيد ثلث محصول المصريين الزراعى ، مما يعزز ثروة بلاده ورغبة الآخرين فى استثمار امواهم فيها . وكنت أوافقه على قوله ، ولكننى أذكر له عجزنا عن تقديم رأس المال الضخم المطلوب لبناء السد . وفى آخر الأمر ، طلبت قيادتنا من لجنة التصميم درس الاقتراح المصري بدقة وعناية . وبعد مدة من الزمن قدموا لنا تقريراً عما يمكن أن ينتج عن بناء السد من الفوائد الاقتصادية ، فضلاً عن السياسية . كنا طبعاً ، نمر أن نتاح لنا فرصة تحسين إقتصاديات أصدقائنا ، فنعزز بذلك علاقاتنا معهم . غير أن هذا من الاعتبارات السياسية ، ولكن المهم أن نتأكد من أننا لا نعطي أموالاً على غير طائل ، فإذا أعطينا المصريين أموالاً توجب علينا أن نتأكد من أنهم يستطيعون إعادتها إلينا ، بانتظام ، قطعاً أو أرزاً أو بضائع أخرى (١) .

وهذا لا يعني أننا كنا نساعدهم لاغراض نفعية ، كلا ، على الإطلاق ، كان اهتمامنا سياسياً أكثر منه إقتصادياً ، اذ نكتسب فائدة لا تقدّر بثمن ، وهي ثقة الشعب المصري بنا وامتنانه لصنيعنا ، فضلاً عن ثقة العرب جميعاً ببقية البلدان المفتقرة إلى التطور والنمو ، خصوصاً ، في أفريقيا . أن مساعدتنا للمصريين تظهر أن الاتحاد السوفياتي يمكن الاعتماد عليه في بقية أنحاء العالم لمساعدة الشعوب الفقيرة التي تعمل على التحرر من حكم الاستعمار . وفوق ذلك ، كنا نعلم أن تعزيز قوة البلدان العربية تعني بالتالي إضعاف معسكر أعدائنا . وهكذا وقعنا اتفاقاً مع المصريين على بناء سد اسوان . وفي أثناء المفاوضات ، اقترح المصريون علينا أن نتخذ دور المفاوض المتعهد بتنفيذ المشروع . وكنا قد رفضنا مثل هذا الاجراء في الماضي مع بلدان أخرى ، كما رفضنا الآن مع مصر . وما ذلك إلا لاننا نضطر عندئذ إلى استخدام اليد العاملة المصرية بالاجرة ، مما قد يؤدي إلى علاقة صاحب العمل بالعامل ، بيننا وبين الشعب المصري ، وكان من شأن ذلك أن يجعلهم يبدأون بالامتناع منا كأننا نسعى إلى استغلالهم . ورغبة في تفادي أي نزاع مع السكان المحليين اتبعنا سياسة عدم التعامل على الإطلاق كقاولين أو متعهدين في البلدان التي نقدم لها القروض .

لذلك قلنا للمصريين «اننا نقدم لكم كل المعدات والتصاميم ووسائل الصيانة

(١) قارنوا هذا بملاحظات خروشوف السابقة حيث قال : لم تكن في الحقيقة نحتاج إلى أي شيء نستطيع الحصول عليه من مصر .

والإشراف الفني الذي يحتاجون اليه ، غير ان الاختصاصيين الذين نوفدهم اليكم يأخذون موافقتكم على جميع القضايا ، وانتم تعتنون باستجار العمال بانفسكم » .
وكان توقيع معاهدة سد أسوان نقطة تحول اخرى في علاقاتنا مع المصريين ، اذ أعطتهم صورة صحيحة مفيدة عن نيّاتنا بالنسبة إلى البلدان التي كانت تتخلص من نير الاستعمار .

وبدأ مهندسونا وعلمائنا في درس خرائط السد التي كان قد وضعها وقدمها المهندسون الغربيون . واعتقد رجالنا ان باستطاعتهم أن يجدوا طريقة أكثر تقدماً وأكثر حداً وأكثر كفاءة للسيطرة على موارد النهر لاقامة محطة توليد القوى الكهربائية . واني أعتقد انه لتقدير واقعي للحقائق لا مجرد تفاخر ، ان أقول ان رجالنا الاختصاصيين هم أكثر اقرانهم في العالم خبرة في بناء المحطات المائية لتوليد القوى الكهربائية . وقبل بدء العمل ، اقترح الزعماء المصريون أن يذهب إلى أسوان وفد سوفياتي للتعرف عن كُتب إلى المشروع الذي سيتم به التعاون السوفياتي المصري . وقد اهتم المصريون بدعوتي شخصياً لرئاسة الوفد ، وأدركت لماذا أرادوا أن ينشؤوا علاقات أفضل ، بالذهاب إلى القمة والتحدث معي شخصياً . ولا أنكر أنني كنت أرغب كثيراً في زيارة مصر ، لأرى بام عيني تلك البلاد الاسطورية وثقافتها القديمة ، ولاحضر حفلة وضع الحجر الأساسي لمشروع سد أسوان ، غير انني لم أتمكن من تلبية الدعوة .

ومر بعض الزمن خطا فيه العمل خطوة واسعة في بناء سد أسوان وفي مشاريع اخرى كذلك . فقد بنينا أو بالأحرى مولنا مصنعاً للقولاذ ، وآخر للادوية ، وعدداً من المصانع الاخرى ، وقرب بناء سد أسوان بيننا وبين الشعب المصري والحكومة المصرية . وكان اختصاصيون يعملون جنباً إلى جنب على بعض الالات الميكانيكية مع المهندسين والفلاحين المصريين ، وتولّد قدر عظيم من الثقة والاحترام المتبادلين في ما بيننا .

ومع اقتراب المشروع من مرحلته الأخيرة — اغلاق أفنية النهر وتركيب التوربينات المائية — أصر المصريون على أن احضر تلك المناسبة الظاهرة . وطلب إلي عبد الناصر أن امضي بعض الوقت في مصر . وقال ان ذلك يتيح لنا فرصة لتبادل الاراء في جو هادئ بعيد عن كل المشاغل . ولاغرائني على القبول ، أشار المصريون إلى ان هنالك عدداً قليلاً من الشيوعيين لا يزال في السجن في مصر وانهم يعدون باخلاء سبيلهم احتفاء بزيارتي لمصر .

واتفقنا على قيامي بالرحلة ، فسافرنا في أيار ١٩٦٤ ، يرافقني وزير خارجيتنا أندريه اندريفيتش غروميكو ، ونائب وزير الدفاع غريشكو . وقد اضعنا هذا الاخير

إلى وفدنا لأننا أردناه أن يتولى المفاوضات مع الرفاق العسكريين في الجمهورية العربية . أما غروميكو فقد كانت معرفته الواسعة في الشؤون الخارجية لا غنى لنا عنها .

وحين وصلنا إلى أسوان، شعرنا كأننا دخلنا فرنًا . كنت قد حذرت بأن الحر سيكون مذيئاً في مصر ، وإن السماء تمطر مرة واحدة كل بضع سنين . وإذا كان مثل هذا المناخ مفيداً جداً للقضاء على بعض الأمراض ، إلا أنه كاد يكون غير محتمل بالنسبة لنا . لحسن الحظ كان محل إقامتنا مكيفاً ، ولكن الوقوف تحت الماء البارد كان متعذراً لأن الماء البارد كان بارداً، نوعاً، بحيث أنه لم يكن مغلياً على النار .

وقد لقينا استقبالاً لائقاً يتناسب مع مقامي الرفيع وعلاقتنا الطيبة مع مصر . وعندما أزفت الساعة الظافرة لسد النهر ، التفت الي الرئيس عبد الناصر وقال : « هذا السد سدننا ، ولكن انتم الذين بنيتموه بأموالكم وصممتموه بخبرائكم . ولولا مساعدتكم هذه لما كنا استطعنا أن نياشر العمل فيه . لذلك فاني أطلب اليك ان تنفضل وتشارك معي في تحريك المفتاح الذي يحول ماء النيل عن مجراه القديم . » كان هذا شرفاً عظيماً ، فكيف أرفضه ولا أقبله شاكرًا . وتقدمت مع الرئيس نحرك المفتاح ، فاذا بانفجار هز بدويه الفضاء وتدفقت المياه إلى المجرى الجديد . وكانت هنالك جموع غفيرة احتشدت لمشاهدة هذا الاحتفال . واني لاعجز عن ان اصف كم كان عظيماً أن يرى المرء تلك الوجوه تشرق بنور البشر والفرح ، والعيون تلمع بنظرات النصر عندما بدأت مياه النيل العظيم تحرك التوربينات التي ستعطي مصر حياة جديدة . وقيل لي بعد ذلك ان رجلين سقطا في الأقنية فجرفتهما المياه . وكان هذا الحادث ، دون ريب ، نتيجة أهمال وقصر نظر .

واقامت على شرفنا بعد ظهر ذلك اليوم حفلة استقبال في ناد مخصص لرجالنا الاخصائيين ، فالقيت كلمة فيهم ، ففرحوا للاباء السارة التي فقاتها اليهم عن سير الأمور في بلادنا .

وفي ذلك المساء ، عقد اجتماع كبير خطب فيه الرئيس عبد الناصر ، فدعينا لحضوره . وفيه قال الرئيس عبد الناصر لأول مرة ، على ما أظن ، ان مصر ستبني النظام الاشتراكي . وفي الواقع قال ان الشعب المصري سينشئ مجتمعه على أساس «الاشتراكية العلمية» التي فهمنا انها تعني الماركسية ، وهو لم يذكر ماركس ولا لينين بالاسم لعدد من الأسباب . الاول لانه لا يزال يواجه بعض الصعوبة في التوفيق بين أفكاره وبين الماركسية ، والثاني لانه كان عليه أن يحسب حساباً لموقف بعض خصومه منه . ولكن الاهم من هذا كله ان أنصاره انفسهم لم يكونوا بعد

قد أدركوا تماماً فائدة الماركسية وما الذي تستطيع أن توفره لهم ، لذلك كان اختياره عبارة «الاشتراكية العلمية» ارضاء لتلك العناصر المختلفة ومسايرة لتلك الاعتبارات . ومع ذلك ، فقد كان موقفه هذا ، في الوقت ذاته ، خطوة كبيرة إلى الأمام . وخلاصة القول انني سررت من الكلمة التي القاها .

وكننت قد أعددت كلمة مختصرة قابلها جمهور الحاضرين استقبالاً حسناً . وتكلم بن بيلا (الجزائري) الذي كان له أكثر الذين لقيتهم في مصر أثراً في نفسي ، اذ رأيت فيه رجل ثقافة وعلم ، يدرك حقيقة القضايا التي يتطلبها بناء الاشتراكية . وقد القى كلمة ممتازة . ثم جاء دور عارف (العراقي) فكانت خطبته مليئة بالكلام عن الشعوب العربية . ومصالحها وما إلى ذلك . وبينما كان يلقي كلمته ، كان بن بيلا يوجه نظره الي باستمرار . وكان يتسم ، لعلمه بأنني اشاطره الرأي في عدم الموافقة على ما كان يقال . وعندما انتهى عارف من كلامه ، حاول بن بيلا أن يقنعي بالرد عليه . فقلت له انني تكلمت مرة وليس من اللائق ، بصفتي ضيفاً ، أن احول الاجتماع إلى مناقشة ، كما قد لا يرضي عبد الناصر . على ان عبد الناصر تدخل شخصياً وقال لي : «أود أن أطلب اليك أن تقوم على الفور وترد على عارف ، فانت بذلك لا تفتح جدلاً ولا حاجة بك إلى أن تذكر عارف باسمه . هيا ، اعرّب عن وجهة نظرك في الموضوع ، فقد يكون ذلك مفيداً لعارف ولنا نحن.» فوافقت ووقفت على المنصة وقلت فيما قلته ما يأتي : «كأنني بعارف أراد أن يقول بأن للعرب جميعاً المصالح ذاتها، وبأنهم ليسوا منقسمين إلى طبقات ، وبأن على زعمائهم واجبات نحوهم . وهذا حسن. لقد كان لي نزاع مع عبد الناصر حول هذا الموضوع بالذات قبل بضع سنوات . غير ان عبد الناصر تحطى تلك المرحلة من مراحل تطوره الفكري . والظاهر أن عارف لا يزال بحاجة إلى التغلب على الخطأ الشائع في ادراك نوع المجتمع العربي وفهمه ، وهو ان ننظر إلى الشعب العربي كأنه كيان واحد موحد . فالمجتمع العربي له كيان اجتماعي معقد ، ككل مجتمع آخر ، والعالم العربي ليس كتلة واحدة . فهناك عرب مستبدون وعرب رأسماليون ، وهناك عرب فلاحون وعرب ملاكون ، وهناك عرب من الطبقة العاملة وبورجوازيون . وانه يجدر بنا أن نسأل زعيماً عربياً عن كان يتكلم عندما كان يتحدث عن «الشعب العربي» و«المصالح العربية» ؟ فالفلاح العربي يريد أن يعمل في أرض هي ملكه الخاص ، في حين ان الملاك العربي لا يريد أن يتخلى عن أرضه بل يريد أن يستغل الفلاح . والعامل العربي يريد أن تكون ساعات العمل أقصر ، والأجور أعلى ، في حين أن الرأسمالي صاحب العمل يريد من العامل أن يعمل ساعات أكثر وبأجور أدنى . وعلى هذا ، فعن أي عرب كنت تتحدث ؟

هل عن العرب العمال ام عن العرب الرأسماليين ؟»
وبدا جلياً للجميع انني كنت أرد على عارف وانا قش ، ولكن لم يظهر أن
أحداً قد استاء وكنت راضياً عما قلته . وشعرت انني بذرت بذور الفهم الصحيح
للبنية الطبقية .

على انني قدرت الاسباب التي جعلت عارف يتحدث كما تحدث عن
«الاشتراكية العربية» . فمئذ سنين طويلة ، والشعب العربي يرزح تحت نير
الاستعمار الانكليزي ، ثم اضطر ان يخوض الحرب ضد اسرائيل التي استولت
على بعض أراضيه . فكان معنى الاشتراكية العربية عنده الوحدة العربية ضد عدو
خارجي مشترك . وعلمت ان عارف عندما دافع عن الاشتراكية العربية ، بدل
التنويه بالاشتراكية العلمية ، لم يكن يقصد إلى معارضة عبد الناصر الذي كان يمثل
بالنسبة له مرجعاً مطلق السلطة . واطن أن عارف لم يتعمق في تفكيره ، وان ثمار
الشعور الطبقي لم ينضج في صدره ، نتيجة الدخول في ميدان النضال الطبقي .

وقد سر بن بيلا وعبد الناصر كثيراً بكلمتي ، وخصوصاً بن بيلا ، لأنه كان
أول من شجعني على الكلام . فاقرب مني في مابعد - ولاحظت انه كان الآن
يدعوني باسم الرفيق - وقال : « ايها الرفيق خروشوف ، انك وان كنت على
حق في انتقاده لموقف عارف ، تدرك ان علينا مع ذلك أن نتعامل معه ، وأن
نؤيده إلى النهاية . فعارف يسير معنا في الطريق ذاتها ولن ينحرف أبداً . وهو
في الوقت الحاضر يعمل في سبيل الوحدة العربية ، كما يفهمها . ولكن سوف يأتي
يوم يدرك فيه هذا الذي قلته في كلمتك. »

وبعد ذلك أبلغني رجالنا الذين كانوا يفهمون اللغة العربية ان كلمتي استقبلت
استقبالاً حسناً من العرب الذين سمعوها . وقال لي أحد الاخصائيين من رجالنا ان
سائق سيارته العربي أخبره ان كلمتي فتحت العيون على معنى جديد للوحدة العربية .
وقال ذلك السائق : « انني لم ادرك ذلك من قبل ، اما الآن فانني أدركت ان لنا ،
نحن العرب مصالح طبقية مختلفة في ما بيننا ! »

كانت إقامتي في مصر ممتعة جداً . فقد زرنا دلتا النيل ، وانتقلنا بالقطار
على طريق قناة السويس ، وأمضينا يومين أو ثلاثة أيام على ظهر سفينة في البحر
الأحمر . وانطلق بعض الرفاق إلى السباحة في البحر ، أما أنا فقد تجاوزت تلك
الهاوية . وقد ذكرتني مناظر شاطئ البحر الأحمر بما لدينا من مناظر شبيهة على
شاطيء بحر قزوين . ودارت بيننا أحاديث عديدة غير رسمية أثناء الرحلة بالسفينة
ولكنها مفيدة جداً . وكان التنفس أسهل كثيراً هنا منه في الصحراء حول اسوان .

وزرنا الاقصر عاصمة مملكة قدماء المصريين ، بما فيها من الآثار والانصاب التاريخية الثمينة التي كان علينا ان نقذها من الغرق في الفيضان الذي نجم عن سد اسوان(١). وزرنا ايضاً المصانع التي اقيمت بمساعدتنا وبعضها كان في طور العمل. واني لا اذكر طوافي في مصنع الادوية الطبية الذي كنا قد قدمنا الاعتمادات لتمويله . فمن قبل كان المصريون ، وهم شعب فقير ، يدفعون مبالغ باهظة ثمناً للادوية المستوردة من انكلترا . أما الآن فصار باستطاعتهم أن ينتجوها بأسعار أرخص كثيراً .

وكنت أعرف من الجغرافيا ما يكفي لأن أدرك ان الأرض على جانبي وادي النيل هي صحراء قاحلة غير اني مع ذلك دهشت عندما حلقت بنا الطائرة فوق المنطقة فرأيت من الجو ان الاطار الأخضر الذي معناه الحياة قد اتصل بفضاء الصحراء الخالي . اني لا استطيع أن انافس الذين يملكون المقدرة على الوصف المزوق ، غير انني مع ذلك أود أن اتناول ما تركته مصر من الانطباعات في نفسي . فبالرغم من المناخ الذي يصعب التعود عليه فان مصر بلاد غنية جميلة . فعندما كنت في صغيراً ، درست الكتاب المقدس . وكان الكاهن يريتنا الصور ويروي لنا قصصاً عن الفردوس . وقد ذكرني وادي النيل كثيراً بما كنت اتخيله عنه في عهد طفولتي .

ومن الأمور المثيرة للاهتمام حول مضيفينا المصريين أنهم يمتنعون عن تناول المشروبات الروحية . كنت أعرف من قبل ان الاسلام يحرم على المسلمين شرب الخمر . على ان المسلمين لا يتقيدون جميعاً بتعاليم دينهم . ومع ذلك فاني وجدت ان مضيفينا لا يقدمون في المآدب التي اقيمت في مصر سوى عصير الفاكهة ، وكان هذا العصير لذيذاً مطفئاً للعطش . وقد دليني اختياري هذا ان عصير الفاكهة المصرية أفضل وسيلة للراحة ، والانتعاش في جو من الحر المضيئي . واني أود أن اعبر عن امتناني الشخصي للحكمة التي أبداها النبي العربي ، عندما أوصى المسلمين ان لا يشربوا الخمر .

وترك في نفسي أبلغ أثر المقام الرفيع الذي يتمتع به عبد الناصر ، كزعيم لدى الشعب المصري . فحيثما اتجهنا كان يقابل بالهتافات الحماسية : ناصر ! ناصر ! ناصر . على اني شعرت ببعض القلق على صحته . ففي أثناء احدى رحلاتنا خارج الاسكندرية ، على ما اظن ، شعر فجأة بالاغماء فاوقف السيارة . وبدأت عيناه

(١) كان انقاذ الآثار والتماثيل المصرية القديمة من الغرق إلى الأبد تحت مياه السد عملاً دولياً على نطاق واسع جداً .

تدوران في حجرهما. واستلقي على المقعد معتزلاً، ثم نقل إلى الاسكندرية . غير انه اصر علينا لمواصلة رحلتنا. وكان عامر يكاد لا يفارقنا . وكان هو وعبد الناصر صديقين ودودين ، يسكنان منزلين متجاورين . وكانت عائلتهما تعيشان كأنهما شبه عائلة واحدة . وسرني ان أرى مثل هذين الصديقين المتلازمين ، وهما من الرجال الاذكياء أصحاب الرأي السديد ، يعملان معاً لرفع مصر من حالتها البدائية البائسة إلى حالة تصبح فيها مجتمعاً تقدماً ذا اقتصاد مزدهر .

وعندما أخذني ناصر وعامر في رحلة إلى المناطق الريفية رأيت الفلاحين يحاولون بكل قواهم أن يستغلوا الأرض التي لهم : أفضل استغلال ، وان الحكومة تحاول أن توفر الاحوال الالائقة . غير ان نظرتي العامة كانت ان الاصلاح الزراعي الذي كان يجري العمل على تنفيذه ، لم يوضع على اسس تقدمية ثورية . على اني ، طبعاً ، تركت ملاحظاتي هذه في صدري ، فبصفتي ضعيفاً ، كان ينبغي أن انظر واسمع ، لا أن ابدى اية مشورة لم تطلب مني . ومع ذلك ، فلم يكن بوسعي الا أن اقارن بين المتاعب التي يعانيها المصريون وبين النجاح الزراعي العظيم الذي كنا نصادفه ، مثلاً ، في جمهوريات اوزبكستان وتركمانستان وتاذركستان من آسيا الوسطى . وبصفتي من أوائل العاملين في الاصلاح الزراعي ، شعرت برغبة ملحّة في أن اخبر عبد الناصر بما كان يحول في خاطري .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، كنت مع عبد الناصر نتناول طعام العشاء وحدنا في فيلته بالاسكندرية ، فاثرت الموضوع بمتهى الحذر . ونسيت ما إذا كنت قد دعوته الرفيق عبد الناصر أو حضرة الرئيس ، غير اني أذكر خلاصة ما قلته وهو : «لدي بعض الافكار التي أود أن اتبادل الرأي فيها ، رغم تردددي.»

— هيا ، قل لي ما يحول في خاطرك.
— افكر في الأراضي التي ستستغلونها للزراعة ، بعد الانتهاء من السد .
— من أية ناحية؟ اننا نصلح الأرض بتقسيمها وتوزيعها على أفراد الشعب ، فهناك الآن نقص في الاراضي المخصصة للفلاحين.

لم يكن هذا جديداً علي ، فرأيت أن أذهب إلى أبعد من ذلك قليلاً ، فقلت : «نعم ، انكم تقومون بتنفيذ مشروع كبير جداً ، وأنا أعلم أنه سيعود عليكم بفوائد عظيمة . غير اني أرجو أن تسمح لي بأن ابدى بعض الملاحظات ، على ان لا تستاء . فانا أدرك انه لا يلقى بي ، بصفتي ضعيفك ، أن استغل تسامحك ولطفك هكذا ، وانما هي رأيي ، وانت غير ملزم بها .» فقال : «أرجوك ، قل ما تشاء . فكلّي أذان صاغية .»

فقلت : «لو كنت مكانك لما قسمت الاراضي ووزعتها قطعاً على الفلاحين ، بل أنشأت ، بدلاً من ذلك مزارع حكومية - مما نسميه نحن «مشاريع الدولة السوفياتية الزراعية» . وقد اكتسبنا من هذه الطريقة خبرة واسعة في جمهوريات آسيا الوسطى ، حيث المناخ والتربة شبيهة بمناخ وتربة مصر . اننا نعمل على تنفيذ مشاريع كبيرة لتحسين الاراضي في السهول القاحلة . وقد قررنا ان لا ننشئ مزارع جماعية هناك ، بل بالاحرى ان نؤسس متحدات شبيهة بالمدن ، فيها كل شيء ، ابتداء بالمدارس وانتهاء بدكاكين الحلاقة . وهذا ، طبعاً ، يتطلب نفقات باهظة . غير ان الاختبار دلنا على ان ثلاثة أو أربعة مواسم جيدة تكفي لتسديد الاموال التي نستثمرها في المزرعة الحكومية . واني أضمن ان نظام المزارع الحكومية ، يجلب لكم أموالاً وفيرة جداً . وآمل ان لا تستاء اذا أنا قلت لك شيئاً آخر . عندما كنت في المدرسة ، قبل الثورة ، كنا نشاهد صوراً لطرق الري التي كانت مستعملة في مصر في زمان رمسيس الأول . واني استطيع ان أقول على أساس ما رأيته أن مصر تستعمل الطرق ذاتها اليوم ، في عهد عبد الناصر الأول ، مع ان الوف السنين مرت على ذلك . كيف نصلح هذا ؟ الجواب هو ان رجلاً يعمل في قطعة صغيرة لا يمكن ان تتوفر له امكانيات إقامة مضخة على بشره ، كما انه لا يستطيع أن يستعمل آلة لزراعة البذور أو لاعداد القطن . فآلات كبيرة كهذه ، حتى لو امكنه شراؤها ، لا يمكن أن تدور على رقعة صغيرة من الأرض . اني ادرك انك إذا قسمت الأرض ، فان الفلاحين يقبلون ذلك ويوكلونك من اجل تقديمتك وسخائك . ويمكنك مع ذلك ان تتمكن من ادخال الاساليب الفنية في اصلاحاتك الزراعية . صدقي إذا قلت انك إذا وزعت الأرض قطعاً صغيرة على الفلاحين ، فان الفلاح المصري سوف يبقى تماماً كما هو الآن ، مستعبداً لارضه كما كان لقرون كثيرة خلت .»

وانصت عبد الناصر إلى ما قلته باهتمام وانتباه ، ثم قال : «اني اخشى ان الذي تقترحه لا يمكن تطبيقه هنا . فليس لدينا الاخصائيون والمشفرون المتوجب وجودهم لانشاء نظام المزارع الحكومية . ثم ان هنالك مشكلة الفساد والرشوة ، فاننا بالاختصار لن نتمكن ان نقيم رقابة كافية لمنع الاختلاس والسوق السوداء ، مما يؤدي إلى ان المزارع الحكومية تتعرض لخسائر فادحة.»

فقلت له : «حسناً ، من شأنك أن تقرر ما تراه مناسباً ، لقد أبديت رأيي في الامر . وأنت تعرف شعبك أكثر من معرفتي له ، وتعرف مشاكلك وامكانياتك الاقتصادية أفضل مما اعرفها أنا . أما بشأن مسألة الفساد ، فباستطاعتي ان اخبرك اننا اضطررنا لمواجهةنا نحن أيضاً ، ولكننا تمكنا من القضاء عليها . وأما بشأن

الاحصائيين ، فانك تستطيع ان تختارهم من بين ضباط جيشك وتبعث بهم اليها ، إلى الاتحاد السوفياتي ، لمدة سنة واحدة للتدرب في مزارعنا الحكومية ، بينما نحن نتمم العمل في سد اسوان . وبهذه الطريقة تكون على استعداد لاصلاح الأرض إلى أقصى إمكاناتها ، بدون إضاعة وقت .»

ثم انني ، في اثناء الحديث عن مسألة الرأي ، اخبرته عن مزرعة فرنسية زرتها مرة بدعوة من ديفول ، على مقربة من حدود اسبانيا ، فدهشت مما رأيته فيها من خصب ومن الطريقة المتبعة في ريها . كانت المياه تسيل في أفنية من الاسمنت المسلح انحدرت في شكل زوايا تسيطر على مستوى المياه . وكان هذا كله يدار بالآلات الميكانيكية . ومن شدة اعجابي بهذه الطريقة أرسلت بعثة من مهندسينا إلى فرنسا لدرسها (١) . ثم قلت لعبد الناصر ان طريقة الري الفرنسية قد تكون فعالة جداً في مصر ، ومن السهل العمل بها ، وكان قد بدأ ينصت باهتمام أكثر ويلقي بعض الاسئلة .

وبعد حين ، كنا منطلقين في السيارة من القصر الذي كنت مقيماً فيه إلى فيلا عبد الناصر ، واذا به يلتفت نحوي ويبتسم قائلاً : «اتعلم أيها الرفيق خروشوف ؟ كنت افكر في حديثك ذلك اليوم ، وقد اخبرت عامر به . كان ما اقترحته مغريباً جداً ، وأرى الآن ان من المفيد جداً لنا أن نطالبك بتنفيذه ، وقد يكون من ورائه فائدة لكم أيضاً .»

فاجبته قائلاً : «اذا كنت ترى ان ما اقترحته قد يكون خطة تقديمية يحسن بكم اتباعها ، فعندئذ تكون رحلتي الى بلادكم قد حققت أكثر مما كنت اتوقعه وأحلم به .» ثم قلت له ان على القيادة المصرية ان تجمع الفلاحين جميعاً ، ممن يحاولون استغلال مزارعهم الصغيرة بمعداتهم البدائية ، في وحدات إدارية كبيرة . وبعبارة أخرى تحويلهم إلى جماعات زراعية . وأضفت الى قولي انني اقدر تماماً مبلغ صعوبة هذا العمل ، اذ أننا عانينا مثل هذه الصعوبة عندما تبنى الاتحاد السوفياتي النظام الجماعي .

ثم انني بعد ذلك الحديث بزمن ، قرأت في الصحف ان عبد الناصر تبنى فكرتي تلك . وجاء فعلاً إلى الاتحاد السوفياتي وفد مصري لدرس طريقة المزارع

(١) هنا يظهر خروشوف أروع وألطف جانب من مزاياه ، مما لا يتوفر كثيراً في هذا الرد .

الحكومية . وسرني ذلك كثيراً ، خصوصاً لأن مشورتي لم يزل معمولاً بها حتى بعد أن تقاعدت من المنصب الذي كنت اتقلده ، اذ دل ذلك على ان عبد الناصر لم يكن فقط يراعي مركزي عندما أعرب عن اهتمامه بما عرضته عليه ، بل انه كان مقتنعاً بصوابه .

وبالاجمال ، أظن ان سياستنا نحو مصر كانت سياسة سليمة لا غبار عليها . وقد عادت علينا فعلاً بكل فائدة . واني لا أزال على يقين من أن آرائي كانت صحيحة على الرغم من تدمير اولئك الحقييرين وهرائهم - اولئك الادياء ، الضيقي العقول ، القذرين ، الذين أثاروا تلك الرائحة الكريهة وحاولوا أن يسمموا مياه علاقاتنا مع مصر . (١)

ان مصر الآن في ضيق . واني أذكر حديثي الأخير مع الرئيس عبد الناصر في أثناء زيارتي لمصر في ١٩٦٤ . فقد قال لي انه يواجه حالة متعبة في داخل بلاده وفي داخل العالم العربي ، وقال ان الجراح التي اصيبت بها الشعوب العربية من جراء قيام دولة اسرائيل لن تندمل أبداً ، لأن العرب طردوا من أراضيهم ، وان هؤلاء العرب يجدون انفسهم الآن في متاعب قاسية اقتصادياً وسياسياً .

وكنت قبل تقاعدي قد القيت خطاباً من وقت إلى وقت ضد سياسة اسرائيل العدوانية ، واني ، بكل تأكيد ، مع عبد الناصر في موقفه .

وليس عندي ، أدنى شك ، في أن اسرائيل هي التي بدأت الحرب ضد مصر في عام ١٩٦٧ . واني اعتقد انها ليست سوى لعبة دعائية عندما تقول اسرائيل انها مستعدة للدخول في مفاوضات مباشرة مع مصر للتوصل عن طريقة المفاوضة إلى تسوية للنزاع . اذ الواقع هو ان اسرائيل اتخذت ، منذ الحرب ، خطة عدوانية أكثر من أي وقت سابق ، وانها تترقب الفرصة لتستخدم القوة الحربية لتحطم قوات مصر المسلحة وترغم مصر على توقيع معاهدة الصلح على الشروط التي تريدها .

غير ان هنالك مسألتين لا استطيع فهمهما وقعنا قبل هجوم اسرائيل على مصر . اولهما ان ليس واضحاً على الاطلاق لماذا طلبت مصر ان يسحب يوثان قوات الامم المتحدة من الحدود بين مصر واسرائيل ، فلكل القوات كانت رادعة ضد الاسرائيليين كما انها كانت تساعد على تقادي الاصطدام على الحدود . واني

(١) هذا الانفجار الفجائي اللاذع يشير إلى بعض الخصومات التي وقعت في داخل الكرملين حول أمور لا نعرف شيئاً منها .

أذكر اننا كنا قد اقررنا إلى جانب قرار ارسال قوة من الامم المتحدة للمحافظة على السلام في الشرق الأدنى ومنع نشوب الحرب بين الدولتين المتعاديتين ، مصر واسرائيل . وانه لما يتعذر علي ادراكه لماذا طلبت مصر سحب تلك القوات . كما انني لا استطيع ان أدرك أي هدف كانت مصر تريد بلوغه ، عندما أقفلت قناة السويس في وجه اسرائيل وهي الطريق المائية الرئيسية التي كانت تسلكها اسرائيل بين البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر . لقد استغلت اسرائيل هذه التصرفات التي قامت بها مصر ، فاستولى المعتدون الاسرائيليون على أراض مصرية . ولا تزال اسرائيل تستغل ذلك لتعقيد الامور أكثر فأكثر على مصر .

وهناك شيء آخر : إذا كانت مصر مستعدة للحرب مع إسرائيل ، فلماذا تمكنت اسرائيل من سحق الجيش المصري في ستة أيام ؟

ان جميع هذه المسائل تستدعي حيرتي . وليس لدي أي تفسير لها ، لانني كنت قد تقاعدت عندما وقعت هذه الحوادث . وكل ما أعرفه هو اننا ، في المدة التي عشنا فيها بشؤون الشرق الأدنى ، تمسنا على سياسة لينينية صحيحة في روحها وهكذا جنت سياستنا ، فعلاً ، ثمارها ، لصالح شعبنا السوفياتي ولشعوب بقية بلدان العالم التي تؤمن بالتعايش السلمي وبحق تقرير المصير .

أزمة برلين

هنا وجهة نظر من موسكو مألوفة جداً في النزاع على ألمانيا. ومن المفيد ، بصورة خاصة ، وصف المواجهة الملحة بين القوات السوفياتية والأميركية حين بني جدار برلين الذي يشير إليه خروشوف. ويمطي خروشوف هنا صورة مصفرة عن توالي الأحداث في أزمتي برلين : الأولى في تشرين الثاني ١٩٥٨ حين أعطت موسكو الدول الغربية ستة أشهر للجلاء عن برلين ، والثانية في ١٩٦١ على اثر اجتماع فيينا بين خروشوف والرئيس كينيدي اذ خرج خروشوف بفكرة خاطئة وهي ان بإمكانه الاستناد على الرئيس الجديد .

بعد سحق هتلر اختارت كل من ألمانيا الغربية والشرقية نظاماً سياسياً مختلفاً . فالألمانيا الشرقية اختارت الاشتراكية ، بينما انجهدت ألمانيا الغربية نحو الرأسمالية (١) حين أخذنا نواجه مشكلة برلين الغربية بعد موت ستالين ، أدركنا ان الاتفاقية بصدد حصار برلين الغربية (١٩٤٨-١٩٤٩) لم تكن عادلة. (٢) فقد استغل الغرب التوتر الذي أوجده الحصار ليفرض على ألمانيا الشرقية شروطاً مجحفة ومخوفة عن اتفاقية بوتسدام ، وكانت الحالة الدولية في أوروبا كلها غير ثابتة .

-
- (١) لم يكن لألمانيا الشرقية خيار . فقد فصلتها عن الغرب القوات السوفياتية وحكمها شيوعيون مدربون في موسكو (أوتوغروتويل ويلهلم بك ووالتر أولبرخت) وقد اخمدت اللبابات السوفياتية بقوة انتفاضة شعبية في ألمانيا الشرقية بعد موت ستالين بثلاثة أشهر .
- (٢) ان الحصار الجوي الذي فكّه الجسر الجوي الحليف ، فرضه الروس لشل غرب برلين بمنع الوصول إليها . وان التوترات المشار إليها هنا سببها ستالين .

ان المانيا تشكل نوعاً من الباروميتر ، فادنى تبدل في الجو العالمي السياسي يسجل اضطراباً في ميزان قوى الجانبيين المتواجهين .

كنا نرغب في تصفية التوتر الذي أخذ بالتفاقم بصورة خطيرة حول برلين الغربية . وكنا على يقين من ان الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها تحقيق ذلك انما هي في عقد معاهدة صلح مع الغرب . وهنا نشأت مشكلة أخرى : ما هي الاسس التي بالامكان اعتمادها للتوصل إلى اتفاق مع الدول الغربية ؟ وكان قد بات متأخراً البحث في اتفاقية توّول إلى توحيد المانيا، نظراً لأن لا المانيا الشرقية ولا المانيا الغربية كانت ترغب في قبول النظام الاجتماعي السياسي الذي تعتمد الدولة الأخرى . وهذا أمر فهمناه وقلناه ، الا أننا رغبتنا بصدق في التوصل إلى شروط عملية أكثر تعود بالنفع المتبادل ، والاستقرار وتعزيز قضية السلام ، وصيانة حقوق جميع الأطراف المعنية . وكان من الواضح ان الحالة الراهنة كانت عصبية ، كما ان كلا من الجانبيين كان حريصاً على تجنب المجابهة العسكرية .

من هنا رأينا أن علينا السعي لوضع معاهدة سلام تثبت الأوضاع الالمانية كما عيّنتها اتفاقية بوتسدام . وكانت اتفاقية بوتسدام تعتبر حلاً مؤقتاً بانتظار توصل الحلفاء إلى معاهدة سلام مع المانيا . كان اقتراحنا يرمي إلى اضافة الصفة المشروعة والدائمة على حالة «ديفاكتو» مؤقتة . وكان أقصى ما نطلبه من الطرف الآخر ان يعترف بوجود نظامين اجتماعيين سياسيين مختلفين في المانيا : الاشتراكية في المانيا الشرقية والرأسمالية في المانيا الغربية . وبموجب اقتراحنا يكون لبرلين الغربية وضع خاص كمدينة حرة (١) . وكان من الجلي ان بعض بنود اتفاقية بوتسدام قد مر عليه الزمن ، فكان يقتضي على الأقل ادخال تعديلات على المعاهدة تتعلق باستخدام أرض المانيا الشرقية للوصول إلى برلين الغربية . وكان على الغرب ، حصراً لمصلحة للتمسك بالقانون الدولي ، التوصل إلى تفاهم معنا حول هذا الموضوع . أما واقع الحال فكان ان الغرب أخذ بطرح تفسيره الخاص المتحيز لمسألة حق المانيا الشرقية في السيطرة على حدودها ، ولم تستشرف اتفاقية بوتسدام امكان قيام هذه المشكلة - وهو نقص في الاتفاقية كان الغرب يحاول الافادة منه لاغراضه الخاصة (٢) . وهذا

(١) هذا يشير الى ازمة ١٩٥٨ . كان الروس يطلبون ما هو أبعد من الاعتراف الرسمي بالتقسيمات في المانيا . كانوا يطلبون جلاء القوات الحليفة عن برلين الغربية .

(٢) ان اتفاقية بوتسدام لم تدعو الى التقسيم القسري والدائم لالمانيا .

كان سبباً آخر للمطالبة بمعاهدة سلم دائم . وهكذا كانت الحقوق المشروعة للجمهورية الالمانية الديمقراطية في خطر .

ورفضت الدول الغربية اقتراحنا القاضي بالاعتراف بجمهوريتين المائيتين . فواجهنا هذا الرفض بتحذيرها اننا قد نجد أنفسنا مضطرين للمبادرة منفردين إلى عقد معاهدة صلح . واقترحنا موعداً لعقد اجتماع بين البلدان التي ترغب في توقيع تلك المعاهدة ، وحذرنا من انه اذا رفضت بعض الدول التوقيع ، فان البقية منّا ستمضي وتوقع المعاهدة مع الجمهورية الالمانية الديمقراطية . وسنجد أنفسنا ملزمين عندها بالتصرف وفق بنود الاتفاقية الجديدة بصدد عدد من القضايا ، بما فيها قضية الوصول إلى برلين الغربية .

وفي الوقت نفسه كان والتر اولبرخت وسواه من رفاقنا في الجمهورية الالمانية الديمقراطية يجابهون مشكلات خطيرة مصدرها الحالة الغامضة في برلين الغربية . فقد كانت برلين مدينة مفتوحة وتطرح على أساس هذا الوضع مشكلتين : أولاً ، مشكلة عبور الناس من برلين الشرقية إلى برلين الغربية . وهذا جعل الجمهورية الالمانية الديمقراطية تواجه عدواً متفوقاً عليها اقتصادياً ، وبالتالي ذا جاذبية كبرى لمواطني الجمهورية الديمقراطية . وكانت المانيا الغربية كلها موضع جاذبية للالمان الشرقيين ، لأن الطرفين يتكلمان اللغة نفسها . وكان الالمان في الشرق من ذوي المؤهلات الشخصية ، لا يواجه أية صعوبات في الحصول على عمل اذا ما انتقل إلى المانيا الغربية . وأخذت المانيا الشرقية على الأثر تعاني من نقص خطير في اليد العاملة - فضلاً عن المهارة - بسبب الهجرة .

ولو ان الامور استمرت على هذا المنوال ، لصعب التكهن بالتائج . وقد صرفت قسماً غير قليل من الوقت وانا أبحث في ما عسانا نفعل ، ما هي الحوافز التي يحسن ادخالها في المانيا الديمقراطية لمواجهة القوة الكامنة وراء نزوح شباب المانيا الشرقية إلى المانيا الغربية . هاكم مشكلة خطيرة - مشكلة الحوافز . كيف نقيم أوضاعاً في المانيا الديمقراطية تمكن الدولة من ايقاف التزيف المستمر لقوتها العاملة (١) أما المشكلة الثانية فكانت سهولة وصول البرلنيين الغربيين إلى برلين الشرقية . فقد كان بإمكان المقيمين في برلين الغربية الانتقال بحرية إلى برلين الشرقية ، حيث

(١) انتقل خروشوف هنا الى نشوء ازمة ١٩٦١ . وفي تموز كان سيل النازحين من المانيا الشرقية الى المانيا الغربية قد أخذ يتعاظم (عشرة الاف كل اسبوع) وترك ذلك آثاره الرهيبة في اقتصاد المانيا الشرقية .

يستفيدون من جميع الخدمات الاجتماعية ، كدكاكين الحلاقة وغيرها . ونظراً لانخفاض الاسعار في برلين الشرقية ، كان سكان برلين الغربية يتعاون منها جميع المتوجات الرائجة ، كاللحم والزيوت الحيوانية وما إلى ذلك من أنواع الطعام . وكانت المانيا الديمقراطية تفقد بالنتيجة ملايين الماركات .

من المؤكد ان معاهدة السلام لا تستطيع أن تحل جميع هذه المشاكل لأن وضع برلين كدينة حرة كان مضموناً في المعاهدة وكانت الابواب ستبقى مشرعة . وقد بحث الحالة مع الرفيق أولبرخت وقادة بقية الاحزاب المترمة بميثاق فرصوفيا ، وشددت على ان أولبرخت حمل على منكبيه حملاً ثقيلاً جداً ، وان جميع البلدان لها قوانينها ، وحقوقها الاقليمية الخاصة بها ، وحريتها في تقرير السياسة المحلية والخارجية . غير ان الجمهورية الالمانية الديمقراطية لم يكن لها ذلك كله ، مما عزز المشكلات الاقتصادية التي كانت تعاني منها المانيا الديمقراطية (١). وأخبرني الرفيق أولبرخت بنفسه ان اقتصاد المانيا الديمقراطية أخذ فوراً بالتحسن بعد السيطرة على الحدود ، وتدنى الطلب على متوجات الطعام في غربي برلين بعد أن حيل بين سكان برلين الغربية والتسويق هنا . وهذا يعني أن الكميات المحدودة من متوجات الاستهلاك باتت متوفرة لمواطني برلين الشرقية .

وفضلاً عن ذلك فقد كان للسيطرة على الحدود في برلين تأثير إيجابي على السكان . فقد قوتهم هذه السيطرة وذكرتهم بأن مهمة بناء الاشتراكية كان تحدياً ذا أهمية ثابتة وخطيرة . وقد سرّ الالمان الشرقيون ، إذ رأوا حكومتهم قد استعادت السيطرة على حدودها ، مما حصن دولتهم ووطد أركانها .

ومما لا ريب فيه ان بعض الصعوبات وقفت في وجوها ، فقد وجد البرلينيون الشرقيون ، الذين كانوا يعملون في برلين الغربية أنفسهم فجأة بلا عمل . على انه لم تنشأ مشكلة بطالة لأن الذين فقدوا اعمالهم في الغرب كانوا من البنائين الذين كانت المانيا الديمقراطية بحاجة اليهم .

وجرت محاولات غير مشروعة للعبور إلى الغرب نتجت عنها بعض الحوادث على الحدود ، مما اجبر حرس الحدود على استخدام الوسائل الموضوعة تحت تصرفهم للحيلولة دون خرق الحدود (٢) . وقد استغل الغرب هذه الحوادث وضخمها حتى

(١) ان عبارة «السيطرة على الحدود» تشير الى جدار برلين الذي انشئ في ١٣ آب ١٩٦١ .

(٢) ان حرس الحدود في معظم البلدان عادة يستخدم للحيلولة دون تررب العناصر الغربية الى الداخل لا لحصر المواطنين داخل حدود البلاد .

تخطت حجمها الطبيعي . انني أعرف أن ثمة نقاداً لاسيما في المجتمعات البورجوازية يزعمون باننا قد تجاهلنا ارادة المواطنين الالمان الشرقيين عندما عززنا سيادة الجمهورية الديمقراطية الالمانية بقفل حدودها ، كما أعرف أن ثمة من يزعم ان الالمان الشرقيين يؤسرون في اللجنة وان أبواب الفردوس الاشتراكي تحرسها قوات مسلحة . انني أعني وجود خلل ، ولكنه خلل ضروري ومؤقت . كان مبتغانا دوماً أن نوجد في المانيا الديمقراطية الظروف التي يرغب فيها المواطنون . ولو ان الجمهورية الديمقراطية الالمانية بلورت بصورة كاملة الامكانيات المعنوية المادية التي سنسخر يوماً لديكتاتورية البروليتاريا لكان المرور قد تحرر من كل قيد بين شرقي برلين وغربيها .

ولكن من سوء الحظ ان على الجمهورية الديمقراطية الالمانية - وهي ليست وحدها في ذلك - أن تسعى للوصول إلى مستوى من النمو الخلقي والمادي يمكنها من التنافس مع الغرب . ان السبب هو بكل بساطة ان المانيا الغربية تملك امكانيات مادية أفضل وبالتالي لديها سلع مادية أكثر من الجمهورية الديمقراطية . ولا ريب ان بعض الشيوعيين المتحذلقين سيحتجون «كلا ، انك تقلل من انجازاتنا» وهكذا دواليك . ولكن دعونا ننظر إلى الأمر من زاوية واقعية. لو انه كان بتصرفنا امكانيات مادية أفضل وقدرة على سد حاجاتنا المادية ، لما كان من داع لشعبنا الا أن يرضى باحواله فلا يحاول بعض ابنائه العبور إلى الغرب بكثرة هددت كيان دولة مثل الجمهورية الالمانية الديمقراطية. (١)

وكان حلمي ان انشئ مثل هذه الظروف في المانيا حتى تصبح الجمهورية الديمقراطية واجهة الانجازات المعنوية والسياسية والمادية فتجذب أنظار العالم الغربي ونحوز على تقديره . ومن الدوافع التي حملتنا على اقتناع حلفائنا السابقين بتوقيع معاهدة السلام ، وبالتالي إعادة العلاقات بين دولنا إلى وضعها الطبيعي ، افساح المجال أمام التبادل التجاري والثقافي والسياحي .

غير اننا حتى لو استطعنا ايجاد الظروف التي يريدها مواطنو الجمهورية الالمانية الديمقراطية ، فان علينا الدفاع عن الحدود . وكنا سنفسح من الحرية القدر الذي تتيحه الظروف المادية . ولكن من الطبيعي انه في ظل ديكتاتورية البروليتاريا لا يمكن أن يتوفر شيء كالحرية المطلقة . أما البلدان التي تتبجح بحرياتها ، فلو درسنا أوضاع

(١) ان صراحة هذه الاعترافات تسجل لمصلحة خروشوف وهي لهجة جديدة في تصريحات الساسة السوفيات .

مجتمعاتها بدقة لوجدنا انه ينتفي منها هي كذلك وجود الحرية المطلقة . وعلى المرء حتى يتحسّس الروادع الخلقية أو القهر المعنوي أو العبودية المعنوية ، ان يملك مفهوماً نامياً ومصقولاً لكل معاني الحرية . ان أكثر الناس ما زالوا يقيسون مدى حرّيتهم أو فقدانهم للحرية على أساس مقدار اللحم أو البطاطا أو نوعية الاحذية التي يستطيعون الحصول عليها لقاء روبل واحد .

عندما أقمنا السيطرة على حدود الجمهورية الألمانية الديمقراطية اعتمدنا اعتماداً كثيفاً على قواتنا المسلحة المتمركزة في ألمانيا بعد الحرب . ولكننا حتى ونحن نتخذ التدابير لحماية مصالح رفاقنا الألمان ، لم نسحب اقتراحنا الذي كان من شأنه اصفاء المشروعية على الحدود القائمة وضمّان حياد مدينة برلين الغربية وحققها في تقرير المصير كمدينة حرة . غير ان الغرب كرّر رفضه لمقترحاتنا وأخذ الآن يطالب بإزالة الحدود التي أقمناها . وهددت الدول الغربية باللجوء إلى القوة . وقالوا بأنهم سيستخدمون الجرافات لهدم ولرفع الحواجز التي اقيمت . وقالوا أيضاً انه إذا اقتضت الضرورة فسيديمون هذه التدابير بالقوة العسكرية ، وانهم سيأخذون الأمر على عاتقهم لاعادة الاحوال التي تتيح تنقلاً لا تعترضه العوائق ، ذهاباً وإياباً بين برلين الشرقية والغربية .

لقد أقمنا ما اعتبرناه حاجزاً صلباً على الحدود ، ولكن بعض التراكورات صدمتها واخترقتها مندفعة بسرعة فائقة نحو برلين الغربية . فاقمنا على الأثر حواجز أصلب في تلك الاماكن حتى لا يتكرر الامر نفسه ثانية .

وكان بوسع الدول الغربية ، لو شاءت ، ان تستمر في اتخاذ الاجراءات الاستفزازية . غير ان مثل هذا العمل لو تم من جانبها لأدى إلى مضاعفات خطيرة . ولكن لحسن الحظ أخذت تظهر مقالات فيها قدر من التفهم في الصحافة الاميركية حول ما يشتمل عليه من مجازفة استخدام الوسائل العسكرية لتصفية الحالة التي يمكن أن تنشأ .

لقد قدرنا أن الغرب لا يريد ان يكون البادىء باندلاع شرارة الحرب ، وكان تقديرنا هذا في محله . ان اشعال حرب من أجل برلين كان عملاً غيياً لو حصل . لم يكن من سبب موجب لذلك . ان إقامتنا السيطرة على الحدود في الجمهورية الألمانية الديمقراطية لم يكن ليعطي الغرب لا الحق ولا الذريعة في حسم نزاعنا بالحرب . وفي ذلك الحين كان كيندي قد أصبح في البيت الأبيض . وكنت قد اجتمعت اليه في فيينا قبل أحداث برلين ، فترك في نفسي انطباعاً بأنه ، كرجل دولة ، يتفوق على ايزنهاور . فهو ، خلافاً لايزنهاور ، له رأي واضح ودقيق حول كل مسألة . وقد مازحته قائلاً بأننا أعطيناه الأصوات التي رجّحت كفته ضد منافسه للرئاسة ،

أعني ذلك التزل ريتشارد نيكسون . وعندما سألني ماذا أعني ، أوضحت له اننا بتأخيرنا الافراج عن ريان طائرة يو ٢ ، غاري باوزر إلى ما بعد الانتخابات الأميركية حررنا نيكسون من الزعم أنه يستطيع التعامل مع الروس ، وان هذا أدى إلى فارق لا يقل عن مليون صوت لمصلحة كيندي ، وهو الفارق الذي ظهر في نتيجة الانتخاب .

و كنت قبلاً قد قابلت كيندي قبل ستين ، ابان زيارتي لأميركا . وذلك عندما قدمني ليندون جونسون إلى شيخ شاب في حفلة الاستقبال التي أقامتها لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية تكريماً لي . وقد ترك كيندي يومها انطباعاً في نفسي . وأذكر انني أحببت وجهه القاسي الذي يفتر بين الحين والحين عن ابتسامة فيها كل معاني الطيبة . أما نيكسون فقد الفته جيداً في الماضي . كان العوبة في يد مكارثي (جوزيف) . ولما أخذ نجم مكارثي بالافول أدار له نيكسون ظهره متجاهلاً . هكذا ، اذن ، كان العوبة ودون مبدأ ، وهذا أخطر أنواع الرجال .

و كنت شديد السرور من ان كيندي قد فاز بالانتخاب . وكان لقائنا ، على العموم ، ممتعاً في فيينا . ورغم اننا لم نتوصل إلى اتفاق حاسم ، فقد لمست انه مهتم بإيجاد حل سلمي للمشكلات العالمية وبتجنب النزاع مع الاتحاد السوفياتي . كان رجلاً موزوناً ، واعتقد أنه كان يعرف ان لا مبرر لاشعال حرب حول مسألة برلين . على أي حال ، فقد قرر كيندي التظاهر بقوته . فعزز الحامية الأميركية وعين جنراً^(١) يدعى كلاي بقيادة القوات الغربية في برلين . وبدا ان كيندي يعيد عقارب الساعة إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية^(٢) .

وأخذت الصحافة البورجوازية تهدد . وفي تلك الاثناء كنا نعدّ العدة للمؤتمر الحزبي الثاني والعشرين . فقررنا قبول التحدي الذي شرع به كيندي . وكانت استخباراتنا قد زودتنا بحقيقة الخطوات التي شرع الغرب باتخاذها تصعيداً لتمرکز قواته في برلين ، فأخذنا نضاعف من قوة حاميتنا بما يناسب ذلك ، وعيننا المارشال كونيف قائداً لقواتنا في برلين . وهكذا رمينا القفاز طلباً للتزال .

ولا بد لي أن اوضح ان تعيين المارشال كونيف قائداً لم يكن بالفعل سوى تدبير « اداري » لنظهر للغرب اننا نعتبر الحالة بالخطورة التي يعتبرونها . (٢) وقد

(١) الجنرال لوقس كلاي كان قائداً للقطاع الاميركي في برلين ابان الحصار .

(٢) كان المارشال أ. س. كونيف قد تخلى عن قيادة قوات حلف فرسوفيا .

بقي القائد العادي المسؤول عن برلين ، وهو أدنى رتبة من كونيف ، في مركزه بينما كانت صلة كونيف مباشرة بنا بموسكو ، فكان يرفع الينا تقاريره . وان واقعة بقاء كونيف أكثر الأوقات في موسكو للدليل على اننا لم نكن نتوقع المواجهة ان تصعد إلى نزاع عسكري شامل .

ورفع كونيف تقريراً مفاده أنه علم عبر استخباراتنا بموعد شروع الغرب بعملياته ضدنا محدداً اليوم والساعة .

كانوا يهثون التراكورات المعدة لشق الطرقات لتهدم ما اقمنا على الحدود من منشآت ، ثم تبعها الدبابات فموجات متتالية من سيارات الجيب المحملة بالمشاة . وقد وقت هذه العملية لتطابق زمنياً افتتاح المؤتمر الحزبي الثاني والعشرين . وتنادينا إلى النشاور وتدارسنا خطة ردنا مسبقاً . فجمعنا وحدات مشاتنا في الشوارع الجانبية في مراكز التفتيش على محاذة الحدود . وجلينا دباباتنا كذلك في الليل ومركزناها قريباً . ولم يكن أماننا سوى الترقب وانتظار الخطوة التالية التي سوف يقدم عليها الغرب .

ثم رفع كونيف تقريراً مفاده أن التراكورات والدبابات وسيارات الجيب الأميركية قد تحركت باتجاه مراكز التفتيش على حدودنا . وكان رجالنا ينتظرون بهدوء ، ولم يتحركوا حتى بعد أن اصبحت التراكورات على محاذة حدودنا . ثم فجأة تحركت دباباتنا من الشوارع الجانبية وتقدمت لتلاقي الدبابات الأميركية .

هنا توقفت الدبابات والتراكورات الاميركية . أما سيارات الجيب فقد تجاوزتها وعبرت الحدود باتجاه برلين الشرقية ، فلم نحاول اعتراضها . ذلك انه حسب فقرات خاصة من اتفاقية بوتسدام ، كان مباحاً للسيارات العسكرية الحليفة ان تعبر من قطاع إلى آخر في برلين . لذلك فتحنا البوابات وافصحنا لسيارات الجيب الأميركية المرور . ولكنها بعد أن قطعت مسافة قصيرة شاهد الأميركيون قواتنا متمركزة في الشوارع الجانبية وكانت دباباتنا تتقدم باتجاههم . فادار الأميركيون فوراً سيارات الجيب عائدين إلى برلين الغربية .

وانقضى الليل ودبابات الطرفين متواجهة على الحدود . كان الوقت في اواخر اكتوبر وكان الليل بارداً . ولا ريب ان سائقي دباباتنا شعروا بانتعاش كبير بقضائهم الليل في حجر معدنية باردة . وأعلمنا المارشال كونيف في الصباح التالي ان سائقي دباباتنا والدبابات الأميركية نزلوا دورياً من دباباتهم اتدفئة أنفسهم ، الا أن مدخلهم بقيت محشوة وموجهة على الطرف الآخر عبر الحدود الفاصلة .

وحين تلقينا تقرير المارشال كونيف اقترحت سحب دباباتنا عن الحدود واعادة تمركزها في الشوارع الجانبية . وهناك نستطيع الانتظار وترقب ما يحدث . وأكدت

لرفاقي أنه ما ان نسحب دباباتنا حتى يبادر الاميركيون إلى سحب دباباتهم . فهم أخذوا المبادرة في التوجه نحو الحدود ، ولذلك يجدون انفسهم في وضع معنوي صعب اذا أرغمتهم على التراجع تحت وطأة مدافعنا المصوبة اليهم . لذلك قررنا أنه في هذه المرحلة علينا أخذ المبادرة فنفسح للاميركيين فرصة الانسحاب من الحدود ووافق رفاقي معي . وقلت بانني اعتقد ان الاميركيين سيسحبون دباباتهم خلال عشرين دقيقة بعد أن نسحب دباباتنا . وهذه هي الفترة التي تنقضي على رفع قائد دباباتهم الامر إلى قيادته وتلقي الاوامر الجديدة .

ولهذا أمر كونيف دباباتنا بالانسحاب عن الحدود . ثم رفع تقريراً يفيد بأنه حسب توقعاتي حصل انسحاب الاميركيين بعد عشرين دقيقة من انسحابنا .

وهكذا امتحن الغرب قدرة أعصابنا على المواجهة بتوجيه مدافعه نحونا ، فوجدنا مستعدين لقبول التحدي . وتعلم الغربيون انهم أعجز من ارهابنا ، واعتقد ان ذلك كان انتصاراً كبيراً لنا وبحناه دون اطلاق رصاصة واحدة (١) . وانه برفضنا التراجع أمام تهديد الغرب ووعيده ، ضمناً حق الجمهورية الالمانية الديمقراطية في السيطرة على أرضها وحدودها . فكان من حقنا الاحتفاء بهذا الانتصار المعنوي والمادي لأننا قد ارغمتنا الغرب على الاعتراف بحقوق الجمهورية الالمانية الديمقراطية غير المكتوبة .

(١) تراجع الغربيون عن الجدار ، ولكن قواتهم بقيت في غربي برلين .

ماوتسي تونغ والانشقاق

ليس في سرد خروشوف المغمم بالطابع الشخصي والنوادر لهلاقاته وعلاقات ستالين بماوتسي تونغ ، ما يتناقض والرواية الغريبة المعتمدة لبدور الانشقاق الصيني - السوفياتي وتطوره ، بل ان فيه الكثير مما يثبت تلك الرواية ويؤكد لها . ان خروشوف لا يضيف الى القصة بل يزخر بها (وهو بالتأكيد يحذف في سرده الكثير مما نعرفه) . ويركز على الجوانب الشخصية من الانشقاق الكبير (سواء اعتبرناه في الاساس نزاعاً ايديولوجياً ، او نزاع مصالح بين دولتين كبيرتين) واثاره على الحركة الشيوعية العالمية . الا انه يقدم لنا ، على اي حال ، رؤى جديدة وثمينة الى مرارة النزاع ، وفوق ذلك كله ، معالجته العاطفية للموضوع كله .

ومن الواضح ، أنه كمعظم الروس قد وجد ، ولا يزال يجد ، الطابع الصيني بالغ الغموض ويمججه الدوق . وانه بمجهد ملحوظ يضبط على نفسه حتى يميز بين ماو واعوانه ، والشعب الصيني الذي يعلن بفتور انه «بشر مثلنا تماماً» . هنا نجد صدى يرجعه خروشوف المعجوز وهو يجهر عالياً بأفكاره . وهو صدى يزخر بكل ما في نفسه من احتقار لاساليب الحياة الصينية .

السياسة لعبة ، وقد لعبها ماوتسي تونغ بمكر أسيوي حسب قواعده في الزلفي والحياة والتوحش والانتقام والخداع . لقد خدعنا سنوات عديدة قبل ان نفد ببصائرنا عبر خداعه . قال تالليان ان الديبلوماسية اعطيت لسانا ليخفي أفكاره ، وهذا نفسه ينطبق على السياسي . ولقد كان ماوتسي تونغ دوماً سيداً في اخفاء حقيقة أفكاره ومقاصده ، لماذا ؟ انني أذكر بعد المؤتمر العشرين قوله : لقد فتح الرفيق خروشوف أعيننا وأعطانا النور حتى نرى . أخيراً أخبرنا الحقيقة . علينا أن نقوم بالاصلاح . لا انني كنت دوماً حذراً . اذ كنت أعرف متى يتملّق بنا .

بعد انقضاء سنوات على تقاعدي شاع انني أنا الذي بدأت الخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين . انني لن آبه حتى لدحض الافتراء . فالتاريخ قد سخر من هذا الزعم .

منذ مقابلي الاولى لماو . عرفت - وقلت لرفاقي - بان ماو لن يستطيع الاتفاق مع أي حزب شيوعي ضمن الحركة الشيوعية العالمية لأنه يريد حزبه ان يكون متفوقاً على الاحزاب الأخرى . ولو ان ستالين عاش أكثر قليلاً ، لكان نزاعنا مع الصين خرج إلى العلانية أبكر قليلاً ، ومن المرجح أن يكون قد اتخذ طابع قطع العلاقات كلياً بين البلدين (١) .

كان ستالين دوماً ينقد ماوتسي تونغ عن حق . وكان يطلق على ماو نعتاً يصفه بدقة من زاوية ماركسية صافية ، حتى كان يقول ان ماو هو «ماركسي السمن النباتي !» (ماركسي المارغرين) .

ذلك انه عندما كان جيش ماو الثوري المظفر يقترب من شنغهاي ، أوقف زحفه ورفض الاستيلاء على المدينة . فسأله ستالين «لماذا لاتأخذ شنغهاي؟» فأجاب ماو «عدد سكانها ستة ملايين . فاذا استولينا عليها اضطررنا إلى اطعام شعبها . فمن أين نأتي بالطعام؟»

الآن أسألكم هل هذا كلام ماركسي ؟ .

لقد اعتمد دوماً على الفلاحين لا على الطبقة العاملة . ولذلك لم يستول على شنغهاي . لأنه لم يكن يريد ان يتحمل مسؤولية العمال .

لقد انتقد ستالين ماو ، بحق ، لانحرافه عن الماركسية الحقيقية ، إلا ان الحقيقة تبقى أن ماو ، باعتماده على الفلاحين واهماله الطبقة العاملة ، حقق الانتصار . ولا يعني ان انتصاره كان له طابع المعجزة الا انه كان تحريفاً جديداً للفلسفة الماركسية نظراً لتحقيقه بدون البروليتاريا . وخلاصة القول ان ماوتسي تونغ

(١) هذه نظرية مشكوك فيها . فصحيح ان الود كان مفقوداً بين ستالين وماو وان ستالين قد حقر ماو ، اذ دعم شان كاي شك ودعا ماو قبل زحفه الظافر في ١٩٤٨ الى وقف الثورة لأن فكرتها لم تنضج بعد في الصين ، الا ان ماو كان برغم ذلك كله ، يحترم ستالين على نحو لم يحلم ان يبادل خروشوف مثله . وان ستالين لم يكن يسمح لنفسه ان تجتاحه موجة عاطفية من الغضب كتلك التي اجتاحت خروشوف . ولو ان ستالين عاش أكثر ، لكان عاجلاً ام آجلاً سيصطدم مع ماو ، ولكن من المرجح ان يتم ذلك آجلاً .

هو بورجوازي صغير ، مصالحه كانت ، ولم تزل ، غريبة عن مصالح الطبقة العاملة .

ما ان وصل ماو إلى السلطة حتى توترت علاقاته بستالين سواء على مستوى التعاون التجاري والصناعي او المستوى الايديولوجي . في إحدى المراحل عقد ستالين اتفاقية مع الصين لاستثمار مشترك للموارد المعدنية في سنكيانغ . وكانت الاتفاقية من اخطاء ستالين . بل انني اذهب إلى وصفها مهينة بحق الشعب الصيني . ذلك انه لقرون ، كان الفرنسيون والانكليز والاميركيون يستغلون الصين والان أخذ الاتحاد السوفياتي يدلي بدلوه . وان هذا الاستغلال لأمر مسيء ولكن له سوابق : فقد أقام ستالين شركات مشابهة في كل من بولونيا والمانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا . وقد صفينا ، لاحقاً ، هذه الشركات كلها .

وكان ثمة حادثة أخرى . فذات يوم دعانا ستالين اليه وسأل ان كان أحدنا يعرف شيئاً عن موقع مناجم الذهب والماس في الصين . من الطبيعي ان احداً لم يعرف . ولم تكن لدينا طريقة للمعرفة . كنتا نتضاحك بينما عن هذا السؤال همساً . وقال بيريا : «أتدرون من يعرف ؟ كوزلوفسكي هو الذي يعرف (١) . انه دائماً ينشد : لا تستطيع ان تحصي حبات الماس ...» (مقطع من اوبرا «صباذي الياقوت لبيزي) . وكان بيريا مولعاً بتحريض ستالين فيقول له ان في الصين غنى وافراً يخفيه عنا ماوتسي تونغ ، واننا اذا اعطينا ماو قرصاً فعليه أن يعطينا شيئاً بالمقابل .

وفي أحد الأيام ، بينما نحن جلوس حول ستالين نحاول أن نجد طريقة لسد حاجات صناعة المطاط دون أن نضطر لشراء المطاط الخام من الرأسماليين اقترحت اقناع ماو بالسماح لنا بأن نقيم زراعة المطاط في الصين مقابل قروض ومساعدات تقنية . فارسلنا إلى ماو برقية تقترح فيها ذلك ، وأجاب الصينيون انهم اذا منحناهم قروضاً فيسمحون لنا باستخدام جزيرة هينان لهذا الغرض . فعددنا اتفاقية معهم ، الا ان المساحة التي اعطيت لنا في هينان ، كانت أصغر كثيراً مما تتطلب مزرعة مطاط مقبولة ، فنخلينا عن الفكرة .

وفجأة افتتن ستالين بتعليب الأناناس . فأملى فوراً على مالنكوف الذي كان كاتباً مطوعاً : ارسل إلى الصينيين خبراً بأنني أرغب في أن يمنحونا مساحة لمصنع

(١) أ. س. كوزلوفسكي ، المغني الروسي الشهير في اوبرا البولشوي ، رغم انه لم يكن معروفاً في الغرب الا انه من اعظم المغنين الرجال منذ كاروزو .

تعليل الأناناس . فقلت : «أيها الرفيق ستالين ، ان الشيوعيين قد تسلموا زمام السلطة مؤخراً ، وفي بلادهم مصانع كثيرة أجنبية . والآل ينوي الاتحاد السوفياتي ، البلد الاشتراكي الشقيق ، ان يقيم مصنعاً له في الصين ! ان هذا ، بكل تأكيد ، سيبيء إلى ماوتسي تونغ .»

فرد عليّ ستالين بغضب فسكت . وارسلت البرقية . وبعد يومين أو أكثر تلقينا : «أنا نقبل اقتراحكم . اذا كنتم ترغبون في تعليل الأناناس اعطونا قرصاً فبني نحن مصنع التعليل بأنفسنا ، ثم نسدّدكم قرضكم بمحصول هذا المصنع .» ولذت بالصمت ، بينما كان ستالين يرغي ويزبد شامخاً .

وفي عهد حكومتي لم نرسل إلى ماو برقية واحدة ، لا بتوقيعي ولا بتوقيع الحكومة ، تقترح اجراء يشتم منه اننا نحاول استغلال الصين . وحرصنا حرصاً شديداً على أن لا نسيء إلى الصين إلى أن بدأ الصينيون فعلاً يصلبونا . وعندما بدأوا يصلبونا ، لم أدر خدتي الآخر لهم ، لانني لست السيد المسيح .

وحيث سرت الشائعة الخبيثة عن انني كنت مسؤولاً عن خلاف الاتحاد السوفياتي مع الصين ، أصابني الدهشة واعتصرني الاسى . وقد ثرت غاضباً لأن يودين بالذات كان بين الذين اطلقوا هذه الشائعة . حسناً ، لو ان يودين قال ذلك لي شخصياً لكنت واجهته بأدلة وثائقية تثبت انه هو الذي كان أول من صعد نراعتنا مع ماوتسي تونغ إلى ذروته . فقد كان سفيرنا في الصين في بداية الشجار . واذا كان يودين يريد ارغامي على الشروع في تبادل الاتهامات معه ، فلامندوحة لي عندها من الملاحظة ، ولدي ما يبرر ذلك ، اننا كنا متأكدين من ان خلافاً سيقع بيننا وبين أي بلاد يكون يودين سفيرنا اليها . فقد ارسل يودين إلى يوغوسلافيا فوقع خلافاً مع تيتو . وذهب إلى الصين فنشب الخلاف مع الصين . ولم يكن ذلك كله محض صدفة .

كنت في مرحلة ما أكنّ ليودين الاحترام . لماذا ارسل إلى الصين ، في المرتبة الأولى ؟ حدث ذلك الأمر كما يأتي : كتب ماوتسي تونغ رسالة إلى ستالين يسأله فيها أن يسمي له فيلسوفاً ماركسياً سوفياتياً يكون بإمكانه المجيء إلى الصين لتنقيح كتابات ماو وأقواله من وجهة النظر الماركسية . فاختر يودين لهذه المهمة .(١)

(١) ب. ف. يودين كان لبرهة رئيس تحرير مجلة الكومنفورم ذات العنوان الشهير «في سبيل سلام دائم ، في سبيل ديمقراطية الشعب» التي كانت تنشر في بلغراد حتى =

وعمل يودين ، لأمد ، بانسجام كلتي مع ماو . وكان ماو يذهب لمقابلة يودين أكثر من ذهاب الأخير لمقابلته . وقد انتاب ستالين بعض القلق ان لا يكون يودين يتوجه إلى ماو بالاحترام اللائق ، نظراً لأن ماو يكثر من محيئه اليه بدل أن يجيء هو إلى ماو . ولكن الامور كانت تسير في مجاريها الطبيعية سيراً حسناً .

ولكن فجأة هطلت علينا من السماء الصافية رسالة شيفرة من يودين تنذر بالعواصف تضمنت كل ما لا يمكن تصديقه من اقوال معزوة إلى ماوتسي تونغ عن الاتحاد السوفياتي ، وعن حزبنا الشيوعي ، وعن يودين نفسه . فلم يعد يهمننا تودد ماو ليودين .

واتضح الآن ان ماو لا يحترم يودين البتة . فقررنا ان من الانسب سحب هذا الاخير من الصين . وقد كان يودين ، كسفير ، إدارياً ضعيفاً ، ودبلوماسياً رديئاً . ولكن نفعه كان ينحصر في أن تستمر علاقات الصداقة والود بين ماو فليذهب عمله كسفير إلى جهنم ، ما دام ان بإمكاننا دوماً الاعتماد على موظفي السفارة في بكين ليتدبروا الأمر . فعندما اصطدم يودين بماو لاسباب فلسفية ، لم يعد نافعا بالنسبة لنا ، لا سفيراً ولا صلة ود بماو . لذلك استدعيناه .

والآن يحاول هذا الفيلسوف ان ينحى باللائمة عليّ . أما بصدد علاقتي أنا مع ماو ، فقد كنت دوماً خلافاً لستالين أحاول ملاطفته والحفاظ على صلوات الود معه . ولم أعمد إلى استغلاله . وفي الواقع فقد حاول الصينيون استغلالنا . مثال على ذلك ما جرى في ١٩٥٤ ، عندما كانت بلادنا لم تزال تتضور جوعاً والفقر يخيم عليها بسبب الحرب . كنا في بكين فسألني شوان لاي قائلاً « ليتكم تقدمون لنا جامعة على سبيل الاهداء ؟ » فأجبت : « ولكننا نحن أيضاً فقراء كما تعرف . قد نكون أغني منكم ولكن الحرب انتهت مؤخراً ، ولم نستطع بعد أن نستعيد قوتنا . » ورغم اننا كنا نعاني من مشاكلنا ، إلا اننا تنازلنا عن بورت ارثر ودالي إلى الصينيين دون مقابل ، ووظفنا مبالغ طائلة من الاموال في الصين . وقد بنينا كذلك

= نشوب خلاف ستالين - تيتو . كان مشهوراً بلحمه بين المذلة ازاء من هم اعلى منه والاغترار ازاء من هم دونه . ويبدو انه تصرف ازاء اليوغوسلافيين والصينيين على اساس الموقف الثاني فاحرجهم وأخرجهم . وفي موسكو كان معروفاً بأنه افضل فيلسوف في الشيكا (البوليس السري) او افضل الشيكا بين الفلاسفة . وكانت فلسفته عبارة عن ايجاد الذرائع لخط الكرمليين بمجموعة مبهمه . وكان خروشوف على حق في احتقاره له ، ولكن خروشوف يتحمل خطأ الاحتفاظ به سفيراً الى بكين منذ ١٩٥٣ حتى نشوب الخلاف مع الصين .

الطريق من اولان باتور إلى بكين . وفي ١٩٥٧ عندما قال ماو (١) «ان الطريق من اولان باتور لا تعود علينا بجليل فائدة . ان ما نحتاجه في الواقع ، هو الطريق من بكين عبر جبال كازاخستان . » اجبته « انكم تعرفون أرضكم افضل مما نعرفها نحن . لقد اعتقدنا أن الطريق من اولان باتور تكون طريقاً مباشرة أكثر لكم ، ولكننا نرغب في فتح طريق إلى الصين عبر كازاخستان أيضاً . فلماذا لا تبشرون الطريق على أرضكم ونحن نبنيها على أرضنا ، وهكذا نتلاقى على الحدود ؟ »

ثم أعاد شوان لاي ، فيما بعد ، بحث موضوع هذه الطريق طالباً منا ان نبني أيضاً الجزء الواقع في أرضهم . ولكن حين تفحصنا الخريطة وجدنا ان ذلك قد يعني اختراق جبال وبناء جسور على الأنهر . فأجبناه « كلا ، ليبي كل فريق القسم من الطريق الواقع في أرضه ، وفق اتفاقنا الأصلي » .

وشرعنا في تنفيذ قسطنطين من العمل . وفيما نحن كذلك جاءنا الصينيون ثانية يطلبون منا تنفيذ حصتهم من العمل . وعندما وصلنا أخيراً إلى الحدود ، كان الصينيون قد اختفوا تماماً .

واذكر انه عندما عدت من الصين في ١٩٥٤ قلت لرفاتي : «ان النزاع مع الصين واقع حتماً . » وقد توصلت إلى هذه النتيجة ، بناء على ملاحظات عديدة كان قد ابداهها ماو . فعند زيارتي لبكين كان الجو شرقياً نموذجياً . وكان الناس جميعاً مفرطين في التهذيب والتملق ، ولكنني كنت استطيع أن افهم من خلال نفاقهم إلى سرائرهم . صحيح اننا ، عند وصولي ، تعانقنا أنا وماو بحرارة ، وكنا نضطجع حول المسيح في بكين ، ونسامر كاخلاص الاصدقاء حول مختلف الشؤون . ولكن نيته لم تكن صافية . يضاف إلى ذلك ان بعض ما قاله ماو أبقظ حذري . والحقيقة انني لم أكن واثقاً البتة من انني فهمت ما يعني . حينئذ اعتقدت ان الامر قد يكون ناجماً عن خصائص يفرد فيها الخلق الصيني أو طريقة التفكير الصينية . فمن أقواله ما كان مفرطاً في التبسيط ، ومنها ما كان مفرطاً في التعقيد .

اذكر مثلاً ان ماو سألني مرة « ايها الرفيق خروشوف ، ما رأيك بشعارنا :

(١) الاشارة هنا الى تسليم الروس للصينيين بورت ارثر ودالي (دارين) في ايار ١٩٥٥ بعد تاريخ طويل غير مستقر تورطت فيه الصين واليابان وروسيا . اما السلف والقروض السوفياتية فلم تكن أكثر من نقطة في بحر احتياجات الصين .

«دع مئة زهرة تتفتح ؟» (١)

فاجبت «أيها الرفيق ماو تسي تونغ ، اننا بكل بساطة لا نفهم ما يعنيه هذا الشعار . فمئة أنواع متعددة من الأزهار - أزهار جميلة ، ومقرقة ، بل حتى مميتة .» فوافقني على ان هذا الشعار قد لا يكون صالحاً للروس . وكنا حرصنا على ان لا ننشر شيئاً في صحافتنا عن شعار «المئة زهرة» . ولم يكن ماو ساذجاً ، اذ ان شعار «دع مئة زهرة تتفتح» يعني توفير جو من الحرية لنمو اتجاهات مختلفة في الفن والثقافة . ولكن بات واضحاً الآن ان القصد من هذا الشعار كان الاستفزاز . فقد أعلن هذا الشعار حتى يشجع الناس على التعبير عن أنفسهم بحرية أوسع فيستنى قطف أية زهرة تفوح منها رائحة غير مرغوب فيها ، ورميها في الاقدار .

ثم كان هناك شعار ماو الآخر الشهير : «الامبريالية هي نمر من ورق» . ولم أصدق ان ماو يعتبر الامبريالية الاميركية مجرد نمر ورق ، بينما هي في الحقيقة نمر مفترس ! وقد أعلن شعار «نمر ورق» عندما كانت لم تزال علاقاتنا مع الصين حسنة ، فسبب لنا بعض الاحراج ، نظراً لصدوره عن صديقنا ماو تسي تونغ ، زعيم الشعب الصيني .

أما الآن فيبدو أن الصينيين قد سكتوا موقفاً «عن هذا النمر من الورق» ، ولم حد هتافاتهم ترتفع منشدة هذا الشعار ، كما من قبل .

كنا مرة في بكين . وكنت أنا وماو مستلقين بجوار المسبح بشباب الحمام ، نبحث في الحرب والسلام ، فقال لي «أيها الرفيق خروشوف ، ما رأيك ؟ لو قارنا قوة المعسكر الرأسمالي العسكرية بقوة المعسكر الاشتراكي ، ألا نجد أننا نتفوق على أعدائنا ؟ فكّر بعدد الفرق التي يستطيع ان يعيها كل من الصين والاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية» . فقلت «أيها الرفيق ماو . ان مثل هذا قد انتهى في تفكير زمنا . فليس بإمكانك الآن أن تعتبر عدد الجنود أساساً للقوة العسكرية . في الزمن الغابر ، كانت قبضات الأيدي والحرا ب تقرر مصير القتال . ثم ظهر المدفع والرشاش ، فلم يعد هذا صحيحاً . فكيف بعد القنبلة الذرية ؟»

فأجابني ماو محاولاً اقناعي بأن القنبلة الذرية ذاتها ليست سوى «نمر من ورق» . وقال : «اسمع أيها الرفيق خروشوف ، كل ما عليك أن تفعله هو ان تستفز الاميركيين للقيام بعمل عسكري ، وانا اعطيك عدد الفرق التي تحتاج اليها لسحقهم

(١) «دع مئة زهرة تتفتح ومئة مدرسة تتيارى» . طرح ماو هذا الشعار لمدة قصيرة في ١٩٥٧ ، كما اثار نقمة خروشوف كثيراً .

— مئة ، مائتي أو الف فرقة ! » وعبثاً أو ضحت له أن صاروخاً أو صاروخين يحولان كل هذه الفرق إلى غبار . ولعله اعتبرني جباناً . (١)

لقد بدّل ماو نبرته في ١٩٥٧ ، عندما جاء إلى مؤتمر موسكو للحزب الشيوعية والعمالية وقال بلهجة ودية خلال حديث صريح : « أيها الرفيق خروشوف ، وجدت في الصحف ان وزير دفاعكم جو كوف يقول انه إذا ما هوجم أي بلد اشتراكي من قبل قوات امبريالية ، فستردّون على الهجوم بسرعة . ان هذا خطأ . » قلت : أيها الرفيق ماوتسي تونغ ان جو كوف لم يكن ينطق باسمه الشخصي بل باسم اللجنة المركزية ، وهو يعلن قرارنا الجماعي . وانا قد قلت الشيء نفسه . » ولم تكن عندها نتشاجر ، بل نتحدث حديثاً ودياً .

فأجاب ماو : « اعتقد انه اذا ما هاجم الامبرياليون الصين ، فليس عليكم أن تحركوا ساكناً . فنحن نقاتلهم بانفسنا . وواجبكم عندئذ ان تصمدوا . دعونا نعالج الامر بانفسنا ، وأكثر من ذلك ، أرى انه اذا ما هوجمتم انتم ، فليس عليكم أيضاً ان تردوا بالمثل . »

— ولكن ماذا نفعل اذن ؟

— تراجعوا .

— إلى أين ؟

— لقد تراجعتم في السابق . تراجعتم حتى ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية . فاذا ما هوجمتم ثانية تستطيعون التراجع إلى الاورال وتصمدون هناك لمدة ستين أو ثلاث . وتكون الصين وراءكم تحمي ظهركم .

— أيها الرفيق ماو ، ولكن اذا ما اندلعت حرب الان ، كم تعتقد انها تستمر ؟ انها لن تكون مثل الحرب الأخيرة . تلك كانت حرب أسلحة طيران ودبابات أما الان فالحرب حرب صواريخ وقنابل ذرية . ما الذي يملكك على الاعتقاد ان علينا الانتظار ثلاث سنوات حتى نتراجع إلى جبال الاورال ؟ الأرجح ان المهلة لا تتجاوز بضعة أيام ، وبعدها لن يبقى منّا سوى الخراب في طول البلاد وعرضها . ونحن اذا قلنا للعدو اننا لن نرد بالمثل نكون كمن يدعوه إلى شن هجومه علينا . لذلك علينا ان نقول العكس لكي نردعه .

(١) في هذا التصوير الموجز القيم لزعيمي الشيوعية العالمية وهما يسترخيان في مسبح في بكين ، نجد بداية المشادة بين خروشوف والرجل الذي سيقول لاحقاً انه حتى في حال نشوب الحرب الذرية ، سيبقى ثلاثمائة مليون صيني على قيد الحياة .

كان جلياً ان ثمة اختلافاً أساسياً بيننا . ولكن خلافاً مع الصين كان أعنى من هذا . فقد أدرك الصينيون أنهم في موقع خطر في الحركة الشيوعية العالمية بعد المؤتمر العشرين لحزبنا . اذ فهموا مضامين المؤتمر بلجهة رفض عبادة الشخصية : والحكم الاوتوقراطي وما إلى ذلك من الأشكال المتنافية للديمقراطية والحزب . ولقد فضح أمر ستالين وادين في المؤتمر لأنه أعدم مئات الألوف من البشر واستغل سلطته . وكان ماوتسي تونغ يقتفي آثاره .

ان عبادة الشخصية عند ماو ظاهرة معقدة ، انه بمثابة مذهب ديني . فلعدة قرون كان الناس يرددون : « يا الله ارحمنا . احمنا واعنا . » فهل نفعت كل هذه الصلوات ؟ بالتأكيد لم تنفع . ولكن الناس القوا هذه الأساليب ، وهم يستمرون على الاعتقاد بالله رغم كل الأدلة المناقضة . وقد ترددت أصداء عبادة الشخصية الماهرة حتى في بلادنا . ففي ١٩٦٢ اكتشفت ان رجالنا العسكريين يطبعون مؤلفات ماوتسي تونغ في الحقل الحربي . فبادرت فوراً إلى استدعاء وزير الدفاع وقلت له «أيها الرفيق مالمينوفسكي ، فهمت ان دائرتكم تنشر أقوال ماو ، ان هذا لأمر مستهجن ! فالجيش السوفياتي سحق قوات الجيش الالماني وهشمتها بينما رجال ماوتسي تونغ أمضوا بين العشرين والخمس والعشرين سنة يطعن بعضهم البعض الآخر في خواصره بالخناجر والحرا ب . وها أنتم الآن تنشرون نظريات ماو في الشؤون الحربية لماذا ، ولاي غرض ؟ هل لتتعلّموا منه كيف تشنون الحرب في المستقبل ؟ ماذا دهاكم حين اتخذتم مثل هذا القرار ؟»

كان مالمينوفسكي وغيره من الرفاق العسكريين رجالاً أذكاء الا ان نشر أقوال ماوتسي تونغ في الشؤون الحربية كان مضيقاً للوقت . ولست أعرف مصير النسخ التي طبعوها ومن المرجح أن تكون مكومة الآن في مستودع أو انها حُرقت . واذكر جيداً كيف رفض ماو جهودنا للتعاون في القضايا العسكرية

في ١٩٥٨ . كان على طائرتنا ، وفق معاهدة بيننا ، ان تستخدم مطارات الصين للترود بالوقود وللهبوط . ثم عندما بدأنا نستخدم غواصاتنا ذات المدى البعيد احتجنا إلى محطة راديو في الصين ، حتى يكون اسطولنا على صلة معها . وكان الصينيون ، بالمناسبة ، قد طلبوا ان نحول اليهم مخططاتنا لبناء الغواصات ونعلّمهم كيف يشعرون هم في بناء الغواصات . لذلك وجدنا ما يبرّر بناء محطة راديو على أرضهم . فجاء جوابهم سلبياً . ولم يمض وقت طويل على هذا الأمر حتى تلقينا رسالة من يودين بالشفرة عن موقف القيادة الصينية المعادي للسوفيات . وقلت لرفاقي «حسب البروتوكول ، جاء دور ماو ليقوم بزيارتنا زيارة رسمية ، قبل أن نقوم نحن بزيارة ثانية . ولكن في ضوء الحالة الراهنة ، لعل الأفضل أن نذهب

اليه ونحادثه . ومن الأفضل أيضاً أن يكون لقائنا لقاء شخصياً ، وبذلك نلتبس طريقنا مع الرفاق الصينيين .»

وهكذا تمت رحلتنا الأخيرة إلى الصين . حدث ذلك في ١٩٥٩ . (١) وقد اتسمت مباحثاتنا بطابع الود ، إلا أنها لم تثمر عن أي نتيجة . وبين المواضيع التي بحثناها موضوع محطة الراديو . قلت : «أيها الرفيق ماوتسي تونغ ، سنعطيك المال المتوجب لبناء المحطة . ولا فارق عندنا من يملك المحطة ، ما دام اننا نستطيع الانتفاع منها لتأمين الاتصال بغواصاتنا . بل اننا نذهب إلى حد اعطائكم المحطة ، ولكننا نرغب في ان نعمل على بنائها سريعاً . ان اسطولنا يعمل الآن في المحيط الهادي ، وقاعدتنا الرئيسية في فلاديفوستوك . أيها الرفيق ماوتسي تونغ ، ألا نستطيع أن نتوصل إلى نوع من الاتفاق حين يتسنى لغواصاتنا أن تكون لها قاعدة في بلادكم تزودها بالوقود وما إلى ذلك ؟»

— للمرة الأخيرة اقول لكم لا . ولا اريد ان اسمع بهذه القضية مرة اخرى .
— أيها الرفيق ماو ، ان بلدان الحلف الأطلسي لا تعاني من أية مشكلة بصدد التعاون فيما بينها ودعم احداها للآخرى ، بينما نحن هنا لا نستطيع التوصل إلى اتفاق حول أمر بسيط مثل هذا !
— كلاً !

ولم أعرف لماذا اشتاط غضباً . وحاولت أن أقوم بمسعى معقول أخير فقلت : «إذا شئت ، فانك تستطيع استخدام مورمنسك كقاعدة لغواصاتكم .» فاجاب : « كلا ! لا نريد أن يكون لنا أية صلة بمورمنسك . كما اننا لانريدكم انتم هنا . كان البريطانيون وغيرهم من الأجانب في أرضنا سنوات طويلة ، واننا لن نسمح الآن لأي كان أن يستخدم أرضنا لاغراضه مرة اخرى .» وهكذا لم نحصل منه على الترخيص لنا باستخدام قاعدة لغواصاتنا . (٢)

وعندما أخذ ماو يطرح فكرة اللحاق باميركا خلال خمس سنوات ، اتخذ

-
- (١) انعقد هذا الاجتماع فور عودة خروشوف من زيارته الاولى لاميركا ، وكان يومها لم يزل مثلكاً من روح «كامب دايفس» فاثار غضب ماو بامتداحه مزايا رجل الدولة التي يتحلى بها الرئيس ايزنهاور . وادى التفور الذي ولده هذا اللقاء العائر الى سحب التقنيين السوفيات المفاجئ بعد ان كانوا منهمكين في بناء عدد من المصانع . وقد اخذوا تصاميمهم معهم الى موسكو وتركوا المصانع دون انجاز .
- (٢) طلب الصينيون من طرفهم معلومات عن القنبلة الذرية ، ورفض الروس اعطائهم اياها .

ازاءنا موقف المهجوم علناً . ثم أخذ ينظم الكومونات ويبنى أفران صهر المعادن . (١)
وبناء لاوامر ماو ، أخذ الصينيون يزعمون ان ما يقوم به السوفييات من توزيع
السلع المادية حسب كمية ونوعية العمل المبذول هو مفهوم بورجوازي . وأخذت
التصريحات والبيانات تظهر في الصين ، وهي كلها تنهم الاتحاد السوفياتي بأنه
معلق بذيل البورجوازية . فنشأت عندها مسائل مبدئية أساسية حول مستقبل حركتنا
ووصلنا إلى حد الانفصال عن الصين . وأعلن ماوتسي تونغ أيضاً ان التعايش السلمي
هو فكرة بورجوازية . ومنذ ذلك الحين أخذت الصين تفترى على الحزب الشيوعي
السوفياتي وتندد بسياسته في التعايش السلمي . ولكن كما قلت ، انه من الصعب
معرفة حقيقة تفكير الصينيين . هل هم حقاً مع أو ضد التعايش السلمي .

اذكر انني عندما تقاعدت سمعت في الراديو ان ماو ، في حديث له مع كاتب
أميركي ، أجاب عن سؤال « هل حقاً تنوون شن حرب على العالم ؟ » بقوله :
« كلا ، فالصينيون لا يريدون الحرب . اننا لا نخوض الحرب الا اذا هوجمت
أراضينا . » وهكذا نجد ماو ، تحت ضغط أسئلة الصحفيين البورجوازيين ،
يجيب بأن الصين تقف مع التعايش السلمي . ان شعوري هو ان اعلان ماوتسي تونغ
المعروف هو من تأليف شوآن لاي . انني لم أعرف بالتأكيد ما هو موقف ماو
الحقيقي .

إلا ان ثمة امراً واحداً ، أعرفه على وجه التأكيد عن ماو وهو انه قومي .
فعندما عرفته كان يفجر رغبته في ان يسيطر على العالم . وكانت خطته
تبدأ بحكم الصين أولاً ، ثم آسيا ، ثم ... ماذا ؟ ان في الصين سبعة مليون انسان ،
وفي بلدان أخرى مثل ماليزيا يشكل الصينيون نصف سكانها تقريباً .

ان المحادثة البريئة التالية التي جرت بيني وبين ماو حول مائدة شاي ، مفيدة
جداً في ما تلقيه من ضوء على مفهوم ماو الخاص للقومية الصينية . سألني : « كم
من الغزاة قد فتحوا الصين ؟ » ثم أجاب بنفسه « لقد عانت الصين مراراً من
الفتوحات ، ولكن الصينيين قمصوا جميع الغزاة . » والقي بابصاره على المستقبل
فقال : « فكّر بالامر ، عندكم مئتا مليون بشري وعندنا سبعمائة مليون . »

(١) الاشارة هنا الى القفزة الشهيرة الكبرى الى الامام في ١٩٥٨ . وهي التي حاولت
الصين فيها تحويل الفلاحين الى بروليتاريا ببناء أفران صهر المعادن ومصانع
الفولاذ على الطريقة الريفيه ، وتنظيم عمال المزارع في كومونات . وقد اعتبر
الامر كله زندقة ومروقاً عند الروس .

ثم أخذ يتحدث عن مزايا الصين ، فذكر على سبيل المثال ان ليس في اللغة الصينية أية كلمات أجنبية . « ان العالم يستخدم كلمة الكهرباء المستعارة من الانكليزية ، بينما نحن الصينيين لنا كلمتنا الخاصة بنا . »
ان نزعتة الشوفينية واغتراره بعنا القشعريرة في عظامي .

ثم اقتدت الصحافة الصينية بماو ، فأخذت تزعم ان فلاديفوستوك تقع في الارض الصينية . وكتبوا ان الروس سرقوها من الصين . صحيح ان الصينيين في منعطف من التاريخ حكموا ذلك الجزء من سيبيريا ، قبل ان يوسع قياصرتنا حدودنا إلى تلك الأرض . ووافقنا ان نعقد مفاوضات مع الصينيين حول الحدود . فإرسلوا لنا صيغتهم للخريطة المعدلة . وما ان القينا نظرة عليها حتى أثارت غضبنا واشمئزنا ، فرميناها بعيداً . (١)

قد يكون ماو قومياً ، ولكنه ليس ساذجاً . فعندما بدأت الصين بإصلاحاتها التي تزعم انها تستهدف المساواة ، وصلت إلينا ، عبر الحدود ، كتابات حول الموضوع أخذت توزع بوفرة في سيبيريا السوفياتية . واذا اطلعت على ما يحدث قلت لرفاقي : « يجب وقف هذا الأمر فوراً . ان شعارات الإصلاحات الصينية مغرية جداً . وانكم على خطأ اذا كنتم لا تعتقدون ان بذور هذه الأفكار ستلقى تربة خصبة في بلادنا . »

وكان علينا ان نرد على افراضات ماو واقترحاته . واذا شئنا استعمال تمييز ملطّف ، أقول باننا لم نوافق على موقفه . وفي الحقيقة كان قد نقد صبري عليه . ولو أعدتم قراءة تقريري إلى المؤتمر الثاني والعشرين تجدون انني خصصت العديد من ملاحظاتي لمشكلات الصين ، رغم انني لم اذكر الصين اسماً . ففي المؤتمر الثاني والعشرين ، رفضنا مبادئ ماو الأساسية . (٢) على أي حال ، فانا أويد

(١) هذا يشير الى نزاع الحدود الذي استمر حتى يومنا هذا ، تارة يحمّد وتارة يشور . ففي القرن التاسع عشر ارغمت روسيا الصين الضعيفة على تسليم الأرض التي شملت فلاديفوستوك وما يعرف اليوم بالمقاطعة السوفياتية البحرية . وفي اوج المشادة السوفياتية - الصينية اصر ماو على وجوب اعادة النظر في الاتفاقات غير المتكافئة التي اضفت طابعاً رسمياً على عمليات اعادة السخ تلك . وهكذا طرح على بساط البحث كل موضوع الحدود .

(٢) في المؤتمر الثاني والعشرين المنعقد في اكتوبر ١٩٦١ إباط خروشوف لأول مرة اللثام عن الخلاف المتحكم ، بهجوم عنيف شه على البانيا (خليفة الصين) ودون ذكر الصين اسماً .

احد اصلاحات ماو المساواتية (المستهدفة المساواة) ذلك انه كان على حق في ازالة النسيج المقصب عن البزات العسكرية الصينية الرسمية . انني اعتقد ان ذلك كان شيئاً معقولاً ، وعلى الاساس نفسه اعتقد ان اعادتنا النسيج المقصب والشرائط المزركشة إلى بزاتنا العسكرية كان خطأً وقعنا فيه . فمن يحتاج مثل هذه الشارات الشرائط ؟ لقد ربنا الحرب الأهلية ولم أكن أحمل أي شرائط أو شارات مقصبة ، رغم انني كنت من رتبة مفوض . ولم يكن الجنود بحاجة إلى مشاهدة الشرائط حتى يعرفوا مفوضهم أو قائدهم . في ذلك الزمن كنا نستطيع سحق اعدائنا دون شرائط ومقصبات . أما اليوم فرجالنا العسكريون يرفلون بالاشكال حتى لكأنهم طيور الكناري .

ابان مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية المنعقد في الكرملين في ١٩٦٠ ، عارضنا الوفد الصيني برئاسة ليوشاوشي على خطّ مستقيم . وتكلم الالابانيون ضدنا مؤيدين الصين (١) وكان تصرف عميل ماوتسي تونغ ، انور خوجة معيماً جداً . فقد أخذ بلوح بخالجه في وجهنا بلوّم فاق لوّم الصينيين انفسهم . وكان ان نهض الرفيق دولوريس اباروري ، وهو ثوري قديم وعامل مخلص في الحركة الشيوعية وقال بغضب ، ان خوجة هو مثل كلب يعضّ اليد التي تطعمه . وكنا نرغب في عمل أي شيء حتى نحول دون حصول انشقاق بيننا وبين الالابانيين ، ولكن جهودنا كلها ذهبت أدراج الريح . وتطور خلافنا معهم بعد ان عرفنا انهم يتواطأون مع الصينيين في مؤامرة ضدنا . وتلقينا معلومات عن خيانتهم عندما مرّت بعثة البانية عبر موسكو عائدة من الصين . فقد جاءتنا احدى الالابانيات ، وكانت

(١) ان هجوم خروشوف الرئيسي الأول على الصين حدث في المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الروماني في حزيران ١٩٦٠ والمنعقد في بوخارست ، وذلك مباشرة بعد فشل مؤتمر القمة في باريس (الذي حطته مسألة طائرة اليو ٢) . وقد فوجئ جميع قادة الاحزاب الاجنبية الحاضرين بهذا الهجوم ، ولكن الأمر بقي مكتوماً . وجاءت المرحلة التالية من الهجوم في مؤتمر موسكو للاحزاب الشيوعية العالمية المنعقد في نوفمبر من العام نفسه . وفي المناسبتين هاجم خروشوف ماو بصراحة ، ان لم نقل بوقاحة ، وبتعابير متطرفة عاطفياً تجدها في هذا الفصل . ورد الصينيون بالكيل نفسه . والقي الزعيم الالاباني انور خوجة ارداً تلك الخطب وأعنفها . وفيها وجه اتهاماً لخروشوف انه توعد البانيا وحاول تجويعها لاختضاعها وانه خان ستالين . ولكن بقي الخلاف مكتوماً عن العالم الخارجي . انظر «الحرب الباردة الجديدة» : «موسكو ضد بكين» بقلم ادوارد كرانسكو وفيه وصف لهذه الاجتماعات العاصفة ولتطور الخلاف بصورة عامة .

امرأة شريفة صادقة ، واخبرتنا حقيقة ما يجري . مسكينة تلك المرأة ، فقد شنت بعد وقت قصير ، ولم يشنقها الغستاو بل «اخوانها» ورفاقها . أقول ذلك لأنها شيوعية وكانوا هم أيضاً شيوعيين . لقد شنقوها لأنها ، وهي الشيوعية ، جاءت البنا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي واعلمتنا بلقاءات الالبانيين السرية مع الصينيين .

يا لسذاجتنا ، فقد كان محمد شيكو يستنفي في احدى دور الصحة في الاتحاد السوفياتي . وعندما واجهناه باننا قد علمنا بالمحادثات التي تجري بين بلاده والصين ، قفز من فراشه في المستشفى وطار عائداً إلى البانيا .

ان انور خوجة ومحمد شيكو وباللاتو جاءوا إلى السلطة في البانيا على أثر انتفاضة خلعوا فيها السكرتير الأول الأصيل للحزب الالباني الذي كان رفيقاً صالحاً طالما امتدحه تيتو وأيده اليوغوسلافيون . وقد تحدّر هذا الرفيق من اسرة عمالية صلبة وكان مؤسس الحزب الشيوعي في البانيا . وأخبرني تيتو ان محمد شيكو بنفسه شنقه . وهذا الثلاثي - خوجة وشيكو وباللاتو - كانوا يأتون بالناس إلى المحاكمة ويصدرون بحقهم الأحكام دون تدوين ما يجري ، ثم يتحينون الفرص لاغتيال ضحاياهم سراً . كان نظامهم يقتضي أثار نظام ستالين ويبريا (١) .

ان الخلاف الذي نشب بين الاتحاد السوفياتي والالبانيا نبع اساساً من هلع البانيا من عملية الاخذ بالديمقراطية ، رغم انه مرت لحظات كنت افكر فيها ان ثمة مجالا لتسوية الامور . الا انني الآن اعتبر ان الخلاف كان محتماً . وقد حصل الانفصال النهائي مع الالبان في مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني في بوخارست في

(١٣) ان انور خوجة سكرتير الحزب الالباني الشيوعي ارتفع الى السلطة كعضو في المقاومة الالبانية با-تخدامه السلاح الذي زوده به الحلفاء واليوغوسلافيون ضد منافيه القوميين فضلاً عن الالمان . ومن الواضح ان خروشوف يشير هنا الى تصفية خوجة لكوسي كوكسي ، نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في ١٩٤٩ . وحصل ذلك بعد مقاطعة ستالين لتيتو . وكان كوكسي صديقاً ليوغوسلافيا . وقد نسي خروشوف ، ام لعله لم يعرف ذلك ، أن ستالين هو الذي حرص خوجة على التخلص من كوكسي . وكان محمد شيكو، اعنف الشيوعيين الالبانيين واقسامهم، وزيراً للداخلية الذي خلف كوكسي وعرف بتطهيرات التي لا ترحم . ثم اصبح رئيساً للوزراء . اما بيكوير باللاتو ، وزير الدفاع الالباني وعضو المكتب السياسي فقد حضر دورة دراسية في اكااديمية موسكو العسكرية في ٥٢ - ١٩٥٣ . ان وصف خروشوف لتصرفات هذا الثلاثي قريبة من الواقع .

تموز ١٩٦٠ ، حيث اجتمعنا لتبادل وجهات النظر في القضايا الدولية ، ولا سيما القضايا المختصة بالعلاقات بين الأحزاب الشيوعية الشقيقة من جهة ، والحزب الشيوعي الصيني في الجهة الثانية . والآن وقد أصبح الانفصال مكرساً بيننا وبين اللبنانيين ، فأنني أقف بثبات أشد إلى جانب مبادئ القيادة الديمقراطية التي لم يستطع اللبنانيون القبول بها .

ان الديمقراطية أمر مرغوب فيه دون ريب ، ولكن في البلاد الديمقراطية يصعب على الحاكم ان يبقى في الحكم ، اذا لم يحرص على التشاور مع أتباعه . وعلى الحاكم الديمقراطي أن يكون ذا عقل راجح ويستطيع التشاور مع رفاقه . وعليه ان يدرك ان مركز زعامته يتوقف على ارادة الناس في أن يكون زعيمهم ، وليس على ارادته هو في ان يقود الناس . والناس يقبلون بالزعيم اذا ما اظهر نفسه دوماً من صلب الحزب . وعلى الزعيم ان تكون حوافزه نابعة من مصالح الناس لا من الجشع أو الغرور . وعليه ان يتزود بالمعرفة والتواضع والقدرة على الانسجام مع الجماعة . وانني أكرر انه يجب ان يتولى مسؤولياته بارادة الحزب . بكلام آخر ، يجب ان لا يعلو على الحزب بل ان يظل خادماً . وهو يستطيع الاحتفاظ بمركزه مادام يتمتع برضى الحزب ودعمه . وفي سياق عملهم الحزبي لم يكن انور خوجه ومحمد شيكو وباللاتوقد عاشوا ومارسوا هذه المبادئ ، ولا ماوتسي تونغ كذلك .

على أية حال ، فاذا كان ماوتسي تونغ قد اساء استخدام السلطة وقيادة الحزب ، إلا انه ليس — كما يزعم البعض — انساناً معنوياً . فبعض الناس أخذ بالزعم القائل ان ماو شخص محبوب وانه يحتل القوى العقلية . هذا ليس صحيحاً ، فماو انسان ذكي جداً وداهية . وانني اذكر كيف انه لسنوات قليلة خلت كان الناس يتنبأون بأن ماوتسي تونغ لن يفوز في الصراع حول السلطة الذي كان دائراً في الصين . كنت أقول هذا هراء ، فمن المؤكد ان ماو سيفوز . وكنت على صواب في توقعي . اذ يبدو ان ماو هو صاحب السلطة العليا في الصين الآن ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟ ان الصينيين لا يعرفون أي قانون الا قانون القوة والسلطان . فاذا لم تطع أطاحوا برأسك ، ويفعلون ذلك بمهارة فنية : يشقونك وسط ساحة على مرأى الوف البشر . فأبي نوع من « السياسة » هي هذه ؟ كاد ينجل منها البرابرة ، انها لا قطع من ذلك ، السنا نعيش بالنتيجة ، في القرن العشرين ؟

ولكن رغم تفوق ماو في الصين ، فان ليوشاوشي لم يستسلم بعد . انه ضد سياسات ماو وهو لم يزل يكافح . ان ليوشاوشي رجل ذكي جداً ، وحوله مؤيدون كثيرون ، ولكن ليس عندهم سلطان حقيقي . ان الذي حفظ حياة ليوشاوشي

هو شعبيته . ان بإمكان ماو شتى ليو دون كبير عناء . الا ان قتله يثير غضب الجماهير . وان ماوتسي تونغ يعرف ذلك . فهو لا يحارب ليو كفرد ، بل كدافع عن نظام سياسي معين ، وبمعنى آخر : يسعى ماو إلى الانتصار على ليو بعزله سياسياً (١) .

ان كلامنا عن ماوتسي تونغ هو أمر مختلف جداً عن كلامنا عن الصين ككل ، ذلك انه اذا شرعنا في شتم الشعب الصيني كله ، نكون قد تجاوزنا الخط الفاصل بين التحليل الموضوعي والتحيّز القومي المسبق . اننا نصبح قوميين عندما نوّمن ان لامة معينة حقوقاً خاصة ومزايا متفوقة على سائر الامم . وهكذا بدأت النازية ، لذلك علينا ان ندرك ان الصينيين هم اخوتنا ، وانهم بشر مثلنا . وانه اذا هاجم الشباب الصيني سفارتنا في بكين فهذا لا يعني ان علينا ان نكره الشعب الصيني كله . فشباب الامة ليسوا الامة كلها ، يضاف إلى ذلك ان الشباب على أنواع مختلفة . فلم يكن الصينيون جميعاً في تلك الساحة يرحمون سفارتنا ، كما ان ليس كل من كان آنذاك في الساحة كان يهتف مؤيداً ماوتسي تونغ . تصوّروا كم من الصينيين يتحسرون الآن على ما حل ببلادهم ، ان في الصين اليوم كفاحاً عظيماً ، والناس يقتل بعضهم البعض الآخر .

اعتقد ان كل جهودنا يجب ان تبذل لحسم التراع القائم الآن بين الحزب الشيوعي السوفياتي والأحزاب الشيوعية الأخرى من جهة وبين الحزب الشيوعي الصيني من الجهة المقابلة . علينا بذل كل ما في وسعنا حتى نرى الحركة الشيوعية مرة ثانية متحدة وذات اتجاه واحد . علينا انجاز هذا الهدف ! انه هدف يخدم مصالح الشعب السوفياتي ، والشعب الصيني ، وجميع الشعوب المنجّبة للسلام في العالم .
ليحي الكفاح من أجل السلام ، وليحي التعايش السلمي .

(١) ليوشاوشي ، شخص معتدل وكان لفترة طويلة وريث ماو الظاهر . وقد رأس الوفد الصيني الى مؤتمر موسكو في ١٩٦٠ ، ولكنه لم يكن منجماً مع زميله المنيّف بينغ شين . وفي نزاعه الاخير مع ماو ، كان ليو محظوظاً في انه نجح بحياته .

هوشي منه وحرب فيتنام

يوميء خروشوف ، السياسي العجوز ، الى مأساة فيتنام دون التركيز على بربرية الحرب ، وهو ، اذ يفعل ذلك ، يقدم لمحة عن النزاع كما يشاهد من «الجانب الاخر» . وان وجهة نظره ، يشاركه في بعضها على الاقل ، الكثيرون من ذلك الجانب .

عندما ارغم المعتدون الأميركيون على وقف غاراتهم الجوية على أرض فيتنام الشمالية عانوا هزيمة خطيرة . ومن الواضح الآن ، كما تذكر الصحافة ، ان الولايات المتحدة لا تلتزم التزاماً صارماً بتعهداتها بوقف الغارات . ولكن مجرد وقف الغارات يشهد على المقاومة والشجاعة التي أبدتها الشعب الفيتنامي . ان مقاومته نظمت بقيادة الرئيس الراحل ، ذلك الانسان الرائع ، الرفيق هوشي منه . لقد قابلت العديدين خلال حياتي السياسية ، الا ان هوشي منه ترك في نفسي انطباعاً متميزاً ، كان ذوو التقوى الدينية يتحدثون عن الرسل القديسين : ان هوشي منه في نمط حياته التي عاشها ، وفي ما يترك في نفوس الناس من انطباعات هو واحد من هؤلاء «الرسل القديسين» . كان رسولاً للثورة . انا لا أستطيع ان انسى النظرة المتألقة في عينيه ، يشع منها بريق خاص من الخلاص والطهارة . كان اخلاص شيوعي لا يرقى اليه فساد ، وطهارة رجل وقف نفسه بالفكر والممارسة على خدمة القضية . كان يربح أي انسان بصدقه وباعتماده الراسخ الذي لا يتزعزع بأن القضية الشيوعية هي القضية الحق لشعبه ولبقية الشعوب . ان كل كلمة كان يقولها اشتملت على اعتقاده الراسخ باخوة الشيوعيين الطبقة جميعاً ، وبالتالي ان على جميع الشيوعيين أن يكونوا مخلصين وصادقين في تعاملهم فيما بينهم . كان هوشي منه عن حق واحداً من «قديسي» الشيوعية .

قابلته للمرة الأولى عندما كان ستالين على قيد الحياة . كان قد طار من ادغال فيتنام مباشرة إلى موسكو . فأخبرنا كيف تلمس طريقه عبر الادغال ، طيلة أيام ، مشياً على الاقدام حتى وصل إلى الحدود الصينية ، وكيف سافر من هناك إلى الاتحاد السوفياتي .

وفي أثناء حديثنا استمرّ هوشي منه يرقب ستالين بعينه غير العاديتين . وأكاد أقول ان سذاجة الطفل كانت تكمن في نظراته . واذكر انه بحث في محفظته الجلدية عن نسخة من مجلة سوفياتية اعتقد انها «الاتحاد السوفياتي تحت البناء» — ثم قدمها إلى ستالين طالباً منه توقيعها مع كلمة منه . فقي فرنسا تشيع مسألة أخذ كلمات مع توافيق من الأصدقاء والمعارف المشهورين . ويبدو ان هوشي منه كان متأثراً بهذه العادة . فقد اعجبته فكرة اظهار كلمة ستالين الموقعة للناس في فيتنام . وقد كتب ستالين كلمته الموقعة ، لكنه بعد قليل دبّر سرقة المجلة من «هو» لأنه كان قلقاً على كيفية استخدام «هو» للمجلة .

اخبرنا «هو» عن كفاح شعبه ضد قوات الاحتلال الفرنسي وطلب منا العون المادي ، لاسيما السلاح والذخائر . وبعد مغادرته موسكو ارسل يطلب «الكينا» لأن شعبه كان يعاني من الملاريا . وكانت صناعتنا الكيميائية تنتج كميات هائلة من الكينا ، فنصّرّف ستالين باريحية وأمر بارسال نصف طن من الكينا . ثم قابلت هوشي منه مراراً بعد ذلك ، واذكر تعاوننا أبان انعقاد مؤتمر جنيف (في ١٩٥٤) (١) . في ذلك الزمن كانت علاقاتنا لم تزل حسنة مع الحزب الشيوعي الصيني . وسبق انعقاد مؤتمر جنيف اجتماع تمهيدي في موسكو ، مثل فيه الصين شوآن لاي ، وفيتنام هوشي منه ورئيس الوزراء فام فان دونغ . وقد عملنا على بلورة الموقف الذي سنتخذه في جنيف ، اعتماداً على الحالة الخطرة

(١) كان هذا هو المؤتمر التاريخي الذي عقد في الربيع ومطلع الصيف في ١٩٥٤ وانتهى القتال بين الفرنسيين والشيوعيين الفيتناميين ، شاطراً فيتنام على الخط ١٧ ، في العشرين من تموز . وكانت ديان بيان فو قد سقطت في ٧ ايار ، بينما كان المؤتمر منعقداً . وبدا ان ليس ما يحول دون سقوط فيتنام كلها في قبضة الشيوعيين . وقد ناقش الاميركيون التدخل على اساس الانطلاق جواً من حاملات الطائرات ، ولكن ايزنهاور كان ضد هذه الفكرة . ولم يكن خروشوف نفسه في جنيف . في تلك المناسبة كان المفاوضون الرئيسيون هم انتوني ايدن مثلاً لبريطانيا ، ومانديس فرانس عن فرنسا ، وشوآن لاي عن الصين وهوشي منه عن حركته التي كان يترجمها .

في فيتنام ، اذ كانت المقاومة على وشك الانهيار . وكان رجال المقاومة يعولون على مؤتمر جنيف للتوصل إلى اتفاقية تمكنهم من الاحتفاظ بما استولوا عليه في كفاحهم ضد الاحتلال الفرنسي . وكانت هانوي لم تزال تحت نير الاحتلال الفرنسي . ولو القيت نظرة على الخريطة التي تضمنت مطالبنا للتسوية ، لانتضح ان معظم فيتنام كانت في أيدي الفرنسيين .

بعد احدى الجلسات التي كنا نعقدتها في قاعة كاترين في الكرملين ، انتحى بي شوآن لي جانباً وقال : « أخبرني الرفيق هوشي منه ان الحالة في فيتنام لا يرجى منها أي أمل ، واننا اذا لم نحصل على اتفاق وقف اطلاق النار سريعاً ، فلن يكون بإمكان الفيتناميين الصمود في وجه الفرنسيين . لذلك قرروا التراجع حتى الحدود الصينية اذا اقتضت الضرورة . وهم يريدون من الصين ان تحرك القوات إلى فيتنام كما فعلنا في كوريا الشمالية . وبكلام آخر ، يطلب الينا الفيتناميون مساعدتهم على طرد الفرنسيين . وقد خسرنا كثيراً في كوريا — كلّفنا تلك الحرب غالباً ، ولنا في حالة تسمح لنا التورط في حرب أخرى في هذا الوقت . » (١)

فأجبت الرفيق شوآن لاي قائلاً : « ان كفاحاً خطيراً تدور رحاه ، والفيتناميون يقاتلون ببسالة ، والفرنسيون يتكبدون خسائر فادحة ، فليس ما يدعو إلى ان تخبروا هوشي منه بانكم ترفضون مساعدته اذا ما تراجعت قواه إلى الحدود الصينية تحت وطأة ضربات الفرنسيين . فلماذا لا تكذبون عليه كذبة بيضاء ؟ دعوا الفيتناميين يعتقدون انكم سوف تساعدونهم اذا اقتضت الضرورة ، فيجنهم ذلك على المقاومة والصمود في وجه الفرنسيين ؟ » فوافق شوآن لاي على عدم اعلام الرفيق هوشي منه بأن الصين لن تدخل الحرب ضد الفرنسيين على أرض فيتنام . ثم حدثت اعجوبة . اذ ما ان وصلت الوفود إلى جنيف لحضور المؤتمر حتى ربح الثوار الفيتناميون انتصاراً عظيماً واستولوا على حصن ديان بيان فو . وفي الجلسة الاولى من المؤتمر اقترح رئيس الدولة الفرنسية ، مندريس فرانس ، اعتبار الحد الأقصى الذي تصل اليه القوات الفرنسية خط العرض ١٧ . وعندما بلغنا هذا النبأ من جنيف ، شهقنا اندهاشاً وفرحاً . لم نكن نتوقع شيئاً كهذا . كان الخط ١٧ أقصى ما كنّا نتوقع المطالبة به ، فاصدرنا إلى ممثلينا في جنيف تعليمات بان يطلبوا التوغل جنوباً حتى الخط ١٥ ، وذلك فقط لاطهار التشدد في المساومة . وبعد قليل من التردد .

(١) لم يعرف أحد في الغرب ان الحالة كانت في فيتنام ميؤوساً منها الى هذا الحد .

قبلنا عرض منديس فرانس ، ووقعت الاتفاقية . وهكذا نجحنا في تكريس مكاسب الشيوعيين الفيتناميين. (١)

وانني اغتنم هذه الفرصة لاعطي منديس فرانس حقه . اذ أنه قيّم الحالة التي يواجهها برصانة ودقة . فعلى افتراض ان رجال المقاومة كانوا يعانون الصعوبات في فيتنام ، الا انهم لا يعانونها أكثر مما كان يعانيها الجيش الفرنسي . لقد اتخذ منديس فرانس الخطوة الوحيدة المعقولة عندما انهى الحرب التي كان يشنها الفرنسيون في فيتنام ، وهكذا انسحبت فرنسا من الحرب وأجلت قواتها .

كل شيء كان قد سار على أفضل ما يرام لو ان جميع الفرقاء التزموا باحكام اتفاقية جنيف . فموجبها كان يجب ان تجري انتخابات عامة بعد سنتين . ولم يكن يخامرنا شك في أن هوشي منه - أي الشيوعيين والقوى التقدمية في فيتنام - سيخرج منها منتصراً . ولكن الذي حدث ان ذلك الرجل الشرير دالاس دفع الولايات المتحدة على التدخل وشن حرباً دامية على الشعب الفيتنامي لم تزل مندلة حتى اليوم . لن انطرق إلى الحرب بمحد ذاتها لأن احداثها وردت بالتفصيل في الصحف . الا انني ، أرغب في قول شيء حول الصعوبات التي تواجه الفيتناميين بسبب خلاف الاتحاد السوفياتي مع الصين .

ابان المرحلة الختامية لمؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية في ١٩٦٠ (٢) ، وافق الجميع على توقيع الاعلان الصادر عن المؤتمر باستثناء الصينيين الذين رفضوا بعناد القبول باحد بنود تلك الوثيقة ، وكان ذلك بنداً مهماً ، بحيث ان اشتمال الوثيقة عليه كان أمراً أساسياً ، لذلك لم نقبل بملاقاة الصينيين في منتصف الطريق .

وجاءني هوشي منه قائلاً : «ايها الرفيق خروشوف ، عليك ان تتساهل مع الصينيين حول هذا البند .» فأجبت : «كيف بإمكاننا التنازل والتساهل ؟ أنها مسألة مبدئية » فقال : « ولكن أيها الرفيق خروشوف ، ان الصين بلاد كبيرة جداً ، وحزبها الشيوعي كبير جداً أيضاً ، فلا يجوز السماح بوقوع انشقاق في

(١) قابل البريطانيون والفرنسيون اتفاقية الخط ١٧ بسرور بالغ . ومن الخير ان نعرف ان هوشي منه وخروشوف كانا هما الاخران مسرورين منها . غير ان دالاس لم يكن راضياً عن ذلك .

(٢) كان ذلك مؤتمر الاحزاب الشيوعية والعمالية (حضر منها ٨١ حزباً) الذي اشير اليه في الفصل السابق . وكان قبول الصينيين التوقيع على صيغة تسوية يحفظ فيها ماء وجه الشيوعية العالمية لفترة تلت .

الحركة . يجب ان يوافق الصينيون معنا جميعاً على توقيع هذه الوثيقة ، فهذا الاعلان يكتسب قيمته الدولية ، اذا تم الاجماع على توقيعه وتأيده . »

فاجبته : «أيها الرفيق هوشي منه ، ان وفدنا يبذل كل جهوده للحفاظ على وحدة الحركة الشيوعية ، فلا نطننوا اننا نقلل من مكانة الحزب الشيوعي الصيني وقوته . ولكنكم لا شك تفهمون استحالة المساومة على المبادئ . ان موقفهم يناقض نظرتنا الشيوعية الاممية بكاملها . انك تقول ان الصين بلاد كبيرة وان الحزب الصيني حزب كبير . على انكم توافقون على ان بلادنا ليست بلداً صغيرة ولا حزبنا بالحزب الصغير . ولكن هذا كله خارج عن الموضوع ، ان كل الاحزاب الشيوعية متساوية ومفروض ان تتمتع بحقوق متساوية وفرص متساوية . وما دامت الحال كذلك ، فلا بد من إخضاع كل مطامعنا لهدف واحد هو انتصار الحركة الشيوعية . »

ووافقي هوشي منه ، ولكنه قال : « بالنسبة لنا اننا نواجه صعوبة مزدوجة . فالصين جارتنا . » ثم بدا جلياً أنه ذهب ليتحدث إلى الصينيين . وبالتيجة ، بعد جهود مضنية وطويلة من جانب ممثلينا لمفاوضة الصينيين ، وجدنا صيغة مقبولة من الطرفين ، فوافقت الصين على توقيع الاعلان . لقد حزنت عندما قطعت الصين ، عملياً ، كل العلاقات السياسية معنا . وحين بدا الخلاف بين الحزبين الشيوعيين السوفياتي والصيني للعيان ، أخذت الصين تقود حزب العمال الفيتنامي بالرسن . ذلك ان قطاعاً واسعاً ، من سكان فيتنام ، وبالتالي من أعضاء الحزب هم صينيون . فأخذت الصين تستخدم نفوذها الواسع لبذر الشقاق بين فيتنام والاتحاد السوفياتي ، والعمل على تحويل الحزب الفيتنامي ضدنا . والآن يحتل بعض المناصب الرئيسية في زعامة الحزب الفيتنامي رفاق منحازون للصين . وحين كنّا نبذل أقصى جهودنا لمساعدة فيتنام ، كان الرفاق المنحازون للصين في فيتنام يبذلون هم أيضاً أقصى جهودهم لاسترضاء الصين . وبكلام آخر ، كانوا يعملون لا ضدنا فحسب ، بل ضد مصالح فيتنام الحيوية نفسها . انه لأمر يدعو إلى الاسى .

وكنا مخلصين ، لا نوفر جهداً الا بذلناه في معاونة فيتنام . وكانت العداوة التي بادرتنا بها العناصر الصينية في فيتنام كأساً مرة يصعب تجرّعها . لماذا اثير هذا الموضوع الآن ؟ انني أفعل ذلك ، نظراً لصلته بالمستقبل ، بعد موت هوشي منه .

ما أقرأه في الصحف ، يدل ان كل شيء يسير سيراً حسناً في العلاقات السوفياتية - الفيتنامية . فالبعثات الفيتنامية تزور الاتحاد السوفياتي ، ومراسلونا يذهبون إلى فيتنام ليكتبوا التقارير الصحفية عن كفاح الشعب الفيتنامي فنشر

بانتظام في الصحافة وتذاع على التلفزيون وفي الراديو .

الا ان بعض المعلومات التي تلقيتها تشير إلى ان الامور ، في الواقع ، لا تسير بالانسجام الذي صورته تلك التقارير . فالفيتناميون يبدوون بعض التحفظ الذي لا مبرر له ازاء الحكومة والحزب السوفياتيين . ان هذا يعني ان قوات موالية للصين لم تنزل في الحكم والقيادة الحزبية الفيتنامية. في ظاهر الامور يبدو ان العلاقات بين فيتنام والاتحاد السوفياتي هي علاقات صداقة وثقة متبادلة . من الممكن أن يكون هذا المظهر ليس الاّ واجهة كاذبة تطل به القيادة الفيتنامية — بموافقة وبركة الصينيين — حتى لا تخسر عون الاتحاد السوفياتي وبقية الأحزاب الشيوعية الشقيقة .

انني اتمنى صادقاً ان لا يكون الحال كذلك ، رغم انني لا انفي امكان وجودها . واود ان اعتقد ان فيتنام تريد حقاً قيام علاقات حسنة مع الاتحاد السوفياتي ، ولكنني اشك في ان تطلق الصين فيتنام من مغالبتها . والعناصر المنحازة للصين ستبقى قوية في فيتنام . وستبدل هذه العناصر قصارى جهدها حتى تجعل فيتنام خاضعة لتوجيه الصين .

والآن ، بعد وفاة الرفيق هوشي منه ، سيكون بمقدور النفوذ الصيني ان يكبر بسرعة أكثر من ذي قبل . واذا ما حدث هذا فيكون مما يدعو إلى الاسف ، ومما يشوه ذكرى الرفيق هوشي منه الذي وقف الكثير من فكره وطاقته على تعزيز علاقات الصداقة بين بلاده والاتحاد السوفياتي .

وبعد موت الرفيق هوشي منه ، القيت خطباً عديدة ودبجت مقالات بقلم أشخاص من مختلف الاتجاهات السياسية ، وجميعها تحاول الاجابة عن الاسئلة التي تقلق الجميع : كيف ستتطور علاقات فيتنام بالاتحاد السوفياتي ، بالبلدان الرأسمالية ، وبالأحزاب الشيوعية التي تختلف وجهات نظرها عن وجهة نظر ماوتسي تونغ ؟ وكيف ستتطور علاقات فيتنام مع قيادة الحزب الصيني ؟ ماذا سيطرأ من تغيير في سياسة فيتنام ؟ واود الآن أن اشارك في الرد على هذه الاسئلة ، وخصوصاً ما يتصل بالعلاقات السوفياتية الفيتنامية .

ليس بامكان أحد ، على وجه التأكيد ، التكهّن بما سيحدث . ثمة دلائل عما يمكن توقعه ، ولكن علينا الحذر من الاغراق في التكهّنات . ذلك لأن ليس هنالك من أساس ثابت . ان كل شيء هو في حالة تغيير . والامور عرضة للتبدل في أية لحظة . ومثال على ذلك انه مضى وقت كانت العلاقات حسنة بين الاتحاد السوفياتي والجمهورية الشعبية الصينية. ولكن الامور تبدلت الآن. وهذا يمكن ان يحصل

مع فيتنام . كانت علاقتنا في الاصل جيّدة جداً ، فاذا كانت قد تدهورت فيما بعد ، فذلك لم يكن ناتجاً عن خطأ ارتكبه الحزب الشيوعي السوفياتي ، بل كان ناتجاً في رأيي عن موقف مارتسي تونغ ونفوذه في فيتنام .

ان الوثائق التي اجعلها أساساً لتكهناتي ، أو على الأقل لتخميني للمجرى الذي ستبعه فيتنام ، هي ما سمّي «بوصية» هوشي منه وبيان لي دوان الشهير . (١) لقد قرأت الوثيقتين مرتين ، وقرأتهما بانتباه حتى استطيع تفسيرهما تفسيراً صحيحاً .

ففي وصية هوشي منه لا يرد شيء عن المعونة الضخمة المجردة عن كل غرض ذاتي التي قدّمها الاتحاد السوفياتي لفيتنام . ان معونتنا كانت حاسمة ، نظراً لأنه بدون تلك المعونة المادية من الاتحاد السوفياتي كان يتعذر على فيتنام ان تصمد في خوض حرب حديثة ضد عدو يملك من القوى والطاقت ما تملكه الولايات المتحدة . ولم يكن أمام فيتنام ، حتى تتلقى السلاح والعتاد الصالحين ، الا ان تعتمد على الاتحاد السوفياتي . وبدون ذلك كان لا أمل لها بالصمود ولا بالنصر . وليس بإمكان الصين مدّ الفيتناميين بما يحتاجون اليه . ان الصحافة العالمية ، بما فيها المعادية للشيوعية ، تعترف اليوم بان فيتنام كانت أعجز من ان تقاوم عسكرياً العدوان الأميركي لولا المعونة الاقتصادية والعسكرية التي زودها بها الاتحاد السوفياتي . ومثال على ذلك ، اننا لو أخذنا بلاغاً يعلن ان جيش التحرير الفيتنامي الشمالي قد شن هجوماً بالصواريخ على قاعدة جوية أميركية ، لتبادر فوراً إلى الاذهان ان هذه الصواريخ ليست من صنع الفيتنام ، بل من صنع الاتحاد السوفياتي . وان الاتحاد السوفياتي ، دون ان تكون له أغراض نفعية ، قد وقف نفسه على مساعدة كل القوى والشعوب المكافحة في سبيل استقلالها ، وفي سبيل حريتها الاقتصادية والسياسية ضد العدوان الامبريالي .

وقد أخذت ، حتى العناصر الموالية للصين في فيتنام تفهم ، آخر الأمر ، ضرورة الصداقة مع الاتحاد السوفياتي . فقد تصرف الفيتناميون بحكمة عندما كیفوا سياساتهم . أقول كیفوها ، لأنهم لم يبدّلوها تبديلاً أساسياً ، بل اكتفوا بتكييفها مع واقع الحال . فأخذوا بعين الاعتبار ضرورة استمرار الحرب في المستقبل ، مدرّكين ان الاتحاد السوفياتي وحده ، لا الصين ، هو الذي يستطيع مدّهم بما يحتاجون اليه .

(١) لي دوان هو العضو الاهم في القادة الفيتنامية الشمالية بعد موت هو .

سيستخدم الكفاح الوحشي الآن والنصر لما يزل بعيداً . غير ان تبشير انتصار
فيتنام على الامبريالية الاميركية يترامى في الافق البعيد . من هنا ، ان جهودنا لا
يجوز ان تكل وتمل ، وانما يجب ان تتضاعف في سبيل تعبئة كل شيء للوصول
بكفاح الشعب الفيتنامي إلى نهايته الظاهرة . ان الفيتناميين يسفحون دمهم ويقدمون
حياتهم في سبيل الحركة الشيوعية العالمية ، فهل سييدي خلفاء هوشي منه الحكمة
الكافية للفوز في هذا الكفاح ؟ ان الوقت وحده يملك الجهر اليقين !

فيدل كاسترو وأزمة الكاريبي

ربما كانت رواية خروشوف عن أزمة الصواريخ في كوبا في تشرين الاول ١٩٦٢ هي الأكثر صراحة وانسجاماً وتوافقاً مع الظروف والاحداث في كل هذه الذكريات . ان حذف بعض التفاصيل من قصة مألوفة الى هذا الحد يكاد لا يؤثر البتة . ولقد كان واضحاً في تاريخ مسبق لدى معظم المراقبين الواعين أن حوافز خروشوف كانت الى حد ما ، كما يصفها هنا . وفي الغرب ضخم كثيراً (باستثناء الرئيس كيني) أمر اذلال خروشوف بارغامه على سحب صواريخه . واستغل الصينيون ذلك الى الحد الاقصى وكذلك فعل خصوم خروشوف في الوطن . الا ان الحقيقة تبقى انه احرز ما اراد تحقيقه ولو بطريقة مختلفة عما قصد اصلاً : اعطى لكوبا كاسترو ضماناً ضد خطر الغزو المسيطر ، كما انه حقق تفاهماً مع الرئيس كيني الذي كان اغتياله بالنسبة لخروشوف كارثة شخصية وعيقة الاثر .

سأوضح حقيقة أزمة الكاريبي التي حصلت في اكتوبر ١٩٦٢ . لقد نشبت الازمة على النحو التالي :

عندما قاد فيدل كاسترو ثورته الى النصر ودخل هافانا بقواته ، لم تكن لدينا فكرة عن الخط السياسي الذي سيتبعه نظامه . كنا نعرف ان عدداً من الأفراد الشيوعيين يشتركون في الحركة التي يقودها كاسترو . الا ان الحزب الشيوعي في كوبا لم يكن على صلة به ، حتى ان سكرتير اللجنة المركزية للحزب الكوبي استقال من الحزب ليلتحق بكاسترو في الجبال . وعندما استولى رجال كاسترو على هافانا ، كان اتكالنا كلياً على تقارير الصحف والاذاعات ، سواء من كوبا نفسها أو من البلدان الاخرى لمعرفة حقيقة ما يحدث . وكانت الحالة اجمالاً تبدو غامضة . وكان الرجل الذي عينه فيدل رئيساً ، نكرة لم يسبق لنا ان سمعنا به من قبل . وفضلاً

عن ذلك فان كوبا لم تكن قد اعترفت بحكومتنا لذلك بقينا فترة طويلة من دون علاقات دبلوماسية مع النظام الجديد .

غير ان رجالنا الذين يعالجون شؤون أميركا اللاتينية والذين كانوا يسافرون في المنطقة ، تعرفوا إلى بعض الزعماء الكوبيين . وكانوا يعرفون راول كاسترو بصورة خاصة . ويبدو انه صدف ان احد رفاقنا كان على سفينة مبحرة إلى مكسيكو مع راول كاسترو . وأخبرني هذا الرفيق انه التقى راول وتحادثا معاً ، وانه شهد بام عينه ، عندما وصلا إلى مكسيكو ، راول يعتقل على مرأى منه . واستناداً إلى معلومات تلقيناها من مصادر متعددة عرفنا ان راول شيوعي حقيقي ، الا انه بدا انه اخفى قناعاته الحقيقية عن شقيقه فيدل . وتشي غيفارا كان أيضاً شيوعياً ، وكذلك عدد من الآخرين - أوهكذا اعتقدنا . ولم يكن متوافراً لدينا في غياب الاتصالات الرسمية مع القادة الكوبيين الا الشائعات .

وأخذت الأحداث تتوالى بسرعة . وقررنا ان نرسل ميكويان إلى أميركا لاجراء اتصالات غير رسمية مع رجال الاعمال الاميركيين . وكان سيحل ضيفاً على سفيرنا أناتولي دوبرنين . وأردنا ان نكشف ما هي إمكانات تنمية التجارة مع أميركا . وكان انستاس إيفانوفيتش الرجل الذي يفرضه المنطق ليقود هذه البعثة . فقد زار أميركا قبل الحرب ولا يزال لديه بعض الاتصالات القديمة . وكان اعتقادنا انه ما ان يظهر في واشنطن حتى يحتك به رجال الاعمال ممن يرغبون في البحث عن مصادر جديدة للربح .

وعندما كان ميكويان في الولايات المتحدة دعاه فيدل كاسترو إلى زيارة كوبا ، حيث قام بجولة وتفقد الامور وتحدث إلى الناس . ولم تكن بيتنا وبين كوبا بعد علاقات دبلوماسية . وكان كاسترو يتبع سياسة حذرة جداً ازاءنا . وثمة نادرة كانت تروى عن الحالة في كوبا ودور كاسترو في ذلك الوقت : يصعد قادة الثورة الكوبية إلى السماء ، فيخرج القديس بطرس لملاقاتهم باعتباره ممثل الله الرسمي ، ويأمرهم جميعاً بأن يقفوا في الصف . ثم يقول : جميع الشيوعيين ، تقدموا ثلاث خطوات إلى الأمام . فتقدم غيفارا ، فراول ، فواحد ثالث . أما الباقون بما فيهم فيدل فيبقون في الصف . فيحتمل بطرس في فيدل ويصبح به : « ها ، أنت ، أيها الطويل ، ذو اللحية ، ما الأمر ، ألم تسمع ما قلته ؟ ليتقدم جميع الشيوعيين ثلاث خطوات إلى الأمام ! »

وعقدة القصة انه بينما كان القديس بطرس وجميع الناس يعتبرون فيدل شيوعياً لم يكن يعتبر هو نفسه كذلك . ولذلك ظن ان أمر بطرس لايغنيه هو . وبعد زيارة ميكويان بقليل أنشأنا علاقات دبلوماسية مع كوبا . وكان

الاميركيون قد قطعوا النفط عن كوبا ، وهو مورد طاقتهم الرئيسي . فاضطر الكوبيون ان يتحولوا الينا طلباً للمساعدة . وكانت الحياة في خطر التوقف على الجزيرة . فكان من الضروري الملح ان ننظم عملية عاجلة لتزويد كوبا بالنفط على نطاق واسع . ولكن ذلك كان سهلاً من الناحية النظرية فقط . ولما لم يكن تحت تصرفنا عدد كاف من ناقلات النفط العابرة للقارات ، فان الجهد الذي بذلناه لتزويد كوبا بالمتطلبات النفطية كان عبئاً ثقيلاً على سفننا ، مما حملنا على طلب ناقلات جديدة من إيطاليا .

وعندما وافقت إيطاليا على بيعنا الناقلات ، ادى ذلك إلى نزاع حاد بين إيطاليا وأميركا . فقد اتهم الاميركيون الطليان بخرق روح التضامن مع اقرانهم من الرأسماليين . وقد تعلمنا من ذلك انه اذا سنحت الفرصة أمام بلد رأسمالي لربح أموال اضافية ، فانه يرمي مسألة التضامن الاقتصادي جانباً . وما ان أقمنا العلاقات الدبلوماسية مع كوبا حتى ارسلنا دبلوماسياً عريقاً ليكون سفيرنا . كما كان عندنا اليكسيف ، وهو صحافي مقرب جداً من فيدل وبصورة أكثر من راول . وعندما كان القادة الكوبيون يريدون مناشئاً كانوا يطلبونه ، في الاغلب ، من اليكسيف ، لا من سفيرنا . فيهرع اليكسيف إلى الاتصال فوراً بموسكو .

ومن حسن حظنا ان اليكسيف كان هناك ، لأنه تبين ان سفيرنا لم يكن مؤهلاً للعمل في بلد خارج لنوّه من الثورة . فمن مشاكله انه وقع بمرعة أسير البيروقراطية . ومشكلة ثانية انه عندما احتدم الأمر وبدأ اطلاق النار ، طلب من الكوبيين ان يزودوه بحرس شخصي . وقد أثار ذلك هول الزعماء الكوبيين وتذمرهم لأنهم جميعاً كانوا من قواد العصابات الذين عادوا مؤخرأً من الجبال . فبينما كانوا هم يعرضون صدورهم ليران اعداء الثورة ، فيتجولون من دون حرس على الاطلاق ، يأتي هذا الشيوعي الارستقراطي ويبدأ بالمطالبة بنوع خاص من الحماية .

وبعد أن تبين لنا ان سفيرنا يتصرف على نحو يسيء إلى علاقاتنا مع كوبا . استدعيناه وبعيننا اليكسيف مكانه . وتبين ان ذلك كان اختياراً عظيماً ، اذ كان الكوبيون قد خبروا اليكسيف ووثقوا به ، كما كان هو من نمط الدبلوماسيين الذي يرضيهم .

وفي أثناء ذلك كانت المؤامرة تنعقد خيوطها جيداً . ولم يعد كاسترو جالساً على السياج يتفرج ، بل أخذ يتصرف كشيوعي كامل رغم انه لم يسم نفسه شيوعياً . وأخذ يضم الشيوعيين إلى حكومته .

وأخذت سياسات كاسترو تكثر من عدد خصومه . فالرئيس الذي عبته عندما تسلّم السلطة هرب إلى أميركا . والعديدون ممن حاربوا إلى جانبه أيام الكفاح من أجل الاستقلال بدأوا يتركونه . والسبب الكامن وراء هذا التحول هو أن العديد منهم لم يكن يريد الاصلاحات الاشتراكية . كان كيل صبرهم قد طفق بالنسبة لبايستا ، وتاقوا إلى اسقاط النظام الفاسد القديم ، ولكنهم كانوا ضد تأميمات كاسترو كذلك ، وضد القيود التي فرضها على الملاكين ، وضد مصادرته أملاك الاميركيين الأثرياء .

وفي غضون ذلك كان الاميركيون يراقبون كاسترو عن كثب . في البداية اعتقدوا ان الدعامات الرأسمالية للاقتصاد الكوبي لن تُمس . ولذلك فعندما أعلن كاسترو انه سيضع كوبا على طريق الاشتراكية فقد الاميركيون أملمهم فيه وبضبط تصرفاته ، مما لم يترك أمامهم إلا خياراً وحيداً : الغزو .

طلب الكوبيون منا السلاح ، فاعطيناهم الدبابات والمدافع المضادة للطائرات وبعض الطائرات المقاتلة . وأرسلنا اليهم المدربين والموجهين . ونتيجة مساعدتنا أصبحت كوبا مسلحة تسليحاً جيداً . وكان الجيش الكوبي يفتقر في الأساس للخبرة ، اذ ان الكوبيين لم يكونوا تعودوا القتال سوى بالاسلحة الخفيفة ، كالبنادق الاتوماتيكية والقنابل والمسدسات . على أنهم تعلّموا بسرعة ، وبمساعدة مدربيننا ، استخدام الأسلحة الحديثة التي زودناهم بها .

وسمعنا أول الأمر من الاذاعة ان غزواً مضاداً للثورة قد شن ضد كوبا (١) ، ولم نكن نعرف حتى هوية الغزاة : هل هم كوبيون متآمرون أم أميركيون ، إلاّ اننا عرفنا بعدئذ ان الغزو يتمتع بدعم الاميركيين .

تحركت قوات فيدل كاسترو بسرعة وقضت على الغزاة . وكان الاميركيون قد وضعوا ثقة كبيرة في المتآمريين ، وافترضوا ان الكوبيين سيؤيدون الغزو ، وان الغزاة سيتمكنون من الاطاحة بكاسترو اذا قدم الاميركيون لهم الدعم الكافي . بعد انتصار كاسترو الساحق على اعداء الثورة ، ضاعفنا مساعدتنا لكوبا . اعطيناهم من الأسلحة بقدر ما يستطيع الجيش الكوبي ان يستوعب . لكن المشكلة الحقيقية لم تكن في كمية أو نوعية الاسلحة ، بل في عدم توفر الاشخاص الذين يستطيعون استعمال الاسلحة الحديثة .

قبل ان يقع الغزو نهائياً ، أذاع كاسترو ان كوبا ستعج طريقاً اشتراكياً .

(١) كان ذلك في خليج الخنازير في نيسان ١٩٦١ .

ولقينا صعوبة في فهم توقيت هذا التصريح . اذ كان الاثر الفوري لاعلان كاسترو ، توسيع الهوة بينه وبين الناس الذين كانوا ضد الاشتراكية ، وضيق دائرة اولئك الذين يستطيع الاعتماد عليهم . كان موقف كاسترو هذا ، من حيث الشجاعة ، صحيحاً ومثيراً للعجاب ، الا انه من ناحية تكتيكية لم يكن صحيحاً . (١)

لكن كاسترو انتصر على أي حال . لقد هزم رجال الثورة المضادة وسقط العديد منهم في قبضته أسرى . رحبنا بانتصار كاسترو ، على اننا كنا واثقين من ان الاميركيين لن يتركوا كوبا وشأنها . وكانت الولايات المتحدة قد وضعت ثقتها في المهاجرين الكوبيين وستكرر المحاولة . وقد تعلم هؤلاء امثلة من هزيمتهم وهم لن يرفضوا الفرصة لتكرار اعتدائهم .

ان موقع كوبا الجغرافي جعلها معرضة جداً لاعتدائها . وكان الشاطئ الكوبي لا يبعد إلا أميالاً قليلة عن الشاطئ الاميركي ، وكان يمتد على شكل يتيح للمهاجرين سهولة الوصول كما انه يقدم في الوقت نفسه صعوبات مذهلة للمدافعين عنه ، مما جعل فرص غزوه لا تحصى ، لاسيما اذا كان للغازي مدافع بحرية ودعم جوي . وكنتنا واثقين من ان الاميركيين لن يكتفوا انفسهم مطلقاً مع كوبا كاسترو . كانوا يخشون ، بقدر ما كنتنا نأمل ، أن يصبح وجود كوبا ذات نظام اشتراكي ، يجتذب كالمغناطيس دولاً أميركية لاتينية أخرى إلى هذا النظام .

في ضوء هذا التدخل الأميركي في الكاريبي ، ما عساها تكون سياستنا ؟ هذا السؤال كان يشغل بالي بصورة مستديمة وغالباً ما كنت أبحث مع أعضاء البريزيديوم . ووافقتي الجميع على ان أميركا لن تدع كوبا وشأنها ما لم نقيم بخطوة ما . وكنتنا ملزمين أن نفعل كل ما بوسعنا فعله لحماية وجود كوبا كبلد اشتراكي وكممثل حي لسائر بلدان أميركا اللاتينية . وكان واضحاً بالنسبة لي اننا قد نخسر كوبا اذا لم نقيم بخطوات حاسمة في الدفاع عنها .

ان مصير كوبا والحفاظ على الهية السوفياتية في ذلك الجزء من العالم قد شغلني حتى عندما كنت منهمكاً في إدارة شؤون الدولة في موسكو والسفر إلى بلدان شقيقة أخرى . وعندما كنت في زيارة رسمية لبلغاريا ظلت فكرة واحدة تنخر دماغي : ماذا يحدث اذا خسرنا كوبا ؟ كنت أعرف ان ذلك سيكون ضربة رهيبية للماركسية اللينينية وان مركزنا في العالم سيصاب بنكسة كبرى وبصورة خاصة

(١) ناقض كاسترو باعلانه الصريح عن مبادئ الاشتراكية تعاليم لينين عن التكتيك الثوري الذي يعطي قيمة كبرى لعامل الخداع .

في أميركا اللاتينية . فاذا سقطت كوبا ، فان للدول الاميركية اللاتينية الاخرى سترفضنا ، مدعية انه برغم قدرة الاتحاد السوفياتي فانه لم يستطع أن يفعل شيئاً لكوبا باستثناء الاحتجاجات الفارغة في الأمم المتحدة . كان علينا ان نفكر في طريقة لمواجهة أميركا أكثر من الكلمات . كان علينا البحث عن انشاء عائق ملموس لنقف في وجه التدخل الاميركي في الكاريبي . ولكن ماذا على وجه التحديد ؟ الجواب المنطقي كان الصواريخ .

ان الولايات المتحدة كان قد سبق لها وأحاطت الاتحاد السوفياتي بقواعد فاذا فتحنا وصواريخنا . كنا نعرف ان الصواريخ الاميركية موجّهة ضدنا في تركيا واطاليا ، ناهيك بالمانيا الغربية . كانت مراكزنا الصناعية الحيوية مهددة بالطائرات حاملات القنابل الذرية والموجّهة بالصواريخ ذات الرؤوس النووية . وبوصفي رئيساً لمجلس الوزراء ، وجدت نفسي في وضع صعب ، اذ كان عليّ تقرير مواجهة التهديد الاميركي ، شرط ان نتجنب في الوقت نفسه الحرب . ان باستطاعة أي أبله أن يولع نار الحرب ، ولكن ما ان يفعل ذلك حتى يتعذّر اخمادها — لاسيما اذا كانت حرباً نووية .

وخلال زيارتي تلك لبلغاريا خطرت لي فكرة تركيب صواريخ ذات رؤوس نووية في كوبا ، من دون ان تكشف أميركا ذلك الا بعدما يكون الاوان قد فات . كنت أعرف أن علينا قبل كل شيء التحدث إلى كاسترو وشرح استراتيجيتنا له في سبيل الحصول على موافقة الحكومة الكوبية . وكان تفكيرى هو الآتي : اذا ركّزنا الصواريخ سراً ، ثم اكتشفت الولايات المتحدة ذلك بعدما تكون الصواريخ جاهزة للانطلاق ، فانها ستفكر مرتين قبل ان تحاول تصفية منشأتنا بالوسائل العسكرية . وكنت أعرف انه سيكون بمقدور الولايات المتحدة تصفية بعض منشأتنا لكن ليس كلها . فاذا بقي ربع أو عشر أو حتى مجرد صاروخ أو صاروخين كبيرين فانه سيظل بإمكاننا ضرب نيويورك ، ويؤدي ذلك إلى إبادة عدد كبير جداً من الناس — لا أعرف العدد بالضبط ، طبعاً ليس كل سكان نيويورك . هذه مسألة اترك لعلمائنا وعسكرينا أن يحددها . فهم يختصون في الحرب النووية ويعرفون كيفية حساب نتائج ضربة صاروخية ضد مدينة في حجم نيويورك ، ولكن هذا كله خارج الموضوع .

كان الأمر الأساسي أن تركيب صواريخنا في كوبا سوف يمنع الولايات المتحدة من القيام بعمل عسكري متهور . وفضلاً عن ذلك فانه يجعلنا على قدم المساواة في ما يطلق عليه الغربيون «توازن القوى» . اذ ان الاميركيين كانوا قد طوفوا بلدنا نحن بالقواعد العسكرية وهددونا بأسلحتهم النووية ، والآن سيعرفون تماماً

ماذا يعني ذلك . لن نفعل أكثر من اعطائهم جرعة من دواءهم يستخدمونه ضد الآخرين . لقد آن الاوان لكي تعرف أميركا معنى ان تكون أرضها وشعبها مهددين . نحن الروس قد عانينا من حروب ثلاث جرت في نصف قرن على أرضنا : الحرب العالمية الأولى ، والحرب الأهلية ، والحرب العالمية الثانية . ان أميركا لم تضطر قط إلى خوض حرب على أرضها — بالاقبل ليس في السنوات الخمسين الماضية . لقد أرسلت قواتها إلى الخارج للقتال في حربيين عالميتين وجنت ثروة نتيجة ذلك . وأراقت أميركا نقاطاً قليلة من دمها ، في حين كانت تجني المليارات من استنزاف دماء سائر البشر .

كل هذه الأفكار بقيت تدور في رأسي وأنا في بلغاريا . كنت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً أفكر في الامر . لم اخبر أحداً بما كنت افكر فيه ، بل أبقيت عذابي العقلي لنفسى ، لكنني لم استطع ابعاد فكرة تركيب الصواريخ في كوبا التي أخذت تنضج في فكري .

وبعدما عدت إلى موسكو عقدت اجتماعاً وقلت ان لدي بعض المقترحات بشأن كوبا . وقدمت فكري مع كل الاعتبارات التي ذكرت وفي اطار الغزو المضاد للثورة الذي كان كاسترو سحقه قبل قليل ، وقلت انه سيكون من الغباء الاعتماد ان الغزو المقبل والذي لا مفرّ منه ، سيكون سيء التخطيط والتنفيذ كالاول . وحذرت من ان فيدل قد يسحق ، وقلت اننا الوحيدون القادرون على الحؤول دون وقوع مثل هذه الكارثة .

وخلال المباحثات داخل الحكومة قررنا ان نركز صواريخ متوسطة المدى وأجهزة للاطلاق وقاذفات قنابل (اليوشن — ٢٨) في كوبا . ورغم ان هذه لا تنفع كثيراً كقاذفات الا انها نافعة ضد قوة انزال عدوة . ذلك ان الاليوشن ٢٨ كانت بطيئة جداً في الطيران فوق أرض العدو مما يسهل اسقاطها ، الا انها ذات مؤهلات جيدة للدفاع عن الشواطئ .

كانت اليوشن ٢٨ اولى قاذفاتنا النفثة ، وفي زمنها كانت سيدة الاجواء ، ولكن عندما قررنا مد كوبا بالمعونة العسكرية ، كانت اليوشن ٢٨ قد أصبحت خارج انتاجنا الحربي المقرر .

وبعد فترة قصيرة من شروعا في شحن الصواريخ ، بدأ الاميركيون يشتبهون بالامر . فقد أخبرتهم استخباراتهم بان عدد السفن الذاهبة إلى كوبا قد تزايد فجأة وان رجالنا يفرغون السفن من حمولتها حالما تصل الموانئ الكوبية . لم نكن نسمح للكوبيين لا في تفريغ السفن ولا في إقامة الصواريخ بانفسهم . ورغم انه لم يكن لدى الاميركيين معلومات مباشرة عما نسلّم للكوبيين ، الا انهم عرفوا ان

ما نفعله انما نفعله بأيدينا نحن . ولم يمض وقت طويل حتى استنتجوا على أساس الصور الاستطلاعية ، اننا نقيم قواعد للصواريخ . كما عرفوا أيضاً بامر طائرات اليوشن ٢٨ التي طارت إلى كوبا .

واصيب الاميركيون برعب وزدنا في عدد الشحنات . كنا قد أوصلنا كل شيء تقريباً في الوقت الذي بلغت الأزمة نقطة الانفجار .

بعض الناس يقول انه كان علينا ان نركز الصواريخ المضادة للطائرات قبل الصواريخ العابرة للقارات ، من أجل اغلاق المجال الجوي فوق كوبا . ان هذا ليس منطقياً . اذ كم من صواريخ أرض - جو تستطيع ان توضع على جزيرة صغيرة ومستطيلة ؟ . ان ثمة حداً للمنشات الصاروخية التي تستطيع اقامتها على جزيرة صغيرة مثل كوبا ، ثم انك بعد أن تكون قد أطلقت صواريخك كلها تصبح مكشوفاً . وفضلاً عن ذلك فللصواريخ المضادة للطائرات مدى قصير جداً . فبالإمكان بسهولة تعطيلها من الجو والبحر .

اريد أن اوضح هذا الأمر : عندما وضعنا الصواريخ العابرة للقارات في كوبا لم تكن لدينا أية رغبة في اشعال حرب . بل العكس ، كان هدفنا الرئيسي هو ردع أميركا من بدء حرب . كنا نعي جيداً ان أي حرب تبدأ حول كوبا ستحول إلى حرب عالمية . وان أي غبي كان يمكن ان يشعل حرباً بين أميركا وكوبا .

كانت كوبا تبعد ١١ ألف كيلو متر عنا ، والمجنون وحده يمكن أن يفكر في اننا نريد غزو القارة الأميركية من كوبا . على العكس من ذلك ، اردنا ان نمنع الاميركيين من غزو كوبا وأردنا أن نجعلهم يفكرون مرتين قبل الإقدام على أي أمر ، فواجهناهم بصواريخنا . وقد حققنا هذا الهدف ، لكن ليس دون المرور بفترة توتر خطيرة . وعندما أدرك الاميركيون قصدنا في كوبا ، شنوا حملة صحفية ضخمة ضدنا ، فزعموا باننا نهدد سلامة الولايات المتحدة وما إلى ذلك . وباختصار ، أخذت العداوة تكبر ، واشعلت الصحافة الاميركية اللهب .

ثم ذات يوم من تشرين اول أصدر الرئيس كيندي بياناً حذر فيه من ان الولايات المتحدة ستخذ أية اجراءات تراها ضرورية لابعاد ما وصفه «بتهديد» الصواريخ الروسية في كوبا . وبدأ الأميركيون يقومون بعرض قوة عدائي مطوقين الجزيرة ببحريتهم .

وكان الأميركيون حسب تقديرنا يحاولون تخويفنا ، لكنهم لم يكونوا أقل منا خوفاً من حرب ذرية . لم يكن قد افصح امامنا الوقت الكافي لتسليم الشحنات إلى كوبا ولكن كنا قد أنشأنا صواريخ تكفي لتدمير نيويورك وشيكاغو وغيرهما

من المدن الصناعية، ناهيك بقرية صغيرة مثل واشنطن . ولا اعتقد ان أميركا واجهت خطراً حقيقياً بالدمار كما واجهت في تلك اللحظة .

في أثناء ذلك مضينا في عملنا . لم نترك انفسنا عرضة للتخويف والارهاب . وأبحرت سفننا وسط البحرية الأميركية . لكن الأميركيين لم يحاولوا توقيفها أو حتى تفتيشها . وكان في ذهننا انه ما دامت الولايات المتحدة تكفي ببوادر التهديد فان في امكاننا التظاهر بتجاهل المضايقة . كنا نتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الاميركيون . كان سلوكنا في الحلبة الدولية خاضعاً للقواعد والحدود ذاتها . كدنا فنجز شحنتنا عندما اقربت الأزمة من نقطة الانفجار . وبدأت الصحافة الغربية تغلي بالغضب والقلق . فأجبناها ، ولكن دون الوقوع في المستيريا التي كانت فريستها الصحافة الأميركية . وقد أبلغنا شعبنا بالوضع الخطر ، رغم اننا حرصنا على تقديم الحقائق بشكل لا يثير الذعر .

انني أذكر فترة الأيام الستة والسبعة التي كان فيها الخطر مستطيراً . وسعياً مني في تخفيف حرارة الوضع بشكل ما ، اقترحت على الأعضاء الآخرين في الحكومة : أيها الرفاق ، افلنذهب إلى مسرح البولشوي هذا مساء . أن شعبنا والأجانب ، سيلاحظون ذلك ، وربما هدأ هذا التصرف من روعهم ، فيقولون لانفسهم : اذا كان خروشوف والزعماء الآخرون يستطيعون الذهاب إلى الاوبرا في مثل هذا الوقت العصيب ، اذن نستطيع الليلة أن نذهب نحن إلى فراشنا آمنين» (١). كنا نحاول أن نغطي قلقنا الذي كان بليغاً .

ثم بدأ تبادل المذكرات . كنت أملّي الرسائل من جانبنا . وقد أمضيت واحدة من أكثر الليالي خطراً في الكرملين . نمت على مقعد دون أن أخلع ثيابي . لم أكن اريد أن يصيبني ما أصاب ذلك الوزير الغربي الذي داهمته أحداث السويس في ١٩٥٦ وهو غاف ، فكان عليه أن يركض وهو يلبس الشورت حتى انتهت حالة الطوارئ . كنت مستعداً لتلقي أنباء مقلقة في أية لحظة ، وأردت أن أكون مستعداً كذلك للرد فوراً . ووجه الرئيس كيندي انذاراً ، طالباً أن ننقل صواريخنا وقاذفاتنا من كوبا . اذكر تلك الأيام تماماً . واذكر بصورة خاصة تبادل الرسائل مع الرئيس الاميركي لانني أنا الذي بدأ هذا الاتصال وانني اتحمل المسؤولية كاملة

(١) عندما يذهب رجال الكرملين الى مسرح البولشوي جماعة وهم يتسمون ، غالباً ما تكون ازمة ما في الافق. ومن المناسبات المذكورة بهذا الصدد ليلة اعتقال بيريا . وكان بيريا معهم ايضاً .

لواقع كوننا ، الرئيس الاميركي وأنا ، دخلنا في اتصال مباشر في أكثر مراحل الأزمة دقة وخطراً .

وصلت الامور إلى ذروتها بعد ٥ أو ٦ أيام عندما قال سفيرنا في واشنطن ، أناتولي دوبرنين ان شقيق الرئيس ، روبرت كيندي ، ذهب لمقابلته في زيارة غير رسمية . وجاء في تقرير دوبرنين ما يأتي : كان روبرت كيندي يبدو متعباً ، وكان واضحاً من عينيه انه لم ينام منذ أيام . وقد قال هو نفسه انه لم يذهب إلى البيت منذ ٦ أيام . وقال لي ان الرئيس في وضع خطر ، وهو لا يعرف كيف يخرج منه . وقال : « ان عسكريين يضغطون علينا لاستخدام القوة ضد كوبا . وربما يكون الرئيس في هذه اللحظة يكتب رسالة إلى الرئيس خروشوف . اننا نريد أن نطلب اليكم يا مستر دوبرنين ، نقل رسالة الرئيس كيندي إلى الرئيس خروشوف عبر طريق غير رسمية . الرئيس كيندي يرجو الرئيس خروشوف أن يقبل عرضه وان يأخذ بعين الاعتبار خصائص النظام الاميركي . وبرغم ان الرئيس نفسه يعارض بشدة شن حرب ضد كوبا ، فان سلسلة من الأحداث قد تتم ضد ارادته . ولهذا السبب فان الرئيس كيندي يناشد الرئيس خروشوف مباشرة مساعدته في تصفية هذا النزاع . فاذا استمر الوضع على ما هو عليه مدة أطول ، فان الرئيس ليس واثقاً من ان العسكريين لن يطيحوا به ويستولوا على السلطة . ان من الممكن ان يشق الجيش الاميركي عصا الطاعة (١) . » لم اتجاهل هذا الامكان ، كنا نعرف ان كيندي شاب وان أمن الولايات المتحدة مهدد فعلاً . وشعرنا لبعض الوقت ان الرئيس قد يفقد السيطرة على عسكرييه . وها هو الآن يعترف بنفسه بهذه الامكانية . ورددت رسالة كيندي بالحاح الطلب الاميركي بسحب الصواريخ والقاذفات من كوبا . وشعرنا من خلال لهجة الرسالة ان الولايات المتحدة كادت تصل فعلاً إلى نقطة حرجية . وكتبنا رداً إلى كيندي قلنا فيه اننا انشأنا الصواريخ بهدف الدفاع عن كوبا ، واننا لا نسعى إلى أي هدف سوى منع قيام غزو كوبا والتأكد من أن كوبا ستكون قادرة على اتباع طريق اختارها شعبها ولم يحترها فريق ثالث .

وبينما كان هذا التبادل يتم بالطرق الرسمية كان شقيق الرئيس ينقل اليها الرسائل الأكثر سرية وخصوصية . وذات مرة عندما كان يتحدث روبرت كيندي إلى دوبرنين كاد يبيكي : « لم أر أطفالي منذ أيام ، والرئيس لم ير أطفاله أيضاً . اننا

(١) من الواضح ان هذا تفسير خروشوف لما وصله . لانه لم يقيم دليل على ان الرئيس كيندي كان يعمل تحت وطأة الخوف من انقلاب عسكري .

نصرف الليل والنهار هنا في البيت الأبيض ، لا أعرف كم لا يزال بإمكاننا ان نصمد في وجه جنرالائنا . » ورأينا ان علينا تغيير موقفنا بسرعة . وقلت : « أيها الرفاق . علينا ان نبحث عن طريقة كريمة للخروج من هذا النزاع . وفي الوقت نفسه علينا ان نتأكد من اننا لا نصحّي بكوبا . » وبعثنا إلى الأميركيين برسالة نقول فيها اننا نوافق على نقل صواريخنا وقاذفاتنا من كوبا ، شرط ان يعطي الرئيس وعداً بأن لا القوات الأميركية ولا أية قوات أخرى تقوم بغزو كوبا . وأخيراً رضخ كيندي ووافق على الادلاء بتصريح يعطينا مثل هذا الضمان . وعليّ أن اذكر ان سياستنا كانت من الأساس واضحة في القيادة الجماعية . فنحن لم نقدم على المجازفة بارسال الصواريخ إلى كوبا الا بعد جلستين أو ثلاث جلسات من المناقشات المطولة التي توصلنا بنتيجتها إلى ذلك التدبير . كنت أحس بان لا المبادرة بالاقترح ولا القرار الصادر بالنتيجة يحوز فرضهما على أحد . وحزمت على اعطاء القيادة الجماعية الوقت الكافي حتى يتبلور الموضوع في ذهن كل من أفرادها . كنت اريد ان يقبلوا ويدعموا القرار بوجدان حي وبفهم كامل لنتائج وضع الصواريخ في كوبا - ومنها امكان الحرب مع الولايات المتحدة . فكانت كل خطوة تقدم عليها تران جيداً في القيادة الجماعية .

وما أن أعلنّا على الناس اننا مستعدون لنقل صواريخنا حتى تحول الأميركيون إلى التعجرف وأصروا على ارسال فريق تفتيش إلى الجزيرة . وكان ردنا على ذلك ان عليهم الحصول على موافقة الحكومة الكويتية . ثم بدأت الصحافة الصينية والأميركية تطلق شتى الاوصاف عن تراجع خروشوف وجبهه . لا أنكر اننا أرغمنا على اعطاء تنازلات ضخمة من أجل السلام . بل اننا رضينا حتى بتفتيش سفنا ، ولو من الجو فقط . ولم نسمح للأميركيين قط بأن يطأوا ظهور السفن .

ما ان بدأ الجلاء حتى خطر في ذهننا اذا كان الأميركيون يسحبون قوتهم البحرية التي تطوق الجزيرة . كنا نخشى انه ما ان ننسحب حتى يبادر الأميركيون فيشنون هجومهم على الجزيرة . ولكن كلا ، فحسن الادراك هو الذي سيطر . وأخذت سفنهم تغادر المياه الإقليمية الكويتية ، بينما استمرت طائراتهم تحلق فوق الجزيرة . فاعطى كاسترو الأوامر باطلاق النار ، واسقط الكويتيون طائرة استكشاف من طراز يو ٢ . وهكذا اسقطت صواريخنا جاسوساً أميركياً آخر من نوع غاري باورز (١). وسببت الحادثة ضجة كبرى . كان ههنا الأول ان يستطيع

(١) اسم الطيار الضابط رودلف اندرسون ، وقد قتل عند اسقاط طائرته يو ٢ في ٢٧ اكتوبر ١٩٦٢ .

الرئيس كيندي هضم هذا الاذلال . ولكن لم ينجم عن ذلك سوى ان الامير كينين لسوء الحظ ، ازدادوا لوئماً في دعاوتهم . فحاولوا اقصى جهدهم طعن كرامتنا و اظهار كيندي بالمظهر الامثل . ولكن لم يكن ذلك يؤثر كثيراً ما دام انهم سحبوا قواتهم وطيرانهم .

وأخذت الحالة تعود الى الاستقرار . بعد تبادل المذكرات بيني وبين الرئيس الاميركي في ذروة الازمة ، بدأت علاقاتنا مع الولايات المتحدة تعود الى وضعها الطبيعي . ومن جهة أخرى تحولت علاقاتنا مع كوبا نحو الاسوأ . لقد توقف كاسترو عن استقبال سفيرنا . وبدأ انه بنقلنا للصواريخ تعرضنا لهزيمة معنوية في أعين الكوبيين ، ولذا فان اسهمنا في كوبا هبطت بدل ان ترتفع . وقررنا ارسال ميكويان الى كوبا ، اذ ليس عندنا دبلوماسي افضل منه لهذه المهمة . وهو سيبحث الوضع مع الكوبيين بهدوء . صحيح ان كلام ميكويان لا يفهمه كل الناس ، لكنه رجل معقول . وقد لعب عبر السنوات دوراً خطيراً في تطوير تجارتنا الخارجية واثبت انه مفاوض بارع . ثم طلع علينا كاسترو بشروطه الاربعة او الخمسة لاعادة العلاقات الطبيعية مع الولايات المتحدة . وايدناه من صميم القلب في مطلبه الداعي الى تخلي الاميركيين عن قاعدتهم البحرية في خليج غوانتانامو . واننا لم نزل حتى اليوم نؤيده في مطلبه هذا . ولكن الاميركيين ما زالوا هناك ولا نعرف متى سيجلون .

وكان الاميركيون ، ولاسيما روبرت كيندي خلال مفاوضاتنا معهم ابان الازمة ، بصورة عامة ، صريحين معنا اذ عرف الاميركيون انه اذا سفكت دماء روسية في كوبا فان دماء اميركية ستسفلك حتماً في المانيا . ان تلك كانت ، اذا صح التعبير ، حالة مثيرة تميز بالتحدي . لقد اتخذت أكبر دولتين في العالم موقف المقاتل ويد كل منهما على الزناد . لكن الجانبين اظهرا انه اذا كانت الرغبة في تجنب الحرب قوية كفاية فانه يمكن حل أكثر المشاكل تعقيداً بالتسوية ، وقد تم العثور على تسوية في كوبا وانتهت الازمة بانتصار التعقل .

سأذكر دوماً الرئيس الراحل باحترام عميق ، لأنه اظهر بالتأكيد رجاحة عقل وعزماً على تجنب الحرب . وهو لم يبالغ في تقدير قوة اميركا : فلا هو سمح لنفسه بان يخاف ولا اصبح طائشاً متهوراً مغترراً بجبروته ، وانما ترك لنفسه بالنتيجة منفرجاً يخرج عبره من الازمة . وقد اظهر حكمة حقيقية ودراية سياسية عندما ادار ظهره للجناح اليميني في الولايات المتحدة الذي كان يحاول حمله على القيام بعمل عسكري . وكان انتصاراً كبيراً لنا ايضاً أننا استطعنا انتزاع وعد من كيندي بان لا اميركا ، ولا حلفاء اميركا ، سيفزون كوبا . لكن كاسترو لم ير الامور على

هذه الصورة . كان غاضباً ، وكان الصينيون يطنون في اذنه : « تذكر انه ليس بالامكان الثقة بالامبرياليين لانهم لا يفون باية وعود يقطعونها » . وبكلام آخر كان الصينيون يعملون على استغلال الحادثة ليقضوا على ثقة الكوبيين بنا . بعد التشاور مع ميكويان اثر عودته من هافانا قررت ان اكتب رسالة الى كاسترو أعرب فيها عن آرائي بصراحة . قلت في رسالتي : « ان اهم مسألة في ازمة الكاريبي هي انها ضمنت وجود كوبا اشتراكية . ولو ان كوبا لم تمر بهذه المحنة لكان من المحتمل جداً ان ينظم الاميركيون غزوة لتصفية النظام الاشتراكي في كوبا . والان بعد ان عبرنا ذروة الازمة وتبادلنا الالتزامات مع الاميركيين على ان لا يتدخلوا في كوبا فقد اصبح للاتحاد السوفياتي الحق ، اذا ما قامت الولايات المتحدة بغزوكم ، ان يشن هجومه عليها . وهكذا ضمناً وجود كوبا اشتراكية لمدة سنتين على الاقل ما دام كيندي في البيت الابيض . ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نعتقد ان كيندي سينتخب للدورة أخرى . ان الاستمرار ٦ سنوات في هذه الايام وهذا العصر ليس شيئاً قليلاً . وبعد ست سنوات من الان سيكون ميزان القوى في العالم قد تحول على الأرجح - ونحول في مصلحتنا اي في مصلحة الاشتراكية . »

وكانت رسالتي الى كاسترو خاتمة فصل من التاريخ وصل العالم فيه الى حافة الحرب الذرية . لقد ربخنا كوبا اشتراكية . وانها لتعزية شخصية لي ان اعرف بان جهتنا تصرفت التصرف السليم ، واننا حققنا انجازاً ثورياً كبيراً بقطع الطريق على الاميركيين ومنعهم من ان يرهبونا . كانت ازمة الكاريبي انتصاراً للسياسة الخارجية السوفياتية وانتصاراً شخصياً لي في عملي كرجل دولة وكعضو في القيادة الجماعية . واني اميل الى القول اننا حققنا نجاحاً ضخماً من دون الاضطرار الى اطلاق رصاصة واحدة !

مرت سنوات منذ تلك الازمة ، ولكن حكومة فيدل كاسترو الثورية لم تزال باقية ونامية . وحتى الان التزمت الولايات المتحدة بتعهداتها ، فلا هي تدخلت في كوبا ولا سمحت لغيرها ان يتدخل .

اني اذكر محادثتي الاخيرة مع الرفيق فيدل كاسترو . كنا في بيتوندا وهو منتجع في القوقاس . وفي فناء منزل الحكومة الريفي كنا نبحت موسم السكر الكوبي . كانت عيون كاسترو تلتهب بالمرغبة في الشروع بتطوير الزراعة الكوبية . وكان يعرف انها الطريقة الواقعية الوحيدة لزيادة الانتاج . وتحقيقاً لذلك كان بحاجة الى التراكورات ، والى معامل تكرير السكر الحديثة . وخلال محادثتنا قال كاسترو ان هدفه كان السيطرة على سوق السكر العالمي .

فبيّنت له ان اسعار السكر العالمية التي تضخمت تضخماً حاداً بعد الحصار على السكر الكوبي ، ستعود دون ريب الى الوضع الطبيعي عندما توسع البلدان الأخرى انتاجها من السكر لتسدّ الطلب العالمي . وظهر انني كنت على حق : فاسعار السكر المتضخمة ، التي كانت ستدر على كوبا ارباحاً طائلة ، لو أن حالة السوق الانتقالية التي سببتها استمرت فترة اطول ، لم تلبث ان هبطت الى مستواها الطبيعي . الا ان الحقيقة تبقى ان كوبا انجزت أعمالاً باهرة . وقد قرأت في الصحف ان كوبا عيّنت لنفسها هدفاً لانتاج عشرة ملايين طن من السكر لعام ١٩٧٠ ، وهي سنة ذات مغزى لكل الانسانية التقدمية لأنها تحمل الذكرى المثوية لميلاد لينين العظيم .

ان كوبا اليوم موجودة كبلد اشتراكي مستقل امام فك الامبريالية الاميركية الضاري والمفترس . وان مجرد وجود كوبا هو دعاية حسنة لبلدان اميركا اللاتينية تشجعها على اقتفاء اثرها ، واختيار طريق الاشتراكية . وان الشعوب الأخرى في اميركا اللاتينية بدأت تعرف اية خطوات تستطيع اتخاذها لتحرير نفسها من الامبرياليين الاميركيين والاحتكاريين . وانا تأمل في ان يستمر النمط الكوبي في بثّ اشعاعه واستقطاب الناس .

كانت وفاة كيندي خسارة كبرى ، لقد كان موهوباً في حل المشاكل الدولية عن طريق التفاوض ، كما اظهرت «الازمة الكوبية» . وبصرف النظر عن شبابه ، فانه كان رجل دولة حقيقياً . واني اعتقد انه لو عاش ، فالعلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة كانت ستصبح افضل بكثير مما هي عليه . لماذا اقول ذلك ؟ لأن كيندي لم يكن ليترك بلاده تغوص في فيتنام .

وقد أكد لنا خليفة كيندي ، ليندون جونسون ، انه سيبقى على وعد كيندي بعدم غزو كوبا . وحتى الان لم ينكث الاميركيون بوعدهم . امّا اذا نكثوا بالوعد ، فاننا لا نزال قادرين على تنفيذ التزامنا تجاه كاسترو والدفاع عن كوبا .

دفاعاً عن الفردوس الاشتراكي

هذا الفصل يقدم صورة رائعة في وضوحها عن محدودة خروشوف من جهة ، ومن جهة ثانية عن فضائل البارزة كرجل دولة .

يستهل خروشوف هذا الفصل بروية المرحح الدولي ، الى جانب ما يكتنفها من غموض فردي في النظر ، تبدو محجوبة كذلك بالافكار الشيوعية المسبقة ، الا انها في تحركها تظهر اتساعاً في الفهم وعمقاً في المشاهدة يندر توفرهما في السياسيين من اي لون كانوا .

ان الشيء الفذ في خروشوف ، رغم كل اخطائه التي لازمته دائماً ، هو استمرار نموه وتطوره . فالفلاح الآتي من كاليونفكا ، اللفظ ، المستبد ، العنيف ، المنتقم احياناً ، المتباهي ، المليء بمكر الفلاحين ، غير المثقف اطلاقاً بالمعنى التقليدي للتعبير ، وذو العقل الذي لم يصقله تدريب كاف - هذا الفلاح على نقائصه العديدة المشار اليها اعلاه ، اشتغل خلقه على أي حال ، على بعض مزايا منها ما يعود الى خصاله الخلقية ، ومنها خياله المتسع ، ومنها تواضعه الجلم . فكان ان دفعت هذه المزايا الى اعلى من اقرانه وجعلته احياناً منفرداً عنهم .

وصحيح انه لم يستطع الهروب من سجن ماضيه كلياً ، ولا من نقائص طباعه ، ولكنه في هذه الصفحات يبرز كما اظهر نفسه بتزايد في سنوات نشاطه الاخيرة ، رجل دولة شجاعاً ، ذا لمعات من الحكمة العميقة . وقد كان بالامكان في ظروف مختلفة ان يصبح شخصية عالمية بارزة تحاط بالاحترام الواسع .

ليس بالشيء القليل اننا عشنا الى يوم رأينا فيه الاتحاد السوفياتي يعتبر ثاني بلاد في العالم من الناحية الاقتصادية . قال لي ما كيان ذات مرة : « ما هي انكلترا اليوم ؟ انها لم تعد الدولة التي تحكم الامواج وذات الصوت المسموع في السياسة

العالمية . اليوم انتم والولايات المتحدة تقررون كل شيء . والسيد ديفول رئيس فرنسا اخبرني الشيء نفسه ، بالكلمات نفسها تقريباً . قال الرجل ذو العقل الرصين : «حسناً ايها السيد خروشوف ، اليوم الولايات المتحدة وانتم هما الدولتان العظيمتان . ان فرنسا لم تعد تملك لا المكانة ولا النفوذ اللذين كانا لها .» .

وهكذا اعترف ماكميلان وديفول باهميتنا .

ان الاتحاد السوفياتي قد كسب عبر السنين هبة في نظر الشعوب التي تحارب في سبيل السلام والتقدم والتحرر من الاستعمار . ان هدف سياستنا الخارجية لم يكن اغناء دولتنا على حساب الدول الاخرى . اننا لم نؤمن ولا لحظة قط باستغلال الانسان للانسان . على نقيض ذلك ، فسواء عن طريق سياستنا المعلنة او افعالنا عملنا على تشجيع بلدان اخرى على التمتع بشمرات عملها . ولم يقتصر عوننا لتلك البلدان على مشورتنا بل منحناها مساعدات مادية مجانية او بعناها السلع والتجهيزات بأسعار مخفضة . ان سياستنا الخارجية تجد جذورها في اعتقادنا الراسخ ان الطريق التي ارشدنا اليها لينين هي طريق المستقبل ليس للاتحاد السوفياتي فحسب بل لجميع البلدان والشعوب . ولنضرب على سياستنا مثل افغانستان . فقد ذهبت الى هناك مع بولغاين الذي كان يرئس وفدنا العائد من الهند (١٩٥٥) . وكان ملك افغانستان قد دعانا الى التوقف في كابول . وبنتيجة المباحثات مع الملك ووزرائه تكونت لدينا فكرة جلية نوعاً عن اوضاع افغانستان ، البلد المتخلف . وكان بإمكاننا ان نتلمس ان الافغانيين يبحثون عن مخرج لهم من مشاكلهم .

وكان من الواضح ايضاً ان اميركا تتودد الى افغانستان . ان اميركا بدافع رغبتها في تطويقنا ، تلقي بنفسها على بلد مثل افغانستان وتظاهر بأنها تعطيه العون الاقتصادي ، غير ان همها عملياً ينصب على التملق اليه سياسياً .

كان الاميركيون من جهة يقومون بمختلف انواع المشاريع على حسابهم : بناء الطرق ، ومنح القروض ، وما الى هنالك . ولكنهم ما كانوا يتصدقون بمساعداتهم لوجه الله . كلا ، لأن ما يسمى برنامج اميركا للمساعدات الخارجية هو عملياً جزء من حملة استغلال الصعوبات الاقتصادية الحادة التي تتخط فيها بلاد مثل افغانستان .

وان الاميركيين لا يذهبون الى حد اخفاء مقاصدهم الحقيقية ، اذ انهم لا يابهون كثيراً لوضع ورقة التين على حوافزهم الانانية العسكرية . لقد سبق لنا ورأينا ماذا حدث عندما جاء الرأسماليون والامبرياليون والاحتكاريون والعسكريون الاميركيون الى البلدان الاسيوية الاخرى يحشرون انوفهم في شؤونها

الداخلية . كانوا يدخلونها عارضين مختلف انواع المساعدات الاقتصادية ويخرجون وقد انتزعوا منها توقيعها على اتفاقية حلف الستو .

لقد انضمت باكستان الى الستو وحاولت اميركا حمل الهند على الانضمام ايضاً . ولكن الهند ، بفضل قيادة نهرو التقدمية ، رفضت الانضمام ووقفت بثبات كبلد مستقل عن مختلف الكتل العسكرية .
وخلال زيارتنا وضح لنا أن الاميركيين كانوا يتغلغلون في افغانستان ، يحدوهم حافز واضح هو اقامة قاعدة عسكرية .

اما من جهتنا فقد بنينا فرناً ، وسكة حديد ، ومعاهد تربوية واخذنا على انفسنا شق طريق على مدى مئات عديدة من الكيلومترات ، وقد اصبحت هذه الطريق الان ذات أهمية سياسية - اقتصادية فائقة نظراً لمرورها قرب الحدود الافغانية - الايرانية . ان احساسى القوي هو ان الرأسمال الذي وظفناه في افغانستان لم يهدر . يكفى اننا ربنا ثقة الافغانيين وصدقتهم ، وان افغانستان لم تسقط في الاحبولة الاميركية . انها لم تعلق على السارة التي طعمها الاموال الاميركية .

ولو لم يصبح الافغانيون اصدقاءنا لكان الاميركيون ، دون ريب ، قد رتبوا الامر لينالوا حظوة عندهم عن طريق «مساعداتهم الانسانية» على حد التعبير الاميركي . ان الاموال التي انفقناها في مساعداتنا المجانية لافغانستان ان هي الا نقطة في محيط ، اذا قورنت بالثمن الذي كان مقدراً ان ندفعه لمواجهة تهديد قاعدة اميركية في الارض الافغانية . ولنفكر بالرأسمال الضخم الذي كان علينا رصدته لتحويل وضع قوتنا العسكرية على مدى الجانب المحاذي من ارضنا للحدود الافغانية ، وهو رأسمال من شأنه ان يمتص دم شعبنا دون زيادة وسائل انتاجنا مثقال ذرة .

انني اعتقد ان سياستنا الخارجية يجب ان تبنى جزئياً على عادة شعبية قديمة معروفة في بلادنا وما زلت اذكرها منذ ايام طفولتي : اذا ذهبت ربة بيت الى قرية أخرى لزيارة اصدقاء او اقارب ، لا تذهب ابداً من دون أن تأخذ معها بعض الحلوى ، او دزينة من البيض كما هي العادة عندنا في اقليم كورسك ، هدية لمضيفها . اعتقد انه يحسن اقتباس هذا التقليد من قبل الدول في تعاملها بعضها مع البعض الآخر . وان هذه العادة يحسن ممارستها بتعقل وتواضع . ان الامر لا يحتاج الى رجاحة في العقل او براعة حتى يستحق واحدنا صيت العم المصرف الذي يبدد امواله على هدايا يقدمها للعائلات الأخرى دون ان يترك ما يكفي لشراء حاجيات عائلته . ان هذا تطرف يحسن تجنبه . ان سياسة تقديم «الهدايا البيئية» الى البلدان الأخرى

يحسن ان تمارس بذلك، بحيث نجد دائماً مكافأة اقتصادية اوسياسية لقاء ما نقدّمه .(١)
لا يجوز ان ننسى ان اعداءنا يعملون بدأب ضدنا ، وهم يتحينون الفرص
ليستغلوا هفوة من قبلنا . وثمة معركة تدور في العالم : هل تسود الطبقة العاملة
ام البورجوازية ؟ ان الطبقة العاملة مقتنعة بان البورجوازية قد استنفدت نفسها ،
بينما يعتقد البورجوازيون ان بوسعهم الاستمرار في الحكم الى الأبد . ان كل
امرئ حسن التفكير يستطيع ان يرى بوضوح ان القضايا الايديولوجية الاساسية
لا نحسم الا بالصراع وبانتصار عقيدة على أخرى .

ونحن الشيوعيين ، نحن الماركسيين اللينينيين ، نعتقد ان التقدم الى جانبنا ،
وان الانتصار سيكون حتماً لنا . ومع هذا فان الرأسماليين لن يتنازلوا عن بوصة
واحدة وانهم سيقاثلون حتى النهاية المريعة . كيف ، اذن ، نستطيع التحدث
عن التعايش السلمي مع الايديولوجية الرأسمالية ؟ ان التعايش السلمي مع أنظمة
حكومية مختلفة أمر ممكن ، لكن التعايش السلمي بين ايديولوجيات مختلفة
ليس ممكناً . نكون قد ارتكبنا الخيانة بحق مبادئ حزبنا الاولى اذا ما اعتقدنا
بامكان التعايش السلمي بين الايديولوجية الماركسية – اللينينية من جهة والايديولوجية
البورجوازية من جهة ثانية .

لقد ردّدنا ذلك مراراً . وكنت عندما أتحدث عن هذا الموضوع في المؤتمرات
الصحفية ، وخلال السنين التي كنت فيها من المسؤولين عن توجيه سياستنا ، كنت اردد
ان ليس ثمة شيء اسمه التعايش السلمي الايديولوجي . كنت اؤكد دوماً اننا
سنكافح حتى النهاية ، ونحن واثقون من النصر .

ولذلك سمحت لنفسني في احدى المراحل ان استخدم عبارة «سوف ندفن
اعواء الثورة» . كنت اشير بالطبع الى اميركا . وسارعت دعاوة العدو الى التقاط
هذا الشعار ونفخه حتى تخطى حجمه الطبيعي : «ان خروشوف يقول ان الشعب
السوفياتي يريد ان يدفن شعب الولايات المتحدة الاميركية» ، وانا لم أقل مثل
هذا القول . ان اعداءنا كانوا يحرفون عبارتي ويستغلّونها .

وكان انني اوضحت في مؤتمر صحفي لاحق ما عنت : نحن ، الاتحاد
السوفياتي ، لن ندفن احداً . ان الطبقة العاملة في الولايات المتحدة ستدفن عدوها ،
الطبقة البورجوازية الاميركية . ان شعاري قد أشار الى مشكلة داخلية تقرر بصدها

(١) حتى في عرض خروشوف هنا لا نجد كبير فارق بين الحوافز السوفياتية وتلك
المنسوبة الى الولايات المتحدة في اعطاء المساعدة للبلدان المختلفة .

كل بلاد بنفسها : بالاتجاه والاساليب التي تعتمد عليها كل طبقة عاملة في بلد معين تحقيقاً لنصرها على البورجوازية . ان الأمر الرئيسي الذي لاحظته عن الغرب الرأسمالي عندما كنت في نيويورك ، المدينة التي وصفها غورك في بمدينة الشيطان الاصفر ، هو أن القول فيها ليس للانسان بل للدولار . فالكل هنا مهتم بكيف يحصل على مزيد من المال : على مزيد من الدولارات . ان مركز الاهتمام ليس الانسان ، بل الارباح ، وطلب الرأسمال . وتذهب الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الى وصف الطريقة الاميركية للحياة على أنها نموذج «العالم الحر» . ولكن اي نوع من الحرية هو هذا ؟ انها حرية الاستغلال والنهب ، وحرية الموت جوعاً بينما فائض المواد والسلع متوفر ، وحرية البطالة بينما تقف وسائل الانتاج دون عمل . الحرية في الولايات المتحدة هي حرية الاحتكار لقمع الطبقة العاملة وخداع الشعب بنظام الحزبين ، وفرض ارادته على شركائه في التكتلات العسكرية . مثل هذا المجتمع يصنع الاساس لقيام الحروب بين البلدان . لأن الاتجاه نحو الرجعة داخل البلاد ونحو التوسع والعدوان خارجها هو من معالم الرأسمالية الاحتكارية والامبريالية .

ان تصفية النظام الرأسمالي هو الموضوع الرئيسي في تطور المجتمع . بعد انتصار الطبقة العاملة وطبقتي الفلاحين والانتلجنسيا الكادحتين تنتفي الاسباب الاجتماعية والقومية وشئ اسباب تفجير الحروب من اي بلد . ولكن هذا لا يتحقق الا في العالم كله . عندها تتوحد البشرية في متحد حقيقي من الامم المتساوية . ان هذا قد قيل منذ أمد بعيد واثبتة علمياً مؤسسو الماركسية اللينينية .

ان الكفاح الرئيسي اذن ، هو الكفاح الذي يدور ضمن كل بلد بين بورجوازيته وبروليتاريته . وان هذه الحقيقة لها اتصال بمسألة حجم الجيش الدائم الذي على الاتحاد السوفياتي الاحتفاظ به على ارضه وعلى اراضي البلدان الاشتراكية الشقيقة . ان تفكيري حول هذا الموضوع قد تطور تطوراً واسعاً خلال السنين .

بعد انقضاء فترة غير طويلة على موت ستالين كان لي حديث مع وزير الحربية الروماني الرفيق بودناراس (١) . وكان صديقاً طيباً للاتحاد السوفياتي

(١) ا. بودناراس بدأ حياته في مدفعية الجيش الروماني ، ثم اصبح شيوعياً وهجر بلاده الى الاتحاد السوفياتي في ١٩٣٢ . وبعد أن تجنّس بالجنسية السوفياتية وتمر بتدريب خاص في مدرسة البوليس السري في موسكو ، عاد الى رومانيا بعد الحرب ونشط في معاونة الشيوعيين المدعومين بالقوات السوفياتية ، لتحطيم =

وبلشفياً قديماً قضى بعض الوقت في السجن برومانيا وكان يتمتع بكامل ثقتنا واحترامنا . وقد فاجأني دونما سابق انذار بالموضوع التالي : «ما رأيكم بسحب قواتكم من رومانيا ؟» .

لا بد لي ان اعترف ان رد فعلي الفوري لسؤاله لم يكن يتصف بالحكمة والرصانة بل انني اذهب الى حد القول بانني خرجت عن طوري : «ماذا تقول؟» كيف تستطيع طرح هذا السؤال ؟» فاجاب : «حسناً ، ان رومانيا لا تشارك حدودها أحداً الا البلدان الاشتراكية ، وعبر البحر الاسود لا يوجد الا الاتراك» .

— وماذا عن الاتراك ؟

— على اي حال ، فانتم جيراننا ، واذا اقتضت الضرورة تهرعون الى مساعدتنا .
— انا لا افكر بالاتراك وحدهم . انهم يسطيرون على البوسفور والدردانيل . من هنا يمكن لأي العدو ان يغزو رومانيا بانزال قواته في البحر الاسود . وهنا تبادل الرومانيون النظرات . وبدا واضحاً انهم بحثوا هذه المسألة من قبل فيما بينهم . وقالوا : حسناً ، ما دمت تفكر بالامر من هذه الزاوية فنحن نسحب الاقتراح . كل ما في الامر اننا ما اردناكم ان تعتقدوا اننا كنا نقف موقفاً حازماً في مواقفنا الاشتراكية لمجرد وجود قواتكم في ارضنا . اننا نقف موقفاً حازماً انطلاقاً من ايماننا بالاشتراكية واتباع السياسات الماركسية - اللينينية ، ولأن شعبنا يعرف بزعامتنا ويؤيدنا التأييد المطلق .

وكان رضاي يفوق كل حد من هذا الايضاح للحافز الذي جعلهم يطلبون سحب القوات السوفياتية من اراضيهم . وأمنت ان الرفاق الرومانيين كانوا مخلصين في تأكيد عزمهم التام على بناء الاشتراكية . وبعد انقضاء بضع سنوات أخذنا نخفف من حجم الجيش السوفياتي ، فانزلناه الى نصف ما كان عليه ايام ستالين . وكنا قد تبادلنا الآراء في قيادة اللجنة المركزية ووصلنا الى نتيجة تقول بإمكان سحب القوات من بولونيا والمجر ورومانيا . ولم تكن لدينا اية قوات في تشيكوسلوفاكيا أو بلغاريا (١) . تركنا قواتنا في المانيا

= جميع الاحزاب غير الشيوعية . ثم اصبح وزيراً للدفاع الوطني في وزارة غروزا في كانون الاول ١٩٤٧ فاضع الجيش للسيطرة الشيوعية عندما اصبحت روسيا جمهورية شعبية . ثم أخذ نجمه بالصمود .

(١) خفض الجيش السوفياتي كثيراً في ظل خروشوف . وحتى ستالين لم ير من الضرورة وضع قوات في تشيكوسلوفاكيا . لقد ترك الامر لبريجنيف فمالج هذه الثغرة على النحو المعروف . ولكن القوات السوفياتية باقية في المجر وبولونيا ورومانيا .

فقط . وكان جلياً للجميع اننا سنحتفظ بقواتنا في المانيا الشرقية حتى يبادر اغرييون - الذين نظموا الناتو - الى توقيع اتفاقية السلام .

وكانت لدينا اسباب عديدة للوصول الى قرار بسحب قواتنا من البلدان الاشتراكية ، احدها كان سياسياً . كنا لا نريد ان يتبادر الى ذهن أحد باننا لا نثق بالبولونيين والمجريين والرومانيين . كان هؤلاء حلفاءنا ، وكانوا يبنون الاشتراكية في بلدانهم لأن مصلحتهم اقتضت ذلك ، وليس بسبب تمرکز القوات السوفياتية في ارضهم . ان الماركسية اللينينية الاممية كانت هي الجاذب الرئيسي والقوة الموحدة لشعوب البلدان الاشتراكية الأخرى . انك لا تستطيع دفع الناس كالفطير الى الفردوس تحت طائلة الوعيد ثم تضع الجنود على البوابات . بل على الناس ان يختاروا بملء ارادتهم الحياة الفضلى التي يرغبون بها ، وان تمنح لهم الفرص التي يريدون . لذلك كنا نريد ان ننتزع من يد العدو حجة يستند اليها . اردنا فضح اكذوبته ، وهي ان الشعوب المجرية والبولونية والرومانية تبحر على طريق الاشتراكية بحراب القوات السوفياتية .

ثم كان هناك سبب اقتصادي فضلاً عن السبب السياسي لسحب قواتنا من البلدان الشقيقة . ذلك ان الاحتفاظ بفرقة في الخارج ، على ارض بلد اشتراكي آخر ، يكلف ضعفي النفقات التي تنكبدها لو بقيت الفرقة نفسها على ارضنا . وكان علينا اختصار نفقات جيشنا الدائم في الوطن ، فضلاً عن نفقاته في الخارج . وهكذا عصرنا النفقات العسكرية ، خصوصاً فيما تعلق بالملك الشخصي الى حد بعيد . وبعد ان تركت منصب السكرتير الاول للحزب ورئيس مجلس الوزراء ، سمعت انتقادات من البعض الذين عزوا اليّ القرار القاضي بخفض رواتب الجيش السوفياتي . انا لا انكر ان الرواتب العسكرية خفضت اثناء حكمي ، ولكن الفكرة كانت فكرة المارشال جوكوف . وانا دون ريب ، ابديته في فكرته ، لأنه كان بادياً ان افراطات عديدة قد حصلت ، ولا بد من وضع حد لها . وهذه التدابير اتخذها وزير الدفاع جوكوف ، واكلها بعده خلفه مالنوفسكي . ولا بد لي هنا من ان اعطي جوكوف حقه من التقدير . فقد ادرك ضرورة خفض النفقات في الجيش ، واخذ المبادرة في تشذيب الملك الشخصي المتوسع من هيئة الاركان وأمر بخفض الرواتب لبعض فئات الضباط . واني اعرف الآن ، ان بالامكان وجود اشخاص ، لا سيما بين العسكريين يقولون ان خفض قوات الاتحاد السوفياتي المسلحة كان خطأ . ويقولون ان المعسكر الامبريالي يحلم منذ سنوات بابادة الاتحاد السوفياتي ، وان قوتنا العسكرية كانت الحائل الوحيد دون ذلك . ان الذين يقولون هذا القول مخطئون .

كان مهماً في زمن ما ان يعرف العدد الذي تملكه بلاد ما من القوات والبنادق والحراب . ولكننا اليوم نعيش في عصر مختلف تماماً ، فبات الشيء المهم ، نوعية وكية ، هو طاقنا النووية من الصواريخ . ان الدفاع عن بلادنا وقدرتنا في ردع الاعتداء الامبريالي يتوقفان على قوة دفاعنا النووية .

حتى القوم الصادقون الذين يريدون تجنب استخدام الاسلحة الذرية والهيدروجينية لا يستطيعون تجاهل مسألة عدد الاسلحة المتوفرة لدينا في حال نشوب حرب كونية . من هنا كان واجباً ان نقرر واقعياً على اولويات توزيع اعتماداتنا .

عندما كنت زعيم الحزب والحكومة ، قررت وجوب التزام الاقتصاد بقدر واسع في بناء البيوت وانشاء الخدمات الاجتماعية ، وحتى في انماء الزراعة ، لكي يتسنى لنا بناء دفاعنا . بل انني ذهبت الى ايقاف شق الطرق تحت الارض في كييف وباكو وتبليس حتى نستطيع انفاق هذه الاموال على تعزيز قواتنا الدفاعية والمهجومية . وبيننا عدداً اقل من الملاعب الرياضية ، والمساح والكتليات الثقافية . واعتقد انني كنت محقاً في التركيز على الانفاق العسكري ، حتى ولو على حساب بعض الاستثمارات الاساسية في مجالات أخرى . فلو اننا لم نوكد هذه الاولويات لحاجاتنا العسكرية لما كنا استطعنا البقاء . لقد وقفت كل قوتي على اعادة تسليح الاتحاد السوفياتي . كانت تلك مرحلة خطيرة من حياتنا مليئة بالتحديات .

الان ، وانا اعيش مع ذكرياتي والقليل غيرها ، يعود بي التفكير الى تلك المرحلة التي اعدنا فيها تسليح الجيش السوفياتي وتعزيزه . وانني فخور بالاشراف على مرحلة انتقال جيشنا الى التزود باحدث وسائل الحرب والاسلحة .

ان عدونا الكامن – عدونا الرثيمي ، أخطر واغوى اعدائنا – هو على بعد شاسع منا بحيث كان يتعذر الوصول اليه بسلام بطيراننا ، بل ببنايا قوة صاروخية نووية نستطيع ان نردعه عن شن الحرب ضدنا . ولو اننا اتحنا في المجال للغرب لكانت الحرب اعلنت في زمن دالاس . ولكننا كذاً السابقين الى اطلاق الصواريخ الفضائية ، وفجرنا اقوى الاسلحة النووية . وقد حققت هذه الانجازات اثرأ مهدتاً على قوات العدو في الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، وبالتالي ، في حكومة بون . فقد عرفوا انهم فقدوا فرصتهم في الانقضاض علينا ونحن ضعفاء . اما الان وقد أصبحت الاهمية لحجم تسليحتنا النووي وليس لحجم جيشنا فاني اعتقد انه يجب خفض جيشنا الى الحد الادنى . ولا ريب عندي اننا وصلنا الى المرحلة التي يغدو فيها ذلك ممكناً .

وعندما كنت على رأس الحكومة وكانت لي السلطة النهائية في توزيع طاقاتنا

العسكرية ، كان اصحاب النظريات عندنا يحسبون ان عندنا طاقة نووية تسحق اعداءنا وتذريهم غباراً . ومنذ ذلك الوقت تضاعفت قوتنا النووية بمقادير كبرى . وخلال قيادتي جمعنا اسلحة كافية لهدم المدن الرئيسية في الولايات المتحدة ، ناهيك بمدن اعدائنا المفترضين في اوروبا .

اذكر ان الرئيس كيندي قال مرة في خطاب او مؤتمر صحفي بان لدى الولايات المتحدة الطاقة النووية الصاروخية لمسح الاتحاد السوفياتي من وجه الارض مرتين ، بينما ليس للاتحاد السوفياتي سوى طاقة مسح الولايات المتحدة مرة واحدة . وعندما سألتني الصحافيون ان اجيب على تصريح كيندي ، قلت مازحاً : «أجل ، اني أعرف مزاعم كيندي ، وهو محق تماماً . ولكن ليس عندي ما اشكو منه ما دام الرئيس الاميركي يدرك انه حتى ولو استطاع هدمنا مرتين ، فنحن قادرون على مسح الولايات المتحدة ولو مرة واحدة . اني ممتن للرئيس على اعترافه بهذا القدر . فنحن لسنا من الشعوب التي تعيش على امتصاص دم الناس . يكفيننا ان نكون قادرين على مسح الولايات المتحدة مرة واحدة . ومرة واحدة كافية . اذ ما الفائدة من ابادة بلاد مرتين ؟»

وكانت هذه الملاحظات تترع ابتسامات الحضور .

وفي هذا المجال لا بد لي من اعطاء عدونا الراحل ايديناور حقه من التقدير لما كان يتحلى به من عقل راجع رصين . فكلما هاجمه الصحفيون واتهموا المانيا الغربية بأنها قد تتجه الى شن حرب عالمية أخرى ، كان يتظاهر ايديناور بانه مسيح كامل صغير ويقول «انني لا اعرف عما تتحدثون . فلو أن حرباً ثالثة شنت ، ستكون المانيا الغربية اول بلد يفنى» . كنت مسروراً ان اسمع ذلك وقد كان ايديناور على حق في ما ذهب اليه وان يصرح علنا بهذه الامور . كان انجازاً كبيراً حققناه نحن .

لقد كنت دوماً ضد الحرب ، ولكنني كنت في الوقت نفسه اعتبر انه اذا اصيب رئيس بلاد بالملع من الحرب النووية فانه يشل قدرة البلاد الدفاعية . واذا ما شلت هذه القدرة عندها تصبح الحرب محتمة . ذلك ان العدو ، اذ يدرك هلكه ، يحاول ان يستمره . فكنت دوماً اعمل في ضوء مبدأ يقول بالوقوف دوماً ضد الحرب ولكن بلا خوف منها . ففي بعض الاحيان يكون التراجع ضرورياً ، ولكن التراجع قد يصبح بداية نهاية مقاومتنا . وعندما يراقب العدو تحركك ، يصبح الموت نفسه أمراً يجب مجابهته بشجاعة . واذا ما بدأ العدو حرباً ضدك ، فعندها يتحتم عليك ان تبذل كل جهدك للبقاء في المعركة وتحقيق النصر في الاخير .

يجب ان لا نخفف من خدرنا ، فقي اي حال لا يجوز ان نخفض قدرتنا الصاروخية عن المستوى الضروري . ثمة اسلحة أخرى لا غنى عنها ايضاً ، لا سيما الاسلحة الكيميائية والجراثومية . ومن حسن الحظ ان الحرب العالمية الثانية مرت دون استخدام هذه الاسلحة ، ولكنها استخدمت في الحرب العالمية الأولى . وكم تكون حالة جيشنا بائسة لو ان العدو استخدم ضدنا هذه الاسلحة ووقفنا ازاءه عاجزين . فما دام ان هنالك نظامين متناقضين ، لا بد من الاحتفاظ بكل انواع الاسلحة . انني اؤكد على هذه الامور لأنني اريد ان ترسخ نظرتي وهي وجوب الحذر وتوفير الردع الفعال ضد العدوان الامبريالي .

يجب ان نبقى في اذهاننا الطابع الحقيقي للامبرياليين والرأسماليين والاحتكاريين والعسكريين الذين يهمهم ان يحنوا الاموال من التوتر السياسي بين الأمم . يجب ان نحرص على عدم الوقوع في تنافس عقيم مع الغرب على الاتفاق الحربي . ذلك اننا اذا خضنا مثل هذا السباق مع اميركا ، الا في المجالات الضيقة والضرورية جداً ، عندها نعود على انفسنا بالاذى . اولاً ، نكون قد اسهمنا في زيادة غنى الاوساط الرأسمالية في الولايات المتحدة التي تستخدم الاستعداد الحربي لارهاق موازنات التسليح في بلادها . ثانياً ، نكون قد استنزفنا مواردنا المادية دون ان نرفع مستوى المعيشة لشعبنا . ولندكر انه كلما قل عدد المجندين في الجيش ، ازداد عدد الذين بالامكان صرفهم لاعمال اكثر انتاجية . وان ادراك هذه الحقيقة يكون نقطة جيدة لانطلاق القوى التقدمية في العالم في كفاحها من أجل التعايش السلمي . ذلك انه اذا بادر طرف الى عصر نفقات التسليح ، يصبح من الاسهل على الطرف الثاني ان يحذو حذوه . علينا ان نعد انفسنا لرد ضربة عدونا ، ولكن علينا ان نتساءل ايضاً «اما لهذا التنافس من نهاية ؟» .

اعرف من الاختبار ان قادة القوات المسلحة يكونون ملحاحين في طلب حصتهم من الموازنة عندما يشرع في توزيع الاعتمادات . ولدى كل قائد كل الحجج المقنعة للحصول على ذلك . فمن المؤسف ان ثمة اتجاهات عند الذين يقودون القوات المسلحة ان يكونوا جشعين وانايفين . وهم على استعداد دائم لأن يلقوا في وجهك الشعار القائل اذا حاولت ان تقتصد في دفاع البلاد اليوم فستدفع من دماء ابنائها عندما تندلع الحرب . انا لا ابغي التقليل من المسؤولية الضخمة الملقاة على هؤلاء ولست اقصد النيل من مزاياهم المناقبيّة ، ولكن الحقيقة تبقى ان مستوى المعيشة في البلاد يعاني عندما ترهق الموازنة باعتمادات توزع على قطاعات من الاستهلاك غير منتجة . وما اقرب اليوم من البارحة ، اذ يبقى أكثر النفقات غير المنتجة هي تلك التي تخصص للقوات المسلحة . من هنا انه يتعذر غالباً تذكير القادة العسكريين

بان الحكومة هي التي توزع الاعتمادات ، وانها هي التي تقرر مقدار المبلغ الذي تنفق القوات المسلحة ، فمن الجلي ان الاشراف على الاتفاق العسكري مشكلة عالمية . واني اذكر محادثة جرت بيني وبين الرئيس ايزنهاور في منزله الريفي في كامب ديفيد . كنا نذهب الى التزهة معاً فتجري بيننا محادثات غير رسمية ومجدية . وفي احدى هذه المحادثات سألتني : « قل لي يا سيد خروشوف ، كيف تتخذون القرارات بشأن موازنات النفقات العسكرية ؟ » وقبل ان يتسنى لي التفوه بكلمة واحدة قال : « ربما يجب ان اقول لك قبل ، كيف يجري الامر عندنا » . فقلت : « حسناً كيف يجري الامر عندكم ؟ فابتنم ، وابتنم بدوري ، كنت اعرف ما سيقول . وهذا ما قاله : « ان الامر يجري على هذا النحو : يأتي القادة العسكريون اليّ ويقولون : سيدي الرئيس ، اننا نحتاج الى هذا المبلغ من أجل هذا البرنامج . فأقول : آسف ، لا نملك الاعتمادات اللازمة لذلك . فيقولون : لدينا معلومات موثوقة ان الاتحاد السوفياتي خصص الاعتمادات اللازمة لبرنامج مشابه . لذلك اذا لم نحصل على الاعتمادات التي نحتاج اليها ، سنتخلف عن الاتحاد السوفياتي . وهكذا استسلم .

« انهم بهذه الطريقة يحصلون مني على المال . ويستمرون في طلب المزيد وأستمر انا في عطائي . والان كيف يجري الامر عندكم ؟ » اجبت : « هكذا تقريباً . يقول بعض رجالنا في الدائرة العسكرية : ايها الرفيق خروشوف انظر الى ماذا يحدث . ان الاميركيين يطورون هذا الجهاز او ذاك . وبامكاننا تطوير الجهاز نفسه ولكننا نفتقر الى الاعتمادات . فاقول لهم ليست لدينا الاعتمادات اللازمة ، فقد خصصناها لأمور أخرى . فيقولون : اذا لم نحصل على المال المطلوب واندلعت الحرب ، سيكون العدو متفوقاً علينا . ثم نبحث في الامر قليلاً ، فننتهي من بحثنا هذا الى اعطائهم الاموال التي يطلبونها » . فقال ايزنهاور : « نعم هذا ما فكرت فيه . اتعرف ؟ يجب ان نتوصل حقاً الى نوع من الاتفاق لايقاف هذا التنافس . » فاجبت : « انني احب ان افعل هذا . ان بعض اسباب مجيئي الى هنا كان سعياً وراء اتفاق نتوصل اليه من هذه الاجتماعات والمحادثات » .

ولكن لم يكن بامكاننا ان نتفق آنذاك ، ولا نستطيع ان نتفق الان . وربما من المستحيل علينا ان نتفق . ففي ضوء خبرتي اقول ان ذلك ، بكل تأكيد ، لأمر صعب . ولكن حتى لو تعذر التوصل الى اتفاق سوفياتي - اميركي ثنائي على خفض الاتفاق العسكري ، الا انني اعود الى مسألة طرقها مراراً ، وهي ضرورة قيام كل دولة منفردة بخفض نفقاتها العسكرية . واذا كان عدونا يريد

ان يستمر في تضخيم موازنته العسكرية ، مبدراً امواله يساراً ويميئاً على اشياء لا معنى لها ، فانه بالتأكيد سيخفض مستوى معيشة شعبه . وهذا بدوره يعزز مواقع القوى الشيوعية والتقدمية الداملة في وسطه ويتيح لها ان ترفع صوتها أكثر ضد القوى الرجعية والرأسمال الاحتكاري .

والان وقد اصبحت ارأيي كلها عندكم واعتقد ان فيها بعض الفائدة . لم يعد بإمكانني ان افعل شيئاً الا اشراك الآخرين في خبرتي اذا ارتأوا الاصغاء والانتباه . ان الوقت قد فات الذي كان بإمكانني فيه ان اصنع شيئاً . وملاحظاتي التي ابديها هنا تصدر عن رجل لم يعد في حومة العمل والانجاز . ولكن من موقعي كمتقاعد ، لا استطيع الا ان الحظ ما بدأناه من اتجاه نحو الاقتصاد قد عكس ، وبات المال اليوم يهدر على اشياء غير ضرورية . وان هذا الاتجاه الجديد في الافراط في النفقات العسكرية يعرقل انطلاقا بعض المجالات المهمة في حياتنا التي تفقر الى الاعتمادات اللازمة .

عندما كنت رئيساً للحكومة ، تزوج عازف البيانو الشاب اشكينازي من امرأة انكليزية كانت تدرس في احد معاهدنا الفنية . ورزقا بطفل وذهبا الى انكلترا لزيارة ذوي الزوجة . بعد فترة قصيرة رفع اليّ غروميكو ان سفيرنا في لندن قد ابرق بالقصة التالية : اشكينازي جاء الى سفارتنا في لندن واعلمه ان زوجته ترفض العودة الى الاتحاد السوفياتي ، وهو يحبها كثيراً وجاء يسأل سفارتنا ماذا ننصحه ان يفعل . وهنا لا بد لي ان اذكر انه سبق لي ان سمعت عزف اشكينازي وهنأته عندما ربح جائزة تشايكوفسكي . انه عازف رائع ولطالما سمعته على الراديو . وبعد التشاور مع رفاقي قلت : لنعط اشكينازي الاذن بالعيش في انكلترا للفترة التي يختارها . بهذه الطريقة يكون بمقدوره العودة ساعة يشاء الى الاتحاد السوفياتي . في الحقيقة لم نجد بديلاً آخر . فاذا اصررنا عليه ان يترك زوجته ويعود الى الوطن ، فسيفرض . هو ليس معادياً للسوفيات ، ولكن قد ندفعه الى هذا السلوك اذا وضعناه في موقف صعب يجبره على ان يختار بين العيش مع زوجته او طاعة حكومته . عندها يسقط في محالب المهاجرين الروس وغيرهم من البشر الذين يشرعون بالتأثير عليه بمختلف الافكار المعادية للسوفيات . اننا لا نريد ذلك ان يحدث . ماذا يضيرنا اذا عاش في لندن واحتفظ بمواظنته السوفياتية وفسحنا له في مجال العودة الى موسكو في اي وقت لاحياء الحفلات الموسيقية . وبالنتيجة ليس هو موسيقياً وتلك مهنة حرة ؟

فوافق الجميع وقبلوا اقتراحي .

وفي هذه الايام غالباً ما استمع الى الراديو . ان جهاز الراديو عندي هو

مؤنسي الدائم عندما اذهب الى الترتة . فمنه استقي المعلومات والمتعة . واني احبّ الموسيقى والاغاني الشعبية . كما انني احبّ بعض الموسيقى المعاصرة ، ولكنني اعترف ان امراً في عمري يميل أكثر الى الاشياء التي كانت جزءاً من شبابه . ان معظم برامج الراديو هي جيدة ولكن ثمة نفايات تسمّ الجوّ . لذلك اجد متعة خاصة عندما يطالعني على الراديو اعلان بان اشكينازي جاء الى موسكو ليقيم حفلة موسيقية . كم انا مسرور اننا حمينا اسم عازف سوفياتي عظيم وانقذنا حياته العائلية من خلال ذلك . لعل الوقت الذي يرغب فيه اشكينازي وزوجته في العودة الى موسكو سيأتي للاستقرار فيها . ولربما يستقران في لندن . انني لا انفي هذه الامكانية . ولكن ماذا في الأمر لو حصل . فليعيشا حيث يرغبان . اعتقد ان الاوان قد حان لمنح كل مواطن سوفياتي حق الخيار . فاذا رغب في ترك بلادنا واراد ان يعيش في مكان آخر لبعض الوقت ، فلا بأس . فلنعطه الفرصة لذلك . انه امر لا استطيع تصديقه اننا بعد خمسين سنة من الحكم السوفياتي يبقى فردوسنا تحت القفل والمفتاح (١) .

نحن الشيوعيين نعتقد ان الرأسمالية جهنم حكم فيها على الناس العاملين بالعبودية . اننا نبني الاشتراكية . وقد نجحنا في مجالات عديدة وسنحقق نجاحات اكبر في المستقبل . وان طريقة حياتنا هي دون ريب الأكثر تقدماً في العالم في المرحلة الحالية من تطور البشرية . وبتعبير الانجيل ، اذا شئنا استخدام لغته ثانية ، فطريقتنا في الحياة هي فردوس البشرية . وهي ليست فردوساً بمعنى ان وعاء الرخاء يطفح فيه وان كل ما على المرء هو ان يفتح فمه فيملاً بطنه فوراً . كلا ، ليس عندنا مثل هذا الفردوس — او على الاقل ليس عندنا بعد مثل هذا . ولا اعرف اذا كنا سنحقق ذلك على الاطلاق . ولكن ، كما يقال ، كل شيء نسبي ، وبالمقارنة مع العالم الرأسمالي ، فحياتنا انجاز عظيم . لقد حققنا اشياء كثيرة وأنشأنا الشروط الضرورية لنجاحات اعظم .

اذن ، لماذا نناقض انفسنا ؟ لماذا نبني حياة سعيدة ونبقي حدودنا مغلقة بالاقفال السبعة ؟ احياناً يعترض مواطنونا السوفيات قائلين : «اذن ، انتم تدفعوننا

(١) في آب ١٩٦٩ اشار الدبلوماسيون السوفيات الى اشكينازي كمثل على الفنان السوفياتي الذي يسافر بحرية من الاتحاد السوفياتي والى خارجه . وقد وصف اشكينازي ذلك الزعم بأنه غير صحيح . وقال : «عندما يقول ناطق سوفياتي رسمي انني اتحرك بحرية بين روسيا والغرب ، كما انمى ان يكون ذلك ، فان ما يقوله تشويه فاضح للحقيقة » .

الى الفردوس بالتهديد بالعصا ، اليس كذلك ؟ ، كان الناس يهيمون بهذه الشكوى عندما كان التجميع الزراعي القسري والحملات الأخرى تجري على قدم وساق . اعتقد ان الوقت حان لكي تظهر للعالم ان شعبنا حر . انه يعمل برضاه ، وهو يبني الاشتراكية انطلاقاً من اقتناعاته ، وليس لأنه لا يملك خياراً آخر . انني لا أشك في ان من الملائم عملياً ونظرياً على حد سواء ، فتح حدودنا . واذا كان ذلك ليس معقولاً ولا ملائماً ، فاي نوع من الحريات عندنا ؟ حسناً ، اعرف ان البعض يجادل « ان لدينا بنية طبقية لمجتمعنا ، ولا نستطيع ان نأذن لاعداء البروليتاريا الطبقيين بالمجيء والذهاب حسب رغائبهم » . أما بالنسبة لاصحاب التفكير السليم ، فان هذه المرحلة من وجودنا مختلفة . فقد قضينا على الطبقات المعادية قبل خمسين سنة ، وكل جدل يرفع خطر الاعداء الطبقيين داخل الاتحاد السوفياتي هو جدل مخبول !

انني اذكر حادثة أخرى من أيام رئاستي تظهر كيف بإمكاننا التخلص من هذا الارث المحبط من الحدود المغلقة التي تنقل وجدان الدولة السوفياتية بعشها . كانت راقصة الباليه الاولى عندنا ، مايا بليستسكايا – التي لم تكن افضل راقصة في الاتحاد السوفياتي فحسب بل في العالم كله – تستنى من رحلات مسرح بولشوي الى الخارج . وقد رفع تقرير إليّ بأنها غير موثوق بها بلجهة رجوعها الى الوطن . لم أكن اعرفها شخصياً ، ولا صدف ان تحدثت اليها . فلم تكن لدي فكرة عن موافقها . وان هجران فنانة في مستواها الاتحاد السوفياتي كان دون ريب أمراً مسيئاً جداً . وكان الغرب سيفيد من ذلك ، لو حصل ، في دعايته المعادية للسوفيات . ثم في يوم من الايام ، بينما كانت فرقة الباليه تعد نفسها للسفر الى الخارج ، تلقيت رسالة من مايا بليستسكايا ، بصفتي سكرتيراً للجنة المركزية تقول فيها انها تحب وطنها وانها تشعر بالمهانة والتحقير عندما نبادلها بالشك وانعدام الثقة . فأمرت بطبع عدة نسخ من رسالتها ووزعتها على اعضاء البريزيديوم ، وطلبت ان نقرر ما عسانا ان نفعل . اما توصيتي فكانت بالسماح لها بالذهاب في الرحلة . وانعقدت شكوك حول امكان عدم عودتها . وقلت « ربما هذا أمر من الممكن حدوثه ، ولكنني اثق بها رغم انني لا اعرفها . لا نستطيع ان نعيش دون ثقة بالناس . ولو انها كتبت هذه الرسالة لتخدعنا حتى نتيح لها الذهاب ، عندئذ تكون خسارتنا بها كبيرة ، ولكننا نستطيع البقاء من دونها . » .

وذهبت مايا بليستسكايا في رحلتها ، وكافأنا اضعافاً بانجازها الرائع في الخارج . لقد عززت شهرة الباليه السوفياتي والثقافة السوفياتية . وبعد ان انتهت رحلتها عادت الى الوطن . وكان هذا جزء العمل الذي بذلناه في بناء مجتمع اشتراكي

اعتزت بليستسكايا بانتمائها اليه كمواطنة .
ولكن ماذا يحدث لو استمرينا بسياسة «لا اذن خروج» ؟ ماذا لو استمرينا في ابقاء مايا بليستسكايا حبيسة موقفا عليها ؟ كان الارجح ان نقلها الى مخلوق انساني اشل ومعاد للسوفيات في الوقت نفسه . ان الشخص الانساني مرهق جداً . ولا بد من التعامل معه بمتى الاحترام . ان خطوة واحدة لامبالية قد تخرجه عن توازنه . انني فخور بالسماح لمايا في السفر الى الخارج ، كما انني مسرور بمقابلتها لبادرة الثقة فيها بالتقدير المناسب .

لو فتحنا حدودنا ، هل من الممكن ان تخان ثقتنا في الافراد ؟ بكل تأكيد سيحصل ذلك . فبين المثين والاربعين مليوناً ، لا بد من ان نجد بعض العناصر غير الطاهرة . وستطفو تلك العناصر الى السطح ، كما يحصل للجسام الخفيفة في السائل . اذن فلتطف قمامة المجتمع واقداره على السطح ولتحمّلها الامواج بعيداً عن شواطئنا . ان ما اقله هنا ينسجم كلياً مع سياسة لينين في السنوات الاولى بعد الثورة ، عندما كنا نرسل اعداء الاتحاد السوفياتي الى النفي في الخارج . وكان جميع الذين يريدون مغادرة الوطن لا تنصب في وجوههم العوائق . «هل تريدون الهجرة ؟» كنا نقول لهم : «حسناً ، احزموا امتعتكم وتفضلوا الى الخارج» . وكانوا يغادرون ارضنا .

والان بعد خمسين عاماً ، علينا ان نكف عن البحث عن هارب في كل مواطن . يجب علينا ان نكف عن اغلاق حدودنا بحيث نبقي الحثالة والتفل داخل الحدود . يجب ان نبدأ التفكير باولئك الذين لا يستحقون ان ندعوهم حثالة - وهم اناس قد يمرون بفترة تعفن موقوتة في معتقداتهم ، او يرغبون في تجربة جحيم الرأسمالية ، فقد تروقه بعض عناصره المستقرة الجذابة . لا نستطيع ابقاء الناس ضمن السياج . علينا ان نفصح لهم في مجال اختبار العالم بانفسهم . اننا اذا لم نبدل موقفنا بهذا الصدد ، اخشى ان نهيء الى المثل الماركسية اللينينية التي تقوم عليها طريقة حياتنا السوفياتية .

ملاحق

الملحق ١

التتابع التاريخي لسيرة خروشوف

١٨٩٤	١٧ نيسان . ولد في كاليوفكا ، مقاطعة كورسك	اعتلاء القيصر نقولا الثاني
	قرب الحدود الاوكرانية .	العرش .
١٩٠٣		لينين يشق حزب العمال
		الديمقراطي الاشتراكي الى جناحين:
		بولشفيك ومنشفيك في المؤتمر
		الثاني للحزب في لندن .
١٩٠٤-٥		الحرب الروسية - اليابانية .
١٩٠٥		ثورة ١٩٠٥ .
١٩٠٦		الدوما الأول (البرلمان) .
١٩٠٩	ينتقل الى يوزوفكا (ستالينو فيما بعد ، والان	
	دونetsk) في اقليم دونباس من اوكرانيا حيث	
	يعمل والده في منجم .	
١٩٠٩-١٢	يتعلم صنعة تلحيم المعادن في مصنع بوس	
	في يوزوفكا .	
١٩١٢-١٨	يعمل لحاماً للمعادن في مصانع توليد الكهرباء	
	في مناجم روشينكوف وباستوكوف التي كان يملكها	
	فرنسيون .	
١٩١٤		اندلاع الحرب العالمية الاولى .
١٩١٥	يصبح «قارئاً عاماً» للبرافدا .	
١٩١٧	يمثل عمال المناجم في الاجتماعات والتظاهرات	ثورة شباط .
	السياسة ويقابل لازار كاغانوفيتش .	تنازل القيصر .
		تشكيل الحكومة المؤقتة .
		ثورة اكتوبر . لينين يطيح
		بالحكومة المؤقتة ويقيم الحكم

السوفياتي .	١٩١٨	يصبح بلشفيًا .
	١٩١٩	ينضم الى الجيش الأحمر .
الحرب الاهلية وتدخل الحلفاء .	١٩١٩-٢١	جندي وعامل حزبي في صفوف فرقة الرماية التاسعة الملحقه حيثنذ بجيش بوديوني الاول للخيلة في الهجوم نحو البحر الاسود .
المجاعة . تقديم السياسة الاقتصادية الجديدة .	١٩٢١	موت زوجته الاولى في المجاعة .
	١٩٢٢	العودة الى يوزوفكا من الجبهة . يعين من قبل منظمة الحزب في يوزوفكا نائباً لمدير مناجم روشينكوف .
		تعرض عليه ادارة مناجم باستوكوف . يطلب اذنًا للدرس في معهد عمال يوزوفكا .
	١٩٢٣	قائد طلابي وسياسي في معهد عمال يوزوفكا .
موت لينين .	١٩٢٤	يتسلم وظائف مختلفة في منظمة الحزب بيوزوفكا . يتزوج نينا بروفنا .
	١٩٢٥	يعين سكرتير الحزب لمقاطعة بتروفسكو-مارينسك لاقليم ستالينو (سابقاً يوزوفكا) .
ستالين يتحرك ضد زينوفيف وكامنيف .		يحضر المؤتمر التاسع للحزب الاوكراني برئاسة كاغانوفيتش .
		عضو استشاري (اي لا ينتخب) الى المؤتمر الحزبي الرابع عشر للاتحاد كله المنعقد في موسكو : اول مقابلة مع ستالين .
	١٩٢٦	اول خطاب عام مسجل في مؤتمر الحزب الاوكراني في خاركوف .
هزيمة زينوفيف وكامنيف .	١٩٢٧	مندوب الى المؤتمر الحزبي الخامس عشر للاتحاد كله في موسكو .
		يرقى من جهاز منطقة ستالينو الى الجهاز الاقليمي .
الخطوة الخمسية الاولى : بداية التجديع الزراعي .	١٩٢٨	يرقيه كاغانوفيتش الى نائب رئيس القسم التنظيمي في اللجنة الاوكرانية المركزية في خاركوف .
		يرقيه كاغانوفيتش الى رئيس القسم التنظيمي في الجهاز الحزبي في كييف .
كاغانوفيتش ينقل الى موسكو .	١٩٢٩	بلغ الخامسة والثلاثين ، يطلب اذنًا لدرس علم التعدين في اكااديمية ستالين الصناعية في موسكو .
تروتسكي ينفى .	١٩٢٩-٣٠	عامل سياسي وطالب في الاكاديمية الصناعية .

	سقط في انتخاب المنوبية عن الاكاديمية للمؤتمر الحزبي السادس عشر ، وحل بين وبين الترشيح لمكتب الخلية الحزبية . «يقود النضال في سبيل الخط الحزبي ضد اليمينيين والطفيليين والحرس القديم في الاكاديمية» .	
	يزامل ناديزدا اليلوييفا زوجة ستالين ويقوم بتنظيم الجماعة في الاكاديمية .	
	ارسل لتفتيش مزرعة ستالين الجماعية في اقليم سامارا ، اول لمحة عن الاحوال التي يسبها التجميع الزراعي .	
	مجلس يعده لقيادة القوى الموالية لستالين في الاكاديمية : جلسات لاستدعاء «اليمينيين» من المنوبين الى مؤتمر مقاطعة بومان الحزبي . يقود الوفد الجديد الى المؤتمر .	
١٩٣١	انتخب سكرتيراً اول لمقاطعة بومان . ورقي بعد ستة اشهر الى سكرتير اول لمقاطعة برسنيا .	
١٩٣٢	يترك الاكاديمية قبل التخرج ، يرقى الى سكرتير ثان للجنة مدينة موسكو الحزبية بقيادة كاغانوفيتش .	موت ناديزدا اليلوييفا زوجة ستالين .
	يزامل ناديزدا كرويسكايا ، ارملة لينين في ادارة مدينة موسكو .	
١٩٣٣	يصبح سكرتيراً ثانياً للجنة الاقليمية في موسكو . ينشط بقيادة كاغانوفيتش في اعادة تعمير موسكو وبناء المترو .	
١٩٣٤	يتخب للجنة المركزية في المؤتمر الحزبي السابع عشر («مؤتمر المتصرين») .	اغتيال كيروف .
١٩٣٥	يحل محل كاغانوفيتش كسكرتير اول للجان مدينة موسكو واقليمها .	سنوات التطهيرات الدموية والارهاب الكبير والمحاكمات الاستعراضية .
١٩٣٦		زينوفيف وكامينيف يحاكمان ويعدمان (اب) . يزهوف يحل محل ياغودا رئيساً للجوليس الري (ايلول) .
١٩٣٧		مقتل اردزونيكينز (شباط) .
		اعدام توخاشفكي والجنرالات (حزيران) .

١٩٣٨ عين سكرتيراً أول للجنة المركزية الاوكرانية .
عحاكمة بوخارين وريكوف
(اذار)

١٩٣٩ يحضر اجتماع كامل هيئة اللجنة المركزية الذي
يندد فيه كامينسكي ببيريا . ثم يختفي كامينسكي .
يصبح عضواً كاملاً في المكتب السياسي (اذار) .
انتفاضة روبنتروب-مولوتوف .
ينتقل بوصفه سكرتيراً أول لاوكرانيا والمضرب
المدني في مجلس كيف العسكري الى غربي
اوكرانيا (بولونيا المحتلة) .

١٩٣٩-٤٠ (آب) حرب الشتاء مع فنلندا
(تشرين الثاني - اذار)

١٩٤٠ يشرف على «سفوتة» اوكرانيا الغربية .
١٩٤١-٤٣ بوصفه عضواً في المجلس العسكري وممثل
المكتب السياسي ، يخدم على عدة جبهات مقوضاً
برتبة لفتنت جنرال .
سقوط كيف (ايلول ٤١) .
معركة موسكو (شتاء ٤١-٤٢) .

(٤٢) .
كارثة خاركوف
(ايار ١٩٤٢) .
معركة ستالينغراد
(تموز ٤٢ - شتاء ٤٣) .
معركة كورسك
(صيف ١٩٤٣) .

يبدأ باعادة بناء الاقتصاد الاوكراني والحزب .
تحرير كيف (تشرين الثاني ١٩٤٣) .

(١٩٤٣) .
مؤتمر طهران
(تشرين الثاني ١٩٤٣) .

١٩٤٤ يعين رئيس مجلس وزراء اوكرانيا ويظل محتفظاً
بمركزه كسكرتير أول للحزب الاوكراني .
المهجوم السوفياتي باتجاه برلين
(الربيع)

الغزو الحليف لفرنسا
(حزيران) .

القوات السوفياتية تتولي على
برلين (ايار) .

١٩٤٥ يقابل ايزنهاور في موسكو .
عرض النصر العسكري في موسكو
(حزيران) .

يرأس لجنة خبراء لماوتة البولونيين في اعادة

- تعمير فرسوفيا .
- ١٩٤٦-٤٧ خوف مؤقت وانخفاض في المسؤوليات .
 محل محله كاغانوفيتش سكرتيراً أول لاوركرانيا .
 اصابة حادة بالنزلة الصدرية .
- ١٩٤٨ يستعيد كامل سلطته في اوكرانيا .
- ١٩٤٩ يستدعي ستالين ويبيح رئيساً لمنطقة الحزب في
 موسكو (كانون اول)
- ١٩٥٠ عين مشرفاً مطلقاً على الزراعة . يدمج المزارع
 الجماعية ويدفع مشروع المزرعة - المدينة .
- ١٩٥٢ يلقي تقريراً عن تعديلات في نظام الحزب في
 المؤتمر الحزبي التاسع عشر .
- ١٩٥٣ يصنف في التسلسل الحزبي بعد مالنكوف ،
 مولوتوف ، بيريا ، وكاغانوفيتش . محل محل
 مالنكوف في السكرتيرية الاول للحزب (أيلول) .
- ١٩٥٤ يزور بكين بصحبة بولغانين . يشرع في حملة
 الارض البكر .
- ١٩٥٥ يزور يوغوسلافيا (يحسم النزاع مع تيتو) . يحضر
 مؤتمر القمة في جنيف . يزور افغانستان والهند .
 (شعاره «ستدفنكم»)
- ١٩٥٦ يلقي الخطبة السرية حول جرائم ستالين في المؤتمر
 العشرين للحزب (شباط) .
 يزور لندن (نيان) .
- ١٩٥٧ يبدأ بادخال اللامركزية على الصناعة (ايار) .
 يحطم معارضة «الفئة المضادة للحزب» - مالنكوف
 مولوتوف ، كاغانوفيتش وشيلوف وسواهم
 (تموز) .
- يقيل المارشال جوكوف من منصب وزير الدفاع
 (تشرين أول) .
- اطلق سبوتنيك الاول
 (تشرين اول) .
- اجتماع موسكو للحزب
 الشيوعية يحضره ماوتسي تونغ
 (تشرين ثان) .

١٩٥٨	يتسلم رئاسة الوزارة من بولغانين (اذار) .	ازمة الشرق الاوسط (عموز - آب) . ازمة برلين الاولى (الحريف).
١٩٥٩	يرفض اعطاء الصين معلومات عن الاسلحة الذرية .	
١٩٦٠	زيارته الاولى للولايات المتحدة . مشاورات مع ايزنهاور في كاسب دافيد (ايلول) . يعلن اسقاط طائرة يو ٢ الاستكشافية وأسر غاري باورز (ايار) .	
١٩٦١	يحلل اجتماع القمة في باريس. يهاجم الصين في اجتماع مطلق ابان انعقاد مؤتمر الحزب الروماني في بوخارست (حزيران) وفي مؤتمر موسكو للحزب الشيوعية المالية (تشرين الثاني) .	
١٩٦٢	يقابل كينيدي في فيينا يشن هجوماً مداوراً على الصين عبر الهجوم المباشر على ألمانيا وذلك في المؤتمر الثاني والتشرين للحزب (تشرين الثاني) . يأمر بتقل جيشان ستالين .	الماجور يوري غاغارين اول انسان في الفضاء (نيسان) . ازمة برلين الثانية (حزيران)
١٩٦٣	يصل الى شفير الحرب حول مسألة الصواريخ في كوبا ثم يتراجع (تشرين الثاني) . يلحق الكتاب والفنانين .	اتفاقية تحريم التجارب النووية (آب) . كارثة الحصاد .
١٩٦٤	يعد لصدام علي مع الصين في مؤتمر الحزب العالمي المقرر عقده في كانون الاول . يستقيل من كل مسؤولياته . يخلفه بريجنيف في السكرتيرية الاولى وكوسينين في رئاسة الوزارة (تشرين اول) .	

الملحق ٢

المؤسسات والمصطلحات السوفياتية

يتألف الاتحاد السوفياتي من خمس عشرة جمهورية (الاتحاد الفدرالي الروسي واورانيا هما من جمهورياته) وتشكل كل منها ، على الصعيد الرسمي ، دولة سيدها حق الانسلاخ .
ان مؤسسات الحزب والدولة التي لها ما يقابلها على مستويات كل جمهورية والاتحاد ككل ، هي نظرياً منفصلة ولكن متساوية . الا ان السلطان الحقيقي ، في الواقع ، يمارسه الحزب .

الحزب

يضم الحزب في عضويته نحو خمسة بالمئة من مجموع السكان السوفيات . وتديره لجان حسب الهرم التسلسلي . وان الوحدة التنظيمية الأدنى هي التي يجري تشكيلها في مشروع اقتصادي كصنع او منجم او مزرعة جماعية ، او في السرية العسكرية ، او المؤسسة التربوية . وقد اطلق على المنظمة الحزبية الدنيا ، لعدد من السنوات ، مصطلح «الخلية» . ومثال على ذلك خلية الاكاديمية الصناعية .
وينهض الهرم الحزبي على اساس تداخل وحدات اقليمية لكل منها لختها التوجيهية التي تدعى «بالمكتب» وجناحها التنفيذي الذي يعرف بالسكربتيرية . وان اللجان الحزبية حسب نطاق الصلاحيات والسلطان ، هي المقاطعة والمدينة والاقليم واللجنة المركزية للجمهورية ، وفي القمة اللجنة المركزية للاتحاد كله . تضبط الاجراءات الحزبية مجموعة قواعد تعرف بقوانين الحزب التي جمعت وصنفت قبل الثورة ويجري تعديلها بانتظام .

وان «المؤتمر الحزبي» ، حسب قوانين الحزب ، هو «الجهاز الاعلى» في الحزب

الشيوعي . وهو عبارة عن اجتماع مندوبين من كل الجمهوريات ينتخبون لجنة الاتحاد المركزية . وتنص قوانين الحزب انه يتوجب انعقاد المؤتمر كل ثلاث سنوات مرة على الأقل . وللدلالة على مقدار ما يتمتع به المؤتمر الحزبي ، وبالتالي القوانين الحزبية ذاتها التي تنص على ذلك ، نمتشهد بواقعة ان ستالين لم يدع الى المؤتمر الحزبي التاسع عشر الا بعد مرور ثلاث عشرة سنة على انعقاد المؤتمر الحزبي الثامن عشر .

ان الاعمال تصرف على مستويات المقاطعة والمدينة والاقليم والجمهورية في مؤتمر الحزب . وتجتمع اللجنة المركزية للاتحاد كله دورياً كل نصف سنة بكامل هيئتها . وبين اجتماعات الهيئة الكاملة تصرف اعمال اللجنة المركزية من قبل جهازها الاداري : سكرتيرية اللجنة المركزية التي تقوم بتنفيذ اوامر الحلقة الداخلية في قيادة الحزب ، «المكتب السياسي» (الذي اعيدت تسميته بريزidium قبيل موت ستالين ثم بدلت التسمية مرة ثانية الى مكتب سياسي بعد سقوط خروشوف) . ورغم ان المكتب السياسي هو تقنياً منتخب من اللجنة المركزية ومسؤول امامها ، فهو عملياً يستمد سلطانه من ذاته وهو مركز السلطان الحقيقي في بيروقراطية الحزب . ويشغل السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب دائماً رئاسة المكتب السياسي او البريزيديوم ويكون بمقدوره ان يحشر انصاره في جهاز الحزب كله .

الدولة

تنقسم الدولة الى فروع تنفيذية وتشريعية ، ومفروض ان تكون الاولى تابعة للاخيرة ، ولكنهما معاً في الواقع يخضعان للحزب .

وبقوم الوزراء بالوظائف التنفيذية على مستوى الجمهورية والاتحاد (الذين كانوا حتى بعد الحرب العالمية الثانية بقليل يسمون بالمفوضين) ، كما يقوم بهذه الوظائف على مستويات المقاطعة والمدينة والاقليم اللجان التنفيذية . وفي كل من المستوى الجمهوري والاتحادي يشرف على مختلف حقول الادارة (النقل والكهرباء والتعدين والزراعة والصناعة والى ما ذلك) مجلس الوزراء (سابقاً مجلس مفوضي الشعب) .

ويشار الى رئيس مجلس الوزراء عادة ، في الاتحاد السوفياتي ، على انه الوزير الأول للاتحاد السوفياتي . وهو دوماً عضو في المكتب السياسي او البريزيديوم .

امّا بنية الجهاز التشريعي فتطابق التقسيمات الجغرافية للتنظيم الحزبي . فالوحدة التمثيلية الاساسية هي السوفيات او المجلس ، تراوح من سوفيات المقاطعة او الريف في المستوى الادنى الى السوفيات الاعلى على المستويين الجمهوري

والاتحادي . وان رئيس سوفيات المدينة هو ، عملياً ، محافظ المدينة ، كما ان رئيس بريزيديوم السوفيات الاعلى في الاتحاد السوفياتي هو رئيس الدولة . يعلن دستور ستالين الصادر في ١٩٣٦ أن مجلس السوفيات الاعلى هو الهيئة العليا لسلطة الدولة في الاتحاد السوفياتي ويوليها سلطان التشريع الذي يتمتع به البرلمان الديمقراطي . اما في الواقع ، فالسوفيات الاعلى هو خاتم المطاط (اي الذي يوافق روتينياً ودون تفكير) على قرارات الدولة ، وحاله كحال اللجنة المركزية بالنسبة للحزب . فالمكتب السياسي هو الذي يسيطر على الهيئتين : السوفيات الاعلى واللجنة المركزية ويشرف عليهما بقبضة قوية .

البوليس السري

مرت مؤسسة البوليس السوفياتي في مراحل مركبة من التطور وعرفت بعشرات الاسماء وفقاً لمرحلة النشاط (اي الدولة والحزب والجيش) . في هذا الكتاب نظهر اولاً باسم NKVD او مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ابّان سنوات التطهير . وخلال الحرب اصبحت المديرية السياسية للقوات المسلحة . وبعد الحرب قسمت مؤسسة البوليس مؤقتاً الى قسمين : وزارة الشؤون الداخلية ووزارة أمن الدولة التي غالباً ما اشير اليها «بسكرتيرية الدولة» .

وكما يبدو من عشوائية استخدام خروشوف لهذه التعابير ، يتضح انه يستحيل الحفاظ على هذه التسميات ، بحيث يغطي اللقب الاساسي «تشيك» (وهو تعبير من زمن لينين اطلق على «اللجنة فوق العادة لمكافحة النشاط المضاد للثورة والاستغلال والتخريب») على ما عداه من تسميات في وصف البوليس السري ، كما ان مصطلح «التشيك» يستخدم لموظف من جهاز الأمن . وقد بقيت «التشيك» حتى موت ستالين جهازاً عملاقاً متوحشاً يمارس الرقابة والقمع ويتغلغل في كل مستويات واجهزة الدولة والحزب والحياة العامة والخاصة للمواطنين . وكان بتصرفها بيروقراطية ادارية واسعة ، وقوات مسلحة خاصة بها ، واجراءات مختصرة تتجاوز القواعد القانونية ولا يحدّها سلطان ، فضلاً عن تسهيلات لاعتقال ضحاياها ، والتحقيق معهم عادة يجري تحت وطأة التعذيب ومحاکمتهم واعدامهم . ووصلت منظمة البوليس السري الى شبه حكومة في ظل لافرنتي بيريا ، عندما أخذت السجون ومعسكرات الاعتقال تزود الدولة بجيش كبير من عمال السخرة . وحتى ستالين لم يكن في حكمه الاوتوقراطي اميناً على نفسه من تضخم سلطان

جهاز أمن الدولة - المباحث NKVD . فعندما قرر أن تطهيرات يزهوف وتصفياته أخذت تتفاقم تفاقمًا خطيرًا ، ضحى بيزهوف على مذبح التطهير ودعا « القزم المتعطش للدماء » في محاولة لايقاف اندفاع هذه القوة الماحقة .

يقول خروشوف ان ستالين أخذ يخاف بيريا ولكنه لم يكن يعرف كيف يتخلص منه . ان ضرورة التخلص من بيريا هي ، كما يبدو الأمر الذي استطاع خروشوف وسائر المتنافسين على عرش ستالين ان يتفقوا عليه . وبعد وقت قصير على استئصال بيريا خفضت أجهزة أمن الدولة من وضعها السابق كوزارة وامبراطورية الى لجنة KGB تخضع لمجلس الوزراء ورقابته الصارمة .

الملحق ٣

زملاء خرووشوف في الكرملين

لافرتي ب . بيريا

رقاه ستالين ، لاعتماده عليه كابن بلده وأحد افراد حاشيته ، الى السيد المطلق على دولة المباحث . ثم قام ورثة ستالين بتصفيته باعتباره عبقرياً شريراً وخائناً . ان بيريا يستحق كلياً الصيت الذي لازمه : يد ستالين اليمنى الدامية . الا ان دوره في الارهاب الستاليني يبقى على اي حال موضع جدل . فباشرافه ، وبمبادرته جزئياً ، وضع حد لتطهيرات يزهوف في اواخر الثلاثينات (انظر الملحق رقم ٢) . يضاف الى ذلك ان بيريا قد يكون استهدف كضحية ، وبالتالي لم يكن معرضاً على تطهيرات ستة الصيت في الفترة التي أعقبت الحرب : قضية القرم ، ومؤامرة الاطباء .

ان اصول بيريا غامضة ، ويعتقد انه يتحدّر من الطبقة الوسطى . وكانت مهمة بيريا، الى ان جاء به ستالين الى موسكو ليخلف يزهوف ، محصورة بيجورجيا ، اولاً في التشيكا ثم في الجهاز الحزبي . ثم مهد لنفسه كي يصبح المخبر الاول للكرملين والمحقق الذي لا يستغنى عنه في القوقاس ، بتأميره المخطط عند جورجيين امثال اردزونيكيدز وينوكيدز . وفي ١٩٣٥ القى في المؤتمر التاسع للحزب الجورجي خطاباً استغرق يومين «حول كتابات ستالين ونشاطاته الاولى» فثبت نفسه كاحد واضعي سيرة ستالين الرسميين .

ويعتبر بيريا متخلفاً عن اقرانه في الالتحاق بحلقة ستالين الداخلية من امثال مالنكوف وفوروشيلوف ومولوتوف وكاغانوفيتش وبولغانين وميكويان وخرووشوف . الا انه ما ان نقل الى موسكو في تموز ١٩٣٨ حتى عمل على التعويض عن الوقت الذي مضى .

فقد تمكن من الاندماج بحلقة ستالين ، وفي الوقت نفسه تلاعب بشكوك ستالين بالآخرين لمصلحته . وقبل الحرب اصبح نائب رئيس مجلس مفوضي الشعب والنسق القومي لعمليات الأمن . وقد كان ، قطعاً ، الجانب الرئيسي في مذبحه ما يقارب اربعة الاف ضابط بولوني في غابة كاتين قرب سمولنسك . وقد عينه ستالين ، عندما بدأ الغزو الالماني ، عضواً في لجنة دفاع الدولة (مع مولوتوف وفوروشيلوف ومالكوف) وجعله المسؤول عن السياسة المحلية فلعب دوراً خطيراً في اجلاء الصناعة ابان التقدم الالماني ثم اعادة تركيزها في مناطق آمنة . وابان التراجع الالماني بعد ستين عین عضواً في لجنة مالنكوف لاعادة المناطق المحررة . ووجد نفسه خلال المسؤولين المشار اليهما ، على احتكاك دائم وغير منسجم مع خروشوف . وقد عينه ستالين في اليوم التالي لالقاء الاميركيين قبلتهم الذرية على هيوريشما للاشراف على مشروع سوفيائي على غرار مشروع مانهاتن . واسفرت جهوده عن تفجير نووي في صحراء اوست - اورت بين بحري قزوين واورال في تموز ١٩٤٩ .

وكان ييريا يعارض خروشوف بصورة خاصة في قضايا السياسة الزراعية وقاد بالاشتراك مع مالنكوف الحملة على خطة خروشوف المدينة - الزراعية في ١٩٥١ .

وقد يكون ييريا من اسباب الدسائس والتآمر الا ان زلته الكبرى في انه سمح لغروره ان يدفع به الى التبحر بسلطانه وطموحه في وجه رفاقه . وان ستالين نفسه في سنواته الاخيرة بدأ يخشى ييريا ، ولكن تصفية ييريا كانت من نصيب خلفاء ستالين الذين جمعوا صفوفهم المنقسمة ، اصلاً ، ضده واعدموه بعد مرور اشهر على موت ستالين في ١٩٥٣ .

نيقولا ي. بولغانين

ابن موظف مكاتب . قضى بولغانين حياته الحزبية الاولى في صفوف الشيكا وهو يحارب « الثورة المضادة » في الاتحاد الروسي الفدرالي وتركستان . وانتخب رئيساً لسوفيات مدينة موسكو في ١٩٣١ . وهي وظيفة وضعته في احتكاك حميم مع خروشوف . واستفاد بولغانين من التطهيرات فعين رئيساً لمجلس مفوضي الاتحاد الفدرالي الروسي في ١٩٣٧ وعضواً كاملاً في اللجنة المركزية لكل الاتحاد في ١٩٣٩ . وابان الحرب كان يقوم بوظيفة مشابهة لوظيفة خروشوف على الجبهة الاوكرانية اذ كان مفوضاً على جبهات موسكو وغربي البلطيق وبلوروسيا برتبة لفتنت جنرال . وفي ١٩٤٤ رقي الى

رتبة جنرال وعين عضواً في وزارة ستالين الحربية . وفي نهاية الحرب خلف ستالين كوزير للقوات المسلحة واصبح مارشالاً للاتحاد السوفياتي . وفي ١٩٤٨ اصبح عضواً كاملاً في المكتب السياسي .

كان رصيد بولغانين الاعظم انه نسبياً ارحب صدرأ من اقرانه الذين كان واحدهم يمسك بخناق الاخر في مشادات لا آخر لها . وعلى هذا الاساس قبل من الجميع كمرشح تسوية وكان المرشح «الواجهة» الذي طرحه خروشوف . وهكذا اصبح وزيراً للدفاع بعد فترة قصيرة من موت ستالين ثم خلف مالنكوف في رئاسة الوزارة بعد ١٩٥٥ . وان بولغانين القليل الظلال وهوذو اللحية الصغيرة المشدبة كان لخروشوف الأكثر حيوية ودهاء نعم الرفيق في رحلتهما الى بكين ودلهي وبلغراد وجنيف ولندن .

وعندما اصبح خروشوف بفضل مناوراته في موقع يتيح له الاستيلاء على رئاسة الوزارة اسقط بولغانين بقفا كفه ، مضيفاً اسمه في آخر لحظة الى لائحة الفئة المضادة للحزب السوداء . وكان ان اطاع بولغانين الأمر وانسحب من مسرح النشاط العام في اجتماع لكامل هيئة اللجنة المركزية عقد في ١٩٥٨ واعلن اعترافه بذنبه وندد بالمتآمرين المزعومين مولوتوف ومالنكوف وكاغانوفيتش . فوقرت له اسباب الراحة في تقاعده وقدم له منزل ريفي في ضواحي موسكو .

لازار م . كاغانوفيتش

في ذكرياته يصوره خروشوف كالث الاشرار الذي لا يفوقه في هذا المضمار الا ستالين وبيريا . وقد لا يدرك القارئ ان خروشوف مدين بتقدمه لكاغانوفيتش . فمنذ ان التقى به خروشوف في ثورة شباط ١٩١٧ غدا من محاسبيه بل يده اليمنى . وقد تمسك باذيال كاغانوفيتش في الاغلب وهو يصعد سلم التسلسل الحزبي في المنظمة الاوكرانية ابان العشرينات . كما انه ، بصرف النظر عن زعم خروشوف غير القابل للتصديق ، من ان زوجة ستالين كانت هي التي ساعدته في موسكو ، فقد كان كاغانوفيتش هو الذي رقاها بسرعة حتى اوصله الى اللجنة المركزية والمكتب السياسي .

وكان كاغانوفيتش الذي لا يكل ، المعروف بقسوته في العمل وبحيويته ومراسه يعتبر افضل اداري في الاتحاد السوفياتي . وقد بلغ الذروة ابان اعادة تعمير موسكو في الثلاثينات . ونوج امجاده بمد خطوط المترو في موسكو التي كان يشرف عليها والتي حملت لعدة سنوات اسمه . وكان ، بوصفه عضواً في لجنة الاشراف على الحزب ، أحد رجال ستالين المعتمدين في حملة التشريك الزراعي .

وقد ارسل الى اوكرانيا وسيبيريا لتصعيد حملة «تصفية الكولاك الطبقية» كما اطلقت يده ابان التطهيرات ضد «عناصر المعارضة» في النقابات . ويرجع بان عداوة خروشوف لكاغانوفيتش تعود الى ١٩٤٧ عندما حل معلمه السابق علته في السكرتيرية الاولى للحزب الاوكراني ابان الفترة القصيرة التي سقط فيها خروشوف من الخطوة . كان كاغانوفيتش النائب الاول لرئيس مجلس الوزراء بعد موت ستالين . واذ اعتبر من «رجال مالنكوف» في مرحلة التنافس بين خلفاء ستالين العتيدين ، فقد صنف من الجماعة المضادة للحزب وطرد من البريزيديوم في ١٩٥٧ بعد انقضاء سبع وعشرين سنة على انتخابه عضواً كاملاً في تلك الهيئة المهمة . وقد وجه خروشوف الى كاغانوفيتش ، وهو اليهودي الاوكراني ، تهمة العداوة لاوكرانيا وللسامية فضلاً عن «المبالغة في تضخيم قسطه من الاسهام في تطور النقل والبناء .» وصفه «بكلب» ستالين . وقد عين كاغانوفيتش بعد ان مرغ بالخزي ، مديراً لمصانع الاسمنت في سفيردلوفسك . وشوهد مؤخراً في المكتبات يستعرض الكتب ، ويحضر حفلات المسارح ، ويزجي النصائح للطلبة في متزهات موسكو .

جورجي م. مالنكوف

بعيداً عما يصوره خروشوف من انه كاتب بنصف عقل لدى ستالين وتيس ماعز خنوع عند بيريا، فان «يفور» مالنكوف كان امراً هائلاً في ذكائه وقدرته وصلابته وطموحه . واذ كان أكثر صقلاً في اصله واساليبه من خروشوف فقد كان ينظر ، على الأرجح ، الى هذا الاخير نظرتة الى ريفي مهذار كثير الكلام .

بموت اندريه جدانوف في ١٩٤٨ (الذي يتجاهله خروشوف هنا كلياً) اصبح مالنكوف الشخص الثاني في القيادة السوفياتية من حيث الاهمية والنفوذ . وكان يعتبر على نطاق واسع وريث ستالين الظاهر . وقد عزز هذا الانطباع تسمية ستالين لمالنكوف ليلقي التقرير العام بالنيابة عنه في المؤتمر التاسع عشر في ١٩٥٢ .

ولفترة قصيرة بعد موت ستالين جمع مالنكوف بين وظيفتي سكرتير اول للحزب ورئيس للوزارة . وخلال هذه الفترة الانتقالية ، وبينما كان خروشوف يوطد قوته ، قاد مالنكوف المبادرة في تكييف السياسة السوفياتية الخارجية والمحلية لتصبح ملائمة وحقائق عالم ما بعد الحرب . وكان مالنكوف أول من اقترح علناً بان الاعتقاد اللينيني حول حتمية الحرب الكلية بين الشيوعية والرأسمالية

قد فقد صحته في العصر النوري ، وهو موقف هاجمه خروشوف ووصفه بأنه بدعة تحريفية ، ولكنه لم يلبث فيما بعد ان جعله عقيدته الجديدة في «التعايش السلمي» . وكان مالنكوف ايضاً ازل من دعا الى رفع مستوى الحياة للشعب واعطاء اولويات لانتاج سلع الاستهلاك - وذلك قبل وقت طويل من بدء خروشوف بمهاجمة «ملهمي الفولاذ» اي رجال الصناعات العسكرية الذين يهتمون موارد الدولة على حساب مصالح الناس المادية . وقد اعتبرت مؤامرة الاطباء في ظل مالنكوف اكذوبة ملفقة واعيد الاعتبار لضحاياها - وهو عمل يمكن اعتباره مقدمة لما جرى من تنديد المؤتمر العشرين للحزب باساليب ستالين واعادته الاعتبار لضحاياها .

وباحتدام التنافس بين مالنكوف وخروشوف ، حاول مالنكوف ان يحول الوزارات وجهاز الدولة وطبقة التقنوقراطيين الى قاعدة قوة يستخدمها للحد من سلطان خروشوف وطبقة البيروقراطية الحزبية .

ولكن مالنكوف لم ينجح منافسه في المناورة ، فتغلب عليه بالاصوات واضطر الى التخلي عن رئاسة الحكومة على اساس «عدم الخبرة» لصنيعة خروشوف وصديقه الموثوق بولغانين في ١٩٥٥ . وبعد محاولته اقامة ائتلاف مهلهل لهذا الغرض من الستالينيين القدامى في محاولة لاسقاط خروشوف من قمة الحزب ، خسف نجم مالنكوف الى الابد في ١٩٥٧ . وبعد سنة وجه خروشوف الى مالنكوف مجموعة اتهامات تراوح بين عدم الجدارة ابتان الحرب الى المسؤولية عن تطهيرات لينينغراد في ١٩٤٩ الى اعتماد سياسات لا لينينية في الاقتصاد والزراعة الى الاشتراك في مؤامرة « ضد الحزب » . وأبعد مالنكوف ، اذ عين مديراً لمحطة توليد الكهرباء في الجزء القصي من كازاخستان . ولفترة بدا انه غاب عن النظر كلياً ، ولكنه شوهد مؤخراً حياً وبصحة جيدة في موسكو .

روديون ي . مالنوفسكي

هو القائد الصارم ، القوي البنية ، الصريح والمحبوب من انفار القوات المسلحة والمفوضين على حد سواء . وكما تكشف هذه الذكريات فان نيكتا خروشوف كان من المعجبين به . ولد مالنوفسكي في وسط فلاحى في اوديسا ثم التحق بالجيش القيصري وهو بعد في السادسة عشرة وخدم في المدفعية في الحملة الروسية الى فرنسا . وبعدها قاد في الحرب الاهلية كتيبة من الجيش الأحمر ضد قوات البيض بقيادة الاميرال كولشاك في سيبيريا . وانضم الى الحزب في ١٩٢٦ . وما خلا انزال رتبته اثر الهزيمة السوفياتية في روستوف ، فان

مالينوفسكي قد سطع نجمه اثنان الحرب العالمية الثانية . وخلال الحرب ، كان على علاقة ود وثيقة وظاهرة مع خروشوف : اولاً كخطط للحد من التقدم الالمانى في ساراييا واوكرانيا ، ثم كاحد القواد العاملين بقيادة جوكوف الذي اوقف التقدم الالمانى في ستالينغراد ، واخيراً كدير لعملية طرد الألمان من اقليم دونباس ، موطن خروشوف ، ومن جنوبي اوكرانيا المشتعلة على مسقط رأس مالينوفسكي نفسه : اوديسا .

في ١٩٤٤ قبل الاستسلام الالمانى في رومانيا كان رأس حربة الاختراق السوفياتي للجهة من بودابست الى فيينا . وما ان وضعت الحرب اوزارها حتى كان يحارب اليابانيين (ويترل الدمار بالصينيين كذلك) في منشوريا . وبقي في الشرق الاقصى الى ان استدعي الى موسكو ليصبح نائباً اول لوزير الدفاع في ١٩٥٦ عندما أصبح عضواً كاملاً في اللجنة المركزية . وبعد سنة حل كوزير دفاع محل قائده القديم في ايام ستالينغراد ، المارشال جوكوف .

مالينوفسكي كان ساعد خروشوف الايمن ابان مؤتمر القمة الجهمض في باريس في ١٩٦٠ . وقد تفوه بكلام قاس عند عودته من باريس الى موسكو ، اذ حذر الغرب انه من الان فصاعداً ستتخذ تدابير فورية ضد القواعد التي تنطلق منها اية طائرة تخترق المدى الجوي السوفياتي . وخلف مالينوفسكي نائبه المارشال غريشكو الذي كانت تربطه بخروشوف صلات صداقة اثنان الحرب . وتوفي مالينوفسكي في ١٩٦٧ .

النستاس أ . ميكويان

الارمني العنيد الماكر ، والمعروف في الغرب بالبائع السوفياتي المتجول رقم واحد . وهو يمثل حالة كلاسيكية ولكنها في الوقت ذاته فريدة من نوعها في البقاء . ان سيرة حياته وصعوده السياسي تجعله قريباً جداً من ستالين . فهو مثل ستالين فوقاسي وكان لفترة خادماً في الكنيسة ، ثم انضم الى البلاشفة في ١٩١٥ ، اي في السنة نفسها التي تلقى فيها شهادته في اللاهوت .

وقد كان بارزاً في منظمي الحزب في باكو وتفليس . ونجا باعجوبة من الاعدام على ايدي قوات المنشفيك والبيض ، والالمان والأتراك والبريطانيين ، التي كانت تتنازع مع الحمر السيطرة على القوقاس بعد الثورة . كان مع سيرجواردزونيكيدز من حلفاء ستالين الاوائل ضد تروتسكي . الا ان اردزونيكيدز كان اقل مرونة من ميكويان . وأصبح ميكويان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي في ١٩٢٦ عندما عين مفوضاً للشعب في التجارة الداخلية ثم للتجارة الخارجية . وغدت التجارة

الخارجية اختصاصه منذ ذلك الحين فطاف الولايات المتحدة في ١٩٣٦ دارساً اساليب انتاج المواد الغذائية ، ثم في ١٩٥٩ داعياً الى التجارة بين ما وصفه «باعتظم دولتين» . وسقط ، حسب ما يقول خروشوف ، هو ومولوتوف من الخطوة لدى ستالين خلال سنوات الديكتاتور الاخيرة ، فابعدهما عن الدائرة الحاكمة وأخذ يتحين الفرص للقضاء عليهما . ويشك خروشوف في امكان نجاة اي من سيدي السياسة الخارجية المذكورين من مصيره المحتوم لو امتد العمر بـ ستالين بعض الوقت . ان دور ميكويان في حياة خروشوف السياسية غامض : فقد دافع كما يبدو ، عن لافرنتي بيريا ضد المحكمة الصورية التي عقدها زملاؤه والتي يزعم خروشوف انه هو الذي نظمها في ١٩٥٣ ، ثم نرى «انستاس افانوفيتش» (ميكويان) يمهّد في المؤتمر العشرين لخطبة خروشوف السرية بفتح نار الانتقاد على ستالين في الجلسة العادية للمؤتمر .

كان ميكويان يتحلى بشخصية جذابة فاتنة وبروح مرحة متأصلة في طباعه الرضية عندما كان يسافر وحيداً . ولكنه عندما يكون ملحقاً بخروشوف في رحلات الى الخارج كان يضطر الى مكافحة تصرفات رئيسه الفاضحة في افتقارها الى الثروي والحكمة . وكان ميكويان العضو الوحيد من الحرس القديم (مالنكوف ، مولوتوف ، كاغانوفيتش الخ...) الذي سلم من هجوم خروشوف . وبعد ان قضى فترة مارس فيها الرئاسة الاسمية للاتحاد السوفياتي اختفى عن المسرح العلني بعد مرور سنة على سقوط خروشوف . وقد تقاعد في المؤتمر الحزبي الثالث والعشرين وهو يعيش الان بهدوء في موسكو .

فياشيلاف م . مولوتوف

كان ابن أخت المؤلف الموسيقي الروسي الذي يحمل هذا الاسم ، وابن معاون مدير أحد المخازن ، وأحد القلائل بين البلاشفة المتحدر من وسط بورجوازي . ارتبط بـ ستالين منذ الايام المبكرة الأولى . وعندما كان شاباً ناشئاً في العشرين من عمره حافظ على وحدة الحزب في بطروغراد (ليننغراد فيما بعد) والحزب بعد جنين هناك ، وذلك في اعصر الظروف اذ كان لينين وتروتسكي وزينوفيف وآخرون في المنفى خارج البلاد ، كما كان ستالين وكامنيف في سيبيريا . وصفه لينين «بافضل كاتب سجلات في روسيا» ، بينما كان تروتسكي أبخل في تقديره له . عندما اسقطت ثورة شباط النظام القيصري كان في السابعة والعشرين من عمره ، شديد التلعثم ، يضع نظارة على انفه وشديد الغرور بنفسه وقد لازمته هذه الخصال طيلة عمره . وكان كذلك من كبار قادة البلاشفة في

بطروغراد .

وتكنى مولوتوف «بالمطرقة» كما تكنى ستالين «بالقولاذ» والحقيقة ان ستالين عاد فاستخدم فعلاً مولوتوف مطرقة يحطم بها اعداءه ويضطرهم الى الخضوع لسلطانه . فقد قاد مولوتوف نيابة عن ستالين ، عملية تصفية المنشفيك ثم ذهب بصحبة فوروشيلوف الى ليننغراد في ١٩٢٦ لسحق المعارضة الموالية لزينوفيف . تولى قبل كاغانوفيتش وخروشوف قيادة (مجلس مفوضي الشعب يومها) المنظمة الحزبية في موسكو . وفي ١٩٣١ رقي الى منصب رئيس مجلس الوزراء وكانت وزارة شكلية ، اذ خلف فيه ريكوف الذي اقبل بسبب «يمينته» . وفي ١٩٣٩ سلم رئاسة الوزراء الى ستالين واصبح وزير خارجيته ، خلفاً لمكسيم ليتفينوف الذي كانت قد فشلت سياسته في الأمن الجماعي ، فجري التخلي عنها تمهيداً للميثاق بين ستالين وهتلر . وكانت باكورة اعمال مولوتوف الرئيسية كوزير خارجية ميثاق صداقة وعدم اعتداء مع فون روبنروب .

يقول خروشوف ، ان مولوتوف فقد ثقة ستالين به في سنواته الاخيرة . وكان الديكتاتور العجوز الكثير الشكوك قد أخذ يرتاب بأكثر اعدائه ولاء على انه عميل للحكومة الاميركية .

وكان مولوتوف ستالينياً متأصلاً . وقد حاز على سمعة عالمية على انه الممثل الرئيسي لسياسة التشدد في الحقل الخارجي في الايام الاولى الكالحة من الحرب الباردة .

بعد موت ستالين عارض مولوتوف خروشوف في كل منعطف رئيسي : وقف ضد عملية التنديد بـستالين ، وضد المصالحة مع تيتو ، وضد الرد المتزن على التمرد البولوني في ١٩٥٦ . وقد اعتبره خروشوف في ١٩٥٧ ، مع مالنكوف وكاغانوفيتش عدواً للشعب . ثم ارسله سفيراً الى أولان باتور ، المركز المجهول من مراكز الخدمة في السياسة الخارجية . فخلفه شيلوف وزيراً للخارجية الذي لم يلبث ان أصبح هو الآخر أحد ضحايا انتقام خروشوف ضد الفئة المضادة للحزب ، فاستبدل شيلوف بنائبه ، الوزير الحالي للخارجية السوفياتية ، اندريه غروميكو . وفي ١٩٦٠ عاد مولوتوف فبرز من مطاوي النسيان في مونغوليا الخارجية . وعين الممثل السوفياتي لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومركزها فيينا . الا ان اية فكرة لاعادة الاعتبار لمولوتوف استبعدت في المؤتمر الثاني والعشرين عندما اتهم بمشاركة ستالين في جرائمه ولاسيما وضع لوائح الموت ابان التطهيرات . وقد شوهد مولوتوف مؤخراً في موسكو وهو يحضر ماتم زوجته زيمشوزينا في ١٩٧٠ .

كلمت أ . فوروشيلوف

جنرال سياسي أكثر منه عسكرياً محترفاً . تميزت سيرته الطويلة بادعاءات فارغة للمجد ، ورافقه والحظ الباسم أمداً طويلاً . بعد ان حطم حصار الجيش الابيض لتساريتسين (ستالينغراد فيما بعد) ابّان الحرب الاهلية وقمعه عصيان كرنستادت في ١٩٢١ ، ارتفع فوروشيلوف ، بسرعة ، الى مفوضية الشعب للدفاع واصبح مارشالاً للاتحاد السوفياتي ورجل ستالين العسكري الاول . وقد استمتع فوروشيلوف بالاضواء تسلط عليه فقضى معظم وقته ، كما يقول خروشوف ، بحضور الاوبرا وعرض اوسمته للمصورين . وطول الوقت الذي كان يعد هتلر للحرب ، كان فوروشيلوف يترك الجيش الأحمر ، وهو المسؤول عنه ، للخراب . من هنا كان ستالين على بعض الحق عندما حمل فوروشيلوف مسؤولية ما نزل بالاتحاد السوفياتي على ايدي الفنلنديين في حرب الشتاء في ١٩٣٩ - ١٩٤٠ . وقد عزل ستالين فوروشيلوف وابقاه حياً حتى يسخره للآربه .

وبعد ان ارتفع الى هذا السمو ثم انحدر الى الحضيض ، احتفظ رغم انسحاقه ، لنفسه بمركز الصديق القديم الوقور لستالين واحد اعضاء حكومته الحربية . وكان ستالين ، على ما يبدو ، مرّداً في معاقبته كما عاقب مرووسيه «لحيانتهم» . وقد استطاع فوروشيلوف ان يتجنب شكوك ستالين الرهيبة وعداوة خلفائه . ويخبرنا خروشوف كيف كان ستالين يردد في ايام خرفته الاخيرة قوله ان فوروشيلوف كان جاسوساً انكليزياً ، لكن ذلك لم يمنعه من السماح له بقضاء عطلة بالقرب منه في سوخي .

انتخب فوروشيلوف على اثر موت ستالين في ١٩٥٣ رئيساً لبريزيديوم السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي . وبقي رئيساً اسماً للاتحاد السوفياتي حتى ١٩٦٠ عندما عزي تقاعده الى سوء صحته . ولكن بعد سنة ونصف السنة من تقاعده ، ندد به فجأة في المؤتمر الثاني والعشرين بتهمة الاشتراك في نشاطات الفئة المضادة للحزب في اواسط الخمسينات . اعترف فوروشيلوف بخطايا ، فطلب له خروشوف الرحمة . وحدثت المفاجأة ، اذ انتخب ثانية لبريزيديوم السوفيات الاعلى في نيسان ١٩٦٢ . ثم مات في سن التاسعة والثمانين ، في ١٩٧٠ .

جورجي ك . جوكوف

كان المارشال جوكوف ابرز قادة ستالين العسكريين في انتصار الاتحاد السوفياتي على المانيا . كما كان أهم حلفاء خروشوف في انتصاره الصعب على

الجماعة المضادة للحزب . بدأ حياته العسكرية ملازماً في فرقة الخيالة القوقاسية في الجيش القيصري إبان الحرب العالمية الاولى . وقد انضم الى الجيش الأحمر في ١٩١٨ والى الحزب في السنة التالية .

في ١٩٣٦ كان جوكوف المراقب السوفييتي الرئيسي في الحرب الاسبانية الاهلية . ولم يصبه ما اصاب العديدين من اعضاء الحملة الاسبانية الذين صفّاهم ستالين في تطهيره لقيادة الجيش الأحمر .

بعد سنوات ثلاث قاد هجوماً مضاداً فذاً ضد اليابانيين في مونغوليا الخارجية قرب نهر هالكين غول . وحتى صيف ١٩٦٩ كانت الدعاوة السوفياتية تذكر للعالم والصين بصورة خاصة - بمعركة هالكين غول كدليل تاريخي على استعداد الاتحاد السوفييتي وقدرته على حماية حدوده في الشرق الاقصى .

إبان الحرب العالمية الثانية قاد اولى الانتصارات السوفياتية الرئيسية في الدفاع عن موسكو ، ووقف المد الالماني في معركة ستالينغراد ، ورفع الحصار عن ليننغراد وقاد الزحف الروسي من صوفيا الى برلين . ان الشهرة الكبيرة التي اكتسبها جوكوف في الحرب وتزايد شعبيته استفزت ستالين الذي تقم عليه فأبعده الى عدد من القيادات الثانوية .

ويعود الى خروشوف الفضل في اخراج جوكوف من ظلام النسيان الذي القاه فيه ستالين ، فأصبح النائب الاول لوزير الدفاع في ١٩٥٣ ثم حل محل بولغانين بعد ستين - وكانت هذه المرة الاولى التي يحل فيها في التاريخ السوفييتي ، جندي محترف محل مفوض او «جنرال سياسي» في الاشراف على القوات المسلحة . واستمر نجمه يصعد ، فأصبح عضواً كاملاً في البريزيديوم مكافأة له للمعونة التي اسداها لخروشوف للنزول بتأييد اللجنة المركزية ضد الجماعة المضادة للحزب في حزيران ١٩٥٧ . وبعد انقضاء اشهر اربعة ارسل جوكوف الى بلغراد في زيارة رسمية . فما ان عاد حتى وجد انه قد اقيّل من وزارة الدفاع وجرّد من عضوية اللجنة المركزية والبريزيديوم ، واهين باتهامه «بروح المغامرة» «البونابرتية» . وكان امكر الاتهامات التي وجهها اليه خروشوف اعتباره شريكاً لستالين في الاهمال عند بداية الحرب . وتقاعد جوكوف وكب مذكراته الحربية التي نشرت في الغرب . ويمكن اعتبار جوكوف ، مثلاً فريداً للقائد العسكري الذي تسلّم سلطاناً سياسياً . فمن بعده لم يتح لخلفائه مالمينوفسكي وغريشكو الوصول الى عضوية بريزيديوم الحزب او المكتب السياسي .

الملحق ٤

خطبة لخروتشوف السرية في المؤتمر العشرين

أيها الرفاق ، في تقرير اللجنة المركزية للحزب في اجتماعه العشرين ، وفي عدد من الخطب التي ألقاها المندوبون ، كما سبق في الجلسات العامة التي عقدها الحزب من قبل ، قيل الكثير عن عبادة الشخصية وما تجر إليه من عواقب وخيمة .

بعد وفاة ستالين ، أخذت اللجنة المركزية للحزب تنهج سياسة تحدد بوضوح وبصورة مستمرة أنه لا يجوز للماركسية-اللينينية ، وأنه مخالف لمبادئها ، رفع شخصية ما وتحويلها الى سُوبرمان يتحلّى بصفات ومناقب فائقة الطبيعة وشبيهة بمناقب الآلهة . إن شخصية من هذا النوع يفترض فيها ان تتحلّى بالعلم الشامل ، والاطلاع على كل شيء ، والتفكير بالنيابة عن كل انسان ، وبالقدرة على كل شيء . هي شخصية معصومة من الزلل في كل تصرفاتها .

إن القول بوجود مثل هذه الشخصية ، خصوصاً في ستالين نفسه ، كثيراً ما سمعناه وتردد على مسامعنا في السنين الماضية .

والغرض من هذا التقرير ليس تقييم حياة ستالين ونشاطه اذ صدر عنه العديد من الكتب والنشرات والأبحاث وهو حيّ يرزق . فالدور الذي لعبه ستالين والذي مثله في اعداد الثورة الاشتراكية وتنفيذها ، وفي الحرب الأهلية وفي الجهاد الذي خاضه في سبيل توطيد الاشتراكية في بلادنا ، أمر لا يحله أحد . كل منا يعرف هذا الامر حق المعرفة . أما ما يهنا الآن ، فقضية ذات أهمية كبيرة للحزب اليوم وللمستقبل ، إذ من الأهمية بمكان أن نعرف كيف نشأت عبادة شخصية ستالين وتطورت مع الزمن ، هذه العبادة التي أصبحت في فترة معينة مصدراً لافساد الحزب في سلسلة متلاحقة الحلقات من التضليل والاغواء ذات نتائج خطيرة ، كما ألحقت الضرر بديمقراطية الحزب وبشرعية الثورة .

ولما كان معظم الناس لا يقدرّون للآن النتائج العملية الناجمة عن عبادة الشخصية ولا الضرر الكبير الحاصل من تجاوز مبادئ التوجيه الجماعي الذي يقول به الحزب ، ناهيك عن حصر العديد من السلطات والصلاحيات التي لا حد لها في يد شخص واحد ، فقد ردت اللجنة المركزية للحزب انه من الضروري عرض هذه القضية بالذات على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

إسمحوا لي ، بادئ الأمر ، أن اذكركم كيف أن رواد الماركسية اللينينية شجّوا بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية . ففي رسالة الى الزعيم العمالي الالماني ، ولیم بلوس ، قال ماركس : «من كراهيتي لأية عبادة للشخصية استنكفت دوماً عن أن أنشر على الملأ ، مدة قيام الاممية الأولى ، الرسائل العديدة التي تلقيتها من بلدان كثيرة والتي تعرّف عالياً بالخدمات التي أدتها للحزب والتي كانت تسب لي انزعاجاً حتى أنني لم أرد على واحدة منها إلا عندما أردت أحياناً أن اوبخ مرسلها . فقد انضمت ، انا وأنجلز ، الى الحزب الشيوعي السري ، شريطة أن نطرح جانباً من قانون الجمعية كل ما من شأنه أن يمهّد لأسطورة عبادة الشخصية . وقد تصرف لاسال ، فيما بعد ، نقيض ذلك .» .

وقد كتب أنجلز فيما بعد : «وقفتُ أنا وماركس ، معارضين كل مظهر من مظاهر عبادة الشخصية ، الا في الحالات التي ترمي الى هدف مهم ، وعارضنا بشدة كل المحاولات التي استهدفنا في حياتنا .»

جميعاً تعرفون مقدار التواضع الذي تحلّى به نابغة الثورة الكبير فلاديمير لينين الذي شدّد دوماً وبرز عالياً الدور الذي يلعبه الشعب في خلق التاريخ ، كما سجل الدور الموجّه والمنظم الذي لعبه الحزب ولجنته المركزية .

فالماركسية لا تتجاهل قط دور القادة في الطبقة العمالية ، الذين يوجّهون الحركة الثورية التحررية . ففي الوقت الذي يشيد فيه لينين عالياً بدور القادة وتوجيههم للجماهير ، يشجب بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية ويهاجم ، بلا هوادة ، النظريات المضادة للماركسية التي تفرض وجود «بطل» و «جماهير» . كما عارض كل محاولة لاقامة «بطل» في وجه الجماهير والشعب . ويعلم لينين بان قوة الحزب وبأسه تقومان قبل كل شيء في وحدته مع الجماهير غير المنفصمة ، وعلى حقيقة ان الشعب بعماله وفلاحيه والانتلجنسيا يتبع الحزب . «وحده يفوز ويحتفظ بالسلطان» على حد تعبير لينين «من يؤمن بالشعب ويغوص في بنوعه الدفّاق الخلاق» .

ويتحدث لينين عن الحزب الشيوعي البلشفي بوصفه قائداً ومعلماً للشعب ، وهو يطلب ان تعرض أهم القضايا على العمال المستيرين ، لأخذ رأيهم ، رأي

حزبهم ، اذ يقول : « نحن نؤمن به ونرى فيه حكمة هذا العصر وشرفه ووجدانه » .
وقف لينين بحزم في وجه كل محاولة رَمَتْ لِلانقِصاص من ، أو لإضعاف ،
قيادة الحزب في تشييد وبناء الاتحاد السوفياتي . فقد وضع المبادئ البلشفية لقيادة
الحزب والمناهج التي يجب أن يسير عليها ، مشدداً على القول بأن المبدأ الاساسي
لقيادة الحزب يقوم على المشاركة . ففي السنين السابقة للثورة رأى لينين أن اللجنة
المركزية للحزب هي مجموعة من القادة يتولون الحفاظ على مبادئ الحزب وشرحها
وقد اشار الى ذلك بقوله : « ففي الفترات الواقعة بين مؤتمرات الحزب ، تتولى
اللجنة المركزية صيانة مبادئ الحزب وتفسيرها » .
ويشدد لينين على دور اللجنة المركزية في الحزب والسلطة التي تنعم بها
فيزيد قائلاً : « ان لبحثنا المركزية جعلت من نفسها هيئة مركزية وصاحبة السلطة
العليا ... »

وكانت اللجنة المركزية للحزب في حياة لينين عبارة عن قيادة جماعية
للحزب وللأمة أجمع . ولما كان لينين ثورياً ماركسياً مجاهداً لا يرضى بمس
مبادئ الثورة ، لم نره يفرض بالقوة وجهة نظره على العاملين معه ، بل حاول
دوماً إقناعهم بالحجة ، اذ كان يعرض آراءه على الآخرين ويشرحها لهم . فقد
حرص لينين باستمرار على تحقيق مبادئ الحزب وعلى الوقوف بجانب تطبيق
الدستور ، كما همه كثيراً أن تجتمع مؤتمرات الحزب والجمعيات العامة للجنة
المركزية في اوقاتها المعينة .

فبالإضافة الى الانجازات التي حققها لينين والتي أمنت فوز الطبقة الكادحة
والطبقة العمالية ، والى تأمين النصر النهائي للحزب وتطبيق الافكار العلمية التي
نادت بها الشيوعية ، فقد رأى ، اذ ذاك في نظرنه الثاقبة تلك الصفات
السلبية التي تميز بها ستالين والتي أدت فيما بعد الى نتائج وخيمة . واذ خشي على
مصير الحزب ومستقبل الاتحاد السوفياتي ، فقد أعطى صورة واضحة عن خصال
ستالين وطرح على بساط البحث ضرورة النظر في أمر نقله من سكرتيرية
الحزب العامة لما هو عليه من فظاظة الطباع والمسلك ، ولعدم انسجامه مع باقي
الرفاق ولانه متقلب ويسيء استعمال السلطة .

ففي كانون الاول ١٩٢٢ جاء في رسالة لينين الى مؤتمر الحزب ما يلي :
« بعد أن تولى الرفيق ستالين السكرتيرية العامة جمع بين يديه سلطات لا تحد ،
وأنا لست متأكداً بأن في استطاعته دوماً أن يستعمل هذه السلطة كما يجب » .
وهذه الرسالة ، التي تكون وثيقة سياسية ذات أهمية قصوى والتي تعرف
في تاريخ الحزب «بوصية لينين» ، وزعت على المندوبين في المؤتمر العشرين للحزب .

ولما كان معظم الناس لا يقدرّون للآن النتائج العملية الناجمة عن عبادة الشخصية ولا الضرر الكبير الحاصل من تجاوز مبادئ التوجيه الجماعي الذي يقول به الحزب ، ناهيك عن حصر العديد من السلطات والصلاحيات التي لا حد لها في يد شخص واحد ، فقد ردت اللجنة المركزية للحزب انه من الضروري عرض هذه القضية بالذات على المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي .

إسمحوا لي ، بادئ الأمر ، أن اذكركم كيف أن رواد الماركسية اللينينية شجّوا بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية . ففي رسالة الى الزعيم العمالي الالماني ، وليم بلوس ، قال ماركس : «من كراهتي لأية عبادة للشخصية استنكفت دوماً عن أن أنشر على الملأ ، مدة قيام الاممية الأولى ، الرسائل العديدة التي تلقيتها من بلدان كثيرة والتي تعرّف عالياً بالخدمات التي أدتها للحزب والتي كانت تسبب لي انزعاجاً حتى أنني لم أرد على واحدة منها إلا عندما أردت أحياناً أن اوبخ مرسلها . فقد انضمت ، انا وأنجلز ، الى الحزب الشيوعي السري ، شريطة أن نطرح جانباً من قانون الجمعية كل ما من شأنه أن يمهّد لأسطورة عبادة الشخصية . وقد تصرف لاسال ، فيما بعد ، نقيص ذلك .» .

وقد كتب أنجلز فيما بعد : «وقفتُ أنا وماركس ، معارضين كل مظهر من مظاهر عبادة الشخصية ، الا في الحالات التي ترمي الى هدف مهم ، وعارضنا بشدة كل المحاولات التي استهدفتنا في حياتنا .»

جميعاً تعرفون مقدار التواضع الذي تخلّى به نابغة الثورة الكبير فلاديمير لينين الذي شدّد دوماً وبرز عالياً الدور الذي يلعبه الشعب في خلق التاريخ ، كما سجل الدور الموجه والمنظم الذي لعبه الحزب ولجته المركزية .

فالماركسية لا تتجاهل قط دور القادة في الطبقة العمالية ، الذين يوجهون الحركة الثورية التحررية . ففي الوقت الذي يشيد فيه لينين عالياً بدور القادة وتوجيههم للجماهير ، يشجب بشدة كل مظاهر عبادة الشخصية ويهاجم ، بلا هوادة ، النظريات المضادة للماركسية التي تفرض وجود «بطل» و «جماهير» . كما عارض كل محاولة لاقامة «بطل» في وجه الجماهير والشعب . ويعلم لينين بان قوة الحزب وبأسه تقومان قبل كل شيء في وحدته مع الجماهير غير المنقسمة ، وعلى حقيقة ان الشعب بعماله وفلاحيه والانتلجنسيا يتبع الحزب . «وحده يفوز ويحتفظ بالسلطان» على حد تعبير لينين «من يؤمن بالشعب ويفوض في ينبوعه الدفّاق الخلاق» .

ويتحدث لينين عن الحزب الشيوعي البلشفي بوصفه قائداً ومعلماً للشعب ، وهو يطلب ان تعرض أهم القضايا على العمال المستنيرين ، لأخذ رأيهم ، رأي

حزبهم ، اذ يقول : «نحن نؤمن به ونرى فيه حكمة هذا العصر وشرفه ووجدانه » .
وقف لينين بحزم في وجه كل محاولة رَمَتْ للأنتقاص من ، أو لإضعاف ،
قيادة الحزب في تشييد وبناء الاتحاد السوفياتي . فقد وضع المبادئ البلشفية لقيادة
الحزب والمناهج التي يجب أن يسير عليها ، مشدداً على القول بأن المبدأ الاساسي
لقيادة الحزب يقوم على المشاركة . ففي السنين السابقة للثورة رأى لينين أن اللجنة
المركزية للحزب هي مجموعة من القادة يتولون الحفاظ على مبادئ الحزب وشرحها
وقد اشار الى ذلك بقوله : «ففي الفترات الواقعة بين مؤتمرات الحزب ، تتولى
اللجنة المركزية صيانة مبادئ الحزب وتفسيرها .»
ويشدد لينين على دور اللجنة المركزية في الحزب والسلطة التي تنعم بها
فيزيد قائلاً : «ان لجنتنا المركزية جعلت من نفسها هيئة مركزية وصاحبة السلطة
العليا ...»

وكانت اللجنة المركزية للحزب في حياة لينين عبارة عن قيادة جماعية
للحزب وللأمة أجمع . ولما كان لينين ثورياً ماركسياً مجاهداً لا يرضى بمس
مبادئ الثورة ، لم نره يفرض بالقوة وجهة نظره على العاملين معه ، بل حاول
دوماً إقناعهم بالحجة ، اذ كان يعرض آراءه على الآخرين ويشرحها لهم . فقد
حرص لينين باستمرار على تحقيق مبادئ الحزب وعلى الوقوف بجانب تطبيق
الدستور ، كما همه كثيراً أن نجتمع مؤتمرات الحزب والجمعيات العامة للجنة
المركزية في أوقاتها المعينة .

فبالإضافة الى الانجازات التي حققها لينين والتي أمنت فوز الطبقة الكادحة
والطبقة العمالية ، والى تأمين النصر النهائي للحزب وتطبيق الافكار العلمية التي
نادت بها الشيوعية ، فقد رأى ، اذ ذاك في نظره الثابتة تلك الصفات
السلبية التي تميز بها ستالين والتي أدت فيما بعد الى نتائج وخيمة . واذ خشى على
مصير الحزب ومستقبل الاتحاد السوفياتي ، فقد أعطى صورة واضحة عن خصال
ستالين وطرح على بساط البحث ضرورة النظر في أمر نقله من سكرتيرية
الحزب العامة لما هو عليه من فظاظة الطباع والمسلك ، ولعدم انسجامه مع باقي
الرفاق ولانه متقلب ويعميء استعمال السلطة .

ففي كانون الاول ١٩٢٢ جاء في رسالة لينين الى مؤتمر الحزب ما يلي :
«بعد أن تولى الرفيق ستالين السكرتيرية العامة جمع بين يديه سلطات لا تحد ،
وأنا لست متأكداً بأن في استطاعته دوماً أن يستعمل هذه السلطة كما يجب » .
وهذه الرسالة ، التي تكون وثيقة سياسية ذات أهمية قصوى والتي تعرف
في تاريخ الحزب «بوصية لينين» ، وزعت على المنديين في المؤتمر العشرين للحزب .

فقد قرأتموها ، وستقرأونها من جديد أكثر من مرة . وستعلقون على ما في هذه الكلمات من صراحة والتي تعبر جلياً عن إهتمام لينين بمصير الحزب والشعب والدولة وعن سياسة الحزب وقيادته في المستقبل .

وعلق لينين قائلاً : «ان ستالين في منتهى الصلف . وان مثل هذه النقيصة التي يمكن غض النظر عنها بيننا كشيوعيين تصبح امراً لا يطاق في شخص يتولى مركزاً رفيعاً كالسكرتيرية العامة للحزب . ولذلك أقترح على الرفاق أن ينظروا في الوسائل التي تؤول الى ازاحة ستالين من هذا المركز ، وان ينتخبوا بدلاً منه من الرفاق شخصاً يتمتع على الأخص بتسامح أكبر وبولاء أعظم وبكياسة . أبرز وبموقف مترن ، ويكون أقل تقلباً منه » .

وهذه الوثيقة عرف بها المندوبون لمؤتمر الحزب الثالث عشر الذين بحثوا قضية نقل ستالين من السكرتيرية العامة للحزب . الا ان المندوبين فضلوا يومئذ بقاء ستالين في هذا المركز ، آمليين أن يأخذ بعين الاعتبار ملاحظات لينين وأن يصلح العيب الذي أثار هواجسه .

ايها الرفاق ، على مؤتمر الحزب أن يطلع على وثيقتين جديدتين تفضحان خصال ستالين كما أوضحها لينين في وصيته ، وهما رسالة وجهتها كروبسكايا (ارملة لينين) الى كامينيف رئيس المكتب السياسي اذ ذاك ، ورسالة شخصية مرسلة من لينين الى ستالين .

وليكتم نص الوثيقتين بالحرف الواحد :

«حضرة الرئيس :

« في أثر رسالة بعثت بها الى ستالين أملاًها عليّ فلاديمير لينين باذن من الاطباء ، انفجر ستالين بصورة غريبة في وجهي . لم أكن جديدة في الحزب . ففي الثلاثين سنة التي قضيتها في عضوية الحزب لم يأخذني أحد من الرفاق بمثل هذه الخشونة الفظة . ان امور الحزب ولينين عزيزة على قلبي كما هي على قلب ستالين . فانا بحاجة الآن الى السيطرة على النفس . أنا اعرف اكثر من اي طبيب ، الأمور التي يمكن او لا يمكن بحثها مع لينين ، اذ انني ادرى الناس بما يشهده . ومهما يكن فانا أعرف به من ستالين . إنني أنجيه اليك والى غريغوري بصفكما من اقرب المقرين الى لينين ، راجياً اليكما حمايتي من التدخل الفظ بشؤوني الخاصة ومن الشائم الخسيسة والتهديد . لا اشك قط في ما سيكون عليه قرار لجنة المراقبة الاجماعي الذي يهددني به ستالين ومع ذلك فليس في استطاعتي وليس لدي الوقت كي أهدره في مثل هذه المشاحنات التافهة . فانا انسان مرهف

الاحساس واعصابي متوترة الى الحد الاقصى » .

كروبسكايا

وجهت نادزدا كروبسكايا هذه الرسالة في ٢٣ كانون الاول ١٩٢٢ . وبعد ذلك بشهرين ونصف الشهور وجه لينين الى ستالين رسالة مؤرخة في ٥ اذار ١٩٢٣ وبعث بنسخة منها الى كل من كامينيف وزينوفيف ، وهذا نصها :

«عزيزي الرفيق ستالين ،

«سوّلت لك نفسك التوجه على التلفون الى زوجتي بتأنيب وقع . ورغم أنها كانت قد أعلمتك بموافقتها على تناسي الأمر ، فان زينوفيف وكامينيف علما به منها . وانا ليس بنيتي تناسي ذلك بسهولة ، لأنني اعتبر ما يوجه الى زوجتي موجهاً اليّ بالذات . ولذا فاني اطلب اليك ان تفكر ملياً اذا كنت على استعداد لسحب كلامك والاعتذار عما بدر منك ، او انك تفضل قطع العلاقات بيننا . »

المخلص لينين

ايها الرفاق ، لن أعلّق على هاتين الوثيقتين ، فهما يفصحان عن نفسيهما . فاذا كان يمكن لستالين أن يتصرف على هذا النحو بوجود لينين ويستعمل التصرف نفسه مع نادزدا كونستنتوفا كروبسكايا ، التي يعرفها الحزب حق المعرفة ويقدرها حق قدرها ، كصديقة موالية للينين ومناضلة نشيطة في حركة الحزب منذ نشأته ، يمكننا أن نتصور ، اذ ذاك ، بسهولة كيف أن ستالين كان يعامل سائر الناس . إن هذه الخصال السلبية الخاصة به تطورت باستمرار واكتمت في السنوات الأخيرة طابعاً لا يطاق ابداً .

وكما اثبتت الوقائع الأخيرة فان قلّق لينين كان له ما يبرره . ففي الفترة التي عقيبت وفاة لينين حرص ستالين من جهته على أن يهتم بنصيحته إلا أنه أخذ في نهاية الأمر لا يعبر تأنيب فلاديمير له أي إهتمام . وعندما نعلم النظر في تصرفات ستالين تجاه قيادة الحزب وتجاه الوطن ، وعندما نملّي النظر في كل ماآتي ستالين وأفعاله نرى أن خوف لينين كان في محله . إن صفات ستالين السلبية التي لم تكن في عهد لينين إلا في بدء ظهورها، تحولت في السنوات الأخيرة الى سوء استعمال ضخم للسلطة جر على الحزب ويلات لا يمكن وصفها .

علينا أن ننظر باهتمام وأن نحلّل بدقة هذا الأمر ، بحيث نتمكن من تجنب احتمال تكرار ما وقع في عهد ستالين الذي لم يقبل قط بالتعاون الجماعي في القيادة ، من استعمال العنف الشديد ليس ضد خصومه فحسب ، بل أيضاً ضد

كل ما تراءى للرجل انه يخالف افكاره ونظرياته .
لم يستعين ستالين يوماً بالإقناع والشرح والتعاون الدائب مع الآخرين ، بل فرض نظرياته وطلب التسليم التام بآرائه . فكل من سوّلت له نفسه معارضته أو حاول إثبات صحة نظره وصواب موقفه المعين ، كان هدفاً للنقل من الهيئة الجماعية ، ثم لتأديبات معنوية وجسدية . كل هذه الحوادث وقعت في الفترة التي عقت المؤتمر السابع عشر للحزب ، عندما ذهب ضحية لطفيان ستالين واستبداده فريق من قادة الحزب ومن صغار العاملين فيه ، المعروفين بتراهتهم وبولائهم التام للشيوعية .

يتوجب علينا أن نوكد هنا أن الحزب أبلى البلاء الحسن وحارب دون ما هوادة أنصار تروتسكي وأحزاب اليمين والقوميين البورجوازيين ، وبذلك تم له القضاء على خصوم اللبينية ومناهضيها . وهذه الحرب الفكرية تمت بنجاح وكان من بعض نتائجها أن اشتدّ ساعد الحزب . فقد لعب ستالين هنا دوراً إيجابياً .

وقام الحزب بحرب فكرية سياسية ضد بعض أعضائه الذين جاؤوا بآراء مناهضة لللبينية والذين اقترحوا نهجاً سياسياً معادياً للحزب ولقضية الاشتراكية وكان هذا النضال مريراً قاسياً ولكنه نضال لا بدّ منه ، إذ ان النهج السياسي الذي سارت عليه كتلة أنصار تروتسكي وزينوفيف والبوخارينيون ، كان سيؤدي الى اعادة الرأسمالية والى الخضوع للعالم البورجوازي . لنقف برهة وننظر ما عسى أن يكون حدث لو أن التحول الى اليمين تحقق بعد ١٩٢٨ - ١٩٢٩ . فهل كنا ننعم اليوم بما ننعم به من صناعة ثقيلة قوية ، قبل انشاء المزارع الجماعية ، بل ربما وجدنا أنفسنا لاحول لنا ولا طول وسط التطويق الرأسمالي . ولهذا الأسباب مجتمعة قام الحزب بنضال فكري لا هوادة فيه وأخذ يشرح لأعضاء الحزب وللجماهير خارج الحزب ، الضرر والخطر الكامن في الاقتراحات المعادية لللبينية والتي قالت بها المعارضة التروتسكية والانتهازيون من أحزاب اليمين . وقد أتت هذه السياسة نتائجها المرجوة ، فتم عزل أنصار تروتسكي والانتهازيين من أحزاب اليمين عزلاً سياسياً . وقد دعمت الاكثوية الساحقة من اعضاء الحزب النهج اللبيني وبذلك استطاع الحزب أن يوقظ الوعي القومي بين الطبقات الكادحة وينظمها ويشيد صرح الاشتراكية .

وجدير بنا أن نشير هنا الى انه خلال تطور النضال الفكري ضد أنصار تروتسكي وزينوفيف وبوخارين وغيرهم ، لم يبدُ من الضروري قط اتخاذ تدابير صارمة ضد هذه الفئات . فالحزب كانت حرباً عقائدية . إلا انه بعد

بضع سنوات ، عندما استقر النظام الاشتراكي في البلاد وتوطد ، وعندما تمّ نهائياً تصفية طبقة المستغلين للشعب ، وعندما تطور البناء الاجتماعي السوفيّاتي تطوراً جذرياً ، وعندما ضاق المجال السياسي أمام الحركات السياسية والهيئات المعادية للحزب : وعندما تمت هزيمة مناهضي عقيدة الحزب سياسياً ، إبتدأت آنذاك حركة القمع الموجهة ضدهم .

ففي الفترة الواقعة بين ١٩٣٥ - ١٩٣٧ - ١٩٣٩ وقعت حركة التصفية الجماعية على ايدي أجهزة الدولة ، فتنازلت بالتتابع خصوم اللينينية التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارينين الذين تمت هزيمتهم على يد الحزب منذ عهد بعيد . وأصابت بالتالي العديد من الشيوعيين الشرفاء وأصاب رذاذها ملاكات الحزب التي تحملت طويلاً عبء الحرب الأهلية ونهضت بالبلاد خلال سنوات قاسية بسياسة التصنيع ونشر التشريك الجماعي .

طلع ستالين علينا بنظرية «عدو الشعب» . وهذه العبارة جعلت بصورة آلية من غير الضروري قط الإتيان بالدليل على النشور العقائدي لرجل أو فريق من الرجال يتناقشون أو يتحاورون . وقد أمكن اتخاذ هذا الاصطلاح ذريعة لاستعمال أشد وسائل القمع شدة ضد كل من يختلف بالرأي مع ستالين ، وضد كل من يرتاب في نواياهم المعادية ، وضد الذين لا يتمتعون بسمعة طيبة . ونظرية «عدو الشعب» قضت قضاء تاماً على إمكانية قيام اي نضال عقائدي ، ومنعت أياً كان من الاعراب عن وجهة نظره المعينة في هذا الموضوع او ذاك ، حتى ولو كان لها طابع عملي . في الأساس ، وفي الشكل ، كان الدليل الوحيد لإدانة المجرم هو اعتراف المتهم نفسه ، تحت التعذيب وغير ذلك من وسائل الاكراه . وقد ادى هذا كله الى مخالفات صارخة للشرعية الثورية وذهب بجريرته عدد كبير من الابرياء ، من اعضاء الحزب الذين جاهدوا في سبيله من قبل وأبلوا البلاء الحسن .

ولا بد ان نعرّف عالياً هنا ان بين الذين جرت تصفيتهم نهائياً ممن عارضوا الحزب او وقفوا في وجهه لم تقم دلائل قوية تثبت إدانتهم . فالشعار «عدو الشعب» انما اتخذ لتصفيتهم .

من الثابت بالفعل ان عدداً كبيراً من هؤلاء الذين جرى تطهيرهم باعتبارهم اعداءً للحزب وللشعب ، تعاونوا مع لينين وعملوا بمعبته وهو حي يرزق . ولا مراء في ان بعضهم إشتط وضل السبيل في عهد لينين ، ومع ذلك وبالرغم من ذلك ، فقد عرف لينين ان يفيد من معاونتهم له . وقد تمكن من إصلاحهم والقيام بالمستحيل للاحتفاظ بهم في صفوف الحزب وحملهم على السير معه .

واستطراداً في الموضوع ، على اعضاء الحزب ان يطلعوا على مذكرة وجهها لينين الى اللجنة المركزية للمكتب السياسي في تشرين الاول ١٩٢٠ ، لم تُنشر للآن ، يشدد فيها على واجبات لجنة المراقبة ، ويقترح بان تحول اللجنة لتصبح جهازاً فعالاً يمثل «وجدان الحزب والبروليتاريا .»

فمن واجبات لجنة المراقبة ، في نظره ، ان تنمي علاقات فردية عميقة مع ممثلي ما يعرف بالمعارضة وان تحاول إصلاحهم . يجب بذل كل ما يمكن لتهدئة خواطرهم ولتقريب الامور الى عقولهم كما يليق بين الرفاق واسناد عمل لهم يتفق وموكلاتهم دون اخذهم بالشدة . فعلى اللجنة التنظيمية في المكتب السياسي ان تتخذ التدابير وتضع القوانين الخاصة بهذا الشأن .

كل منا يعرف معرفة اليقين تشدد لينين مع اعداء الماركسية العقائديين الذين ذهبوا بعيداً وخرجوا عن طاعة الحزب وخطه السوي . ومع ذلك يوصي لينين كما يظهر بوضوح من نص هذه الوثيقة ، باعتباره قائداً للحزب وموجهاً له ، باوثق العلاقات مع هذا الفريق من الاعضاء الذين عرفوا بترددهم وبعدم امتثالهم لنهج الحزب ، على امل إعادتهم الى حظيرة الحزب . ويوصي لينين بوجوب تدريب هذا الفريق وتهذيبه بصبر وأناة باستخدام طرق عملية .

وتبدو حكمة لينين في سلوكه مع الناس على أتم وجه من خلال معاملته وتصرفه مع ملاكات الحزب .

اما ستالين فقد اختلف تماماً معاملته للآخرين عن طريقة لينين التي تميزت بالعمل الدؤوب مع الناس وتهذيبهم مهما كلفه من جهد وعناء ، وبقدرته على حمل الناس للسير معه دونما اكراه او استعمال الشدة معهم ، بل عن طريق الاقناع العقائدي والتأثير الجماعي . وكلها امور غريبة عن ستالين . وقد أعرض ستالين عن نهجية لينين وضرب بها عرض الحائط ، ولم يبال قط بما اوصى به لينين وعلم ، مؤثراً عليها العنف والقسر الاداري ، وعمليات التطهير بالحملة وزرع الهلع في القلوب . فقد اختط لنفسه نهجاً اوسع واتخذ تدابير زجرية غاية في القسوة والصرامة ومستعياً ببعض الاجهزة التأديبية ، مخالفاً ، في اكثر الاحيان ابسط المبادئ الخلقية والشرائع السوفياتية .

وهذا التعسف من قبل شخص مسؤول كان له نتائج وخيمة ، اذ حمل البعض على احتذاء حذوه والنسج على منواله . فتكاثرت حوادث التوقيف والنفي والإبعاد وذهب ضحية لها الوف من الناس . وقد تمت تصفيتهم دون اي محاكمة او دون اي تحقيق عدلي بشأنهم ، مما اقلق الخواطر ، وزرع الخوف واليأس في النفوس .

ولم يساعد هذا التصرف بالطبع على رص صفوف الحزب وتأمين الوحدة والوئام بين الطبقات العاملة ، بل أدى الى تصفية عدد كبير من اعضاء الحزب او طردهم من عضويته بالرغم من ولائهم له .

ان حزبنا ناضل نضالاً مريراً لتحقيق البرنامج الذي وضعه لينين لبناء الاشتراكية . وقاد في هذا السبيل حرباً عقائدية طويلة . فلو روعيت خلال هذا النضال المبادئ التي قال بها لينين وعلم ، ولو عرفوا ان يوفقوا بدقة بين ولاء الحزب لهذه المبادئ وبين الاهتمام الصادق بامور الشعب وشؤونه ، لما كنا شهدنا ما شهدنا من خروج وحشي على القوانين الثورية . ولا كان الوب الناس ذهبوا فريسة ابلع اساليب الارهاب . ولكانت وسائل الشدة والعنف اقتصرت على بعض افراد اقترفوا اعمالاً عداية ضد النظام السوفياتي . واسمحوا لي ان نذكر هنا بعض الوقائع التاريخية .

ففي الايام القليلة التي سبقت ثورة تشرين الاول ، اعلن عضوان من اعضاء اللجنة المركزية للحزب البلشفيكي ، هما كامينيف وزينوفيف معارضتهما لخطة لينين في الثورة المسلحة . ومما هو ادهى من ذلك وأحرز في النفس ، انهما نشرتا بتاريخ ١٨ تشرين الاول ، في الصحيفة «نوفايا سزن» لسان حزب المنشفيك بياناً يتهم الحزب البلشفي باعداد انقلاب مسلح واعربا عن مخاوفهما بهذا الشأن . فقد أفشى كامينيف وزينوفيف السر واطلعا العدو على تدابير اللجنة المركزية والخطة الموضوعة للانقلاب الثوري الذي كانت تنفذه بعد وقت قصير .

فقد كان الامر خيانة للحزب والثورة معاً . وكتب لينين : «ان كامينيف وزينوفيف قد فضحا خطة اللجنة المركزية لروذنكو وكيرنسكي» واقترح على اللجنة المركزية طرد الرجلين من عضوية الحزب .

ومع ذلك ، وبعد ان استتب الامر لثورة اكتوبر الاشتراكية ، أسندت الى كل من زينوفيف وكامينيف كما هو معروف لدى الجميع ، مراكز قيادية في الحزب . فقد عهد اليهما لينين بوظائف حساسة تحملا فيها اكبر مسؤوليات الحزب ، وساهما على نطاق واسع باعمال الحزب القيادية وباجهزة السوفييت العليا . وليس من يجهل قط ان زينوفيف وكامينيف اقترفا عدداً من الاخطاء في حياة لينين وقيادته للحزب . واثار لينين في «وصيته» الى ان ما فعله زينوفيف وكامينيف في تشرين لم يكن مجرد حادث عارض . الا انه لم يقترح قط القاء القبض عليهما ورميها بالرصاص .

ولنأخذ الآن قضية تروتسكي وانصاره . باستطاعتنا اليوم ، بعد ان مر على هذه القضية وقت طويل من الزمن ، ان نتكلم عنها ببحرية وطمأنينة تامة ، كما

انه في مقدورنا ان نحلل الوقائع بروح واقعية . فقد التفّ حول تروتسكي فريق من الطبقة المثقفة كما جاء البعض الآخر من صفوف العمال . وبمقدورنا ان نسمي الان بعض الاشخاص الذين التفوا حول تروتسكي باسمائهم . وساهم هؤلاء الاشخاص بالذات ، مساهمة فعّالة ، بالحركة العمّالية قبل اندلاع الثورة ، وخلال ثورة تشرين الاشتراكية نفسها، وفي ما بعد في ترسيخ دعائم هذه الثورة التي تُعد اهم الثورات واطورها . وقد قطع ، فيما بعد ، عدد منهم كل علاقة لهم بالحزب التروتسكي وأبدوا موقف لينين وحزبه . فهل كان من الواجب القضاء على هذه الجماعة وتصفيتها . ونحب ان نعتقد انه لو قيض للينين البقاء على قيد الحياة ، لما كان الكثيرون بينهم تعرضوا لمثل ما تعرضوا له من بؤس ومهانة .

هذه امثلة تاريخية قليلة رأينا ان نستشهد بها ونعرض لها . ولكن الا يمكن التأكيد ان لينين لا يتورّع قط عن اتخاذ اقصى الاجراءات واشدها ضد اعداء الثورة عندما يرى ذلك امراً لا بد منه ولا ندحة عنه ؟ لا . ليس من يجرؤ على قول ذلك او الظن به ، فقد لجأ لينين الى تدابير واجراءات لا هواة فيها ولا رحمة ، ضد اعداء الثورة وطبقة الكادحين عندما بدا له ذلك ضرورياً واتخذ ضدهم اقصى الاجراءات . ويمكنكم ان تعودوا بالذاكرة الى كفاحه مع قادة الثورة الاشتراكية ضد القائمين بالانقلاب المناهض للثورة السوفياتية ، وضد الكولاك عام ١٩١٨ وغيرهم ممن تصدّوا للثورة ووقفوا في وجهها ، وكيف انه لم يتردد لحظة في اتخاذ اقصى الاجراءات ضد اعداء الثورة فقط ، وليس ضد الذين يضعفون فيخطئون او يشتطون ويستطيعون الرجوع عن غيبتهم اذا ما عرفت يد رفيقه كيف تعيدهم الى صدق العقيدة وتعطيهم دوراً قيادياً .

لجأ لينين الى وسائل الشدة في الحالات القصوى ، عندما كانت الطبقات المستغلة ماضية في غيها وتتصدى للثورة بعناد ، وعندما كان النضال في سبيل البقاء يقتضي التذرع باقصى الاجراءات واشدها حتى الحرب الاهلية .

غير ان سألنا استعمل ابشع الطرق واشدها قسوة بعد ان انتصرت الثورة ومكنت اصولها في الأرض ، وتمت للدولة السوفياتية القوة والسطوة ، وعندما تم منذ عهد بعيد القضاء على القوى الفاشية الممتصة لدماء الشعب ، وتوطدت العلاقات الاشتراكية في كل نواحي الحياة الاقتصادية ، وعندما رسخت قواعد الحزب الشيوعي في البلاد واشتد ساعده ان من جهة العدد وان من جهة العقيدة الشيوعية . فقد كشف سنالين ، في سلسلة متصلة من الحوادث ، عما انطوت عليه نفسه من التعصب والقسوة وسوء استعمال السلطة . فبدلاً من ان يبرهن

عن سياسة رشيدة حكيمة في تحريك الجماهير ، فقد آثر الاعتماد على التطهير والتصفية مستعملاً هذا السلاح الرهيب ليس ضد اعداء النظام فحسب ، بل ايضاً ضد اناس لم يقرّفوا اي ذنب ضد الحزب او ضد الحكومة . وعشاً نحاول هنا البحث عن الحكمة وسداد الرأي في تصرفات ستالين هذه ، بل نشاهد على النقيض من هذا كله قوة ضارية اهتزت لها جوانح لينين يوماً واضطربت لها احشائه .

وعندما كشف النقاب ، بعد ذلك ، عن عصابة بيريا ، اخذت اللجنة المركزية تدقق في عدد من القضايا هي من نسيج خيال هذه العصابة ومستنبطاتها . وكشف التحقيق عن صورة بشعة من الامور المدبرة بتعمد كلي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسلك ستالين وتصرفاته الشاذة . وقد جاء الدليل تلو الدليل يثبت بان ستالين استعمل ما له من سلطة لاحد لها ، ليسيء استعمال الوظيفة ، متصرفاً باسم اللجنة المركزية دون الاخذ برأي الاعضاء ، حتى ولا برأي اعضاء المكتب السياسي للجنة المركزية ، حتى انه كثيراً ما كان لا يطلعهم على ما يتخذ من قرارات هامة لها علاقة بالحزب وبامور الحكم في البلاد .

ولما كنا في معرض التكلم عن عبادة الشخصية ، يترتب علينا ، قبل كل شيء إطلاع كل من يهمه الأمر ، على الضرر الذي لحق بالحزب ومصلحته . فقد حرص فلاديمير لينين من جهته دوماً على التشديد على ما للحزب من دور ومن شأن في قيادة حكومة العمال والفلاحين الاشتراكية ، جاعلاً من هذا الدور القيادي شرطاً اساسياً لتوطيد دعائم الاشتراكية في البلاد . وعندما يؤكد لينين المسؤولية الملقاة على الحزب البلشفيكي باعتباره الحزب الحاكم في الاتحاد السوفياتي يطالب بتحقيق مبادئ المشاركة الجماعية في توجيه الحزب والدولة .

فالمشاركة في القيادة تنبع من صميم طبيعة حزبنا ، هذا الحزب القائم على مبادئ المركزية الديمقراطية . ومعنى هذا ، في نظر لينين ، ان كل قرارات الحزب تتخذ من قبل كل اعضاء الحزب مباشرة او بواسطة ممثليه الذين يخضعون ، دونما استثناء ، للقواعد ذاتها ، بقطع النظر عن ان القائمين بالوظائف الادارية من اعضاء الحزب والهيئات الموجهة واصحاب المركز في الحزب ، كلهم منتخبون . ويجب بالتالي ان يؤدّوا حساباً عن اعمالهم ، كما انهم يخضعون للعزل . ليس من يجهل بعد ان لينين نفسه كان خير مثال يُحتذى في تطبيقه لهذه المبادئ ، فما من قضية او امر هام بت فيه لينين قبل ان يستشير فيه معظم الاعضاء في اللجنة المركزية او اعضاء المكتب السياسي .

ففي أدقّ مراحل تاريخ الحزب والبلاد رأى لينين من الضرورة بمكان ان

يدعو المؤتمرات العامة ، واعضاء الحزب لعقد الاجتماعات العامة وكذلك اعضاء اللجنة المركزية ، بحيث يتداول الجميع الرأي في القضايا المعروضة على بساط البحث للخروج بقرارات مدروسة اشترك في اعدادها واتخاذها جميع قادة البلاد . ويمكن ان نستشهد على هذا كله بالوضع الذي سيطر على البلاد عام ١٩١٨ ، عندما كان يتهدها خطر الدول الامبريالية . وقد دُعي مؤتمر الحزب السابع للبحث في اتخاذ موقف حاسم لا يتحمل التأجيل والتسويق ، هو السلم . وبينما كانت رياح الحرب الاهلية تهب بشدة على البلاد عام ١٩١٩ انعقد المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي ووضع برنامجاً جديداً للبلاد واتخذ قرارات هامة منها تنمية الاتصالات بالجماهير الشعبية وتشكيل الجيش الاحمر وتوضيح الدور القيادي للحزب في عمل مجالس السوفييت ، واجراء تعديلات في تنظيم الحزب الداخلي ، وغير ذلك من الاجراءات الهامة . وانعقد المؤتمر التاسع للحزب ، عام ١٩٢٠ وحدد المبادئ الأساسية التي على القيادة ان تعتمد في عملية الانماء الاقتصادي . وتبنى مؤتمر الحزب في انعقاده عام ١٩٢١ السياسة التي رسمها لينين للنهوض باقتصاديات البلاد والحل التاريخي المشهور «حول وحدة الحزب» .

وكانت مؤتمرات الحزب تعقد بصورة منتظمة ، في عهد لينين ، لا سيما عندما كان من الضروري اتخاذ قرار مبدئي يتعلق بتطوير الحزب ومصير البلاد . ومن رأي لينين انه يتوجب على الحزب النظر ملياً في كل القضايا التي تعود لسياسة البلاد في الداخل وفي الخارج والمشكلات التي تنهض بتطور الحزب والبلاد . ومن بين الامور التي امتاز بها لينين انه كان يوجه لمؤتمرات الحزب ، باعتباره السلطة العليا في البلاد ، والجهاز الاول المشرف على سياستها ، كل المواد والرسائل والملاحظات . وفي الفترات التي كانت تفصل بين مؤتمرات الحزب ، دأبت اللجنة المركزية باعتبارها الهيئة القيادية العليا المسؤولة ، على عقد اجتماعاتها محافظة منها على مبادئ الحزب والنهوض بالسياسة التي يتولى هو تحديدها . على هذا النحو سار لينين طوال حياته .

فهل لقيت المبادئ التي وضعها لينين للحزب الرعاية والاحترام اللازمين

بعد موته ؟

ففي السنوات الاخيرة التي تلت وفاة لينين ، كانت مؤتمرات الحزب العامة وجلسات اللجنة المركزية تتم بشكل يفتقر الى النظام . ثم اخذ ستالين بعد ان اساء استعمال سلطته يهمل هذه المبادئ وي طرحها جانباً دونما اكتراث . وقد تجلى هذا المسلك في سنواته الخمس عشرة الاخيرة . فهل يصح وصف الوضع بانه نظامي وسليم عندما تمر ١٣ سنة دون ان يدعى مؤتمر الحزب للانعقاد منذ

المؤتمرين الثامن عشر والتاسع عشر ، وهي سنوات واجه خلالها الحزب والبلاد حوادث جسيمة ومشكلات هامة ؟ وهذه المشكلات والقضايا كانت تتطلب ، ولا شك ، ان يتخذ الحزب بشأنها قرارات وتوصيات تنصل في الصميم بشؤون الدفاع عن البلاد خلال الحرب الوطنية ، كما تنصل بتعمير البلاد بعد ان وضعت الحرب اوزارها . وبعد ان انتهت الحرب ، مرّ على البلاد سبع سنوات دون ان يعقد الحزب اي مؤتمر له .

وقلما دُعيت اللجنة المركزية لعقد اجتماعات عامة . وحري بنا أن ننوه عالياً هنا ان هذه اللجنة لم تعقد اي اجتماع عام بكامل اعضائها ، طوال الحرب القومية . صحيح انه جرت محاولة في تشرين الاول ١٩٤١ ، لعقد جلسة للجنة المركزية في موسكو . ولكن كان على الاعضاء ان ينتظروا عبثاً يومين لعقد تلك الجلسة العامة . الا ان ستالين لم يكن قط راغباً في هذا الاجتماع او متحمساً له كما لم يكن على استعداد للتباحث وتبادل الرأي مع اعضاء اللجنة المركزية . فان دلّ هذا الحادث بعينه على شيء فعلي مبلغ ما اصاب به ستالين من انحطاط في الاشهر الاولى من الحرب . كما فيه الدليل على التعالي والازدراء الذي قابل به اعضاء اللجنة المركزية .

فقد تجاهل ستالين في النهج الذي اختطه لنفسه المبادئ التي نظمت حياة الحزب ونشاطه ، وداس باحتقار مبدأ قيادة الحزب الجماعية التي قال بها لينين وعلم . وقد كشف ستالين عن صغر نفسه وسوء نيته وخبث مقاصده نحو الحزب واللجنة المركزية منذ انعقاد المؤتمر السابع عشر للحزب عام ١٩٣٤ .

وعندما توفرت للجنة المركزية الادلة القاطعة على ما يبيت لها ستالين وللاكتاتيا من سوء القصد عمدت الى تشكيل لجنة تعمل تحت اشراف رئاسة اللجنة المركزية ، وعهد اليها النظر في الاسباب والدوافع التي ادت الى عمليات التطهير بالحملة التي تعرض لها اعضاء اللجنة المركزية واولئك الذين جرى انتخابهم في المؤتمر السابع عشر من بين اعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي . وتوصلت اللجنة المذكورة لجمع قدر كبير من القضايا والحوادث ، وذلك بالرجوع الى وثائق الأمن السرية (NKVD) : وغيرها من الوثائق الرسمية ، حول بعض الوقائع المتعلقة بافعال الحوادث ضد الشيوعيين والاتهامات الباطلة ، وسوء استعمال فاضح للعدالة الاشتراكية ، مما ادى لاعدام وقتل عدد من الابرياء . وظهر بوضوح للملأ اجمع ان بعض اعضاء الحزب ومجالس السوفييت والناشطين في الحقل الاقتصادي ممن وصموا في عمليات التطهير التي وقعت عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ «باعداء البلاد» لم يكونوا قط اعداء

للبلاد ولا عيوناً عليها ولا من المخربين فيها وغير ذلك من التهم التي لصقت بهم . بل على العكس كانوا شيوعيين شرفاء . فقد اتهموا ابناء للاعترافات التي انتزعوها منهم تحت الضغط والتعذيب اللذين تعرضوا لهما بامر من قضاة التحقيق ، كما تعرضوا لابلشع الاتهامات واحقرها وهي اتهامات لا صحة لها على الاطلاق كما اتضح الان . ورفعت لجنة التحقيق هذه لرئاسة اللجنة المركزية تقريراً مسهباً مؤيداً بالوثائق والادلة التي لا تُدحض ، حول عمليات التطهير بالحملة التي تعرض لها المندوبون لمؤتمر الحزب السابع عشر وبعض اعضاء اللجنة المركزية الذين تم انتخابهم خلال انعقاد المؤتمر المذكور . وقد درست رئاسة اللجنة المركزية هذه التقارير والحوادث التي جاءت فيها بكل عناية ودقة .

واتضح الان ان من بين ال ١٣٩ عضواً او مرشحاً من اعضاء الحزب الذين جرى انتخابهم في المؤتمر السابع عشر تم توقيف ٩٨ شخصاً واعدامهم اي ٧٠ ٪ من الاعضاء . (استنكار في القاعة) .

فما هو قوام المندوبين لمؤتمر الحزب السابع عشر وكيف كانوا يقسمون ؟ من الثابت ان ٨٠ ٪ من اعضاء المؤتمر السابع عشر الذين يحق لهم الاقتراع ، انضموا للحزب في سنوات المؤامرة قبل نشوب الثورة وانطلاق الحرب الاهلية ، وبعبارة اخرى قبل عام ١٩٢١ . فأكثريه اعضاء المؤتمر هم حسب اصولهم الطبقية وتصنيفهم الاجتماعي من العمال (٦٠ ٪ من الاعضاء المقترعين في المؤتمر) . ولهذا السبب ، لم يكن من المعقول قط ان مؤتمراً تشكل على هذا النحو ينتخب لجنة مركبة غالبية اعضائها متهمون بالعداء للحزب . والسبب الحقيقي الذي من اجله وصف ٧٠ ٪ من اعضاء اللجنة المركزية ومن الاعضاء الآخرين الذين جرى انتخابهم في المؤتمر السابع عشر بكونهم اعداء الحزب والوطن هو الافتراء على الشيوعيين الشرفاء وسحقهم بالتهم المدسوسة الباطلة .

ولم يصب المصير ذاته اعضاء اللجنة المركزية فحسب ، بل ايضاً غالبية المندوبين الذين حضروا المؤتمر السابع عشر . فمن اصل ال ١٩٦٦ مندوباً الذين يتمتعون بحق التصويت او بصوت استشاري جرى توقيف ١١٠٨ مندوبين منهم بحجة جرائم اقترفوها ضد الثورة ، اي ما يزيد بالفعل عن الاكثريه . وهذا الحادث بعينه ان دل على شيء فعلى ما في هذه الجرائم الباطلة التي رُموا بها والتهم التي الصقت جزافاً بهم كاعداء للثورة ، من سخافة مضحكة وتضارب مع العقل السليم . تصوروا ان ذلك كله عزي لأكثريه الاعضاء الذين اشتركوا في المؤتمر السابع عشر (هياج في القاعة) .

وعلىنا ان نذكر هنا ان مؤتمر الحزب السابع عشر يعرف في التاريخ بمؤتمر الانتصارات . فاعضاء الوفود الى المؤتمر ساهموا جميعاً في بناء الدولة الاشتراكية كما ان العديد من بينهم استهدفوا للعذابات والآلام ، وجاهدوا جهاداً مريراً في سبيل نصرة الحزب وتأمين فوزه في السنوات التي سبقت الثورة ، وعلى جبهات مختلفة من الحرب الاهلية التي اخذت البلاد بتلافيها ، اذ وقفوا بشجاعة نادرة في وجه العدو وواجهوا خطر الموت برباطة جأش . فكيف يمكن ان نقنع ان افراداً من هذا النوع يمكن وصمهم بالازدواجية : ان لهم وجهين مختلفين ، او انهم كانوا على اتصال باعداء الاشتراكية في هذه الحقبة بالذات التي عقبته انتصافية زينويف وانشاره ، وتروتسكي واتباعه اليمينيين . كل هذا وما اليه هو نتيجة محتومة لسوء استعمال ستالين السلطة وهو يحاول ان يتزل الخوف ويوقع الملح في ملاكات الحزب .

ما هي الاسباب التي دعت الى تصفية اعضاء الحزب النشيطين بعد ان عقد الحزب مؤتمره السابع عشر ؟ . ذلك يعود لسبب واحد هو ان ستالين تعالى فوق الحزب ولم يعد يحسب له حساباً . فبينما كان ستالين يقيم وزناً لرأي الجماعي قبل انقضاء المؤتمر السابع عشر للحزب ، اذ كانت تمت تصفية التروتسكيين والزينويفيين والبوخارينيين وانتهى النضال وسجل الحزب انتصاراته الصارخة وتمت له الوحدة المنشودة ، تراه الان يصاب بمحنون العظمة فيتعالى اكثر فاكثر بحيث لم يعد ليرى امامه لابلحة الحزب المركزية ولا اعضاء المكتب السياسي . وزينت النفس الامارة بالسوء لستالين ان في مقدوره الآن ان يقرر كل شيء وحده ، وان كل ما يحتاج اليه هو فريق من رجال الاحصاء ، وجماعة اخرى ترفع الماخرا امامه وتعمل على مدحه وتقريظه . فبعد مقتل س. م. كيروف ، الاجرامي ، وقعت في البلاد حركة تطهير جماعية عاتية لا ترحم ولا تلين انتهكت فيها ابسط قواعد العدالة الاشتراكية . وفي عشية واحد كانون الاول ١٩٣٤ وبناء على اقتراح ستالين نفسه (دون الرجوع الى موافقة المكتب السياسي الذي كان عقد جلسة عامة قبل ذلك بيومين) اصدر سكرتير بريزديوم اللجنة المركزية المذكورة التالية :

١ - صدرت الاوامر الى هيئات التحقيق للنظر بسرعة في قضايا المتهمين باعداد او بتنفيذ الحوادث الإرهابية التي تنشر الرعب في البلاد .

٢ - على الهيئات القضائية ان لا تعيق بوجه من الوجوه تنفيذ حكم الاعدام الصادر بحق الجرائم من هذا النوع ، بحجة النظر في امكانية العفو عن هؤلاء المجرمين ، اذ ان رئيس اللجنة التنفيذية المركزية (في الاتحاد السوفياتي) لا يرى ضرورة للنظر في طلبات الاسترحام المرفوعة اليه .

٣- ان اجهزة مفوضية الشؤون الداخلية (NKVD) مكلفة من جهتها تنفيذ احكام الاعدام الصادرة بحق المجرمين من الفئة المذكورة اعلاه بالسرعة اللازمة بعد صدور الحكم .

وهذه المذكرة اصبحت ، في ما بعد ، القاعدة التي اعتمدها للاساءة للعدالة الاشتراكية . ففي العديد من هذه القضايا المزيفة المدسوسة ، كانوا ينسبون إلى المتهم « القيام باعمال ارهابية » . ومثل هذه التهمة تسقط عن المتهم اي امل او اي حق بالمطالبة باعادة النظر في دعواه ، حتى ولو ادعى بان « اعترافاته » تمت تحت الضرب والتعذيب او ادلى بالحجة القاطعة على بطلان التهم الموجهة اليه . يجب ان نوكد هنا ان الظروف التي احاطت بمقتل كيروف تخفي وراءها اموراً كثيرة غامضة لا يمكن للان شرحها او تحليلها . يقتضي لها المزيد من التحري والتحقيق وتوجيه الانوار الكاشفة عليها . هنالك ما يوكد الظن ان القاتل نيقولايف نفذ فعلته بمعاونة شخص من الفريق المكلف بحراسة كيروف . فقبل الجريمة بشهر ونصف الشهر تقريباً اوقف نيقولايف بعد ان حامت الشبهات حوله . ولكن اطلق سراحه دون ان يخضع لاية مراقبة . ومن غرائب الظروف التي تثير الشك في الوجدان وتبعث على الارتباب هو ان « التشيكي » المكلف بحراسة كيروف ، دعي للاستطاق في الثاني من ديسمبر ١٩٣٤ ، ثم قتل في « حادث » سيارة لم يصب احد سواه من ركبها باي اذى . وبعد مقتل كيروف ، تعرض كبار رجال الامن في ليننغراد لاحكام تأديبية خفيفة ، الا انه جرى اعدامهم في ١٩٣٧ . فليس في وسعنا ان نوكد هنا انهم قتلوا لتكليفهم الكشف عن منظمي مقتل كيروف (ضجيج في القاعة) .

واحتدمت اعمال التطهير والتصفية الجماعية في اواخر ١٩٣٦ ، اثر برقة ارسلها ستالين وجدانوف ، صادرة عن سوخي بتاريخ ٢٥ ايلول ١٩٣٦ ، موجهة إلى كاغانوفيتش ومولوتوف وسواهما من اعضاء المكتب السياسي ، واليكم نصها :

« يبدو لنا من الضروري جداً ان يعين الرفيق يزهوف في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية بعد ان برهن ياغودا عن عجزه التام في الكشف عن عصبة تروتسكي - زينوفيف . فدوائر أمن الدولة (OGPU) متخلفة اربع سنوات ، على الاقل ، عن هذه القضية كما يرى جميع العاملين في الحزب وغالبية ممثلي المباحث (NKVD) . وبصريح العبارة ، علينا ان نوكد هنا ان ستالين لم يجتمع قط بعمال الحزب . ولم يطلع بالتالي على آرائهم في الموضوع . ان ادعاءات ستالين بان دوائر أمن الدولة متخلفة اربع سنوات في تطبيق

عمليات التطهير الجماعية ، وان المصلحة تقضي باستدراك ما فات والتعويض عن العمل الذي أهمل امره ، حفز المسؤولين في ادارة أمن الدولة على حث الخطى في عملية القاء القبض الجماعية وتنفيذ الاعدام باصحابها .

ولا بد ان نعلن عالياً هنا ان هذه الحجة التي تذرع بها ستالين انما جرى فرضها فرضاً على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اجتماعاتها العامة التي عقدتها في شباط - آذار عام ١٩٣٧ . والتوصية الاجماعية انما اتخذت بناء على تقرير يزوهف بعنوان « العبر والدروس الناجمة عن النشاط الهدام وعملية الالهة والتجسس التي يقوم بها العملاء التروتسكيون لحساب الجاسوسية الالمانية-اليابانية » . ونقول التوصية :

« ترى الجمعية العامة للجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في الاتحاد كله ان كل الوقائع التي كشف عنها التحقيق في اعمال المركز التروتسكي المعادية للاتحاد السوفياتي وما يقوم به انصاره في الولايات والملحقات تثبت أن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية تأتي متأخرة اربع سنوات عن محاولة الكشف عن هذه الجرائم التي يقترفها اعداء الشعب » .

فموجة التطهير الجماعية التي تمت هذه المرة إنما تمت تحت شعار النضال ضد التروتسكيين . فهل كان التروتسكيون آنذاك يشكلون خطراً يهدد الحزب ودولة الاتحاد السوفياتي ؟ يتوجب علينا ان نذكر هنا انه قبل اجتماع المؤتمر الخامس عشر للحزب عام ١٩٢٧ لم يزد عدد الذين صوتوا للمعارضة في صفوف التروتسكيين الزينوفيفيين على ٤٠٠٠ ، بينما صوت إلى جانب الحزب ٧٢٤,٠٠٠ . ففي السنوات العشر التي مرت بين مؤتمر الحزب الخامس عشر وبين الاجتماع العام للجنة المركزية في شباط - آذار ، كانت التروتسكية قد اصبحت في وضع لا يحتمل معه شرها . اذ ان العديد من التروتسكيين عدلوا مواقفهم وبدلوا من آرائهم واخذوا يعملون في مختلف قطاعات النظام الاشتراكي . وهكذا يتضح للجميع ان على ضوء النجاح الذي حققه الواقع الاشتراكي في البلاد ، لم يكن فيها ما يبرر سياسة الارهاب الجماعي تلك .

ففي التقرير الذي رفعه ستالين في شباط - آذار للجمعية المركزية في اجتماعها العام ، سنة ١٩٣٧ ، بعنوان : « النقص في عمل الحزب والوسائل المتبعة لتصفية التروتسكية وذوي الوجوه المزدوجة » محاولة لتبرير سياسة الخوف والهلع التي اسسها في البلاد ، من الناحية العقائدية . بحجة اننا ما دمنا نسير قدماً نحو الاشتراكية فلا بد من المضي في الحرب الطبقية ، كما يدعي . ويؤكد ستالين ان هذا هو ما يوصي به التاريخ ولينين نفسه .

والحقيقة ان لينين يوصي بوجود الاخذ بالعنف واسباب الضغط الثورية عند استمرار الطبقات المستغلة في استغلالها للشعب ، وهي وصية طبقت على العهد الذي كانت الطبقات المستثمرة ماضية في بطشها واستغلالها . فما ان تحسن وضع البلاد من الوجهة السياسية ، وما ان استعاد الجيش الأحمر مدينة روستوف في كانون الثاني عام ١٩٢٠ وحقق بذلك نصراً مبيناً على دنيكن ، حتى اصدر لينين اوامره إلى الجنرال دزدزنسكي بالكف عن سياسة التخويف والامتناع عن الحكم بالاعدام . وقد برر لينين هذا التعديل في سياسة الاتحاد السوفياتي بهذا الشكل ، في التقرير الذي تلاه في الاجتماع العام للجنة المركزية للاتحاد في الثاني من شباط ١٩٢٠ :

« اضطررنا لانتهاج سياسة الارهاب لكي نقاوم « دول الاتفاق » بسلاحها بعد ان انقضت الدول الكبرى في العالم علينا وزحفت بمحافلها تبغي احتلال البلاد مستعملة لهذا الغرض كل الوسائل التي لديها . ولم يكن في مقدورنا الصمود يومين في وجه هذا الهجوم الفاشم لو لم تقابل محاولات قواد هذه الجيوش والجيش الأبيض بشكل لا هوادة فيه ولا رحمة ، اي سلاح الارهاب والتخويف ، وهو السلاح الذي فرضته علينا دول الاتفاق .

والا انه ما ان حققنا نصراً حاسماً، وقبل ان تضع الحرب اوزارها، وعندما تم استرجاع مدينة روستوف ، امرنا بالكف عن عقوبة الموت ، وهكذا اثبتنا للملا اننا نقوى على تحقيق برنامجنا والخطة التي وضعنا وفقاً لما تعهدنا بتحقيقه. نحن نزع ان الاخذ بسياسة العنف اساسها تصميمنا على خنق فئة المستثمرين وكبار الملاكين والرأسمالين ، حتى اذا ما تم لنا ذلك توقفنا عن استعمال الوسائل غير العادية وقد اثبتنا ذلك بصورة عملية » .

لقد خرج ستالين عن هذه المفاهيم الواضحة وتجاوز الحد الذي رسمه لنا لينين . فقد استخدم ستالين الحزب ودوائر أمن الدولة في البلاد لتطبيق سياسة الارهاب الجماعي بعد ان تمت تصفية الطبقات المستغلة في بلادنا .

وسياسة التخويف هذه التي اخذ ستالين بها لم تستهدف قط القضاء على ما تبقى من فلول الطبقات المهزومة ، بل استهدفت على الأخص ، عمال الحزب الشرفاء وخدام الدولة السوفياتية ، فرماهم بتهم مخجلة ووصفهم بذوي الوجهين وبالخاسوسية واتهمهم بالتخريب والدس وحبك المؤامرات وغير ذلك من الافتراءات الاثيمة . ففي اجتماع اللجنة المركزية العام في شباط - آذار ١٩٣٧ ، استوضح عدد من الاعضاء الاسباب والمبررات التي تدعو للجوء إلى عمليات التطهير بالحملة بحجة محاربة ذوي الوجهين . وعبر الرفيق بوستيتشيف بلباقة عن هذه الشكوك التي

كانت تراود بعض الاعضاء عندما قال :

« اوضحت باسهاب كيف ان سني الحرب المريرة مضت وانقضت . فاعضاء الحزب انذين قصمت ظهورهم رزحوا عاجزين او التحقوا بمسكرات العدو ، بينما راحت العناصر السليمة تناضل في سبيل الوطن وسلامته ، وذلك في السنين التي خضعت فيها البلاد لسياسة التصنيع ونشر مبادئ الجماعة . ولم يدر في خلدي قط اننا بعد انقضاء هذه المرحلة العنصرية سنجد شخصاً من عيار كاربوف وامثاله في صفوف العدو (كان كاربوف عاملاً وعضواً في اللجنة المركزية الاوكرانية ومن اصدقاء بوستيشيف) . والآن ، وبالاعتماد على هذه الشهادة ، يبدو ان كاربوف حسب في ١٩٣٤ في صفوف التروتسكيين . فانا لا نستطيع ان اصدق ان رجلاً ابلى البلاء الحسن مناضلاً في الحرب ضد العدو دونما هوادة ، وجاهد في سبيل الحزب وفي سبيل اقامة النظام الاشتراكي وترسيخه في البلاد يمكن ان ينتهي به المطاف إلى صفوف العدو . لا ، لا يمكن لي ان اصدق ذلك ... ولا يمكن لي ان اتصور او اتخيل كيف امكنه السير إلى جانب الحزب ومعه خلال السنوات العنصرية ، لينضم فجأة ، عام ١٩٣٤ إلى صفوف التروتسكيين . فالأمر يبدو غريباً ومستهجناً جداً » (هيجان في القاعة) .

فاذا ما اخذنا بادعاء ستالين ولاسيما عندما يؤكد بانه كلما دنونا من الاشتراكية كلما تكاثرت عدد اعدائنا ، واذا ما سلمنا بالتوصية المتخذة في الجلسة العامة التي عقدتها اللجنة المركزية في شباط - آذار بناء على تقدير يزهوف ، فالمحرضون والمخربون الذين تغفلوا في صفوف اجهزة أمن الدولة ، والمحرفون الانتهازيون المجردون من الوجدان اخذوا كلهم يدعمون باسم الحزب ، عمليات التطهير الجماعية في صفوف الحزب وملاكاته ، وملاكات الدولة السوفياتية ، والمواطنين السوفياتيين العاديين . كل هذا يدعونا للتأكيد هنا ان عدد الذين جرى توقيفهم بناء على اتهامهم بارتكاب جرائم مناهضة للثورة ، ارتفع إلى عشرة اضعاف ما كان عليه بين ١٩٣٦ و ١٩٣٧ .

من الثابت ، اليوم ، ان سوء النية المبيتة كانت وراء المعاملة الوحشية التي تعرض لها عمال الحزب واعضاؤه . فالقانون الاساسي الذي اقره الحزب في مؤتمره العام السابع عشر ، قام على المبادئ التي اذاعها لينين في مؤتمر الحزب العاشر . وهي تنص على انه اذا تقرر اتخاذ اجراءات قاسية كالطرد مثلاً من عضوية الحزب ضد عضو ما من اعضاء اللجنة المركزية او ضد احد المرشحين لعضوية اللجنة المركزية او ضد اي عضو من اعضاء لجنة المراقبة التابعة للحزب ، « فلا بد من دعوة اللجنة المركزية لاجتماع عام بكامل اعضائها يشترك فيه ويدعى

اليه كل المرشحين لعضوية اللجنة وكل اعضاء لجنة المراقبة . فاذا ما صوت
ثلاثا اعضاء الجمعية العامة المسؤولين عن قيادة الحزب على اقتراح بطرد العضو
المقترح يتم طرده بموجب الشرط المنصوص عنه لطرد العضو او المرشح لعضوية
الحزب » .

ان غالبية اعضاء اللجنة المركزية والمرشحين الذين قبل ترشيحهم لعضوية
الحزب في المؤتمر السابع عشر الذي عقده الحزب ، والذي جرى توقيفهم عام
١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، طردوا من الحزب بصورة غير شرعية بعد اساءة استعمال
دستور الحزب . اذ ان قضية طرد هؤلاء الاعضاء من الحزب ، لم تطرح يوماً
على المناقشة في اي اجتماع من اجتماعات اللجنة المركزية بكامل اعضائها .

وعندما جرى التدقيق من جديد في تهمة « التجسس » و « التخريب » المرفوعة
لهؤلاء الاعضاء ، ظهر بوضوح ان هذه التهمة مزيفة ، لا اساس لها من الصحة .
فاعترافات المتهمين والموقوفين ، والافتراء عليهم بالتعامل مع العدو ، تمت
كلها تحت الضرب والتعذيب البربري .

وفي الوقت ذاته ، لم يعرض ستالين على اعضاء المكتب السياسي اذ ذاك ،
كما يشهد اولئك الاعضاء ، اقوال وتصاريح العديد من المتهمين بنشاط
سياسي ضد البلاد عندما رجعوا عن اعترافاتهم السابقة امام المحكمة العسكرية
وطلبوا اعادة النظر في قضيتهم . فقد تقدم كثيرون بمثل هذه المطالب ، ومما
لا شك فيه ان ستالين بلغه امرها .

ومن الضرورة بمكان ، في رأي اللجنة المركزية ، إطلاع المؤتمر على العديد
من هذه الدعاوى الملفقة التي اتهم بها اعضاء اللجنة المركزية للحزب الذين تم
انتخابهم في المؤتمر السابع عشر للحزب .

من اشنع وافظع التحديات التي شهدناها ، ومن التلفيقات البغيضة والمخالفات
الوحشية للعدالة الثورية قضية العضو المرشح لعضوية المكتب السياسي واحد
اعضاء الحزب البارزين الرفيق إينغ الذي انضم إلى عضوية الحزب في ١٩٠٥ .
(هيجان في القاعة) .

جرى توقيف الرفيق إينغ يوم ٢٩ نيسان ١٩٣٨ بتهمة حيازة مواد متفجرة ،
وذلك دون موافقة النيابة العامة . صدرت هذه الموافقة بعد مضي ١٥ شهراً على
توقيفه .

والتحقيق الذي جرى انما جرى بمخالفة تعتبر اقذر وابشع مخالفة للعدالة في
الاتحاد السوفياتي ، بعد الكثير من سوء النية والتزوير .

وقد اجبر اينغ على توقيع نسخة من الاعترافات التي اشرف على وضعها

القضاة المحققون ووقعها تحت الضرب والتعذيب الوحشي ، تهمه مع عدد من اعضاء الحزب ، بقيامه بنشاطات معادية للاتحاد السوفياتي .

وفي تشرين الأول ١٩٣٩ ، بعث ايخ إلى ستالين ببيان ينفي فيه نفياً قاطعاً التهم المنسوبة اليه ويطالب باعادة النظر في قضيته . وقد جاء في هذا التصريح قوله : « ليس أحز في النفس وأقتل للمرأة من ان يتسكع المرء في سجن حكومة ناضلت في سبيل الدفاع عنها والحفاظ على سلامتها ، طول حياتي » .

وقد عثرنا على بيان آخر ارسله ايخ إلى ستالين بتاريخ ٢٧ اكتوبر ١٩٣٩ ، ذكر فيه وقائع لا تدحض وجاء بأدلة دامغة قاطعة على هراء التهم المنسوبة اليه ، مدللاً على ان هذه التهم هي من اختراع التروتسكيين الذين وافق على توقيفهم بوصفه السكرتير الأول للجنة الحزب في سيبيريا الغربية والذين دسوا عليه هذه التهم ليثأروا لانفسهم منه . كما أنها من جهة أخرى ، تلفيقات دنيئة اساسها وثائق مزورة اعدتها قضاة التحقيق . وقد جاء في بيان ايخ بالحرف الواحد :

« بلغني في ٢٥ اكتوبر من هذه السنة ان التحقيقات التي استهدفت لها قد انتهت وانني اطلعت عليها بنفسي . فلو فعلت واحداً في المائة من الجرائم المنسوبة إلي ، لما كنت تجرأت على ان ابعث اليك بهذا البيان . ومع ذلك ، فانا لم اذنب واحداً في المائة من التهم المزعومة الي وصفحة قلبي انقي من ان يلطخها ظل الدناءة والخفيا . فلم ألق اليك يوماً بكلمة زور او بهتان ، والآن وانا ارى نفسي على حافة القبر ، فأنني لا اكذب بل انطق بالحق . ان قضيتي هي مثال صارخ على الاستفزاز والتحريض ، وعلى الافتراء الذميم ، وعلى انتهاك ابسط قواعد العدالة ... ان الاعترافات الواردة في ملفي لا تصدم المنطق السليم بما فيها من هراء وسخف فحسب ، بل تنبض بالافتراء الذميم على اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد كله (البلشفيك) ومجلس مفوضي الشعب ، لأن الاقتراحات التي اتخذتها اللجنة المركزية ومجلس مفوضي الشعب والتي لم تتخذ بناء على اقتراحي ولا ساهمت انا باعدادها ، وصفت بأنها اعمال مناهضة للثورة ومنظمتها ، وانها اتخذت بناء على اقتراحي ... اني المح الان إلى ابشع قسم من حياتي وإلى الذنب الذي اقترفته حقاً ضد الحزب وضدك شخصياً . هذا هو اعترافي بنشاطي الموجه ضد الحزب ... فالقضية وردت على هذا النحو : لما كنت عاجزاً عن احتمال ما تعرضت له من عذابات مبرحة على يد اوشاكوف ونيقولاييف ، ولاسيما الأول منهما ، الذي كان واقفاً على حقيقة وضعي الصحي وعارفاً جيداً ان اضلعي التي تكسرت من قبل لم تلتئم بعد تماماً ، وسببت لي آلاماً مبرحة ، أجبرت على اتهام نفسي وبعض الرفاق الآخرين .

« والقسم الأكبر من اعترافاتي اقترح علي واملي علي إملاء من قبل اوسناكوف ، وما تبقى منها يعود لوثائق المحفوظات التابعة لأمن الدولة في سيبيريا الغربية التي كنت مسؤولاً عنها . وان هذا القسم الخاص بهذه الرواية الذي نسجه خيال اوشاكوف وأجبرت انا على تذييله بتوقيعي ، اذ لم يعد متماسكاً مع الاقسام الاخرى ، فقد أجبرت على توقيع اعتراف ثان . والشيء ذاته وقع لروخيموفتش الذي عين في بادىء الأمر عضواً في الاحتياطي فحذف اسمه فيها لاسباب أجهلها . والشيء ذاته حدث لقائد شبكة الاحتياطي التي انشأها بوخارين عام ١٩٣٥ ... فقد وضعت اسمي اولاً ثم صدرت الأوامر باضافة اسم مزهلوك . وحدثت كذلك اشياء اخرى مشابهة .

« ... فاني اطلب اليك متوسلاً ان تعيد النظر في قضيتي ، ليس شفقة علي وحفاظاً علي حياتي بل لازيح الستار عن هذا التحريض الذي اصبح كحبة رقطاء تلتف علي نفسها ثم تنساب إلى عدة اشخاص كانوا إلى حد بعيد ضحايا خاسسي وافتراءاتي المجرمة ... فاننا لم اخنك قط ، كما اني لم أخن الحزب ابداً . انا اعرف جيداً انني اموت واقضي نحبي فريسة لدسائس اعداء الحزب واعداء الشعب الذين جبكوا حولي هذه الافتراءات » .

من الواضح ان بياناً من هذا النوع كان يستحق النظر فيه من قبل اللجنة المركزية . وهو امر لم يحصل ، وانما رفعوه إلى بيريا ، بينما مضوا في تعذيب الرفيق إيخ المرشح لعضوية المكتب السياسي .

وبتاريخ ٢ شباط ١٩٤٠ وقف إيخ امام المحكمة ، فلم يعترف امامها بأي ذنب او جريمة نسبت اليه ، وقال : « فمن هذه الاعترافات المنسوبة إلي ، ليس من حرف واحد بخط يدي باستثناء توقيع الذي ارغمت علي رسمه تحت الضغط والتعذيب . فقد اعترفت بما اعترفت تحت التعذيب والتكيل من قبل مأمور التحقيق الذي اخذ يسمي العذاب منذ الدقيقة الأولى التي جرى فيها توقيفي . وبعد ذلك اخذت اكتب كل هذه الخافات والخزعبلات ... اهم ما يتوجب علي قوله هنا هو ان اطلع هيئة المحكمة والحزب وستالين نفسه علي اني لست مذنباً ولا مجرم . فلم اشترك يوماً في اي مؤامرة او دسيسة . وسأغادر هذه الدنيا وانا وطيد الثقة والايمان بسياسة الحزب كما كان شأني في كل حياتي » .

وفي الرابع من شباط تم تنفيذ الاعدام بإيخ رمياً بالرصاص (امتعاض وهياج في القاعة) . وقد اتضح الان ان قضية ايخ قضية مصطنعة لا اساس لها من الصحة قط . وقد اعيد اليه اعتباره بعد الوفاة .

اما الرفيق رودزوتاك المرشح لعضوية المكتب السياسي ، وعضو الحزب

منذ عام ١٩٥٥ ، والذي قضى عشر سنوات في احد المعتقلات في العهد القيصري ، فقد عاد عن اعترافاته التي انتزعت منه بالقوة تحت التعذيب والضرب . ونجد في سجل المحكمة العسكرية العليا تسجيلاً لبيان رودزوتاك واليكم بعض ما جاء فيه : « ... فالقضية الوحيدة التي يضعها امام انظار المحكمة هي ان يطلع اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على انه لا يزال يقوم في دوائر أمن الدولة (NKVD) مركز خاص ، مهمته الأولى اختلاق القضايا وتزويرها ، وايضاً ارغام الاشخاص من الابرياء على الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها . فليس من فرصة تناح للمتهم لاثبات عدم اشتراكه بهذه الجرائم التي يعترف باقرارها اشخاص يدلون باعترافاتهم . ووسائل التحقيق تهدف في الدرجة الأولى إلى حمل الناس على الكذب وعلى الافتراء والتشنيع على الآخرين بقطع النظر عن الاشخاص الذين جرى اتهامهم » . وقد طلب من المحكمة ان تأذن له باطلاع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي كتابة على كل هذه الامور . « وأكد امام المحكمة انه لم يخطر له يوماً على بال ان يقوم بأي عمل يسيء إلى سياسة حزينا ، لأنه كان دائماً متفقاً معها بالرأي في اي مجال من المجالات الاقتصادية او الثقافية في البلاد » .

وقد ابقى هذا التصريح الصادر عن رودزوتاك طي الكتمان ، بالرغم من انه كان في فترة ما رئيساً للجنة المراقبة الرئيسية ، هذه اللجنة التي تم انشاؤها وفقاً لرغبة لينين ونصائحه ، وذلك دفاعاً عن وحدة الحزب ... وبهذه الطريقة سقط عضو كبير من اعضاء احد اجهزة الدولة العليا صاحبة الشأن ، وراح ضحية سوء نية شريرة مبيتة ولم يستدع قط للمثول امام المكتب السياسي للجنة المركزية لاستماع شهادته ، وذلك لان ستالين لم يكن يرغب في التحدث اليه . وصدر الحكم عليه ، في اقل من عشرين دقيقة ، ونفذ فيه حكم الاعدام رمية بالرصاص . (هيجان واستهجان في القاعة) .

وبعد التحقيق في هذه القضية عام ١٩٥٥ ، تبين ان التهم الموجهة إلى رودزوتاك كانت كلها مزورة ولا اساس لها من الصحة ، واستندت إلى مجرد افتراءات وهم زور . ولذلك اعيدت اليه كرامته بعد الوفاة .

والطريقة التي كان يلجأ اليها عملاء أمن الدولة (NKVD) في اختلاق « مراكز وهمية معادية للاتحاد السوفياتي » و « تكتلات » تعتمد طرقات استغرافية ، تظهر بوضوح في اعترافات الرفيق روزنبوم ، احد اعضاء الحزب منذ ١٩٠٦ ، الذي جرى توقيفه في ١٩٣٧ ، على يد اجهزة الأمن في ليننغراد .

وفي إعادة النظر ، عام ١٩٥٥ في قضية كوماروف ، فضح روزنبوم الحادثة التالية التي وقعت له ، وهي انه عندما جرى توقيفه عام ١٩٣٧ ،

تعرض لعذابات اليمة رهية وصدرت اليه الأوامر بالاعتراف بصحة تهم موجهة اليه ولغيره من الافراد . فاحضروه إلى مكتب زاكوفسكي الذي عرض عليه إطلاق سبيله ، اذا ما اعترف زوراً وبهتاناً امام المحكمة بتهم نسج خيالها مكتب الأمن العام حول قيامه باعمال التخريب والتجسس والانحراف في احد المراكز الارهابية في ليننغراد . (حركة في القاعة) . وبصفاقة لا يمكن لانسان ان يتصورها ، راح زاكوفسكي يصف الدور الحسيس الذي يقوم به جهاز خاص مهمته تليفق التهم وتزوير الدسائس المعادية للاتحاد السوفياتي ، وذلك ، كما يقول روزنبلوم « ليعطيني صورة صحيحة عن هذا الجهاز » .

وقد اسهب زاكوفسكي في شرح الأساليب المتنوعة التي يتدعها هذا المركز والفروع الاخرى التابعة له ... وبعد ان بسط له تشكيلات هذا المركز واجهزته ، راح زاكوفسكي يخبره ان باستطاعة البوليس السري ان يعين له قضية ضد المركز ، مشيراً إلى ان المحاكمة ستكون علانية . ويقول روزنبلوم :

« ومن الامور المرتبة سبقت ان يحضر إلى هذا المركز ٤ إلى ٥ اشخاص هم شودوف واوغاروف وسمورودين وبوزرن وشابوشنيكوف (زوجة شودوف) وغيرهم مع اثنين او ثلاثة اعضاء من الفروع التابعة لهذا المركز .

« .. وكان من الضروري اعداد قضية مركز ليننغراد بكل دقة بحيث تأتي متماسكة متلاحمة ، ولذا كان من اللازم تهيئة شهود الاثبات . وكان لنشأة الشاهد الاجتماعية (في الزمن الماضي بالطبع) ومركزه ومرتبته في الحزب دور كبير في القضية لا يتوفر مثله لصغار الشهود من اصل وضع .

« وحقق بي زاكوفسكي قائلاً : انت لا تحتاج إلى اختلاق شيء من عندك . فجهاز الأمن السري سيهيء لك نبذة عن كل فرع من فروع هذا المركز ، ومهمتك انت ان تنظر بدقة في هذا كله وان تذكر جيداً كل الاسئلة والاجوبة التي يمكن للمحكمة توجيهها . وستكون هذه القضية جاهزة في غضون ٤ - ٥ اشهر او نصف سنة بالاكتر . فعليك ان تهنيء نفسك وتعد ذاتك بحيث لا يلحقك في التحقيق اي ازعاج . ومصيرك يتوقف على سير المحاكمة ونتائجها النهائية . فاذا ما رحت تكذب وتشهد بالزور فاللوم عليك وحدك . فاذا ما تدبرت الأمر بمعرفتكم وخرجت من هذا كله بنجاح تكون انقذت حياتك ، ونحن نأخذ على عهدتنا رعاية الحكومة لك حتى ساعتك الاخيرة ، فنضمن لك اسباب العيش والرزق. »

هذه مسطرة او نموذج عن الامور الحسيسة التي كانت تجري آنذاك . (حركة في القاعة) .

اما التلفيقات التي كانت توضع في الملحقات ، فقد كانت على نطاق اوسع واكبر . فالادارة المركزية لمكتب الأمن في جمهورية سفردلوف عثرت على « المكتب الثوري للاورال » ، وهو الجهاز المزعوم لاحزاب اليمين وللتروتسكيين والثوريين الاشتراكيين ورؤساء الكنائس . وكان رئيسه المزعوم امين سر لجنة الحزب الشيوعي في جمهورية سفردلوف وعضو اللجنة المركزية للاتحادات الشيوعية (البلشفيك) المدعو كاباكوف الذي دخل عضوية الحزب عام ١٩٢٤ . فالوثائق التحقيقية التي تعود إلى ذلك العهد تقول بقيام مراكز للتروتسكيين ومنظمات لاعدال التجسس والتخريب والالهاء في كل مقاطعة او ولاية او جمهورية من الجمهوريات السوفياتية ، وان رئيس هذا المركز المزعوم يجب ان يكون لاسباب نجهلها ، امين سر الحزب الشيوعي في المحافظة او في الجمهورية . (حركة في القاعة) .

وقد راح ضحية هذه الاتهامات المزيقة الوف مؤلفة من الشيوعيين الابرياء ، نتيجة هذه الاعترافات المحشوة بالافراءات الكاذبة المدسوسة تنتزع من اصحابها بالقسر والعنف والتنكيل فتستعمل ضد اصحابها وضد الآخرين . وعلى الوثيرة ذاتها والاسلوب ذاته زوروا قضايا اتهامية ضد اعضاء بارزين في الحزب الشيوعي وضد كبار موظفي الدولة امثال كوسيور وشوبار وبوستيشيف وكوسايف وغيرهم عديدين .

وكانت اعمال التصفية وعمليات التطهير تجري في تلك السنين على نطاق واسع ، فتجرف في تيارها الوف الضحايا يذهبون فريسة لاتهامات خاوية زبقية مختلفة من الاساس اودت بحياة الكثيرين من كبار الاعضاء في مختلف ملاكات الحزب .

وكانت الطريقة المتبعة في هذا كله هي ان تعد دوائر الأمن (NKVD) قوائم باشخاص يتولى محاكمتهم القضاء العسكري ، وكانت الاحكام ضدهم تهباً وتعد سلفاً . وكانت العادة ان يبعث يزهوف بهذه القوائم إلى ستالين شخصياً للموافقة على الاحكام المقترح اصدارها بشأنهم .

فقد تلقى ستالين خلال عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ نحواً من ٣٨٣ قائمة تضم اسماء الألوف من الموظفين العاملين في خدمة الحزب ومجالس السوفييت والكومسومول والجيش والدوائر الاقتصادية ، حازت كلها على موافقة ستالين .

ويجري النظر الآن من جديد في معظم هذه القضايا . فوضعنا جانباً عدداً منها لبطلان الاتهام . ويكفي ان نشير هنا إلى انه منذ عام ١٩٥٤ حتى الآن ، اعادت المحكمة العسكرية العليا بكامل هيئتها الاعتبار لأكثر من ٧٦٧٩ شخصاً ،

بينهم عدد كبير اعيد اليهم الاعتبار بعد الوفاة .
وعمليات التوقيف بالحملة لاعضاء الحزب ومجالس السوفييت او في المصالح
التابعة للاقتصاد او للجيش الحقت اذى لا يقدر بالبلاد واخرت كثيراً قضية
تطور الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

وعمليات التصفية والتطهير الجماعي كان لها تأثير سلبي عميق من الوجهة
الخلقية والسياسية في نفوس اعضاء الحزب ، اذ سببت لهم قلقاً وشعوراً بعدم
الاطمئنان ، وساعدت على نشر بذور الشك والظن وازعجت الثقة بين اعضاء
الحزب ، بعد ان نشط في المجتمع الروسي النامون والمفرون والداسون .
والتوصيات التي اقترحتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في اجتماعها العام
المعقود سنة ١٩٣٨ ادت إلى تحسين الاوضاع ، في اجهزة الحزب ، بعض الشيء
بالرغم من وقوع بعض عمليات التطهير الواسعة عام ١٩٣٨ .

وبفضل ما تجيش به نفوس اعضاء الحزب من روح معنوية وسياسية عالية
استطاع الحزب ان يتحمل الصدمات التي تلقاها والحوادث الدامية التي تعرض لها
عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ وان يدرب ملاكات جديدة له . ومما لا شك فيه قط ان
تطورنا نحو الاشتراكية وتهيئة وسائل الدفاع عن البلاد كانت لتلحق نجاحاً اكبر
وتأني بفوائد اعظم لو لم تفقد ملاكات الحزب ما فقدت من خيرة الاعضاء
العاملين في خدمة الحزب والدولة ، فراحوا فريسة الاتهامات السافلة وعمليات
التطهير والتصفية التي وقعت عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ .

نحن الآن نتهم يزهوف بحق ، لما اقررت بداه من مظالم عام ١٩٣٧ . الا انه
يترتب علينا ان نؤدي جواباً عن هذه الاسئلة : هل كان باستطاعة يزهوف ان
يأمر بتوقيف كوسبور مثلاً بدون علم ستالين ومعرفته ؟ وهل جرى بشأن هذا
التوقيف اي نقاش او صدر اي قرار من قبل المكتب السياسي ؟
لا ، لم يتم شيء من ذلك قط ، كما لم يجر شيء من هذا في القضايا الاخرى المماثلة
لها . هل باستطاعة يزهوف ان يتخذ وحده مثل هذه القرارات المسؤولة ويفتي
وحده بمصير كبار الشخصيات في الحزب ؟ كلا . فمن السخافة الظن ان هذه
الافعال اقررتها يزهوف وحده . ولا يخامر احدكم الشك في ان ستالين هو
الذي امر بها ، ولولا الاوامر التي صدرت عنه وموافقته لهذه التدابير الاجرامية لما
كان اقدم يزهوف على تنفيذها .

فقد اعدنا التحقيق بهذه القضايا واعدنا الاعتبار إلى كوسبور وإلى رودزوناك
وبوستيشيف وغيرهم . فما هي الاسباب التي ادت إلى القبض عليهم وتوقيفهم
والحكم عليهم بالاعدام ؟ فقد جاءت الادلة تثبت بوضوح كلي انه لم يكن من

سبب لهذا كله . فقد جرى توقيفهم كما جرى توقيف غيرهم ، بغير علم النائب العام . اذا كان ستالين وحده اعطى الأوامر وأمر باتخاذ الاجراءات فهو وحده النائب العام الذي يفتي في هذه القضايا وفي مثل هذه الامور . علينا ان نقول هذا كله ليتمكن المندوبون إلى هذا المؤتمر بانقسطهم ، من اتخاذ المبادرة في تقييم هذه الامور فيخرجون بالاستنتاجات اللازمة .

والواقع يثبت بما لا يترك مجالاً للشك انه كثيراً ما أسيء استعمال السلطة ، بناء على أوامر صادرة عن ستالين نفسه ، دون ان يحسب اي حساب لمبادئ الحزب وللعدالة السوفياتية . كان ستالين رجلاً لا يمكن الوثوق به ، مصاباً بمرض الشك والارتياب ، وهو امر نعرفه حتى المعرفة لاتصالنا المباشر به . كان باستطاعته ان ينظر إلى اي شخص ويوجه اليه مثل هذا السؤال : « لماذا تشع نظراتك اليوم دهاء ومكرراً ، ولماذا اراك اليوم كثير اللف والدوران وتجنب التطلع إلى وتتفادى النظر إلى مباشرة ؟ » وهذا الارتياب المتأصل فيه والذي لا يمكن ازالته ، خلف فيه شيئاً من عدم الثقة حتى في أكثر اعضاء الحزب شهامة ، اولئك الذين تعاون معهم منذ عهد بعيد . فهو يرى « اعداء » في كل مكان وفي كل شيء كما يتصور وجود « الخواسيس ومزدوجي الوجوه » اينما وقع نظره . ولما كان يجمع بين يديه سلطة لا حد لها ، فقد اضمحل للغير سوء القصد وسوء النية ، مما كان له أثر بعيد ادبياً وجسمانياً في جميع الناس .

وعندما يصرح ستالين ان هذا الانسان او ذاك يجب توقيفه والقاء القبض عليه ، وجب على الناس ان يعتقدوا ويؤمنوا دون مراجعة او تردد ، ان هذا الرجل المطلوب توقيفه هو « عدو للشعب » . ابلت ، العصابة التي كانت تأتمر بأمر بيريا وتحكم بدوائر الأمن العام بلاء حسناً في اثبات الاتهامات التي تنسب للموقوف ، استناداً إلى وثائق مزورة من الاساس . وما هي تلك الوثائق التي كانوا يقدمونها ؟ انها رسائل اعترافات الموقوف بالطبع ، وعلى قضاة التحقيق ان يأخذوا بها ويعتمدوا عليها . وكيف يمكن لانسان ان يعترف بجرائم لم يرتكبها قط ؟ بطريقة وحيدة لا غير ، باخضاعه للتشكيل والتعذيب الجسماني بحيث تراخي قواه ويفقد كل شعور وكل قدرة عقلية فيتجرد تماماً من كل كرامة بشرية . وهكذا كانوا يحصلون على « الاعترافات » المطلوبة .

وعندما اخذت موجة التطهير الجماعي بالانحسار ، في ١٩٣٩ ، واخذ قادة المنظمات التابعة للحزب تتهم دوائر الأمن العام وتندمر من موظفيها لاستعمالهم وسائل الاكراه والضغط المادية والجسدية على الموقوفين ، وجه ستالين برقية

بالشيفرة إلى جميع السكرتيريين في اللجان القائمة في المحافظات والجمهوريات وإلى اللجان المركزية التابعة للحزب الشيوعي في الجمهوريات السوفياتية وإلى مفوضي الشعب للشؤون الداخلية وإلى رؤساء دوائر أمن الدولة ، هذا نصها :

« توضح اللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي بأن استعمال وسائل الاكراه والضغط المادية الجارية استخدامها في مراكز أمن الدولة ودوائره المختلفة سمح باستعمالها والركون إليها ، منذ سنة ١٩٣٧ وما بعد ، وفقاً للاذن الصادر عن اللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي ... من الثابت ان جميع دوائر الاستخبارات في الدول البورجوازية تستعمل وسائل الضغط والاكراه المادية هذه للتأثير على ممثلي البروليتارية الاشتراكية ولا تتورع قط من استعمالها بافطع الاساليب . والسؤال يفرض نفسه هنا لماذا يترتب على دوائر الاستخبارات في الانظمة الاشتراكية ان تكون اكثر شعوراً انسانياً من عملاء الاستخبارات البلهاء في الدول البورجوازية ، ومن اعداء الطبقات الكادحة الالداء وعمال التعاونيات الزراعية . فاللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي ترى من الضروري المضي في استعمال وسائل الاكراه المادية ، كتدبير استثنائي يتخذ ضد اعداء الشعب المصريين على عدائهم والمفوض امهم ، باعتبارها وسائل لها ما يبررها ويزكيها » .

وهكذا راح ستالين يكرس باسم اللجنة المركزية العامة للحزب الشيوعي ، اقلد انتهاك وحشي للعدالة الاشتراكية عن طريق السماح بالتنكيل والتعذيب ، وهي وسائل ادت إلى السعاية والوشاية والافتراء على الابرياء والاعتراف القسري بالاجرام .

ومنذ حين ، اي قبل بضعة ايام من انعقاد مؤتمرهم هذا ، دعونا اللجنة المركزية لاجتماع عام بجميع اعضائها ووجهنا الاسئلة إلى القاضي المحقق رودوس الذي حقق في قضية كوسبور وشوبار وكوساريف وهو شخصية معروفة بلومها وخساستها ، ويكاد دماغه لا يزيد بشيء عن دماغ العصفور وهو فاسد السيرة والسريرة . ان شخصية كهذه هي التي كانت تقرر مصير اعضاء الحزب البارزين ، وكثيراً ما افنى وقضى في المسائل السياسية المتعلقة بهؤلاء الاعضاء في الحزب لانه اتى بالدليل على « اجرامهم » وبرز للمحكمة وثائق وادلة يمكن ان تفضي إلى نتائج سياسية خطيرة .

والسؤال الذي خرج من جميع الافواه هو هل باستطاعة رجل يمثل هذا المستوى العقلي ان يتولى وحده التحقيق بشكل يوول إلى ادانة شخصيات كبيرة امثال كوسبور ؟ لقد اقر هذا الرجل امام جلسة اللجنة المركزية بجميع اعضائها قائلاً : « أخبرت ان كوسبور وشوبار هما من اعداء الشعب ، ولذا يترتب ، علي

بوصفي قاضي التحقيق ، ان ارغمهما على الاعتراف بأنهما من الاعداء .
(سخط في القاعة) .

وقد تمكن من ذلك عن طريق التعذيب والتكيل الطويلين ، متلقياً تعليمات
اضافية من بيريا . وعلينا ان نعرف ونشهد عالياً انه صرح ، بكل صفاقة ، ودونما
حياء او خجل في اجتماع اللجنة المركزية : « اعتقدت اني انفذ اوامر الحزب » .
وهكذا نرى كيف ان اوامر ستالين بشأن استعمال وسائل التكيل المادية
والتعذيب ضد الموقوفين كانت توضع بالفعل موضع التنفيذ .

هذه الحادثة تثبت كغيرها من حوادث التجريم ان كل القواعد الرشيدة التي
اعتمدها الحزب لحل القضايا المعقدة كانت تنتهك وتخالف ، كما ان وراء كل
هذه الامور سوء قصد من جانب فرد واحد .

فالسلاطات التي حصرها ستالين في شخصه ، ادت إلى نتائج خطيرة خلال
الحرب الوطنية العظمى .

وعندما نعلم النظر ملياً في قصصنا ، وافلامنا السينمائية و « ابحاثنا العلمية »
التاريخية ، يتبين لنا ان الدور الذي لعبه ستالين في هذه الحرب الوطنية مشوب
بالشك والارتياب . فقد قيل ان ستالين اتخذ لجميع الامور التدابير اللازمة المسبقة
واستعمل سياسة الكر والفر التي يقتضيها « الدفاع النشط » ، اي هذه السياسة
التي اتاحت للامان الوصول إلى موسكو وستالينغراد . وباستعمال الجيش الروسي
لهذا التكتيك ، بفضل ستالين وعبقريته الحربية ، استطاع اخذ المبادرة بالهجوم
وارغام العدو على التسليم ! والنصر المبين الذي سجله الجيش الروسي ، الذي
لا يغلب ، على ارض روسيا عن طريق بطولة شعبنا ونضاله المستميت ، كما
سجلته رواياتنا وافلامنا وابحاثنا العلمية ، كل ذلك نحن مدينون به لنبوغ ستالين
وعبقريته العسكرية !

علينا ان ننظر في هذا الأمر بكل عناية ودقة لما يترتب عليه من اهمية عظيمة
ليس تاريخية فحسب ، بل ايضاً سياسية وتربوية وعملية .

ما هي لعمرى وقائع هذه القضية ؟

كانت صحافتنا واجهزتنا التربوية السياسية تنبجح قبل الحرب وتردد متباهية
معتدة متهددة متوعدة كل من تسول له نفسه ان يحتل اي جزء من الاراضي
الروسية . لقاء كل ضربة يوجهها ثلاث ضربات واكثر ! كما ان باستطاعة جيشنا
ان يرده على اعقابهِ ومحاربه في ارضه ! وان في مقدورنا ان نربح الحرب باقل
اذى او ضرر ممكن . وقد تبين فيما بعد ان كل هذه التيجحات لم تكن لتقوم
على اساس من الحقائق الحسية التي من شأنها ان تحمي حدودنا وتصون عصمتنا .

واخذ ستالين ، اثناء الحرب وبعدها ، يفلسف المأساة التي مرت بها امّتنا في الشطر الأول من الحرب ويردها إلى الهجوم « غير المتوقع » الذي شهه الالمان ضد الاتحاد السوفياتي : انكم تدركون تماماً ، ايها الرفاق ان كل هذا لم يكن صحيحاً قط . فمنذ ان وصل هتلر إلى سدة الحكم اخذ على نفسه تصفية الشيوعية . واخذ الفاشيون يرددون هذا علناً ، ولم يخفوا قط خططهم ومقاصدهم . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ابرموا كل ما يمكن ابرامه من عقود واتفاقات ، والغوا ما ألغوه من تكتلات ومحاور ، كالمحور المعروف بمحور برلين - روما - طوكيو . وتدل وقائع كثيرة سبقت الحرب بوضوح كلي على ان هتلر عمل كل شيء لشن حرب ضد الاتحاد السوفياتي ، وحشد لهذا الغرض مقادير هائلة من الوحدات المسلحة ، اقام بعضها على حدود الاتحاد السوفياتي .

والوثائق التي تم نشرها حتى الآن تثبت بوضوح كيف ان تشرشل عهد إلى سفيره لدى الاتحاد السوفياتي السير كرييس ، في ٣ نيسان ١٩٤١ ، بان يحذر ستالين شخصياً من ان الالمان يعيدون تنظيم وحداتهم المسلحة بقصد مهاجمة الاتحاد السوفياتي . ومن الاكيد ان تشرشل لم يفعل ذلك بعاطفة المحبة للاتحاد السوفياتي ، بل لمصلحة شخصية ، ولغايات امبريالية ، وذلك لحمل الالمان والروس على دخول غمار حرب ضروس لا تبقي ولا تذر ، ينجم عنها تعزيز الامبراطورية البريطانية . وبؤكد تشرشل في مذكراته هذا الأمر ، بقوله انه دعا ستالين إلى الحيلة والحذر ، ولفته الى الخطر الذي يتهده . واخذ تشرشل يشدد على هذا الامر في الرسائل التي بعث بها في ١٨ نيسان والايام التالية . ومع ذلك ، فلم يعأ ستالين بهذه التحذيرات . بل على العكس أمر بعدم الاهتمام بمثل هذا التحذير ، لئلا يستفز الالمان ويدفعهم إلى القيام بعمليات حربية .

وعليّنا ان نوكد هنا ان معلومات خاصة حول هجوم الماني وشيك على الاتحاد السوفياتي جاءتنا من مصادرنا العسكرية والدبلوماسية ايضاً ، لان القيادة كانت تحفظ كثيراً تجاه هذه المعلومات . فكانت الوقائع ترسل بكل حذر وتؤخذ بتحفظ كلي .

من ذلك ، مثلاً ، المعلومات الواردة من برلين بتاريخ ٦ ايار ١٩٤١ ، من الملحق العسكري السوفياتي ، الضابط فورونتسوف . وقد جاء فيها بالحرف الواحد : « المواطن السوفياتي بوزر أبلغ نائب الملحق البحري انه بناء على تصريح صادر عن ضابط الماني يعمل في اركان هتلر العامة ، ان المانيا تستعد لغزو الاتحاد السوفياتي في الرابع عشر من شهر ايار عن طريق فنلندا ومقاطعات البلطيق ولافيا . وفي الوقت ذاته تتعرض موسكو ولينغراد لقصف جوي كثيف كما

سيجري هبوط المظليين بالقرب من المدن الواقعة على الحدود «
وجاء في برقية واردة من سفارتنا في لندن ، بتاريخ ١٨ حزيران ١٩٤١ :
« ان السير كريس مقتنع الآن تمام الاقتناع بانه لا مفر من وقوع اشتباك
مسلح بين المانيا والاتحاد السوفياتي يبدأ في اواسط حزيران . وفي رأي كريس ان
الامان انتهوا من حشد ١٤٧ فرقة ، بما فيها وحدات الطيران ووحدات الخدمة ،
على طول الحدود الروسية ...»

وبالرغم من هذا التحذير الخطير ، لم تتخذ الخطوات اللازمة لتهيئة البلاد
واعداها كما يجب للدفاع ، لكي لا تؤخذ البلاد على حين غرة .

هل كان لدينا الوقت الكافي وعندنا القدرة لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ؟
نعم كان لدينا الوقت وعندنا القدرة . اذ بلغت صناعتنا حداً عالياً من التطور
والنمو بحيث تستطيع ان تسد كل حاجات الجيش السوفياتي وتمده بكل ما يحتاج
اليه من عدة وعتاد . ومما يثبت ذلك انه بالرغم من فقداننا لنصف صناعتنا في
الحرب ولقطاع كبير من نتاجنا الصناعي ومحاصيلنا الزراعية بعد احتلال العدو
لاوكرانيا ولشمالي مقاطعة القوقاز واجزاء اخرى من البلاد تقع الى الغرب ، كان
في مقدور الشعب السوفياتي ان ينظم ، بكفاءة ، انتاج المواد والاعتدة الحربية
اللازمة في القسم الشرقي من البلاد ، ويركز فيها المصانع والتجهيزات التي تم له
نقلها من المناطق الواقعة الى الغرب من البلاد ، ومد قواتنا المسلحة بكل ما تحتاج اليه
لقهر العدو .

فلو تم لصناعتنا ان تنتقل كما يجب وفي الوقت الملائم لتأمين الجيش بالمواد
الحربية اللازمة ، بلجأت خسائرنا في الحرب اقل بكثير مما كانت عليه .
وقد بدا لنا في الايام الأولى من الحرب ان جيشنا كان سيء التجهيز والتسلح ،
وكنا نفتقر جداً للمدفعية وللعربات المدرعة وللطيران لرد العدو على اعقابهم .

فالعالم السوفياتي والتكنولوجيا انتجت انواعاً ممتازة من العربات المدرعة
وقطع المدفعية قبل الحرب . الا اننا كنا نفتقر كثيراً للتنظيم لتأمين الانتاج بالجملة .
والحق يقال اننا اخذنا بتحديث وسائل دفاعنا الحربية عشية الحرب .
وعندما ابتداء الهجوم الالماني على الاتحاد السوفياتي لم يكن لدى الجيش
الكميات الكافية ، سواء منها في المصانع القديمة التي لم تعد صالحة للانتاج او
في المصانع الحديثة التي كنا بحثنا خطة تبنيها لتأمين انتاج العتاد الحربي .. وكان
سلاحنا المضاد للطائرات في وضع سيء جداً ، ولم تكن اخذنا كذلك العدة للانتاج
اسلحة مضادة للدبابات والعربات المدرعة. وقد تبين لنا الآن ان عدة مناطق محصنة
لم تكن قادرة على الرد والدفاع عندما تمت مهاجمتها ، لسبب وحيد هو ان

الاسلحة القديمة نزعتم منها ، بينما الحديثة لم تكن ركبت بعد في اماكنها . وهذا النقص لم يواجه سلاح الدبابات والمدفعية والطائرات فقط . فعند انطلاق شرارة الحرب الأولى لم يكن لدينا من البنادق الآلية ما يكفي لتسليح المجندين . واذكر جيداً انه عندما تلقنت من كييف للرفيق مالنكوف واخبرته « ان الشعب اقبل على التطوع في الجيش ، ولذا فاننا نحتاج إلى اسلحة . عليكم ان ترسلوا لنا اسلحة على وجه السرعة » . رد علي مالنكوف قائلاً : « ليس في وسعنا ان نرسل اليكم سلاحاً . فقد ارسلنا كل ما نملك من بنادق إلى ليننغراد ، وعليكم ان تهتموا انتم بتسليح انفسكم » . (حركة في القاعة) .
هكذا كان وضع تملحنا .

ليس في الامكان ان ننسى في هذا المجال ، الحادثة التالية : قبل ان يغزو الجيش الهتلري الاتحاد السوفياتي ، كان كيربونوس (الذي قتل في ما بعد) رئيساً لقطاع كييف الحربي ، فكتب إلى ستالين يعلمه ان الجيش الالماني بلغ نهر البوغ وهو يستعد للقيام بهجوم . ولذا اقترح كيربونوس تنظيم دفاع قوي ، كما اقترح اجلاء ٣٠٠,٠٠٠ مدني من المناطق المتاخمة واقامة بعض مراكز خاصة للمقاومة ، والحفر لمنع سير الدبابات والعربات المدرعة وبناء الخنادق لوقاية افراد الجيش ، وغير ذلك من التدابير .

وردت موسكو على هذا الاقتراح بان مثل هذه الاجراءات تشكل تحدياً فلا لزوم لاقامة خط دفاع وقائي على الحدود لتلايصبح عند الالمان حجة للهجوم . وهكذا نرى كيف ان مناطق الحدود لم تكن محمية كما يجب لصد العدوان .

وعندما اخذت الجيوش الفاشية تغزو ارض الاتحاد السوفياتي وبدأت اعمالها الحربية ، اصدرت موسكو اوامرها بعدم الرد على النار . لماذا ؟ لان ستالين لم يصدق ، بالرغم من كل الدلائل ، ان الحرب ابتدأت ، واعتقد ان هذه الاعمال إنما هي اعمال استنزائية من قبل قطاعات المانية غير نظامية ، فاذا رددنا عليها نحن ، نعطي الالمان عذراً لشن الحرب .

والكل يعرف جيداً الحادث التالي : في عشية غزو الجيش الهتلري للاتحاد السوفياتي اجتاز الماني حدودنا واخبرنا ان الجيش الالماني تلقى اوامر صريحة لبدء الهجوم ضد الاتحاد السوفياتي في ليل ٢٢ حزيران ، عند الساعة الثالثة صباحاً . وارسل الخبر لستالين في الحال ، الا انه تجاهل هذا التحذير كما تجاهل غيره من قبل . لقد أهمل كل شيء : تحذيرات بعض قادة الجيش ، وتصريحات المارين من جيش العدو ، بل حتى قيام العدو بالهجوم المكشوف . فهل في ذلك كله ما يدل

على يقظة رئيس الحزب ورئيس الدولة في مثل ذلك الظرف التاريخي الهام ؟ وماذا كانت النتائج التي ادى اليها موقف اللامبالاة هذا وازدراء الوقائع الناطقة ؟ النتيجة كانت ان العدو تمكن في الساعات والايام الأولى من هجومه ان يدك الحصون القائمة في منطقة الحدود ، وان يعطل قسماً كبيراً من قواتنا الجوية ، ومن مدفعيتنا وعتادنا الحربي ، كما انه قضى تماماً على قسم كبير من ملاكاتنا الحربية وخلخل قيادتنا العسكرية ، فعجزنا بالتالي عن صد العدو في تغلغه عميقاً داخل البلاد .

كلها نتائج خطيرة جداً وقعت في مطلع الحرب ، وجاءت بعد ان اعدم ستالين عدداً من كبار قاداتنا العسكريين ومن كبار ساستنا عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ، قضوا ضحية الوشايات والافتراء الشنيع . وقد جرت خلال هذه السنوات موجات تطهير وتصفية ذهبت بصفوة من كبار الضباط في ملاكاتنا العسكرية انطلاقاً من الكتبية ، إلى الطابور ، إلى الفرقة لتبلغ كبار ضباط الجيش ممن لهم خبرات واسعة في حرب اسبانيا وفي حرب الشرق الأقصى .

واعمال تصفية كبار الضباط في ملاكات الجيش على نطاق واسع كان من بعض نتائجها الحاق الاذى بالروح النظامية في الجيش ، بعد ان حرص الضباط ، سنين طوالاً ، بناء على الاوامر والتعليمات التي تلقوها « للكشف » عن رؤسائهم باعتبارهم اعداء متخفين (هياج في القاعة) . ومن الطبيعي ، ان يعود ذلك كله على الملاد بتأثير سلبي ينعكس على النظام العسكري في المرحلة الأولى من مراحل الحرب .

كلكم يعرف تماماً حق المعرفة ما تمتع به الجيش ، قبل الحرب ، من ملاكات عسكرية ممتازة لم يكن ليشك احد بولائها للحزب وللوطن . ولنا الدليل القاطع على ذلك في ان هذا الفريق من القادة الذين نجوا من موجات التطهير التي تعرضوا لها ، والذين حقروا وسجنوا وعذبوا ، ما ان انطلقت شرارة الحرب الأولى حتى هبوا منذ اللحظة الأولى للدفاع عن الوطن ، والدود عن حياضه . وعود بي الذاكرة الى روكوسوفسكي (الذي زج به في غياهب السجن ، كما تعرفون) ، وغورباتوف ومرتسكوف (احد المندوبين الى هذا المؤتمر) وبودلاس (هذا القائد الممتاز الذي سقط شهيداً في ساحة الوغى) وغيرهم . الا ان عدداً من كبار الضباط والتمادة امثالهم ، قضوا حتفهم في المعتقلات والسجون فخرهم جيشنا إلى الأبد .

كل هذا يعود بنا إلى الوضع الذي سيطر على البلاد عند انطلاق الحرب وتمخض عن خطر ماحق يهدد الاتحاد السوفياتي وسلامة اراضيه .

من غير اللائق قط ان نجهل او نتجاهل انبلاء العظيم والانكسارات الاولى التي لحقت بنا على الجبهة وقد تغلب اليأس على ستالين وظن ان هذا بدء النهاية والمصير المحتوم. فقد جاء في احد الخطب التي القاها في احد الايام: « تغافلنا عن كل ما علمنا اياه لينين » .

وبعد هذا انقطع ستالين عن قيادة الاعمال الحربية وامتنع عن التدخل في اي شيء فيها ولم يعد يخصص كل نشاطه لاعمال القيادة الا عندما قام فريق من اعضاء المكتب السياسي بزيارته وابلغوه ضرورة اتخاذ بعض التدابير في الحال لتحسين الاوضاع القائمة في الجبهة .

ولذا ، فالخطر الماحق الذي هدد الوطن الأم في المرحلة الأولى من الحرب يكمن ، إلى حد بعيد ، في هذه الاساليب الخاطئة التي طبقتها قيادة ستالين للامة والحزب معاً .

لا تناول بمحدثنا فقط الفترة التي انطلقت فيها شرارة الحرب والتي ادت إلى خاخلة نظام جيشنا وتكيدنا فيها خسائر جسيمة . فالعصبية والمستعجلة التي اعترت ستالين في المرحلة الثانية وتملكت منه ، بالاضافة إلى العمليات الحربية الجارية ، سببت لجيشنا اذى كبيراً .

كان ستالين ابعد ما يكون عن الوضع القائم والتطور الحاصل في الجبهة ، وهذا شيء طبيعي لانه لم يقم يوماً طيلة هذه الحرب الوطنية ، بزيارة تفقدية لأي قطاع من قطاعات الجبهة ولم يقم بزيارة اية مدينة تم تحريرها ، الا زيارة قصيرة في سيارته على اوتوستراد موزهايسك عندما استقر الوضع على الجبهة . وقام بعض الكتاب بخلدون هذا الحادث ويصفونه باوصاف ونعوت غريبة ، كما خلدوا ذكره برسوم وصور عديدة . وتدخل ستالين بشؤون العمليات الحربية واصدر الاوامر والتعليمات التي لم تكن لتراعي الاوضاع المستبعدة ببعض القطاعات على الجبهة ، والتي لم تكن لتساعد بشيء في تحسين الوضع بل تسبب بخسائر جسيمة في الأرواح .

واني اسمح لنفسني ان اذكر امامكم في معرض الحديث حادثاً مميزاً يبين لكم كيف كان ستالين يتدخل بالعمليات الحربية على الجبهات . يحضر هذا الاجتماع الآن المارشال بگراميان الذي كان يوماً رئيساً للاموال الحربية في الجبهة الجنوبية الغربية والذي في امكانه ان يؤيد ما اروي به لكم :

عندما تأزم الوضع واصبح ينذر بالخطر على جيشنا في منطقة خاركوف ، قررنا حسب الاصول الغاء عملية كان من اهدافها تطويق خاركوف لان الوضع السائد آنذاك على تلك الجبهة لا يخلو من خطر على جيشنا ، مما يجر إلى

نتائج وخيمة جداً اذا ما مضينا في العملية .
واطلعنا ستالين على هذا الترتيب . واعلمناه ان الوضع يقتضي تعديل خطة
العميات حتى لا تتوفر للعدو فرصة تطويق قسم كبير من الجيش وتسميره
في مواقعه .

وخلافاً للمنطق ولكل مقتضيات العقل السليم ، رفض ستالين الاخذ باقتراحنا
واصدر الاوامر بتنفيذ العملية بالرغم من ان بعض حشوداتنا كانت مهددة بخاطر
التطويق وبالقتل .

وتلفت آنذاك إلى فاسيلفسكي ورجوته بان يتناول الكسندر ميخائيلوفتش
خريطة (ان فاسيلفسكي حاضر هنا) ويشرح للرفيق ستالين تطور الأوضاع على
الجبهة المذكورة . ولا بد من التنويه هنا ان ستالين كان يضع خطته للعمليات
الحربية على كرة (حركة في القاعة) ويرسم عليها حدود الجبهة . نعم ايها الرفاق
كان يستعمل كرة ويرسم عليها الحدود . فقلت للرفيق فاسيلفسكي ان يشرح الوضع
لستالين على خريطة ، اذ ليس بإمكاننا في الظروف الحاضرة متابعة العملية
المخطط لها . فالقرار القديم يجب تعديله .

واجابني فاسيلفسكي بان ستالين سبق له ودرس الوضع والمشكلة الناجمة ،
وبأنه اي فاسيلفسكي لن يتمكن من البحث مع ستالين بهذا الخصوص ، لان هذا
الاخير لا يجب ان يستمع إلى براهين جديدة حول موضوع العملية الحربية .
وبعد مكالمتي مع فاسيلفسكي ، اتصلت بستالين في دارته الا انه لم يرد على
التلفون بينما كان مالنكوف على الساعه . وابلغت الرفيق مالنكوف انني اتكلم
من الجبهة ، واني ارغب في التحدث شخصياً إلى ستالين الذي أبلغني بلسان
مالنكوف بان علي ان أبحث الأمر مع مالنكوف . فاخبرته للمرة الثانية انني اود
ان ابلغ ستالين شخصياً حقيقة الوضع الحرج على الجبهة ، فلم ير ستالين في الأمر
ما يوجب تناول ساعه التلفون ، بل ردد مرة اخرى ان علي ان ابحث القضية
معه بواسطة مالنكوف ، مع انه لم يكن يبعد عن التلفون الا بضع خطوات .
فبعد ان استمع ستالين إلى حججنا وبراهيننا قال : « اتركوا كل شيء
على ما هو . »

وماذا كانت النتيجة ، بعد هذا كله ؟ اسوأ مما كنا نتوقع . فقد طوق الالمان
حشود جيشنا وخسرنا في نهاية الامر مئات الألوف من جنودنا البواسل . هذه هي
عقوبة ستالين الحربية ، وهذا ما دفعنا ثمنه (حركة في القاعة) .

وفي مناسبة اخرى وقعت بعد الحرب ، خلال اجتماع ستالين مع فريق من
اعضاء المكتب السياسي ، ذكر انتاس ايفانوفتش ميكيويان ان الحق كان إلى

جانب خروشوف عندما بحث على التلفون عملية خاركوف الحربية ومن المؤسف جداً ان يكون رفض اقتراحه .

واخذت ستالين نوبة من الهياج الشديد . كيف يمكن القول او التسليم بان ستالين لم يكن على حق . ألم يكن نابغة وعبقرياً ولا يمكن للعبقري الا ان يكون على حق . فلم يعترف يوماً لاحد انه اشتط او غلط في صغيرة او كبيرة بالرغم مما بدر عنه من اغلاط في الآراء والنظريات التي ابداهها وفي مختلف النشاطات العملية التي قام بها . ومما يترتب علينا بعد الفراغ من مؤتمر الحزب ان نعيد تقييم العديد من العمليات العسكرية خلال الحرب وان نسلط عليها ما يلزم من الانوار الكاشفة .

والتكثيك الذي اصر ستالين بعناد على التقيد به دون ان يفقه شيئاً من قيادة العمليات الحربية كلفنا سيلاً من الدماء الزكية لم ينقطع نزيفها حتى الساعة التي تمكنا فيها من صد العدو واستئناف الهجوم من جديد .

يعرف العسكريون ان في اواخر عام ١٩٤١ بدلاً من ان يقوم جيشنا بمناورات تأخذ العدو المهاجم من جوانبه وتتغلغل وراءه ، تمسك ستالين بالقيام بهجمات جبهية واستعادة القرى المحتلة الواحدة تلو الاخرى . ولهذا السبب تكبدنا خسائر فادحة إلى ان تمكن قوادنا الذين حماوا على كواهلهم اعباء العمليات الحربية وتحملوا ثقل الحرب ومعاركها ، من تغيير الوضع على الجبهة واعتمدوا خطة للتناور في الحرب التي ادت في الحال إلى تغييرات جذرية في الجبهة لصالحنا .

والمخجل في هذا كله هو ان ما ان تم لنا هذا النصر على العدو الذي كلفنا غالباً ، حتى راح ستالين ينتقص من قدر العديد من قوادنا الذين ساهموا في النصر على احسن وجه ويحط من شأنهم ، لان ستالين لم يكن ليرضى بوجه من الوجوه ، ان يعترف بالفضل لاحد سواه . وقد اهتم ستالين كثيراً بتقييم الرفيق جوكوف كقائد حرب . وكثيراً ما سألتني رأيي فيه ، فكنت اجيبه : « اني اعرف جوكوف منذ عهد بعيد ، فهو من خيرة قادتنا ومن افضل قادة الجيوش » وبعد الحرب اخذ ستالين يروي عن جوكوف الحكايات السخيفة ، منها الرواية التالية . « انك تطري جوكوف وانا ارى انه لا يستحق كل هذا الاطراء . فهو قبل كل عملية حربية تقوم على الجبهة كان يتناول بيده حفنة من التراب ويشمها ويقول : في وسعنا الشروع في الهجوم ، او يقول عكس ذلك ، اي ان العملية المخطط لها لا يمكن تنفيذها » . فقلت اذ ذاك : « ايها الرفيق ستالين لا ادري قط من اخترع هذه القصة ، الا انها ليست واقعية » .

من المعقول جداً ان يكون ستالين اخترع هذه القصص لالحط من شأن الدور

الحربي الذي لعبه جوكونوف ، والانتقام من عبقرية كمارشال حرب .
وفي هذا المجال عمل ستالين بنشاط محموم على إبراز نفسه كقائد عظيم ،
فقد حاول بمختلف الوسائل ان يدخل في روع الناس ان كل الانتصارات الحربية
التي سجلها الاتحاد السوفياتي خلال الحرب القومية الاخيرة ، يعود الفضل فيها
الى شجاعة ستالين واقدامه وعبقرية لا لأحد غيره . (حركة في القاعة) .

وما دمنا في هذا الموضوع ، لنأخذ مثلاً افلامنا التاريخية والحربية وبعض الآثار
الادبية . ففيها ما يضحك وما يبكي . ذلك ان هدفها الوحيد الترويح لستالين
والاطراء عليه والتعريف به كتابفة حرب . لنستعرض هنا الفيلم السينمائي
«سقوط برلين» حيث يبرز ستالين رهو يقوم بنشاط كبير : فهو يصدر الاوامر في قاعة
تكثر فيها المقاعد الشاغرة ، حتى يقرب منه رجل واحد ويخبره شيئاً ما . هو
مرافقه وحارسه الأمين بوسكر بيتشف (ضحك في القاعة) .

ولكن اين القيادة العسكرية ؟ واين المكتب السياسي ؟ واين الحكومة
في المشهد ؟ ماذا يعملون وبما يهتمون ؟ الفيلم لا يذكر شيئاً عنهم . فتالين يقوم
بالعمل بالنيابة عن الجميع ولا يحسب حساباً لاحد ، ولا يطلب رأياً من أحد .
كل شيء يعرض على الشعب في انوار مصطنعة . ولماذا ؟ لسبب واحد لا غير ،
لاحاطة ستالين بهالة من المجد خلافاً للحقيقة التي تشهد بعكس ذلك ، وخلافاً
للحقيقة التاريخية .

ليس ستالين وحده ، بل الحزب بمجموعه ، والحكومة السوفياتية ، وجيشنا
الباسل ، وقوادنا الزوابغ وجنودنا الشجعان — كل الشعب السوفياتي — هؤلاء
هم الذين أمنوا الفوز وجلبوا النصر في هذه الحرب الوطنية (تصفيق حاد) .
فاعضاء اللجنة المركزية والوزراء وقادة اقتصادنا وقادة الثقافة السوفياتية والفنيون
— كل واحد من هؤلاء بذل ، وهو في مركزه ، بسخاء من روحه وقوته وعلمه
لضمان النصر وهزيمة العدو .

وقد قدمت طبقة الكادحين في البلاد بطولة خارقة . والفخر ملء وفاض
الطبقة العاملة يحلل تعاونيات المزارعين وطبقة الانتلجنسيا . فتوجه الحزب الشيوعي
ومنظماته كرسوا جميعاً قواهم وجميع ما فيهم من طاقات للدفاع عن الوطن الأم .
والمرأة السوفياتية قامت بالمعجزات في الحرب ، فنهضت في المؤخرة بعبء
العمل في المصانع وتأمين الانتاج في المزارع ، في جميع مرافق البلاد الاقتصادية
والثقافية والفكرية ، وساهم عدد كبير من نساء البلاد بالمجهود الحربي مباشرة
على الجبهات المختلفة ، وقام جيل فتياننا سواء على الجبهة او في داخل البلاد
بمساهمة لا تقدر في الدفاع عن الوطن السوفياتي ، وفي العمليات التي ادت إلى

سحق العدو .

والاعمال التي قام بها الجندي السوفياتي والقادة والموظفون السياسيون من مختلف الرتب تخلدهم إلى الأبد . فبعد ان فقد الجيش قسماً كبيراً من وحداته في الاشهر الأولى من هذه الحرب الضروس ، لم يفقدوا وعيهم ورشدهم وتمكنوا من اعادة تنظيمهم والمعارك دائرة ، كما تمكن قوادنا من تشكيل جيش باسل قوي متماسك الوحدات ، أثناء تطور سير الحرب ، فاستطاع ان يصمد امام العدو وقواه الضاغطة وحيله الماكرة . بل ايضاً تمكن من سحقه .

وهذه الاعمال البطولية الخالدة التي قام بها مئات الملايين من افراد شعبنا في الشرق والغرب على السواء ، خلال هذه الحرب التي هددتنا جميعاً بافطع اشكال العبودية والخضوع للفاشيين ستبقى مشعة براقة امام عيوننا كما ستخلد في ضمير الانسانية جمعاء (تصفيق حاد في القاعة) .

فالدور الأول ، والفضل الأكبر يجب ان يعود ، في تحقيق النصر في هذه الحرب لحزبنا ، الحزب الشيوعي ، ولل قوى المسلحة في الاتحاد السوفياتي ولعشرات الملايين من افراد الشعب السوفياتي الذين ترعرعوا في كنف الحزب ورعايته (تصفيق حاد متواصل) .

لنتقل ابها الرفاق إلى امور اخرى . ينظر إلى الاتحاد السوفياتي كشال يحتذى لدولة متعددة القوميات ، اذ عرفنا ان نوؤمن لافراد هذه الدولة المساواة والعلاقات الودية بين جميع القوميات التي تتعايش بسلام تحت سماء الوطن الأم . ولعل افطع المآسي وارهب الاعمال هي التي بدرت عن ستالين فتمثلت على اتمها في انتهاكات وحشية للمبادئ الاساسية التي قال بها لينين وعلم ، مما يتعلق بالسياسة القومية في الاتحاد السوفياتي . ونحن في كلامنا هذا ، انما نشير إلى حوادث الاجلاء بالحملة لقوميات بكاملها ونقلها من اماكن سكنها ، بمن فيها من شيوعيين و فرق الكومسومول ، دونما تمييز او استثناء . وهي حوادث لم تتطلبها قط الاعتبارات الحربية ولا اقتضت القيام بها .

وهكذا وفي اواخر عام ١٩٤٣ ، والجيش السوفياتي يحترق جبهات العدو ، جرى تنفيذ الأمر الصادر والقاضي باجلاء اقوام الكرايكاوي جميعاً من الاراضي التي يقيمون عليها . وفي الوقت ذاته ، اي في اواخر كانون الاول ١٩٤٣ ، اصاب المصير نفسه سكان جمهورية كلميك التي تنعم باستقلالها الداخلي . وفي آذار ١٩٤٤ ، تم ترحيل قوميات التشنش والانغوش وجرت تصفية جمهورية تششن انغوش شبه المستقلة . وفي نيسان ١٩٤٤ ، تم ترحيل اقوام البلغار إلى اماكن بعيدة ونقلوا امن جمهورية كاباردينو بلغار شبه المستقلة ، ثم الغيت هذه الجمهورية

نفسها لتعرف فيما بعد تحت اسم جمهورية كاباردين المستقلة. وتنادى الاوكرانيون مثل هذا المصير لكثرة عددهم ولعدم وجود محل لاستيعابهم ، والا لكان امر ستالين بنقلهم (ضحك وهيجان في القاعة) .

فالماركسي اللينيني لا يعجز وحده ، بل ايضاً صاحب العقل السليم ، عن الفهم كيف يمكن أخذ أمم وقوميات برمتها بجريرة بعض النشاطات المعادية ليضرب بمثل هذا الجلاء الاولاد والنساء والشيوخ واعضاء الحزب الشيوعي فيستهدفون جميعاً على السواء لعمليات تأديبية جماعية ويتعرضون للبوُس والشقاء والعذاب اتقاً من بعض الافراد او الجماعات الذين قاموا بنشاطات عدائية .

فبعد ان وضعت الحرب الوطنية اوزارها ، راح الشعب السوفييتي يشيد والفخر ملء برديته ، بهذه الانتصارات المدوية التي سجلها بتضحياته العظيمة والجهود الجبارة التي بذلها بسخاء . فعاشت البلاد حقبة جاشت بالحماسة والابتهاج . وخرج الحزب من الحرب اكثر اتحاداً وترباطاً . ففي مثل هذه الظروف من يستطيع ان يفكر بان يحبك الدسائس على الحزب والتأمر عليه ؟

ومع ذلك وقع في هذا الوقت بالذات ، الحادث المعروف « بقضية لينتغراد » . وقد سبق لنا ان اثبتنا ان هذه القضية كلها من نسيج الخيال ومختلفة من الاساس . فمن بين الابرياء الذين كلفتهم هذه القضية حياتهم الرفاق فوزنسكي ، وكوزنتسوف ، وروديانوف ، وبوبكوف ، وآخرون عديدون .

يعرف الجميع ان فوزنسكي وكوزنتسوف كانا من اصحاب المواهب العالية والقادة البارزين . وكانا في وقت ما من اقرب المقربين إلى ستالين . ويكفي ان نشير هنا إلى ما كانا عليه من مترلة رفيعة ، وذلك بتعيين فوزنسكي نائباً اول لرئيس مجلس الوزراء كما انتخب كوزنتسوف سكرتيراً للجنة المركزية . ومجرد التنويه بان ستالين وضع ثقته الكاملة بكوزنتسوف وولاه الاشراف على اجهزة الأمن في الدواة دليل قاطع على الثقة التي كان يتمتع بها عند ستالين . فماذا جرى حتى افترى على هذين الرجلين ورجعت اليهما تهمة « اعداء الشعب » وجرت تصفيتهما ؟

الوقائع تؤيد بوضوح ان « قضية لينتغراد » ليست في الحقيقة الا نتيجة التيه الشريرة التي كان ستالين يبيتها ضد ملاكات الحزب .

فلو كانت اوضاع لجنة الحزب المركزية واللجنة المركزية في المكتب السياسي طبيعية لكانت قضايا من هذا النوع تستدعي طرحها على هذه الهيئات ودرسها بدقة وفقاً للعرف المتبع في الحزب ، والتأكد من صحة جميع الوقائع والوثائق الثبوتية. ولا شك عندنا قط ان هذه الحادثة كغيرها من الحوادث الاخرى ، لم تكن لتقع لو عرضت على هذه الهيئات .

يجب ان نشير هنا الى ان الوضع اخذ بالتردي والتأزم في اعقاب الحرب. فستالين اصبح اكثر تقلباً من اي وقت مضى ، واكثر تهيجاً ووحشية ، كما طنت عليه الروح التشككية التي جاشت بها نفسه . وهوس الاضطهاد تجاوز حدود المعقول . فصار يرى الاعداء والخصوم في كل من يقع عليه نظره . وعزل ستالين نفسه اكثر فاكثر عن الجماعة . فهو وحده يقرر كل شيء دون استشارة اي كان او الاعتماد على اي شيء .

وهذه الريبة والروح التشككية التي لا يمكن لاحد ان يتصورها ، عرف ان يستغلها واش لثيم وثقات ذميم هو بيريا الذي في ذمته الوف الضحايا من الشيوعيين وافراد الشعب الاوفياء . فالترفع الذي اصاب فوزنسنسكي وكوزنتسوف أقض مضجع بيريا . وكما سبق واثبتنا فقد اتضح لدينا ان بيريا هو الذي « اقترح » على ستالين القيام ، بالتعاون مع بعض من يضع فيهم ثقته ، بترويد الادلة الثبوتية والاعترافات الشخصية والرسائل المغفلة ونشر الشائعات الملفقة والاحاديث المزعومة . اعادت اللجنة المركزية للحزب النظر والتدقيق في هذه القضية المعروفة «بقضية ليننغراد» . وقد جرى رد الاعتبار الآن لجميع الابرياء الذين تضرروا بهذه القضية وذهبوا ضحية لها ، واعيد الشرف والكرامة إلى منظمة الحزب المجيدة في ليننغراد . والاشخاص الذين لفقوا هذه القضية مثل اباكوموف وغيره احيلوا للمحاكمة امام محكمة ليننغراد ونالوا جزاء ما صنعت ايديهم .

ولعل من يسأل قائلاً لماذا توجه الانوار على هذه القضية الآن ونكشف خفاياها ، بينما لم يتم شيء من هذا من قبل ، في عهد ستالين بالذات ، انقاداً للابرياء ؟ والسبب هو ان ستالين نفسه اشرف على إعداد « قضية ليننغراد » بينما غالبية اعضاء المكتب السياسي ، كانوا يجهلون اذ ذاك ، الظروف التي احاطت بهذه الوقائع . وهكذا ، فلم يكن في وسعهم ان يفعلوا شيئاً .

وعندما تسلم ستالين بعض المواد من بيريا واباتكوموف دون ان يقوم بأي تدقيق في هذه الاوراق المدسوسة والحوادث المختلفة ، امر باجراء التحقيق في الأمور المتهم بها فوزنسنسكي وكوزنتسوف ، وبذلك قرر القدر مصيرهم . ولا تقل عبرة عن هذه ، القضية المتعلقة « بالحركة الانفصالية » المزعومة وجودها في جورجيا . والثابت الآن ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي اتخذت في الاجتماعات التي عقدتها في تشرين الأول ١٩٥١ وآذار ١٩٥٢ ، توصيات معينة بهذا الشأن . اتخذت هذه التوصيات دون سابق عرضها على المكتب السياسي ومناقشتها فيه . وستالين نفسه هو الذي وضع النص بنفسه . وتتضمن هذه التوصيات تهماً خطيرة ضد بعض اعضاء الحزب المعروفين

بولائهم . وعلى اساس هذه الوثائق الملفقة والزورة من الاساس تبين انه تنشط بالعمل في جورجيا هيئة وطنية مقترضة ومن اهدافها القضاء على السيطرة السوفياتية في تلك الجمهورية بمساعدة الدول الامبريالية . وعلى هذا الاساس جرى اعتقال عدد من اعضاء الحزب الشيوعي ومن رجال الادارة فيها .

نعرف جيداً انه قامت في جورجيا ، في وقت من الأوقات ، مظاهرات نظمها وطنيون بوجوازيون في تلك البلاد كما قام مثلها في عدد من الجمهوريات الاخرى . وهنا لا بد من التساؤل ، هل كان بالامكان في الوقت الذي وضعت فيه هذه التوصيات المشار اليها اعلاه ظهور نزعات وطنية في جورجيا لها من قوة الشأن والحول والطول ما يدعوها للمطالبة بانسحاب هذه الجمهورية من الاتحاد السوفياتي والانضمام إلى تركيا ؟ (حركة في القاعة وضحك) .

هذا قول هراء لا معنى له على الاطلاق . من المستحيل ان يتصور المرء كيف ان افتراضات من هذا الشكل يمكن ان يصدقها العقل او تخطر له على بال . والكل يعرف جيداً التطور العظيم الذي سجلته جورجيا في المجالات الاقتصادية والثقافية تحت الحكم السوفياتي .

فالانتاج الصناعي في جورجيا نما ٢٧ ضعفاً عما كان عليه قبل الثورة ، وظهرت فيها منذ ذلك الحين صناعات عديدة جديدة لم يسبق وجودها في البلاد قبل الثورة ، كصناعة صهر الحديد ، وصناعة الزيت ومشتقاته ، وصناعة الاجهزة الآلية ، وغير ذلك . اما الامية فيها فقد قضي عليها من عهد بعيد ، بينما كانت نسبتها في تلك البلاد ٧٨٪ من مجموع السكان .

هل في مقدور الجورجيين ، وهم يقارنون الوضع المزدهر الذي تم لبلادهم بالوضع العصيب الذي تتردى فيه طبقة العمال في تركيا ، ان يطلبوا او يقترحوا الانضمام إلى تركيا ؟ ففي ١٩٥٥ كان الفرد في جورجيا ينتج من الفولاذ ما يعادل ١٨ مرة انتاج الفرد في تركيا ، والطاقة الكهربائية في جورجيا يزيد معدلها بالنسبة للفرد الواحد ٩ اضعاف معدل الفرد في تركيا . واعتماداً على نتائج الاحصاء العام لسنة ١٩٥٠ ، ان ٦٥ بالمائة من سكان تركيا يتسكعون في مهاوي الجهل والجهالة . بينما تنفشي الأمية بين النساء بشكل مربع ، اذ يبلغ معدلها ٨٠٪ . اما في جورجيا فهناك ١٩ معهداً للتعليم العالي تضم معاً ٣٩,٠٠٠ طاب وطالبة وهذا يزيد ٨ اضعاف عما هو عليه الوضع في تركيا . اما الازدهار الذي ينعم به العمال في جورجيا فقد بلغ حداً هائلاً في ظل الحكم السوفياتي .

يتضح من هذا كله انه كلما تطورت جورجيا في المجالين الاقتصادي

والخضاري وازداد الوعي الاشتراكي عند الطبقات العاملة، اضمحلت بالمقابل
الينابيع التي تغذي الحركة القومية البورجوازية .

ويتضح ايضاً مما تقدم انه لم يكن من وجود لمنظمة وطنية انفصالية في
جورجيا . فألوف الابرياء ذهبوا ضحية النوايا الشريرة وعدم التقيد
بالقانون . كل هذا حصل ووقع في ظل قيادة ستالين « وعبقريته » وهو « سليل
الامة الجورجية العظيم » كما يحلو للجورجيين ان يلقبوه ، معترين فخورين .
(حركة في القاعة) .

تبرز نوايا ستالين الشريرة بوضوح وجلاء ليس في هذه القرارات التي اتخذها
مما يتصل بحياة البلاد في الداخل ، بل ايضاً في علاقات الاتحاد السوفياتي الدولية .
فالاتحاد العام الذي عقدته اللجنة المركزية بكامل اعضائها في تموز دار حول
الاسباب التي من اجلها تسمت العلاقات مع يوغوسلافيا . فقد لعب ستالين هنا
دوراً مخجلاً بالفعل . « فالقضية اليوغوسلافية » لا تحوي مشاكل يستعصي حلها
اذا ما تولاهما الرفاق في الحزب بالبحث والنقاش الموضوعي . وهذا القول لا
يعني قط ان القادة اليوغوسلاف لم يقترفوا اغلاطاً او ان ليس عندهم مواطن
ضعف . ولكن هذه الاغلاط ومواطن الضعف تلك ضخمها ستالين إلى حد غريب
كان من بعض نتائجه قطع العلاقات بين دولتين صديقتين .

اذكر يوم اخذ بصطع تضخيم الخلاف بين الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا في
الايام الأولى . وذات مرة عندما جئت من كييف إلى موسكو دعيت لزيارة
ستالين الذي اشار إلى نسخة رسالة بعثت مؤخراً إلى تيتو وسألني : « هل قرأت
هذه ؟ » ولم ينتظر جوابي بل بادر إلى القول : « سأهز اصبعي الصغيرة ويزول
تيتو من الوجود . يتداعي ويسقط ! »

وكم دفعنا غالياً من أجل هزة الاصبع الصغيرة هذه . ان هذا التصريح عكس
عقدة جنون العظمة عند ستالين . ولكنه تصرف على هذا النحو : « اهز اصبعي
الصغيرة فيزول كوسبور من الوجود » ، « واهز اصبعي الصغيرة فيزول
بوستيشيف وشوبار » ، وفوزننسكي وكوزنيسوف وسواهم عديدون !
ولكن ذلك لم يحصل لتيتو . مهما هز ستالين لا اصبعه فحسب ، بل كل
ما يستطيع هزه ، فان تيتو لم يسقط . لماذا ؟ ان السبب كامن في انه في حال الخلاف
مع الرفاق اليوغوسلافين ، فقد كان وراء تيتو دولة بل وشعب خبر الكفاح في
سبيل الحرية والاستقلال .

اترون إلى ابن قاد جنون العظمة ستالين ؟ لقد اضاع كلياً وعبه بالحقائق .
فأخذ يمارس شكوكه وتعاليه ليس ازاء افراد من الاتحاد السوفياتي فحسب ، بل ازاء

احزاب وامم باسرها .

لقد فحصنا قضية يوغوسلافيا بدقة فوجدنا حلاملائماً وافق عليه شعبا الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا فضلاً عن الجماهير العاملة في الديمقراطية الشعبية وسائر الانسانية التقدمية. ان تصفية العلاقات غير الطبيعية مع يوغوسلافيا أمر تم لمصلحة معسكر الاشتراكية كله ، ولمصلحة تعزيز السلام في العالم كله .

اود ان اعيد إلى اذهانكم كذلك قضية « الاطباء المتآمرين » . (خمس في القاعة) . ليس هنالك « قضية » خارج التصريح الذي ادلت به الدكتور تيماشوك التي قد تكون أمرت او وقعت تحت تأثير أحدهم^{١٧} (لم تكن بعد هذا كله ، سوى مساعدة غير رسمية لاجهزة أمن الدولة) لتنظيم رسالة إلى ستالين تعلمه فيها ان الاطباء يستعملون - كما هو مظنون - في طبابتهم للناس اساليب غير مشروعة . وكانت هذه الرسالة حافزاً لستالين للظن بوجود اطباء يتآمرون في الاتحاد السوفياتي ، فاصدر على الأثر اوامره بالقاء القبض على نخبة الاطباء في الاتحاد ومشاهير الاختصاصيين فيه . واعطى تعليماته حول توجيه التحقيق وكيفية القيام به مع الاشخاص الموقوفين . واوصى ان يكبل الاكاديمي فينوغرادوف بالحديد كما اوصى بجلد طبيب آخر . وبين حضور هذا المؤتمر الآن المندوب والوزير السابق الذي يشرف على دوائر أمن الدولة الرفيق اغنانيف . وقد اوعز اليه ستالين بطريقة هي في منتهى الفظاظة قائلاً : « اذالم تتمكن من انتزاع اعترافات من هؤلاء الاطباء ساضطر إلى تقصيرك من العنق ! » (ضجة في القاعة) . واستدعى ستالين بنفسه قاضي التحقيق واصدر اليه تعليماته الخاصة واوصاه بانتهاج نوع معين واسلوب خاص في التحقيق الذي سيقوم به ، وهي وسائل في غاية البساطة : الضرب والضرب والضرب ايضاً وايضاً !

وبعد وقت وجيز من توقيف الاطباء ، عرضت علينا نحن اعضاء المكتب السياسي محاضر متهورة بتواقيع الاطباء يعترفون فيها بذنوبهم وجرائمهم . وعلى اثر توزيع هذه المحاضر نظر الينا ستالين قائلاً : « انكم عميان كالهررة الصغيرة . لولاي لما عرفتم ماذا سيكون المصير ، كان سيؤول الأمر بالبلاد إلى الدمار ، لانكم لا تحسنون الكشف عن اعدائها » .

عرضت القضية على هذا النحو الذي يتعذر معه التدقيق في الوقائع التي استند اليها التحقيق لاسيما بلجهة اعترافات المتهمين .

وشعرنا مع ذلك ان قضية الاطباء مشكوك فيها وتحتل الظن . اذ كنا نعرف شخصياً بعض هؤلاء الاشخاص . وعندما دققنا في هذه القضية بعد وفاة ستالين وجدنا انها مختلقة وملفقة من الألف إلى الياء .

حاك ستالين نفسه خيوط هذه « القضية » المخجلة ، الا انه لم يتسع لديه الوقت لاجادة حبكها (ليصل بها إلى النتيجة التوخاة) . ولهذا السبب سلم الاطباء وبقوا على قيد الحياة . وقد اعيد اليهم جميعاً اعتبارهم الان ، وهم لا يزالون يشغلون المراكز التي كانوا يشغلونها من قبل ويعالجون كبار الموظفين بمن فيهم اعضاء الحكومة ، شأنهم اليوم كما كان في الماضي .

وقد تدخل بيريا في تنظيم هذه القضايا القذرة والمخجلة معاً وساعد في حبكها ولعب في تنفيذها دوراً سافلاً للغاية . بيريا هذا هو عدو الحزب المسعور ، العميل في دوائر الاستخبارات الاجنبية الذي فاز بثقة ستالين اكثر من اي شخص آخر . وبأي طريقة يستطيع هذا الواشي الزمام المحرض ان يحتل مثل هذا المركز المرموق في الحزب وفي الدولة بحيث اصبح النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي وعضواً في مكتب اللجنة المركزية السياسي ؟ فقد ثبت لدينا الآن ان هذا اللثيم الحقير تسلق سلم الادارة في الحكومة فوق عدد من جنث الضحايا يفوق الحصر . هل هناك اي قرينة او دليل على ان بيريا هو عدو الحزب ؟ نعم ، هنالك اكثر من دليل وبرهان . ففي الاجتماع العام لاعضاء اللجنة المركزية المعقود عام ١٩٣٧ اعلن كامنسكي مفوض الشعب لشؤون الصحة ، ان بيريا يعمل في خدمة استخبارات موسافات . ولكن ما كاد الاجتماع العام للجنة المركزية ينتهي حتى اعتقل كامنسكي وأعدم باطلاق الرصاص عليه . هل دقق ستالين في تصريح كامنسكي يا ترى ؟ لا ، فتالين يثق بكلام بيريا وهذا يكفي وحده . وعندما يثق ستالين باحد او يؤمن بشيء لا يمكن لاحد ان يقول شيئاً يتعارض ورأيه إذ ان من يحجروا على التعبير عن معارضته لهذا الرأي يلقي المصير الذي لقيه كامنسكي .

هنالك دلائل وقرائن اخرى ايضاً . فالتصريح الذي ادلى به الرفيق سنفوف في اجتماع اللجنة المركزية هو من الاهمية بمكان (اعيد اليه اعتباره منذ عهد قريب بعد ان قضى ١٧ عاماً في المعتقلات) . وجاء في هذا التصريح :

« بالاستناد إلى إعادة الاعتبار للعضو السابق في اللجنة المركزية كارتفليشفيلي لافرنثيف ، سلمت باليد ممثل لجنة أمن الدولة شهادة مفصلة حول الدور الذي لعبه بيريا في الشهادة ضد قضية كارتفليشفيلي وحول الاسباب التي تدین بيريا . » يبدو لي من الضروري ان أنوه هنا بمحادثة تتعلق بهذه القضية واثقت اليها نظر اللجنة المركزية لاني رأيت انه ليس من المناسب ان اضمها إلى وثائق التحقيق . ففي الثلاثين من اكتوبر عام ١٩٣١ ، وخلال الدورة التنظيمية لمكتب اللجنة المركزية لاعضاء الحزب الشيوعي (البلشفيك) ، وضع كارتفليشفيلي سكرتير

لجنة ما وراء القوقاس تقريراً وحضر الدورة المذكورة جميع أعضاء المكتب التنفيذي للجنة المقاطعة المذكورة التي تألفت من الأشخاص الواردة أسماؤهم : السكرتير الأول كارتفليشفيلي ، والسكرتير الثاني بيريا (وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الحزب يرد فيها اسم بيريا لمركز في الحزب) . واجاب كارتفليشفيلي بأنه يعرف بيريا معرفة تامة ولهذا السبب فهو يرفض رفضاً باتاً ان يعمل معه . وراح ستالين يقترح اذ ذاك ان يترك القضية معلقة بحيث يجري حلها اثناء العمل نفسه . وبعد ذلك بيومين : اتخذ قرار باعطاء هذا المركز في الحزب لبيريا وبنقل كارتفليشفيلي من مقاطعة ما وراء القوقاس . »

هذه الحادثة نفسها باستطاعة كل من ميكويان وكاغانوفتش تأييدها لأنها كانا حاضرين . والعلاقات غير الودية التي استمرت طويلاً بين بيريا وكارتفليشفيلي يعرف امرها الكثيرون . فهي تعود إلى العهد الذي كان فيه الرفيق (اوردزونيكيدز) يعمل وينشط في مقاطعة ما وراء القوقاس . وكان كارتفليشفيلي معاون سرج المقرب . وهذه العلاقات غير الودية حملت بيريا على تلفيق « قضية » ضد كارتفليشفيلي .

من الأشياء التي لا تخلو من مغزى في هذه « القضية » ، اتهام كارتفليشفيلي بالقيام بأعمال ارهابية ضد بيريا .

فدعوى الاتهام الموجهة ضد بيريا تضم مناقشة حول الجرائم التي ارتكبتها . هنا لا بد من ذكر حادث خاص اذ من الممكن جداً الا يكون قرأ جميع المندوبين إلى هذا المؤتمر هذه الوثيقة . أود ان اشير هنا إلى نزعة بيريا الوحشية في قضايا كدروف وغولوبيف وباتورينا والدة غولوبيف بالتبني . هؤلاء الأشخاص ارادوا إطلاع أعضاء اللجنة المركزية على النشاط الماكر الذي يقوم به بيريا فقتلوا جميعاً رماً بالرصاص دون اي محاكمة وصدرالحكم حالاً بعد تنفيذ الإعدام .

هذا ما كتبه الشيوعي القديم الرفيق كدروف ورفعته إلى اللجنة المركزية عن طريق الرفيق اندرييف (كان الرفيق اندرييف آنذاك سكرتيراً للجنة المركزية) : « اكتب اليكم طالباً النجدة والمساعدة من خلية مظلمة في سجن ليفورتوسكي . ليبلغ صراخي الملهوف آذانكم فلا تصموها . خذوني تحت حمايتكم . استحلفكم ان تزيلوا عن صدري كابوس التحقيقات واعتبروا الامر كله خطأ .

« أنا بريء اتصور واتقل في عذاب اليم . ارجوكم ان تأخذوا كلامي صادقاً . فالزمن سيشهد للحقيقة . فانا لست عاملاً محرصاً في خدمة اوكرانيا القيصرية . لا لست جاسوساً ، ولا عضواً في جمعية تعمل ضد النظام السوفياتي كما يتهموني على اساس من الوشايات الكاذبة ، ولا اتيت اي ذنب او جريمة ضد الحزب ولا

ضد الحكومة . انا بلشفي عتيق ليس ما يلطخني او يلدنس شرفي . فقد كافحت في صفوف الحزب اكثر من اربعين سنة لخير امتنا وازدهارها ...
« ... انا اليوم ابن ٦٢ سنة ويهددني قضاة التحقيق بان يستعملوا معي اشد الاساليب الجسمانية قسوة وتنكيلا . لقد فقد مأمورو التحقيق وعيهم ورشدهم وغشي على عقولهم وقلوبهم فكابروا عن الاعتراف بان قضيتي لا تقوم على اساس قانوني وبالتالي لا يجوز مطلقاً النظر فيها . يحاولون تبرير تصرفاتهم باتهامي بالعناد والاصرار على الانكار ، وباني عدو مكابر مفترس ، ولهذا تراهم يجدون في طلب المزيد من وسائل الارهاق والتعذيب . ليعرف الحزب اني بريء وان ما من شيء يستطيع ان يحول ابناً باراً للحزب إلى عدو مفترس حتى لو كلفه ذلك اخر نسمة من حياته .

«ولكن اين المهرب وكيف الخلاص؟ لا يستطيع ان انفادي ولا ان أبعد عن نظري الضربات الشديدة التي اراها ستهال علي بعد قليل .
«ولكن لكل شيء حد . فعذاباتي بلغت اقصى حد ، وصحتي تحطمت وخارت مني القوى وفارقتني قوة الاحتمال والصبر . فالنهاية تقرب مني شيئاً . يصعب علي ويحز في نفسي حزاً ان اقضي بحبي في سجن سوفياتي وانا مثقل بتهمة الخيانة والعقوق لوطني الأم . هل هنالك ما هو افظع واكثر هولاً علي قلب رجل شريف ؟ كم هو فظيع هذا كله . فالقلب مني يمتحن مرارة والآلام تغمر وجودي وتلفه بالسواد . لا ، لا . هذا ان يحدث ، ولن يكون . انا استغيث صارخاً . فلا الحزب يسمع ولا الحكومة الاشتراكية ، ولا مفوض الشعب ل. ب. بيريا ، يسمع مثل هذه المظالم التي لا علاج لها . انا على يقين تام انه اذا ما فحصت قضيتي بعدل سأنصف دونما ضجة او ضجيج ، ودوناً حقداً او غضب ، ودون هذه العذابات المبرحة . كان من اليسير جداً ومن ابسط الامور اثبات بطلان هذه الاتهامات الجوفاء . اني اوأمن بقوة ان الحقيقة والعدالة سيتصران ، نعم أوأمن ، اوأمن .
هذا البلشفي العتيق الرفيق كدزوف ، اظهرت براءته المحكمة العسكرية ، وبالرغم من ذلك فقد أعدم ركباً بالرصاص بناء لأوامر بيريا (احتجاج في القاعة واستنكار) .

عامل بيريا بقسوة ووحشية اسرة الرفيق اردزونيكيدز . ولاي سبب يا ترى ؟ لسبب بسيط هو ان اردزونيكيدز حاول منع بيريا من تنفيذ مقاصده الشريرة المخجلة . فقد ازاح بيريا من طريقه كل من يمكن ان يعترض عمله او يتدخل بشؤونه . كان اردزونيكيدز دوماً خصماً معارضاً لبيريا فشكاه هذا لستالين . فبدلاً من ان يدقق ستالين في هذه القضية ويتخذ التدابير اللازمة امر بتصفية شقيق

اردزونيكيدز واحرج اردزونيكيدز إلى درجة اضطر عندها للانتحار (استنكار في القاعة) . هذا هو بيريا .

لقد رفعت اللجنة المركزية للحزب القناع عن بيريا بعد وفاة ستالين بقليل وتبين للجميع بعد التحقيقات القانونية المسبهة ان بيريا اقترف جنایات وجرائم مخيفة وحكم عليه بالموت رمياً بالرصاص .

والسؤال يقفز الآن من الشفاء مستغرباً كيف ان بيريا الذي قضى على عشرات الألوف من اعضاء الحزب وموظفي الدولة لم يكشف عن حقيقة امره في عهد ستالين نفسه . لم يرفع القناع عنه من قبل لانه عرف كيف يستغل بمهارة نادرة ضعف ستالين ، وحقنه بالشكوك والريبة . فقد ساعد ستالين في كل شيء وعمل تحت رعايته وحمايته وبموازرتة .

ايها الرفاق ، ان عبادة الشخصية تجاوزت كل حد ، وذلك لسبب واحد ، هو ان ستالين استعمل كل الاساليب التي يتصورها العقل ، ودعم عملية تمجيد اسمه بكل قواه . هذا كله تؤيده الوقائع العديدة . ومن الامثلة البارزة التي تمثل تمجيد ستالين نفسه وافتناره إلى ابسط مظاهر التواضع والاحتشام ، نشره سيرة حياته الوجيزة التي ظهرت مطبوعة عام ١٩٤٨ .

هذا الكتاب هو ابرز شاهد على ما ينحدر اليه الملق والتدليس من خسة وضعة ، وهو خير مثال لرفع الانسان إلى مصاف الالهة ، وإلى جعله من حكماء البشر المعصومين عن الزلل ، هو « الزعيم الاكبر » ، « وناطقة الحروب الاسمي في كل زمان ولدى كل الشعوب » . ولا اخالي استطيع ان اجد كلمة او تعبيراً يرفع ستالين إلى السماء السابعة .

لا حاجة لنا إلى سرد الامثلة والشواهد التي ينبض بها هذا الكتاب ، عن الامور الرخيصة التي تعافها النفوس الابية . وكل ما نريد التشديد عليه هنا ان هذا التدليس لقي الحظوة والرضى من ستالين شخصياً ، وان بعض المقاطع زيدت على مسودات الكتاب بخط يده .

فما الذي رأى ستالين اثباته ووضعه في هذا الكتاب ؟ هل اراد ، يا ترى ، ان يخفف من غلواء وحرارة عبارات التدليس التي تعمر بها سيرة حياته ؟ كلا لقد وضع اشارة على المواضع والعبارات التي لم تشدد ما فيه الكفاية او لم تنوه عالياً بخدماته . واليكم بعض الامثلة والشواهد عن النشاط الذي قام به ستالين ، وقد كتبها هو بخط يده :

« فني نضاله ضد المتشككين وضد الانهزاميين امثال التروتسكيين والزينوفيفيين والبوخارينين والكامينيفيين ، حرص على افراغهم جميعاً في قالب واحد بعد

موت لينين ، وغدا هو المحور والقطب القيادي للحزب الشيوعي ، وهو الذي يحمل عالياً العلم حسب وصية لينين ويجمع الحزب حوله ويقود الشعب السوفياتي إلى جادة التصنيع العريضة ، وهو الذي ينظم الاقتصاد الريفي وفقاً للمبادئ الجماعية. انه زعيم النخبة ، والقوة الموجهة للحزب وندولة ، هذا هو الرفيق ستالين . « أهكذا يكتب ستالين عن نفسه ؟ اسمعوا اذاً المزيد منه :

« ومع ان ستالين قام باعباء قيادة الحزب وقاد الشعب بمتهى المهارة ولقي التأييد التام من جميع شعوب الاتحاد السوفياتي ، فلم تحدته نفسه يوماً بآية مباهاة او تفاخر او إطراء ذاتي . »

انى لنا ان نرى زعيماً يمدح نفسه على هذا النحو ؟ وهل هذا خالق بقائد من النمط الماركسي اللينيني ؟ لا ، ابدأ . ان مثل هذه المواقف هي التي شجبها كل من ماركس وانغلز . وان لينين نفسه قد اذان من يسلك مثل هذا الموقف . ثم نقرأ في المخطوطة الأم ، هذه العبارة : « ستالين هو لينين هذا الجليل ... » وقد وجد ستالين ان هذه العبارة ركيكة ولا تؤدي المعنى المطلوب فعدلها بخطه بحيث نقرأ بالحرف الواحد : « ان ستالين هو المكمل الكفء لعمل لينين ولرسلته ، او كما هو مألوف ترداده في الحزب ، ستالين هو لينين اليوم . » وهكذا نرى كيف جرى وصفه ، ليس بلسان الشعب ، بل بلسانه هو .

بالامكان ايراد العديد من هذه الاستشهادات يمدح فيها ستالين نفسه بنفسه في مسودة الكتاب وقد زادها ستالين على النص الاصيل بيده . وكثيراً ما نراه يضيف على نفسه الثناء والتقريظ والمدح لنبوغه العسكري ولعبقريته في الاستراتيجية الحربية . ولن اذكر اكثر من اضافة واحدة زادها ستالين على مسودة الكتاب بخط يده حول عبقرية الحربية ، وهي هذه : « سجل فن الحرب السوفياتي تطوراً جديداً على يد ستالين ... » ثم : « وضع الرفيق ستالين نظرية العوامل المتفاعلة باستمرار التي وجهت الحرب نحو مصيرها المحتوم ، ونظرية الدفاع الشديد . والقوانين التي تنهض بالهجوم والهجوم المضاد ، ووجوب تعاون كل المصالح والاسلحة ومشاركتها المتزامنة في سير الحرب ، والدور الحاسم الذي تلعبه المصفحات المدرعة المتداخلة بكثافة وقوى الطيران في الحرب العصرية ، والمدفعية باعتبارها أفعل الادوات الحربية . فقد وجدت عبقرية ستالين الحربية الحلول المطلوبة التي اقتضاها تطور الحرب أخذاً بعين الاعتبار كل الظروف المتحركة بالوضع القائم » (حركة في القاعة) . ويضيف ستالين بعد ذلك : « برهن ستالين عن استاذيته الحربية في كلا الدورين الدفاع والهجوم . فالنبوغ العسكري والعبقرية الحربية التي تمت لستالين مكنته من الوقوف على اسرار

استراتيجية العدو والتغلب عليه . فالمعارك التي قاد فيها الرفيق ستالين الجيوش الروسية المظفرة هي شواهد ساطعة وامثلة رائعة على مهارته في العمليات الحربية . « هكذا كان ستالين يمتدح كقائد حرب . فمن هو صاحب هذا الشاء العاطر؟ هو ستالين نفسه : ليس بوصفه استراتيجياً مجرباً ، بل بصفته مؤلفاً ناشراً ، والواضع الرئيسي لمسودة سيرة حياته العابقة بالثناء والتقريظ .

هذه هي الوقائع ايها الرفاق ، وحرري بنا ان ننعثها بوقائع مخجلة .
وبالكم واقعة اخرى مأخوذة من سيرة حياة ستالين المقتضبة .

معروف لدى الجميع ان التاريخ الموجز للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي هو من تصميم لجنة خاصة مؤلفة من بين اعضاء اللجنة المركزية للحزب . وهذا الكتاب ، ينبض بعبادة الشخصية ، وقد تولى وضعه فريق معين من الكتاب . وقد انعكست هذه الحادثة بالذات في التعبير التالي الذي جاء في مسودة المخطوطة لسيرة حياة ستالين المقتضبة ، اذ نقرأ فيها ما يلي :

« اعدت لجنة منبقة عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تحت ادارة الرفيق ستالين وبمساهمته الشخصية الناشطة ، تاريخاً موجزاً للحزب الشيوعي في جميع انحاء الاتحاد السوفياتي » .

ولكن هذه العبارة نفسها لم تشبع رغبة ستالين ، فاستبدلها في تصحيح الصيغ النهائية لسيرة حياته المختصرة كما يلي :

« عام ١٩٣٨ ، ظهر تاريخ الحزب الشيوعي بعنوان التاريخ الموجز الذي حرره الرفيق ستالين واقترته لجنة خاصة عينتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . « فهل بإمكان احد ان يزيد على ذلك ؟ (هياج في القاعة) .

وهكذا ترون ان عملية تقمص مدهشة حولت الكتاب الذي وضعه فريق من الكتاب إلى كتاب ألفه ستالين نفسه . ليس من الضروري قط ان نضيف هنا كيف تم هذا التقمص ولماذا تم على هذا النحو .

يرتسم على اللسان سؤال له صلة بالموضوع : اذا ما كان ستالين هو واضع هذا الكتاب ومؤلفه ، فلماذا يرى نفسه بحاجة إلى امتداح نفسه على هذا النحو ويحول الفترة التاريخية التي تلت تشرين الأول والمتعلقة بالحزب الشيوعي المجيد إلى عمل فردي يقوم به « العبقري ستالين ؟ »

هل هذا الكتاب يعكس تماماً جهد الحزب في بناء المجتمع الاشتراكي ، وفي تصنيع البلاد واقامة النظام الجماعي فيها ، وغير ذلك من الخطوات التي اتخذها الحزب الذي لم يحد قط عن الخط الذي رسمه له لينين ؟ هذا الكتاب يتحدثنا عن ستالين وخطبه وتقاريره . كل شيء مربوط باسمه ومنسوب

اليه حتى صفائر الامور منها .

وعندما يؤكد ستالين انه هو نفسه كتب موجز تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، يثير هذا الادعاء الدهشة والاستغراب . أبستطاعة كاتب ماركسي لينيني ان يكتب عن نفسه مثل هذه الكتابة ويمتدح نفسه على هذا الشكل ويرفعها إلى أعلى .

لنتعم النظر ملياً في هذه المدائح يكيلها ستالين لنفسه (حركة في القاعة) . فالقياصرة انفسهم لم ينشئوا الجوائز التي تعطي باسمهم .

ويعترف ستالين بان التشيد الوطني الروسي من اذكي واطيب النصوص التي عرفها الاتحاد السوفياتي في اناشيده المختلفة . على ان لا كلمة فيه عن الحزب الشيوعي ، ومع ذلك ففيه مدح لستالين لم نر له مثيلاً :

غرس فينا ستالين الولاء للشعب

واعدنا للاعمال والمآتي المجيدة

في هذين السطرين من التشيد نرى بشيء من الدهشة ان العمل التربوي والقيادي والايحائي الذي تم على يد لينين يعزى كله لستالين .

نلاحظ هنا بوضوح انحرافاً ظاهراً عن خط الماركسية اللينينية ، وتنكراً قاضحاً وانتقاصاً للدور الذي قام به الحزب . وتنويراً لكم : وعلى سبيل المعلومات . اقول ان رئاسة اللجنة المركزية اتخذت توصية بوجوب وضع تشيد وطني جديد يبرز للملأ دور الشعب ودور الحزب (تصفيق حاد طويل) .

ثم هل ان عملية اطلاق اسم ستالين على العديد من المنشآت والمدن السوفياتية تمت بمغزل عن ستالين ودون اخذ رأيه في الأمر وعلمه ؟ وهل انشئ ما انشئ من المباني التي تحمل اسم ستالين بغير علم منه يا ترى ؟ لقد شيدت له وهو حي يرزق ، وهناك من الوقائع الثابتة ما يدل على ان ستالين وقع هو نفسه بامضائه الشخصي توصية اتخذت في جلسة لمجلس الوزراء لتشيد بناء تذكاري ضخمة على قناة الفولغا دون ، يحمل اسم ستالين . وفي ٤ ايلول من السنة ذاتها اصدر امراً بتخصيص ٣٣ طناً من النحاس لهذا البناء الضخم . وكل من زار منطقة ستالينغراد وقعت عيناه ولاشك على تمثال ضخمة يجري رفعه في نقطة ندر من لا يمر امامها . وقد انفق في هذا السبيل مبلغ ضخمة في وقت كان فيه سكان المنطقة لا يزالون يسكنون الاكواخ . احكموا انتم بانفسكم هل كان ستالين منصفاً عندما خط بيده ، في سيرة حياته انه : « لا يسمح لنفسه ... حتى ولو في المنام او في الخيال ، ان يراوده اي احساس بالمباهاة والفخر وعبادة الذات ؟ »

وفي الوقت ذاته جاء ستالين بالدليل على انه ينقصه الاحترام لذكرى لينين .

فليس من باب الصدف او الاتفاق انه بالرغم من القرار المتخذ منذ ٣٠ سنة
بتشيد قصر لمجلس السوفيت يخلد اسم فلاديمير لينين لم يرتفع ولم يشيد هذا
التصمر ، وكان ذلك يتأجل سنة بعد سنة حتى كاد المشروع نفسه يهمل تماماً .
يجب الا يفوتنا هنا التنويه بتوصية الحكومة السوفياتية الصادرة في ١٤ آب
١٩٢٥ ، القضية « بانشاء جائزة باسم لينين تعطى للمبرزين في الحقل التربوي . »
وقد نشرت هذه التوصية في الصحف ، في حينه ، وللان لم تنشأ جائزة لينين .
وهذه من الأمور التي يجب تصحيحها (تصفيق عاصف متصل في القاعة) .

عندما كان ستالين على قيد الحياة ، وعلى ضوء الاساليب التي اتيت على
ذكرها والوقائع الثابتة التي سردها واخذتها من سيرة حياة ستالين الوجيزة ، نرى
ان الاحداث والوقائع المشروحة تبدو وكأن لينين لعب فيها الدور الثاني ، حتى في
ثورة اكتوبر الاشتراكية . ففي العديد من الافلام ومن الكتب الادبية التي نشرت
نرى صورة لينين تشوبها الظلال ويخس فيها حقه بصورة لا يمكن لاحد ان يقبلها .
كان من بين المباهج واسباب التسلية المفضلة عند ستالين مشاهدة الفيلم
« سنة ١٩١٩ التي لا تنسى » ، ففيه يظهر واقفاً على عربة سكة حديد مصفحة
وكأنه يحنل العدو بخنجره . لندع كليمانت يفره وفتش صديقنا العزيز يستعيد
شجاعته المعروفة ويسجل لنا الحقيقة حول ستالين . فهو اخبر الناس واكثرهم
اطلاعاً على الطريقة التي كان ستالين يحارب بها . وانه من الصعب على الرفيق
فوروشيلوف ان يقوم بهذا الأمر ، فلو فعل لأدى عملاً جميلاً ينال رضى
الجميع وموافقتهم ، من الشعب والحزب ، حتى احفاده يكونون له من
الشاكرين (تصفيق طويل) .

في الحديث عن وقائع ثورة اكتوبر وحوادث الحرب الاهلية هنالك الانطباع
المائد لدى الجميع ان ستالين لعب دوراً الأول فيها ، ولستالين كل الفضل
دوماً وفي كل مكان باقتراحه على لينين ما يجب عمله وكيف يجب عمله . هذا هو
الافراء بعينه على لينين (تصفيق متواصل) .

لن انجنى على الحقيقة ، على ما ارجو ، عندما قول ان ٩٩٪ من الاشخاص الحاضرين
هنا سمعوا وعرفوا القليل عن ستالين قبل سنة ١٩٢٤ . بينما كان لينين معروفاً
لدى الجميع ، ولدى الحزب على الاخص ، ولدى الامة جمعاء ، من الفتيان
إلى الشيوخ (تصفيق متواصل صاحب) .

يجب اعادة النظر في كل هذه الامور وتعديلها بحيث يعكس التاريخ والأدب
والفن عندنا دور لينين الحقيقي والانجازات العظيمة التي حققها الحزب الشيوعي والشعب
السوفياتي الخلاق (تصفيق) .

أيها الرفاق ان عبادة الشخصية كانت حافزاً لاستعمال مبادئ خاطئة في عمل الحزب وتصرفاته وفي مجال النشاط الاقتصادي . فقد ارتكبت انتهاكات صارخة لديمقراطية الحزب وديمقراطية الشعب السوفياتي . وزرعت العقم في الادارة وسببت الانحرافات العديدة على اختلاف انواعها وزيفت الحقيقة وغيّرت معالمها . فقد ظهر عندنا عدد كبير من المداسين والاختصاصيين بالتفاوض الكذاب والخداع الماكر .

ويجب ان نذكر جيداً هنا انه بسبب القاء القبض على العديد من قادة الحزب ورجال الاقتصاد ، اخذ عدد من العمال يعملون على غير هدى ، ويفرطون في حذرهم وتحسبهم يحسبون حساباً لكل ما هو جديد ، ويخافون حتى من ظاههم ، بعد ان ماتت فيهم روح الاقدام والمبادرة .

خذوا مثلاً على ذلك توصيات الحزب وتوصيات مجلس السوفييت . فكثيراً ما جرى اعدادها واقرارها دونما اكتراث بالاوضاع القائمة . واستفحل الامر حتى ان اعضاء الحزب والعاملين فيه اخذوا يتلون خطبهم حتى في الجلسات الصغيرة . كل هذا وما اليه ولد عندنا روح الشكليات والروتين الخطر في الحزب وفي اعمال السوفييت ، بحيث وقعت جميع اجهزة الدولة في قبضة البيروقراطية . ان نقور ستالين من النظر إلى الحياة الواقعية رجهله المطبق لحقيقة الاوضاع السائدة في الولايات لا يضاهيها الا ادارته الخرقاء للزراعة .

كل من يهتمون واو من بعيد ، بوضع الوطن لا بد لهم ان يلاحظوا الأوضاع الحرجة المحيطة بمراقق الزراعة عندنا ، بينما لم يستطع ستالين ان يتبين شيئاً من هذا كله . هل اطلعنا ستالين على هذا كله ، نعم اطلعناه ، الا انه لم يعضدنا قط . لماذا ؟ لان ستالين لم يسافر إلى اي مكان ولم يجتمع قط بالعمال في المدن وفي المزارع الريفية التعاونية ، كما ان لا فكرة عنده عن الوضع القائم في الملحقات . عرف ستالين البلاد واوضاع الزراعة من خلال الافلام التي اعتاد مشاهدتها . وقد ابرزت هذه الافلام وجملت كثيراً ، حتى الزيف ، الوضع السائد في هذا المجال .

وكم من فيلم صور الحياة في المزارع الريفية ومائدة المزارعين مثقلة باطباق الاوز والديك الرومي ! وبالطبع ، اخذ ستالين الخيال حقيقة والظل واقعاً . نظرلئين إلى الحياة نظرة تختلف تماماً عن نظرة ستالين اليها ، اذ كان اكثر منه اتصالاً بالشعب وحياة الريف بعد ان ألف استقبال مندوبين عن الفلاحين وسكان الارياف . وكان يحادث المزارعين ، ويتحدث إلى تجمعات العمال في المصانع .

اما ستالين فقد عزل نفسه تماماً عن الشعب ولم يخرج قط من المدينة ولم يزر أي منطقة من مناطق البلاد وفواحيها ، وبقي على هذه الوتيرة عشرات السنين . ولعل آخر مرة زار فيها قرية كانت في كانون الثاني ١٩٢٨ ، عندما زار سيبيريا بحثاً عن طريقة لتأمين وصول المحاصيل . فكيف بالاطلاع على الأوضاع في الملحقات ؟

وعندما بلغه يوماً ، ابان البحث عن الوضع الحرج في الريف والصعوبات التي يعاني منها ، من حيث تربية البقر وتأمين اللحم للاستهلاك ، امر بتشكيل لجنة للتحقيق في هذا الوضع وتهيئة توصية بهذا الشأن تحت عنوان « الوسائل الكفيلة بتطوير تربية الماشية في المزارع والتعاونيات » .

وغني عن القول ان الاقتراحات التي قدمتها اللجنة المذكورة لم تستفد كل الامكانيات الا اننا فصلنا على ضوء الخرائط والرسوم الاساليب التي يجب اعتمادها لتطوير اساليب تربية الماشية . واقترحنا فيما اقترحناه رفع اسعار هذه المحاصيل تشيظاً للمنافسة بين المزارعين في مجال تربية الماشية . غير ان مشروعنا رفض ولم يعمل به ، ووضع جانباً للحفظ في شباط ١٩٥٣ .

ولعل ما هو انكى من هذا كله وادمى للقلب ، ان ستالين اقترح ، وهو يتفحص هذا المشروع ويقلب فيه النظر ، رفع الرسوم التي يدفعها المزارعون وعمال التعاونيات بحيث تصل في رأيه إلى ٤٠ مليار من الروبلات ، ففي رأيه ان وضع الفلاحين المادي جيد ولا يحتاج العامل في هذه التعاونيات إلى دفع الرسم الجديد المفروض عليه سوى بيع فراخ معدودة من الدجاج وينتهي الأمر . تصوروا هذا المراء . فالاربعون مليار روبل هو مبلغ لا يمكن للعمال المزارعين ان يؤمنوه حتى او باعوا من الحكومة كل المحاصيل التي ينتجونها . ففي ١٩٥٢ مثلاً تلقى عمال المزارع والتعاونيات ٢٦,٢٨٠ مليون روبل ثمناً للمحاصيل التي باعوها من الحكومة . هل كان ستالين يعتمد اذ ذاك على اية معطيات من اي نوع ؟ بالطبع لا .

فمن تكون هذه حاله لا يكثرث بالطبع للوقائع او للارقام . فاذا ما نطق ستالين بشيء وجب اعتبار هذا الشيء حقيقة : أفلم يكن عبقرياً ؟ والعبقري لا يحتاج لعد او حساب ! فنظرة واحدة منه تكفي ، وسرعان ما يحضر الحل المنتظر . وعندما يعبر العبقرى عن آرائه ويفصح عن خواطره ، فعلى الكل ان يصدقوه ويؤمنوا به ويطوروا حكمته .

ولكن كم من الحكمة يخفي اقتراحه بزيادة ٤٠ مليار روبل على الرسوم الزراعية ؟ لا شيء ، قطعاً . لا شيء لان الاقتراح لم ينهض قط على تقييم صحيح

للوضع القائم ، بل على افكار سديمية او خيالية تخطر لرجل بينه وبين الحقيقة ما بين الثريا والثرى . لقد اخذنا الآن نسير بتوذة للخروج من الوضع الزراعي الحرج ، والخطب التي القاها الموفدون إلى المؤتمر العشرين شرحت صدورنا وشفت آذاننا عندما راح الخطباء يعلنون ويصرحون عالياً ان هنالك امكانيات لتحقيق خطة السنوات الست لتحسين اوضاع تربية الماشية ، ليس في فترة خمس سنوات ، بل خلال ستين او ثلاث سنوات . نحن على يقين تام ان اهداف الخطة الخمسية ستحقق بنجاح كامل (تصفيق متصل) .

ايها الرفاق ، حين نندد اليوم بعبادة الشخصية نقداً شديداً ، هذه العبادة التي استفحل امرها في عهد ستالين واستشرى ، وحين نستعرض هنا الظواهر السلبية العديدة التي جاءت بها هذه العبادة الغربية عن الروح الماركسية اللينينية ، فلا بد من ان يهب بعضهم ويسأل : « هل يمكن ان يحدث ذلك ؟ كان ستالين على رأس الحزب والدولة مدة ثلاثين سنة وتحققت في عهده نجاحات كثيرة ، فهل من ينكر ذلك عليه ؟ » وفي رأبي ان سؤالا من هذا النوع لا يصدر الا عن من أصيبوا بالعمى المطبق او اخذوا ، دون اي امل بشفائهم ، بسحر عبادة الشخصية ، او عن جماعة فاتها الكثير من جوهر الثورة والدولة السوفياتية ، او عن اولئك الذين لا يدركون ، من وجهة النظر اللينينية ، الدور المترتب على الحزب وعلى الأمة في العمل الدائب لتطوير المجتمع السوفياتي .

ان الثورة الاشتراكية حققتها الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين الفقراء ، مع شيء من مساهمة الطبقة الوسطى من المزارعين . حققها الشعب تحت قيادة الحزب البلشفي . والخدمة الكبرى التي اسهم بها لينين واداءها للحركة تقوم اصلا بانشائه حزباً مناضلاً ركيزته الأولى الطبقة العاملة . وكانت عدته الكبيرة في هذا كله التفهم الصادق للتطور الاجتماعي وفقاً للمبادئ التي وضعتها الماركسية ، وادراكه التام للانتصارات التي حققتها البروليتاريا على الرأسمالية ، فارسي قواعد هذا الحزب في اخرج الاوقات التي عرفت بها الجماهير الشعبية في نضالها الثوري . وخلال هذا النضال حرص الحزب على الدفاع بثبات عن مصالح الشعب واصبح قائده المحنك . ورفع الطبقات الكادحة إلى الحكم ، وذلك بتأسيسه اول دولة اشتراكية .

كلكم يذكر جيداً كلمات لينين الرشيدة عندما يؤكد ان الدولة السوفياتية منيعة الجانب ، وما عليه شعبها من وعي وتفتح ، وان التاريخ تصنعه الملايين وتسجله عشرات الملايين من الناس .

حققنا ما حققناه من انتصارات خالدة عبر الاجيال بفضل العمل التنظيمي الذي

قام به الحزب ، وبفضل المنظمات العديدة التي قامت في الملحقات وبالتنصحيات الغالية التي بذلتها بسخاء امتنا العظيمة . جاءت هذه الانتصارات نتيجة محتومة للاندفاع العظيم وللنشاط البناء ، تقوم بهما الأمة والحزب كوحدة متكاملة . فهي ليست حصيلة قيادة ستالين ، كما صوروا لنا الوضع في الفترة التي استشرت فيها عبادة الشخصية .

فاذا ما اردنا ان ننظر إلى هذا الأمر نظرة الماركسيين واللينينيين إلى الأشياء ، كان علينا ان نقرر ، دونما لبس او غموض ، ان ممارسة القيادة على الشكل وبالطريقة التي نهض بها ستالين في السنوات الاخيرة من حياته كانت حائلا كبيرا في سبيل التطور الاجتماعي في الاتحاد السوفياتي .

كثيراً ما كان ستالين يرجئ إلى بضعة اشهر معالجة قضايا هامة طرأت بصورة غير متوقعة ، تتعلق بحياة الحزب ومصير الدولة ولا يجوز التسويف بحلها . ففي عهد ستالين ، كثيراً ما تعرضت علاقاتنا السلمية مع الدول الاخرى للخطر ، لان القرارات الصادرة عن فرد واحد قد تجر ، وكثيراً ما جرت إلى ، تعقيدات محرجة .

ففي السنوات الاخيرة ، عندما اخذنا الاجراءات للتحرر من عبادة الشخص الضارة وخطونا خطوات صادقة في تركيز سياستنا في الداخل والخارج ، على السواء ، رأى كل واحد منكم وشاهد كيف دب النشاط في المرافق العامة ، وكيف كان لهذا كله تأثير ظاهر على تطوير الحركة الاقتصادية والفكرية عندنا (تصفيق) .

قد يوجه بعض الرفاق اسئلة البنا قائلين : اين كان اعضاء المكتب السياسي في اللجنة المركزية ؟ لماذا لم يثبتوا وجودهم ويقفوا في وجه عبادة الشخصية ؟ ولماذا لم يتم هذا كله الا الآن ؟

علينا بادئ الأمر ان نفهم جيداً هذا الواقع ، وهو ان اعضاء المكتب السياسي نظروا إلى هذه الموضوعات نظرة مختلفة في ظروف مختلفة . وقف العديد منهم ، في اول الامر إلى جانب ستالين وعضدوه ، لان ستالين كان اكثر الماركسيين قوة وله من شدة البأس والارادة الصلبة ما يؤثر عميقاً على ملاكات الدولة ونشاط الحزب .

من الثابت ان ستالين فاضل بنشاط ، بعد موت لينين ، ولاسيما في السنوات الأولى التي عقت هذه الوفاة ، ضد معارضي نظريات لينين وضد الذين انحرفوا وابتعدوا عنها . فبالنظر للمبادئ والنظريات التي قال بها لينين وعلم ، اخذ الحزب ولجنته المركزية في تطبيق سياسة تصنيع البلاد تصنيعاً اشتراكياً على نطاق واسع ،

وتطبيق النظام الجماعي في مجالات الزراعة والثورة الفكرية . وفي الوقت ذاته ازداد ستالين شعبية وتعاطفاً كما اشتدت معاضدة الشعب له . فكان على الحزب ان يكافح ضد هؤلاء الذين يحاولون جر البلاد خارج الخط الذي وضعه لها لينين وان يناضلوا دونما هوادة ، ضد التروتسكيين والزيفيين وانصار اليمين والوطنيين البورجوازيين . لم يكن بد من هذا الكفاح . وبعد ذلك ، راح ستالين ، عندما اخذ يمينه اكثر فأكثر استعمال السلطة وتجاوزها ، يقضي على اعضاء الحزب البارزين وقادة البلاد في الحكم ، ويستعمل وسائل الارهاب والتخويف ضد الشرفاء من افراد الشعب السوفييتي . وقد صفى ستالين ، كما سبق لنا ان قلنا ، اشخاصاً بارزين في البلاد ، كانوا من اعضاء الحزب او من القادة في الحكم والادارة ، امثال كوسبور ورودزونيك ، وايبخ ، وبوستيشيف ، وغيرهم . وكان من نتائج المحاولات التي بذلت للتصدي لهذه الشكوك التي لا اساس لها والتي كانت تنتاب ستالين ، وقوع المعارضين والمناهضين فريسة سائغة للتعذيب والتكيل . وخير مثال على ذلك القضاء على الرفيق بوستيشيف .

ففي احد خطبه ، اعرب ستالين عن عدم رضاه على بوستيشيف وسأله قائلاً :

« ماذا انت فعلاً ؟ »

فأجابه بوستيشيف على الفور : « انا بلشي ، ايها الرفيق ستالين ... بلشي . » يبدو لاول وهلة ان الجواب ينضح بعدم الاحترام لستالين ، ثم اعتبر فيما بعد كبادرة مسيئة ، مما ادى إلى تصفية بوستيشيف وارهاقه بالاتهامات الباطلة وابرازه للجميع « عدواً للشعب » .

ففي الارضاع التي استقرت عليها الأمور اذ ذاك ، تابحت مع نيقولاي الكسندروفيتش بولغانين مراراً . وذات مرة ونحن مسافرون معاً في سيارة واحدة ، قال : « اتفق مراراً ان يجتمع احدهم بستاين بناء على دعوة منه كصديق . وكان عندما يجلس في حضرته ، يجهل تمام الجهل هل تكون الخطوة التالية البيت او السجن ! »

من الواضح ان وضعاً كهذا كان يجعل كل عضو من اعضاء المكتب السياسي في موقف حرج جداً . وعندما لاحظنا ان اللجنة المركزية لم تعقد في السنوات الاخيرة اي اجتماع عام لها ، وان جلسات المكتب السياسي لا تعقد الا لماماً من وقت لآخر ، ادركنا فعلاً الصعوبة التي يلاقها كل عضو من اعضاء المكتب المذكور عند اتخاذ موقف معيناً من هذه القضية او تلك وبقطع النظر ما اذا كان الاجراء المتخذ ظالماً او غير ملائم ، او ضد الاغلاط التي بدرت ، والشوايب التي تلازم تصرفات القيادة .

وكما قلت سابقاً ، كانت القرارات تؤخذ من قبل فرد واحد او بطريقة غير مباشرة ، بعيداً عن كل مناقشة عامة . والمصير المشؤوم الذي صار اليه عضو المكتب السياسي ، الرفيق فوزننسكي الذي ذهب ضحية عمليات ستالين التطهيرية ، امر يعرفه الجميع . والشيء الثابت الذي يطبع هذه القضية ويميزها ان المكتب السياسي لم يبحث قط مسألة فصله من عضويته ، بل ان القرار اتخذ بطريقة ملتوية . وعلى هذا الشكل تم اقضاء كوزنتسوف وروديونوف عن مناصبهم . وانتقص شأن المكتب السياسي إلى حد بعيد ، واختل نظامه وتخلخل عمله بعد تأليف لجان مختلفة من اعضائه عرفت « بالحماسية او السادسة او السباعية او السباعية او التساعية » . واليكم مثلاً ، احدى توصيات المكتب السياسي اتخذها في ٣ تشرين الأول ١٩٤٦ :

اقترح ستالين :

- ١ - اللجنة السادسة للشؤون الخارجية في المكتب السياسي ، يعهد اليها في المستقبل ، الاهتمام ، إلى جانب الشؤون السياسية ، بالنظر في القضايا المتعلقة بالبناء الداخلي والسياسة الداخلية .
- ٢ - على اللجنة السادسة ان تضيف إلى هيئة مكتبها ، رئيس لجنة الدولة للتخطيط الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي الرفيق فوزننسكي ويجب ان تسمى ، اذ ذلك اللجنة السباعية .

التوقيع : سكرتير اللجنة المركزية ، ج . ستالين .

يا لها من مصطلحات ومسميات هي اقرب إلى مصطلحات لاعبي البريدج (ضحك في القاعة) . فمن الواضح ان ايجاد مثل هذه اللجان داخل المكتب السياسي كالحماسة والسادسية والسباعية والتساعية ، يناقض تماماً مبادئ القيادة الجماعية . وبهذه الطريقة ، كان بعض اعضاء المكتب السياسي يجدون انفسهم محرومين من المشاركة في بحث ومناقشة اهم القضايا المتعلقة بالدولة .

فقد وجد اقدم عضو من اعضاء المكتب السياسي ، هو الرفيق كليمانت فوروشيلوف ، نفسه في وضع لا يطاق . اذ اصبح ، لعدة سنوات ، محروماً من حقه المشروع في حضور جلسات المكتب السياسي ومناقشة القضايا الهامة المعروضة على بساط البحث . فقد منعه ستالين من حضور جلسات المكتب ومن الاطلاع على اي وثيقة او على اوراق اي معاملة . وعندما كان يصله خبر انعقاد جلسات المكتب ، كان يتلفن في كل مرة ويسأل ما اذا كان يسمح له بالحضور . وكان ستالين يسمح له بذلك احياناً ، الا انه كثيراً ما كان يبدي امتعاضه منه وعدم استمراج رأيه في شيء . ولما كان ستالين شديد الشكوك والارتياب بالناس ، فقد

زين له الوهم ان فوروشيلوف قد يكون جاسوساً انكليزياً (امتعاض في القاعة) .
نعم ، جاسوس انكليزي ، وذلك لوجود جهاز خاص في منزله يسمع به كل ما يقال هناك .

وبقرار اتخذه وحده ، استطاع ستالين ان يحول دون مشاركة احد اعضاء المكتب السياسي الرفيق اندريه اندرييف في اعمال المكتب ومناقشاته . هذا مثل على ما بلغه سوء مقاصده الشريرة من فجور وشذوذ .

لننظر ملياً في الجلسة العامة التي عقدتها اللجنة المركزية في إثر مؤتمر الحزب التاسع عشر . فقد راح ستالين في الخطاب الذي افتتح به الاجتماع يتحدث عن ميخائيلوفتش مولوتوف ، وانستاس ميكويان ، وافترض ان هذين العضوين القديمين من اعضاء الحزب ارتكبا مخالفات وبدرت عنهما اخطاء وذنوب لا تنهض على اساس . وليس من المستبعد قط انه لو بقي ستالين ماسكاً بالدفة لبضعة اشهر اخرى ، لما كان في مقدور الرفيقين مولوتوف وميكويان القاء كلمة في هذا المؤتمر !

كان ستالين على ما يبدو قد اتخذ قراراً بوضع حد لعضوية الاعضاء القدامى في المكتب السياسي ، اذ كان يصرح دوماً بوجود حلول اعضاء جدد محل الاعضاء القدامى .

والاقتراح الخاص الذي تقدم به ، بعد المؤتمر التاسع عشر لانتقاء ٢٥ عضواً جديداً للهيئة العامة للجنة المركزية ، انما كان يرمي ، في الأصل لاستبدال القدامى من اعضاء المكتب السياسي باعضاء دونهم حنكة وخبرة وتمرساً بالامور ، بحيث يطرون الاعمال التي يأتونها .

وباستطاعتنا ان نوكد هنا انه وضع خطة لاسقاط عضوية قدامى الاعضاء في المكتب السياسي في المستقبل الطالع ، وبذلك يغطي الاعمال الشائنة والمخجلة التي نحن في صدد النظر فيها .

ايها الرفاق ، تفادياً لاغلاط الماضي القريب ، اعلنت اللجنة المركزية بحزم انها ضد عبادة الشخصية . ونحن على يقين وطيد ان ستالين أطري اكثر من اللازم بكثير . الا ان ستالين سجل ، فيما مضى ، مآتي عظيمة ، وادى للبلاد وللحزب خدمات جلى ، وللطبقة العاملة وللحركة العمالية الدولية كذلك .

ومما يزيد في تعقيد هذا الوضع ان جميع هذه القضايا التي نظرنا فيها واشبعناها بحثاً ، تمت كلها في عهد ستالين ، وتحت قيادته وبمساندته ، اعتقاداً منه بضرورة سلوك هذا المسلك ، دفاعاً عن مصالح الطبقات الكادحة ضد اعدائها الذين يتآمرون عليها ، ودرءاً منه لهجمات المعسكر الامبريالي . نظر إلى هذه

الأمور من خلال مصلحة الطبقة العاملة ، واني ما أتاه لخير الشعب العامل ولتأمين افوز النهائي امام الاشتراكية والشيوعية . ولا يحق لنا قط ان نصف هذه الاعمال باعمال رجل مستبد ثمل . فهو رأى ان يفعل وان يسلك هذا السبيل لخير الحزب وخير الجماهير الكادحة بحجة الدفاع عن مكاسب الثورة والنجاحات التي حققتها . هنا تكمن المأساة كلها !

كثيراً ما شدد لينين مؤكداً ان التواضع يجب ان يكون من الزم صفات البلشفي . فقد كان لينين في حياته واعماله خير من جسد عظمة الاحتشام والتواضع . هل يمكن القول وهل يصح الادعاء باننا سرنا في اثر لينين من جميع الوجوه . ويكفي ان نشير هنا الى ان العديد من المدن والمصانع والمنشآت الصناعية ، ومؤسسات الكونخوز ، وغيرها من المؤسسات السوفياتية والثقافية اصبح يشار اليها كأنها - اذا صح التعبير - املاك خاصة لهذا او ذاك من قادة الحكومة او الحزب الذين كانوا لا يزالون على نشاطهم وبصحة جيدة . كثيرون بيننا ساهموا بربط اسمائهم ببعض المدن ، وبعض المشاريع ، وبعض الكونخوزات . والآن علينا ان نصصح هذا كله . (تصفيق) . وعملية التصحيح هذه يجب ان تتم بهدوء وعلى مهل . وستدرس اللجنة المركزية هذا الأمر وتنظر فيه بكل دقة واعتناء تفادياً للغلط والشطط او للافراط والتفريط . تخضرن في الذكرى الآن كيف تلقت اوكرانيا خير توقيف كوسبور . فقد اعتادت محطة اذاعة كييف افتتاح برنامجها الاذاعي هكذا : « هنا اذاعة كوسبور » وعندما ابتدأت المحطة اذاعتها دون ان تسمي كوسبور ، عرف الجميع ان شيئاً ما وقع لكوسبور ، وانه زج به في غياهب السجن .

فاذا ما اخذنا نزيل من اليوم هذه المعالم او الاشارات في كل مكان ، بادر الناس إلى التمول ان هؤلاء الرفاق الذين شيدت هذه المباني على شرفهم ، من كونخوزات ومدن تحمل اسماءهم ، حل بهم القضاء المحتوم وصدرت الأوامر بتوقيفهم (حماسة في القاعة) .

وكيف كانت تقدر سلطة هذا الزعيم او ذاك وقيمته ؟ كانت تقدر بالنسبة لعدد المدن والمنشآت الصناعية والمصانع والتعاونيات الزراعية التي تحمل اسمه ؟ . اليس في سبيل الزمن نلغي هذا « العقار الخاص » ونؤمم هذه المصانع ، وهذه المشروعات الصناعية والتعاونيات الزراعية والكونخوزات ؟ (ضحك وتصفيق وارتفاع المتافات قائلة : « هذا صح ») . من شأن هذا كله ان يعود بالخير على قضيتنا . فعبادة الشخصية تتجلى بهذه الطريقة ايضاً .

علينا ان ننظر باهتمام كلي إلى قضية عبادة الشخصية . لن نترك هذه القضية تغلق من يد الحزب لتتولاها الصحافة على الاخص . ولهذا السبب عينه ندرس

الامر هنا ، في جلسة سرية لهذا المؤتمر . علينا ان نراقب الحدود ، كما علينا ان لا نمدّ الاعداء بالذخيرة ، ولا ان نغسل ثيابنا القذرة امام عيونهم . وعلى ظني ان الوفود إلى هذا المؤتمر تفهمني جيداً وتقر كل هذه الاقتراحات بصورة ملائمة (تصفيق داو) .

ايها الرفاق علينا ان نلغي عبادة الشخصية بحزم ولمرة واحدة كما علينا اتخاذ التوصيات الملائمة بصدد كافة اعمالنا الايديولوجية - النظرية والتطبيقية على حد سواء .

ان هذا الأمر ضروري جداً للأسباب الآتية :

اولاً: على الطريقة البلشفية : ان نشجب ونلغي عبادة الشخصية باعتبارها غريبة عن الماركسية اللينينية ، ولا تتفق بشيء مع مبادئ قيادة الحزب والقواعد التي نهض عليها حزبنا . ولنحارب دونما هوادة كل المحاولات لاهياء هذه العبادة بشكل او بآخر . لنعد ولنمارس فعلاً في نشاطنا الفكري ، أهم المبادئ التي توصي بها الماركسية اللينينية حول الشعب بوصفه صانع التاريخ ، وخالق كل ما هو صالح للجنس البشري مادياً وروحياً ، وحول الدور الحاسم الذي يلعبه الحزب الشيوعي في النضال الثوري ، في سبيل انتصار وقولة المجتمع الشيوعي .

يترب علينا ان نبذل جهداً اكبر في هذا المجال لنتمكن من النظر في المبادئ الفاسدة الخاصة بعبادة الشخصية الواسعة الانتشار بيننا وفحصها من وجهة نظر الماركسية اللينينية واصلاحها . كل ذلك في اطار التاريخ والفلسفة والاقتصاد والعلوم الاخرى ، وفي اطار الادب والفنون الجميلة . ومن الضرورة القصوى بمكان ان نأخذ العدة في المستقبل القريب ، لوضع كتاب رصين يسجل تاريخ الحزب - وينشر وفقاً للموضوعية الماركسية العلمية ، كتاب يورخ للمجتمع السوفياتي ، كتاب يروي للأجيال الطالعة ، حوادث الحرب الاهلية ، والحرب القومية الكبرى .

ثانياً : للمضي ، بمنهجية واتساق ، في العمل الذي حققته اللجنة المركزية للحزب ، خلال السنوات الاخيرة ، وهو عمل تميز بدقة الملاحظة في منظمات الحزب ، صعوداً ، من القاعدة إلى القيادة ، وفي المبادئ اللينينية التي تفهمها قيادة الحزب والتي تتميز قبل كل شيء وفوق كل شيء بالمبدأ الاساسي الذي يقول بالقيادة الجماعية ، كما يتميز بتطبيق القواعد التي نهض عليها نشاط الحزب وفقاً للدستور الحزب ، ويتميز اخيراً بالتقيد الدقيق العميق وعلى الاخص بالنقد الذاتي .

ثالثاً : احياء المبادئ اللينينية احياء كاملاً . هذه المبادئ التي قامت عليها الديمقراطية الاشتراكية السوفياتية ، كما هو منصوص عليها في دستور الاتحاد

السوفياني، والتصدي للمقاصد الشريرة ومكافحة سوء استعمال الافراد لسلطاتهم وصلاحياتهم . وهذه الشرور التي نجمت عن انتهاك العدالة الاشتراكية الثورية ، والتي نجمت وتراكمت بعضها فوق بعض منذ عهد بعيد نتيجة سلبية لعبادة الشخصية، يترتب علينا تصحيحها وازالتها. ايها الرفاق ، اتى المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياني بالدليل القاطع وبكل قوة ، على وحدة الحزب التي لا تتزعزع وبرهن عن تماسكه مع اللجنة المركزية ، وعن ارادته الحازمة في تشييد صرح الشيوعية العظيم (تصفيق حاد) . ان وجودنا هنا لدرس المشاكل الناتجة عن عبادة الشخصية في شتى شعباتها ، هذه العبادة الغريبة عن الماركسية اللينينية ولتصفية نتائجها المرزحة . كل هذا برهان ساطع على ما لحزبنا من قوة مناقبية وسياسية (تصفيق متواصل) .

نحن على يقين تام بان حزبنا الذي تدرع بالتوصيات التاريخية التي طلع بها المؤتمر العشرون للحزب ، سيقود الشعب السوفياني في الطريق التي عبدها له لينين ليحقق له نجاحات جديدة وانتصارات جديدة (تصفيق حاد متواصل) .
ليعيش إلى الأبد علم حزبنا المظفر : اللينينية . (تصفيق حاد متصل وهيجان ، وهتاف . الكل وقوف) .



خروشوف الفنى



خروشوف مع زملائه في معهد عمال يوزفكا في مطلع ١٩٢٠ (وهو الثالث من اليسار في الصف الامامي)



کراسین ، مولوتوف ، ویانوکیلز الی جانب شمال نصفی للین (کانون الاول ۱۹۲۴)



مع زملائه العمال في دونباس





ستالين سنة ١٩٣١



عروشوف في مطلع ١٩٣٠ عندما بدأ نجمه يتألق .

في موسكو مع مندوبي مقاطعة برسنيا الحمراء (١٩٣١)





مع ستالين في اول ايار ١٩٣٢

سيرجو اوردزونيكيدز (الى اليسار) وستالين الى اليمين





ستالین ، مولوتوف ، کاغانوفیتش ، واوردزنیکیڈز



کالینن ، کاغانوفیتش ، اوردزنیکیدز ، ستالین ، فوروشیلوف

فوروشیلوف مع ستالین





مولوتوف مع ستالين

مولوتوف وخروشوف وستالين في احد استعراضات اول ايار (ربما سنة ١٩٣٤)





محيًا الناس





يتفقد اعمال المترو في موسكو (١٩٣٠)





في اجتماع حزبي (١٩٣٠)



فورشيلوف وبيريا



في قاعة الاعمدة في موسكو

مع بولغاين باللباس المنغولي الوطني





في اوكرانيا ١٩٣٠

عندما كان عضو لجنة مدينة موسكو قبل سنة ١٩٣٨





فرروشیلوف



مع الجنرالين بايشف وموسكالكو



فورونيزه في ١٤ تموز ١٩٤٣ مع الجنرال اباناسكو (الى اليسار) روتمنروف (الى اليمين)
فورونيزه في ٧ تشرين الثاني ١٩٤١ : الجنرال تيموشنكو والكرولونيل بغراميان الى يمين خروشوف .



مع فاسيلي ستالين سنة ١٩٤١
(او ربما ١٩٤٢)



على جبهة ستالينغراد في تشرين الاول ١٩٤٣ مع الجنرال بيرينكو واركان حربيه



في مشاورات مع
مجموعة من الضباط



على جبهة فوروينزيه (تموز ١٩٤٣)



مع الجنرال مالبوفسكي سنة ١٩٤٣ (او ربما ١٩٤٤)



مع مجموعة من كبار الضباط في كانون الثاني ١٩٤٤



قرب كييف في تشرين الاول ١٩٤٣



في روستوف يوم حررت في ١٨ شباط ١٩٤٣



يوم حررت خاركوف آب ١٩٤٣



- كييف في تشرين الثاني ١٩٤٣



في اوكرانيا بعد تحريرها سنة ١٩٤٣



التمير بعد الحرب (١٩٤٦)



مع كاغانوفيتش (الوسط) ومانبولسكي وزير خارجية اوكرانيا .
اخذت الصورة في اوكرانيا بين ١٩٤٦ و ١٩٤٧



مع ابنته الصغرى هيلين في بارك غوركوي في موسكو ١٩٤٥



مع زوجته نينا يتروفنا في كييف سنة ١٩٤٤ .



ستالين وابنه سفتلانا .



في حفلة ازاحة الستار عن تمثال للينين قرب موسكو سنة ١٩٥٠



عائلة خروشوف سنة ١٩٤٧ . في الصف الخلفي جوليا (ابنة خروشوف من زوجته الاولى غالينا) ووردا
في الصف الثاني جوليا ابنة ليونيد ابن خروشوف الذي قتل اثناء الحرب . وسيرجي ثم نينا بتروفنا
وخروشوف . في الصف الاول : هيلين ومعها رفيقة غير معروفة هويتها .



خروشوف وزوجته مع اولادهما هيلين وسيرجي وجوليا ووردا وزوجها (الصورة في اوكرانيا) .



في الصين سنة ١٩٥٤ . خروشوف وبولغانين على مطار كاتون .



ماونسي تونغ وخروشوف وميكويان .

خروشوف و غومولكا
بولونيا سنة ١٩٦٠



يوغوسلافيا سنة ١٩٦٣
السيدتان تيتو وخروشوف



السيدة خروشوف
مع كادار في المجر





خروشوف وبولغادين في الهند مع نهرو والزعماء الهنود سنة ١٩٥٥



اثناء حفلة صيد قرب كييف : مع بودغورني وغومولكا (٢٢ كانون الاول ١٩٦٢)



خروشوف يرحب برائد الفضاء تيتوف في آب ١٩٦١ على مطار فنوكوفو



مولونوف



بيريا



ميكويان



مالسكوف كاغانوفيتش





خروشوف و کاسترو بعد از مه الصواربخ سنة ۱۹۶۲



الصورة الرسمية ١٩٦٣

████████████████████

« خروشوف يتذكر » ، تاريخ فريد من نوعه . لم يسبق طيلة الستين الخمسين الاخيرة ان نقل الينا أحد من زعماء الاتحاد السوفياتي هذه الصورة الواضحة عن حياة روسيا السياسية منذ قيام الثورة سنة ١٩١٧ . ولما تسنى لاحد حتى الآن دخول حلقة السلطة في الكرملين ونقل للعالم الخارجي كل ما جرى هناك ، بصدق وامانة ، كما يفعل خروشوف في هذا الكتاب . في هذه الصفحات يعطينا خروشوف نظرات واضحة عما جال في عقول قادة السوفيات وعن مكانن الضعف والقوة لدى اقرانه الذين قادوا الاتحاد السوفياتي والعالم الشيوعي في السنوات الخمسين الاخيرة : من ستالين إلى بولغانين وبيريا وفوروشيلوف ومالنكوف وجوكوف ومولوتوف وميكويان وكاغانوفتش وغيرهم .

« خروشوف يتذكر » ، هو عمل ضخم للانسان الذي فتح الاتحاد السوفياتي على العالم ونقل روسيا إلى القرن العشرين .

ادوار كرانسكو ، الذي وضع مقدمة الكتاب والتعليقات والملاحظات ، يعتبر من اكثر الغربيين اطلاعاً ومعرفة بالحياة الروسية . فقد عاش في روسيا واوروبا الشرقية مدة طويلة كمراسل للاوبزرفر . وقد سبق له ان كتب قصة حياة خروشوف، سنة ١٩٦٦ ، وله ثلاثة مؤلفات عن الحياة في الاتحاد السوفياتي .

أما ستروب تالبوت الذي نقل الكتاب عن الاصل الروسي ، فهو اختصاصي في ادب القرنين التاسع عشر والعشرين الغربيين (بما في ذلك الأدب الروسي) .